حيـــــــاة

الادب الفلسطـــيـــني الحــــديث

حـــتى النكبـــــة

رسالة لنيل درجة الدكتوراه

من

جامعة القاهرة ـ قسم اللغة العربية

يتقدم بها الطالب : عبد الرحمن عبد الوهاب ياغي

باشــــراف : الاستاذة الدكتورة سهير القلماوى .

١٩٦٠

فهـــــرســـــت

مقدمة

صلتي بالبحث :

منذ ان تألفت لجنة الثقافة العربية في فلسطين سنة ١٩٤٥ اتجهت نفسي الى رصد الحياة الثقافية في وطني ،وقد كان من أعمال هذه اللجنة ان نظمت سلسلة محاضرات تدعو فيها الى خدمة الثقافة العربية وتعمل ما وسعها في سبيل التعاون مع المؤسسات الثقافية في البلدان العربية .

وفي تشرين الاول عام ١٩٤٦ ،اقامت هذه اللجنة المعرض الاول للكتاب العربي الفلسطيني في نادى الاتحاد الارتوذكسي العربي في القدس .

" وقد خشيت اللجنة ان ينتهي المعرض في العشرين من تشرين الاول سنة ١٩٤٦ ، وينتهي بانتهائه تفكير الناس في اجل ناحية من نواحي حياتهم، هي الناحية الثقافية ." ولذلك رأت ان تصدر كتابا يشتمل على اسماء الكتب والمؤلفين وسنوات الطبع لتسجيل النشاط الفكرى والادبي في نصف القرن الاخير، ليكون " اكثر ثباتا ،وابعد اثرا من المعرض نفسه "

منذ ذلك اليوم وأنا أتلمس الدروب التي سلكتها الحياة الثقافية في فلسطين .. وأمضي في تلك الدروب فأجد وطني يشارك في عملية بناء التراث العربي مشاركة صادقة جادة .. وأرى أستاذا أثيرا لدّى يثير هذا الموضوع، ويحب ان يتتبع جذوره .. فيذيع على الناس ان " الحياة الثقافية في فلسطين حقيقة واقعة " .. ويكتب في الصحف.. ويحاضر في الاندية ليكشف الحجاب عن الانظار .. ويشجع تلاميذه على بذل الجهود في كشف هذا الجانب من التراث العربي .. ويبيّن للناس أن "القطرات لم تنقطع، والاذهان لم تتوقف، حتى في أشدّ الظروف قسوة " . ويقول : "فنحن اذن، لا نتكلف انتحال حياة مفقودة ، ولا تجميل وجه بشع ، وانما نبرز حياة اصيلة ، وننظمها على وجه يكفل لها الظهور امام كل عين . " .. ثم يقوم على تنظيم هذا المعرض وتسجيل هذا النشاط ليجعل الرقم ينقل للناس تلك الحقائق الناصعة الناطقة لئلا يتهموه بالمبالغة .

وتعيش هذه الدعوة في نفسي .. وتبقى اصداؤها في صدري بعد الفراغ من التحصيل في المرحلة الثانوية .. وتمضي الحياة بي .. وتعصف بالوطن عواصف لم تعصف مثلها بوطن آخر .. واذا الام لا تجد ابنها .. والرجل لا يجد زوجه .. والاخ يفقد أخاه .. واذا الحياة تتمزق أشلاء في نواح مشتتة ، واذا الامر ينتهي عند هذا الحطام المتناثر من حياة هذه الامة .. حيث تذهل كل مرضع عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها .. ويشغل الناس بالفناء عن الحياة ..

ثم يعمق الجرح .. ويفتح الناس اعينهم فلا يجدون أثرا من آثار تلك الحياة .. لقد عصفت بها النكبة فيما عصفت ... وتعود تلك الاصداء البعيدة تتجدّد في صدري .. ولكن أنّى لنا بتلك الصورة التي حملتها الارقام الاولى حين نقلها لنا وتنذات الكتاب العربي الفلسطيني .. واذا الذي بقي من تلك الصورة ليس الا هيكلا معروفا .. لم يبق لنا الا ذلك الهيكل .. اسماء تلك الكتب ليس غيـــر . واذا الاحياء من الادباء والمفكرين يفقدون حتى قدرتهم على تذكر ما كتبوه ... واذا احدهم لا يذكر لنفسه الا اسماء ثلاثة عشر كتابا بعد أن يكد نفسه ويجهد ذاكرته .. حتى اذا عدنا الى الفهارس والمجلات تبين لنا أنه ألّف أربعة وأربعين كتابا لا ثلاثة عشر فحسب .. واذا مطبعة واحدة في بيت المقدس — مطبعة جورج حنانيا — تطبع في الفترة الواقعة بين عامي ١٨٩٢ و ١٩٠٩ مائتين وواحدا وثمانين كتابا بالعربية وبعض اللغات الاوروبية ، لا نجد لها أثرا غير ذكر اسماء تلـــك الكتب ... ويعزّ علي أن تحتجب تلك الصورة عن الانظار ، وأن يشك فيها حـــتى أبناء البلاد أنفسهم ..

ولكنّ وسائل لملمة هذه الاجزاء المتناثرة من هذه الحياة لم تكـن متيسرة فانصرفت عنها وفي النفس غصة بل غصص !

ورحت أتلمس أحداثا فيها شيء من ذلك في اقطار أخرى ، فحضـرت رسالتي الماجستير عن القيروان وشاعرها ابن رشيق .. وكأنني حين عرضت للدمـــار الذي حل بالقيروان كنت اخفف عن نفسي ثقل المأساة التي تعتصرها .

ولكن عبء المسؤولية ظلّ يلاحقني ، فأخذت على نفسي عهدا أن الملم أجزاء تلك الصورة لعلي اخفف عن نفسي وعن نفس أستاذي الاول ثقل هذه المسؤولية ..

ولست أتلمس الاعذار تلمسا .. فعمل هذه ظروفه لن يكون تاما .. ولكنني حاولت جهدي أن استكمل ما يحدد الملامح الناطقة للصورة وأن أضع يدي على الخطوط الناقصة لعله أن يتاح لغيري القدرة على تحقيق ما افتقدتـــه .. ولعل الظروف أن تتغير فنظفر بالصورة كاملة ناطقة حية !

منهجـــــي :

حياة الادب في قطر من الاقطار صورة حية وانعكاس مضوّى للعملية الاجتماعية الكبيرة التي يمارسها المجتمع بمختلف فئاته من اقامة عـــلاقـــات متشابكة متداخله ومن بذل جهود متنوعة ومن مضيّ في اتجاهات صاعده اوغير صاعده .

وحين نعرض لحياة الادب ، انما نعرض لهذا التفاعل الذي ينتج عن حركة المجتمع بجميع طوائفه ...

ومنذ مطلع النهضه الحديثه اصبح الواقع العربي المتطور النامي هو المصدر الذى يمدّ الاديب بمادته الادبية ، واصبح الاديب يشعر بقداسة مسؤوليته القوميه والاجتماعيه والانسانيه .. واصبحت ثقافة المجتمع تتخذ طابعا متكاملا متطورا ناميا .. واصبح الناس في العالم العربي يحسّون بقيمة الثقافة عاملا موجها فعالا في حياة الامة .. واصبح الاديب يعنى بواقع الامة الاكبر ، هذا الواقع الذى يستمد وجوده من التطور العام للمجتمع في سياسته واقتصاده وفكره وفنه .. واصبحت الآفاق الادبية تصل وصلا واعيا بين التجربة الخاصه او الواقع الاصغر للاديب وبين التجربة العامة او الواقع الاكبر لمجتمعه .. واصبحت الافاق الادبيه الحديثه تصور لنا خطو هذا المجتمع نحو آفاق جديده ذات فضاء اوسع وحياة اكرم وانسانيه ارحب..

ولقد فتن الانسان المتفنن منذ وجوده الاول باجمل ما في الحياة.. بحركة النمو والتطور فيها .. وكانت فتنته تلك اشبه بفتنة الام حين تحس بحركة الجنين وصرخته التي تعلن حياته لحظة الميلاد الناجحه .. انها اكبر بشرى لديها مع ما يصحبها من الم .. انها تحس انها صانعة الحركة .. انها ام النمو.. انها تشهد التطور الذى تصنعه في احشائها ... وكانت فتنته تلك تشبه فتنة الطفل حينما يقف على عش فيه بيض يفقس فتأخذه تلك الظاهره ويقف مدهوشا فرحا بحركة الحياة التي تجرى بعينيه حين يرى صغار العصافير تكسر جدران البيض وتمدّ رأسها وتتحرك لتطلع على النور ... وكانت فتنته تلك تشبه فتنة الدجاجة حين تحس في داخلها بشيء ينمو .. ثم تراها حين يتم النمو ويتحرك ويخرج للحياه تكاد تملاء الدنيا ضجيجا فرحا بتلك الحركه .. انه مفتون حين يحس بحركة في نفسه تتشكل وتأخذ صورتها ثم تتحرك حيّه الوان تلدها هذه النفس فتتخذ طريقها الى الناس فيشاهد هذه الحركة تنمو وتتكاثر في صدور غيره .. انها الوسيلة التي تصله بالانسانية من حوله وصلا عميقا ..

الانسان الحي هو الانسان النامي المتطور المتفاعل بالظروف ، المؤثر فيها المتأثر بها .. حياته تنتهي بانتهاء حركته وتطوره ونموه .. فيسلم المشعل الى غيره ممن يقدرون على مواصلة الحركة والتطور والنمو حتى يحفظ على الانسانية حياتها ..

والادب او الثقافة بمدلول عام هو السيرة الحية لهذه الحركة الاجتماعية .. وهو نشاط اجتماعي وعامل من عوامل هذه الحركة .. يتقدمها لينير لها الطريق فيكون ادبا في اقوى حالاته ..

او يسايرها ويمشي في تناياها ليحينها على التقدم فيكون ادبا قويا ٠٠ او يرصد حركاتها ويسجل هذا النمو بشكل تقريرى فيكون في موقف "وذلك اضعف الايمان" او يقف منها موقف المثبّط المعوّق فيكون أدبا معوقا قاتما مضللا ٠٠٠

بهذه الدلالة للادب والثقافة تناولت حركة الحياة في فلسطين ٠٠ تناولتها منذ أن دبّت فيها الحرارة بسبب الاحتكاك ٠٠ وقام فيها الصراع بسبب موقعها من الاقطاع ومن الاستعمار حين حط عليها بصورة لم ير مثلها قطر من الاقطار ٠٠ واتخذت العمليات الاجتماعية فيها اتجاها معينا صبغ كثيرا من الاتجاهات الاخرى بلونه وطعمه وطابعه !

وسأبيّن أدوار هذه الحركة ٠٠ وأوضح دور الثقافة في تلك الادوار : ما كان منها عاملا من عوامل الانماء ٠٠ وما كان منها مجرد راصد يسجل هذه الحركة ٠٠ وما كان منها مجرد مصاحب في السير ليس غير ٠٠ وما كان منها معوقا ومضللا ٠

الحركة مباركة حين تكون صاعدة تتجه للنمو وتثمر ثمرة نافعة ينتفع بها الناس في طريقهم وتقدمهم ٠٠ لكن هناك حركات مدمرة كحركة السيل حينما يغدو طوفانا او حركة النار حينما تمتد السنتها لتلتهم كل ما في طريقها ٠٠ فالاستعمار حركة مدمرة والنضال حركة صاعدة ٠٠

من هنا أقمت تخطيط الرسالة على أسس تناسب مفهومي للثقافة والادب ٠٠ وجعلتها في مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة ٠

أتناول في المقدمة : صلتي بالبحث ، ومنهجي ، ومصادري ٠٠٠

واتناول في التمهيد : شخصية فلسطين الادبيه في التاريخ العربي ٠٠ والحدود المكانيه للبحث ٠٠ والحدود الزمانيه ٠٠٠ واتناول في الباب الاول : الظروف الاقتصاديه والاجتماعيه والسياسيه التي ادت الى النهضه الادبيه الحديثه في فلسطين ٠٠ وثم العوامل المباشره للنهضة فيها ٠٠ واتناول في الباب الثاني حياة الشعر فأعرض لامتداد التيار القديم ٠٠ ثم اضوّئ على البراعم الجديدة ٠٠ وارصد الصراع بين الاتجاهات الحديثه والاتجاهات القديمه ٠٠ ثم ابيّن ما جدّ من اتجاهات جديدة فيه ٠٠٠ وأتناول في الباب الثالث : حياة النثر بفنونه المختلفه فأوضح حركة النثر الفني في مراحله المتتابعه ثم حركة القصص في مراحلها المتتاليه ايضا ٠٠ ثم حركة النقد ثم حركة اللغة ٠

واختم موضوعي بالصورة الكليه التي انتهت اليها دراستي من تناول هذه الفتره في حياة هذا القطر العربي الصغير ٠٠٠

مصـــادري :

سيرة الادب في قطر من الاقطار اخصب لون من الوان الســـير تتفاعل فيها الاحداث وتتصارع الاتجاهات وتتشابك العلاقات .. وحياة الادب في فلسطين شأنها كسائر الحيوات للاداب الاخرى .. غير ان ما حلّ بالناس في هذا الوطن الصغير صرف النفوس عن حفظ تلك المواد الادبيه .. فحين تقتّل النفــوس ويفتك بالانسان ويفقد الفرد ماله واهله وبنيه ، لا يجد في نفسه نازعا من نوازع الابقاء على شيء آخر .. فلم ينفرد في جميع سكان هذا الوطن لم يفجع فـــي ماله واهله ونفسه ، فذهل الناس عن كل شيء حتى عن انفسهم .. واصبحت تلقـــى الكاتب منهم فلا يكاد يذكر شيئا من كتبه التي الفها بلــــه كتب غيره .. ومن هنا كانت الصعوبة في جمع اكبر مجموعة ممكنة سمحت بها الظروف من آثار الكتـــاب والشعراء مما تسرّب الى البلاد العربية المجاورة .. وغدا الجهد في جميع هذه الاثار يبلغ اضعاف الجهد في درسها وتقييمها .. ولقد بذلت ما في وسعي حتى جمعت من آثارهم ما يقيم بناء الحياة الادبية في فلسطين دون أن يتميز بالشمول لاثار كل واحد من اولئك الادباء او الشعراء .

ولقد كان للصلات القائمة بين فلسطين واخواتها الكبيرات نفع كبير في حفظ بعض ما تسرّب من مجلات وجرائد فلسطينية .. كمجلة النفــــائس العصريـــة لصاحبها خليـــل بيـــدس .. ومجلة الـــزهـــرة لصاحبها جميـــل البحـــــرى .. والمجلة التجـــاريـــة لمحررها توفيـــــق زيبـــــق .. والنفـــير لــــزكا .. وغيرها .

وما أحسب أن بحثا في الادب الحديث يمكن أن يستقيم بناؤه من غير الصحف والمجلات .. ومن هنا كانت صحف البلاد العربية المجاورة مصـــدرا اساسيا مدّني بكثير مما امتدت اليه يد الفناء في فلسطين .. فحينما كنت اجد اشارة الى موضوع ما في صحيفة فلسطينية واحس باهمية الموضوع المشار اليه ينكأ ذلك الامر جرحا عميقا من جراحات النكبة في نفسي .. ويهون الامر بعض الشيء حين اقع على الموضوع نفسه منقولا في احدى المجلات في بلد عربي شقيق كموضوع " خصائص الادب والادباء " مثلا وقد نقلته " المجلة الجديدة " لســـلامة مـــوسى عن مجلة " الفجر " اليافية .

فاتجهت بذلك الى صحف البلاد العربيه اتتبعها صفحة صفحـــة وسطرا سطرا التمس في ثناياها شيئا عن هذا الضياع الذى منينا به .. وكثـــيرا ما كنت امرّ بعشرات المجلدات فلا أجد شيئا ذا بال ..

ولكنني وجدت في مقابل ذلك شيئا اشعرني بالعون في : الجنـــان ٠٠٠ ومنتخبـــات الجـــوائـــب ٠٠ والمشـــرق ٠٠ والهـــلال ٠٠ والمقتطـف ٠ والمجمع العلمـــي العـــربي ٠ والرابـــطة الادبيـــة ٠٠ والامـــالي ٠٠ والطليعـــة ٠٠ والطـــريق ٠٠ والكشـــاف ٠٠ والبلاد ٠٠ وكل شيء ٠٠ والنشـــرة ٠٠ والجمهـــور ٠٠ والحكمـــة ٠٠ والعـــروة ٠٠ وغيرها ٠٠

ولقد وقعت على بضع مقالات للدكتور نجيب ميخائيل الساعاتـــي المقدسي نزيل الاسكندرية يتحدث في واحدة منها عن جهود الدكتور بيتر تومسن (Pro. Dr. Peter Thomsen) ٠٠ فيذكر انه " لما تأسست مجلة الجمعية الالمانيه الفلسطينيه (Nachrichten Des Deutshen Palestina Vereins) سعت ادارتها أن تنشر في اعدادها قائمة المطبوعات التي لها علاقة قريبة أو بعيدة بمختلف شؤون فلسطين ٠٠ ولما ثبت لمحرري تلك المجلة أن المطبوعـات التي تدور في ابحاثها حول فلسطين اتسعت دائرتها الى حدّ لم يكد يفي به الاحصاء وتشطها صفحات المجلة توقفوا (١٨٩٤ - ١٨٩٥) عن متابعـــة سعيهم ٠٠ غير أن البحّاثة الالماني المذكور الدكتور بيتر تومسن باجتهاده وتنقيبه المتواصل تلافى هذا النقص وألف كتبا مستقلة اودعها قائمة المصنفات الفلسطينيـة من عام ١٨٩٥ وما فوق ٠٠ ظهر منها الى تاريخه (١٩٢٢) ثلاثة مؤلفات ثمينة كثيرة الصفحات بعنوان Die Palestina Literateur ، وقد سبقه الى هـذا العمل الشاق كل من الباحثين المنقبين ا ٠ سوكولوف، و ا ٠ ديمتريفسكي مـن كتبة الروس المشهورين وغيرهم ٠٠ وقد ظهر الكتاب الاول لبيتر تومسن سنة ١٩٠٨ ويشتمل على مؤلفات ١٨٩٥ - ١٩٠٤ الفلسطينية ٠٠ وظهر الكتاب الثاني سنة ١٩١١ وفيه مصنفات سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٩ ٠٠٠ واما الكتاب الثالث فكان صدوره سنة ١٩١٦ ويحتوي قائمة كتب سنة ١٩١٠ - ١٩١٤ الفلسطينية ٠ وقد طبعت المؤلفات الثلاثة في ليبسغ Leipzig، ولها توابع في عالم المطبوعات" ثم يذكر الدكتور نجيب الساعاتي أنه هو نفسه قد باشر في نشر مقالة باليونانية متسلسلة في مجلة بطريركية القدس الارثوذكسية (Nea Sion) تحت عنوان "فلسطين فـــي آداب اللغة العربية" بامضاء أوجين ميخائيلدس، يستعين بها الدكتور تومسن في مباحثه الفلسطينية ٠

غير أن معظم تلك المباحث تدور حول كتب الزيارات وكـــتب الرحلات لتدل الزوار على الاماكن المقدسة وتاريخها وما يحتاجه السائح فـــي الاراضي المقدسة من معرفة للغة العامّية وبعض العادات والمعلومات التاريخية والاحصائيات ٠٠ وحول اول من بحث في فلسطين بحثا علميا ومن تبعه في ذلك ٠٠

ومن الجمعيات التي اسست في انكلترا والمانيا بقصد البحث عن آثار فلسطين ومسح اراضيها ورسمها لمعرفة البلاد والقرى الوارد ذكرها في الكتاب المقدس..

ولما كنت في سبيل جمع (المكتبة الفلسطينية) واعادة الحياة للاثار الادبية منها وجدتني اقف عند معظم هذه الاشارات لما تحمله من دلالات قريبه وبعيدة .

ومن تلك المباحث ما قامت به (اللجنة الفلسطينية) التي انشأتها حكومة روسيه القيصرية .. فقد تحولت هذه اللجنة الى دائرة خاصة من دوائر وزارة الخارجية وصارت تعنى بدرس احوال فلسطين درسا دقيقا .. " ووضعت في وصفها الوفا من الكتب لم تترك شبرا من الارض الا وصفته . . ومن امثلة اعمالها انها اصدرت مجلدا ضخما في الف ونيف من الصفحات الكبيرة المزدانة بالرسوم الجليلة في وصف الحرم القدسي فقط .. وكان لها مجلة خصوصية تبحث في اخبار فلسطين وحدها ".

اما كتب تاريخ الادب العامة فقلما تتعرض لحياة الادب او الادباء في فلسطين ولعل اكثرها ذكرا لبعض اسماء الكتب والصحف واصحابها كتاب تاريخ الاداب العربية للاب لويس شيخو اليسوعي وهو قليل الغناء في هذا الباب .. واما سائر الكتب الاخرى فتكاد تكتفي بذكر عابر لحركة او اسم كما فعل المستشرق ج . كامبفيار الالماني في كتابه " شعراء العرب في العصر الحاضر ".

Prof. Dr. G. Kampffeyer

اما كتب الاعلام فقد عرضت لترجمة بعض ادباء فلسطين وشعرائها وكتابها مثل كتاب " اعلام الادب والفن " و " مصادر الدراسة الادبيــــة " و " من هم " و " الاعلام " و " قاموس المؤلفات العربية الحديثه " وغيرها افدت منها في ذكر آثار الكتاب والشعراء من اجل تتبعها ومحاولة العثور عليها .

وقد اتصلت ببعض الكتاب الاحياء .. اما من فاتني لقاؤه منهم فقد اتصلت به عن طريق البريد فوصلني من بعضهم شيء مما طلبته اليهم اما عن انفسهم او عن غيرهم ممن كان لهم به اتصال وثيق ..

وهكذا مضيت انقب في الابحاث المجاورة ، التاريخي منها والادبي حتى جمعت كل ما يمكن العثور عليه من خيوط لحياة الادب في هذا الوطـــن تستطيع ان تعطي الملامح الموضحة لادب هذا الوطن العربي الصغير وتكشف عن الاتجاهات والتيارات المختلفة التي مضى فيها .

———

تمهيـــــد

اولا : شخصية فلسطين الادبية في التاريخ العربي :

لم تكن البلاد العربية في التاريخ العربي ممزقة الاجزاء تقوم بينها الحدود السياسية المانعة او الحواجز الجغرافية الحادة ، وانما كانت جميعها مضطربا واسعا ومجالا حيويا رحبا ومنطلقا للطاقات العربية تتنقل بينها في حرية وانطلاق

ولعل هذا الاتصال الوثيق هو الذى اتاح لكثير من البلدان في فلسطين أن تتميز بطابع خاص ، وان يكون لفلسطين حظ وافر من الصحابة والتابعين والشعراء والفقهاء وكبار الكتاب .

يقول ارنو في كتابه (فلسطين القديمه والحديثه / او جغرافيه طبيعيه وتاريخيه للارض المقدسه) : "ان احدى الطرق الكبرى من الشام لمصر كانت تجتاز الاردن تحت بحيرة طبريا . فتذهب الى بيسان فجنين فدوثان فالسامـــرة فحلجولية فيافا ، وقد لا تأتي يافا فتذهب مباشرة الى غزة من طريق اللد الى ان تصل مصر ، وان هذه الطريق كانت تسلكها قوافل العرب التي تحمل طيوب المشرق وهذا ما يمهد لنا السبيل في أن اخوة يوسف قد باعوه بثمن بخس دراهم معدودة من احدى السيارات التي كانت تجتاز تلك الطريق بجوار دوثان ، كما اشارت الى ذلك التوراة بصريح العبارة ، ولا يزال السياح الذين يؤمون الارض المقدسة يقصدون الى زيارة دوثان وجبابها " (١)

فالصلة — لا القطيعة — هي التي تنمي الشخصية في البلاد كما هو الشأن في الاناسي .. فلقد قدمت فلسطين للعالم دينا ومدنية كان لهمـــا تأثير لا يمحى في عقول ملايين البشر .. " تاريخها القديم اشبه بنافذة تطل على مدنيات العالم الاولى بأسرها من مصرية وبابلية آشورية وحثية وفارسية ويونانيـــة ورومانية .. ان تدرس تاريخ فلسطين عبارة عن درسك تاريخ العالم القديم : سهولها مسرح عرضت فيه معالم جيوش الممالك القديمة .. وميادين قتالها مسرح شخصت عليه اهم وقائع لاعظم الغزاة واكبر الفاتحين من طوتميس وسرجون ونبوخذ نصر وقمبيز الى الاسكندر فبمباى فبوليوس فاغسطس فتيطوس ..

---

(١) La Palestine Ancienne et Moderne ou Géographie, Historique et Physique de la Terre Sainte: (E. Arnaud) P. 220.
نقلا عن "جب يوسف الصديق ، وقبره الشريف" تحقيقات واستنتاجات بقلم عبد الله مخلص ص ١٥ — ١٦ .

ومن عمرو بن العاص وصلاح الدين فهولاكو الى نابليون فابراهيم باشا فالجنرال اللنبي • ميدان للقتال أو جسر تجتازه جيوش اوروبا وآسيا وافريقية في أثناء الحروب ، وسوق للاتجار او طريق تسلكه القوافل بين المشرق والمغرب في ايام السلم •• تلك هي فلسطين " (١)

بهذه الصلة المتتابعة لم تكن فلسطين وحدة مستقلة عن شقيقاتها المجاورات ، وانما كان لها شخصية خاصة تتميز بها في تاريخ هذه الشقيقات : ومن هنا كان ادباؤها وفقهاؤها اوسع آفاقا وارحب صدرا في تناولهم القضايا التي يعرضون لها : • ومن هنا كانت اسماء بلدانها : مدنها وقراها تتردد في حياة التراث العربي والاسلامي •• وقلما نجد فقيها شهيرا او محدثا كبيرا او مؤرخا خطيرا او رحالة ذا شأن او اديبا مرموقا لم يعمد الى زيارة فلسطين او بيت المقدس فيها •• وقد عني المؤرخون بالذين سكنوا بيت المقدس من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وبالذين دفنوا فيها او نزلوا فلسطين :

فسلمان الفارسي دخل بيت المقدس يبغي العلم من الراهب الذى كان به (٢)• وعبادة بن الصامت اول من ولي قضاء فلسطين (٣) ••• وتميم الداري كان أميرا على بيت المقدس (٤)• فكان اول حاكم اداري لمدينة القدس • وقبره ببيت جبرين (٥) • والليث بن سعد قدم بيت المقدس ولقي ابا جعفر المنصور (٦) •• وذو النون المصري قدم بيت المقدس (٧) •• وغيرهم كثيرون •

وما احسب قطرا بالقياس الى صغره نسب اليه او سكنه او نزل به او مات فيه أناس قدموا للتراث العربي والاسلامي مجهودا كبيرا كفلسطين في جميع العصور العربية الاسلامية •

ونحن نجد ذكرا لعلماء وجدوا في بيت المقدس متسعا من الوقت وجوا ملائما للتصنيف مثل الامام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي حجة الاسلام الذى " انتقل الى بيت المقدس مجتهدا في العبادة •• واخذ في التصانيف المشهورة ببيت المقدس مثل احياء علوم الدين ، والقسطاس ، ومحك النظر ، وغيرها •• " (٨)

---

(١) من المقدمه التي وضعها الدكتور فيليب حتى لكتاب " فلسطين وتجديد حياتها " الحكمة / عدد ٨/ سنه ٤ • ١٩٣٠ ص ٤٥٧ • (٢) " مثير الغرام بفضائل القدس والشام " لابي محمود بن هلال المقدسي، ص ١٦ (٣) مثير الغرام ص ٢٦ (٤) مثير الغرام ص ٢٨ (٥) مثير الغرام ص ٣١ (٦) مثير الغرام ص ٥٣ (٧) مثير الغرام ص ٥٥ (٨) مثير الغرام ص ٦٠ •

ونقرأ ان الامام ابا بكر بن العربي الاندلسي الحافظ المشهور رحل مع ابنه الى الشرق "وقدم بيت المقدس ورأى به خلقا كثيرا من العلماء "(١) ونذكر الامام الحافظ أبا الفضل علي بن محمد بن طاهر المقدسي الجوّال في الافاق ، الجامع بين الذكاء والحفظ وحسن التصنيف .." وقد ولد ببيت المقدس سنة ثمان واربعين واربعمائة .. واول من سمعه النقيه نصر المقدسي الذى اقام بالقدس مدة طويلة وهو استاذ حجة الاسلام الغزالي وصاحب المدرسة النصرية – الزاوية الغزاليه – بالقدس ، والمدرسة النصرية بدمشق .." (٢) وفي الخريدة اخبار عن المؤتمن بن احمد بن علي بن الحسين الساجي المقدسي الحافظ ، من اهل بيت المقدس . ولد سنة ٤٤٥ هـ . قال عنه السمعاني : ما رأيت بالعراق من يعرف الحديث ويفهمه غير رجلين : المؤتمن الساجي ببغداد ، واسماعيل بن محمد بن الفضل بأصفهان .. " وكان يقول الشعر .. " (٣)

ومن الفقهاء الامام محمد بن ادريس الشافعي الذى ولد بغزة هاشم سنة ١٥٧ هـ ، احد الائمة الاربعة عند اهل السنة ، والذى يقول فيه الامام احمد بن حنبل " ما احد ممن بيده محبرة او ورق الا وللشافعي في رقبته منة .. وكان ذكيا مفرطا ، له تصانيف عديدة في الفقه والحديث واحكام القرآن والسنن .. وهو ممن قدم بيت المقدس" (٤)

ومع ان الاستاذ الدكتور ناصر الدين الاسد يخشى من ان النسبة الى بلد من بلدان القطر قد تسوق الى مبالغة في اثر بيئة محدودة بذاتها (٥) الا ان هذه النسبة لا تخلو من دلالة على اهمية القطر وشخصيته في الحياة العربية .. ثم يورد من الشعراء ثلاثة مجلين معدودين من الطبقات الاولى بين شعراء العربية ، كما يقول ، وهم كشاجم الرملي شاعر ابي الهيجاء وابيه سيف الدولة الحمداني ، توفي نحو سنة ٣٥٠ هـ . وله ديوان شعر ، ورسالة في ادب الندماء ولطائف الظرفاء (٦) . ويذكر الدكتور اسحق موسى الحسيني ان احد الفضلاء في بيت المقدس كان يعنى بتحقيق مخطوط له في المصايد (٧) ... ثم أبو اسحق الغزي ، ويعدّه الدكتور اسحق موسى الحسيني من طبقة المتنبي . وله ديوان مخطوط منه نسخ في المكاتب الاوروبية ومصر والقسطنطينية وحلب والشام (٨)..

---

(١) مثير الغرام ص٦٠ (٢) مثير الغرام ص ٥٩ (٣) خريدة القصر / قسم الشام ص ٢٨٦ . (٤) مثير الغرام ص٥٤ . (٥) "الاتجاهات الادبيه الحديثه في فلسطين والاردن " / للدكتور ناصر الدين الاسد / ص١٢ (٦) الاتجاهات / ص١٣ (٧) "هل الادباء بشر" للدكتور اسحق موسى الحسيني / ص٢٩ (٨) "هل الادباء بشر ص٣٠ .

والثالث الاديب القيسراني ابو عبد الله محمد بن ناصر بن صغير العكاوى ، المولود بعكا سنة ٤٧٨ هـ ، والمنسوب الى قيسارية حيث نشأ . وكان سائر الشعر ، ذائع الصيت ، وكان هو وابن منير الطرابلسي شاعرى الشام في عصرهما (١)

ومن الادباء الكتاب الناثرين :

القاضي الفاضل المولود في عسقلان سنة ٥٢٩ هـ من أئمة الكتاب ، ولي الوزارة لصلاح الدين الايوبي ، وكان من اقرب المقربين اليه . قيل " لو جمعت رسائله وتعليقاته لبلغت نحو مائة مجلد .. قال صلاح الدين : "لا تظنوا اني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل " . ومدرسته الفاضليه كانت من اعظم مدارس القاهرة واجلّها . له تآليف في الادب واللغة وتراجم الرجال والتاريخ والجغرافيه والفقه والحديث (٢) .

والمقدسي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد بن أبي بكر البناء . ولد في القدس سنة ٣٣٦ هـ . صاحب كتاب " احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم " . وهو مشهور بكثرة ملاحظاته وسعة نظره ، وحسن ترتيبه ، وقدرته على التنبه (٣) .

وصلاح الدين الصفدى المولود في صفد سنة ٦٩٦ هـ تولى ديوان الانشاء في صفد وفي مصر وحلب . مؤلفاته خمسمائة مجلد بروايته هو . منها كتابه النفيس الضخم "الوافي بالوفيات" في ثلاثين مجلدا و "نكت الهميان في نكت العميان" الذى نشره احمد زكي باشا و "الشعور بالعور" و "ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء" و "الغيث المسجم في شرح لامية العجم" و "جنان الجناس" و "تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون" .. وغيرها

ومن الادباء الفقهاء شهاب الدين احمد بن علي بن الكناني المشهور بابن حجر العسقلاني من عسقلان اصلا . توفي سنة ٨٥٢ . وكان حافظ عصره . وتصانيفه اكثر من ان تعد . منها : "تهذيب التهذيب" و "لسان الميزان" و "تقريب التهذيب" وهي في تراجم رجال الحديث . و "الاصابه في تمييز اسماء الصحابة" و "فتح البارى في شرح صحيح البخارى" و "الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة"(٤).

(١) الخريدة - قسم الشام ص ٩٦ - ١٠٦ (انظر "الاتجاهات" ص ١٣) (٢) "الاتجاهات ص ١٤ ، و "هل الادباء بشر" ص ٣١ (٣) الاتجاهات ص ١٥ / و "هل الادباء بشر" ص ٣٢ (٤) الاتجاهات ص ١٥ .

ومنهم سعد الدين بن محمد بن عبد الله الديري جد الاسرة الخالدية في فلسطين . ولد في القدس سنة ٧٦٨ هـ. ورحل الى مصر ، وولي فيها القضاء خمسا وعشرين سنة . ومات فيها سنة ٨٦٨ هـ . ومن كتبه " الحبس في التهمه " و " السهام المارقة في كبد الزنادقه " و " تكملة شرح الهدايه للسروجي " و " الكواكب النيرات " و " شرح العقائد النسفيه " (١)

ويذكر الدكتور اسحق موسى الحسيني من الادباء الفقهاء شيخ الاسلام شهابالدين الرملي المتوفى سنة ٨٨١ هـ . وقد اخذ عن القلقشندي في بيت المقدس. واقام في الرملة وبيت المقدس وبافا . (٢)

كما يذكر ابا اليمن عبد الرحمن بن محمد بن مجير الدين العليمي المولود في بيت المقدس سنة ٨٦٠ هـ . صاحب " الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل " (٣) .

ومنهم مرعي بن يوسف بن ابي بكر الكرمي المولود في طولكرم . رحل الى القدس ثم الى القاهره حيث تصدر للافتاء في الجامع الازهر . ثم تولى المشيخة في جامع السلطان حسن . توفي سنة ١٠٣٣ هـ. وترك نحو سبعين كتابا في الفقه والتاريخ والادب . ومنها ديوان شعر له ، وجلها مخطوط .(٤)

ومنهم خير الدين الرملي . ولد في الرملة سنة ٩٩٣ هـ . وتوفي فيها سنة ١٠٨١ هـ . رحل الى مصر ودرس في الازهر . وعاد الى بلده ، فتولى فيه الافتاء . اشهر كتبه " الفتاوى الخيريه " . وله ديوان شعر . و " مظهر الحقائق " وهو حاشية على " البحر الرائق " في فقه الحنفيه (٥).

وممن ترجم لهم مجير الدين العليمي في " الانس الجليل " الشيخ الحافظ المحدث جمال الدين ابو محمود بن محمد بن ابراهيم بن هلال المقدسي الغواصي الشافعي ، ولد سنة ٧١٤ هـ . ضبط وأفاد .. ورحل ودرس بالمدرسة التنكزية بالقدس الشريف بعد وفاة العلائي . صنف " المصباح في الجمع بين الاذكار والسلاح " و " مثير الغرام الى (زيارة) القدس والشام ". وكان فراغه منه في يوم الاربعاء الثالث والعشرين من شعبان سنة ٧٥٢ هـ ببيت المقدس. وصار رحلة . وله نظم . وتوفي بمصر سنة ٧٦٥ هـ " (٦)

---

(١) الاتجاهات ص ١٥ (٢) هل الادباء بشر ص ٣٢ (٣) الاتجاهات / ص ١٦ وهل الادباء بشر / ص ٣٢ (٤) هل الادباء بشر / ص ٣٣ والاتجاهات / ص ١٦
(٥) الاتجاهات / ص ١٦ — ١٧ (٦) مقدمة كتاب مثير الغرام ص ٥ .

وصاحب كتاب " الانس الجليل " ، مجير الدين الحنبلي ، مؤرخ بيت المقدس الحجة يعطينا وصفا رائعا للمعاهد التي قامت في بيت المقدس، ويرسم صورة واضحة لحوادث عصره (القرن التاسع الهجرى) ·· ويبيّن الاستاذ احمد سامح الخالدى ان المسجد الاقصى كان على تداسته وعلو مرتبته مركزا هاما من مراكز نشر العلوم الدينية وفروعها ، واستمر العمل بذلك طوال القرون منذ القرن الاول الى العصر الحاضر · وكانت فيه وظائف مرتبه من المدرسين والمعيدين والقراء · وكان مصدر اشعاع للعلوم الدينيه وعلوم اللغة يؤمه العلماء وطلاب العلم من جميع الاقطار (١) ·· ويذكر الدكتور اسحق موسى الحسيني انه كان في المسجد الاقصى مكتبة عامرة بالكتب ، ولما قيّم على نحو ما وجد فيما يسميه علماء المشرقيات "بالجامعات الاسلاميه" بحيث يمكننا ان نطلق على المسجد الاقصى اسم " جامعة المسجد الاقصى " مثل " جامعة قرطبة " لما اشتهر عنه في تدريس العلوم الدينية وفروعها (٢)·

فاذا كان هذا الشعر · وهذا الادب ، وهذا الفقه ، وهذه المدارس ، وهذه العلوم المتنوعه ، ليس لها دلالة على شخصية فلسطين الادبية في التاريخ العربي فعلى اى شيء تدل اذن ·؟!

---

(١) الاديب / جزء ٤ / سنه ٨ ١٩٤٩ ص ٣١ · (٢) الاديب / جزء ٦ سنه ٨ ١٩٤٩ ص ٦٦ ·

ثانيا : الحدود المكانية للبحث

لا بد من حيز نرصد في داخله حركة الحياة بما يجرى فيها من صراع وتفاعل وانتاج . ونحن حين نختار حيزا ما لسنا نقصد من وراء اختيارنا هذا اى نوع من انواع الانفصالية او الانعزالية او التضييق في الافق او الانغلاق الذميم .. وحين نختار هذا الحيز لا نعنيان حدودا تقوم فاصلة بين ثقافة هذا القطر من العالم العربي وبين ثقافة ذات القطر الاخر ، فنحن على علم بأن اوضاع البلاد العربية تكاد تكون متقاربة حيث التقت الى حد كبير في تفاعلها بالظروف المتشابهة .. ولكن اختيار حيز ما ليس الا وجها من وجوه التخصص لتتبع القسمات الدقيقة في قطر من اقطار هذا الوطن الكبير حتى يسهل تحديد الملامح والخصائص المميزة له في داخل الاطار الواسع لنرى مدى خصوبة العالم العربي حين نجمع بين هذه القسمات والملامح المتقاربة في مجموعها .. وبغير هذا التحديد للحيز لا نستطيع ان نضبط الموازين ولا أن نحص المقاييس ولا ان نتمثل التجارب تمثلا تضبطه الحدود .. ومهما تلتق الملابسات الاجتماعية وتتفق المستويات وتتشابه العمليات الاجتماعية فلا بد لكل قطر من طابع خاص في تفاعله وطعم معين في تمثله ولون مميز في جهوده وعلاقاته ينفرد به .

ولئن كنا نلجأ احيانا في تحديد الاقطار الى تلك الحدود الفاصلة بين البلاد العربية فليس يعني ذلك اننا نؤمن بتلك الحدود ، بل نحن على علم بانها لم تقم وفق مصالح البلاد واهلها وانما اقامتها مساومات ومناورات استعمارية بعيدة الجذور في تاريخ هذه البلاد .

نحن نؤمن بالعروبة واركانها الثلاثة مجتمعة كما يقول الدكتور اسحق موسى الحسيني : عروبة اللسان وعروبة العقل وعروبة القلب ، نؤمن بها كيانا بنّاء في ميدان الحضارة الانسانية .

بكل هذه الحيطة الخالصة نتقدم الى اختيار الحيز الذى اتخذناه لبحثنا ، فهو الحيز المكاني الذى تشير اليه كلمة فلسطين حديثا بمدلولها السياسي الجغرافي . وما ذلك الا لسبب بسيط جدا هو ان بحثنا قائم في حياة الادب الفلسطيني الحديث . ولان هذا المدلول الجغرافي وليد ظروف كثيرة كان لها تأثيرها الايجابي والسلبي في حياة هذا القطر الصغير من الوطن العربي الكبير . وسنتخذ هذه الحدود لندل بها على الفترة التي سبقت هذا التحديد حين كان قطرنا مندمجا في هذا القطر او ذاك من اقطار العالم العربي الكبير .

انه الوطن العربي الصغير الممتد على شاطئ البحر الابيض المتوسط حيث تبدأ حدوده الشرقية من الحدود اللبنانية السورية وتهبط حتى تصل الى بحيرة طبريا متجهة نحو الجنوب بمحاذاة نهر الاردن في اتجاه البحر الميت ثم تنتهي عند ملتقى الحدود المصرية بالحدود الاردنية والحدود العربية السعودية قريبا من خليج العقبة في البحر الاحمر .

ويقع ساحل فلسطين في مركز خطوط المواصلات الكبرى المنتشرة في القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط . وفي هذه المنطقة المجاورة لقناة السويس انشئت عدة مرافئ كبرى فيما بين الحربين العالميتين : مرفأ حيفا ، والقاعدة البحرية البريطانية في يافا ، وتل ابيب المرفأ اليهودي والمدينة اليهودية الجديدة التي تلعب دورا خطيرا في الحياة الاقتصادية في فلسطين اذ تتجمع فيها حياة فلسطين المالية والتجارية حيث عشرات البنوك ومجالس الادارة وشركات الاستيراد والتصدير والجماعات الصناعية والجمعيات .. حتى ان ميزانية بلدية تل ابيب بلغت مقدارا تجاوز مجموع ميزانيات ثلاثا وعشرين بلدية فلسطينية اخرى . (١)

من هذا كله يتبين اهتمام نابليون مثلا بهذه البقعة من الارض ، وتنبه بريطانيا لاهمية هذه المنطقة في الشرق الاوسط ؛ وموقف الدول الغربية من زحف محمد علي باشا عليها متجها الى سوريا شمالا . انها قلب العالم العربي ، بها تتصل اجزاؤه وعن طريقها يتم التحكم في اوضاع الشرق الاوسط جميعها .. ومن هنا اصبحت ميدانا يجري فيه تطاحن عنيف وتحتشد فيه المؤامرات والمناورات السياسية والعسكرية والدبلوماسية ، وهذا ما فعلته الدول المتحالفة بعد الحرب العظمى الاولى ، واتفقت على تقسيم بلاد الشام قسمين : سوريا الشمالية ، خاضعة للنفوذ الفرنسي ؛ وسورية الجنوبية ، خاضعة للنفوذ البريطاني . وقد امعنت بريطانيا في التمزيق فسلخت شرق الاردن عن فلسطين ، وامعنت فرنسا في التمزيق كذلك فجعلت القسم الشمالي قسمين : سوريا ولبنان . واتخذ تا لذلك التمزيق طابعا قانونيا حين رسختاه باقرار عصبة الامم سنة ١٩٢٢ لصك الانتداب .

وليس هناك احد لا يعلم سوء نوايا الاستعمار في هذا التمزيق الذي عمدوا اليه واكسبوه صفة عالمية رسمية في عصبة الامم .

وليس يعني ذلك ان لفظة فلسطين لم تكن لها دلالة جغرافية من قبل .. فقد كانت البلاد بيد شعوب وطنية تختلف باختلاف الزمان وباختلاف الاقليم .

---

(١) الطريق / مجلد ٥ / جزء ١٦/ سنة ١٩٤٦ ص ٦٠٥ .

واول هذه الشعوب : الشعب الفلسطيني الذى توطن الشقة البحرية (من يافا فما دون الى جوار غزه) ، وهذه الشقه البحرية كان يقال لها (فلسطيا) • اما بقية البلاد فاتخذت اسماء القبائل التي فيها • فتسمية البلاد كلها اذن بفلسطين هي من باب تسمية الكل باسم البعض • على ان اسم فلسطين لم يطلق على البلاد الا في العصر البيزنطي اى بعد القرن الخامس للمسيح • ولم تعرف فلسطين كلها بهذا الاسم قبل ذلك • ولم يكن البلاد حد معروف الا في ذلك العهد (١) • ولكن تلك الحدود كانت تختلف باختلاف الدول التي اتصلت بها اتصال سلم واتصال حرب ، ثم اتخذت دلالة اخرى في التاريخ العربي •• فصاحب " اللسان " يذكر ان فلسطين اسم كورة بالشام •• وكذلك صاحب القاموس •• وابن الاثير يحدد لها حدودا فيقول : فلسطين الكورة المعروفة فيما بين الاردن وديار مصر • وأمّ بلادها بيت المقدس •• ويرد ذكرها كثيرا في كتب مؤرخي العرب ورحالتهم وجغرافييهم الاول بحدود تضيق حينا عن المدلول الحديث وتتسع حينا آخر فتشمله وتزيد عليه •

وقد كانت حدود الشام تشمل هذا القطر في الادوار الاولى التي سبقت هذه التقاسيم المصطنعة ، فلقد اطلق الاغريق على البلاد المجاورة لصور اسم (سوريا) ثم عمّ استعمال هذا الاسم لجميع القطر الذى يكّون مع فلسطين وحدة جغرافية واحدة عرفت عند العرب باسم واحد هو (الشام (٢) فمؤرخ الشام الحافظ شمس الدين محمد الذهبي يذكر حدود الشام الاربعه فيقول ان حده من الغرب البحر المالح ، وعلى ساحله مدائن عدة ، وحده من الجنوب رمل مصر والعريش ، ثم تيه بني اسرائيل وطورسينا وتبوك ثم دومة الجندل • وحده من الشرق من بعد دومة الجندل برية السماوة وهي كبيرة ممتدة من العراق ينزلها عرب الشام • فما يلي الشرق ايضا الفرات ، فيخوض الفرات الى بلاد الجزيرة فطوله من العريش الى الفرات عشرون يوما او اكثر (٣) •

ولقد كانت الشام في عهد الروم مقسومة الى خمسة اقسام ادارية هي :

١) فلسطين الاولى / وحاضرتها قيسارية / على الساحل بين حيفا ويافا وتشمل القدس ، وجبل نابلس ، وما اليهما الى غزة

---

(١) مقدمة حتي لكتاب "فلسطين وتجديد حياتها "نقلتها الحكمة / عدد ٨ / سنه ٤ ، ١٩٣٠ ص ٤٥٩ • (٢) حديث الاذاعة الفلسطينيه / الجزء الاول ص ٥٧ ــ ٥٨
(٣) حاشيه ص ٧ــ٨ من كتاب " مثير الغرام •

٢) فلسطين الثانيه / وحاضرتها بيسان ، وتشمل الجليل .
٣) فلسطين الثالثة / وتشمل شرق الاردن والبتراء
٤) فينيقية / وحاضرتها صور ، وتشمل لبنان .
٥) سوريا الى الشمال من فينيقيه / وحاضرتها انطاكية ..

وكأن العرب قد حافظوا على هذا التقسيم مع ادخال بعض التعديل عليه ، مما يوافق طبيعة البلاد فاتخذوا الغور مثلا فاصلا بين الاقسام الشرقية والغربيه ، وجعلوا مرج ابن عامر والبقاع واول جبال طوروس حدودا بين الاقسام من الجنوب الى الشمال .. وجعلوا الشام كلها خمسة اجناد :

الاول : جند فلسطين ، وهو القسم الواقع بين الصحراء جنوبا ومرج ابن عامر شمالا ، وبين البحر ونهر الاردن . وكانت اللّد حاضرته . ولما اختط الخليفة سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة نقل مركز الجند اليها . وقد ذكر الاصطخري وابن حوقل جند فلسطين فيما كتباه ، وذكرا انه يمتد من اللّجون شمالا الى رفح جنوبا وان طوله مسيرومين على الخيال او اكثر قليلا وعرضه من يافا الى اريحا قدر طوله تقريبا . وقد جعلوا اقليم الشراة الواقع بين العقبة وجبال مؤاب ملحقا به .. وعلى عهد ابن حوقل كانت الرملة عاصمة البلاد .. اما ياقوت فيذكر ان عاصمة فلسطين كانت القدس .

الثاني : جند الاردن : ويشمل الغور والبحر الميت وشمال فلسطين وحاضرته طبريا . قال ابن الفقيه (في القرن العاشر) : ان من اعمال الاردن طبريا ونابلس وبيسان وجرش وعكا وصور .

الثالث : جند دمشق .

الرابع : جند حمص .

الخامس : (وقد قسموا جند حمص الى قسمين) : أ — جند قنسرين الى الجنوب من حلب . ب — وجند العواصم الى الشمال من حلب . وصارت تسمى الثغور . أما الرباطات فقد اطلقت على الحصون الساحلية .

وفي (النهاية) : " وفي حديث عمر أنه خرج الى الشام فلقيه امراء الاجناد : الشام خمسة اجناد : فلسطين ، والاردن ، ودمشق ، وحمص ، وقنسرين . كل واحد منها كان يسمى جندا اى المقيمين بها من المسلمين المقاتلين ." (١)

---

(١) " مقام ابراهيم " لاسحاف النشاشيبي / حاشية ص ٢٦ وانظر ياقوت / معجم البلدان ١ — ١٣٦ ليبسغ // وانظر " مراصد الاطلاع " لصفي الدين بن عبد الحق ١ — ٢٧ ليدن .

بهذه الدلالة كانت تلك التقاسيم في الحياة العربية الاسلامية .. ليست الا ناحية من النواحي تشمل معسكرا او مجموعة من الجنود لكي يتيسر توزيع الاعطيات على الجيش او توزيع الاوامر له بالزحف او الانطلاق .. ولهذا لم تكن تحمل الا دلالة منطلق هذه المجموعة من الجند العربي من الجنوب الى الشمال منطلقا عرضيًا .

وبقى هذا التقسيم في القطر الشامي حتى الحروب الصليبيّة ، فغيّر الصليبيون وبدّلوا ، فلما انتهى امرهم بسبب صلاح الدين تجزأت الشام بعده الى تسع ممالك كانت حدودها في تغيير وتبديل (١) .

اما في العهد العثماني فقد كانت فلسطين تنقسم الى ثلاثة الوية يديـر شؤونها متصرفون : لواء القدس ويشمل قائمقاميات بئر السبع والخليل وغزة ويافا .. ولواء نابلس ويضم قائمقاميتي بني صعب وجنين ... ولواء عكا ويشمل قائمقاميات حيفا وصفد وطبريا والناصرة وكانت متصرفية القدس من المتصرفيات الخاصة لانها لم تكن تتبع ولاية من الولايات بل ترتبط ارتباطا مباشرا بوزارة الداخلية ، وشؤونها تتصل بعاصمـة السلطنة من غير رجوع الى الوالي المجاور ..

واما متصرفيتا عكا ونابلس فكانتا تابعتين لولاية بيروت فليس لهما الاتصال المباشر بوزارة الداخلية في عاصمة السلطنة ..

وهكذا نجد أن الاقسام الادارية في اواخر العهد العثماني كانت قريبة الشبه بالاخبار العربية القديمة ؛ فكانت ولاية حلب في الشمال . والى الجنوب منها ولاية الشام شرقا وولاية بيروت غربا .. وكانت القدس المتصرفية القائمة بذاتها تشبه جند فلسطين .. وكانت متصرفية عكا وهي جزء من ولاية بيروت تشبه جند الاردن وفيها نابلس وطبريا .. وولاية الشام تشبه جند دمشق (٢) . ومن هنا كانت بعض المدن في فلسطين الحالية تقع في جند الاردن .. ولكننا سنرد هذه المدن الى فلسطين في بحثنا الحالي وتحديدنا للحيز المكاني الذى اشرنا اليه .

ورغم بغضنا التحديد الذميم الحديث في حياة البلاد ، الا اننا سنتخذه حدا مكانيا ينسحب على العهدين ، عهد الانتداب ، والعهد العثماني اللذين يشملان هذا القطر .. وما ذلك الا ليكون حيزا ثابتا ليس غير للاحداث التي اتخذها الادب مادته في هذا الوطن العربي الصغير .

---

(١) حديث الاذاعة الفلسطينيه / الجزء الاول ص ٦١ ـ ٦٤ . (٢) حديث الاذاعة الفلسطينية / الجزء الاول ص ٦٤ .

ونحن حين نلتزم ذلك لن تغيب عن اذهاننا تلك الدلالات الطبيعية التي كانت تحملها هذه التسمية في الحياة العربية الكريمة ٠٠ كما اننا لن ننسى الاهداف المذمومة التي سعت اليها دول الاستعمار في تقطيعها وتمزيقها للوطن العربي الكبير ٠٠ ولن تكون دراستنا هذه او اتخاذنا الحدود نفسها قبولا او رضى بما فعله المستعمر الدخيل ٠٠ وانما قصدنا الى الدلالة المكانية وتحديد هذه الناحية تحديدا جغرافيا كما كان يقصد اصحاب ديوان الجند في تقسيمهم تلك النواحي لا يبغون من وراء ذلك سوء القصد او التمزيق او الحد من التقاء تيارات الحياة الطبيعية ٠

بهذه الدلالة وهذه النوايا الصادقة نتقدم في دراستنا لهذا الحيز المكاني الذى قصدنا اليه ٠٠

ثـــالثـــا : الحـــدود الـــزمـانيـــة للبحـــث

الادب نتاج كسائر انواع النتاجات ، يحتاج الى جو صالح ، وموسم خاص حتى تغرس فيه البذرة في تربتها ، ويحتاج الى تربة مجهزة تصلح لنموّ ، ويحتاج الى ظروف خاصة تمده بالغذاء حتى يأخذ طريقه في النمو ٠٠ ويحتاج الى وسائله ومواده التي بغيرها لا يكون ٠

ولعل السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر ان تكون منطلق البداية في هذا الشأن ٠٠ واقول البـــداية وهي كالبذرة التي تدس في التراب ثم لا تبدو الا بعد مضي زمن عليها ٠

فقد صدر سنة ١٨٦٤ م ٠ قانون الولايات الجديد ، قسمت بموجبه بلاد الشام الى ولايتين كبيرتين : ولاية سورية ومركزها دمشق ، وولاية حلب التي اضيفت اليها ولاية بيروت ، ثم انشيء في مقر كل ولاية مجلس من كبار اعيان الولاية ليشير على الوالي في المسائل العامة ٠ وقدرت الدولة اهمية الاراضي المقدســة في فلسطين ، فأنشأت متصرفية القدس ، واتبعتها للباب العالي رأسا ٠ ونظمـــت اختصاصات الموظفين كما نظمت شؤون التجنيد فانشئت فرق خاصة للجنود مـــن العرب تحت قيادة ضباط من العرب ٠ وكان العرب يطالبون دائما بأن تقصر هذه الفرق على الخدمة في البلاد العربية ، ونظمت وسائل جباية الاموال ، كما نظـــم تسجيل العقارات ، ومنعت السخرة والرشوة ، وانشئت مدارس ومطابع ومحاكم ، ومدت خطوط المواصلات والبريد والبرق ٠

كل هذه الاصلاحات ترجع الى الفترة التي كان فيها مدحت باشا واليا على سورية سنة ١٨٧٩ بعد ان اقصاه السلطان عبد الحميد عن منصب الصدارة العظمى ، ونقله من استانبول تمهيدا لتعطيل الدستور والحياة النيابية ٠

وقد وضع مدحت باشا تقريرا نوه فيه بحاجة سورية الى الاصلاح السريع ودعا الدولة الى التيقظ لحركات الدول الاجنبيه ومطامعها في تلك البلاد مستعينة بالمنشآت التعليمية التي تنشئها كالمدارس والارساليات الدينية الاميركية والفرنساوية والانجليزية وغيرها ٠ (١)

واخذت طوالع الصراع تقوى وتشتد بين الترك من جهة وبين العرب الذين يطلبون المساواة باسم الحق والقانون والقوة من ناحية اخرى ٠٠ وظهرت اصابع طرف ثالث في المسألة هي اوروبا ، اذ كشفت عن اهتمامها بهذا النزاع ودخلت فيه بصورة علنية سافرة لتشبع منه اطماعها ومصالحها ٠ (٢)

---

(١) انظر "زعماء الاصلاح" ص ٢٣ ـ ٥٦ / وانظر العالم العربي في العصـــر الحديث ص ١٠٩ ـ ١١٠ ٠ (٢) كتاب "مؤتمر الشهداء" ص ٢٤ ٠

ومع ان الدستور الذى اعده مدحت وتهيأت له الظروف قد عطل ٠٠ عطله السلطان عبد الحميد الذى كان قد بادر من قبل الى اقراره ، الا ان الاصلاحات في سوريا كانت من وحي ذلك الدستور ٠

ولقد كانت تجربة الدستور معبرا عبرته الامة ، واخذت ترد من هذا المعبر تعابير جديده اصبح لها واقع عملي ملموس لدى الناس ٠٠ اصبحت تتسرب الى الناس من مكان بعيد ٠٠ واخذت تنشط رياحها التي تهب عليهم من اوروبا ٠ واصبح الناس يدركون المدلول الواقعي لكلمات (الشورى ، والدستور ، والعدل ، والحرية ، والامة) ٠ (١)

تلك هي البذور الاولى السياسيه لشجرة الانتاج في الادب الحديث في هذا القطر العربي الصغير : ولعلها ان تكون البذور الاولى في جميع الاقطار العربية ٠

وكان ذلك الدور التاريخي في حياة الادب ، ادب عهد الدستور ، في تركيا نفسها " دور توطئة الدخول في واد جديد افتتحته الافكار الاتيه من الغرب للشعراء الاتراك المتأخرين الذين نشأوا منذ قرن او اكثر ، والفوا دواوين في الشعر المتطور نحو التجديد في اللغة والمعنى والاسلوب تترنم بالهامات معينها الثقافة الغربيه على نقيض ثقافة الشعراء الاسلاميه الذين سبقوهم وساهموا بآثارهم الشعريه والنثريه كأشعار ضيا باشا ، ونامق كمال ، في بناء حس المجتمع الجديد المزمع انشاؤه " ٠ (٢)

وقد اخترنا هذه السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر لتكون البداية لاننا نعلم أنه في ١٨٤٧ تعينت اول لجنة للمعارف لمراقبة المدارس في البلاد العثمانية ، وفي ١٨٤٨ فتحت في الاستانة دار للمعلمين عالية لتدريس معلمين للمدارس الثانويه ، وفتحت ايضا في المراكز المهمة مدارس عسكرية لاعداد الطلاب لدخول المكتب الحربي في الاستانة ، وانشئت اول مدرسة ثانوية للبنات في الاستانه سنة ١٨٦١ ، وانشيء مثل هذا المعهد فيما بعد في المقاطعات ، وفي سنة ١٨٧٠ فتحت دار المعلمات لتدريب معلمات للمدارس الثانوية ٠

وفي سنة ١٨٥٧ تأسست وزارة المعارف لاول مرة ٠٠ وفي هذه الفترة خطت الصحافة التركية خطوات في ايدى الشناسي (١٨٢٥ ـ ١٨٧٥) ،

---

(١) انظر " زعماء الاصلاح " ص ٣١ ـ ٤٧ (٢) الهلال ص ١٥ ٠

وفي سنة ١٨٥١ تأسست جمعية لنشر الكتب العلمية وقامت الجمعية العثمانية التي تأسست سنة ١٨٦٢ بنشر (مجلة فنون) ، ونظمت محاضرات عامة في مراكز عملها . واكمل الكاتب الكبير نامق كمال موسس (الجنون ترك) (١٨٤٨ — ١٨٨٨) عمل (الشناسي) وذلك عن طريق جريدة (الحرية) التي كان ينشرها مع ضيا باشا في لندن بعد فرارهما من تركيا سنة ١٨٦٧ .

وفي سنة ١٨٦٨ تأسس مكتب غلطه سراى السلطاني بتشجيع الافرنسيين وكانت الدروس الرئيسيه في هذا المعهد تدرس باللغة الافرنسية ..(١)

وكان لهذه الموسسات اثرها في حياة قطرنا لان طلاب العلم كانوا يتنقلون بين مصر وفلسطين والاستانه . (٢)

وقد اتخذنا هذه السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر بداية البذور الاولى للادب الحديث في هذا القطر لان نوافذ جديدة قد اخذت تتفتح على الحياة في اوروبا .. وكان لرجال هذا القطر مواقف من هذه النوافذ تتراوح بين الاقبال عليها والاحجام عنها .. وذلك لان دول اوروبا الكبرى قد اخذت تتبارى في بسط نفوذها على سوريا في هذه السنوات وكان لروسيا القيصرية شأن خطير في هذه البلاد ففاقت غيرها من الدول ، وانشأت المشاريع الدينية والكنائس والاديرة في فلسطين وسوريا كلها ، واصبحت حامية الارثوذكس فيها وفي البلاد التركية عامة .. وقد انشأت في القدس سنة ١٨٤٧ سفارة روحية عهدت اليها النظر في الشوءون الدينية والادبية والخيرية في فلسطين ، ثم انشأت سنة ١٨٥٨ قنصلية في القدس ما لبثت ان اصبحت ذات نفوذ عظيم في مجرى الحوادث واخذت تنشيء في هذه المدة عدة مدارس وكنائس واديرة وشيدت في بيت جالا مدرسة عالية للبنات كان لها اعظم تأثير .. وفي سنة ١٨٨٢ نشأت في روسيا جمعية عرفت (بالجمعية الارثوذكسيه الفلسطينيه) وانتظم في عضوية هذه الجمعية كثيرون من اهل العلم والغنى والسياسة والدين في روسيا اخذت على عاتقها الاهتمام بانشاء المدارس في فلسطين بنوع خاص . وقد اطلق عليها سنة ١٨٨٩ لقب (امبرطوريه) ، واصبحت من الجمعيات العظيمة في البلاد كلها ... وكان في جملة اعضائها القيصر نفسه ، وكل اعضاء الاسرة القيصرية وروءساء الدين وممثلو وزارتي المعارف والخارجيه والمجمع الروسي المقدس .. وقد بلغ عدد اعضائها (٣٥٠٠) منهم نحو (١٤٠) عضو شرف يدفع الواحد منهم لصندوق الجمعية خمسة الاف روبل ، و (٨٨٠) عضوا عاملا يدفع كل منهم خمسة وعشرين روبلا في السنة . والباقون اعضاء مشتركون يدفع كل منهم عشرة روبلات في السنة .

---

(١) " انظمة التعليم " الجزء الاول ص ٨٤ — ٨٥ (٢) " اهل العلم بين مصر وفلسطين " ص ٣٩ — ٤٠ .

وقد أنشأت هذه الجمعية دارا للمعلمين عاليه في الناصرة ونحو مائة مدرسة في كل جهات سوريا .. ونحو مستشفيات و مستوصفات .. وعنيت بدرس احوال فلسطين خصوصا درسا دقيقا .. وكانت مدارسها من ارقى المدارس وافضلها في جودة الاساليب والتثقيف .. وكانت كلها مجانية تقدم للطلاب الكتب والادوات المدرسية .. وقد وجدت الطبقة الفقيرة فيها اكبر عون . وكانت مدارسها مقتصره في بادئ الامر على فلسطين الى أن كانت سنة ١٨٩٥ فامتدت الى سوريا . (١)

ثم في هذه السنوات ذاتها من القرن التاسع عشر بلغت الجمعيات الكاثوليكية في سورية ستا وعشرين وكان لها في بلدان فلسطين اديرة ومستشفيات ومدارس ودور ايتام .

وبمساعي المبشرين الاميركان والانكليز ومصارفهم المادية ونفوذهم المعنوى قامت حركة لنشر البروتستانتية وتعميمها في سورية في هذه السنوات كذلك (٢) "فقد ابتدأت تتوارد على سوريا وفلسطين قبل نصف الجيل التاسع عشر الارساليات الروحية الكاثوليكية والبروتستانتية من رهبان وراهبات ومعلمين ومعلمات واطباء وعلماء وخلافهم .. وقد اجتذبوا السكان بتقديمهم لهم كل ما يلزم من المدارس المجانيه والمستشفيات والبدل العسكرى والحماية من قساوة الاتراك وكل ما قدروا عليه .. وبالاجمال فانهم هجموا على الشرق بكل ما عندهم من الاستعداد الجهنمي والوسائط السرية . . وقد مهدوا طريقا لدخول اللاتين على الارتوذكسية في فلسطين وسوريا .." (٣)

وفي سنة ١٨٤١ تأسست اسقفية اورشليم البروتستانتيه باتفاق انكلترا وبروسيا معا .. وحين جاء المطران كوبت ــ البروسي التبعية ــ دخل اورشليم سنة ١٨٤٧ . وتوفى فيها سنة ١٨٧٩ . وفي ايامه اخذت الارساليات الانجيلية تشتغل بجد وتسير بانتظام " وفضلا عما له من الفضل في نشر المعرفة الدينية الانجيلية فهو يعد ايضا غارس بذور النهضة العلمية في فلسطين بما انشأه فيها من المدارس التي لم يكن منها قبله ما يستحق الذكر ." (٤)

وحين نطلع على جدول المدارس في مدن فلسطين نجد اكثرها لم تبدأ الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : فمدرسة صهيون الداخلية مثلا انشئت سنة ١٨٥١ في القدس ومكتب الرشيديه انشئ سنة ١٨٦٨ .

---

(١) النفائس العصرية / جزء ٨ / سنة ٧ ١٩١٩ ص ٦٥ ــ ٦٧ (٢) ولاية بيروت القسم الجنوبي / ص ٢٠ ــ ٢٩ (٣) تاريخ الجمعيه الارتوذكسية الفلسطينيه ص ٥٤ ــ ٥٥ (٤) تاريخ الناصره ص ٨٢ .

وكذلك الامر في نابلس وعكا وطبرية وصفد وغيرها (١) . وفي سنة ١٨٦٠ اسس الدكتور شنلر الالماني دار الايتام السورية (٢) .. وفي هذه السنين كان المسجد الاقصى قد نشطت فيه العلوم الدينيه واللغوية واصبح ملتقى طالبي العلم من مختلف الديار الاسلامية .(٣)

كما أن ابحاثا علميه قد نشطت في هذه المرحلة حول الاثار . واستجلاء الغوامض من باطن الارض في فلسطين ، واسست جمعيات في انكلترا والمانيا بقصد البحث عن آثار فلسطين .. " واهم المباحث بكل معنى الكلمة في معرفة آثار فلسطين وخباياها يرجع تاريخها الى سنتي ١٨٩٧ و ١٨٩٨.. وقد سبق هذا التاريخ تأسيس الشركات في انكلترا سنة ١٨٦٥ وفي المانيا سنة ١٨٧٧ للغرض نفسه (٤) .

وفي هذه المرحلة وجهت العناية وتزايدت بكل ما يتصل بفلسطين ، حتى طيورها كان لها حظ من العناية كبير ، فقد احصيت انواعها ووصفت في كتاب خاص وضعه القانوني الانكليزي ترسترام Tristram في هذه المرحلة الزمانية اذ احصى من طيور فلسطين سنة ١٨٨٨ نحو (٣٨٤) نوعا ، وجعلوا بعد ذلك يضيفون الى هذه الانواع ما يكتشفونه في هذا الموضوع (٥) .

حتى المستعمرات الصهيونية اخذت تنشئها الجمعيات واللجان الصهيونية وكبار متمولي اليهود في هذه السنوات المتأخرة من القرن التاسع عشر : كمستعمرات يافا وضواحيها ، ومستعمرات القدس وصفد وحيفا (٦) .

وفي هذه المرحلة نظمت المكتبات في هذه الديار : ففي سنة ١٨٤٧ مثلا طبعت فهارس محتويات مكتبة البطريركية الارثوذكسية في القدس وكانت تضم حوالي الاربعمائة مخطوطة .. هذا عدا عشرة الاف كتاب مطبوع (٧) كما بلغ عدد المجلدات في المكتبة الاحمدية التي اسسها احمد باشا الجزار في عكا ما يقرب من الالف مجلد مطبوع والمائتي مجلد مخطوط (٨) ، وازدهرت مكتبة المسجد الاقصى في هذه الفترة ، كما امتلأت مكتبة دار مطرانية الروم الكاثوليك في عكا بالكتب المطبوعة والمخطوطات النادرة (٩) . واصبحت المكتبة الخالدية في القدس تضم ستة الاف كتاب وقد اسسها الشيخ خليل الخالدي (١٠)

---

(١) المقتطف / جزء ٨٥٧ / سنة ١٨٨٣ ص ٣٨٥ وص ٤٧٠ (٢) الهلال جزء ٦/ سنة ٢٢ ١٩١٤ ص ٦٠٣ (٣) الاديب / جزء ٤/ سنة ٨ ص ٣١ (٤) معرض اقلام الزهره عدد ٦ / سنه ٣ ص ٢١٢ — ٢١٤ (٥) المشرق / عدد ١٢ / سنة ١٦ ١٩١٣ ص ٩٠١— ٩٠٨ (٦) المشرق / عدد ٢٣ / سنه ٢ ١٨٩٩ ص ١٠٨٨ — ١٠٩٤ (٧) الاديب / جزء ١/ سنة ١٠ ص ٦٣ . (٨) الزهره / السنه ٣/ عدد ١٣ — ١٤ ص ٣٣٤ (٩) الزهرة / السنه الرابعة (١٠) "صاحب مختار الصحاح" / هامش ص ٧ .

وفي هذه السنوات من القرن التاسع عشر انشئت المطابع في انحاء البلاد .. وقد بلغت درجة بعيدة في الرقي ، كمطبعة الاباء الفرنسسكانيين التي انشئت سنة ١٨٤٧ ، ومطبعة دير الروم الارتوذكسي التي انشئت سنة ١٨٥١ ، ومطبعة جمعية المرسلين الكنائسيه الانجليزيه وانشئت سنة ١٨٧٩ وغيرها (١).

حتى اذا كانت الفترة ما بين سنة ١٨٩٢ و ١٩٠٩ وجدنا ان مطبعة واحدة في بيت المقدس — هي مطبعة جورج حنانيا — تطبع مائتين وواحدا وثمانين كتابا بالعربية وبعض اللغات الاوروبية .(٢)

كل هذه العوامل في هذه السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر تجعلنا نتخذها بدايه " للنهضة الادبية في هذا الوطن العربي الصغير . ففيها احسّ العرب والاتراك بثقل القيود الاقطاعية التي تقيد تطورهم التاريخي ، وراحوا يعدون العدة للانقلاب الكبير بعد ان تهيأت الاسباب ونضجت المقدمات فالاتراك على اثر الاصداء الثورية التي وصلتهم من الغرب ، وعلى اثر نشوء البرجوازية في محيطهم رغبوا في تحطيم الحكم الحميدى ممثل الاقطاعيه الاستبداديه المطلقة مدفوعين بعامل الانقلاب البرجوازى الديمقراطي الرامي الى كسر شوكة السلطان المستبد وتمكين العناصر النامية من الاتراك كي تسير بالبلاد نحو الهدف المنشود فالتقوا بذلك مع العرب الراغبين في تحطيم الحكم الحميدى تدفعهم عوامل التحرر الوطني الرامي في هدفه التاريخي الى الانفصال عن الاتراك وايجاد مقومات خاصة بالشعوب العربيه تضمن لها سيادتها القوميه ، السياسية والاقتصادية .. وهكذا اجتمعت الرغبتان وكانت الوحدة العثمانية والجامعة الاسلامية مظهرا خارجيا فقط لاجتماع المصالح والرغبات الى حين (٣) .

كل هذه الظروف التي عرضنا لها والتي توفرت اسبابها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جعلت الجمود القومي والسياسي والاقتصادى والثقافي يهتز فيبدأ هذا القطر العربي في مرحلة جديدة من نهضته الثقافية الحديثة : ففي هذه المرحلة سمعنا صوت المنتقدين يرتفع لاول مرة في قاعة مجلس النواب (المبعوثان) ، وكان من "بين المنتقدين ضيا بك الخالدى نائب القدس" (٤) .. وكانت بداية تجربة سياسية لها خطرها .

---

(١) المقتطف / جزء ٨ / سنه ٧ ١٨٨٣ ص ٤٧٢ // وانظر "فن الطباعه في القدس الشريف" لشيخو / المشرق عدد ٢ سنه ٥ ١٩٠٢ (٢) الكتاب العربي الفلسطيني / المقدمة ص ٤ . (٣) الحركة الوطنية العربيه / بقلم نجاتي صدقي / في الطليعة عدد ٩ سنه ٣ ١٩٣٧ ص ٧٢٦ — ٧٣٤ (٤) الهلال / سنه ١٧ / ١٩٠٨ — ١٩٠٩ ص ١٢

كل هذه البدايات : في المدارس.. والارساليات الاجنبية ....
وعلم الاثار .. والمكتبات .. والمطابع .. وا جمعيات.. والهيئات الصهيونية.. والحركات السياسيه .. تجعلنا نطمئن الى ان بذور النهضة الحديثة في فلسطين قد مدت جذورها في النصف الثاني من القرن التاسع‌عشر .. وسنمضي في هذا الحيز الزماني بكل ما فيه من احداث موئثرة في الادب ومتأثرة به حتى نبلغ أيام النكبة التي وقعت بالبلاد حيث نقف عندها لانها بداية مرحلة جديدة في حياة هذا الوطن طبعت الحياة العربية كلها بلون جديد ، وهزّت كيانها هزة عنيفه غيرت النظم كلها ، وخلقت نمطا جديدا من انماط التفكير في الشرق العربي كله ..!

الباب الأول :

الفصل الأول :

١ ـ الظروف الاقتصادية .

لقد غزا الارض الفلسطينية فاتحون عديدون الا ان العرب من بين هؤلاء الفاتحين هم الذين استقروا في البلاد على امتن الأسس ، وقد صهروا فيهم عناصر السكان الاصليين ، وطبعوا البلاد بطابع الشرق العربي . ومن محتويات هذا الطابع الصفة الزراعية للاقتصاد الفلسطيني ، ومع ذلك فقد حققت هذه البلاد شيئا أثناء ذلك من التقدم الصناعي بالنسبة للاقطار المجاورة (١) .

وقد خضع هذا القطر الصغير للسيادة التركية ، ووقع في ظلام نظام اقطاعي بغيض ، وامتد الركود الذى اصاب حياة اهله قرونا .. كانت مصالح اقطاعيي الاناضول ، وتجار الاستانة هي التي تتحكم بالنظام في البلاد .. الاراضي الخصيبة ملك السلطان يتصرف فيها أنى شاء .. يمنحها من يشاء ويحرمها من يشاء . وما كان ينطبق على الاراضي في تركيا كان ينطبق عليها في البلاد التابعة للباب العالي .. ولكن هناك فرقا قليلا كان له تأثيره .. ذلك ان الديوان العالي في الاستانه لم يكن ينظر الى هذا القطر وسائر اجزاء سوريا الاخرى الا انها سبيل الى توطيد حكمه فيها والمحافظة على الطريق الى مصر . وفيما خلا ذلك كان الاتراك يعدون سوريا بقرة حلوبا يجبون الاموال من اهاليها .. وقد كانت الضرائب تجبى بطريقة المزاد العلني .. وكلما ضعفت شوكة الحكومة المركزية في الاستانة كانت شوكة الامراء الاقطاعيين تقوى وتشتد .. فكانوا حينا في جانب الوالي التركي .. وحينا آخر يقومون عليه . وقد كان الوالي يحكم المدن الكبيره حكما مباشرا : أما الارياف وما بعد من اطراف البلاد فكانت السيطرة فيها للامراء الاقطاعيين (٢) .. كل ذلك كان له اسوأ العواقب في حالة البلاد الاقتصادية في الفترة التي سبقت النصف الثاني من القرن التاسع عشر .. لكن هذا التناقض بين مصالح امراء الاقطاع من جهة وبين مصالح الوالي التركي من جهة ثانية .. ونشوء طبقة برجوازيه جديدة في تركيا بحكم تجارتها مع اوروبا ، وصلاتها السلمية او الحربية .. وهذه الاصداء التي اخذت تتردد في اسماع مثقفي الاستانة عن الثورات في الغرب وعن الحريات وعن الدساتير كل ذلك جعل العرب والاتراك في فترتنا الزمنية التي ندرسها يتذمرون من القيود الاقطاعية التي تقيد تطورهم التاريخي .. وجعلوا يعزون هزائمهم المتكررة ، وضعفهم في وجه دول الغرب الى هذه النظم الاقطاعية التي تشدهم الى الوراء .. فراحوا يعدون العدة للانقلاب الكبير بعد ان تهيأت الاسباب ونضجت المقدمات ..

---

(١) انظر مقال "فلسطين تحت نير الاستعمار" في الطريق / مجلد ٥/ جزء ١٦ ص ٥ ، ٦ ، ١٥ ، ٢١ ، ٢٢ . (٢) "الاعلام بفضائل الشام" / المقدمة ص ١٣ ـ ٢١

وهكذا التقى العرب والاتراك على هدف واحد الغاية منه تحطيم الحكم الحميدى ممثل الاقطاعيه الاستبدادية المطلقة حتى يتاح للعناصر البرجوازية التركية كسر شوكة السلطان المستبد • وكان العرب يرومون من وراء ذلك ايجاد مقومات خاصة بالشعوب العربية تضمن لهم السيادة القوميه السياسيه والاقتصاديه •

وليس من شك في ان التشكيلات الزراعيه التي ظهرت في البلاد نتيجة لاعلان الدستور ايام الحكم العثماني قد خطت بالبلاد خطوة في طريق التقـــدم الاقتصادى • فقد تقرر تأسيس مكتب زراعي في كل لواء من الوية بيروت • وخصصت مقادير معينه في الميزانيه العموميه لمدير الزراعه ولمعلمي الزراعه في عكا وحيفا •• ثم تبين الناس آنذاك نجاح الطرق الزراعيه المبنية على الاسس العلمية في النموذجات الزراعية التي انشأها المهاجرون الاوروبيون في حيفا وفي عدة محلات من فلسطين (١) •

وبدأت طلائع التنبه واليقظه تظهر على الناس •• ففي حيفا مثلا تجدهم يوءلفون لانفسهم جمعيه "الاخاء الاسلامي" ويفتتحون صيدلية وحانوتين لصنع الاحذية بعد الانقلاب مباشرة •(٢)

ولكن بعد اسقاط الحكم الحميدى الاقطاعي في داخل تركيا ، ورجحان الكفة بجانب الاتجاه البرجوازى ، عاد الاتحاديون المتحررون الى التمسك بنظام السلطنة الامبراطورى اذ رأوا فيه النظام الذى يضمن لهم النهب والاستثمار •• فنتج عن ذلك فقدان التقارب التركي العربي •• وظهر للعرب ان اضطهادهم انتقل من يد السلطان ممثل الاستبداد الاقطاعي المطلق الى يد العناصر البرجوازيه التركيه التي آزروها اول الامر •• وهذا ما دفع العرب الى مكافحة كل اشكال السيطرة التركيه متخذين اهدافا تتناسب ومختلف الاوضاع التاريخيه •• لان النزعه القوميه (الطورانيه) التي انتهجها الاتحاديون الاتراك استفزت الشعور القومي في شعوب الامبراطوريه بجميعها • وقد صاحب ذلك ظهور بذور الرأسماليه في التربة العربيه ، تلك البذور التي نثرها ازدهار الاستعمار الغربي في مطلع القرن العشرين حيث اخذ يندس في الاقطار العربية وقد رأى في هذه البلاد اخصب الاسواق للرأسمال الغربي •• وكانت المعارض التجارية تطوف الموانيء الشرقية لتعرض بضائعها في اسواقها : "نهار الاحد الواقع في ١٧ و ٣٠ كانون الثاني سنة ١٩١٠ وصل الى حيفا المعرض الروسي الطواف (الباخرة نقولا الثاني) حاملا ما لا يحصى من المعروضات المختلفة ، وكلها من مصنوعات روسيا ومنسوجاتها وحاصلاتها وكانت كلها معروضة بمنتهى الذوق والاتقان والابداع ••

---

(١) "ولاية بيروت" القسم الجنوبي ص ٥٩ ، ٦٢ • (٢) "ولاية بيروت" القسم الاول ص ٢٤٩ •

وكانت موسيقى الباخرة تعزف الحانها المطربه .. وقد زار هذا المعرض جمهور من التجار فاعجبوا بتنظيمه .. ومما علمناه من الربان ان المعرض استقبل ، في اكثر الموانئ الشرقية بغاية الترحاب والبهجة وزاره من الاستانة وحدها اكثر من سبعين الفا نسمة ، وكان له في سالانيك استقبال نادر المثال . فعسى ان تتوثق عرى المواصلات التجاريه بين المملكتين العثمانية والروسيه " (١)

ثم تألفت البنوك الاجنبية بكثرة : (ارتومان بنك) و (ديتشه الدجمينه بانك) و (الكريدى ليونيه) .. وتغلغلت في الاقتصاد العربي .. فاخذ العـــرب يشغلون بحركات (البورصة) .. واتصلوا بالشركات التجارية الرأسماليه الاجنبيه وتعاظم فيما بينهم التداول النقدى ، وتلاشت معالم المقايضة بالمحصولات الطبيعية كل ذلك خلق جماعات شبه رأسمالية عربية تتصل مصالحها بمصالح الرأســـــمال الاجنبي تحاول أن تتبع خطاه . وتحس بضرورة تحطيم الحواجز التي وضعها الحكام الاتراك في سبيل تطور اقتصاديات العرب ووسائل انتاجهم .. وهكذا اخذت العوامل الاقتصاديه تتفاعل مع العوامل القوميه الاخرى من سخط على الاستبداد وحب القوميه التاريخيه العربيه واللغة الحية وللثقافة الشهيرة البناءة . والمدنية الزاهرة العظيمة والحنين الى الامجاد السالفة .. كل ذلك جعل العرب يدخلون في طور جديد من اطوار النضال بعد ظهور نوايا البرجوازية التركية التحكميه .. فانسحب العرب من نوادى الاتحاديين جملة ، واخذوا يؤلفون لانفسهم النوادى والجمعيات والاحزاب تحت شعارات تتطور بحكم الظروف .. بدأت بشعار المساواه بالاتراك .. وانتقلت الى شعار الاستقلال الذاتي او اللامركزية الادارية .. وانتهت الى شعار الاستقلال التام .. واخذنا نرى في مقاصدها منذ المرحلة الاولى المطالبة بتأسيس معامل وشركات زراعية وتجاريه وصناعيه .. وتحضير البدو في الاراضي .. وتعليمهم الحرف . ولما كانت تركيا في ادوار بدائية بالنسبة للرأسمالية الصناعية الغربية الكبيرة ، فقد كانت رؤوس اموالها مقصوصة الجناح بالنسبة للاستعمار الغربي ، فلم تكن تستطيع تصدير رؤوس اموالها حتى الى شعوب امبراطوريتها ، ولم تكن لها منتجات صناعية تصدرها الى الاسواق العربية ... ولهذا كانت عيون الرأسمالية الصناعية الغربية متجهة الى بلادنا في اثناء الحكم التركي لان الاستعمار الحديث كان يقوم على تصدير رؤوس الاموال واحتكار دور البنوك والصناعات وتقسيم العالم بين الدول الرأسماليه الكبرى واحتكار مصادر المواد الخام في المستعمرات وجعل هذه المستعمرات اسواقا تباع فيها البضائع الرأسمالية وتستثمر فيها ايدى ابناء الشعوب

---

(١) النفائس العصريه / جزء ٤ / مجلد ٢ ١٩١٠ / ص ٢٤٣ — ٢٤٤

المضطهده بأجور زهيدة ٠٠ فما موقف تركيا هنا ومن هذا الاستعمار الرأسمالي الصناعي الغربي ٠؟! ان تركيا كانت مكتفية باستغلال اخصب اراضينا حيث يتقدم الحكام الاقطاعيون بقسم من منتجات هذه الارض الى الباب العالي ، وقسم يحتفظون به لانفسهم ، وقسم للشؤون الدينية ٠ وقسم لصندوق السلطنة العام اما الصناعة ٠٠ اما تصدير رأس المال ٠٠ اما الاسواق للمنتجات الصناعية ، فلم تكن تركيا تعرف شيئا من ذلك ٠ لهذا كله سهل على الاستعمار الغربي التغلغل في بلادنا قبل حلوله سياسيا ، وقد شجعته تركيا لانها كانت تتقاضى منه ما يتقاضاه الوكيل التجارى حينما يكون وسيطا ٠٠ كان دور تركيا دور الوكيل التجارى للدول الرأسمالية الاوروبية ٠٠ ومن هنا منحت الامتيازات في بلادنا لالمانيا ، والنمسا ، وفرنسا ، وانكلترا وايطاليا ، وروسيا القيصرية ٠٠ وكانت تتقاضى (العمولة) على هذه الوساطة ٠٠ ومن هنا كان تساهلها وتهاونها ومساومتها الدول الغربية على احتلال مصر (١٨٨٢) وطرابلس الغرب (١٩١٢) ٠٠ فضعف برجوازيتها وضآلة رأسماليتها الصناعية امام الصناعة الاوروبية ورأس المال الغربي جعلها تفتح ابواب البلاد العربية لتيار الاستعمار الغربي الجارف ٠٠ ومن هنا كان النضال الاقتصادى الذى قام بين العرب والاتراك نضالا زراعيا موجها ضد الاقطاعيين الاتراك الذين كانوا يشغلون حينذاك رتب الحكام والموظفين الرسميين ٠٠ وكان نضالا تجاريا باعتبار الحكام الاتراك وكلاء او عملاء او وسطاء المشركات الرأسمالية الغربية في البلاد العربية ٠

"لم تكن سيطرة الاتراك على مقدرات هذه البلاد هي العامل الاساسي الذى غير معالم الحياة العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين ٠ فكل ما كان باستطاعة الاقطاعية التركية فعله هو عرقلة تطور العرب لا اكثر ٠٠ اما دهورة كيانهم الاجتماعي ، وتشويه شكل حياتهم القومية فذلك مرجعه الاستعمار الغربي الحائز على درجة اجتماعية من التطور تفوق بكثير ما عليه الاتراك ! اجل لقد ادى تغلغل الاستعمار الغربي ، الاقتصادى والديني والثقافي والتقليدى في البلاد العربية الى نشر الروح الفوضى والاضطراب في سائر ارجائها ٠ فالغربيون المسلحون بانظمة انتاجيه تفوق انظمة الاتراك والعرب في الانتاج اندسوا تدريجيا في مختلف نواحي حياة العرب ، وكان لانسيابهم مفعول شديد الوطأة دمر الحياة المشاعية القروية القديمة ودهور اسس المجتمع العربي الاقتصادية ، ولم يدخل من الاساليب الجديدة الا ما هو في صالح التجارة والصناعة الغربية ٠٠ فالخطوط الحديدية مثلا لم تمد من اجل انماء قوى العرب الانتاجية بل من اجل القضاء على طرق المواصلات الاهليه ٠٠

والموانئ لم تشد من اجل الاساطيل التجارية والحربية العربية وانما شيدت من اجل التجارة الغربية .. والمدارس ودور التبشير لم تؤسس لتأخذ بيد الثقافة العربية وتقوى العرب في معتقداتهم .. بل اسست لمكافحة هذه الثقافة والمعتقدات .. فكانت النتيجه ان تزعزعت التربة تحت اقدام العرب فانهارت اقتصادياتهم وانتشرت الفوضى الفكريه في اوساطهم .. واحدثت الغزوة الاستعمارية الغربية انقلابا ولكنه انقلاب اصطناعي في حياة العرب نضج حياتهم الانتاجيه والاجتماعية وعرقل الانقلاب الطبيعي الاصلي الذى يمكن ان يصلوا اليه بالتطور السليم .. وبذلك ابعد العرب عن الوصول الى ابنيتهم الوطنيه التحررية التي هي جزء من الاماني الانسانية السامية. وهي جناية هيأ لها ظروفها الاتراك الحميديون والاتحاديون من بعدهم .. واصبح للاستعمار الغربي اسس ماليه وتجاريه وثقافيه في ديارنا يعتبرها هو تقاليد تاريخيه .. ولم يعد بعد ذلك موجب لبقاء الدور الذى كانت تلعبه تركيا وسيطة تجاريه بين العرب والاستعمار الغربي .. فعقدت الدول الغربية النيه على تنفيذ فكرة تحطيم الامبراطورية التركية .. وحين شعرت هذه الدول بحركة العرب الوطنية قررت فصل العرب عن الترك في حالة اعلان الحرب على الاستانة .. واتخذوا لذلك وسائطهم المختلفة .. وهكذا استفادت الدول الاستعماريه من حركة العرب الوطنية وثورتهم على الاتراك " (١)

وقد عرفت بريطانيا اثناء هذا كله اهمية فلسطين الستراتيجية كمركز امامي له اهميته في الدفاع عن الامبراطورية البريطانية، وحمايتها، وكنقطة اتصال بين بريطانيا وسائر امبراطوريتها، وكمصب على البحر المتوسط لبترول العراق الذى يتدفق بانابيب عبر الصحراء ليصل الى فلسطين، ويوزع الى مختلف انحاء العالم . وقد كانت الدول الاستعمارية آنذاك تحمل بعض مواطنيها على الهجرة الى المستعمرات والتوطن فيها كوسيلة من وسائل الاحتفاظ بها والسيطرة عليها كما فعل الانكليز في جنوب افريقيا، وفي استراليا، وكما فعل الفرنسيون في الجزائر وكما فعل الايطاليون في طرابلس .. وكأن فكرة الاستيطان في فلسطين لم ترق في وجه المواطنين الانكليز، فوجد المستعمرون البريطانيون شبيها بها فكرة الوطن القومي اليهودى، وهجرة اليهود، لتضمن لهم اهدافهم ومصالحهم .

وقد تبدلت الحال في فلسطين بعد الاحتلال الانكليزى، وتحولت الاحوال الاقتصاديه من حالة زراعية الى حالة صناعية ...

---

(١) جل هذه الحقائق والتفسيرات والتوجيهات التي سبقتها مأخوذة من توجيهات الاستاذ نجاتي صدقي في سلسلة مقالاته التي كتبها حول الحركة الوطنية العربية في الطليعة : اعداد ٩، ١٠ سنة ثالثة / واعداد ١، ٢، ٣، ٤ سنه رابعة .

واخذت تتركز النهضة الصناعية بايدى عدد قليل من اصحاب رؤوس الاموال لانها اتجهت نحو الاحتكار ، وتركيز الثروة ، ووسائل الانتاج في ايدى قبضة صغيرة من رجال المال والاحتكار ٠٠ وقد اصبحت نسبة عدد المشروعات الصناعية الكبيرة في فلسطين عام ١٩٣٧ (٢٧ر٧ ٪) من مجموع الصناعات ، ونسبة عدد هذه المشروعات الصناعية الصغيرة (٧٢ر٣ ٪) ونسبة عدد العمال المشتغلين في هذه المؤسسات الكبيرة ٧٢٫٣٪ ، وفي الصغيرة (٢٨ ٪) ٠٠ وكان الرأسمال المرصود في هذه الصناعات الكبرى (٩٢ر٨ ٪) ، وفي الصغرى (٧ر٢ ٪) ٠٠ وهكذا فان الثروة والقوة الانتاجية كانت متمركزة في المصانع الكبيرة ٠٠ ولقد بلغ عدد المؤسسات الصناعية في فلسطين عام ١٩٢٩ (٢٤٧٥) مؤسسة ٠٠ وزاد العدد في عام ١٩٣٧ حتى بلغ (٥٦٠٦) ٠٠ اى تضاعف تقريبا في حين ان رأس المال المرصود تضاعف من مثل الى خمسة امثال ٠٠ وكذلك قيمة الانتاج تضاعفت من مثل الى اربعة امثال ٠٠ وتدلنا هذه الارقام على ان الاقتصاد في فلسطين اتجه اتجاها احتكاريا استغلاليا يرمي الى جمع الثروة وحصرها بايدى قبضة من كبار المتمولين والمستثمرين المستغلين ٠٠ واصبحت فلسطين مركزا لتوظيف رؤوس الاموال الاجنبية واستثمارها ، وعقدت القروض مع المؤسسات المالية الكبرى الموجودة في فلسطين وهي : البنك الانكليزى الفلسطيني والمؤسسة الصهيونية ، والبنك الصناعي ، وبنك العمل ٠٠ وقد اشترطت هذه المؤسسات الاربع على المؤسسات الصناعية الاشراف عليها لقاء مدها بالاموال الضرورية ٠ وقد خضعت الحياة الاقتصادية الصهيونية في فلسطين باجمعها لسيطرة المؤسسات المالية الاربع وبالدرجة الاولى مؤسستي البنك الانكليزى ، والمؤسسة الصهيونية ٠٠ وقد كانت فلسطين تعتمد في تصدير البضائع على تصدير الحمضيات في الدرجة الاولى ، وتصدير املاح البوتاس المستخرج من البحر الميت في الدرجة الثانية ، وتصدير زيت الزيتون والصابون والخمور والجلود والنحاس في الدرجة الثالثة ٠٠ وكان البترول الذى يصب في مرفأ حيفا يجتاز فلسطين بشكل (ترانزيت) فقط ٠٠ حتى اذا كانت الحرب الثانية دخل على الاقتصاد في فلسطين تعديلات اساسية ٠٠ فقد اقتضت ضرورة الحرب انشاء مصفاة للبترول في حيفا ٠٠ واصبح للبترول صناعة محلية في البلاد بعد ان كان يعبر البلاد عبورا ليس غير ٠ وادت الحرب الى اختفاء املاح البوتاس الالزاسية من الاسواق ، فخلت السوق لاملاح فلسطين ، فضاعفت انتاجه ، ورفعته الى اربعة امثال ٠٠ وحين اختفت اغلب البضائع من الاسواق بسبب ظروف الحرب نشأت في فلسطين عدة صناعات ، ونجحت في تصديرها الى الخارج رغم ارتفاع تكاليف الانتاج وعدم جودتها اذا قيست بالبضائع الاجنبية ،

ولكنها فقدت المنافسة لها في الاسواق طوال مدة الحرب (١)

ولكن نصيب العرب من هذه الصناعات لم يكن موفورا ، فقد كانت بعض الصناعات العربية كصناعة الصابون تقوم في نطاق ضيق فكانت نسبة المشتغلين بها من السكان ٥ ٪ •• فقد كانت السياسة تتجه نحو تنمية الاقتصاد اليهودى على حساب المصالح العربيه •• وقد ساهمت السياسة الاستعماريه في خلق كتلة كبيرة من العرب الذين لا ارض لهم والذين لا يمكنهم ايجاد عمل في الصناعة العربية التي حيل بينها وبين ظروف الانماء الصناعي التي هيئت الصناعة اليهودية(٢)

وقد ربط الصهيونيون انفسهم وقضيتهم باهداف الاستعمار في الشرق العربي •• وربطوا انفسهم وثرواتهم في شبكة الاستثمار البريطانيه واحتموا بنزعة التوسع الاقتصادى الاميركي •(٣)

فقد بلغت ارباح شركة (تنوفا) التي كانت تحتكر الاتجار بالمنتوجات الزراعية في المنطقة اليهوديه مليونا من الجنيهات الفلسطينية •• وكانت الصناعات الفلسطينيه تقع تحت السيطرة الكلية للرأسمال الاجنبي • وقد جعل البريطانيون من فلسطين اثناء الحرب معملا ضخما للمنتوجات الصيدليه يستخرجونها من العناصر المعدنيه في البحر الميت • اما استثمار هذه الموارد فكان محصورا في " شركة بوتاس فلسطين " التي تملكها شركه كيماويه انكليزيه مدة امتيازها ٧٥ عاما • وفي سنوات الحرب الاخيره خصص للجيش الانكليزى جميع انتاج معامل البحر الميت • وتملك شركة فلسطين للكهرباء وحدها حق انتاج وتوزيع القوة الكهربائيه في جميع انحاء فلسطين • وكان الاشراف على مالية البلاد تقوم به عدة شركات بنكيه رأسمالها انكليزى في معظمه • وكان المسيطر الفعلي على تداول النقد في فلسطين هو (بنك باركليس) في لندن • (٤)

ولقد احس اصحاب رؤوس الاموال الاجنبية ان البلاد لا بد لها من تطور بحيث تنتقل من المرحلة الزراعية الى المرحلة الصناعيه حتى تصبح سوقا للانتاج الاجنبي وحتى تصبح مستهلكة لاكبر قدر ممكن من المصنوعات : ولكي يضمنوا لانفسهم النهوض بالبلاد الى حد لا تبلغ فيه منافسة الانتاج الاجنبي لجأوا الى هذه الطريقة من طرق الاحتكار في المؤسسات الصناعية ••

---

(١) الحقائق والارقام والاستنتاجات حول الاقتصاد الفلسطيني في هذا البحث جلها من بحث بعنوان " المشكله الفلسطينيه على ضوء التطور الاقتصادى في فلسطين " بقلم منير سليمان / الطريق مجلد ٤ جزء ١٩ ، ٢٠ ص ٤٠٣ (٢) مقال بعنوان " قضيتا اليهود وفلسطين " في الطريق مجلد ٥ جزء ٤ ، ٥ ص ٢٦ ــ ٢٨ (٣) " القضية الفلسطينية " مقال بقلم رئيف خوري في الطريق مجلد ٥ جزء ٦ ص ١ ــ ٥ (٤) " فلسطين تحت نير الاستعمار " بحث في الطريق / مجلد ٥ جزء ١٦ ص ٥ ، ٦ ، ١٥ ، ٢١ ، ٢٢ •

واحتكروا انظمة الحكم في البلاد فلم يبيحوا اى نوع من انواع اشتراك العرب في الحكم .. فالمندوب السامي البريطاني الذى كان يتولى ادارة فلسطين بالتعاون مع موظفيه كان السيد المطلق في البلاد يتمتع بسلطات اكثر من تلك التي كان يتمتع بها ملوك الشرق في الازمنة الغابرة (١) وبذلك نمنوا تطور البلاد تطورا ينفع مصالحهم المالية ويودى بالبلاد الى الهاوية التي اعدوها له !

ونقرأ لمندوب (المورننغ بوست) الانكليزيه في دراسته للاحوال السياسيه والاجتماعية والاقتصاديه والقوميه في فلسطين مقابلة بين العهدين التركي والبريطاني : " ومما يضغط على العربي اشد الضغط حصر تجارته بعد عقد الصلح . فقد كانت تجارته حرة مع سوريا ، وكان سفره من سوريا واليها حرا اما اليوم فان التجارة والسفر يكتنفهما من المصاعب ما يكاد يجعلهما مستحيلين . والتجارة مع مصر مقيدة ايضا .. ان الاتراك كان لهم في البلاد بنك زراعي يستمد رأس ماله من الضرائب المفروضة على المزارعين ويستعين به الفلاحون الوطنيون لاحياء اراضيهم واستغلالها . واما البريطانيون فلم ينشئوا او يعيدوا هذا البنك مع انهم لا يزالون يجبون الضرائب المذكورة . فحرموا بذلك الفلاح هذا الملجأ المالي الذى لا بد منه . بينما نرى الوسائل الماليه الشتى ميسورة لليهود يستعينون بها على قدر حاجاتهم واكثر من حاجتهم ." (٢)

حتى المشكلات الطائفة كانت تتهم من تدخل مثل هذه المؤسسات الماليه الاجنبيه .. ففي ٢٧ آب ١٩١٩ حضر مندوب البنك اليوناني الملكي الى القدس لاجل المفاوضه مع البطريركية في القرض الذى تنوى عقده لاجل وفاء دينها الضخم بفائدة ٣ ٪ على شرط ان تربط به جميع املاكها الغير المنقولة التي في فلسطين وغيرها من البلدان بصفة رهن حتى يتيسر له استيفاء القرض مع فائدته .. واحضر المندوب المذكور لائحة قوانين داخلية للبطريركة تقضي على حقوق الطائفة الارثوذكسية العربية الوطنية . وقد ادركت الطائفة ان رئاسة البطريرك ومن حوله من اساقفة ورهبان وكلهم يونان تجعلهم يتصرفون بالاملاك والاوقاف حسب مصالحهم التي تتعارض ومصالح الطائفة الوطنية ، وكانت شروط البنك سببا في تجدد الانشقاق البطريركي (٣) .

---

(١) " فلسطين تحت نير الاستعمار " بحث في الطريب مجلد ٥ جزء ١٦ ص ٥ ، ٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، (٢) " فلسطين اليوم " مقال في النفائس/ جزء ٢ سنه ٨ ١٩٢١ ص ٥١ ٥٤ (٣) خلاصة تاريخ كنيسة اورشليم الارثوذكسية / ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ .

ولقد اوجدت هذه الظروف الاقتصاديه تطورا في البلاد ، وكانت اصداء هذا التطور الاقتصادى تتردد في الحياة الثقافيه ، وان يكن التوجيه الثقافي لم يكن في يد اصحابه الذين ينبغي ان يكون في ايديهم •• ومن هنا ادركنا تحويل بعض المدارس من مكتب اعدادى الى مكتب سلطاني بعد الانقلاب العثماني •• ومن هنـــا كانت المكاتب الاعدادية الخاصة لكل طائفة من طوائف الارتوذكس والكاثوليك والارمن واليهود •• ومن هنا انتشرت في البلاد المدارس الاميركية والالمانيه والانكليزيـــة والفرنسية والايطالية والروسيه ، وكان معظم هذه المدارس الاجنبيه تعود الـــى الارساليات الدينيه •• وكانت هذه المدارس الاجنبية تأبى الخضوع لمراقبة وزارة المعارف التركية مستندة الى الامتيازات الاجنبية •

ولقد حرصت حكومة الانتداب في فلسطين ان تتولى ادارة المدارس الحكومية العربية ، وتديرها ادارة مباشرة بينما تركت ادارة المدارس الحكوميـــة اليهوديه للمجلس الملي اليهودى المعروف باسم (وعدليومي) •• ولم تكن منصفة في توزيع اعتمادات التعليم بين العرب واليهود (١) •

وعلى ضوء هذا التطور ندرك انشاء نوع من التعليم المهني في البلاد وندرك تطور المطابع • فنجد ان كانت مطبعة الفرنسيسكان مثلا يستوردون الحروف من النمسا وجدوا انه من الاوفق لهم استيراد الحروف من بيروت •• ولما اتسعت اعمال المطبعة رأى المشرفون عليها ان ينشئوا فيها قسما لسبك الحروف ليستغنوا به عن مسابك بيروت وليزودوا بها مطابع فلسطين •• ثم انشىء للمطبعة قسم للتجليد زود باحدث الالات ، وجلبت المطبعة محركات بخارية لادارة طابعاتها الكبيرة ثم استبدلت بمحركات تدور بالبترول • وحلت محل الاخيره محركات تدور بالكهرباء ، ثم جددت المطبعة آلاتها في ١٩٠٠ وادخلت الطريقة الحديثة في سبك الحروف (٢)

كل ذلك احدث في البلاد نهضة ، واثار فيها حركة الحياة وانتقلت الظروف الاقتصاديه بالوطن الى طور جديد ، وتفتح على آفاق جديدة •• ومارس تجارب متطورة •• لكن الحركة كلها لم تكن مباركة لان الذين يوجهونها لم يكونوا ابنـــاء البلاد •• ومن هنا انقلبت الحركة الى دمار وهلاك وفناء ! وانتهت الى كارثة فلسطين التي لم يحدث مثلها في البلاد •• وفي ظل هذه الظروف الاقتصاديه نشأت العوامل المباشرة للنهضة الادبية في وطننا الصغير !

---

(١) حولية الثقافه العربية / السنة الثانية ص ٨ ، ٩ ، ١٠

(٢) تاريخ الطباعة في الشرق العربي ص ٣٠١ •

وفي ظل هذه الظروف الاقتصاديه نستطيع ان نفهم كيف نشأت شركات في انكلترا والمانيا وغيرهما من اجل الكشف عن الاثار في فلسطين ودراسة احوالها (١)

وفي ظل هذه الظروف ندرك كيف خطط الانكليز والصهيونيون من اجل امتلاك الاراضي الفلسطينيه .. فقد كتب احد زعماء الصهيونيين أو سيشكين في احدى مجلاتهم عن (انتداء) اليهود للارض المقدسة فقال في مجلتهم :(ترجمة المشرق / عدد ٢ سنه ٢٣ شباط ١٩٢٥

(Jud. Presszentrale, Zurich, No. 307, 28 Aout 1924)

" .. فان لم نستملك نحن اينا اراضي فلسطين ونستعمرها بانشاء القرى فيها فلا امل في ان نجعل فلسطين وطنا لنا ، وستبقى عربية .. وليس صعبا على اليهود عاجلا او آجلا ان يحتكروا التجارة والصناعة والتعليم .. اما امتلاك الاراضي فليس هو في وسعنا ، وانما هو منوط بالبائع .. اننا نرى العرب قد انتبه فكرهم الى صالحهم .. واصبحوا يشعرون بكيانهم .. ومن ثم نحسب كل تأخير في امتلاك الاراضي الفلسطينيه جرما لا يغتفر .. ان مساحة الارض في فلسطين تبلغ عشرين مليونا من الدونمات .. للحكومة منها ثلاثون في المائة .. و ٣٥ ٪ املاك الفلاحين .. و ٣٥ ٪ للملاكين الاغنياء .. امامنا اذن الافندية الاغنياء الذين لا يأبون بيع املاكهم ان وجدوا ربحا في بيعها ، وغايتنا خاصة امتلاك سهل اسدرلون (مرج ابن عامر) ، وسواحل البحر والبلاد ا ممتدة بين يافا والقدس من هؤلاء الافندية ."

ومن هذا يلوح ان مستقبل فلسطين كان في ايدى العرب لاسيما الافنديه من كبار الملاكين الذين يطمع اليهود في الاراضي التي يملكونها وقد حدث ذلك بالفعل فتسربت املاك الحكومة ، ثم املاك الافنديه من العرب خارج البلاد الى ايدى الصهيونيين .. وكانت الكارثه (١) .. فالاراضي التي اشتراها الخواجات سرسق وشركاؤهم ١٨٦٩ كانت تشمل نحو عشرين قرية في المرج وجواره .. واشتروا ارض الناصرة من الحكومة ومن هؤلاء الملاكين تسربت الاراضي لليهود بسهولة . (٢) ..

---

(١) المشرق / عدد ٢ / سنة ٢٣ ١٩٢٥ ص ١١٧ — ١٢٤ .
(٢) تاريخ الناصره / ص ٩٧ .

البـــــــــــاب الاول

الفصـــــــــــل الأول

٢ ـ الظـــروف السيـــاسية والاجتمـــاعيـــة ٠

عرفنا ان فلسطين خضعت للسيطرة التركيه قبل وقوعها في شرك الاستعمار الحديث .. ووقعت البلاد بفعل الحكم الاقطاعي العثماني في حال من الجمود والتأخر والفوضى كانت تتخلله بعض الاحداث التي تخفف من هذا الجمود وتثير في نفوس العرب بعض الامال لتخفف حدة تلك القيود الاقطاعيه التي تقيد تطورهم التاريخي .. فقد تخلل العهد العثماني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعض الاصلاحات .. نفي عهد (التنظيمات) قامت الدولة باصلاحات اداريـة وقضائيه وماليه وسياسيه شامله .. اقتداء بالغرب واقتباسا النظم والاساليب التي راجت في الدول الغربيه .. وكان لهذه الاصلاحات اثرها في ميادين العلم والادب ، ولم تكن فكرة (القوميه) بعد قد نضجت عواملها ومسبباتها قبل القرن العشرين .. فالقوميه الاوروبيه نشأت نتيجة لتطور اقتصادي صناعي — ولم تكن ظروف السلطنه العثمانيه على جانب من التطور يكفل لها تحطيم السيطرة الاقطاعيه التي تمثلت في شخص السلطان عبد الحميد .. ولكن عهد التنظيمات الذي استتبع بعض الاصلاحات انتج بذورا في الحياة العثمانيه جديده ، فقد جعل الاتراك يصغون الى نهج جديد في الادب يستجيبون له ، ونزعة جديده في الشعر تستهوي نفوسهم .." الذين يبغون اللغه العربيه ، فليذهبوا الى بلاد العرب .. والذين يبغون اللغه الافرنجيه فليذهبوا الى بلاد الفرنجه .. نحن اتراك ، فينبغي ان يكون لنا لغة تركيه .. " (١) ومضى التطور بالبلاد حتى قامت الضرورة الى تغيير نظام الحكم والتخلص من الاستبداد الحميدي ونظمه الجائره وادارته الفاسده التي نتجت عن ذلك الاستبداد ..

وكان العرب في هذا الدور الذي سبق اعلان دستور سنة ١٩٠٨ اي قبل الانقلاب الاتحادي على اتفاق مع الاتراك في اتجاهاتهم الفكرية ومشاربهم النفسية واهدافهم السياسيه .. كان الاطار الخارجي الذي يجمع العرب والاتراك حينذاك الوحدة العثمانيه والجامعه الاسلاميه اي الخلافه والرابطه الدينيه .. ولكن العرب بعد عهد (التنظيمات) اخذوا يتلمسون انفسهم .. واخذت الاصداء الجديده في الشعر التركي والادب التركي تقرع اسماعهم فاستثارت في نفوسهم عوامل التحرر الوطني الرامي في هدفه التاريخي الى الانفصال عن الاتراك وايجاد مقومات خاصه بالشعوب العربيه تضمن لها سيادتها القوميه والسياسيه والاقتصاديه ..

---

(١) من قصيدة للشاعر ضيا باشا ، من رجال عهد التنظيمات / انظر " محاضرات في نشوء الفكره القومية " ص ١٢٥ .

والذي يقف في سبيل هذا كله هو نظام السلطنه الحميدي الاستبدادي الاقطاعي ٠٠ فلا بد من العمل على تقويضه ، ومن هنا التقوا في الرغبه مع رجال الانقلاب الاتحادي البرجوازي الرامي الى التخلص من شوكة السلطان المستبد وتمكين العناصر الجديدة التركيه من السير بالبلاد نحو الهدف المنشود ٠٠ ومهما يكن طابع الثورات التي قامت على السلطنه العثمانيه في النصف الاول من القرن التاسع عشر فلا بد ان يكون لها آثارها في الحركه الوطنيه العربيه فيما بعد ٠٠ فالحركة في مصر ، والحركة اليمانية والحركة النجديه ، والحركة الدرزية , والحركة اللبنانيه كلها كان لها آثارها غـــير المباشرة في تطوير الحركة الوطنية العربيه ٠٠

كانت حياة العرب الاجتماعية يغلب عليها طابع البساطة نتيجة لعلاقاتها الانتاجيه البسيطة ، اذ كان المجتمع لا يشتغل الا بالانتاج الزراعي ، وقليل من امتهان الحرف الصغيره والاشتغال بالتجارة الضيقة في المحيط الاهلي نفسه ، لا يكاد يتعداه ٠ فكان (٧٠ ٪) منهم قرويون مزارعون و (٢٠٪ حضريون حرفيون ومتعلمون و (١٠ ٪) ذوات واعيان وفقهاء وموظفون ٠

وفقا لهذه العلاقات الانتاجيه في المجتمع الاقطاعي كانت الفطرية هي الطابع الذي يتصف به المجتمع وكان التأخر في كثير من الوان الحياة يشتمل على المجتمع العربي ٠٠ وكان البؤساء يتلقون المساعدات من الاوقاف ومن الهيئات الدينيه ٠ وكان الحكم في حل الخلافات ليس القضاء الشرعي او المدني في كثير من الاحيان بل كبار العائلات او مشايخ الحارات ٠٠ ولكن على اثر التنظيمات ، والاصداء الجديدة ، والاصلاحات الادارية التي تلتها اخذنا نجد قليلا من العرب يدركون ان (امة تركية) تتحكم في (امة عربيه) ٠٠

حتى اذا تم الانقلاب الاتحادي ٠٠ وتربت النزعة (الطورانيه) لدى الاتراك تنبه الشعور القومي العربي نتيجة لعوامل متعددة كشفت عنها نوايا البرجوازيه التركية التحكميه ٠٠ ومرت الحركة العربيه في ادوار ثلاثه ،

الدور الاول : غايته المساواة بالاتراك ٠٠ ويمتد من ١٩٠٨ حتى ١٩١٢

الدور الثاني : وغايته الاستقلال الذاتي او اللامركزيه الادارية ، ويمتد من سنة ١٩١٢ حتى ١٩١٤٠

الدور الثالث : وغايته الاستقلال التام ٠٠ ويمتد من سنة ١٩١٤ حتى نهاية الحرب الكبرى ٠

وقد انفصل الاتراك عن العرب في الدور الاول من اجل تنظيم استعمارهم .. وانفصل العرب عن الاتراك من اجل الدفاع عن مصيرهم واصلاح شؤونهم . وعلى اثر ذلك ظهرت الجمعيات السياسيه العربيه للمطالبه بالعدل والمساواة (١) .. اذ بعد ان تحققت الرغبة التي كانت تجمع العرب بالاتراك مضى كل منهما الى طريقه فافترقت الطريقان .. وكان لا بد لهما من ان يصطدما اصطداما اخذ يقوى ويعنف حتى دخل في دور الحروب بين الجانبين ، وذلك في الدور الثالث من ادوار الحركة الوطنيه العربيه .. وليس يعني ذلك ان الدول الاوروبيه لم تكن تتدخل في الشؤون العربية اثناء عهد الحكم العثماني .. بل ان هذه الدول شعرت بحكم تطورها الصناعي انها في حاجة الى مستعمرات لتستغل ثرواتها وتتخذها اسواقا تبيع فيها منتجاتها الصناعية وتستثمر فيها رؤوس اموالها .. فتطلعت الى الامبراطورية العثمانيه التي كانت في مستوى تطوري من حيث الانتاج متدن جدا بالنسبة الى اوروبا .. فنفذت هذه الدول الى العالم العربي من خلال الضعف التركي .. روسيا القيصرية تحلم بالاستانة وبوغاز الدردنيل .. وقد اقسم نقولا الثاني بأن يدن حريته في اراضي بيت المقدس .. وفرنسا بدأت منذ عام ١٨٦١ تتغلغل في الحياة العربية بدعوى الدفاع عن المسيحيين والمحافظة على المشاريع الاقتصادية التي اقامتها والارساليات التبشيرية التي وضعت اسسها في البلاد .. حتى قال وزير خارجيتها ان لهم في سوريا ولبنان مصالح تقليديه يريدون المحافظة عليها . انكلترا ترى من الطبيعي ان تمتلك كل قطر يقع في طريق الهند .. هذه الطرق ذات الشعب الكثيرة : طريق رأس الرجاء الصالح .. يؤدي للهند .. طريق السويس .. يؤدي للهند .. طريق فلسطين .. يؤدي للهند ... طريق العراق يؤدي للهند . وهكذا وكذلك فعلت ايطاليا بطرابلس الغرب ، ومثلها المانيا التي تزاحم بريطانيا .

ولم يكن امام الدول الاوروبيه الاستعمارية من حل استعماري الا ان تتفق فيما بينها سرا على اقتسام الشعوب العربيه ... وامام هذا التغلغل الواضح في الحياة العربيه ظهرت احزاب وجمعيات عربيه ذات صبغة جديدة ادركت خطر الضعف الذي تتردى فيه السلطنه العثمانيه ، وعدم اهتمام الاتحاديين بغير العنصر التركي في هذه الظروف .. واحس العرب بخطر المركزية التركية عليهم فطالبوا بالاستقلال الداخلي للولايات العربية .. وتوجت احزابهم وجمعياتهم اعمالها في هذا الدور بعقد مؤتمر وطني عام في باريس هو " مؤتمر باريس العربي " سنة ١٩١٣ ...

---

(١) الطليعة / عدد ٩ / سنه ٣ / ١٩٣٧ ص ٧٢٦ ـ ٧٣٤ .

وكما كان العرب ينتهزون فرصة التناقض بين المصالح التركية والمصالح الاوروبية ويجدون في ذلك منفذا لدعم صفوفهم وتنظيم حركاتهم ، كانت الدول الاوروبية ترقب التناقض بين المصالح التركية والمصالح العربيه ، وتتخذ الحيلة لتوجيهها الوجهة التي تخدم مصالحها الاستعماريه ، واغراضها الاستثمارية •

ولقد حنى الاتحاديون رؤوسهم امام هذا المؤتمر العربي الى حين ريثما يتمكنون من الفتك به ، واختاروا المانيا الرأسمالية ليرتموا في احضانها ••• فهيأت تركيا للمهندسين الالمان الظروف لمد الخطوط الحديديه •• واخذوا المبالغ الطائلة من المانيا •• وذهب فريق من الضباط الاتراك والعرب الى المدارس الالمانيه لدراسة الفنون العسكريه •• وجاء الاخصائيون الالمان ليدرسوا طبيعة الاراضي التركية والاراضي العربيه •• ثم استطاع الاتحاديون بوسائلهم الجديدة ان يستغلوا عددا من اللامركزيين ويغروهم ببعض المناصب وغيرها ويطعنوا الحركة الوطنيـــة بتأسيس ما سمي (بحزب الاصلاح الحقيقي) الذي كان عونا للاستعمار الالماني •

واصطدمت الحركة الوطنية العربية بالسيطرة التركية ا لمانيـة •
بعد ان فتك جمال باشا بزعماء الحركة العربية واعدمهم •• فرفع العرب علم الثورة العربية للتخلص من هذه السيطرة التي عرقلت تطورهم (١)

ومنذ انفرد الانكليز بفلسطين وهم يحاولون ايهام العالم بـأن القضية الفلسطينيه قضية معقده ، ويحاولون ان يوجدوا فيها اطرافا متعدده ••
ولقد دخل العالم معهم في دوامة ، وكاد العالم العربي يدخل في نفسهـــا ،
ولهذا فلن نبحث الامر على الشكل المعقد الذي اراده الانكليز للقضية •• ان القضية لا تعدو ان تكون قضية نزاع بين شعب اصلي في ا بلاد يطالب بحقـه الطبيعي في الحرية والاستقلال • وبين سلطة استعمارية مستبده تسيطر على جميع مقدرات البلاد وتضعها في اوضاع وظروف سياسيه واقتصاديه تسبب لهـا الارتباكات والاضطرابات •• وقد خلقت السياسة الاستعماريه ا بريطانيه — تدعمها في ذلك السياسة الاميركية — سلسلة من التعقيدات في الحياة العربيه الفلسطينيه • فجعلت من الولايات المتحدة طرفا رسميا في القضية •• واتخذت من اليهود وسيلة لترسيخ سيطرتها على البلاد ولخدمة الاستراتيجيه الاستعمارية •• وجعلت توهم الناس بانها تعالج القضية وتبغي حلها •

---

(١) جل هذه التفسيرات والتوجيهات مأخوذه باختصار من سلسلة موضوعات بعنوان " الحركة العربية الوطنيه " بقلم نجاتي صدقي ، في الطليعه في السنة الثالثة والسنة الرابعة •

وهي لا تنوى من وراء ذلك التعقيد الا خدمة اغراضها الاستعمارية .. فاللجان التي ارسلتها والتي اقترحتها .. والكتاب الابيض.. مواقفها من اليهود .. كل ذلك محاولات لايجاد حل يضمن للانكليز سيطرتهم الاستعمارية والعسكرية في فلسطين .. لجنة التحقيق الانجلو امريكيه .. مشروع التقسيم .. مؤتمر لندن .. وكل هذه الامور لم تكن الا ستارا تختفي وراءها نواجذ الاستعمار البريطاني الذى ربط الصهيونية الى عجلته واخذ يدور بها في انحاء هذا الوطن العربي الصغير(١)

ليس من شك في ان الحكم التركي كان حكما استغلاليا ظالما . ولكنه رغم ذلك كله قد عجز عن اثارة التفرقة بين السكان ومذاهبهم الدينيه .. ومن اجل هذا كان الانكليز اشد شرا منهم في ذلك .. ففي الوقت الذى وعدوا العرب وهم اكثرية السكان بمنحهم السيادة والاستقلال بعد انتهاء الحرب نجدهم يوجهون كتابا الى المالي الكبير في لندن (روتشيلد) تعهدت فيه بريطانيا بأنشاء (وطن قومي لليهود) في فلسطين .. ولقد حول الانكليز البلاد الى قاعدة عسكرية هامة في الشرق العربي .. وجعلوا من حيفا قاعدة بحريه من الدرجة الاولى . وانشأوا في البلاد شبكة من المطارات العسكريه والثكنات الحربيه والطرق المعبده وخطوط السكك الحديديه .. حتى يستطيعوا أن يؤمنوا نقل الجيوش البريطانيه من أية نقطة في فلسطين نحو حدود مصر وسوريا ولبنان والمملكه العربيه السعودية.. فضمنت بذلك انكلترا الاشراف المطلق على قناة السويس بصورة مستقله عن وجود الجيوش البريطانيه في الاراضي المصريه .. وبذلك ضمنت بريطانيا تبديد الانتفاضات الوطنيه العربيه .. ثم اعانت على انشاء مستعمرات صهيونيه . لتضمن توطيد اركان سيطرة الاستعمار الانكليزى في هذه البلاد .. وفي عام ١٩٢٠ نظم "الاعتماد المالي الصهيوني للمستعمرات" فكان مورده من كبار الرأسماليين اليهود .. وقد ساعد هذا الاعتماد مع "الاعتمادات الماليه القوميه اليهوديه" المنظمة سابقا على خلق الوسائل الضروريه لاقامة المستعمرات الزراعيه اليهوديه في فلسطين وقد نظمت هذه المستعمرات بصورة تقضي بأن يبقى كل عضو فيها طول حياته تابعا لمشيئة كبار المسيطرين .. ووضع منظمو الهجرة اعضاء هذه المستعمرات تحت اشرافهم التام بحجة العمل على تأمين " الشكل التعاوني للحياة فيها " .. وبذلك اصبح "من يعمل ضد بريطانيا العظمى يعمل ضد الصهيونيه ." (٢)

---

(١) وجهة النظر هذه مأخوذه من مقال حول القضية الفلسطينية بقلم وصفي البني الطريق / مجلد ٥ / جزء ١٧ / ص ٤ ـ ٥ (٢) "فلسطين تحت نير الاستعمار" مقال في الطريق / مجلد ٥ / جزء ١٦ ص ٥، ٦، ١، ٢، ٦، ٢ .

كانت امريكا في اول الامر تناصر انكلترا في موقفها من العرب ومن الصهيونيه مجرد مناصره حتى اذا نالت امتيازات نفطيه كثيرة في الشرق تسلمت صولجان الزعامه الاستعماريه من بريطانيا بعد الحرب الثانيه وغدت بريطانيا شريكة تابعة لها في شؤون البلاد ٠ (١)

وهكذا خرجت فلسطين من قيود الحكم العثماني الاستبدادي الاقطاعي ووقعت في شباك الاستعمار الانكليزي وصنيعته الاستعمار الصهيوني ومن وراء ذلك كله الاستعمار الاميركي لتكون نقطة ارتكاز يحافظون بواسطتها على مراكزهم الاستعمارية في الشرق الادنى ٠

ونحن نقرأ لمندوب (المرننغ بوست) الانكليزيه في دراسته للاحوال السياسيه والاجتماعيه والاقتصاديه والقوميه في فلسطين مقابلة بين العهدين العثماني والبريطاني :

"كان لعرب فلسطين في عهد الاتراك بعض الحريه السياسيه ، فكانوا ينتخبون نوابا يمثلونهم في مجلس المبعوثان ٠٠ وليس لهم اليوم شيء من هذا ، فقد فقدوا كل صلة شفاهيه بحكومتهم ٠٠ وكان من نتيجة الحرب التي ارقدت نارها لتهيئة العالم للديمقراطيه ان اضاع عرب فلسطين مبادئ الديمقراطيه التي وضعها الاتراك ٠٠ وكادوا يفقدون نصيبهم في ادارة البلاد لان الحكومة تدعوا لوظائفها اليهودي اولا ، ثم الانكليزي ٠٠ وتجود من الوظائف بالقليل اليسير على المسيحي العربي ٠٠ وتكاد لا تبقي شيئا للمسلم العربي ٠٠ ولعل ذلك تحريض من اليهود ليحولوا الى الابد دون نيل العربي نصيبه في ادارة بلاده ٠٠" ٠٠ وفي حديثه عن تعيين هربرت صموئيل مندوبا ساميا لفلسطين يقول : ٠٠" ان الحكومة البريطانيه قد اظهرت كل حذق ودهاء ، فأرسلت مندوبا ساميا يهوديا ٠٠ ولو كان ثم ملاك من العنصر البريطاني ، وارسل ليحكم فلسطين بموجب تصريح بلفور ، فلا يمكن الاهالي الا ان يسيئوا به الظن ، وينظروا اليه بعين العداء ٠ وليس الجلاد صديقا لاحد مهما تكن جنسيته ٠ وتصريح بلفور يجعل مندوب الحكومة البريطانية في فلسطين اشبه بالجلاد " (٢) ٠

وكل هذه الادوار التي مرت بالبلاد العربيه شارت فيها هذا القطر بنصيبه الوافي ؛ فكان له في الادوار الاولى ممثلون في عهد التنظيمات ٠٠

(١) "قضية فلسطين" بقلم حسيب نمر / الطريق / مجلد ٦ جزء ٧ ، ٨ ص ٤١ — ٤٩
(٢) "فلسطين اليوم" مقال في النفائس / جزء ٢ / سنه ٨ ١٩٢١ ص ٥١ — ٥٤ ٠

وكان له من يمثله في كل حزب اوجمعية او مؤتمر ٠٠ وكان له نواب في مجلس (المبعوثان) يرفعون اصواتهم جريئة في النقد والاحتجاج والمعارضه ٠٠ ولم يعرف هذا الوطن الصغير طعم الاستقرار السياسي او الاجتماعي او الاقتصادى في هذه العهود سواء في ذلك عهد الحكم العثماني او عهد الانتداب الانكليزى او العهد الصهيوني ٠٠ وقد صبغ ذلك كله نضاله بلون خاص ٠٠ ووجه حياته الادبية والثقافيه وجهة معينة وترك في قلب الوطن جراحات عميقه ستكون مصدر يقظة كبرى ووعي عميق ٠

الباب الأول:

الفصل الثاني:

العوامل المباشرة للنهضة

لعل التعليم ووسائله المختلفة أن يكون الحسن العوامل الفعاله بالثقافه ، وبذلك يكون اقرب عامل مباشر من عوامل النهضه الادبية في كل قطر من الاقطار .

ولقد عرفنا من مقدماتنا في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعيه أن العناية بالثقافة وتأسيس المعاهد ودور الطباعة لم يأخذ طريقه في وطننا الا في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر .. وأن ظروف الاقبال على المدارس والعلم لم تظهر الا في هذه الفترة من الزمن ..

ففي لواء القدس ـ وكان يشتمل على اربعة اقضية ـ في تلك الاونه بلغ عدد المدارس اكثر من (سبعين) .. وبلغ تلامذتها (ثلاثة الاف) ومعلموها نحو (مائة) .. وقد كان مجموع السكان في هذه الاقضية (مائة وستين الف نسمة ، او يزيدون .

ولعل تاريخ المعارف في القدس أن يوضح لنا الكثير من جوانب التعليم في البلاد : "ففي سنة ١٨٥١ انشئت مدرسة صهيون الداخلية للصبيان .. انشأها المطران صموئيل كوبات .. وقد أخرجت منذ انشائها حتى سنة ١٨٨٣ ثلاثمائة واربعين تلميذا اشتهرعدد منهم بالمعرفة والذكاء .. وفي سنة ١٨٥٥ انشئت مدرسة المصلبه للروم الارثوذكس بعناية كيرلس الثاني ، بطريرك اورشليم على نفقة دير الروم ، فدخلها عدد وافر استفادوا وافادوا .. واما بقية المدارس فلها فوائدها .. اذ أن مدرسة الايتام السورية التي انشئت سنة ١٨٦٠ كانت تعلم الى جانب برامجها النظرية بعض الصنائع كالخياطه والحدادة والنجارة والخراطه والخزافه والفلاحة وما اشبه ..

ولتبيان عدد المدارس وتاريخها وما يختص بالمعارف في القدس اليك الجدول الآتي للاختصار :

مــــدارس القـــدس

	انشاؤها	تلاميذها	معلموها
(١) مدارس جمعية انتشار الانجيل بين اليهود			
١ ـ مدرسة داخلية للصبيان	١٨٥٧	٢٥	٣
٢ ـ مدرسة يومية للصبيان	١٨٧٩	٢٦	٢
٣ ـ مدرسة داخلية للبنات	١٨٤٨	٣٠	٣
٤ ـ مدرسة يومية للبنات	١٨٤٨	٦٧	١
(٢) مدارس جمعيـــة المرسلين الكنائسيـــه			
١ ـ مدرسة صهيون الداخليه للصبيان	١٨٥١	٥٦	٤
٢ ـ مدرسة صهيون الداخلية للشبان	١٨٧٥	١٠	٣
٣ ـ مدرسة يومية للبنات	١٨٧٠	٦٥	٢
(٣) مـــدارس الجمعيـــات الالمـــانيـــة			
١ ـ مدرسة "طاليثاقومي" داخلية للبنات	١٨٥١	١١٠	٧
٢ ـ مدرسة الايتام السورية ـ داخليـــة للصبيـــان	١٨٦٠	١٣٠	٥
٣ ـ مدرسه يوميه لصبيان الالمان وبناتهم	١٨٧٣	٢٨	٢
٤ ـ مدرسة الهيكلين ـ داخلية للصبيان)	١٨٧٨	٢٠	٨
٥ ـ مدرسة الهيكلين ـ يومية للصبيان)	١٨٧٨	٥١	٨
انشئتا اولا في يافا ونقلتا مع الدكتور هوفمن سنة ١٨٧٨ الى القدس			
(٤) مــــدارس الــــروم الارثــوذكــــس			
١ ـ مدرسة المصلبة ـ داخلية للشبان	١٨٥٥	٤٤	٤
٢ ـ مدرسة يومية للصبيان	١٨٤٨	١٥٠	٤
٣ ـ مدرسة يومية للبنات	١٨٦٢	١٠٠	٣

معلموها	تلاميذها	انشاؤها	مدارس اللاتين
٦	٤٠	١٨٧٨	١ - مدرسة راتزبون الصهيونية - داخلية للصبيان
١٠	١٣٥	١٨٧٩	٢ - مدرسة الفرير - يومية للصبيان
٨	٩٠	١٨٦٥	٣ - مدرسة راهبات صهيون - داخلية للبنات
٨	١٥٠	١٨٦٥	٤ - مدرسة راهبات صهيون - يومية للبنات
٨	١٥٠	١٨٤٨	٥ - مدرسة ماريوسف - يوميه للبنات
٣	٢٠	١٧٠٠	٦ - مدرسة دير الفرنسيسكان - داخلية للصبيان
٣	٥٠	١٨٧٨	٧ - مدرسة دير الفرنسيسكان - داخلية للبنات
٢	٢٠	١٨٨٢	٨ - مدرسة القديسه حنه - داخلية للشبان
٤	٤٠	١٨٦٠	٩ - مدرسة الكرسي البطريركي - داخلية للشبان
١	٦٠	١٨٧٨	١٠ - مدرسة الفرنسارية - يومية للبنات
٣	٥٠	١٨٧٠	١١ - مدرسة السيدة حنة تريزا - يوميه للبنات
			مدارس الروم الكاثوليك
١	١٠	١٨٨٢	مدرسة للروم الكاثوليك - يومية للصبيان
			مدارس الارمن
٦	٣٠	١٨٦٦	١ - مدرسة لاهوتية الكرسي البطريركي داخلية للشبان
٤	٤٠		٢ - مدرسة يومية للصبيان
٣	٤٠		٣ - مدرسة يومية للبنات

(٥)
(٦)
(٧)

٨)

مدارس المسلمين	انشاؤها	تلاميذها	معلموها
١ ـ مكتب الرشيدية ـ يومي للصبيان	١٨٦٨	٨٠	٢
٢ ـ سبع مدارس اخرى لتعليم القراءة والكتابة العربية		٢٨٠	٧
			(١)

هذه هي المدارس التي كانت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في القدس .. وبذلك يبلغ مجموع تلاميذها نحوا من (٣٨٥٤) او يزيدون قليلا بين شبان وصبايا وصبيان وبنات .. ويبلغ معلموها نحوا من (٢١١) او يزيدون قليلا ..

اما مدارس نابلس فكانت ثلاثا للمسلمين .. ومعلموها ثمانية عشر .وتلاميذها (٥٢٦) .. واشهرها الرشيدية .. وفي نابلس للمسلمين مدرسة للبنات فيها معلمتان ومائة تلميذة .. ونحو اثني عشر مكتبا فيها (٤٦٠) تلميذا ..اما مدارس المسيحيين فكانت خمس مدارس للصبيان فيها ستة معلمين و (٩٥) تلميذا ، ثم مدرستان للبنات فيهما معلمتان و (٤٢) تلميذة .. واقدم هذه المدارس انشئ سنة ١٨٥٠ .. وفي جوار نابلس ، في جنين مدرسة فيها (٨٠) تلميذا ، ومعلمان .

اما في عكا فقد انشئت المدرسة الرشدية سنة ١٨٧٦ ، ويبلغ تلاميذها الخمسين ومعلموها اربعة ، وهناك غيرها نحو من خمسة عشر مكتبا للمسلمين فيها نحو (٢٠٠) تلميذ .. وفي سنة ١٨٧٩ أنشأت الجمعية الادبية الخيرية مدرسة بلغ عدد تلامذتها الخمسين ومعلموها اربعة .. كما أنشأت الجمعية مدرسة للبنات ، ومدرسة للراهبات اليسوعيات ـ فيهما سبع معلمات ونحو من (١٥٠) تلميذة .. هذا وللطوائف المسيحية ايضا نحو من اربع مدارس للصبيان فيها سبعة معلمين ونحو من (٢٠٠) تلميذ .

اما فيما جاور عكا ، كحيفا وغيرها ، ففيها نحو من عشرين مدرسة وعشرين معلما واربعمائة تلميذ .. وقد أخذ طلب العلم يزداد ويتسع الاقبال على المدارس كلما تقدم الزمن من القرن العشرين ..

اما صفد فقد اخذت المدارس تتكاثر فيها منذ سنة ١٨٦٠ .. ففيها نحو من عشر مدارس وخمسة عشر معلما وثلاثمائة تلميذ .

واما طبرية ففيها ست مدارس ، وثمانية معلمين ، ومائتا تلميذ .

---

(١) كل هذه المعلومات والجداول بما فيها الجدول الاتي ، مأخوذة عن دراسة واحصائيات حصل عليها شاهين مكاريوس نشرها في المقتطف / جزء ٨ ، ٩ من السنة ٧ ١٨٨٣ ص ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٥٣٢ ، ٥٣٧ .

وهذا جدول يبين عدد المدارس وعدد السكان :

مدن	مدارس صبيان	مدارس بنات	معلمون	معلمات	تلاميذ	تلميذات	سكان
القدس	٦٧	١٤	١٧١	٥٧	٢٧٨٢	١٠٨٦	٢٠٠٠٠
عكا	٢١	٣	٣٠	٧	٥٠٠	١٥٠	١٠٠٠٠
نابلس	٢٠	٣	٣٦	٤	١٠٨١	١٤٢	٨٠٠٠

تلك صورة عن المدارس في هذه المدن التي ذكرناها في النصف الاخير من القرن التاسع عشر •

واذا كانت جمعية واحدة ، هي الجمعية الامبراطورية الارتوذكسية الفلسطينيه في فلسطين لها في انحاء البلاد خمس وعشرون مدرسة بلغ تلاميذها الصبيان في سنة ١٩٠٧ (٨٠١)،(١) ادركنا مدى تأثير هذه المدارس الاجنبية في كيان هذا الوطن الصغير •

اما مجموع المدارس الابتدائية الرسمية في الالوية الثلاثة (القدس ونابلس وعكا) في مطلع القرن العشرين بل في السنة ١٩١٣ ـ ١٩١٤ ، وهي السنة التي سبقت الحرب ، فكانت (٩٥) مدرسة ابتدائية رسمية ـ معلموها (٢٣٦) معلما ومعلمة ـ وتلاميذها (٧٧٥٨) تلميذا وتلميذة •• وتذكر النشرة الرسمية لوزارة المعارف العثمانية ان مجموع الاطفال الذين كانوا في سن التعليم الابتدائي الالزامي يبلغ (٧١٦٣٢) مما يدل على ان المدارس الابتدائية الرسمية ما كانت تضم من هؤلاء الاطفال الا نحو العشر

اما المدارس الثانوية الرسمية ، فكان في القدس منها (مكتب سلطاني) ، وفي كل من عكا ونابلس (مكتب اعدادى) • وكان عدد طلاب المدارس الثانوية المذكورة (٤٧١) • وكانت كل واحدة منها تضم صفوفا ابتدائية وفقا للنظام المتبع في جميع الاعداديات والسلطانيات العثمانية • وكان مجموع طلاب هذه الصفوف (١١٠)•

وكان (المكتب السلطاني) في القدس (مكتبا اعداديا) انشىء سنة ١٨٨٩ ، ولم يتحول الى (مكتب سلطاني) الا في سنة ١٩١٣ •

واما المكتب الاعدادى في عكا فقد انشىء سنة ١٨٩٥ ، واما المكتب الاعدادى في نابلس فقد أسس سنة ١٨٩٧ •

---

(١) كتاب تاريخ الجمعية الامبراطورية الارتوذكسيه الفلسطينيه ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ •

ويتبين من الارقام في النشرة الرسمية العثمانية ان مجموع المدارس الابتدائية الاهلية والطائفية في المتصرفيات الثلاث كان (٥٠٠)، وعدد المعلمين والمعلمات (٧١٩) معلما ومعلمة، اما التلاميذ والتلميذات فيبلغون (١٥٧٧٣) منهم (٨٧٠٥) في المدارس الخاصة بالمسلمين و (٣٤٤٥) في المدارس الخاصة بالمسيحيين، و (٣٦٢٣) في المدارس الخاصة بالاسرائيليين •

وكان لكل طائفة من طوائف الارتوذكس والكاثوليك والارمن واليهود مكتب اعدادى خاص بها عدا المدارس الابتدائية المذكورة •

وبما أن المدارس الرسمية تكاد تكون خاصة بالمسلمين، فان مجموع الطلاب المسلمين في جميع المدارس كان (١٤٦٦٣)، ومجموع الطلاب المسيحيين (٣٤٤٥) والاسرائيليين (٣٦٢٣)•

ولقد كان في فلسطين مدارس أجنبية كثيرة بسبب اهتمام الدول بهذا القطر الصغير لما بينا من اهميته لمصالحهم •• فكان فيه مدارس اميركية، والمانية وانكليزيه، وفرنسية، وايطالية، وروسية، وكانت هذه المدارس تابعة في معظمها للارساليات الدينية •• وكان من بينها عدة معاهد ثانوية، ومدرسة للمعلمين، وآخرى للمعلمات يديرها الروس، ومدرسة للمعلمين يديرها الالمان • ولم تكن هذه المدارس خاضعة لوزارة المعارف لما تتمتع به من امتيازات اجنبية •• وقد اغلقت معظمها ايام الحرب ولم يبق سوى المدارس الالمانية والاميركية •

وقد كان الطلاب في مدرسة المعلمين الالمانية (٨٤)•• وفي مدرسة المعلمين الروسية (٢١٠) •• وكان عدد المدارس الالمانية في لواء القدس وحده (١٥) مدرسة وكان في المدارس المذكورة (٥٥) معلما و (٣٠) معلمة •• اما الطلاب فيبلغون (١٧٣٤) منهم (١٠٧٨) طالبا و (٦٥٦) طالبة •

وقد كانت لغة التعليم في المدارس الرسمية (التركيه)، وكانت (العربية) في معظم مدارس الطوائف غير المسلمة، ومختلف اللغات الاوروبية في اكثر المدارس الاجنبية •

وقد كانت المدارس المذكورة تهتم بالعربية اكثر بكثير من المدارس الرسمية وكانت المدارس الروسية تولي العربية عناية فائقة، فكانت لغة التعليم في مدارسها عربية، وهي التي أنشأت مدرسة المعلمين، ومدرسة المعلمات لاعداد المعلمين للتعليم باللغة العربية •

وقد انشئت في خلال الحرب العالمية الاولى الكلية الصلاحية في القدس وقد وجهت عناية خاصة للغة العربية، وخرجت عددا غير قليل من المعلمين الذين ساعدوا على تعريب التعليم في سوريا وفلسطين عقب انفصالهما عن الدولة العثمانية• وكانت بمثابة مدرسة دينية عالية عصرية (١)

(١) حولية الثقافة العربية / السنة الثانية / ص ٤ — ٩ •

هذه هي بعض الاحصائيات حول المدارس في فلسطين في فترات من العهد العثماني .

ولقد كانت معاهد التعليم قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، اى قبل عهد التنظيمات من نوع المدارس الدينية التقليدية (كتاتيب) لتعليم الدين والقرآن ، وكان هناك بعض المدارس الخاصة بالكبار تعلم العلوم الدينيه والشرعية مع ما تحتاج اليه تلك العلوم من مواد اخرى .. وكانت اغلب هذه المدارس بنوعيها ملحقة بالمساجد والجوامع العامة ، والمستقل منها في مبان خاصة لها مساجد او ما يشبه المساجد التابعة لها .

وعلى اثر التنظيمات في السلطنة العثمانية ، والاحتكاك بين الشرق والغرب قامت مدارس جديدة مستقلة عن تلك المدارس القديمة .. ولعل الضرورة العسكرية صرفت السلطنة الى انشاء المدارس العسكريه قبل انشاء المدارس المدنية (الملكية)

وما كاد النصف الاخير من القرن التاسع عشر يطلع حتى رأينا تشكيلات المدارس المدنية قد استقرت : فهناك المرحلة الابتدائية ومدتها ثلاث سنوات ، والمرحلة الرشدية ومدتها ثلاث سنوات ، والمرحلة الاعدادية وتتراوح الدراسة فيها بين خمس وسبع سنوات لاندماج الرشدية فيها .. ثم قامت مدارس صناعية وزراعية ودور للمعلمين ، كما قامت فوق ذلك كله مدارس عالية للطب والحقوق ، ثم قامت المدرسة الملكية الشاهانية لدراسة الادارة والسياسة ، ومدرسة القضاة ، والتجارة العليا ، والزراعة العليا ، ودار المعلمين العالية ، والبيطرة ، والهندسة ، والصنائع النفسية ، اى (الفنون الجميلة) .

ثم جاء دستور سنة ١٩٠٨ ، فتطور التعليم في المدارس ، وادمجت المدارس الرشدية بالابتدائية ، واصبحت اولى ، ومتوسطه ، وعليا . واحدثت المدارس السلطانية ، ومدة الدراسة فيها اثنتا عشرة سنة : الخمس الاولى منها ابتدائية ، وقامت دور المعلمين على اسس جديدة .. ثم انشئت جامعة (دار الفنون) وهي تشمل مدرسة الحقوق القديمة اضيفت اليها كلية للعلوم وكلية للاداب ، ثم اضيفت اليها كلية الالهيات ... وانشئت المدارس العالية في مراكز بعض الولايات العامة . وحدث تغيير شامل في المدارس ونظم التعليم .. وزيدت العناية بمدارس البنات .... وفتحت الجامعة ابوابها لهن .. وقد عنيت وزارة المعارف العثمانية بالنظم الفرنسية واهتمت بنشر اللغة الفرنسية اهتماما خاصا اذ جعلتها اجبارية في جميع المدارس الرشدية والاعدادية ، وفي كثير من المدارس العالية .. فاصبحت اكثر اللغات انتشارا في جميع انحاء الدولة العثمانية .

وقد كانت المدرسة الحربية تولي اللغة الالمانية اهتمامها ، والمدرسة البحرية توجه الاهتمام للغة الانكليزية ، ولكن رغم ذلك فالفرنسية لها مكانتها في تلك المدارس كذلك !

اما فيما يتصل بالطوائف الدينية والمذهبية من غير المسلمين ، فقد منحت امتيازات خاصة ، وكان لها مجالسها الخاصة التي تشرف على الشؤون الكنسية والاديرة وكل ما يتصل بالاحوال الشخصية يرأسها البطرق او الاسقف او المطران ٠٠ وقد عدت الدولة العثمانية شؤون التعليم من جملة الامور المرتبطة بالشؤون الدينية والمذهبية ، فخولت جميع الطوائف المسيحية والاسرائيلية حق تأسيس المدارس وادارتها وقد شملت هذه الامتيازات لغة التعليم : فكان المسيحيون العرب يعلمون في مدارسهم باللغة العربية ٠٠ بينما المدارس الرسمية كانت تعلم باللغة التركية ومن هنا كانت المدارس المسيحية العربية ، ثم المدارس الاجنبية في البلاد هي التي تعني باللغة العربية في العهد العثماني ٠٠ واصبحت كل مدرسة اجنبية تابعة لارسالية دينية ٠٠ وهذه الارساليه تعتمد على حماية دولة اجنبية ٠٠ واصبحت بذلك واسطة لنشر لغة تلك الدولة بجانب تعليم العلوم المختلفة من جهة وتعليم اللغة العربية من جهة اخرى ٠٠ وهكذا يمكن تلخيص المعاهد التعليميه القائمة في عهد السلطنة العثمانية الاخير بما يأتي :

"مدارس رسمية تعلم باللغة التركية ، ولا تبالي باللغة العربية — ومدارس طائفيه تختص بكل جماعة دينية ومذهبية على حدة ، تعلم باللغة العربية وتتأثر في الوقت نفسه بالمدارس الاجنبيه التي تشاكلها في الدين والمذهب — ثم مدارس اجنبية تنتسب الى مختلف الدول الغربية تعلم لغة الدولة التي تنتسب اليها ، وتعني في الوقت نفسه باللغة العربية ، وتسعى الى نشر ثقافة تلك الدولة ، وتوسيع نفوذها " وقد كانت القدس مركز احتشاد هذه المدارس المختلفة (١)

هذه صورة موجزة عن التعليم والمدارس في العهد العثماني ٠٠ وقد امتد اطار هذه الصورة حتى شمل الفترة الواقعة بين منتصف القرن التاسع عشر ونهاية الحرب العالمية الاولى ، مع تطور داخلي في حدود هذا الاطار من بذور في عهد التنظيمات ٠٠ الى انتعاشة في عهد الدستور ٠٠ الى ازدهار في المدارس الاجنبية في فترة ما قبل الحرب ٠

حتى اذا انتهت الحرب سنة ١٩١٨ بدأ هذا القطر يقع في اوضاع الانتداب الغربية التي كانت تهدف الى وضع البلاد في ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية تؤدي الى انشاء دولة اسرائيلية فيه ٠٠

---

(١) كل هذه المعلومات عن التعليم مأخوذة من حولية الثقافة العربية السنة الاولى ص ٢ — ١٤

ولعل التعليم ان يكون من اهم الامور التي اولتها الدولة المنتدبة عنايتها من اجل أن تؤدى الى تلك الغاية البغيضة .. فتولت الحكومة المنتدبة ادارة المدارس العربية الحكومية ادارة مباشرة .. وتولى المجلس الملي اليهودى (وعدليومي) ادارة مدارسه الحكومية .. واصبحت اللغة الانكليزية الزامية في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية .. واتصلت البلاد بالنظم الانكليزية والمطبوعات الانكليزية والثقافة الانكليزية ... وصار الشبان الذين يريدون اتمام دراستهم خارج بلادهم يتيسر لهم الذهاب الى انكلترا او الى امريكا وينتسبون الى جامعاتها .. فزاحمت الثقافة الانكلوسكسونية في هذا القطر سائر الثقافات الاخرى .. وقد بذلت كل من انكلترا وامريكا جهودا خاصة في هذا السبيل .

وليس من شك في أن التعليم اخذ ينشط نشاطا غريبا في عهد الانتداب ، ولكن اليد التي كانت توجهه لم تكن تنوى له خيرا .. لقد دفعت به الى هاوية الضياع !

كانت المدارس الابتدائية الحكومية تبلغ (٥٠٩) . وكان بعضها يحتوى على رياض الاطفال .. وبعضها يضم صفوفا ثانوية .. وكان في البلاد ثلاث مدارس ثانوية حكومية عربية كاملة وكان من بين المدارس الابتدائية (٢٥) مدرسة فيها بعض الصفوف الثانوية .. وكان بالاضافة الى ذلك (٨) مدارس اهلية تضم صفوفا ثانوية .. وقد حرصت حكومة الانتداب على ابقاء التعليم المهني محدودا .. فكان في البلاد مدرسة صناعية واحدة ومدرسة زراعية واحدة .. وان تكن المدارس تعني بتدريب الطلاب على المهن في ساعات مخصصة لها في الدروس وفي اوقات الفراغ .

اما التعليم العالي ، فكان للعرب مؤسستان : الكلية العربية ، والكلية الرشيدية ، وكلاهما في القدس .. وكان في كل منهما سنتان دراسيتان ، خاصتان بعد اتمام الدراسة الثانوية .. والدراسة فيهما تنقسم الى علمية وادبية . وكانت الكلية العربية تمنح الى جانب الشهادة العليا المتوسطة دبلوما في التربية والتعليم بقسميها النظرى والعملي .

وكان الى جانب هاتين الكليتين مدرسة للحقوق للعرب واليهود على السواء .. ومحاضراتها تلقى بالعربية والانكليزية والعبريه .. ومدة الدراسة فيها خمس سنوات .

وغير الكلية العربية كان لاعداد المعلمين والمعلمات معاهد اخرى .. فكانت دار المعلمات في القدس . والدراسة فيها خمس سنوات .. اى سنة واحدة بعد المرحلة الثانوية . وكان في رام الله مركز تدريب المعلمات الريفي .. مدة الدراسة فيه ثلاث سنوات بعد المرحلة الابتدائية .

وكان في المدرسة الزراعية في طولكرم صف لتدريب المعلمين على الاعمال الريفية.

ولقد بلغ مجموع المدارس العربية في السنة الدراسيه ١٩٤٥ — ١٩٤٦ (٨٢٧) مدرسة ، منها (٥١٤) حكومية (١٣١) اسلامية خاصةو (١٨٢) مسيحية خاصة.

وقد كان عند بدء السنة الدراسية ١٩٤٧ — ١٩٤٨ في فلسطين (١٢) مدرسة ثانويه عربية تامة .. و (٢٠) مدرسة تضم صفوفا ثانوية غير تامة (١) .. ثم حدثت الكارثة وضاع كل شيء .. !

تلك صورة احصائية موجزة عن التعليم والمدارس في داخل البلاد .. اما اتصال البلاد بالخارج وبالمعاهد في الاقطار الاخرى ، فلم ينقطع في فترة من فترات العهدين : العثماني ، والبريطاني.

فحين نقرأ تراجم الرجال في فلسطين نجد ان رفيق التميمي مثلا " قد اتم الدراسة الابتدائية في نابلس .. والثانوية في استنبول الثانوية .. ، ثم دخل المدرسة الثانوية العالية بعد ان نجح في امتحان المسابقة .. وعند بلوغه النصف النهائي من هذه المدرسة العالية انتخبته وزارة المعارف العثمانية عضوا لبعثة علمية ارسلتها الى جامعات فرنسا .. فأتقن في باريز اللغة الفرنسية . ونال شهادة الدراسة الجامعية من جامعتها ." (٢)

ونقرأ في ترجمة الشيخ يوسف النبهاني أنه بعد أن قرأ القرآن على والده ذهب الى مصر يطلب العلم في الجامع الازهر فدخله سنة ١٨٦٦ واقام فيه نحو سبع سنوات حيث تلقى العلوم النقلية والعقلية . وفي سنة ١٨٧٢ عاد الى وطنه ، واقام في عكا يقرأ الدروس على طلابه .. (٣)

وفي ترجمة الشيخ سعيد الكرمي نجد أنه " تلقى دراسته العلمية في الازهر ونال شهادته العالية " (٤)

وجاء في ترجمة احمد شاكر الكرمي أنه " تلقى دراسته الابتدائيه في الازهر .. وبعدها في الجامعة المصرية" (٥)

واما اسعاف النشاشيبي فقد ارسله والده الى المدرسة البطريركية في بيروت فلبث زهاء اربع سنوات .. والم بالفرنسية الماما حسنا (٦) .

وتلقى احمد سامح الخالدي علومه الابتدائية في المدرسة الاميركية ، ثم في مدرسة المطران ، وبعدها التحق بالجامعة الاميركية ببيروت ، واختص بالصيدلة ونال شهادتها سنة ١٩١٦ . ولما اعلنت الهدنة عاد للجامعة فنال درجة البكلوريا في الاقتصاد والتربية . (٧)

---

(١) انظر حولية الثقافة السنة الثانية ص ١٠ — ٤٤ (٢) من هم ؟ الجزء الاول ص ١١٣ .
(٣) اعلام الادب والفن / جزء ١ ص ٣٦٨ (٤) اعلام الادب / جزء ٢ ص ٣٤٢ (٥) اعلام الادب / جزء ١ ص ٣٦٩ (٦) اعلام الادب جزء ١ ص ٣٧٣ (٧) اعلام الادب / جزء ٢ ص ٤٠٥ .

واما روحي الخالدى فمن الكتّاب الى المدارس الحكوميه الابتدائية .. الى المكتب الرشدى في نابلس .. ثم دخل المدرسة الوطنية في طرابلس الشام .. ثم عاد الى القدس .. وحضر دروس المسجد الاقصى ، وتلقى علوم الفقه والتوحيد والحديث والنحو والصرف والمنطق والبيان والبديع .. وكان يتردد على مدرسة الاليانس ومدرسة الرهبان البيض (الصلاحيه) ليتقن اللغة الفرنسارية .. ثم دخل المدرسة السلطانية في بيروت .. وبعدها رجع الى القدس حيث عاد الى حلقات الدرس في المسجد الاقصى .. ثم سافر الى الآستانة ودخل المكتب الملكي فيها وبقي فيه ست سنوات اخذ في نهاياتها الشهادة العالية .. ثم ذهب الى فرنسا ودخل مدرسة العلوم السياسية فيها فأتم دروسها في ثلاث سنوات حيث انتقل منها الى دار الفنون العالية (السوربون) وتعلم فيها فلسفة العلوم الاسلامية والاداب الشرقية وكان يتردد على مجالس كبار المستشرقين فدعوه الى القاء المحاضرات العربية في انديتهم وهو يعد اول من احدث المحاضرات العربية العالية في باريس .." (١)

وفي ترجمة نقولا الخورى البيتجالي نجد انه بعد أن درس في مدارس فلسطين الابتدائية ارسله والده سنة ١٨٩٦ الى روسيا صحبة اخيه فرح ، وكان ابوه وقتذاك استاذ لاداب اللغة العربيه في السيمنار الروسي للاناث في بيت جالا ... وكان اخوه فرح تلميذا في جامعة بطرسبرغ العليا ، وهناك ولج ابواب الجمنازيوم في العاصمة الروسية ، وبعد درس ثماني سنين خرج منها يحمل شهادتها النهائية ، ثم دخل جامعة الفنون في بطرسبرغ حيث درس فن الاقتصاد المالي والسياسي .. ثم تقدم الى مجلس علماء تلك الجامعة ببحث مفصل عن الحرب الروسية اليابانية من وجوهها المالية والاقتصاديه والسياسية حاز به درجة الدكتوراه في تلك الفنون .. (٢)

وتلقى بندلي صليبا الجوزى علومه اولا في احدى المدارس الارتوذكسيه في القدس ، ثم في مدرسة كفتين بالقرب من طرابلس (لبنان) ، ثم رحل الى روسيا فالتحق بجامعة قازان طالبا ، ثم استاذا للعربية فيها ، وفي سنة ١٩٠٢ عين استاذا للعربية في جامعة باكو . (٣)

هذه نماذج اخترناها اختيارا من بين الكثير لنشير الى المجال الثقافي الذى كان يتخذه اهل هذا الوطن مضطربا لهم في تحصيلهم وفي حياتهم التعليمية في العهد العثماني ..

---

(١) "المقدمة في المسألة الشرقيه" ص ١ ، ب ، ج . (٢) دقات قلب ص ٤٢ – (٣) مصادر الدراسة الادبيه ص ٢٧٩ .

ولقد بلغ عدد الذين ارسلتهم مدينة نابلس وحدها حتى اوائل القرن العشرين (٣٠٠) طالب من ابنائها الى المكاتب العالية في استانبول وبيروت ومصر واوروبا ٠(١)

حتى اذا كان عهد الانتداب اتصل اهل هذا القطر بكل المعاهد الثقافية في بلاد اوروبا واميركا وغيرهما " وفتحت جامعات مصر ابوابها لابناء فلسطين واتجه الازهر الى العناية بالادب ليتاح له تأدية رسالته ، وحضنت لبنان ابناء هذا القطر(٢) واصبحت المعاهد التعليمية القائمة في البلاد العربية كمعاهد القاهرة والاسكندرية وبيروت ودمشق وبغداد تضم عددا غير قليل من ابناء فلسطين بلغوا حسب احصاء سنة ١٩٤٨ : ثلاثة طلاب في معاهد سوريا — وخمسة عشر في معاهد العراق — واربعمائة وستة عشر في معاهد لبنان — وستمائة وواحدا وثلاثين في معاهد مصر(٣)

هذه المجالات الثقافية كان لها اثرها الكبير في حياة هذا الوطن الادبية ٠ ولقد تخرج في هذه المعاهد المختلفة جمهرة من الناس في كل بلد من بلدان هذا القطر ٠٠ حتى ان مدرسة الايتام السورية التي اسسها شنلر سنة ١٨٦٠ ، وبدأها في بيته بتسعة اولاد ايتام بلغ عدد خريجيها حتى اواخر القرن التاسع عشر الفا وخمسمائة خريج ، اكثرهم من فلسطين سوريا ٠(٤)

وكانت لخريجي هذه المعاهد المتعددة ثقافات متنوعة ٠٠ وكانت لهم اتجاهات مختلفة ٠٠ وكان للمصادر التي مدتهم بثقافتهم اثرها في تلوين ما نتج عنهم من آثار ، وقد شغلوا مختلف المناصب ٠ وكان لهم دور توجيهي في حياة البلاد الثقافية والادبية ، ومنهم من شغل مناصب خارج البلاد ونقل ثقافة بلاده الى البلاد التي عمل فيها او نقل ثقافة البلاد الاجنبية الى اهل وطنه ولعله ان يكون لهذا التنوع الثقافي طعمه في ادب هذه البلاد ٠ !

ومن العوامل المباشرة التي لا تستطيع الاستغناء عنها اية نهضة ادبية او ثقافية ، هذه الوسائل التي تسهل للناس حفظ نتاجهم ، وتيسر عليهم امر نشره ، وتوزيعه ٠٠ ولقد كانت الارساليات الدينية اول من فكر بضرورة اصطحاب المطابع معهم الى هذه الديار المقدسة ٠٠ فلقد كانت الاثار المقدسة عاملا من عوامل الجذب في هذه المنطقة ٠٠ وكانت القدس قبلة انظار الديانات المختلفة والارساليات المتعددة ٠ ومن هنا كان تاريخ الطباعة في فلسطين مبكرا ٠٠ فقد عرفت البلاد الطباعة على ايدى اليهود في سنة ١٨٣٠ حيث انشأ نسيم باق مطبعة في القدس كانت تطبع كتبا دينية باللغة العبرية ٠٠

---

(١) ولاية بيروت / قسم اول ص ١٧٤ (٢) الرسالة / عدد ١٤٧/ سنه ٢ ص ٧٠٥ — ٧٠٦
(٣) حولية الثقافة / سنة اولى / ص ٣٩ (٤) النفائس العصريه / جزء ١٢/ سنه ٤ ص ٥٠٥ — ٥١٦ ٠

وقد كانت خطوة اولى لانتصار الطباعة على النسخ بالايدي في ذلك الحين .. وسدت مطبعة نسيم باق حاجة الناس الصغيرة في حينها .. حتى اقبل الرهبان الفرنسيسكان ليقوموا برسالتهم فجاءوا بمطبعتهم .. وفي الفترة ما بين سنة ١٨٣٠ و ١٨٥٠ نشأت ثلاث مطابع كبيرة اعانت على نشر آداب اللغة العربية في جهات الشام :

الاولى مطبعة الاميركان التي نقلت سنة ١٨٤٣ من مالطة الى بيروت ، واستحضرت ادوات جديدة ، والثانية المطبعة الكاثوليكية وكان ظهورها سنة ١٨٤٨ في بيروت..

واما الثالثة فهي مطبعة الاباء الفرنسيسكان في القدس ، وقد انشئت في حدود سنة ١٨٤٦ ، انشأها الاب سبستيان فرتخنر (Frötchner) النمسوي الاصل . وكان باكورة المطبوعات في هذه المطبعة كتاب (التعليم المسيحي بالايطالية والعربية) . وقد كانت ادوات الطباعة كلها من النمسا .. حتى الحروف كان يجيء قسم منها من النمسا .. الى ان ابدلها اصحابها بالحرف الاسطنبولي من بيروت.. ولم تزل هذه المطبعة في نمو وارتقاء حتى اصبحت في اول القرن العشرين من اكبر المطابع الشرقية لا ينقصها شيء مما تفتخر به المعامل الاوروبية من ادوات طبع الحروف والحجر والمسابك والمقاطع وآلات التحبير ، والصقل والتذهيب والتجليد وغير ذلك مما يدار بالبخار .. وقد ادارها رهبان نمساويون ، ثم ادارها بعدهم ثلاثة من الايطاليين ، ثم جاءها الاب دومينيك البلجيكي ، ثم ادارها اب ايطالي ، ومن بعده اب الماني يساعده عدد من العمال الوطنيين .. وقد استجلب الاب الالماني هنري كرتسمان من اوروبة سنة ١٩٠٠ اربع عشرة آلة جديدة لفنون الطباعة حتى يعيد سبك حروفها كي تصبح غاية في الاتقان .. وقد دارت مطبوعاتها حول الموضوعات الدينية في الدرجة الاولى .. ثم حول الموضوعات المدرسية واللغوية في الدرجة الثانية .. ثم حول الموضوعات الادبية بالمدلول القديم لكلمة ادب في الدرجة الثالثة.

وحين جاءت الارساليات الانكليزية ، اسس جماعة منهم سنة ١٨٤٨ مطبعة في القدس اسموها مطبعة لندن لتابع الكتب الدينية من اجل نشر الانجيل بين اليهود .. وفي الوقت نفسه أنشأ الارمن الغريغوريون في القدس المطبعة الارمنية في جوار جبل صهيون حيث مقام اسقفهم وكنيستهم الكبرى ..

وفي أواخر سنة ١٩٤٩ أنشأت جمعية القبر المقدس اليونانية مطبعتها في دار البطريركية الارتوذكسية وكان ذلك على عهد البطرك كيرلس الثاني ..

وفي هذه الآونة كانت (المطبعة الوطنية) في القدس لصاحبها الفونس انطون الونصو .. ثم مطبعة (جورج حنانيا) .

وللجمعية البروتستانتية المعروفة باسم Church Missionary Society مطبعة صغيرة بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وفي (المقتطف) سنة ١٨٨٣ جدول يبين نشأة المطابع في القدس(١):

١) مطبعة الاباء الفرنسيسكان .. أنشئت سنة ١٨٤٧ ، وطبعت(١٠٣) ما بين مجلدات وكراريس بلغات مختلفة .

٢) مطبعة دير الروم الارتوذكس .. انشئت سنة ١٨٥١ .. وطبعت (٦٥) منها (٣٦) بالعربية والباقي باليونانية .

٣) مطبعة دير الارمن .. أنشئت سنة ١٨٦٦ .. وطبعت (١١٥) بلغات مختلفة اغلبها بالارمنيه .

٤) مطبعة جمعية المرسلين الكنائسية الانكليزية .. انشئت سنة ١٨٧٩ ... وطبعت (٢٢) بالعربية .

٥) مطبعة لندن لانتشار الانجيل بين اليهود .. انشئت سنة ١٨٤٨ ... وكانت تطبع كراسا شهريا دينيا واعلانات دينية .

ومن المطابع التي تطورت تطورا كبيرا واصبحت ذات شأن في البلاد مطبعة دار الايتام السورية التي امتازت بما تؤديه للمعارف والاداب من الخدمات الجليلة .. وقد جهزت تجهيزا يجارى احسن المطابع في بيروت بادواتها ومعداتها وحروفها الافرنجية والعربية وادوات التجليد والخياطة والكبس والقطع . وكان فيها في مطلع القرن العشرين طابعان كبيران وثلاث طوابع صغيرة ، وكلها تدار بالبخار وقد اشتهرت بحسن الطبع والاتقان والتفنن ، يشهد بذلك كثرة الطلبات التي كانت ترد عليها من جهات عديدة كمصر وحلب وبيروت ودمشق وطرابلس الشام وحيفا والناصرة ويافا فضلا عن القدس وجهاتها . وفيها كانت تطبع مجلة النفائس المصرية ، وعدة مجلات وجرائد المانية ، فضلا عن الكتب والاوراق التجارية التي لا تحصى .. وكانت على درجة من الاتقان وحسن الصنعة لا يباريها الا مطبعة او مطبعتان في بيروت(٢)

وهكذا نجد لكل طائفة تقريبا مطبعة خاصة بها تطبع كتبها ونشراتها ، وكراساتها السالزيان ، والدومينكان ، والفرنسيسكان ، والارمن ، والروم الارتوذكس ، والكاثوليك واليهود .

وكانت كتب فلسطينية تطبع في غير هذه المطابع .. فهناك كتب طبعت في استانبول ، وفي فينا ، وفي لندن ، وفي ليبسغ ، وفي قازان ، وفي برنستون ، وفي نيويورك ، وفي ليدن ، وفي المطبعة الدومنيكية الموصليه ، وفي باريس ، وفي هامبورغ ، وفي واشنطون ، وفي لبنان ، وفي مصر ، وفي مطابع الشام ، وحلب ، وبغداد ، وعمان ، ومكة .

---

(١) المقتطف / جزء ٨ / سنه ٧ ١٨٨٣ ص ٤٧٢ / والمشرق / عدد ٢ سنه ٥ ١٩٠٢ ، وتاريخ الطباعة في الشرق العربي ص ٢٩٩ ـ ٣٠٣ (٢) النفائس العصريه / جزء ١٢ / سنه ٤ ١٩١٢ ص ٥١٦ .

حتى اذا اطل القرن العشرين على هذا الوطن ولاسيما بعد اعلان الدستور العثماني رأينا المطابع الوطنية في مختلف مدن فلسطين ، فاول مطبعة جيء بها الى حيفا كانت (المطبعة الوطنية) لباسيلا الجدع سنة ١٩٠٨ . ثم جاءت بعدها (مطبعة جريدة الكرمل) سنة ١٩٠٩ لنجيب نصار .. ثم تبعها بعد ذلك (مطابع جريدة النفير) لايليا زكا ، وغيرها .

ثم تتقدم السنين .. وتنتشر المطابع في البلاد ، ونرى كتبا مختلفة تطبع في عكا وحيفا ونابلس ويافا وسائر المدن الفلسطينية ، ويأخذ الفلسطينيون يطبعون كتبهم في انحاء العالم (١)

هذا هو المجال الداخلي والمجال الخارجي في الطباعة وتاريخها في هذا الوطن .. وقد بدأت الكتب دينية ومدرسيه .. ثم تطورت الى ان شملت سائر العلوم المختلفه .. وقد بدأت دور الطباعة من اجل غايات خاصة .. ثم توسعت حتى اصبحت كالدور التجارية .

ولعل الصحافة أن تكون اشد العوامل اتصالا بالمدارس والمطابع .. وهي . وان تكن متأخرة في نشأتها عن المدارس والطباعة ، الا انها ازدهرت في فترة قصيرة ، لانها بدأت في مرحلة كانت فيها الصحافة قد نضجت في البلاد المجاورة .. وقد بدأت ايضا اجنبيه في الادوار الاولى من حياة هذه القطر الحديثة .. فلم يكن في البلاد صحف وطنيه قبل اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ بل كانت هناك مجلات للجمعيات الاجنبية التابعة للارساليات ، والجاليات في البلاد .

فلما تأسست مجلة الجمعية الالمانية الفلسطينية :

" Nachrichten Des Deutschen Palestina Vereins "

سمحت ادارتها ان تنشر في اعدادها قائمة المطبوعات التي لها علاقة قريبة وبعيدة بمختلف شؤون فلسطين ، ولما ثبت لمحرري تلك المجلة ان المطبوعات التي يدور بحثها حول فلسطين اتسعت دائرتها الى حد لم يكد يفي به الاحصاء وتشمله صفحات المجلة توقفوا سنة ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ عن متابعة سعيهم .. وجاء البحاثة الدكتور بيتر تومسن Peter Thomsen يتم اعمالهم .. فالف في ذلك كتبا مستقلة اودعها قائمة المصنفات الفلسطينية من سنة ١٨٩٥ وما تليها من السنوات ، ظهر منها حتى سنة ١٩١٦ ثلاث مؤلفات بعنوان : (Die Palastina Literateur) .

---

(١) انظر اماكن طباعة الكتب في " الكتاب العربي الفلسطيني "

وهناك مجلة بطريركية القدس الارتوذكسية (Nea Sion) .. ثم هنــــاك المجلة الالمانية ، لصاحبها الدكتور بيز

(Byzantinisch Neugrie Chische Jahrbucher)(١)

كما كانت لجمعيات التنقيب عن آثار فلسطين مجلة تدعى (مجلة التنقيب عن آثار فلسطين) .. "وقد نالت فلسطين النصيب الاوفر من جهود المنقبين وذلك بسبب مركزها الديني اولا والسياسي ثانيا .. فقد كان لها منذ البدء مجلات خاصة بحادياتها بعضها المانية وبعضها الاخر انكليزية . وكان للفرنساويين في نشراتهم ابحاث عديدة في آثار فلسطين فضلا عن (المجلة الكتابية Revue Biblique) التي كانت قبل الحرب تلخص في كل اعدادها ما ورد في المجلات الاثرية عن فلسطين"(٢).

وكانت هناك ايضا مجلة الجمعية الانكليزيه (C.M.S.) ، وغيرها من الجمعيات

ويقول الدكتور نجيب ميخائيل ساعاتي المقدسي انه لم يكن للصحف اثر في فلسطين قبل سنة ١٨٧٢ .. ولعل اول جريدة في القدس كانت (جريدة القدس الشريف) و (جريدة حيفا) .. وقد كانت جريدة القدس الشريف هذه جريدة حكومية محلية سنة ١٩٠٤ حيث كانت تعد من امهات صحف البلاد ، وكانت تصدر في اللغتين العربية والتركية .. وتتلوها في القدم (النفير العثماني) التي صارت تسمى (النفير). حتى اذا كان فجر الدستور سنة ١٩٠٨ انتشرت الصحف في القدس وحيفا ويافا وعكا وبيت لحم وغيرها .. ففي المدة الواقعة بين ١٩٠٤ و ١٩٢٢ نجد في فلسطين من الصحف العربيه وحدها ما يقرب من الخمسين (٣) .

وللدلالة على انتشار الصحف في فلسطين نورد جدولا بها عن تاريـــخ الصحافة العربية (٤) وهو يحتوى على جميع فهارس الجرائد والمجلات العربية منذ تكوين الصحافة العربية الى نهاية عام ١٩٢٦ :

---

(١) مقال الدكتور نجيب الساعاتي المقدسي عن الدكتور بيتر تومسن في (معرض الاقلام الزهره) عدد ٤٢٣/ سنه ٢ ص ٤٩٥ ـ ٤٩٧ (٢) مقال "نظرات في تاريخنا "للاستاذ زكي النقاش في الكشاف / عدد ٢ سنه ١ ١٩٢٧ ص ١٠٣ (٣) انظر مقال الدكتور نجيب الساعاتي المقدسي عن "انتشار الصحافة في فلسطين "في الزهره ، معرض الاقلام ، عدد ٦ سنه ٢ ص ١٤٥ ـ ١٤٧ (٤) تاريخ الصحافة العربيه / جزء ٤ ص ١٢٨ ، ١٤٠ ، ٣٩٤ ، ٤٨٨ ، ٤٩٦ .

المجـــــــلات

اولا : مدينة القـدس

الـرقـم	عنـــوان المجلـــــة	منشئـــهـــا	تاريخ ظهورها
١	الباكورة الصهيونية	مدرسة صهيون الانكليزية	١٩٠٩
٢	الدستـــور	تلامذة مدرسة الدستـور	٦ك١ ١٩١٠
٣	المنهـــل	موسى المغـــربي	٥ آب ١٩١٣
٤	دار المعلمـــين	موسى نقولا وعبد الهادى	١ت١ ١٩٢٠
٥	باكورة جبل صهيون	مدرسة صهيون الانكليزية	١ك٢ ١٩٢٢
٦	روضة المعارف	مدرسة روضة المعارف	ت٢ ١٩٢٢
٧	الروايات الاهليه	مكتبة بيت المقدس	حزيران ١٩٢٤
٨	الحكمـــة	مراد فؤاد جقي	١ت١ ١٩٢٧

ثانيا : مدينة حيفـــا

الـرقـم	عنـــوان المجلـــــة	منشئـــهـــا	تاريخ ظهورها
١	النفـــائس	خليل بيـــدس	١ت٢ ١٩٠٨
٢	النفائس العصريه	خليل بيـــدس	١٩٠٩
٣	حيفا	ايليـــا زكـــا	آذار ١٩٢١
٤	زهرة الجميل	جميل البحـــرى	ايار ١٩٢١
٥	الزهرة	جميل البحـــرى	١ ايار ١٩٢٢
٦	حيفـــا (وهي غير رقم ٣ لانها تخذت تاريخا جديدا وتسلسلا جديدا فانما لم يصدر من هذه الاعداد واحد فقط)	ايليـــا زكـــا	١٥ آب ١٩٢٤
٧	المجلة التجاريـــة	غرفة تجارة يافا	ك٢ ١٩٢٥

ثالثا : مدينـة عكـــا

الـرقـم	عنـــوان المجلـــــة	منشئـــهـــا	تاريخ ظهورها
١	الأنارة	الايقونومس نقولا يوحنا	١١ ايلول ١٩٢٥

رابعا : مدينة بيت لحم

الـرقـم	عنـــوان المجلـــــة	منشئـــهـــا	تاريخ ظهورها
١	بيت لحم	يوحنا دكرت وعيسى بندك	١١ ايلول ١٩١٩

خامسا : مدينة يـــافا

رقـــم	عنـــوان المجلـــة	منشئهـــا	تاريخ ظهورها
١	الاصمعي	حنا عبد الله عيسى	١١ايلول ١٩٠٨
٢	الحقوق	فهمي الحسيني	ك١ ١٩٢٣
٣	النشرة التجارية	غرفة تجارة يافا	١ نيسان ١٩٢٤

سادسا : بئر السبـــع

رقـــم	عنـــوان المجلـــة	منشئهـــا	تاريخ ظهورها
١	جول مصوّر	حاجي جمال	١٤ ايلول ١٩١٦

اما جرائد فلسطين فهي :

اولا : جرائد القـــدس

رقـــم	عنـــوان المجلـــة	منشئهـــا	تاريخ ظهورها
١	القدس الشريف	رسمية	١١ ايلول ١٩١٣
٢	النفير العثماني	ابراهيم زكا	١٩٠٤
٣	صهيون (خطيه)	مدرسة صهيون الانكليزية	٢٧ آذار ١٩٠٦
٤	القدس	جرجي حبيب حنانيا	٨ ايلول ١٩٠٨
٥	الاحلام (خطايه)	" " " " "	١١ايلول ١٩٠٨
٦	الديك الصيّاح (خطيه)	" " " " "	ت٢ ١٩٠٨
٧	بشير فلسطين	اطناسيوس ثيوفيلو باندازى	٥ك١ ١٩٠٨
٨	منبه الاموات (خطيه	" " " " " "	١٩٠٨
٩	البلبل (هزليه)	" " " " " "	١٩٠٨
١٠	الطائر (خطيه)	" " " " " "	١٩٠٨
١١	الانصاف	بندلي الياس مشحور	٢٣ك١ ١٩٠٨
١٢	النجاح	احمد الريماوى	٢٤ك١ ١٩٠٨
١٣	الدستور (خطيه)	المدرسة الدستورية	٦ك١ ١٩١٠
١٤	المنادى	سعيد جار الله	٨ شباط ١٩١٢
١٥	الدستور	جميل الخالدى	٢٦ت٢ ١٩١٣
١٦	القدس الشريف	رسميه	١٨ ك ١٩١٣
١٧	الاعتدال	بكرى السمهورى	١٨ آذار ١٩١٤

مدينة القدس (تتمة)

رقم	عنوان الجريدة	منشئها	تاريخ ظهورها
١٨	سوريا الجنوبيه	محمد حسن البربري	٨ ايلول ١٩١٩
١٩	مرآة الشرق	بولس شحادة	١٧ ايلول ١٩١٩
٢٠	بيت المقدس	بندلي الياس مشحور	٢٦ك ١ ١٩١٩
٢١	القدس الشريف	حسن صدقي الدجاني	١٣ نيسان ١٩٢٠
٢٢	بريد اليوم	ا • سفير	١١ ايار ١٩٢٠
٢٣	الاوجي	صالح عبد اللطيف الحسيني	٦ ايلول ١٩٢٠
٢٤	يوم الرب	القسيس اسبر خومط	٢٨ت٢ ١٩٢٠
٢٥	جريدة حكومة فلسطين الرسمية	رسميه	١ت ١ ١٩٢١
٢٦	رقيب صهيون	بطريركية اللاتين	١٥ك٢ ١٩٢١
٢٧	الصباح	محمد البديري ويوسف ياسين	١٩٢١
٢٨	لسان العرب	ابراهيم سليم نجار	٢٤ حزيران ١٩٢١
٢٩	اورشليم جديدة	و • و • كاتلنغ	١ ت ١ ١٩٢٢
٣٠	الزنبقـــة	كشافة القديس جرجس	١٨ ايار ١٩٢٤
٣١	اتحاد العمال	لسان حال العمال في فلسطين	نيسان ١٩٢٥
٣٢	الاعلان	ميشال سليم نجار	٢٣ ايلول ١٩٢٦
٣٣	الجامعة العربية	منيف الحسيني	٢٠ك٢ ١٩٢٧
٣٤	الصخير	جمعية الكاردينال فراري	٢٢ ايار ١٩٢٧
٣٥	الى الامام	الحزب الشيوعي الفلسطيني	آذار ١٩٢٨
٣٦	المعاد	ميشال سليم نجار	١٨ ايار ١٩٢٨

ثانيا : جرائد يافـــا

رقم	عنوان الجريدة	منشئها	تاريخ ظهورها
١	الاخبار	بندلي غرابي	٢٩ حزيران ١٩٠٩
٢	الاعتدال اليافي	بكري السمهوري	١ ايار ١٩١٠
٣	الحرية	توفيق السمهوري	٢٠ حزيران ١٩١٠
٤	فلسطين	عيسى داود العيسى ويوسف العيسى	١٤ ت٢ ١٩١١
٥	الاخبار الاسبوعيه	حنا فضول صباغة	٢٨ك٢ ١٩١١

جرائد يافا (تتمة)

رقم	عنوان الجريدة	منشئها	تاريخ ظهورها
٦	ابو شادوف	وهبه تمارى	٣ آذار ١٩١٢
٧	صوت العثمانيه	الدكتور شمعون مويال	١٦ ك٢ ١٩١٤
٨	السلام	نسيم ملول	٣١ ايار ١٩٢٠
٩	الجزيرة	حسن فهمي ومحمود كامل الدجاني	٣١ ك٢ ١٩٢٤
١٠	الصراط المستقيم	الشيخ عبد الله القلقيلي	٢ ايلول ١٩٢٥
١١	صوت الحق	فهمي الحسيني	٦ ت١ ١٩٢٧

ثالثا : جرائد حيفا

رقم	عنوان الجريدة	منشئها	تاريخ ظهورها
١	الكرمل	نجيب نصار	١٩٠٨
٢	جراب الكردى	مترى حلاج ؟	١٩٠٨
٣	الحمارة القاهره	خليل زقوت ونجيب جانا	١٤ ايلول ١٩١١
٤	العصا لمن عصا	نجيب جانا	٢٢ شباط ١٩١٢
٥	الصاعقة	جميل رمضان	١٩١٢
٦	الاردن	باسيلا الجدع وخليل نصر	٨ ت١ ١٩٣١
٧	اليرموك	كمال عباس	٣١ آب ١٩٢٤
٨	حيفا	ايليا زكا	٢١ ت١ ١٩٢٤
٩	الاقدام	سليم الحلو	١ آب ١٩٢٦
١٠	الزهور	جميل البحرى	١٢ ك٢ ١٩٢٧
١١	النهضة	جاد سويدان وقيصر ابيض	١١ ايار ١٩٢٩

رابعا : جرائد بيت لحم

رقم	عنوان الجريدة	منشئها	تاريخ ظهورها
١	صوت الشعب	يوسف ابوالصراج وعيسى بندك	١١ ايار ١٩٢٢

خامسا : جرائد طولكرم

رقم	عنوان الجريدة	منشئها	تاريخ ظهورها
١	الاتحاد العربي	سليم عبد الرحمن الحاج ابراهيم	نيسان ١٩٢٥

هذه صورة عن الصحافة في داخل القطر .. ولئن كانت بعض هـــذه الصحف تحتجب ولا تعاود الظهور ، فهناك كثير منها واصل حياته في السنين التالية ، وهناك غيرها لم يذكرها صاحب تاريخ الصحافة مثل جريدتي (المحبة و (شمندوفر) ، صدرتا في حيفا مدة قصيرة بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ،(١) ومثل جريدة (الناسك) التي ظهرت سنة ١٩٠٩ (٢) وبعد هذا التاريخ ظهرت في يافا مجلة (الفجر)لصاحبها محمود سيف الدين الايراني .. وكذلك مجلة (السمير) و (الاقدام) لصاحبها طانيوس نصر ، و (الجامعة الاسلاميه) في يافا للشيخ سليمان التاجي الفاروقي ، في ١٦ تموز سنة ١٩٣٦ ، و (الدفاع) لابراهيم الشنطي في يافا ، في ٢ نيسان سنة ١٩٣٤ (جريدة) ، و (اللواء) في القدس، في ٢ كانون الثاني ١٩٣٦ ، تصدرها شركة الصحافة والطباعة العربية (٣).

وكما كانت في داخل القطر صحافة مزدهرة ، كذلك كان لابناء هذا القطر مشاركة محمودة في خارج الوطن : فكان عاصم بسيسو بالاشتراك مع احمد عزت الاعظمي يصدران في استنبول مجلة (المنتدى الادبي) ، حيث صدرت في ٢٧ شباط ١٩١٤ واصدر المؤرخ عارف العارف جريدة عربية هزلية اسمها (ناقة الله) سنة ١٩١٦ في معتقل سيبيريا . كما اصدر الكاتب الناقد احمد شاكر الكرمي مجلة باسم (الميزان) ارادها ان تكون مجلة الادب الصحيح في دمشق .. واصدر الشاعر الشيخ ابراهيم الدباغ مجلة (الانسانية) في القاهرة (٤) وكان الكاتب محمد علي الطاهر يصدر جريدة (الشورى) في القاهرة .

وبهذا يتجاوز عدد المجلات الفلسطينيه العشرين ، وعدد الجرائد يتجاوز الستين . وذلك يوضح نشاط هذا القطر الصحفي في الداخل والخارج .

وما اظن ان هذا العدد يعد ضئيلا بالقياس الى عدد سكان هذا القطـــر الصغير ، هذا بالاضافة الى صحف البلاد المجاورة التي كانت تتسع صفحاتها لكتاب فلسطين مثل المشرق ، والجنان ، والهلال ، والمقتطف وغيرها . فقد عوضت ابناء هذا القطر عن صحفهم المحلية في الفترة التي سبقت اعلان الدستور .

وقد كانت الصحافة ذات دور فعال في النهضة من جميع وجوهها ، من ذلك أن جريدة فلسطين مثلا قد اصدرت نسخة انكليزية سنة ١٩٢٩ توزع بـــلا مقابل على اعضاء البرلمان الانكليزي من اجل توضيح المشكلة الفلسطينيه للانجليز(٥).

---

(١) الزهره عدد ١ — ٢ / سنه ص١٩٣ (٢) الزهره / السنه الثالثة / نيسان ١٩٢٤ ص٢٩ (٣) "فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونيه" ص٢٣٣ — ٢٣٥ (٤) وحي الشاطيء ص ٩٩ (٥) النفير / عدد ١ سنة ٢٧ ١٩٢٩ ص٩ .

كما ان رجال الصحافة العربية في فلسطين حين رأوا ما آلت اليه حالة الوطنيين من التفرقة ، قرروا عقد مؤتمر صحفي في حيفا لوضع خطة يسيرون عليها في كتاباتهم وتأليف نقابة صحافية تجمع شملهم (١) .. وكانت الصحف تنظم مسابقات ادبية تطلب فيها من الادباء الكتابة في موضوع ، وتخصص للمجيدين جوائز مالية وغيرها (٢) .. وكانت بعض الصحف تصدر اعدادا ممتازه تجعلها لدراسة امور خاصة من امور البلاد .. وكانت الى جانب ذلك تختار من اعدادها موضوعات ادبية تنشرها في مجاميع خاصة تجعلها (معرض اقلام) الكتاب (٣) كما كانت تفعل مجلة الزهرة حيث تصدر في مطلع سنتها الثالثة عددها الممتاز الثاني ، وفيه نتاج افكار كبار رجال الادب من كتاب وشعراء ، راغبة بعملها في ايجاد صلة تعارف ، بل رابطة اخوة ادبية بين ادباء فلسطين وادباء البلاد الاخرى . (٤)

كل هذا يوضح لنا اهمية الدور الذى كانت تقوم به الصحافة الفلسطينية في النهضة الادبية لهذا القطر العربي الصغير !

واهتمام الناس الزائد بهذا القطر بدأ مبكرا ، وذلك لموقعها اولا ، ولمقامها الديني الذى جعلها "موضوع بحث الباحثين على اختلاف مذاهبهم واغراضهم ... وقد تفرغ لمثل هذه الابحاث في العصر الحديث علماء الكتاب المقدس من الغربيين .." كما تفرغ له منهم علماء الاثـــــار .. ومن بين هؤلاء علماء المعهد الكتابي والاثاري في القدس ، كالعلامة فنسان ، والعلامه آبيل ، الدومنكيان اللذان الفا في هذى الميدانين ، ميداني الاثارية والبلدانية الفلسطينيتين ، مصنفات مهمة وجزيلة الفائدة (٥) . وقد رأينا كيف كان لفلسطين منذ البدء مجلات خاصة بعادياتها ، بعضها المانية ، وبعضها الاخر انكليزية . ثم كان للفرنسويين في نشراتهم ابحاث عديدة في آثار فلسطين فضلا عن (المجلة الكتابيه Revue Biblique) التي كانت قبل الحرب تلخص في كل اعدادها ما ورد في المجلات الاثرية عن فلسطين .. ثم توقفت اعمال الحفر ، والتنقيب عن العاديات ، في سنوات الحرب العالميه الاولى ، ولكن ما كادت الحرب تضع اوزارها حتى انطلق المنقبون نشيطين ، فشرعوا يتممون اعمال من سبقهم . ففتحت سنة ١٩٢٠ (مدرسة العاديات البريطانية) في القدس ، واشتركت في حفريات عسقلان التي كانت قد بدأتها (جمعية الحفريات في فلسطين) ، Palestine Exploration Fund.

---

(١) الزهرة / عدد ٢ / سنة ٤ ص ١١٦ (٢) الزهره / عدد ٢ / سنه ٤ ص ١٠٦
(٣) الزهرة / عدد ١ / سنه ٢ / ص٣ (٤) الزهرة / السنة الثالثة / ايار ١٩٢٣ ص٦
(٥) انظر مقدمة كتاب " بلدانية فلسطين العربية " .

ثم ألف حاكم القدس المستر ستورز R. Storos جمعية سماها Pro-Jerusalem Society تقوم بترميم البنايات القديمة التاريخية، والمحافظة عليها • كما كان في مدينة القدس معهد الاثار الاميركي American School of Archeology ثم نشط جماعة الفرنسيسكان في هذه السبيل وعادوا الى الحفر في تل حوم Caparnaum على الطرف الشمالي من بحيرة طبريا •• واشتركت في هذا العمل الجامعات الاميركية حيث ارسلت جامعة بنسلفانيا بعثة قامت بالتنقيب عن عاديات بيسان، واهتمت جامعة هارفرد بطلول سبسطيا - السامره -، ووجهت جامعة شيكاغو جهودها الى تل المتسلم - ما جدّو - وكانت بعثة المانية تقوم بحفريات في قرية بلاطة شرق نابلس (١) •

ومن هذه العناية ابحاث الاب ارنست شميتز اللعازري الالماني حول الكواسر في فلسطين، وحصره البحث في الجوارح من الطيور •• وفي النهارية منها دون الليلة وقد القى محاضرة حول ذلك في نادي المدرسة الكتابيه للاباء الدومينكان سنة ١٩١٢ (٢)

ومن هذا القبيل ايضا تلك الدراسة التي قام بها العلامة مادر P.D.Mader لما في غربي البلاد من انصاب عديدة من الحجارة الضخمة، بعضها منتصبة وبعضها معترضة على احجار غيرها •• وقد سجل نتيجة دراسته "المجلة الفلسطينية الالمانيـــة (ZDPV, 1914, P. 20-44) فأثبت صورها وبين ان عددها اوفر مما كان يظن، وارجع اصلها الى عهد الكنعانيين قبل طور الحديد (٣) •

ومن هذا الوادي ما وجهه الانكليز من عناية بحفريات عسقلان حيث اخـذ الاستاذ غرستنغ يستعد ليجري حفريات في خريف سنة ١٩٢٠ لكشف عادياتها (٤)

وفي وقت مبكر من حدود بحثنا الزمنية جاء الرحالة لنش بأمر من الدولة العثمانية للبحث في آثار فلسطين وذلك سنة ١٨٤٨ (٥) •

وهكذا نجد أن الغربيين، منذ البدء، قد وجهوا انظارهم الى هذه البقعة من ارض الوطن • وشدوا الرحال اليها لنبش آثارها، واكتشاف الدفائن منها، واحياء اخبار ما درس من معالمها، وكشف الغطاء عما خفي من آثار المدنيات التي قامت في هذا الوطن •• " وقد عقد موءتمر غربي للاثار في بيروت •• ثم غادروها الى حيفا حيث مروا بعكا وشاهدوا آثارها وقد توجهوا الى القدس حيث عقدوا جلسة الموءتمر الاخيرة في نيسان سنة ١٩٢٦ (٦)

---

(١) "نظرات في تاريخنا "بقلم زكي نقاش/ الكشاف/ عدد ٢ سنة ١ ص ١٠٨ - ١٠٦
(٢) المشرق / عدد ١٢ / سنه ١٦ ص ٩٠١ - ٩٠٨ (٣) المشرق / عدد ١ سنة ١٨ ص ٧٥ (٤) المشرق / عدد ٨ سنه ١٨ ص ٦٣١ (٥) تاريخ الناصرة ص ٧٤ (٦) الزهرة/ عدد ٧ - ٨ سنه ٥ ص ٢٨٦ - ٣٨٧ •

وليس من شك في ان هذه العناية بالاثار، وبجيولوجية البلاد المقدسة، وبتاريخها، وبكل شبر فيها، وبطيورها، وطبيعتها، وجغرافيتها، وبلدانيتها، كان له تأثيره في نفوس ابناء هذا الوطن مما حمل البعض منهم على القيام بمثل تلك الاعباء ادبا وعمرانا ونشاطا.

لهذا رأينا احد ابناء فلسطين الدكتور نجيب ميخائيل ساعاتي المقدسي يصرح انه لم يعثر في المباحث التاريخية عن فلسطين وآثارها على مؤلف يبحث في زلازل تلك البقعة المقدسة بحثا منفردا منذ القديم حتى يومه. وكل ما علمه ان العلماء الذين اشتغلوا في جيولوجية فلسطين كالدكتور ستارلي Starley وغيره قد تركوا في مؤلفاتهم بعض الشيء في هذا المعنى.. ثم اخذ يجمع حول الموضوع، ويقتطف من كتب كثيرة احصائيات عن الزلازل في البلاد من سنة ٧٨٣ ق.م حتى سنة ١٨٣٨ (١)

ثم يقبل المحقق الباحث عبد الله مخلص، ويوالي التنقيب والبحث ليثبت تحقيقاته واستنتاجاته في وثائقه التاريخية.. كما فعل في أمر تحقيق ضريح يوسف في قرية "بلاطه" بضاحية مدينة نابلس.. وتحقيقه في امر جب يوسف ايضا (٢).. ثم موالاته البحث حول هذه الموضوعات وما يتصل بها كتحقيقه امر "عجلان" مقام عمرو بن العاص في فلسطين، وتحقيقه ما جاء في التاريخ والادب من ذكر بيت رأس، وغير ذلك (٣).

ومن هذا القبيل ما فعله اسماعيل بك مدير المعارف في القدس سنة ١٩٠١ حين جمع ما اكتشفه العلماء الاجانب لاسيما الدكتور بليس، من العاديات في فلسطين وافرد لها ست حجر في المدرسة السلطانية القائمة بازاء الباب المعروف بباب هيرودس، ونظمها هناك على أحسن طريقة.. وكانت الغاية من اقامة هذا المتحف الصغير أن يجد العلماء في القدس فرصة لدرس تاريخ فلسطين منذ زمن الكنعانيين الى ايام الدولة الرومانية (٤).

هذا عدا عن الارسليات المختلفة والهيئات المتعددة التي لم تترك جانبا من جوانب هذه البلاد لم تدرسه درسا دقيقا، ولم يبق شبر من ارض هذا الوطن لم يلق عناية من دارسيه من اختلاف الاغراض والغايات المرجوة من وراء هذا الدرس.

ومن هذا النشاط تلك الرحلة التي قام بها الدكتور لويس موسيل - نزيل كلية القديس يوسف ببيروت - الى غزة حيث تفقد مرارا آثارها، وزار ما يجاورها، وتمكن من اكتشاف عدة اماكن ذكرت في التوراة والتواريخ القديمة وتراجم اولياء الله، لم يقف قبله على حقيقة بعضها احد من المستشرقين، وقد نشر نتيجة ابحاثه في (المشرق) (٥).

---

(١) "الزلازل في فلسطين" بقلم نجيب الساعاتي في الزهرة/ عدد ٩ - ١٠ (٢) انظر "جب يوسف الصديق وقبره الشريف" تحقيق واستنتاج عبد الله مخلص. (٣) انظر الكشاف/ عدد ٣ - ٤/ مجلد ٣ ص ١٨٢ - ١٨٥، وجزء ٧/ مجلد ٢ ص ٤٠٦ - ٤١٢ (٤) المشرق/ عدد ١٥/ سنه ٤ ص ٧١٦ (٥) المشرق / عدد ٥ سنه ١ ص ٢١١ - ٢١٦.

وكان من أثر هذه الدراسات التي وضعها الغربيون وغيرهم لوصف البلاد الفلسطينية في مختلف اللغات ، أن تجرد لمثل هذه المهمة وصّافون من ابناء العربية كالاب أ٠ س٠ مرمرجي الدومنكي ، احد اساتذة المعهد الكتابي والاثارى في القدس وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، حيث وضع (بلدانية فلسطين العربية) ، وقد جمع نصوصها ، وابجدها ، وترجمها الى الفرنسية ، لكي تكون نصوص بلدانية فلسطين العربية قريبة المتناول لجمهرة المثقفين في العالم العربي عموما وفي فلسطين خصوصا ، ثم للاجانب المشتغلين بنوع خاص في درس جغرافية الاراضي المقدسة وتاريخها ، وآثارها (١) ٠

ومن اجل هذا عددنا العناية بآثار هذه البلاد ، وبجغرافيتها وتاريخها ، عاملا من عوامل النهضة المباشرة في هذا القطر الصغير ٠

ولعل من عوامل النهضة المباشرة في فلسطين كثرة الاندية والجمعيات الادبية والمجالس الخاصة وحلقات الادب في البلاد ومنها ما انشيء مبكرا كجمعية (سوسنة صهيون) وهي فرع جمعية اتحاد الشبان المسيحيين بلندن ، وقد انشئت سنة ١٨٧٧ ، وكان اعضاؤها عشرين ٠٠ وكجمعية (النيرة المسيحية) لشبان الروم الارتوذكس خاصة ، وكلا الجمعيتين من جمعيات القدس (٢)

ومن الجمعيات المبكرة في البلاد جمعيات ثلاث في عكا : الاولى جمعية (شعبة المعارف) ، والثانية (الجمعية الادبية الخيريه) ، والثالثة جمعية (مار منصور) وكان دخل هذه الجمعيات ينفق على الخير وتعميم المعارف (٣)

ومن الجمعيات المبكرة التي كان لها اثر مباشر في المباحث الفلسطينية (الجمعية الالمانية الفلسطينيه) ٠٠ فقد عنيت بنشر المباحث المطبوعة ذات العلاقة بمختلف شؤون فلسطين ٠٠ ووقفت عن نشر المطبوعات الفلسطينيه في السنة ١٨٩٤ـ ١٨٩٥ ، ولم تقف عن نشر المباحث الخاصة بشؤون فلسطين (٤) ٠

وقد رأينا اثر الجمعية الارتوذكسية الفلسطينية ومدارسها ، وعنايتها بدرس احوال فلسطين درسا تفصيليا ووضعها "الوفا من الكتب" في ذلك ٠٠٠٠ وكان بدء نشوئها سنة ١٨٨٢ ٠ (٥)

وفي سنة ١٩٠٨ تأسست في يافا (جمعية ترقي الاداب الوطنية) غايتها تهذيب الشبيبة وتربيتهم ٠٠ وكانت تصدر نشرة تضمنها خلاصة اعمالها السنوية(٦)

---

(١) انظر مقدمة "بلدانية فلسطين العربية" (٢) المقتطف / جزء ٨/ سنه ٧ ١٨٨٣ ص ٤٧٠ (٣) المقتطف / جزء ٩/سنه ٧ ١٨٨٣ ص ٥٣٣ (٤) مصرض افلام الزهره/ عدد ٢٣ـ٢٤/ سنة ٢ ص ٤٩٥ / (٥) النفائس العصريه / جزء ٨ سنه ٧/ ١٩١٩ ص ٦٥ ـ ٦٧ (٦) النفائس العصرية / جزء ٥ سنه ٣ ١٩١١ ص ٢٤٠ ٠

وعلى اثر الاحتلال البريطاني ، تشكلت في حيفا الجمعيتان : الاسـلامية ورئيسها مفتي حيفا الشيخ محمد مراد ، والمسيحيه ، ورئيسها الوجيه فوءاد سعد . وكان لهاتين الجمعيتين الفضل في عقد اول موءتمر فلسطيني رسمي عام مثل جميع طبقات الشعب من سائر جهات فلسطين ، واقرت به الحكومة ، واعترفت بأن يتكلم بلسان الشعب عموما ، وقد عقد في حيفا من ١٣ - ١٩ كانون الاول سنة ١٩٢٠ وهو المعروف بالموءتمر الفلسطيني الثالث العام الذى ترأسه موسى كاظـم الحسيني وكان نواة العمل والحياة للامة .. وقد شكل هذا الموءتمر باقتراح الاستاذ الشيخ سليمان التاجي الفاروقي (١).

وعدا هاتين الجمعيتين المسيحية والاسلاميه ، واثرهما الكبير في الحياة السياسية ، وعداد تلك الجمعيات الطائفية الخيرية ، والاخوات الدينيه الكثيـرة العدد ، كانت في حيفا (جمعية الشبيبة المسيحيه) وهي جمعية ادبية انشئت من اجل بحث الامور الادبية ، وتمثيل الرواياتعلى الجمهور .. وكان رئيسها الشاب الاديب جدع .. وقد اعيد تأسيس هذه الجمعية في ١٧ تشرين الثاني سنة ١٩١٩ بموجب ترخيص من الحكومة المحلية ، وهي الجمعية نفسها التي كانت معروفة قبل الحرب باسم (نهضة فتيان الروم الكاثوليك) التي وقفت سيرها ونشاطها الحرب التي شتتت شمل اعضائها .

وقد كان في حيفا جمعيتان نسويتان : الاولى جمعية السيدات (مسيحيه) والثانية جمعية تهذيب الفتاة (اسلاميه) ، وقد تأسست في حيفا الى جانب هـذه الجمعيات جمعية من بعض الموظفين الانكليز والوطنيين لتعزيز اللغة الانكليزية .. كما تأسست (جمعية النهضة الاقتصادية العربيه) غايتها النهوض بالبلاد علميـا وتهذيبيا واقتصاديا واخلاقيا ؛ وكان من اعضائها علماء وادباء ومحامون ومفكرون وصحفيون .. وكان من المنادين بتأسيسها السيد نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل . وقد صدقت الحكومة على قانونها الاساسي ، واقيمت حفلة افتتاحها في ٢٢ شباط سنة ١٩٢٢ ، وفي اجتماع آخر عام في ١٦ آذار سنة ١٩٢٢ جرى انتخاب الهيئة الكلية لسنة واحدة وعدد اعضائها سبعة وهم : نجيب - وديع البستاني - القس صالح سابا - محمد علي التميمي - عبد الله مخلص - رشدى الشوا - توافيل بوتاجي . وكان سكرتيرها ميشيل جريس الخورى . وكان لهذه الجمعية الحق ، بموجب نص قانونها ، ان تشكل هيئات فرعيه في القرى تربطها جميعا لجنـة عليا ينتخبها الموءتمر الذى يعقد بعد تنظيم هذه الهيئات ، وقد بدأت بتشكيل نقابات لكل مهنة وصنعة وفن .

---

(١) "تاريخ حيفا" المنشور في الزهره عدد ٢٣ - ٢٤ سنه ٢ ص١١٤ - ١١٥.

وكان من بين هذه النابات (حلقة الادب)، وغايتها تعزيز اللغة العربية، وتشجيع فن الخطابة، والنظر في كل نقيصة من نقائص مجتمع حيفا الادبي واصلاحه، والعناية بالتعليم، ونشر الكتب الادبية، ولم تكن الحلقة تقبل بين اعضائها العاملين الا حملة الاقلام والخطباء ومن مارس فن الادب نثرا ونظما، وكان اعضاؤها الفخريون من بين الذين يميلون الى الادب وينشطونه

وقد قامت فكرة تأسيس هذه الحلقة في رأس الكاتب توفيق زيبق، واستشار بشأنها الادباء من اصدقائه، فاستحسنوا فكرته وشجعوه، ولكنهم امهلوه الى ان تأسست (جمعية النهضه الاقتصادية العربيه) فباشروا بتأسيس الحلقة، وسنوا لها نظاما في جلسة تمهيديه عقدت في ٢٨ نيسان سنة ١٩٢٢، عقدها توفيق زيبق، ورفيق التميمي، والدكتور قيصر الخورى، واديب الجدع، ويوسف الخطيب، وعبد الرحمن رمضان، وجميل البحرى (١)

ولقد أحدثت الحلقة نشاطا كبيرا : كانت تقيم الحفلات.. وتنظم المحاضرات.. وتنشيء المسابقات للتأليف المسرحي وغيره .. وكانت تقوم بدور كبير في الحياة الادبية بما ترجمه اعضاؤها وما حاضروه وما أنشأوه ..

واخذت النوادى تقوم، فكان لموظفي السكة الحديدية في حيفا، وغيرهم من ادباء القوم ناد يجمعهم .. وكان السعي حثيثا لتأسيس ناد وطني عمومي، ثم قام في حيفا ناد باسم (النادى الكاثوليكي) سنه ١٩٢٢، اقامه نخبة من شبان طائفة الروم الكاثوليك ادباء وموظفين وعمالا (٢).

واخذت الجمعيات تقوم بدور فعال في حياة البلاد في كل بلدة ومن هذه الجمعيات، الجمعية الاسلامية المسيحية، والنادى القومي، في يافا. ولم تكن تفوتهما اى مناسبة من المناسبات الادبية، ومثلهما جمعية الشبان المسيحية في القدس، وحفلاتها، ومحاضراتها، ودعوتها الادباء من الخارج ..

وقد قامت في القرى الجمعيات التعاونيه (كجمعية تعاون القرى) التي اتخذت مركزها في حيفا، وكانت تعني بشؤون الفلاح .. وكثيرا ما كانت تقام فيها حفلات ادبيه يلقى فيها الشعر، وتقوم الدراسات حول شؤون القرية(٣)

ثم تحققت في حيفا فكرة انشاء ناد مختلط للعائلات، كما تأسس فيها (النادى العربي) الذى كان يضم نخبة من الشبان المسلمين والمسيحيين وكان من غايته ممارسة الفنون الادبية والرياضية ..

---

(١) تاريخ حيفا، المنشور في مجلة الزهرة / عدد ٢٣ — ٢٤ / سنة ٢ ص١٨٧ — ١٨٨.
(٢) معرض اقلام الزهره عدد ٤ سنه ٣ ص١٦٢ — ١٦٩ .(٣) الزهرة / عدد ٣ سنه ٤ ص١٧٨ — ١٨٢ .

وانتشرت امثال هذه النوادى في مدن فلسطين ، وكان لها دور في الحياة الادبية كبيرا

فالنادى الارتوذكسي في غزه تنبثق عنه لجنة تقوم بالعناية بالتمثيل في البلدة ، وفي الناصرة يقوم النادى الادبي بنشاطه الكبير في حقل الحياة وجهده الملموس في المجتمع ، وفي بيت لحم ينشط نادى الشبيبه التلحميه فيقيم حفلات التكريم الكبرى للادباء وكبار المستشرقين (١)٠

والنادى العربي في القدس كان يقيم المسابقات الادبية ويسميها (سوق عكاظ) سنة ١٩٢٤ ، ويوزع الجوائز على الفائزين في الشعر في مواسم النبي موسى (٢) ٠

وحين كان يمر بالبلاد شاعر كبير او مستشرق مشهور تنشط هذه الجمعيات والنوادى فتقيم له الحفلات ، فحين اراد خليل مطران الاصطياف سنة ١٩٢٥ في رام الله ، اقيمت له حفلات التكريم في القدس ، وبيت لحم ، ويافا والبيرة وطولكرم وقلقيلية ، ورام الله نفسها ٠(٣)

ومنذ سنة ١٨٩٨ (وجمعية الاداب الزاهرة) في القدس تمارس نشاطها الادبي ٠٠ وكان رئيسها داود الصيداوى ، واعضاؤها : عيسى العيسى ، وفرج فرج الله ، وافتيم مشبك ، وشبلي الجمل ، وجميل الخالدى ، ونخلة ترزى ، وخليل السكاكيني ٠

وفي سنة ١٩٠٨ سعى الاستاذ خليل السكاكيني في اجتماع عقد في منزل موسى الخالدى لتأسيس فرع (لجمعية الاخاء العربي) ، وانتخبوا نحو خمسة عشر شخصا ليؤلفوا هيئتها العاملة ، منهم : حنا العيسى ، والمعلم نخلة زريق ٠٠ وكان تأسيسها من اجل العمل النافع (٤) ٠

وحين زار سليم سركيس القدس ، والتقى فيها بالرصافي سنة ١٩٢٠ ، كتب يقول لخليل بيد س: " وقد سرني من القدس الشريف أن فيها (جامعة للادباء) لم اوفق الى مثلها في دمشق او حيفا ٠٠ فقد قضيت نحو اربعين يوما في عاصمة المملكة السورية ، وقابلت فيها عددا كبيرا من الادباء ٠ ولكن شملهم متفرق ، فلا يجتمعون في مكان معين ، او زمان ، شأننا في مصر ٠ واما في القدس فان ليوث الادب يأوون الى عرين خاص يتحميه من لم يكن من طبقتهم ،

---

(١) النفير / عدد ٢٥ ١٩٢٩ ص ١٣ ٠ (٢) ديوان مشاهد الحياة ص ٢٠٣ ٠
(٣) الزهره / عدد ٤ سنة ٥ ص ٢١٣ (٤) يوميات السكاكيني ص ٤٨٠

وهذا التهيب والوقار يساعد انهم على العزلة ، ويبعد انهم عن الغوغاء ، وقد بلغ من اعجابي بمجلسهم في القدس انني كما تعلم كنت اول من حضر ، وآخر من انصرف حتى لا يفوتني جمال مجلسكم وفائدته . ولو أن بينكم من يحذو حذوي في مجالس ادباء مصر لاجتمع لديه الشيء الكثير من ثمرات العقول التي تليق يوما ما ان تكون حديث المجالس ، لانك تنال من الادباء — وقد ارسلوا على سجيتهم — مالا تناله من ثمرات العقول اذا هم تأنقوا في الحديث ، وتأهبوا له . فهنيئا لكم ولمجلسكم بكثير من الحسنات ، وفي مقدمتها (مجلس الادباء) " (١)

حتى النوادي الرياضية كانت تحتفي بمن يفد على البلاد من الادباء وكبار الصحفيين ، كالحفلة الرائعة التي اقامها نادي الالعاب الرياضية بالقدس في بستان انتيموس في آذار سنة ١٩٢٠ للصحفي الكبير سليم سركيس ، القى فيها الاستاذ اسعاف النشاشيبي كلمته الرائعة . والقى الاستاذ الرصافي قصيدته السينية المشهورة . وكانت الحفلة في مدرسة روضة المعارف (٢) .

ولست اقصد الى الاحصاء الشامل ، وانما اريد أن اشير الى الدور الكبير الذي كانت تقوم به هذه الجمعيات والنوادي في النهضة الادبية في وطننا الصغير ، ولاسيما في الثلث الاول من القرن العشرين !

وهناك عامل مباشر من عوامل النهضة في هذا الوطن ، جاء متأخرا عن سائر العوامل الاخرى ، وهو الاذاعة ، وهو عامل فعّال ، لان الاذاعة من " ارقى اسباب التواصل بين الامم ، وهي التي تجعل المصور الانساني في مسمعك ، وعما قريب على مرأى منك ، في لحظات هي اعجل من لمحات البصر . فالمذياع رسول انقلاب في البشر ، لا يعلم الا الله مدى حدوده ، وانبساط آفاقه .. ومهما يكن للمذياع اليوم وغدا من شأن عظيم في احداث الانقلاب في المجتمع ، فمن اخص ما نرى من ميزاته ، أن له رسالة مقدسة كتب عليه أن يؤديها الى الامم ، والى العرب في جميع اقطارهم ، الا وهي رسالة نشر الثقافة الصحيحة بأوسع معانيها ، ويشترك في هذا العالم والمؤرخ والاديب والكاتب والشاعر والباحث والناقد والممثل والمغني والمطرب من رجال ونساء ." (٣)

---

(١) النفائس/ جزء ١٧/ سنه ٧ ١٩٢٠ ص ٢٥٠ — ٢٥١ (٢) النفائس/ جزء ١٧/ سنه ٧ ١٩٢٠ ص ٢٥١ — ٢٥٢ (٣) من مقدمة كتاب " القسم العربي في دار الاذاعة الفلسطينيه" بقلم الاستاذ عجاج نويهض .

وقد تأسست محطات الاذاعة في مصر وفي البلاد العربية قبل الحرب العالمية الثانية ، " وكانت الحكومة الفلسطينية من اسبق الحكومات الى تأسيس محطة لاسلكية " لغايات في نفسها ٠٠ ومن الغريب العجيب ان يقع اختيار الحكومة على الشاعر ابراهيم طوقان لادارة البرامج العربية ، وهما منها ان ابراهيم سيحقق لها ما تنوى اليه ، وتطلع الناس بقلوبهم الى ابراهيم ليحقق لهم غاياتهم ٠٠ فقد كانوا في مرحلة كفاح مرير مع الانتداب الغاشم ، والصهيونية الاثيمة ٠٠ وفي " ٢٩ مارس سنة ١٩٣٦ نقل الاثير لاول مرة في تاريخ هذه الاذاعة اول صوت عربي الى فلسطين خاصة والى الاقطار العربية عامة ، ولم يكن ذلك الصوت الا صوت ابراهيم طوقان الذى كان معقد آمال البلاد " ٠٠ ووضع ابراهيم خطته لخدمة الجمهور ، وخدمة التراث العربي الادبي ٠٠ واصطدمت الغايتان ٠٠ وثارت الصهيونية ، وامتدت الرقابة الى كل ما يذيع ابراهيم ، والى كل ما يعد من تمثيليات واحاديث وقصص ٠٠ واذاع على الناس تحقيقا ادبيا اثبت فيه بالوثائق التاريخية أن السموأل الشاعر الجاهلي اليهودى كان ذا نزعة يهوديه من حيث حبه للمال ، وان هذه النزعة هي التي دفعت به الى ايثار الذبح لابنه خارج الحصن ، ولم يكن في الامر عامل الوفاء وانما كان ذلك من أجل مال جسيم واعده به امروء القيس اذا هو استجاب لطلبه٠ وقد اذاع هذا التحقيق بنفسه في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٦ ٠٠ فاهتاجت الصهيونية ٠٠ وظلت تدس له حتى انتهى الامر باقصاء ابراهيم(١) بعد اربع سنوات من الصلابة والقوة والمضي في السبيل السوية والخطة الرشيده ، رسّخ فيها اصولا وقواعد وتقاليد للقسم العربي لم يكن احد يستطيع أن يحيد عنها من غير ان يثير عليه الرأى العام ، وقد ظفرنا بثروة ادبية وعلمية في الفترة القصيرة التي اشرف فيها طوقان على هذه المؤسسة الحكومية ٠٠ ومن هذه الثمرات ما اعدته المحطة من سلسلة محاضرات موضوعها (شخصيات فلسطينية بارزة) كان لها دورها في التراث العربي الاسلامي ٠٠ وكان لعالم فلسطين الرياضي الاستاذ قدرى طوقان مجال واسع في بحث الجوانب العلمية من هذا الاتجاه ٠(٢)

حتى اذا كان الخطيب المشهور عجاج نويهض مراقبا للبرامج العربية والنشر في دار الاذاعة الفلسطينية رأيناه يعد البرامج اعدادا بارعا ، ويدعو كتابا وباحثين ومحاضرين من البلاد نفسها والبلاد العربية المجاورة :

---

(١) كتاب "ابراهيم طوقان " لزكي المحاسني ص ٢٧ ــ ٥٠ (٢) الامالي / عدد ٤٢ سنه ١ ص ٨ ــ ١٠ ٠

فالاخطل الصغير يتقدم بتحية شعرية لفلسطين في مساء الخميس، الثاني من نيسان سنة ١٩٤٢ ، والاستاذ عبد اللطيف الطيباوى يحاضر الناس عن الجيش في التاريخ الاسلامي ، ثم عن التربية والتعليم في العصور الاسلامية ، والاستاذ عبد السلام البرغوثي يتحدث عن ديار العرب والاسلام .. والاستاذ عباس محمود العقاد يتحدث عن الحرب بعد اثني عشر شهرا وستة اسابيع ، وذلك في ١٤ تشرين الاول سنه ١٩٤٠ .. وقبله فصل فصلته الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني ، فحاضر عن العرب وموقفهم من تلك الحرب ، وذلك في العاشر من تشرين الاول سنة ١٩٤٠ ثم في الثالث عشر من الشهر نفسه والعام ذاته .. ويذيع الشيخ عبد العزيز البشرى حديثه عن الدولة الاموية في هذه الفترة .. ويذيع الاستاذ محمد كرد على **حديثا** بعنوان (هل تمدنا؟) .. ويقبل على البلاد مدير المطبوعات في جمهورية لبنان ، الاستاذ خليل تقي الدين ، ليحدث الناس حديث رمضان حول الادب العربي ... ويتحدث الاستاذ نسيم يزبك الى الناس حديثا بعنوان (نظرة في مستقبل العرب .) وتتحدث السيدة اسمى طوبي عن تربية الطفل ودعائمها الثلاث، وتتحدث السيدة مارى صروف شحادة عن التربية في الاسرة العربية .. والانسة قدسية خورشيد تذيع عن شخصية المرأة ، والاستاذ خليل بيدس يتقدم بحديث بعنوان (الى فتياتنا)، وبقصة عنوانها (البطلة)(١) .

ولقد قامت محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية في فلسطين بمثل هذا الدور ، فدعت الى البلاد علماء وصحفيين ومحاضرين من البلاد العربية المجاورة .. مثل الشيخ عبد الله العلايلي ، والاستاذ الحوراني ، والاستاذ كرم ملحم كرم . (٢)

ومن هنا فالاذاعة في فلسطين — رغم انها حكومية ، ورغم انها انشئت من اجل غايات خاصة — كانت عاملا من عوامل النهضة والصراع في حياة هذا الوطن الصغير .

هذه العوامل المختلفة حين تتفاعل بها بعض العوامل الداخلية الفرعية تحدث ثمرات محمودة في حياة الادب : فكثرة النوادى والجمعيات هيأت جو البلاد لغرس بذور نهضة تمثيلية مسرحية ... حتى اذا جاءت الاذاعة فيما بعد جعلت لهذه الناحية جانبا في برامجها ..

---

(١) كتاب " حديث " / الجزء الاول ، عن القسم العربي في دار الاذاعة الفلسطينية .
(٢) الاديب / جزء ٣ / سنه ٤ ص ٥٩ .

فحين طبعت رواية (قاتل اخيه) بعد الحرب الكبرى في اوائل سنة ١٩١٩ — وهي مأساة تمثيلية ذات ثلاثة فصول — تناولها عشاق التمثيل الادبي في البلاد ، واقبلوا عليها وكتبوا الى صاحبها ، جميل البحرى ، مقرظين نثرا ونظما ، مما دفعه الى متابعة السير في هذه السبيل ، ومثلت على مسارح سوريا وفلسطين وغيرهما من البلاد العربية (١) ..

ومنذ مطلع القرن العشرين والمحاولات جادة في حيفا من اجل احياء التمثيل ، ومن اجل ذلك أنشئت (جمعية التمثيل الادبي) (٢) .

ولذلك رأينا جميل البحرى ازاء مطالب جمعيات التمثيل ، يستجيب ، فيتبع روايته بحلقات اخرى وتمثيليات غيرها يقدمها الى رؤساء المدارس لتمثل على المسارح المدرسية ، والى معاشر عشاق التمثيل الادبي سدا للفراغ (٣) .

وحين تبحث جمعية الرابطة الادبية في حيفا عن رواية لتمثلها على مسرح بستان البلدة مساء السبت ١٩ كانون الثاني سنة ١٩٢٩ ، تجد امامها رواية (قاتل اخيه) مناسبة لها ، ويجد نجاحها في تمثيل هذه الرواية اصداء في انحاء البلدة (٤) .

وتقوم اللجنة التمثيلية لنادى الشبيبة في بيت لحم بتمثيل روايات للجمهور ، كتمثيلها لرواية (عواطف الزوج) الاجتماعية ، حيث اجاد الممثلون في ادوارهم ولقد حضر خصيصا من يافا لحضور التمثيل ، رئيس نادى الشبيبة الارتوذكسية بيافا ، وبصحبته رئيس اللجنة التمثيلية . وبعض الاعضاء (٥) .

وفي غزه تقوم اللجنة التمثيلية للنادى الارتوذكسي بدورها في التمثيل فتمثل رواية (حمدان) أو (غانية الاندلس) بمساعدة الفنان اصلان مراد ، الحائز على الدرجة الاولى في فن التمثيل (٦) .

ومما يتصل بالنهضة التمثيليه " أن هناك شابا شرقيا عربيا يكاد وطنه يجهل شخصيته ، بينما دوائر برلين الادبية ، ومسارحها التمثيلية تتغنى بعبقريته .. وقد بذل جهدا في سبيل نشر الادب العربي في انحاء المانيا ، فوضع الروايات التمثيليه الحافلة بمآثر العرب ، وبالكتابة في صحف المانيا عن التراث العربي ، وبانشاد الشعر العربي في الاندية الالمانية .. وذلك هو الشاب عزيز ضومط ..

---

(١) الزهره / عدد ٧ — ٨ / سنه ٣ / القسم الاول / الرواية (٢) "ولاية بيروت" ص ٤٩ ٢ (٣) الزهرة / عدد ٩ — ١٠ سنه ثالثة/ قسم الرواية (الاول) (٤) النفير عدد ١٧ ١٩٢٩ ص٥ (٥) النفير عدد ١٠ ١٩٢٨ ص٥ (٦) النفير عدد ١٦ ١٩٢٩ ص ٧ .

وآخر رواية وضعها كانت (والي عكا) ، وقد مثلت لاول مرة على مسرح بلدية (ستراتفورد) فنالت استحسانا كبيرا . وقد عدوه من الطبقة الاولى من شعراء المانيا .. وقد اقاموا له في المانيا حفلة تكريم القى فيها بالالمانية ترجمات شعرية لآيات مطران وشوقي وحافظ .. وهو من ابناء حيفا .." (١) .

ومن الجمعيات التمثيلية في هذه الفترة (جمعية الفنون والتمثيل) في القدس .. ومن رواياتها التي مثلتها على مسرح مدرسة الفرير رواية (عنترة) (٢).

ولقد قامت في هذا الثلث الاول من القرن العشرين فرقة من شبان القدس، ومثلوا رواية (مجدولين) على مسرح سينما صهيون بالقدس .. وقد نجحت الفرقة رغم صعوبة تمثيل هذه الرواية .. وكانت المرة الاولى التي ظهرت فيها سيدة على المسرح (٣) .

ومن الجمعيات التي لها فرق تمثيليه في البلاد جمعية الشبان المسلمين الكبرى في يافا .. وقد مثلت رواية (دموع اليائسة) على مسرح قهوة ابو شاكوش في هذه المرحلة الزمنية .

ولقد قامت في هذه الاونة في البلاد فرق تمثيلية اخذت تتجول في انحاء فلسطين والاردن لتمثل الروايات .. كما فعل فريق الهيئة التمثيلية لنادى الشبيبة في بيت لحم ، الذى اخذ يتجول ليقوم بتمثيل (رواية الاستبداد) (٤) .

وقد عنيت جريدة (النفير) بتشجيع التمثيل وفرقه ، وتتبع اخبار الممثلين والجمعيات التمثيلية .. من ذلك حديثها عن النهضة التمثيلية في حيفا ، بمناسبة حضور اكبر فرقة تمثيلية عربية الى حيفا وهي فرقة رمسيس المصرية بقيادة يوسف وهبي وجورج ابيض .. حيث تذكر أن اول من غرس نواة هذه النهضة في حيفا هي جمعية الرابطة الادبية ، وقد جعلت حفلاتها التمثيلية عامة ومجانية ، فأقبل عليها سكان حيفا على اختلاف مللهم ونحلهم ، ثم تبعتها الجمعية الاسلامية ، فمثلت على مسرح زهرة الشرق رواية (فهد الطرابلسي) فلاقت ما تستحقه من الاستحسان .. وبعدها قام رجال النادى الساليسي بتمثيل روايتين احداهما (كسرى والعرب) ، والاخرى (انتقام الكاهن) فلاقتا نجاحا كبيرا .. وقام بعدهم اعضاء النادى الرياضي الاسلامي بتمثيل رواية (مطامع النساء) "فكانت كلها عبر للنساء ، انما لم يكن بين الحضور ربا للاسف نساء .." .. ثم قام بتمثيل رواية (الوفاء) نخبة من شبان المدينة لا تجمع بينهم جمعية ما فكانت حسنة تسجل لهؤلاء الممثلين .. ثم قام اعضاء النادى العربي بتمثيل رواية (مجدولين) على مسرح بستان الانشراح ...

---

(١) النفيرعدد ٢١ ١٩٢٩ ص١٣ (٢) النفيرعدد ٢٣ ١٩٢٩ ص ٨ (٣) النفيرعدد ٢٣ ١٩٢٩ ص١١ (٤) النفير / عدد ٢٩ ١٩٢٩ ص ٩ .

ثم قامت فرقة كشافة حيفا الخامسة بتمثيل رواية (الاسود والنعمان) فاجادت٠٠ وهكذا مثلت على مسارح هذه المدينة في خلال الثلاثة الاشهر : شباط ، وآذار ونيسان سنة ١٩٢٩ ، ما يزيد على الثماني روايات ٠٠ (١)

ولم تكن حكومة الانتداب تشجع الفرق التمثيلية ٠٠ وقد كان في يافا اقدر فرقة تمثيلية في فلسطين في الثلث الاول من القرن العشرين وهي فرقة نادى الشبيبة الاورتوذكسية (٢)٠٠ وقد كانت تتابع ادوار الفرق المصرية حين تحضر الى البلاد لتقوم بالتمثيل على مسارحها ٠

هذه لمحة خاطفة عن بعض الفرق التمثيلية في هذه الفترة من القرن التاسع عشر ، واقبال الناس عليها ، وهذا كله غير المسارح المدرسية التي كانت تمثل عليها مختلف الروايات !

حتى اذا كان الثلث الثاني من القرن التاسع عشر ، كتب الاستاذ ابراهيم عبد الستار عن الفن المسرحي في فلسطين العربيه ، فقال : "لأول مرة في فلسطين تألفت فرقة تمثيلية عربية ، وقامت بعرض رواية اجتماعية كبيرة لشكسبير - هملت - وهي من تعريب الكاتب طانيوس عبده ، واخراج الاديب جميل الياس خورى ٠٠ لقد سبق ان قام بعض شبان النوادى والمدارس الوطنية بتمثيل عدة روايات في انحاء البلاد ٠٠ لكنهم لم يصلوا الى المستوى الذى وصلت اليه (فرقة الكرمل التمثيلية) وعلى رأسها الممثل اسكندر ايوب ٠ ولقد قامت في فلسطين فرق تمثيلية الا انها كانت باشراف اجنبي ٠٠ ولاول مرة يمكننا ان نقول ان فرقة الكرمل هي الفرقة العربية التي استطاعت القيام بادوار تمثيلية (هملت) المعقدة ونجحت فيها ٠٠ ومن بين افراد الفرقة سيدات ممثلات اجدن ادوارهن كأسماء خورى وثريا ايوب ٠٠ وبين مناظر التمثيل القى الشاعر الفلسطيني محمد حسن علاء الدين قصيدة عصماء ونسمها خاصة لحفز النهضة التمثيليه في البلاد ٠٠ وعلى الجملة فقد كان تمثيل (هملت) افتتاحا رائعا لوجود تمثيل عربي قومي في فلسطين العربية "٠(٣)

ولقد كان لهذه البذور التمثيلية وهذه المسارح ثمرات في الادب بقسميه الشعرى والنثرى فأعدت روايات لتملأ هذا الاطار ٠

---

(١) النفير / عدد ٢٩ ١٩٢٩ ص ١٣ ٠ (٢) النفير / عدد ٣٠ ١٩٢٩ ص ٣
(٣) الاديب / جزء ٧ سنة ٣ ص ٥٧.

هذه العوامل المختلفة الخاصة بالنهضة في فلسطين حين تتفاعل مع العوامل الاخرى للنهضة في البلاد العربية المجاورة ، ثم تطل من بعد هذا التفاعل على الحضارة الاوروبية الحديثة ، وما اثمرت من نتائج ، ومدارس ومذاهب فكرية وادبية مختلفة ، ينتج عن هذا كله ادب في فلسطين متأثر بكل هذا التفاعل ، غير ان الطابعه الذي لونه الوعي الجديد على سوء نوايا الدول الاستعمارية حين ارادت بهذا القطر الصغير شرا يختلف عن الوان الشر التي انزلتها بشقيقاته الدول العربية .

ولقد فتحت المجامع اللغوية في العواصم العربية المجاورة لابناء فلسطين صدرها ، واستقبلت نشاطهم اللغوى .. فكان من اعضائها اللغوى الكبير الشيخ سعيد الكرمي ، والباحث المحقق عبد الله مخلص ، واديب العربيه اسعاف النشاشيبي ، والاستاذ الاديب المربي خليل السكاكيني ، واللغوى الاب مرمرجي الدومنكي ، وقد كانت الصحف في فلسطين تعنى بكل ما يصدر عن تلك المجامع اللغوية ، وتحتفل بالاصداء التي تنبعث عنها .

ولعل ابناء فلسطين أن يكونوا من اكثر الناس عناية بالتيارات الادبية القائمة في البلاد العربية وتتبعها ، والوقوف منها موقفا ايجابيا متفهما لعواملها ودوافعها ، وتفسيرها ، وتقييمها القيمة التي تستحقها ..

هذه العوامل السابقة جميعها اعانت على فتح نوافذ على الحياة غير العربية .. فكانت الترجمة أكبر نافذة لهذه العوامل .. وقد كان من الطبيعي ان يكون من ثمرة اتصال العالم الاخر بهذا الوطن اتصالا ذا صبغة دينية تلك الترجمات الدينية .. حيث نجد في حدود سنة ١٨٦٠ تآليف دينية تصدر عن مطبعة القبر المقدس اليونانية بالقدس .. من بينها (مرشد الاولاد) لفرنسيسكو سرافيراس ، وقد عربه مينا يوسف دباس اليافوى (١) .

ونجد الكتب التي نشرت في مطبعة الآباء الفرنسيسكان في القدس تبلغ مائة وعشرين ، قبيل القرن العشرين ، باللغات التاليه : العربية - التركية - الارمنيه - العبرانيه - اليونانية - فضلا عن اللغات الاوروبية كالايطالية واللاتينيه والفرنسية والاسبانية (٢) .

حتى اذا تقدمت السنين نحو القرن العشرين ، اخذنا نجد غير الموضوعات الدينية مثل (الاصول الابتدائية الموسيقية) بالعربية والفرنسية سنة ١٩٠١ (٣) و (الاومة عند العرب) نقلها عن الالمانية الاستاذ بندلي صليبا الجوزى ، وطبع في قازان سنة ١٩٠٢ (٤)

---

(١) ،(٢) المشرق / عدد ٢ سنه ٥ ١٩٠٢ ص ٦٩ - ٧٦ (٣) المشرق / عدد ٢ سنه ٥ ١٩٠٢ ص٧٦ (٤) المشرق / عدد ١٢ سنه ٥ ١٩٠٢ ص ٥٧٣ .

حتى اذا نشأت الصحف العربية في فلسطين وجدنا الترجمة تنتقل من الاتجاه الديني الى (المقبّلات) •• كالحكايات ، والقصص ، والروايات •• حيث اتخذت الطابع الادبي •

ومن اوائل الذين مارسوا الترجمة الادبية في هذا القطر الاستاذ خليل بيدس •• وكان يتقن الروسية ، فترجم عنها كثيرا •• واشهر ترجماته عن الروسية :

١)	ابنة القبطان	/	بيروت	١٨٩٨
٢)	الطبيب الحاذق	/	بيروت	١٨٩٨
٣)	القوزاقي الولهان	/	بيروت	١٨٩٩
٤)	كتاب الروضة المؤنسة في وصف الارض المقدسة / بيروت ١٨٩٩			
٥)	شقاء الملوك			١٩٠٨
٦)	اهوال الاستبداد			١٩٠٩
٧)	هنرى الثامن	/	القدس	١٩١٢
٨)	الحسناء المتنكرة	/	القدس	١٩١٩
٩)	العرش والحب	/		١٩١٩
١٠)	الوارث	/		١٩١٩

هذا غير كثير من الروايات القصيرة التي كان ينشرها في اعداد مجلته (النفائس) •• كما ترجم الى الروسية رواية (المملوك الشارد) لجورجي زيدان •

ومن الذين نقلوا عن الروسية مبكرين الاستاذ انطوان بلّان ، احد اساتذة مدرسة السيمنار الروسية في الناصرة •• حيث نقل رواية " في سبيل الحب " سنة ١٩١٢ (١) وحكايات قصيرة مثل " سياحة في عالم الخيال " (٢) •• وخواطر من كتاب " طريق الحياة " لتولستوى (٣) وغيرها في مجلة (النفائس العصرية لصاحبها الاستاذ خليل بيدس •

ومن الذين ترجموا عن الروسيه بعض القصص في مجلة النفائس العصرية ، سليمان بولس ، وابراهيم جابر ، وعبد الكريم سمعان ، ولطف الله الخورى صراف ، وكلثوم نصر عودة ، وفارس نقولا مدور (٤) •

وكانت طالبات مدرسة السيمنار الروسية ببيت جالا يترجمن حكايات عن الروسية ويرسلنها الى مجلة النفائس العصرية (٥)

---

(١) النفائس العصريه / جزء ٧ سنه ٤ ١٩١٢ ص ٣٤٢ (٢) النفائس العصرية / جزء ٦ سنه ٢ ١٩١٠ ص ٣١٩ ـ ٣٢٨ (٣) النفائس العصريه / جزء ٧ سنه ٤ ١٩١٢ ص ٣١٥ ـ ٣١٧ • (٤) النفائس / مجلد ١ ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ (٥) النفائس / جزء ٤ سنه ٤ ١٩١٢ ص ١٨٩ ـ ١٩١١، جزء ٨ سنه ٤ ص ٣٦٦ ـ ٣٧٠ •

ومن كبار الذين اتصلوا بمنابع الادب الروسي الاستاذ الاديب نجاتي صدقي .. وقد كتب اليه الاديب الكبير ميخائيل نعيمه في رسالة بتاريخ ٣ آب ١٩٤٤ يقول : " وأما الفصول التي تلطفت وقرأتها لي من الدراسة التي تعدها عن بوشكين، فقد تركت في ضميري كثيرا من السرور من شيء من الامتنان لك .. ذاك لانك قمت ببعض الواجب الذي كان من المفروض أن اقوم به أنا نظرا للصلة المتينة التي بيني وبين الاداب الروسية . فقد رشفتها صافية من منابعها الصافية . ولكم تمنيت لو يتاح لي نقل بعضها الى لغتنا فيما ينعم ابناء الضاد ، ولو بنفحات من طيوبها النادرة المثال بين آداب الامم .. وها أنت تأخذ الكسندر بوشكين اعظم شعراء الروس وقمة باسقة ما بين قمم الشعر الباسقات في الارض، فتنقل الى قراء العربية اخبار حياته القصيرة المدى والحافلة بكل جليل ومدهش من الاخبار .. ومما يزيد في قيمة عملك انك ، وقد حصلت قسطا ليس بالقليل ، تستقي معلوماتك من مصادرها الاصلية ، وفي ذاك ما يغريني بالامل — وقد فرغت من حياة بوشكين — أن اراك تنصرف الى نقل بعض المعالم الادبية الروسية الى العربية . فمن المخجل ان تبقى الى الان محجوبة عن العرب .. وما من أمة حية — كبيرة كانت ام صغيرة — الا تتمتع اليوم بنصيب من جمالها الفتان وغناها المفرط وروحها الانساني العميق " (١)

وحين يعد دراسته عن تشيكوف يقول : " .. لقد انتقيت لكتابي هذا مجموعة من مسرحيات تشيكوف من ذوات الفصل الواحد ، كما انتقيت له طائفة من قصصه الروسية الصحيحه ، ونقلتها الى اللغة العربية ، محافظا على روح المؤلف ، ومزاجه ، وتعابيره ، بحيث لا يتعذر على القارئ العربي أن يلمس أنه يطالع ادبا غير ادبه ، ويشاهد مجتمعا غير مجتمعه .. " (٢)

ولقد كان الاستاذ خليل بيدس، ومن اجتمع حوله في مجلته النفائس كأنداون بلان .. ومن بعده الاستاذ نجاتي صدقي خير من فتحوا النوافذ على الحياة العربية لتتسرب اليها انفاس الادب الروسي الغنية .

وحين اتصلت حياة هذا القطر بالادب الاوروبي الحديث رأينا آخرين من الشبان ينقلون عن الادب الروسي المترجم الى اللغات الاوروبية .. ففي منتصف العقد الرابع من القرن العشرين نجد محمود سيف الدين الايراني ، وعارف العزوني ينقلان (الطليعة) لمحات عن حياة غوركي . مأخوذة عن كتابه حياتي وانا صبي) .. وفصولا من رواية (الام) .. وقصصا من قصص السوفييت (٣)

---

(١) "بوشكين امير شعراء روسيا" سلسلة اقرأ رقم ٢٨ / اول الكتاب . (٢) تشيكوف / اقرأ رقم ٥٠ / المقدمة ص ٨ — ٩ . (٣) الطليعة / الاعداد ٦ ، ٧ ، ١٠ / السنه ٢ ص ٥٦٧ — ٥٨٠ / ٥٩٣ / ٨٦٠ — ٨٦٩ .

وبعد الحرب العالمية الثانية نجد عارف العزوني ينقل (الطريق) قصصا من مجموعة اقاصيص لينينغراد في تمجيد بطولة ابنائها ابان الحرب، كما ينقل من ادب الحرب اناشيد لبعض الجنود السوفيتيين الشعراء، اصطبغت كلها بتلك الروح الانسانية العالية التي كانت على مر التاريخ مصدر اعمال بطولية كبيرة(١) .

ومن الذين كانوا ينشطون للترجمة في الصحف، الاستاذ جبران مطر حيث كان ينقل عن الالمانية القصص والحكايات ينشرها بالتتابع في مجلة النفائس المصرية في سنواتها المختلفة .. كما ترجم الاستاذ الياس نصر الله حداد رواية (ناثان الحكيم) عن الالمانية للشاعر الالماني لسنغ، وطبعها في مطبعة دار الايتام في القدس(٢)

ولما كان في القدس مجلس مختلط للطائفة الارتوذكسية ينتخب فيه اثنا عشر عضوا : منهم ستة من الرهبان، وستة من العلمانيين، فقد كان من الطبيعي ان تكون فيه لغات غير اللغة العربية .. وكان من بين الاعضاء العلمانيين خليل بيدس عن الناصرة .. وكان البطريرك يتلو خطابه في المجلس باللغة اليونانية ثم يقوم عضو من الاعضاء .. ويقرأ على المجلس الترجمة العربية للخطاب (٣) . وهكذا فصلة هذا القطر باليونانية صلة قديمة .. ففي كتاب (السواعي الكبير) يظهر جهد الاستاذ جرجي الخوري السكسك في تطبيق الكلام على الاصل اليوناني حسب ما تقتضي الاصول العربية (٤) .. اما الادب اليوناني الحديث فلم تنقطع الصلة به.. اذ نجد توفيق اليازجي في يافا يترجم في مجلة (الاديب) للشاعر اليوناني يوانس بوليتي قصيدته (الخمرة الممزوجة) (٥) .

وبحكم صلة هذا القطر بالحكم التركي، فقد كان من الطبيعي ان يتجه بعض ابنائه الى الترجمة عن التركية في وقت مبكر .. فنجد المؤرخ الفلسطيني البحاثة عبد الله مخلص يعرب كتاب نامق كمال (سيرة الفاتح) السلطان محمد الثاني(٦).. كما نجد الكاتب الاديب السيد حسن صدقي الدجاني يعرب رواية (حذار) الاجتماعية عن التركية (٧) .. ثم كانت صلة القطر بالشاعر التركي الكبير ناظم حكمت صلة مبكرة حيث نقل له عارف العزوني (ترانتابابو) من رسائل شاب حبشي الى زوجته(٨)

---

(١) الطريق / عدد ١٦ سنه ٤، عدد ٣ سنه ٦ ص ٧٧ ـ ٨٠ (٢) الهلال / جزء ١٠ سنه ٤٠ ص ١٤٨٣ (٣) النفائس العصريه / جزء ١٢ مجلد ٢ ص ٩٢ ـ ٩٤
(٤) النفائس العصريه / جزء ١٠ سنه ٧ ص ١١٠ (٥) الاديب / جزء سنة ٦ ص ٤٢
(٦) النفائس العصريه / ٢ سنه ٣ ص ٩٥ (٧) معرض اقلام الزهرة / عدد ٣ سنه ٢ ص ٩٢ (٨) الطليعة / عدد ٤ سنه ٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٧ .

وفي العقد الاول من القرن العشرين نجد ترجمات عن اللغة الانكليزية حيث يترجم ابراهيم حنا حكاية عن حذاقة الفرنساويين وادراك الانكليز ، وحيث تترجم روز حسون حكاية عن زهرة البرتقال في (النفائس) (١) .. وهذا غير الترجمات الدينية التي ابتدأت في وقت اسبق كترجمة بولس صدقي ، من القدس ، لكتاب "تسعة امثال لربنا يسوع المسيح" عن الانكليزية .. (٢)

ثم تتوالى الترجمة عن الانكليزية .. ومن اشهر المترجمين عندها توفيق زيبق ومن ترجماته : مقالات وقصص لمجلة النفائس .. كالعلم لباكون .. وقصة بطلهـــا نابليون ، ولكنها اقرب الى الروايات الموضوعة منها الى الوقائع التاريخية (٣) ثم يترجم كتاب "ميزان النفس" وينشر فصولا منه في (معرض اقلام الزهره) (٤) وكان قد نقل قبله كتاب (الحرية والمعيشه) الذى الفه صحفي اميركي (٥) كما نقل كتاب (حديث المائدة) للكاتب الاجتماعي الشهير دوزن (٦) ولقد كان يتتبع الترجمة العربية في دوائر الحكومة ، فكتب سلسلة من المقالات بعنوان (العربية في دوائر الحكومة) نشرها في جريدة "مرآة الشرق" بين فيها ما في ترجمة القوانين الموضوعة والتي يؤخذ كل مواطن بتبعة مخالفتها من التشويش في التعبير والركاكة في التركيب والعجز فـــي اعطاء كل جملة معناها الحقيقي (٧)

ومن كبار المترجمين الاستاذ احمد شاكر الكرمي حيث ترجم في (الكرميات) التي صدرت سنة ١٩٢١ : (فلسفة الحب) / (والحرية) / (والتقلب) وكلها مـــن براكير الشاعر الانكليزى شلي .. كما ترجم القصة الفلسفية للكاتب الفرنسي برناردين دوسان بيير عن الانكليزية بعنوان (الفلسفة الشرقية) او (نادى سورات) ، ثم ترجم قصة (ما اغلاه !) للقصاص الفرنسي جي دى موباسان ، ونقلها عن الانكليزية ، كما نقل (اسطورة الحمل والموت والمرض) للفيلسوف الروسي تولستوى عن الانكليزية كذلك ، و (اسطورة الزهرة) سفينوس عن كتاب الصور لمارك توين .. ثم عرب رواية (مَّ) او (الخريف والربيع) للشاعر الانكليزى بوب ، ونشرها تباعا في مجلة (الرابطة الادبية) التي كانت تصدر في دمشق ، سنة ١٩٢١ وعرب قصة (خالد) للروائي الاميركي المشهور ماريون كروفورد ..

---

(١) النفائس العصرية / سنه ٢ ص ١٠٠ ــ ١٠٤ ، وجزء ١٢ سنه ٢ (٢) "فن التمثيل في خلال قرن" ص ٤٥١ (٣) النفائس / جزء ٥ سنه ٣ ص ١٩٨ ــ ٢٠٠ ، وجزء ٩ سنه ٤ ص ٤٠٩ ــ ٤١٦ (٤) معرض اقلام الزهره عدد ٧ ــ ٨ سنه ٢ ص ٢١٩ .
(٥) النفائس / جزء ٢ سنه ٦ ص ٧٣ . (٦) الزهرة عدد ١ ــ ٢ سنه ٥ ص ١٧ ــ ٢٤
(٧) معرض اقلام الزهرة عدد ١٧ ــ ١٨ سنه ٢ ص ٣٦٦ ــ ٣٧٣ .

اما الاستاذ ودين البستاني ، فقد كان له في الترجمة عن الانكليزية مجموعة كبيرة من الكتب في القضايا السياسية والابحاث الاجتماعية والشعر والادب ، وقد اورد كشفا بها في مقدمة ديوانه (الفلسطينيات) .

وترجم الاستاذ عبد الحميد ياسين في سلسلة الثقافة العامة التي كانت تصدر عن شركة الطباعة اليافية مجموعة من الاقاصيص صدرت في مجموعته سنة ١٩٤٦ كان منها (العندليب والوردة) لاوسكار وايلد .. و أقاصيص هوفمان) وهي ترجمة موجزة لاوبرا اوفنباخ .. و (الرهان) لتشيكوف .. و (دقات القلب) لادجار الان بو .

ويعد الاستاذ المربي احمد سامح الخالدى من اشهر من نقل عن اللغة الانكليزية ابحاثا في التربية والتعليم .. فقد اعتمد في وضع كتابه (ادارة الصفوف) على ابحاث بجلي Bagley .. وقد طبع في القدس ١٩٢٨ .. واعتمد في وضع كتابه(اركان التدريس) على كتاب (ارشادات المعلمين) الذى نشره مجلس التعليم البريطاني .. وطبع في القدس ١٩٣٤ .. ونقل كتاب (طرق التدريس المثلى) لموءلفه بجلى وطبع في القدس ١٩٣٧ .. ونقل كتاب (الحياة العقلية) لموءلفه وودورث .. كما نقل كتاب (الطريقه المنتسورية في التربية والتعليم) وطبع في القدس سنه ١٩٢٥ .. وترجم الى جانب ذلك " اقنعة الحب " للدكتور رليم شتيكل ومداره التحليل النفسي ، وقد طبع في القدس سنة ١٩٤٦ .

كما ان زوجته السيدة عنبره سلام الخالدى قد قامت بنصيبها في الترجمة عن اللغة الانكليزية .. فقد كانت تنشر في (الكشاف) سنة ١٩٢٨ سلسلة مقالات مترجمة بعنوان (كيف انظر الى الحياة) بقلم هانن سوافر .. ثم ترجمت بعد ذلك (الياذة هوميروس) عن الانكليزية ونشرتها في المطبعة العصرية في القدس سنة ١٩٤٦ .. وهي منقولة عن (قصة الالياذة) لالفرد تشرش .

ومن المترجمين عن الانكليزية الاستاذ عجاج نويهض اذ ترجم كتاب (حاضر العالم الاسلامي) للوثروب ستودارد (القاهرة سنة ١٩٢٤) ، وهو الكتاب الذى علق على اصوله تعليقات وافية شكيب ارسلان فجاء في اربعة مجلدات .. ثم ترجم عجاج كتاب (النظام السياسي — نظرياته واشكاله) — القدس سنة ١٩٣٣ .

ثم ترجم الاستاذ عبد الرحمن بشناق رواية (في سبيل المجد) لآرثر كوبلر كاوتش (القدس ١٩٢٩) ..

وترجم الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا (قصة حياة شلي) لاندريه موروا .. ونشر فصلا منها في (الامالي) سنة ١٩٣٨ وترجم قصة (البلبل والوردة) لاوسكار وايلد ، وقصة (عاشق) لجورج مور ، ونشرهما في (الامالي) سنه ١٩٣٩ . وله ترجمات غير ذلك .

ولم تكن الترجمة عن الفرنسية باقل حظا من الترجمة عن الانكليزيه .. ولعل من اوائل الذين فتحوا النافذة العربية على الافاق الفرنسية الاديب الكبير محمد روحي الخالدى بكتابه (فكتورهوجو وعلم الادب عند الافرنج والعرب) ، ففيه ترجمات تاريخيه وادبيه ، وعرض، وتصوير ، واقتباس، وتقييم لكثير من آثار فكتور هوجو في الشعر والنثر !

ثم شرعت الصحف في ترجمة القصص والحكايات والروايات التمثيلية كما فعلت (النفير) و (الزهرة) وغيرهما من الصحف .. وكان من المترجمين الصحفيين الاستاذ جميل البحرى ، وقد خصص القسم الاول من الزهرة للروايات وكانت معظمها منقولة عن اللغات الاوروبية .

ومن المترجمين المشهورين الاستاذ عادل جبر وقد ترجم بحثا بعنوان (روح القوميه) جمع فيه مؤلفه ماكدنورد و "كل ما لذ وطاب وافاد من الاراء في القوميات وما طرأ عليها من تقلبات ! "

ثم انتقل المترجمون الى الابحاث الاخرى .. فترجم الدكتور اسحق موسى الحسيني بالاشتراك مع الاب اسطفان الفرنسيسي رسالة للاب اغسطس الفرنسيسي انشأها بالفرنسية عنوانها (فن انشاد الشعر العربي) ، طبعاها في مطبعة الاباء الفرنسيسيين بالقدس سنة ١٩٤٥ .

ثم اتيح للحياة العربية في هذا القطر همة كبيرة تفتح النوافذ والابواب على آفاق الفكر الفرنسي فتتفرغ في ربع قرن او يزيد ، لنقل اروع ما في الثقافة الفرنسية الى العربية في بيان عربي متين .. وقد قام بهذه المهمة قياما تعجز عنه مجامع باكملها الاستاذ الكبير عادل زعيتر ، وقد بدأ النقل في سنة ١٩٢٣ وهو يطلب الحقوق في باريس، واستطاع منذ ذلك الحين ان ينقل الكتب والاثار الاتية :

١) روح الشرائع — جزءان — — لمونتسكيو .
٢) العقد الاجتماعي — لجان جاك روسو .
٣) اميل او التربيه — لجان جاك روسو
٤) اصل التفاوت بين الناس — لجان جاك روسو
٥) كنديد او التفاؤل — لفولتير
٦) الرسائل الفلسفية — لفولتير
٧) حديقة ابيقور — لاناتول فرانس
٨) الالهة عطاش — لاناتول فرانس
٩) تلماك — لفنلون

١٠) ابن رشد والرشدية — لارنست رينان .
١١) حضارة العرب — لغوستاف لوبون .
١٢) حضارة الهند — لغوستاف لوبون
١٣) روح الجماعات — لغوستاف لوبون
١٤) السنن النفسية لتطور الامم — لغوستاف لوبون
١٥) فلسفة التاريخ — لغوستاف لوبون
١٦) روح التربية — لغوستاف لوبون
١٧) حياة الحقائق — لغوستاف لوبون
١٨) الاراء والمعتقدات — لغوستاف لوبون
١٩) روح الثورات والثورة الفرنسية — لغوستاف لوبون
٢٠) روح الاشتراكيه — لغوستاف لوبون
٢١) روح السياسة — لغوستاف لوبون
٢٢) اليهود في تاريخ الحضارات — لغوستاف لوبون
٢٣) معالي الاسلام — لحيدر بامات
٢٤) حياة محمد — لاميل درمنغم
٢٥) تاريخ العرب العام — لسيديو
٢٦) النيل — لاميل لودفيغ
٢٧) البحر المتوسط — " " " "
٢٨) كليوباترة — " " " "
٢٩) بسمارك — " " " "
٣٠) نابليون — " " " "
٣١) ابن الانسان — " " " "
٣٢) الحياة والحب — " " " "
٣٣) ابن خلدون وفلسفته الاجتماعيه — لبوتول
٣٤) اصول الفقه الدستوري — لأيسمن
٣٥) الغـــزالي — لكرادوفو
٣٦) ابن سينا — لكرادوفو
٣٧ مفكرو الاسلام (جزءان مخطوطان — لكرادوفو

١٠) ابن رشد والرشدية — لارنست رينان .

١١) حضارة العرب — لغوستاف لوبون .

١٢) حضارة الهند — لغوستاف لوبون

١٣) روح الجماعات — لغوستاف لوبون

١٤) السنن النفسية لتطور الامم — لغوستاف لوبون

١٥) فلسفة التاريخ — لغوستاف لوبون

١٦) روح التربية — لغوستاف لوبون

١٧) حياة الحقائق — لغوستاف لوبون

١٨) الاراء والمعتقدات — لغوستاف لوبون

١٩) روح الثورات والثورة الفرنسية — لغوستاف لوبون

٢٠) روح الاشتراكيه — لغوستاف لوبون

٢١) روح السياسة — لغوستاف لوبون

٢٢) اليهود في تاريخ الحضارات — لغوستاف لوبون

٢٣) مجالي الاسلام — لحيدر بامات

٢٤) حياة محمد — لاميل درمنغم

٢٥) تاريخ العرب العام — لسيديو

٢٦) النيل — لاميل لودفيج

٢٧) البحر المتوسط — 〃 〃 〃 〃

٢٨) كليوباترة — 〃 〃 〃 〃

٢٩) بسمارك — 〃 〃 〃 〃

٣٠) نابليون — 〃 〃 〃 〃

٣١) ابن الانسان — 〃 〃 〃 〃

٣٢) الحياة والحب — 〃 〃 〃 〃

٣٣) ابن خلدون وفلسفته الاجتماعيه — لبوتول

٣٤) اصول الفقه الدستوري — لأيسمن

٣٥) الغـــزالي — لكراد وفو

٣٦) ابن سينا — لكراد وفو

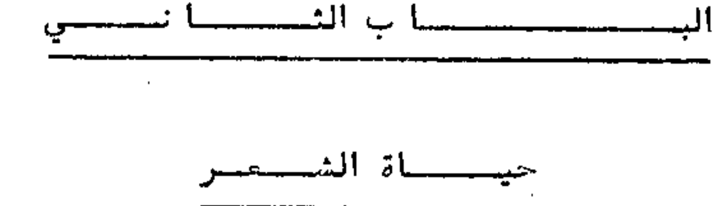
٣٧ مفكرو الاسلام (جزءان مخطوطان — لكراد وفو

ولس بالامكان في هذا المجال احصاء جميع المترجمين وحصر جميع الترجمات، ولكننا نكتفي بهذه الصورة لندل على أن هذا القطر كان مفتوح الافاق لم ينغلق على نفسه .. فتفاعلت فيه كل هذه التيارات، واحدثت آثارها في حياته الادبية ! . فقبل مطلع القرن العشرين أحس احد ادباء هذا القطر بأن علم الادب لا يكمل للمتبحر فيه الا بعد أن ينظر في أدب الامم المتمدنة، ولو نظرة عامة، يطلع بها على مجمل تاريخ ادبهم، وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وسمو الادراك وبلاغة المعاني ويعرف اساليبهم في النظم والنثر، وتصرفهم في الكلام، ويميز بين طرق المتقدمين والمتأخرين منهم . (١)

وكنا نود أن نفرد فصلا عن التأليف العام لندل على المراحل الفكرية المتنوعة التي قطعتها الحياة في هذا القطر .. فنعدد آثار الكتاب جميعهم سواء منهم المؤلفون للمدرسة وغيرهم .. فوجدنا أن الامر يطول بنا .. فاكتفينا بالاشارة الى الاحصاء العام الذي جاء في (الكتاب العربي الفلسطيني)، حيث يعطينا صورة صحيحة ـ قدر الامكان ـ عن الانتاج الفلسطيني .

---

(١) "نكتور هوكو وعلم الادب عند الافرنج والعرب" ص ٢٥ ـ ٢٦ .



الباب الثاني

حياة الشعر

المـــرحلـــة الاولـــى

اتفقنا في المقدمة والتمهيد على أن يكون النصف الثاني من القرن التاسع عشر بداية مرحلتنا في فلسطين ٠٠ وستمتد المرحلة الاولى من حياة الشعر من هذه البداية حتى تبلغ فترة اعلان الدستور في تاريخ السلطنة العثمانية ـ سنة ١٩٠٨ ـ٠

هذه الفترة التي كانت فيها البلاد العربية المجاورة تطفح بالفصاحة ٠٠ ولكن الحياة الادبية في هذا الوطن الصغير كانت قد بذرت بذورها ، وانتفعت بتجارب الاخوات المجاورات ٠٠ ولعل اهمية هذه الطلائع الاولى في هذا القطر أن تكون في المحاولة الجادة له كي يثبت أنه ابن بار للوطن الكبير وانه يحمل نصيبه من حفظ بذور الحياة العربية واختيار الجو الملائم لانمائها وتعهد شجراتها حتى تثمر الثمر المرجوّ ٠٠

هذه الفتره التي كان النظام الاقطاعي يحيط بها اطارا اقتصاديا وسياسيا والمحتوى الديني يتشكل باشكال هذا الاطار ٠٠

هذه الفترة التي كان الطابع الديني يغلب على ثقافتها حيث كان المسجد الاقصى مركزا هاما من مراكز نشر العلوم الدينية وفروعها داخل البلاد وخارجها ، وحيث كان الشيخ اسعد الامام مفتي الشافعيه يدرس في داخل الصخرة المشرفة ، وكان الشيخ مراد المصرى يعلم الخط وعلوم اللغة في اواخر القرن الثالث عشر الهجرى ٠ وكان الشيخ الخزندار الغزى يقرئ الاولاد القراءة والقرآن والنحو والصرف والفقه في اواخر هذا القرن ايضا في صحن الصخره من الحرم القدسي ٠

وكان الشيخ عبد الرزاق الحنيفي يدرس الفقه وعلوم الدين على المصطبه في المسجد الاقصى تجاه باب الحديد ٠٠ وكان الشيخ يعقوب البديرى يدرس العلوم الدينيه تحت شجرة في صحن المسجد قرب باب الناظر ٠٠٠

وكان الشيخ عبد القادر ابو السعود يدرس في زاويته في الخانقاه الفخريه ٠٠ وكان من شيوخ الحرم في هذه الفترة : الشيخ محمود الرعاوى ، والشيخ علي الحورى ، والشيخ سعود الحورى ، والشيخ يوسف الامام ، والشيخ امين الحورى ، والشيخ موسى البديرى ، والشيخ طاهر ابو السعود ، والشيخ علي الخطيب الجماعي ٠٠ وغيرهم ٠٠ (١)

وكان الازهر يمد هذا المركز الديني بالشيوخ ويهيء ابناءه ليعودوا اليه مدرسين ومعيدين وقرّاء ٠

---

(١) الاديب / الجزء الرابع / السنه الثامنة / ص ٢١ ٠

في هذه الفتره كان التعليم يصدر في الغالب عن رجال الدين ، ولم يكن من عمل لرجال الدين الا التعليم تقريبا ·· ولم يكن للدولة في البلاد مدارس تهيئ لنهضه ادبيه ا وأني لها أن يكون لها في الولايات العربيه مدارس راقيه ومدارسها في عاصمتها لا تحمل من مميزات المدارس الراقيه " الا القشرة والالياف " (١) ·

حتى المدارس الاجنبية التي ابتدأت حياتها في هذه البلاد لم تكن تقوم الا على رجال الدين الاجانب " وهل كان ينتظر من رؤساء الدين وكلهم اجانب لا يعرفون حاجات البلاد ، ولم يجيئو اليها الا لغرض ديني ، ان يؤسسوا في بلادنا مدارس مثل مدارسهم في بلادهم تتلقى حاجاتنا بقضائها ·· ان امر التعليم — وهو اهم الطرق واكد الذرائع لانهاض الامم — كان محصورا في يد الحكومة ، ورؤساء الدين ·· ولم يكن في الامكان أن تكون في البلاد مدارس غير مدارس الحكومة ، والمدارس الطائفية ·· فعلى الامة أن ترضى بها ، وتكون من القانعين الشاكرين ·· ولم يكن لمن تنزع به همته وتتقاضاه ذمته ان يخدم بلاده الا ان يلجأ الى احدى تلك المدارس يعلم كما يريد غيره لا كما يريد هو ، وكما يحتاج رؤساؤه لا كما تحتاج بلاده ··

وكانت للمدارس الطائفية صفتان : الاولى أنها كانت اجنبيه ، وقل بين رؤسائها من عرف حاجتنا واهتم بقضائها ، ولذلك قلت العناية فيها بلغتنا واذكاء الروح الوطنية فينا ·· والثانية أنها دينية ، وكان المفهوم من الدين في ذلك الوقت التحزن والكآبة والزهد في الحياة وترك العمل وقمع النفس والرضى من الدنيا بالنصيب الاخس ، فكان ضررها من الجهتين ، من جهة كونها اجنبية · ومن جهة كونها دينية ·" (٢)

" هذه كانت حالة المدارس على الاجمال في فترتنا التي نحن بازائها ·· ولعل ارقى مدرسة في ذلك العهد ، او في اواخر هذه الفتره ، واشبهها بمدرسة وطنية هي مدرسة (المرسلين الانكليز) في القدس ·· وكانت تدعى (مدرسة الشبان) ·· كانت هذه المدرسة تعلم العربية ، ولكنها (العربية النصرانيه) ·· لغة التوراة والانجيل ·· لا لغة القرآن والادب العربي ·· وقد قيل بسبب ذلك " ابت العربية ان تتنصر ·" ·· وكانت التربية فيها دينية ، وكلما كان التلميذ فيها ناكس البصر ، متطأطئ الهامة ، كاسف البال ، نادما ، خائفا ، كان اقرب الى الدين ، واميل الى الروحيات على حسب ما كان يفهم من الدين في ذلك العصر عند المسيحيين وغيرهم ·· ولا تزال آثار ذلك العهد الى الان · اذ لا يزال رجال الدين ، والمتدينون من مسيحيين وغيرهم يلبسون السواد ويحنون لحاهم وكأنهم في حداد دائم ، لا يمشون الا وئيدا ، وعلى وجوههم علائم القلق والهم والكآبة ··

---

(١) ما تيسر / الجزء الثاني / ص ١٣ (٢) ما تيسر / الجزء الثاني / ص ١٣ — ١٤ ·

كأن النحت والسرور والنشاط وسرعة الحركة وعلو الهمة وسعة الامال والشبث بالحياة والاقبال عليها والاتباط بمامن الكبائر .. " (١)

كانت مدرسة الشبان خصوصيه ، لا يؤمها الا عدد قليل من التلاميذ ممن يقع عليهم اختيار المرسلين ، وكانوا يراعون في اختيارهم ميلهم الى الروحيات قبل كل شيء .. ومع ذلك فانها اخرجت من الاساتذة والقسوس من خدموا البلاد بامانة واخلاص .. وقد كان من حسن حظ البلاد ان هذه المدرسة احتاجت الى استاذ في آخر هذه المرحلة الاولى من حياة الشعر في البلاد .. وكان الاستاذ نخلة زريق يومئذ في عكا ، وكان موضع اعجاب واجلال لسعة علمه وتضلعه من علوم الادب .. وتفوقه في كمال الاخلاق . فوقع الاختيار عليه . فتولى التعليم فيها ، وفي الكلية الانكليزية بعدها . وقد كان نورا ضوأ في اعقاب هذه الفترة من حياة البلاد .. وسترى ثمرة آثاره التي غرسها ، حين نتناول المرحلة الثانية من حياة الشعر في هذا القطر .. " فاستطاع بنفوذه وشخصيته الراقية أن يجعل من تلك المدرسة الاجنبية مدرسة وطنية تخرج مبشرين بالوطنية كما كانت تخرج مبشرين بالدين .. استطاع ان يبث في تلاميذه روحا عالية على حين كان يقصد بالتعليم قتل الحياة ." (٢)

هذا الاطار الاقطاعي .. وهذا المحتوى الديني .. صبغا النتاج الشعري في هذا العصر بلونهما .. ويكفي رواد هذا الوطن الصغير في هذه المرحلة القاسية ان يكونوا امتدادا للتيار القديم الذي بلغه نهر الحياة العربية الدفاق بعد أن تراكمت في مجراه حجارة العصور المتأخره .. وحسب هؤلاء الرواد ان يحفظوا لنا في جرابهم تلك البذور الصالحة للغرس وللنمو وللاثمار حين تجد الظروف المناسبة .. ولن نحكم عليهم بمقاييسنا في النقد .. ولن نجردهم من الظروف التي ظهروا فيها .. ولهذا ترانا قد اطلنا قليلا في تصوير الجواء الثقافية التي احاطت بهم حتى يكون لهم عذرهم في هذا الشعر المنظوم الذي لا يستطيع ان يحمل مضمونا الا هذا المضمون الذي تثقله تلك القيم الدينية بصورة ساذجة محترقة .. غير اننا لا نستطيع أن ننكر انهم انما كانوا منارة تشير الى قوافل النهضة كي تعرف من ان تصدر .. والى اين تمضي ..

بعد هذا الذي قدمناه ليس من الغريب ان نجد الشعر في هذا العصر لا يصدر الا عن رجال دين سواء أكانوا مسلمين ام مسيحيين في معظمه ، وان يكون روادنا الاول في نهضتنا الشعرية والادبية في اكثرهم من بين الشيوخ اورجال الدين الاسلامي ، ومن بين القسوس او رجال الدين المسيحي ، وان يكون المضمون مثقلا بتلك القيم الدينية التي كان يروجها الاقطاع في تلك الفترة الزمنية من سلطان الاتراك العثمانيين .

---

(١) ما تيسر / الجزء الثاني ص ١٥ — ١٦ (٢) ما تيسر / الجزء الثاني / ص ١٧ — ١٩ .

فمن الاسماء التي كانت رائجة في هذه المرحلة وكان لا بد لها من ان تنظم القول شعرا ، والا فلن تجد احدا يؤمن بقوتها اللغوية لان نظم الشعر كان دليلا من ادلة النبوغ اللغوي آنذاك ودليلا من ادلة الوجاهة العلمية في هذه المرحلة ..
من هذه الاسماء جرجي عطية وكان من اشهر اساتذة اللغة العربية في سوريا ، وكان "عالما علامة وشيخا جليلا " من شيوخ المسيحيين في هذا العصر .. وقد كان استاذا في السيمنار العلمي في بيت جالا .. ولعل الكلمات التي القيت في الاحتفال اليوبيلي للجمعية الامبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية ان تكون على شيء من القيمة .. ولكن الذي لفت الانظار على وجه الخصوص كانت قصيدة تلاها المعلم جرجي عطية ... بيّن فيها شكر العرب الارثوذكسيين للجمعية .. "وكان لهذه القصيدة العربية تأثير كبير بين الحضور من الروسيين . " (١)

ومن الذين وجدنا لهم شعرا في هذه الفترة يحمل طابع هذه المرحلة في حياة البلاد ، الياس مرمورة ، وكان قساً ناصريا ..

ووجدنا شعرا من هذا النوع للشاعر يوسف النبهاني ، وكان من شيوخ الدين ولد سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٥٠ م) في قرية اجزم من قرى حيفا .. اقرأه والده القرآن وبعض المتون .. ثم ارسله الى مصر لطلب العلم في الازهر .. فدخله سنه ١٢٨٣ هـ ، واقام فيه نحو سبع سنوات ، حيث رجع سنة ١٢٨٩ هـ ، واقام في عكا يقرىء الدروس .. ثم تولى نيابة القضاء في قصبة جنين ، وبقي فيها نحو سنة .. ثم توجه في سنة ١٢٩٣ هـ الى دار الخلافة ، وبقي فيها نحو سنتين ونصف — ثم خرج منها قاضيا الى بلدة في ولاية الموصل — كوى سنجق — من امهات بلاد الاكراد .. "وبعد خمسة عشر شهرا فارقها سنة ١٢٩٦ هـ الى الشام .. وتوجه بعد ذلك الى دار الخلافة ثانية سنة ١٢٩٧ هـ فاقام نحو سنتين ، وفيها الف كتابه (الشرف المؤبد لآل محمد ص) وخرج منها رئيسا لمحكمة الجزاء في مدينة اللاذقية ، فجاءها سنة ١٣٠٠ هـ ، واقام فيها نحو خمس سنوات .. ثم تولى رئاسة محكمة الجزاء في القدس ، واجتمع فيها بالشيخ حسن ابي حلاوه الغزي الولي ، المعتقد ، صاحب الكرامات .. ولقنّه الطريقة القادريه ، وبعض اوراد واذكار .. وبعد اقل من سنة ترقى الى رئاسة محكمة الحقوق في بيروت ، فجاءها سنة ١٣٠٥ هـ واقام فيها ... والف سائر كتبه ، وطبع اكثرها .. وله ما لا يقل عن عشرين مؤلفا ..(٢)

---

(١) تاريخ الجمعية الامبراطورية الارثوذكسية الفلسطينيه / ص ٦٥ (٢) انظر ترجمة بقلمه نفسه في كتابه "هادى المريد الى طرق الاسانيد " ص ٥٦ .

كما اننا وجدنا شعرا في هذه المرحلة لصاحب الفضيلة عباس الخماش ، وهو "احد اشراف وعلماء نابلس" (١)

وممن تبادلوا الرسائل شعرا مع احمد فارس الشدياق في هذه المرحلة ، يوسف اسعد ، وهو نجل حضرة مفتي السادات بالقدس (٢)

وممن قرّظوا كتاب (سر الليالي) للشدياق ، ابو السعود ، وهو من علماء القدس ، وافاضلها ، ورّب البيان ، والاخلاق الحسان " ٠ (٣)

ومن شعراء هذه المرحلة الاطلاعية في حياة البلاد ، الاستاذ اليعقوبي — الشيخ سليم ابو الاقبال — مدرس العلوم الشرعية ، وفنون الاداب في سوريا "القائل في عصر مولاه الخليفة الاعظم " :

عصر عبد الحمد ملك ملوك الا	رض وافي بصيّب الرحمات
عصر علم به تجلّس يراع	خط للناس هذه الحسنات (٤)

فلئن كان عصر عبد الحميد عصر علم ، فماذا يكون لون الظلام والجهل اذن ؟!

هؤلاء هم الذين وجدنا لهم شعرا في الحدود الزمنية للمرحلة الاولى من حياة الشعر في هذا الوطن ٠٠ كلهم اخذوا قسطا من الثقافة الدينية كما كان يفهمها اهل ذلك الزمان ٠ وكلهم جنح الى القيم الدينية — ما عدا خليل السكاكيني — سواء في ذلك مسلمهم ومسيحيهم ٠ فلا غرابة في ان تكون الاغراض التي جاءت في شعرهم متسمة بهذه السمات :

وهذه قصيدة القس الياس مرورة الناصري في مدح الناصرة :

تراءت لنا من يزرعيس مدينة	تزاحم سحب الجو في طلب المجد
تلوح كوشي في مطارف غادة	او الوسم في زند او الشام في الخد
وقد ركبت متن الجبال واشرفت	على مرجها واليم والغور والنجد
مليكة حسن فوق عرش تربعت	محاسنها تبدو على القرب والبعد
تشير الى تابور طورا وتارة	الى الكرمل اللاهي الجزر والمد
وترنو الى حرمون تلهو بشيبه	وجلبوع مشغوف بها فاقد الرشد
ومصر قد ذاب التياعا وحرقة	فلم يلق الاصرام الهجر والصد
ويبدو وميض من اعالي قصورها	كاشراق نجم الصبح او مرهف الحد

---

(١) الجنان / جزء ١٦ سنة ١٨٧٠ ص ٤٩٧ (٢) كنز الرغائب / جزء ٤ ص ٣٥ — ٣٦
(٣) كنز الرغائب / جزء ٤ ص ٧١ (٤) انظر غلاف ديوان "حسنات اليراع" للشيخ سليم ابي الاقبال اليعقوبي ٠

لقد شرفت ذكرا باشرف سيـــد | يمن ذكره يربو على الطيب والنـد
ومن فضله شمس، ومن طيب اسمه | بأفواهنا احلى من القطر والشهد
هو السيد الاعلى يسوع بن مريم | مآثره جلت عن الحصر والعد
نصير النصارى الناصرى صانع الفدا بموت وبعث قاهر الموت واللحد
مخلصنا فادى الانام الذي لـه | على الخلق طرا واجب الشكر والحمد
نلوذ به في كل خطب ونرتجـي | شفاعته يوم القيامة والحشـد
فكن حافظا مولاى بلدتك التـي | نشأت بها يا صادق الود والعهد
مجيرا لها في كل خطب وناصرا | على عاديات الدهر والشر والضد (١)

ففي النصف الاول من القصيدة وصف طبيعي للمدينة ، وموقعها ، ومكانها من الجبال المحيطة بها ، وهذا الوصف ، حينما يقاس بمقاييس الزمن ، حيث الظروف التعليمية التي اشرنا اليها ، لا يشك احد في أنه طليعة حسنة من طلائع هؤلاء الــرواد ، ولسان عربي لا تشوبه شائبة الاعوجاج او الركاكة او العجمة .. وانما هو مثقل بالصـور التقليدية القديمة ، وبانواع البديع الموروثة ، وحسن التخلص المحمود في الشعر العربي الاول .. وفي النصف الثاني ، بعد ان اطمأن الى الاظهار قدرته على النظم وتمكنـه من صياغة الالفاظ في قوالب شعرية سليمة يقبل على ختم قصيدته بما يرونه افضل خاتمة في ذلك العصر ، وهو مدح السيد الاعلى يسوع بن مريم وصف قصر واعطاء !

لسنا نشك في وجود اثر التقليد في شعر هذا الرائد ، ولكنه تقليد يافع قد استوى عوده ، ولم يعد كالطفل الحديث العهد بالنطق .. ولا يملك قارئ هـذا الشعر حين يفحصه في ظروفه الثقافية وحدوده الزمانية الا ان يحس ان العربية بخير في مطلع نهضة هذا الوطن الصغير ، اذ يرى شاعرا من ملة "قيلت لاجلها كلمـة (ابت العربية ان تتنصر) ، يقول هذا الشعر العربي القويم .. كما يقول الاستاذ مارون عبود في الشاعر المطران جرمانوس فرحات ..

ولقد احس السلطان عبد الحميد في هذه المرحلة بالشعور الديـني ، وبرواج فكرة الجامعة الاسلامية لكي يقف في وجه الحركات الدستورية الرامية الى تقييد سلطانه فـي الداخل .. وقام دعاة عبد الحميد ينشرون بين الناس مبلغ حرص الخليفة على خدمة الحرمين وتسهيل الحج عبر خط حديدي من دمشق الى المدينة ، ومنها الى مكة .. ورأى السلطان ان يوجه رجال الدين ليكونوا دعاة هذه الدعوة ، فاستعملوا السنتهم ولغتهم في ذلك ..

---

(١) تاريخ الناصرة / ص ٣ـ٤

ومن هؤلاء الدعاة السلطان ابو الاقبال اليعقوبي الذى ملأ ديوانا من الشعر في مدح السلطان عبد الحميد وفي مدح ولاته وولاة ولاته ٠٠ وهو يضع مديحه ذلك في اطار من القداسة فيجعله بين دفتي الديوان ، ويجعل ابتداء ديوانه "ببعض ما قاله في الله سبحانه ليكون طالعه سعيدا ، ويختمه ببعض ما نظمه في السيد الاعظم (ص) ليكون ختامه مسكا ٠"٠٠ وفي داخل هذا الاطار المقدس يضع (حميدياته) ٠٠ وهي تشتمل على (التهنئة بسلامة السلطان) و (بعيد الجلوس) وهو يعارض قصائد شوقي في الخديوى ٠٠ ولا يدع فرصة من فرص المدح الا اهتبلها وقال شعرا طويلا ! ثم يمضي في المدائح العمومية ، فيمدح طائفة من العلماء والاعيان وموظفي الدولة ٠ ورؤساء البلديات ، ومتصرفي الالوية ٠٠ وله في بعضهم مراث وتعاز ٠٠ وغيرها من قصائد المناسبات٠٠ ويحشر بين هذا كله قصائد في الحوادث التي كانت جارية في عصره كحادثة دنشواى في مصر ٠٠ وغيرها من الحوادث الخاصة ٠٠ وهو بديوانه هذا يمثل طابع العصر الاقطاعي الديني ٠٠ وكأنما كان يعد نفسه ليكون شاعر السلطان كما كان شوقي شاعر الخديوى ٠٠ وفي الديوان قصائد فخريه حماسية متينة السبك ، ولكنها من غير مناسبة ٠٠ من ذلك قصيدته (أنا والدهر) الحماسيه الفخريه التي يبدأ ها بقوله :

يحاربني دهرى ولست احاربه ويوسعني عتبا فهلا اعاتبه
وما انا بالمرء الضعيف فؤاده ولا بالذى ضاقت عليه مذاهبه
تخذت لنفسي مطلع الشمس موطئا على أن لي في الارض ما انا طالبه
كفاني براع يعلم الله انني امير تهز المشرقين كتائبه

ويختتمها بقوله :

وهذى سبيلي فاتبعها تكن فتى فمنّ يتبع سبلي أضاءت كواكبه(١)

وهكذا يجد مجال القول متسعا فيقول ما يزيد عن سبعين بيتا من الشعر في موضوع هو من صنع الاوهام اكثر منه من صنع الواقع ٠٠ فهذا الدهر الذى يصاوله ، وهؤلاء الناس الذين ينازلهم ، وهذه الخطوب التي يبطش بها ليست الا صورا واشباحا من صنع الوهم يوسعها ضربا وتمويشا وفتكا ٠٠ وقد حشد في القصيدة صورا دونكشوتية لا لشيء الا لتكون رياضة عنيفة يحرك بها لسانه ليظهر وقدرته على تداول اللغة ودورانها في المناهج الموروثة التقليدية ٠٠

---

(١) ديوان "حسنات اليراع" ص ٩–١٣ ٠

ولا نشك في أن في القصيدة انفاس بشار وابي تمام والمتنبي وابي العلاء من غير أن يكون فيها ظروفهم ومشاكلهم ومواقفهم ٠٠ وهي قدرة فائقة على التعبير بل على تقليد التعبير من غير ان يكون هناك مضمون او تجربة او واقع صحيح ٠٠ فهذا التمكن من ناحية الاسلوب ٠٠ وهذه الثروة اللفظية الخصبة تذكرنا بالعصر العباسي وشعرائه :

يعيب علي العلم غرّ تقوّست	قواه كأني بالجهالة عائبة
وكم تهزأ الاعداء بالفضل جهدها	وحسب عدو الفضل ذما معائبه
وعما قريب ينبذ الجهل ربه	فتنبو نبوءه عن بنيه مراكبه
رعى الله منهار العلوم فلي به	غرام شجي آثرته كواعبه
ولا بدع أن سيقت الي عنـاقه	فلي (والد) سيقت اليه شوازبه
ومن ورث العلياء عن خير والد	سرت كأثير الكهرباء مواهبه
فعما قريب يغلب الدهر بطشه	واني بعون الله لا شك غالبه
وما أنا الا السيف والسيف صارم	مضاربه تشكو ظباها ضرائبه
اصول على الاعداء صولة ضيغم	تطير به طير الحزار سلاهبه
فأقضي على غيري اذا سل سيفه	واردى به حتى تباد معاطبه
وافعل بالايام فعلي باهلها	وبالدهر ما يرمي اليه محاربه
وازجر من طير الخطوب غرابها	فلا يرأم السارين في الليل ناعبه

ولكن صاحبنا قد جمد هذه الثروة اللغوية ، وجعلها في صناديق السدة الملكية ، والقى بها على اعتاب السلطنة العثمانية ٠٠ ويمضي في هذه السبيل ، ويتفنن في عرض وسائلها ٠٠ ويقول في المفاخرة قصائد تتجاوز الواحدة منها التسعين من الابيات ، وفيها انفاس الفخر العربية القديمة !

وكما يطول نفسه في الفخر كذلك يطول في (الحميديات) حيث تتجاوز القصيدة الواحدة منها تسعينا من الابيات ، وكلها تتناول القيم التقليدية الموروثه في هذا الباب ٠٠ فحين يهنيء السلطان بالنجاة من مكيدة الاعداء يقول :

نجوت فخابت بالنجاة جناة	بغين وهل بالبغي ساد بغاة
ارادوا بك النكباء لكنما الذي	براك ابى أن تنزل النكبات
وما عرشك المرفوع الا موطدا	بنصر لديه من لدنه ثبات

٠ ٠ ٠ ٠

سريرك ءأما أفقه نحو شــــامخ ولو أنهـا ترمـــي اليـــه عــداة
وانت رعاك الله من صولة العدى نجوت وحسبي للمليـــك نجاة
نجاتك للاداب والدين والتقـــى وللناس في اى الجهات حيـــاة
وما انت للاسلام الا خليفـــــة يحفك نصر في الوغى وتقـــاة
لئن اضرمت تلك الصعاليك نارها وامت بأعباء الفساد جفـــاة
وهزت بقاع المشرقيين مكيـــدة لها من طغـام الحاسدين حماة
فانت الذى ما زدت الا ســــلامة لديهم وزادت فيهم الزفـــرات
كأنك (ابراهيم) حــزما (ونــــاره ســلام) عليها تنزل الغمــرات
امولاى لما أن نجوت واينــــعت على الشرق من نعمائك الصدقات
وبشرت الارض السماء بنـــورها كما بشرت روضاتها الثمـــرات
تهلــل بيت الله بالبشر مثلمـــا تهلل في ارجائه عـــــرفات
تحفك عين اللــه رغم انوفـــهم وترعاك من عــين الحسود رعاة
مدحتك لا ابغى بمدحي بـــدرة وان تبتغي احرازها الســروات
كفانا ويكفي الشرق مزن انـــامل بيمنك ينمو وقدها ويقــــات
وحسبي على تلك المواهب شاهــدا مدارس فضـــل فيه مشتهـــرات
و (سكـة انحــــاء الحجاز) فانها و (منتديات العلم) منك سمـــات
و (مستشفيات) اسستها يد التقى بنعمى يمين ملوءها الـــبركات(١)

وهكذا يجعل من لسانه داعية .. ويقف هذه المواقف، ويبذل كل ثقافته الدينيـــة وجهوده التي حصلها في خدمة هذه القيم المندثرة .. ويربط نفسه بعجلة هـذا التيار المنقرض المتدهور .. وتغشى عينيه غشاوة فلا يبصـر التيار الصاعد ، ولا يشارك فيه .. من امتلاكه لزمام القول على الطريقة التقليديه الموروثة ، والاساليـــب التركيبيه القديمة .. ويغرق في هذه اللجج الى اذنيه ؛ ويقول فيها ويصول . ومن مدائحه الاخرى ، قوله بمدح الشيخ يوسف النبهاني :

ليـوسف الفضل لا للقائمين علـــي هدم الشريعة من قـاص ومن دان
فصفه بالحلم لا تخش العداة وقل ان ابن هاني والنبهاني سيـان
ان ساءني ادبي او حطني حسبي او حاربتني صروف العالم الفـاني
هززت منه يراعا قام بشكـــــره شكر الرياض نداها الحاسد الشاني(٢)

---

(١) ديوان حسنات اليراع ص١٩ ــ ٢٣ (٢) ديوان حسنات اليراع ص٣٦ ــ ٣٧ .

وكنت اقدر ان اجد اصالة في مراثيه ، فلم انلفر بشيء من ذلك .. وكأنه انما اعد نفسه ولسانه للمديح ، فاستنفد فيه وفي الفخر كل طاقته القولية فلم يبق لغيره من الفنون متسع .. فحين يرثي قاسم امين لا تجد في رثائه الا ضعف التقليد ولا تلمس غير ما حفظ من صور الرثاء الباهتة في الادب العربي القديم :

طلب الله قاسما فاجابه لنعيم به تطيب الاجابه

فبكته العلوم شرقا وغربا وكفاه بكاء فن الخطابه (١)

وعلى هذه الشاكله يمضي متعثرا حتى يقول حول الاربعين من الابيات اللاهثة . ونجد هذا الضعف والتعثر والاضطراب في القول حتى حين تنزل به كارثة خاصة فيبلغه ، وهو ناء عن الدار ، نبأ وفاة بنيته (فاطمة) التي يحبها حبا جما .. وما يكاد ينظم فيها ابياتا حتى يتلو النبأ نبأ آخر يعلن له وفاة ابنته الثانية (نعمة) فيتم بالكارثة الثانية ابيات القصيدة في الكارثة الاولى .. حتى في هذه الكارثة لا نجد الا قولا مملولا وصورا باهتة وتعابير متعثرة ، ليس فيها حرارة المصاب .. مع انه يقول في مقدمة القصيدة " .. حتى جاءت رواية تمثلها الحقيقة على مرسح شعري يلعب بالقلوب لعب الصهباء .. " وتبلغ الابيات المتهاوية المتهالكة ما يزيد على المائة والثلاثين من الابيات ..

وبنيـــة غذيتهـــا بلبـان آيات البيـــان

وقرأت في آذانهـــا آياتي السبـــع المثـــان

علمتها فــي مهــدها ما كان علمني الزمـــان

هذا مع العلم أنها كانت حديثة السن ، وقد ماتت وهي لم تتجاوز الخامسة من عمرها

داعبتهـــا بقصـــيدة . من دونها نظـــم الجمان

فأبت مـــداعبـــتي كما يأبى ابوها الافتتـــان

ابدت الي عبـــارة تحكي السلافة في الدنان

تنبي بأن طلابهـــا شيان شأنهما الامـــان

علم به تحلـــو القلـــو ب من الحمى لوكان ران

وجراز بيض جدودهـــا حتى تقيم به الطعـــان

ويمضي في هذا النسق وعلى هذه الشاكلة حتى يختم القصيدة بآية "كل مـــن عليها فـــان "

وحين تقع كارثة دنشواى يقول :

---

(١) ديوان حسنات اليراع ص ٤٥ ـ ٤٧ .

قل لمن يألف الهدى والرشادا ويود الاسعاد والارشادا
خل هذا فليس في مصر الا ما يشق القلوب والاكبادا
كيف لا تنزل الكوارث رغما وعداة الاصلاح عادوا البلادا
زعموا الود بالخداع الى أن منحتهم يد الزمان الودادا
ان شأن الوداد يورث ودا مثلما البغي يورث الاحقادا
اين من يرحم اليتامى ويولي (دنسواي) الاسعاف والاسعادا
ما الذى تفعل الارامل فيما هل تربي الارامل الاولادا
عل عدل الاميريقتص ممن اوسعوا الناس قسوة واشتدادا

وهكذا لا نجده يرجو الخير الا من الاعتاب العاليه ، فلم يدرك ان الاعتاب هي مصدر الشر كله ، ثم يثير عاطفة دينية تربط بين القطرين ، وتبلغ به القصيدة ما يزيد على الخمسين من الابيات ! (١)

ومن الاغراض التي يطرقها (النبويّات) ، ويجعلها في خاتمة الديوان ويتخذ التخاميس اطارا لها ، كما يفعل كثير من الشعراء المتدينيين :

هل المجد المرقى العلاء وبنى ذروة السرور الصفاء
وتجلى على القلوب الهناء مثلما انها تجلت ذكاء
فانجلت عن سمائها الظلماء

وينظم كل المعاني الدينية المألوفة بهذا الاسلوب وفي هذا الاطار حتى تبلغ مجموع القصيدة اثنين وستين تخميسا (٢).

وهو بهذه الاغراض وبهذا الديوان يمثل المرحلة الاولى من حياة الشعر في هذا القطر خير تمثيل .. وديوانه لم يخل من اللعب بالحروف ، ذاك اللعب الذى يشبه لعب الفارغين بورق الشدّة :

سألوني م ابتعادك عنا ولكم في القلوب (حاء وباء)
قلت مما جنى الرئيس على الفضل وان الرئيس (فاء وتاء)
فاعذروني اذا ابتعدت فاني رغم أنف الزمان (حاء وراء)

وهي ظاهرة من ظواهر النهضة في البلاد العربية ، وكان لهذا القطر منها نصيب !

حتى اذا اقبلنا نقرأ " الدرر الحسان في مدح الجنان " من قلم "صاحب الفضيلة احد اشراف نابلس وعلمائها ، السيد عباس الخماش" رأينا الاغراق في علم المعاني والبديع ، والجهد الواضح في الترصيع والتصنيع .. هذا من حيث الشكل ..

---

(١) ديوان حسنات اليراع ص ٦١ – ٦٤ (٢) ديوان حسنات اليراع ص ٧٧ – ٨٧ .

اما من حيث المضمون فليست الا مدحا تقليديا في (ملح الجنان) يتبعها بقطعة اخرى تحوى لغزا يطالب حله .. ويصدر القصيدة بمقدمة نثرية مصنوعة مرصعةبانواع المعاني التي تزدحم بها اكثر مما تزدحم القصيدة :

قم واسقني صافي الدنان	وأدخل الى روضة الجنان
واقطف ثمار الفنون منها	وانشق شذا عرفها المداني
واشرب رحيق الكؤوس صرفا	ينفي لنا باقي التواني
غراسها لؤلؤ نقي	ثماره درة المعاني
وراحها راحة وروح	ريحانها مخجل الحسان
وشيّ لنا بردها اريب	يقصر عن مدحه لساني
من لطفه ارتجي سماحا	عما له سطرت بناني

ويقول في اللغز :

يا اريبا حوى عقود الجمان	واديبا منه بيان المعاني
اى اسم بدا رباعي مبنى	نصفه امر واحد الذكران
والذى قد بقي فبحر محيط	جاد للطالبين بالمرجان
قلبه مشعر باسم فتاة	طار في الشعر ذكرها والحسان
نحليم اذا ارتقى الصدر منه	مرة والتصحيف فيه مدانى
واذا ما حذفت رابع حرف	فهو أمر الانثى من النسوان
ان يكن ضم اول لاخير	فهو أمر ونصف اسم كتان
مثله نصفه الاخير يقينا	مثل حل اتى به المصراني
ما بقي فهو لي وان يرمقلوبا	بتصحيف اول بل أثاني
هات قد طاح فكر صب معنى	في بيان الرموز بالتبيان
وهو من ذاتكم يلوح ويروى	من شذا طيب روضة البستاني (١)

ولقد شغل الخماش اولا بتقارض الثناء نظما ثم بالالغاز ثانيا حتى نستطيع ان نسميه شاعر الالغاز ، فله في مجلة الجنان الغاز من النوع الذى اوردناه ، والغريب في الامر ان شعراء ذلك الزمان كانوا يتنافرون اعداد الجنان حتى يحلوا هذه الالغاز الشعريه بشعر من بحرها وقافيتها .. فلئن كنا لا نطيق هذا الشعر ونعده اليوم لغوا فقد كان شغل الشعراء الشاغل في ذلك الحين ومثله تقارض الثناء شعرا ... ولعل الانعزال عن الحياة هو الذى يخلق مثل هذا اللغو ..

---

(١) الجنان / جزء ١٦ سنة ١٨٧٠ ص ٤٩٧ .

ولكنه لغو حفظ لنا الاشكال اللفظية سليمة من التشويه ومن الركاكة والضعف .
ومن هنا نجد في الجزء التالي من (الجنان) ثناء على شاعرنا عباس الخماش ،
ثم ردا على لغزه بقلم احمد افندى وهبي (١) . وهكذا تمضي هذه الرياضة
اللفظية وهذا اللهو المنظوم وهذا التقارض في الثناء في كل اجزاء المجلة ، وهو
اشبه بلعب الفارغين باوراق الشدة كما قلنا حينما تفرغ حياتهم .. وكذلك كانت
المرحلة الاولى من حياة الشعراء .. انصراف عن الحياة هيأت له ظروف
الاقطاع في السياسة والاقتصاد ، فانتجت هذه الرياضة اللغوية .. وهم يقصدون
من وراء هذا الثناء اظهار القدرة اللغوية اكثر من تلمسهم الصفات والمميزات
الحقيقية في توجيه ذات الثناء .. ولكن لهم فضل المحافظة على هذه القوالب
التي لم يكن يملؤها شيء من مقومات الحياة .. وحين تخصب حياة القوم
سيجدون هذه القوالب معدة جاهزة لهم سليمة الجسم يملؤونها بما تمتلئ به
حياتهم ، وينفخون في شرايينها الحياة ، وتجرى فيها دماء الكفاح !

ونحن حين نذكر ان هؤلاء من اوائل الرواد يسرنا منهم هذه الديباجة
المتماسكة ، والعبارات التي لا تشوبها الركاكة ، وهذه التراكيب الصحيحة ، وهذه
الصنعة المتروية ، والقدرة البهلوانية في اللعب بالالفاظ ، ما دمنا لا نطمع منهم
بمضمون ذى طائل في تلك الظروف الاقطاعية ، وما داموا قد آثروا لانفسهم ذلك
الموقف السلبي في حياة وطنهم .

والى جانب هذه البهلوانيات التي مارسها روادنا الاوائل في مطلع
النهضة بهلوانية التأريخ الشعري او ما يسمى (حساب الجمّل) وفن (التأريخ
في الشعر) وهو حساب مبني على الحروف الابجدية التي تبتدئ بالواحد من
حرف الالف ، اول كلمة (ابجد) ثم يتمشى على الاحاد الى ان يصل العشرة ،
وبعدها يأخذ على العشرات الى أن يبلغ المائة ، وبعدها يأخذ على المئات الى
أن ينتهي بالالف ، وهو رقم حرف الغين ، آخر كلمة (ضظغ) . وقد جرت عادة
الشعراء المتأخرين على أن يأتوا بكلمة او كلمات او شطر في آخر بيت من قصائدهم
يتكون معاني حساب الجمّل تاريخ حادثة او نبأ او وفاة او ما شاكل ذلك من
الاحداث (٢) .. ويرد الامير حيدر الشهابي المؤرخ هذا الفن الى عبد الرحمن
ابن محمد شاكر النحلاوى ، تلميذ الشيخ عبد الغني النابلسي ، والى سنة ١٧٢٣م ..

---

(١) الجنان / جزء ١٨ ص ٥٦٥ (٢) انظر مقالا في هذا الموضوع بقلم عبد الله مخلص
في الكشاف / جزء ٥ / مجلد ٤ ص ٣٥٨ .

ولكن الباحث الفلسطيني عبد الله مخلص يبين ان الامير حيدر نسي أنه هو نفسه ذكر قبل قليل تاريخا هو سنة ١٧١١ م في كتابه نفسه.. ويذكر المحقق الباحث الى جانب ذلك ان اقدم ما اطلع عليه من التواريخ الشعرية قطعة نقشت على الحجر في السقاة التي امام الجامع الكبير في مدينة نابلس، وهي :

ان الامير الماجد القرم الجليل   اعنى سليمان الاصيل ابن الاصيل
من جود كفيه شربنا سلسلا   عذبا فراتا سائغا كالسلسبيل
فاشرب هنيئا منه واقرأ حاملا   تاريخه من كوثر هنا سبيل (٩٧٤)

ويبين عبد الله مخلص خطأ الاب جوسن الدومنكي الذى ادرجها في مقالة له في مجلة المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقيه في القاهره (م ٢٧ ص ٩٢) ، ووضح خطأه في النقل اولا وفي الاستنتاج ثانيا ، وفي الحقائق التي بناها على نقله المغلوط ثالثا.. ويورد باحثنا وثائقه التاريخية والشعريه ويثبت ان هذا الفن " قد سال على اسلات اقلام الكتاب في النثر في اوائل القرن العاشر الهجرى، ثم انتقل الى الشعر في اواخره ، وما زال جاريا فيه الى يوم الناس هذا ، وان كانت العناية به قلت عن ذى قبل لانه يضطر الشعراء للتقيد بالالفاظ اكثر من المعاني ، فيأتي الشعر على الغالب تافها ." (١)

وكما شك عبدالله مخلص في زعم الامير حيدر ، كذلك شك فيه الاستاذ الناقد مارون عبود في كتابه " رواد النهضة الحديثه " وفيه دراسة قيمة حول اصول هذا الفن .(٢) ولعل هذا الفن ان يكون مستوردا لقطرنا العربي الصغير من الجيران.. "ففي سنة ١٨٨٦ عقد اسعد افندى قائمقام الناصرة - وهو من احرار الاتراك المبعدين - عقد على رأس النبع ، وجر الماء بقناة الى موقعها الحالي ، وكتب تاريخها شعرا على بلاطة من رخام وضعت في سور الكنيسة ، فوق الحنفيه :

زلالا اشرب صحة وعوافى   وابتهل بالثناء لله شكرا
في زمان به الحميد مليك   وله في الصلاح اطيب ذكرى
قد هدانا طريق رشد بناشد   نعمة في محمد خير بشرى
اسعد الخلق للمآثر أرخ   سلسبيلا للخير احيا واجرى

(١٣٠٣ هـ او ١٨٨٦م)" (٣)

---

(١) الكشاف / جزء ٥ / مجلد ٤ ص ٣٥٨ - ٣٦١ (٢) "رواد النهضة ، ص ٤٢ - ٤٩ .
(٣) تاريخ الناصره ص ٢٠ .

وقال في هذا الفن التاريخي الشعري "رب البيان ابو السعود افندى ، من افاضل القدس" في آخر تقريظه لكتاب (سرّ الليل) :

فصل ربي وسلم على النبي والآل
ما دار كأس المعاني في حانة الافضال
واحمد الناس فضلا وفارس في المجال
او اذا لمرا سحرأنّ بيان ختم المعالي

١٢٨٥ هـ (١)

وهكذا كان من نصيب النهضة في هذا القطر ان تعرف هذا اللون من البهلوانيات الشعرية التي اثمرتها النهضة في الاقطار المجاورة ولاسيما لبنان .

وقد قامت ضجة في لبنان على صاحب الجوائب احمد فارس الشدياق ، في هذه المرحلة من حياة الشعر في قطرنا ، تعصب له فيها فريق ، وتعصب عليه فريق .. وكان لصاحب الجوائب نصيب من المادحين في هذا الوطن الصغير فلسطين ، فكتب اليه " الاديب البارع الانجب يوسف اسعد افندى نجل حضرة مفتي السادات في القدس الشريف :

سلام الله يزجى كل وقت الى من فاق كل الكاتبينا
امام الاذكياء وبحر علـم وشمس هدى لقوم عارفينا
فليس لغيره درر بنظم ولست ترى له احدا قرينا
جوائبه سمت في كل قطر فلم ينظر سواها الحاذقونا
ايطفيء نور هدى الشمس قوم ولو بلغوا الوفا او مئينـا
سأقسم بالحطيم وبيت ربي ومن للمذنبين غدا ضمينا
لاحمد فارس ادب وفضـل وقد اصفى السريرة واليقينا
وقوم انكروه فلم يصيبـوا ولم يجدوا لهم احدا معينا
فهم قوم طغاة لامـراء فكيف وهم باحمد قادحونا
له عز بسلطان البرايـا له دانت رقاب العالمينـا
سما عبد العزيز وفاق قوما مضوا من قبله متفضلينـا
ادام الله طلعته بنصـر على اعدائه حينا فحينا
ودولته بتوفيق وعـز ليبقوا ملجأ للقاصدينـا
ولا زالت عساكره اسودا تدير على العدا حربا زبونا

---

(١) كنز الرغائب / الجزء الرابع ص ٧١ .

ولا برحت اعاديهم دمارا ... باديهم وايدى المؤمنينا
ولا زالت صلاة الله دوما ... على طه امام المرسلينا
ورسل الله هادى الناس طرا ... وآل والصحابة اجمعينا (١)

ولعل المدح والثناء ان يكون الغرض الذى يتوكأ عليه كل شاعر عربي في بدء النهضة الادبية ، وهذا التقريظ يختلف عن تبادل الثناء الاول الذى عرضنا له وذلك لخلوه من الالغاز التي كان ينتهي بها الثناء السابق ، ولقلة البهلوانيات اللفظية فيه .. فهو ثناء على صاحب الجوائب .. بل هو موقف ، مهما يكن شأنه ، فيه ايجابية من حيث الوقوف الى جانب احمد فارس الشدياق ، ثم ينتهي بالثناء على الباب العالي الذى اعز صاحب الجوائب ، ويختم القصيدة بالختام التقليدى الديني الذى يختم به كل امر بالصلاة على سيد المرسلين وآله والصحابة اجمعين .

ويجيب احمد فارس الشدياق شاعرنا المقدسي على رسالته برسالة من وزنها وقافيتها فيقول :

جلا عني سلامك يا خليلي ... من الاشجان مايقذى الجفونا
اكاد ارى بها صبحي ظلاما ... واسباب الاماني لي منونا
فكم من مؤنس فارقت رغما ... وكم من موحش القى قرينا
وكم من مأرب قد ند عني ... وغادرني ائن له انينا
وما أنا واجد في الناس طرا ... على وطرى واشجاني معينا
فاما قابض كفيه لؤما ... واما مفلت دنيا ودينا
كأن الناس قد صاروا ذئابا ... تنوش الغث نوشا والسمينا
اذا أوهمت ان بهم قمينا ... بخير عاد من احم قمينا
وان تقصد بسا حتهم خدينا ... تصادفه دخانا او اتونا
كأن الحجر عندهم ادام ... ومن ونر الخنا وردوا معينا
اذا باعدتهم هاجوا جنونا ... وان دانيتهم ماجوا مجونا
يحارب دهرنا من كان سلما ... ويختان الذى يبقى امينا
وذلك دأبه فينا قديما ... فلا تعجب لفصل كان دينا
اراك دريت سأني راثيا لي ... فهل ادراك ما اجرى الشؤونا
بعاد احبتي عني واني احن ... الى وصالهم حنينا

---

(١) كنز الرغائب / جزء ٤ ص ٣٥ ــ ٣٦ .

اراني بعد فرقتهم كئيبا　　كآبة والد فقد البنينا
فما بي فينهاري من حراك　　ولا في ليلتي التي سكونا
فيا طول اشتراقي واحتراقي　　على بعد الاحبة اجمعينا
وانت اعزهم عندي مقاما　　ندم بالله معتصما مصونا (١)

وهكذا كان تبادل الرسائل نظما من مميزات هذا العصر في هذه المرحلة من حياة البلاد ومن وقف الى جانب صاحب الجوائب في فلسطين " رب البيان والاخلاق الحسان ابو السعود افندي ، من افاضل القدس الشريف ، " وهو يقرظ كتاب (سرّ الليالي) للشدياق ، فيقول بعد مقدمة نثرية مرصعة بصور البيان والبديع :

بيان ختم المعالي　　أتى بسحر حلال
احيا فؤادي حلاه　　ولطفه قد حلا لي
وبدره تم فضلا　　لكن جميل الليالي
لله سر عجيب　　زها ببدر الجمال
وفارس الفكر فيه　　يصول بين الرجال
كم غادة فيه تغدو　　كالنجم او كالهلال
تتيه بين الغواني　　بحسنها والدلال
رقت قواما ومعنى　　كلطف سر الليالي
في رونق وبهاء　　وبهجة وجمال
فالقلب حن اليها　　ومال عن ابدال
لانها بكر فضل　　توشحت بكمال
رنا بها ولماها　　يغني عن الجريال
هذا لعمري جمال　　يصان عن امثالي
لله در همام　　تعزى له في المقال
ينبوع علم وفضل　　يروى ريا المعالي
وبحر فهم وحبر　　والبحر يلقى اللآلي
اجرى الثناء عليه　　اسان حال وقال
في البر والبحر حتى　　على الجبال العوالي
وفي العروض جميعا　　وسائر الاطوال
والحمد لله احمد　　له جميل الفعال

---

(١) كنز الرغائب / الجزء الثالث / ص ١٢٤ — ١٢٥ .

فصلّ ربي وسلم   على النبي والآل
ما دار كأس المعاني   في حانة الافضال
واحمد الناس فضلا   وفارس في المجال
او اظهر السحر أرخ   بيان ختم المعالي (سنة ١٢٨٥ هـ) (١)

ولعل هذا اللون من التقريظ ان يحمل في طياته نواة للنقد في مطلع النهضة .. فقد بدأت بذور النقد اما تقريظا كله ، او قدحا كله .. وقلما نجد في هذه المرحلة من يقف موقفا وسطا بين الموقفين !

ومن هذا النمط من التقريظ ما نظمه "من تتحلى الطروس بنظامه ، وتتجلى الدروس بعلمه الشيخ يوسف النبهاني الجزماوي من لواء عكا" :

يا ايها المولى الاديب هدية   من بائس اهداكها مخجولا
قلت وجلت بالمديح وكم غدا   ذو قلة عند الجليل جليلا
فاسمح فديتك مايروت فانني   بثنائك قد رتلتها ترتيلا

كما قال :

الفضل ما اتفقت عليه الحسّد   ودنا لرفعته السهى والفرقد
وتكفلت بعلاه نفس حرة   طار الفخار بها وطاب السوءدد
نفس كنفس ابي سليم لم تزل   تبني ربعها للعلا وتشيد
بطل سرى فوق الجواد قاصدا   سر الليالي وهو نعم المقصد
اكرم به من فارس حمد السرى   عند الصباح فقال اني احمد
لو حارب القمرين في برجيهما   وسطا وطال لعاد وهو مؤيد
وسلاحه من فكره ويراعه   هذا رديني وذاك مهند
لولا هما لم ادر رمحا مشرعا   لا يستقر وصارما لا يغمد
ما انفك شمل الفضل وهو مجمع   بهما وعقل الحاسدين مشرد
بل لم تزل نخب الفضائل عندهما   من غير رد في الملا تتردد
جابت بها اقصى البلاد جوائب   لاعزمها واه ولا هي تجهد
مثل الحمام البيض ترسل بالبشائر والعدو هو الغراب الاسود
حكت السماء الارض من شرف بها   كلتاهما لسرى الكواكب معتد
ابوابها حرست بنجم ثاقب   برجيس بل ابليس عنها يطرد

---

(١) كنز الرغائب / جزء ٤ / ص ٧١

أمنت غوايات الملحين وكيف لا	وامامها من نور احمد مرشد
علامة الدنيا الذى في صدره	بحر جواهر علمه لا تنفد
رحب بلقوم بالمكارم مترع	ولاخرين فبالمكاره مزبد
ذو فكرة هي جنة لاولى الولا	وعلى الاعادى جذوة تتوقد
كنز اباح جمانه اهل النهى	والكنز عن اربابه لا يرصد
عشق العلا طفلا فلم تستهوه	كاس المدام ولا الحسان الخرد
من كل سافرة الجمال بديعة	بالحسن منها يفتن المتعبد
هيفاء من الحاظها قد فوقت	نبلا سوى المهجات ليست تقصد
ومن التوام اللدن هزت عاملا	راع البواسل .وهو غصن املد
فتكت بالباب الفوارس، وانثنت	عن فارس، علما بما يتقلد
يا فكر مالك حاجة في وصفها	عد للمديح فان ذلك احمد
الفاضل اللسن الذى ببيانه	وبنانه عقد القريض منضد
امم القوافي حول كعبة فضله	في الطرس اما ركع او سجد
تلك الكواكب لا اذم شروقها	لكن لدى اشعاره لا تحمد
كلا ولست الومها لما غدت	لكلامه المنثور ممن يحسد
نظم ونثر صادران عن امرىء	هو للفضائل والفواضل مورد
يا ايها المولى الذى من فخره	سهم على كبد البغيض مسدد
ومن الدفاتر والمحاضر لم تزل	بثبوت دعواه المعالي تشهد
الله قلدك المعارف والورى	قد قلدوك بها فأنت مقلد
لك من صفاتك روضة ومدائحي	ورق عليها بالثناء تغرد
خذها اليك من الغريب غريبة	لولاك ليس لها معين مسعد
رقت محاسنها فقلت رقيقة	تهدى اليك وانت نعم السيد
واعذر فتى درست معالم انسه	ومشى عليها الدهر وهو مقيد
جمع الاسى جملا لديه وشمله	عقد بايدى الحادثات مبدد
اوطانه بعدت عليه وانما	اوطاره وهي المعالي ابعد
يبغي اجتماعهما ويعلم انه	شيء بحكم زمانه لا يوجد
ولعل هذا الحكم ينقضه فتى	انت المراد به كريم امجد
فاسلم ودم سندا لمثلي والعلى	عن فضلك العالي حديث مسند (١)

---

(١) كنز الرغائب، الجزء الرابع/ ص ١٣١ — ١٣٢ .

ونحن بهذه القصيدة في هذه المرحلة ، ازاء صورة جديدة من صور التقريظ تمضي فيه شوطا ابعد من الرسائل التي عهدناها في هذا الباب .. وتتعرض للجانب المعارض فتقذفه بسهامها .. وتكاد أن تضع يدها على صورة متماسكة من صور النقد ، فتحاول أن تدعم رأيها بالحجة ، فتعرض لاتجاه الشدياق وفكرته .. ولكنها ما كادت تبلغ هذا المبلغ حتى ارتدت عنه بحكم قيود العصر ، ومفاهيم الجيل . فترجع بالفكر عن وصف الفكرة والمزايا الى المديح والثناء .. ولكنها على كل حال نفس جديد ، ورصانة تشعرنا بشيء من رصانة المتنبي .. وتماسك في الصور .. ومتانة في التعبير تكاد تبعد بنا عن مطلع النهضة الى العصر العباسي ، دون ان نحس تقليدا فاضحا ، وطول نفس لا تسمع فيه لهاثا .. ولم يختم قصيدته بحساب الجمّل ولا بالحمد التقليدي ، وانما انتقل الى حياته الخاصة وحنينه الى وطنه الصغير ، وبعد آماله وطموحه .. وهذه طريقة لا نعهدها عند غيره من روادنا في مطلع هذه المرحلة من حياة الشعر في هذا القطر .. وهو لون من الوان تلمّس الشخصية نكاد نفتقده في الشعر الذي سبق !

ثم يهيم الشيخ يوسف النبهاني بحب الرسول هياما خرج به عن حد المألوف فأراد ان يمنح حياته ، وان يقف نشاطه كله على التأليف في حياة الرسول ، فكتب في ذلك . (١)

(الانوار المحمدية) و (الشرف المؤبد لآل محمد) و (وسائل الوصول الى شمائل الرسول) و (الاحاديث الاربعين في فضائل سيد المرسلين) و (الاحاديث الاربعين من امثال افصح العالمين) و (افضل الصلوات على سيد السادات) و (سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين) و (صلوات الثناء على سيد الانبياء) و (حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين) والهمزية الالفية المسماة طيبة الغراء في مدح سيد الانبياء) و (سعادة المعاد في موازنة بانت سعاد) و (النظم البديع في مولد الشفيع) و (القول الحق في مولد سيد الخلق) و (خلاصة الكلام في ترجيح دين الاسلام) و (رسالة في مثال النعل الشريف) و (جامع الصلوات ومجمع السعادات) و (الفضائل المحمدية) و (المجموعة النبهانية في المدائح النبويه) و (جامع الثناء على الله و (هادي المريد الى طرق الاسانيد) و (السابقات الجياد في مدح سيد العباد) و (حجة الله على العالمين) و (جامع كرامات الاولياء) و (اسباب التأليف) و (شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق) و (جواهر البحار في فضل النبي المختار) .

---

(١) "هادي المريد الى طرق الاسانيد" / ص ٥٦ ـ ٦١

ومن هذه الكتب ما ينيف على الف وستمائة وتسع وثلاثين صفحة مثل كتاب (جواهر البحار) .. ومن بين المجاميع ما يبلغ العشرين ألف بيت من كلام البلغاء على حروف الهجاء في المدائح النبويه .. (كالمجموعة النبهانية).

وكان نصيب الشعر في هذه المؤلفات موفورا .. وحين كان لا يجد متسعا للشعر في كتاب من الكتب يصدّره بأبيات ويختمه بقصائد ، كما فعل مثلا في كتاب (الانوار المحمدية) وكتاب (افضل الصلوات على سيد السادات) المطبوع في بيروت سنة ١٣١٠ هـ حيث صدّر الاول بسبعة ابيات ، وختم الثاني بثلاثة تخاميس ، التخميس الاول منها كما يلي :

سيد الرسل قدره معلوم ... اين منه ادريس اين الكليم
اين نوح واين ابراهيم ... كلهم عن مقامه مقطوم
فعليه الصلاة والتسليم (١)

ثم يصدّر كتابه (وسائل الوصول الى شمائل الرسول) بأبيات سبعة كذلك (٢) كما يصدّر كتابه (سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين) بعشرة ابيات (٣) ثم يقول في آخر الكتاب : "وقد رأيت أن اختم هذا الكتاب بهذه القصائد الفرائد كما فعلت في كتابي (افضل الصلوات) ، غير أن تلك القصائد جميعها من نظمي ، وهذه القصائد جميعها لغيري ، سوى (سعادة المعاد) في موازنة (بانت سعاد) فانها من نظمي جعلتها آخر الكتاب ، لاختم السعادة بالسعادة :

هواي طيبة لا بيضاء عطبول ... ومنيتي عينها الزرقاء لا النيل
عذراء جلت عن التشبيب اذ جليت ... هامت بها الخلق جيلا بعده جيل
كل المحاسن جزء من محاسنها ... اجمالها بجمال الكون تفصيل
فما سعاد اذا قيست ببهجتها ... وكل امثالها الا تماثيل
ما كنت اسأل لولاها الركائب عن ... سلع ولا كان لي بالجزع مسؤول
متى اراها بطرف ظل يكحله ... من تربة البيد ميل بعده ميل
حتى اذا ظهرت اي البشير له ... روى احاديثه للناس مكحول
تقول نفسي غدا اولا فبعد غد ... يا نفس يكفيك هذا القال والقيل
ان قربوا فبلا قول ولا عمل ... او ابعدوك فما للقول محصول
اذا دخلت حماهم فادخليه متى ... شاءوا والا فمنك الحب مدخول
سيلي جوى واسألي تقريبهم كرما ... فرب سائلة يرجى لها السول
وحملي البرق حاجات تبلغها ... عرب التناحيت ريح الانس مأهول

---

(١) (الانوار المحمدية من المواهب اللدنيه) انظر المقدمة . (٢) انظر مقدمة كتاب (وسائل الوصول الى شمائل الرسول) (٣) (مقدمة كتاب سعادة الدارين)

يا برق وآسر الى سلى بجارية ... منها على الرأس حلو القطر محمول

واسق الحمى نهلا من بعده علل ... قد كنت اسقيه لولا الدمع محلول

الحمد لله عيني في غنى ولها ... كنزان من دمعها الياقوت واللولو

يا برق اشبهت ثغر الحب مبتسما ... هل منك يا برق للاعتاب تقبيل

يا برق واشرح لساداتي وان علموا ... معنى المعنّى وما بالشرح تطويل

قل نازح في بلاد الشام حاجته ... منكم قبول فقولوا أنت مقبول

صب سرى الحب في اجزاء طينته ... مذ كان وهو عليه الدهر مجبول

يهم بالسير والاقدار تقعده ... كأنما هي كبل وهو مكبول

في قلبه جمرة لولا العيون بها ... جفت لكان جرى في شأنها النيل

حليف فقر لغرب المنحنى وله ... دين على افنياء الجزع ممطول

يهوى الحجاز وتصبيه معالمه ... شوقا لاهليه والبيد المجاهيل

ترنيه رضوى ويحلو بالعذيب له ... نحو المدينة ارقال وترسيل

ان يجعلوا شخصها بالبعد محتجبا ... عنه فتمثالها في القلب مجعول

استغفر الله من قول احيله ... بعدا ومعناه بالتحقيق تخييل

كأنه النحو اقوال مجردة ... قامت بأنفسها تلك الاقاويل

لاتجحد الحق يا هذا فانت فتى ... كسلان عندك تسويف وتسويل

هذى البحار وهذى البيد ما برحت ... تجرى بها السفن والنوق المراسيل

لو كنت تقوى بتقوى الله طرت ولم ... يحوجك فلك ولم تحوزك شمليل

لكن بركت بأثقال الذنوب وهل ... بمثلها لجناح المرء تثقيل

عليك بالصدق في حب الحبيب فما ... بغيره لك تحصيل وتوصيل

محمد خير خلق الله افضلهم ... لديه سيان مفضال ومفضول

اصل النبيين قدما وهو خاتمهم ... فمنه للكل اجمال وتجميل

حقيقة الفضل عنه لا مجاز لها ... اما سواه فتشبيه وتمثيل

كتابه معجز الخلق قد خضعت ... له الاقاويل منهم والمقاويل

سرى الى العرش بعد القدس ثم اتى ... الى البطاح وستر الليل مسدول

وفي القيامة تبدو شمس رتبته ... كأنها فوق هام الخلق اكليل

الله ارسله والشرك مشترك ... فيه الانام وللتوحيد توحيل

في سادة هاجروا والله شاركهم ... بالنصر انصاره الشم الرآبيل

يا سيد الرسل يا من لا يزال به ... لكل صعب باذن الله تسهيل

واعطف علىّ فاني مذنب وجل ... في الخير لا عامل مني ومعمول

كم خائف حصل التأمين منك له | وآمن كان منه فيك تأميل
عليك أزكى صلاة الله وهي لنا | مسك الختام بها للخير تكميل (١)

والقصيدة مطولة تبلغ نحو مائة وخمسين بيتا ، اكتفينا منها بهذا القدر ٠ وفي آخر الكتاب قصائد (معشرات) على حروف المعجم في مدح الرسول (ص) ٠٠ صدّرها بمقصورة لم تدخل في المعشرات وهي :

احب لي من كل من فوق الثرى | عرب النقا روحي فدى عرب النقا
وخير اوقات الفتى في مكة | تجلسه في حجرها ام القرى
واطيب العيش لنا بطيبة | في ظل مولانا النبي المصطفى
شمس الهدى روح الوجود احمد | محمد طه الامين المجتبى
اصل وجود العالمين كلهم | لولاه هذا الكون ما كان بدا
الدهر قد ابصر بعد بعثه | وكان قبل البعث اعمى لا يرى
احيا وافنى اما بهديه | وسيفه حتى به الدين علا
لو كان من يجحده حيا لما | انكره لانه روح الورى
لم ير في كل البرايا شبهه | في كل عصر قد مضى ولن يرى
فريد خلق الله لا مثل له | اليه في كل الكمال المنتهى

ثم يقدم بعد ذلك (معشراته) فيقول ٠ "اما بعد فهذه قصائد معشرات بل نفحات نبويات نظمتها على حروف المعجم في مدح سيد العرب والعجم ، ابكارا عربيات ، وما هي الا كباقة زهر اهداها احقر المساكين الى اعظم السلاطين بل الامر اعظم من ذلك ، اذ لا مثل له (ص) من الخلق اجمعين ، ولم التزم كغيري ابتداء ابياتها بحروف قوافيها لما في ذلك من التكلف المنهى عنه شرعا وطبعا ، لاخلاله بجودة الشعر مع انه لا يجديه نفعا ، وسميتها " السابقات الجياد في مدح سيد العباد (ص) " ٠٠ ويمضي في ايراد المعشرات ويبلغ بها تسعا وعشرين قصيدة على عدد حروف الهجاء ، بتسع وعشرين قافية ٠

ثم يصدّر الجزء الثاني من كتابه (جواهر البحار في فضائل النبي المختار) بقصيدة تبلغ اربعة عشر بيتا ، مطلعها (٢)

للمصطفى نصبت للمجد رايات | من تحتها الخلق احياء واموات

ويختمها بقوله :

وخير اوصافه عبد الاله وان | تمت لديه على الخلق السيادات

---

(١) "سعادة الدارين " ص ٦٦٠ — ٢٧٠ ٠ (٢) (جواهر البحار في فضل النبي المختار) الجزء الثاني ص ٣٦٦ ٠

وفي الجزء الثالث من كتابه (جواهر البحار) يورد قصيدة نظمها في (نعل محمد)(١) استهلها بقوله :

على رأس هـذا الكون نعل محمد   علت فجميع الخلق تحت ظلاله
لدى الطور موسى نودي اخلع واحمد   على العرش لم يؤذن بخلع نعاله

وفي الكلام على كتب ابن تيميه يذكر النبهاني أنه مثل ابن حزم لم يسلم من قلمه احد ، وحين اعترض عليه الامام السبكي ببعض بدعه ، تصدى للتشنيع على السبكي شخصان على عقيدة ابن تيميه نظم كل منهما في ذلك قصيدة طويله في اكثر من مائة بيت، . والقصيدتان مطبوعتان في آخر كتاب (منهاج السنه) فرأى الشيخ يوسف النبهاني ان ينتصف منهما ويقابلهما بعملهما فنظم قصيدة يعارض بها قصيدتيهما .. وقد اثبت فيها استحالـــة الجهة على الله تعالى بدلائل ظاهرة ، وتعرض لجواز الاستغاثة وشد الرحال لزيارة الرسول (ص) بما لا يأباه عقل ولا يمنعه نقل .. ومطلع رده على صاحبي ابن تيميه

الحمد لله حمدا استعد به   لنصرة الحق كي احظى بمطلبه

والقصيدة طويلة تزيد على مائة وخمسين بيتا (٢) ، وهي صورة جدليه من صور الشعـــــر الذي يجنح الى علم الكلام في هذه المرحلة .

واخيرا يورد في القسم الاخير من الجزء الثالث من كتابه (جواهر البحار) قصيدة طويلة في مولد الرسول سماها " النظم البديع في مولد الشفيع " (٣) . وهـــي تخاميس عديدة تملأ ما يزيد عن خمس عشرة صفحة كبيرة :

تلك هي الموضوعات الدينية التي طرقها الشيخ يوسف النبهاني في شعره، او هي معظمها ، وهي ثمرة ثقافته الازهرية ، والثقافة التي ورثها عن والده .. وعلى الرغم من انها جاءت في صياغة تقليدية جاءت ثمرة الانفصال عن الحياة ، الا انها لها الفضل في تطويع الشكل الشعري تطويعا متسعا بحيث يشمل كل الاغراض .. ورغم أن تركيب القصيدة كان امتدادا للقديم الا ان هذه الافاضة ، وهذا النفس الطويل كان يمثـــل اتجاها دينيا في هذه المرحلة الاولى من النهضة في حياة الشعر !

فهذا التصدير الشعري للكتب ، وهذه الخاتمة الشعرية في مؤلفاتـــه ، ظاهرة من ظواهر هذه النهضة ، كظاهرة تقارض الثناء ، ثم هذه التخاميس الـــــتي تستوعب الاغراض الدينية فيها مثالة الشكل مما يجعل الشعر اقرب ما يكون الى انغام المتصوفة ..

---

(١) (جواهر البحار) الجزء الثالث ص ١٤٨ . (٢) (جواهر البحار) الجزء الثالـــــث ص ١٢٢٢ ــ ١٢٢٨ (٣) (جواهر البحار) الجزء الثالث ص ١٢٥٨ ــ ١٢٧٤ .

ولقد بلغ به هيامه الديني حدا دفع به الى استعمال اغراض غريبه (كتصل محمــد)٠٠ وقد استطاع الشكل الشعري أن يحمل له هذا الجدل الكلامي الذى جعله مــدار شعره في موءازرته للسبكي ، والرد على ابن تيميه وصاحبيه ٠ كل هذه الموضوعات قديمة ولكن احياءها شعرا ليس بالامر الهين ٠٠ وقصيدته الطويلة في معارضة "بانت سعاد" تحمل لنا تلك المقدرة التعبيرية القديمة التي مضى عليها اجيال دون ان نظفر بشيء منها ٠٠ وكثرة تداوله هذه الاوزان في الشعر جعل الاطار الشعرى لديه مرنا يتسع ويضيق كما يريد له اتساعا وضيقا، ولهذا ظهرت على اسلوبه الشكلي صقلة وجــودة عبارة وخصب في **الالفاظ** وتنوع في القوافي ٠٠ ولعل هذه الرياضة في تشكيل المعانــي حسب قوافي الابجديه جميعها جعله لاعب الفاظ ماهر وبطل اشكال تعبــيريــة (مطاطة) ٠٠ ومن هنا كانت اهميته رائدا من رواد هذه النهضة ٠

ويشبهه في شيء من ذلك الشاعر محمود حمدى نجم في قصيدته الطويلــــة (تشطير البردة الشريفة) المطبوعة في القدس سنة ١٩٠٤ ٠

والشيخ النبهاني نفسه حين خرج من عزلته ومضى الى الاستانة ، واتصل بحياة الناس هناك ولمس الصراع ، ولمع في ذهنه ومض اتجاه جديد لم يخذله الشكــل التعبيرى بل احسن اداءه كأنما هو غارق في هذا المتجه منذ مطلع حياته فقال يصف حالة العرب في الاستانه من قصيدة طويله :

ويممت دار الملك احسب انها	الى اليوم لم تبرح الى المجد سلما
فألفيتها قد اقفرت من كرامها	ولم يبق فيها الفضل الا توهمــا
والفيت فيها امة عربيــــــة	يرى القوم منها امة الزنج اكرمــا
وما نقموا مني بني العرب خلة	سوى أن خير الخلق لم يك اعجما (١)

وبذلك اصبح يدرك أن (امة عربية) تتحكم بمصيرها التاريخي (امة تركية) ٠ وسنجد ان هذه الومضة كانت بداية مرحلة جديدة او اتجاها جديد في حياة الشعــر ٠٠٠ سنراه يقوى ويشتد عوده في المراحل القادمة ٠٠

وكما كان الاستاذ نخلة زريق ضوءا لامعا في اعقاب هذه المرحلـــــة ، كذلك كانت هذه الومضة بداية اتجاه جديد بدأت في نهاية هذه المرحلة ٠٠ فنحن نعرف أن الشيخ يوسف النبهاني يمم دار الخلافة مرتين : مرة سنة ١٢٩٣ وبقى فيها نحو سنتين ونصف ، ثم عاد اليها سنة ١٢٩٧ واقام فيها سنتين (٢) ٠٠ ولعله ادرك ذلك في المرحلة الثانية ٠٠

---

(١) "القضية العربيه" لاحمد عزت الاعظمي / الجزء الاول / ص ٤٣ (٢) "هادى المريد الى طرق الاسانيد" ص ٥٦ ٠

ونرجو أن نجد امتداد هذه الاضواء الجديدة في المراحل التى تلـــي هذه المرحلة ٠

ولم تكن هذه المرحلة خلوا من تيار الغزل الذى ابتدأ طبيعيا من غير ان تكون عوامل التقليد القديمة ظاهرة عليه ٠٠ وانما ابتدأ مقطوعة قصيرة تقتصر على غرض النسيب وحده دون أن تمتزج به اغراض اخرى غير الحب ٠٠ ففي ٣/ ١٠/ ١٩٠٧ يكتب الاستاذ خليل السكاكيني ، وهو تلميذ الاستاذ نخله زريق ، وكان لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، رسالة شعرية الى سلطانة التي احبها ثم تزوجها فيما بعد يقول فيها :

الى اليوم لم ادر الصبابة والهوى	فما سرني قرب ولا ساءني بعد
حفظت فؤادى من هوى كل غادة	فلم تصبني سعدى ولم تلهني هند
ابيت قرير العين خلوا من الهوى	سواء لدى قلبي التعطف والصد
وكم سمعت اذني ملامة عاشـــــق	وشكوى شج يبكي لها الحجر الصلد
فاحسب شكواه دعابة مــــازح	فلا مهجتي تحنو ولا ادمعي تبدو
ولكن قلبي ما اشد ولاءه	واحفظه للود ان خلص الود
يقيم على العهد الموثق مؤثـــرا	باعزازه من لا يرث له عهـــد
لك اليوم اهديه واني مؤمل	لديك قبولا ليس يعقبه رد
ولا تنكرى منى جوى قد اذابه	فذلك مما قد اثاربه الوجـــد (١)

والاستاذ خليل السكاكيني كان ثمرة من ثمرات (مدرسة الشباب) الانجليزيه الـــتي استدعت الاستاذ نخلة زريق من عكا ، وكانت تدعى (مدرسة صهيون) كذلك ٠

ونحن امام صياغة تقليديه ــ ما في ذلك ريب ــ ولكنها تشتمل علـــى محتوى واقع وحقيقة اصيلة وتجربة حدثت ، لسنا نشم فيها الطابع الاقطاعي ولا قيمه ولا المضمون القديم الموروث في التركيب العربي للقصيدة ٠٠ ومن هنا جاء هذا التيار بهذا الاسلوب في اعقاب المرحلة الاولى ٠٠ وسنراه تنمو سوقه ، وتتفرع اغصانه ، وتورق وتثمر في المراحل التالية ان شاء الله ٠

ان صاحب هذا التعبير هو ابن البرجوازية الصغيره ٠٠ لم يجد فــــي وطنه الصغير ما يهيء له طراوة العيش ٠٠ وحين غلظ عيشه في بلده القدس مضى الى " معترك الحياة الهائل ، الى قرقعة القطارات والترامات ، وعواء البواخر ، وضجيـــج الناس ، وحركة السيارات في نيويورك ، وفي بلدة Rumfold Falls — رمفولد فولز— دخل المعمل ٠٠

---

(١) يوميات السكاكيني / ص ٣

وجرى وراء العربة .. وكان الشغل شاقا .. كان يحمل الصناديق فيها رزم الاوراق كأنها الصخور ، ويتصبب العرق من قدميه وتنبثر يداه وتتسلخ ساعداه ، ويشتغل مع العمال الذين يشتغلون عشر ساعات بدون انقطاع شغلا ، شاقا ثم لا يحصل الواحد اكثر من ريال ونصف في النهار .. ورأى ظلم ارباب الاموال .. ورأى قبح هذه المدينة المستغلة .. (١)

وفي احد الايام حين يفرغ من هذا العمل الشاق يذهب الى ضفة الشلالات حيث يتكسر الماء على الصخور .. ويقف هناك والقمر ماثل امامه في وحدة الليل ، وسكون الطبيعة ، "فيتجرد من حسه ويغيب في عالم الخيال ، ويحس بدبيب الشعر ، فينظم قصيدة يرسلها الى (سلطانه) حبيبته :

وهبت فؤادى فلا ارجعه	وان هان عندكم موضعه
ونطت بكم حبل ودى فمهما	اسأتم الي فلا اقطعه
عهدت ودادكم لا يحول	فما لي اراه عفت اربعه
وكنت اقدر أن مصابي	يشق على قلبكم موقعه
مصاب اذا حل بالحجر الصلد	ذاب وسالت جوى ادمعه
الم فطار فؤادى شعاعا	وما عدت ادرى الذى اصنعه
نهارى ثقيل وليلي طويل	بطيء الكواكب لا اهجعه
ابيت اسامر بدر السماء	وما تكون استطلعه
فلا البدر يوحي بأسراره	ولا نبأ منكم اسمعه
فماذا ترى كان ذنبي ومن ذا	تراه بذنبي استشفعه (٢)

وقد قال هذا الشعر في ١١/ ٧/ ١٩٠٨ فليس من الغرابة ان نجد فيه مميزات ما يسمونها بالمدرسة الرومانسيه او الرومانتيكية في الغرب .. وحتى يتبين لنا اختلاف التعبير نورد للاستاذ خليل السكاكيني نفسه ابياتا قالها سنة ١٩٠٢ "في السيدة جوليا ، ارملة يعقوب الكردى ، يوم كانت ربة الجمال في عصرها :

جلت عن الوصف ما ابهى تجليها	تجلو صدا القلب اذ تبدو مرائيها
ردت لمغرمها سكب الدموع ولم	تشفق عليه فما اقسى تجنيها
لله قامتها الهيفاء ان خطرت	تكاد تذهب روحي من تهاديها
يستعذب الصب في الحب العذاب وكم	يود لو انه بالروح يفديها
انا الضمين لمن في الحب مات اسى	بأن يعود اذا مرت به تيها
بكر متعة يعنو لطلعتها	بدر السماء تعالى الله باريها

---

(١) يوميات السكاكيني ص ٢٩ (٢) يوميات السكاكيني / ص ٣٠ — ٣١ (٣) يوميات السكاكيني ص ٤٠٣ .

وهي اشبه بالبهلوانيات التي سمعناها في مطلع هذه المرحلة ،فقد حرص على ان يتكون من مجموع الحروف الاولى من الابيات حروف اسمها (جوليا ب) ٠٠ وهكذا تفعل الظروف بالتعبير !٠ يتغير حينما تتغير ٠٠ فينكمش حينما تنكمش ، ويتجمد حينما تتجمد ٠٠ ويتحرك حينما تتحرك ٠

ومن الظواهر المألوفة في هذه المرحلة ، بل في نهايتها أن بعض خريجي المدارس كانوا حريصين على أن يتولوا في معاهدهم التي تخرجوا فيها قصائد وداع ؛ كما فعل ذلك اسعاف النشاشيبي في وداعه للمدرسه البطريركية في بيروت ، حيث كتب قصيدته بماء الذهب (١) ٠٠ وكما فعل اسكندر الخوري البيتجالي في وداع المدرسة ذاتها سنة ١٩٠٦ ٠٠ (٢)

ومن شعراء هذه المرحلة الذين قضوا حياتهم خارج هذه البلاد محمد التميمي ، وهو ابن الشيخ احمد التميمي من مدينة الخليل ، وقد اعجب ابراهيم باشا بمواهب والده الشيخ احمد العلميه ، فاخذه معه الى مصر ، وعهد اليه بمنصب الافتاء في الديار المصرية ٠٠ وقد مات عن ولدين : عبد الرحمن المبذر المتلاف الذى بدد ثروة والده الطائلة ، ومحمد الشاعر الاديب الذى ولد سنة ١٨٢٤ م ٠ وقد عين الشاعر محمد في ورشة التصليحات ، وسافر الى الاستانة ، وكان يلتقي بافاضل الرجال ٠ ومنهم الاديب والخطيب الثورى عبد الله النديم ايام اختفائه بالقرشية عند المرحوم احمد باشا المنشاوى ٠٠ وكان النديم يسمى نفسه السيد علي الادريسي اليمني زيادة في الحذر والتخفي ٠٠ ويجالسه كل ليلة ولا يدرى حقيقته ٠٠ وقد رابه شأن النديم المختفي ولم يقم الا وهو موقن بأن جليسه في هذه السنوات هو عبد الله النديم ٠٠ فلما رجع الى بيته كتب اليه :

يا ايها الحبر الذى	كالبحر يبعد ساحله
من كان مثلك فاضلا	نمّت عليه فضائلة

وأرسل البيتين مع الخادم ، فقرأهما النديم ، فارتاع وخشي على نفسه ، فلما جن الليل وجاء التميمي على عادته لقيه بالعناق وكتم امره ٠ وقد توفي سنة ١٩٢٤ ؛ ودفن بالقاهرة ٠ (٣)

---

(١) يوميات السكاكيني / ص ٣٨٢ (٢) ديوان الزفرات ص ٧ (٣) اعلام الادب والفن جزء ٢ ص ٤٣٠ — ٤٣١ ٠

المرحلة الثانية

وتتناول المرحلة الثانية السنوات الممتده بين سنة ١٩٠٨ حيث اعلن الدستور ونهاية الحرب العظمى الاولى ٠٠ تبدأ منذ انفصل الاتراك عن العرب وبدأوا ينظمون استعمارهم بعد ان ذرت رأسها البرجوازيه التركيه ومنذ ان احس العرب بضرورة الدفاع عن مصيرهم واصلاح شوئونهم ٠٠ ومنذ اخذت الجمعيات السياسية العربية تظهر تطالب بالعدل والمساواة من الاتراك اولا ثم تطالب بالاستقلال الذاتي او اللامركزيه الاداريه ثانيا ٠٠ ثم تطالب بالاستقلال التام والانفصال ثالثا ٠٠

وفي منتصف هذه المرحلة استطاعت الحكومة التركيه الاتحادية ان تستعين ببعض الرجعيين مستغلة كره الناس لانكلترا وفرنسا فتوٴسس حزبا سمته (حزب الاصلاح الحقيقي) مدعية أن برنامجه مقاومة الخونه الذين يمهدون السبيل امام الاجانب للاستيلاء على بلادهم ٠٠ وتحت ستار هذا البرنامج ضربت ضربتها وفتكت بحركة التحرر العربية ٠٠ وانتهت بموجة من الارهاب وادت في النهاية الى اعدام زعماء الحركة العربية مما اثمر الاتجاه الذى دفعت اليه الظروف وهو رفع علم الثورة العربية في وجه الاتراك علنا ٠٠

وكان من بين الذين لعبوا ذلك الدور المخزى قبيل الحرب ومن الموٴسسين لذلك الحزب الرسمي ٠٠ عبد الرحمن اليوسف، وفوزى العظم ـ رئيسا ، وشكيب ارسلان ، والشيخ اسعد الشقيرى ، والشيخ عبد العزيز شاويش، وعبد العزيز الثعالبي ٠٠ وكانوا عونا للاستعمار الالماني ٠٠

ازاء ذلك كله سعت بعض الجمعيات السريه في حركة التحرر العربية الى تجمع الجهود بين جميع الطبقات ٠٠ ورأت من الخير استمالة الارستقراطية العربية الى جانب الحركة الوطنيه ٠٠ ولاقت قبولا منهم لان الحكام الاتراك والاقطاعيين منهم كانوا يستأثرون بالاقطاعيات وباخصب الاراضي دون العرب ٠٠ وكانت هذه الارستقراطية في اندماجها بالحركة العربيه قوه حربيه جريئه في مرحلتنا التي نحن بازائها ٠٠ ولكن الاستعمار الغربي حين تسلل الى البلاد عرف كيف يوقع هذه الارستقراطية تحت تأثيره ٠٠ وعرف كيف يربط مصالحها بمصالحه وعرف كيف يجر خلفه اولئك الامراء والاشراف وزعماء البدو والحضر ٠٠

وتنتهي مرحلتنا بانتهاء الحرب وبتوزيع الغنائم بين روٴوس الاموال الانكليزية والاميركية والفرنسيه ٠٠ حين كان نصيب العرب من الغنيمة تأسيس ممالك سلمت ثرواتها الطبيعية كلها للغاصب المحتل لقاء تيجان فارغه واسرة ملك جوفاء واغرقت امانيها القوميه في بحر من الدماء ٠٠٠

وكان مصير وطننا الصغير الوقوع في فكي الاسد البريطاني .. يصرّف اموره كما يحلو له !

تلك هي الخيوط الكبيره السياسيه في مرحلتنا الثانيه .. اما الخيوط الثقافية التي تقع في ذلك الاطار فقد عرفنا في اعقاب المرحلة الاولى من حياة الشعر أن الاستاذ نخله زريق قد كان ظاهره مضوئه في تاريخ تلك المرحلة وعرفنا ثمرة من ثماره وخريجا من الذين تخرجوا على يديه وكان ابن البرجوازيه الصغيره .. اضطربت به الظروف والقت به في مضطرب واسع لم يجن منه الا اضيق العيش والا التعبير الرومانسي الذى خلص من اعباء التعبير التقليدى الاقطاعي وجموده اللغوى .

وكما كان التقاء في السياسة بين البرجوازيه العربيه وبين الارستقراطيه العربيه كذلك كان لقاء بين البرجوازى الصغير السكاكيني في الثقافة وبين سليل الارستقراطيه اسعاف النشاشيبي .. وكما كانت هناك ظروف طبيعيه دفعت بالاستاذ السكاكيني الى أن يتلقى ثقافته في (مدرسة الشبان) .. فقد كانت هناك ظروف طبيعيه مماثله دفعت بالاستاذ اسعاف النشاشيبي الى أن يتلقى ثقافته في (دار الحكمة) ببيروت : الاول استاذه نخله زريق ، والثاني استاذه عبد الله البستاني ..

ولعل اول ما تفتحت عليه اسماع اسعاف هي تلك الاصوات التي كانت تنبعث عن حلقة من الشيوخ تنتظم في دار والده عثمان بن سليمان النشاشيبي ، وكان من ابرز رجالات عصره في العلم وفي الثراء .. وكانت والدته ابنة الملقب بملك البر مصطفى ابي غوش .. وكانت اصداء الفقه واللغة تتردد في تلك المجالس . وكان ينتظم في الحلقة : محمد جار الله ، وعارف الحسيني ، وموسى عقل ، واسعد الامام وراغب الخالدى ، وكامل الحسيني المفتي ، وعثمان النشاشيبي ، ورشيد النشاشيبي ، وعبد السلام الحسيني وغيرهم .. وكان اسعاف منذ صغره يسمع هؤلاء الشيوخ يتقارضون الشعر ، ويتذاكرون الادب ، ومسائل الفقه في دواوينهم .. وليس من شك في ان النشاشيبي الصغير كان يندس احيانا في ثنايا هذه الحلقة .. وتقع في سمعه نوادر اللغة والادب وليس من شك في انه فتن بمنظر الكتب النفيسه مصفوفة في خزانة والده الشيخ وخزائن الشيوخ .. وانما تركت في نفسه اثرا من الاثار التي تنطبع في الصدور ولا تلبث أن تظهر نتائجها فيما بعد .

وقد اقترح الشيخ راغب الخالدى على والد اسعاف أن يرسله الى المدرسة البطريركيه في بيروت حيث مكث اربع سنوات يتلقى العلم على الشيخ عبد الله البستاني والشيخ محي الدين الخياط والشيخ مصطفى الغلاييني وغيرهم ..

فاسحاف الوارث ابن هذا الثراء في المال وفي اللغة وفي الادب وفي الفقه وابن هذه الارستقراطيه .. دفعت به ظروف نشأته الى ان يتلقى اللغة والادب على الاستاذ عبد الله البستاني المشهور بولعه بالتعريب والاساليب القديمة فسرت الى اسحاف عدوى استاذه .. وكان ، الامير شكيب ارسلان وهو الاخر تلميذ عبد الله البستاني ، من الذين سرت اليهم عدوى الاعراب في الكتابة وبغض اساليب المحدثين ، واصبح كلفه متجها الى البحث عن اصول المفردات .

ويلتقي اسحاف الوارث .. والسكاكيني الكادح .. بعد أن عاد الاول الى القدس من بيروت " يحمل قصيدة من نظمه ودّعها مدرسته ، وقد طبعها بماء الذهب وجعل يوزعها على ادباء ذلك الزمان مفتخرا بها .. وحقه ان يفتخر لانه لا ينتظر ممن كان في سنه أن يعمل مثلها .. وحاول أن يتصل بالطبقة المثقفة في ذلك الزمان وقد تخرجوا في ما كان في زمانهم من المدارس الاجنبية الافرنسية او الانكليزية ، وتولوا اعمالا مختلفه .. فمنهم من اعجب به وقابله بالتشجيع ، ومنهم من تبرم به فلم يعره جانب الالتفات .." (١)

واما السكاكيني فقد قابله بالتشجيع واثنى عليه ، فلزمه اسحاف في ليله ونهاره ..

ولعل اوضح ما يمثل هذه المرحلة حكاية رواها الاستاذ السكاكيني (وقعت خصومة شديدة بين اسحاف وبين ابيه .. وكان ابوه قد كتب جانبا **كبيرا** من املاكه على اسم ولده ، وكان ينتظر ان يكون ولده من رجال الاعمال يحافظ على املاكه ويستثمرها ، فوجد انه قد تعلق بالادب ، والادب لا يغني ولا يسمن . وفي ذات يوم بلغه أن ولده باع قطعة ارض في يافا ، فثار جنونه وطلب من البوليس ان يفتش عنه ويلقي القبض عليه ، الى ان ظفر به في باب الخليل فهرب الولد فتبعه الاب والبوليس وامسكوه في السوق الجديدة ، فتجمع الناس ، وذهبنا نحن اصدقاء الولد الى مكان الحادث لعلنا ننقذ الولد او نترضى الاب ، ولكن على غير جدوى .. وكان الولد يصيح " اضرب يا عثمان فخر بلادك ! " ثم **ركب** الاب بغلته وجعل يخاطبني : " يا سكاكيني ! هذه آخرة من يقرأ مقدمة شميل " يعني مقدمة شميّل على مذهب دارون .

قضى اسحاف اياما غير قليله في السجن ، وكنا لا ننقطع عن زيارته ونطيب خاطره ، ولكن تمكن الحقد في صدره على ابيه .

---

(١) يوميات السكاكيني ص ٣٨٢ .

ثم اعلن الدستور فانتفضت الامه وزال القبر والكفن واقبلت على الحياة .
وكنت قد سافرت الى اميركا فلما اعلن الدستور رجعت الى القدس وعاد اسحاف الى ملازمتي في الليل والنهار ، وجعلنا نكتب ما توحيه الظروف ، وجاء حنا العيسى من يافا الى القدس ، وهو من النبل وعزة النفس على جانب عظيم ، فأنشأ مجلة " الاصمعي " ولنا فيها مقالات كثيرة .. وكنا نحن الثلاثة على اتصال مستمر . وكان اسحاف مولعا ببديع الزمان الهمذاني ، ينسج على منواله في كتابته ، وكنت انا مولعا بابي الطيب المتنبي ، وكان حنا العيسى مولعا بالاصمعي .. فتوزعنا كنى هؤلاء الثلاثة : أما اسحاف فكنيناه ابا الفضل ، واما انا فكان نصيبي كنية المتنبي وهي ابو الطيب ، واما حنا العيسى فكنيناه ابا سعيد ، وهي كنية الاصمعي . وعرفنا من ذلك الحين بهذه الكنى وشاعت على الالسنه .

ثم اعلنت الحرب الكبرى ، ومما اذكره له بالشكر والاعجاب أنه كان اذا عرف اننا لا نجد خبزا يحمل شيئا من الطحين على ظهره ويأتي به الينا ! (١)
وحكاية اخرى لها دلالتها في حياة هذه المرحلة .. وذلك انه
"في ١٩١٤/١/١ وكان قد مضى يوم على نزول الطيار الفرنسي **بونيه** في البقعة بالقدس **بجانب** القصر الخرب على طريق بيت لحم .. وقد خرجت القدس باسرها لوداعه ، كما خرجت عصر اليوم السابق الساعة الثالثة والنصف لاستقباله وقد كان عن حضوره عدة فوائد ، منها ان تولدت في الصدور عواطف جديدة سامية ، وحدثت في المدينة حركة فكرية .. الواحد يقول : "يجب ان نطأطيء الرؤوس امام العلم " ، والاخر يقول : "حتام نحن في خمول " ، والاخر" ماذا استفدنا من علومنا وتهافتنا على درس اللغة العربية والتجمل بمظاهر المدنية " الى غير ذلك ، فكأن روحا سماوية هبت على القدس فرفعت الناس ولو الى وقت قصير من الدرك الاسفل الى الجو الاعلى !" (٢)

هذه هي بعض الاضواء الثقافية التي كانت تضوىء هذه المرحلة من حياة الشعر في هذا القطر . ازاء هذه التغيرات في حياة الوطن حدثت اتجاهات جديدة وتبلورت تيارات كانت بعد لم تتبين سبيلها .. وقام صراع في الشعر كما كان قائما في السياسة والمجتمع .. ولم يعد الشعراء المنعزلين ينعمون بعزلتهم فقد اخذت تخزهم عوامل الحياة وخزا .. وكان عليهم أن يعلنوا عن المتجه الذى سيمضون فيه وكان امامهم طريقان : مستقيم واعوج .. وانتظم كل سبيل جماعة منهم ..

---

(١) يوميات السكاكيني ص ٣٨٢ — ٣٨٣ . (٢) يوميات السكاكيني ص ٥٥ .

ونستطيع أن نذكر كثيرين من اسماء الشعراء في هذه المرحلة ‥ وهم اذا قيسوا بشعراء المرحلة الاولى يبلغون اضعافهم عددا٠ فمنهم اسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني ، واسكندر الخوري البتجالي ، والشيخ سعيد الكرمي ، والشيخ صالح التميمي ، ووديع البستاني ، والشيخ ابراهيم الدباغ ، والشيخ سليمان التاجي الفاروقي ، والشيخ محي الدين الملاح ، واللاهوتي الخوري جرجس توما ، والشيخ علي الريماوي والشيخ سليم ابو الاقبال اليعقوبي ، والشيخ محمد رفعت تفاحة ، والشيخ عبد الرحمن عزيز ، وبولس شحادة ، واحمد شاكر الكرمي ٠٠٠

واصبح للشعر اغراض اوثق اتصالا بالحياة من الاغراض التي راجت في المرحلة الاولى ‥ فاصبح الدستور والحرية غرضا من اغراض الشعر ، وكذلك الوظائف وعشاقها ، والاستعمار والخطر الصهيوني والعلم والكدح ، ووصف الطائرة والموضوعات الاجتماعية بانواعها ‥ ، والبنات وما يتمنى لهن ، والسجون ، والوطنيات بانواعها ، والحرب والدعاية ‥ وما الى ذلك من الاغراض٠

ومن هذه الاغراض يتبين لنا ان الشعر قد زج بنفسه في معركة الحياة وانه سلك في ذلك سبيلين : شعر يمثل التيار الصاعد ‥ او اللون المشير الى مستقبل جديد ‥ وشعر يجاري الراقع المعاش ، ويخضع لمقاييسه الفكرية والادبية ‥

ولعله كان من الخير لحياة الشعر في هذه المرحلة ان يتصل اسعاف النشاشيبي الارستقراطي الوارث بالبرجوازي الصغير ابن معلم النجارة خليل السكاكيني ‥ وان يربط حياته بحياته فيكسب التيار الصاعد لسانا قويا كلسان اسعاف ، ويخسر التيار الجامد قوة من قواه الكبيرة !

ومن ثمرة هذا الاتصال قصيدة في اربعة وعشرين بيتا استهلها بقوله :

الحرب مات شعورهم	فاندبه دهرك باكيا
ولّى فولّى بعده	انس وساء مآليا
قد كنت اطمع ان ارى	وطني بحبها زاهيا
فوجدته من كل علم	او علاء خاليا
فرثيته وندبته	وسكبت دمعي غاليا
فسعادتي يا ابن الكرام	وبغيتي ومراميا
أن تصبح الحرب الاذلة	سادة وموالية (١)

---

(١) حل الادباء بشر / ص ٧٤ ــ ٧٥ ٠

وقد اخذ الاحساس بالكيان العربي يملأ نفوس الناس في هذه المرحلة ..
وكان اسعاف من اوائل الذين استجاب احساسهم لما رجوه من منح الدستور فقال
قصيدته في ذكرى فتاة مكدونيا .. وهي قصيدة في الحرية :

اخطري اليوم في الربوع اختيالا لا تخافي من العدو اغتيالا
لا تخافي من كيده لا تخافي ان كيد العدو ولى وزالا

فقد كان الخوف والقلق والكيد والاغتيال يملأ نفوس الناس . فيقول اسعاف :

قد ابدناه بالسيوف المواضي وتركناه عبرة ومثالا
وازلنا في الملك كل فساد وشفينا ما كان داء عضالا
وحمينا حماك من كل باغ رام منا ومنك ماني ينالا

وهكذا ينظر الى مكدونيا نظرة العطف لوقوعها في الظروف نفسها التي وقع فيها وطنه
الصغير .. ثم يروي قصة الدستور .. ويندد بحكم عبد الحميد ظالم البلاد .. وهو
يدرك اهمية الظروف الواحدة .. تلك الرابطة القوية .. ثم يدعو الى التخلص من
آثار عبد الحميد .. ويدرك كيف كان الدين يتخذ أداة تفرقة وتضليل فيحذر الناس
من ذلك ويفضح تبرير محاربة البلقان باسم الدين ..!.. فيقول في كل ذلك :

حسب القوم نائمين وخالا كان هذا الحسبان منه ضلالا
راح يبغي لك الغوائل كيما يحلك الملك والورى والمالا
فهرعنا اليك من كل اوب وكشفنا الخطوب والاهوالا
قد اراد الذى اراد ولكن خيب الله والظبا الامالا
نسى الكامنين في سلنيك يرقبون الشؤون والاحوالا
نسى الاسد انورا ونيازى واخا المجد شوكت المفضالا
فأتوه مزمجرين غضابا واذاقوه شدة ووبالا
تركوا الاهل والديار وساروا يقرعون الهضاب والاجبالا
وانتحوا ظالم البلاد ومردى الناس بغيا والناكث الختالا
انزلوه عن عرشه مستكينا واذلوه في الورى اذلالا
قوضوا من صروحه كل عال فغدت بعد نضرة اطلالا
هلك الظلم يوم راح وولى واتى العدل باهرا مختالا
تلك عقبى البغاة في كل دهر فاحذرن ان تؤول هذا المآلا
قد طلبت الدماء تجرى بحورا فأجبنا ولم نكن بخالا

قلت اني لا انزل الربع حتى　　انظروا الدم هاميا هطالا
فرأيت الذى رأيت وشاهدت　　بعينيك يا فتاة النضالا
قد اتينا ما تطلبين وزدنا　　وجرى الدم في (فروق) وسالا
فأزيلي النصيف عن وجهك البا　　هر حسنا وعانقي ذا الهلالا
انصفيه فقد تقوّس مما　　راعه يا ابنة الكرام وهالا
كان يرجو الوصال منذ زمان　　فأبى الدهر أن ينال الوصالا
انه اليوم يا فتاة هلال　　فاصحبيه وبلغيه الكمالا
ايها الشرق طال نومك فانهض　　للمعالي وصافح الاقبالا
اهجر الجهل والحماية هجرا　　واعد للعلم مرقلا ارقالا
انح ربع الاخاء نحو مجد　　وانبذن الشؤون والاذحالا
اترك الدين في المعابد يبكي　　واحتفل بالفتاة شرق احتفالا
تخذوه يا شرق للظلم سبلا　　وانطلوا وحرفوا الاقوالا
وسعوا بينه وبين فتاة القـــــوم بغيــا آكلـــــو ايكالا
قصدوا هدم سورها فبنوه　　واتوا كي يقصروه فطالا (١)

وهو اسلوب جديد .. وعبارة قوية .. وفهم عميق لاستغلال الدين .. وبذلك فقد عرف اسماف التيار الذى يختاره والسبيل التي سيسلكها والاتجاه الذى يمضي فيه ... ومن هنا كان وعيه على خطط الاستعمار مبكرا .. وكان من اوائل الذين احسوا بالخطر المحدق بفلسطين وتنبأوا به .. فيقول في " فلسطين والاستعمار الاجنبي "

يا فتاة الحي جودى بالدماء　　بدل الدمع اذا رمت البكاء
فلقد ولت (فلسطين) ولم　　يبق يا اخت العلى غير ذماء
نكبت اقدامها سبل الهدى　　فنرتها للعدى سر شراء
سوف تشكين وتبكين دما　　يوم لا يجدى ولايغني البكاء
فدعوا شحناءكم يا هؤلاء　　وانبذوا البغضاء نبذا والعداء
ان الاستعمار قد جاز المدى　　دون ان يحدوه عن سير عداء
ان هذا الداء قد امسى وباء　　فتلافوه سريعا بالدواء
انما اوطانكم فاستيقظوا　　لا تبيعوها لقوم دخـــلاء

---

(١) النفائس العصرية / الجزء الاول / تشرين الثاني ١٩٠٩ / المجلد الثاني ص ٥٠ - ٥٢

فاعلموا يا قوم ان لم تعلموا ان عقباكم هلاك وفناء
اذكروا ان غركم مالكم عزة الانفس دوما والاباء (١)

والقصيدة تبلغ ستة وعشرين بيتا تتناول الاستعمار الاجنبي وتحذر من اهواله ، ومن نتائج الوقوع في حبائله .. وهو وعي مبكر على خطط المستعمر !

وكان اسعاف داعية من دعاة العلم في هذه المرحلة " فالعصر عصر العلم فكل من لم يهتد به ضل وكل من لم ينتهج مناهجه زل وكل من رجا الفوز في هذه الحياة بغيره خاب رجاؤه وخسرت امنيته ولم تربح !

ان ذا العصر عصر علم وبحث ليس فيه لجاهل من هناء
ان ذا العصر عصر كدح ودأب ليس فيه لخامل من بقاء
تتبارى فيه البرايا وتسعى وتجارى والفوز للاقوياء " (٢)

كل هذه الاغراض يطرقها اسعاف وهو في مرحلة النشوء .. وقد كان شوقي وحافظ في مرحلة النضوج .. وحين يموت تولستوى يشارك اسعاف في رثائه حين يجد حافظا وشوقي يرثيانه :

يا رسول السلام من للسلام يوم تذكى نار الوغى بضرام
من يجير الضعيف بعدك او من يرتجيه في الكارثات الجسام
اظلم الكون حين بنت فبتنا حلفاء الاشجان والالام
كنت للارض نورها وهداها فدهاها هذا الردى بظلام
قرت اليوم اعين الحكام من طغاة الاملاء والظلام
كنت ترميهم بكل مقال دونه ياليون حد الحسام (٣)

ويمضي في هذه القصيدة حتى تبلغ الستة عشر بيتا . !

وحين ضمه وأدباء من الاصدقاء ناد انبرى اليه عاذل يلحيه بقصوره عن السعي وراء تلك الوظائف التي تعبدها الناس ، ويعلمه ان السعادة كل السعادة والمجد كل المجد في التربع في دستها واقتعاد مطاياها ، فاجابه بما اجابه ، واراه خطل قوله وضلال رأيه ، ثم اخذ يراعة وكتب الابيات الاتية :

عشقوا الوظائف خلة لهداهمو ورأوا بها العلياء شامخة الذرى
خالوا السعادة عندها او ما دروا ان الرزايا في الوظائف والشقا
لم يبغها الا الذى هو جاهل بحقائق الاكوان مأفون الحجى

---

(١) النفائس العصرية / الجزء الثاني عشر من شهر تشرين الاول سنة ١٩١٠ / المجلد الثاني ص ٥٧٦ ــ ٥٧٧ (٢) النفائس العصرية / السنة الثالثة ١٩١١ / الجزء الاول ص ٤٣ ــ ٤٤ (٣) النفائس العصرية / السنة الثالثة / الجزء الاول ص ٢٣ .

نبذ الصناعة والتجارة والزرا عة موئثرا يا ويله مرّ الجنى
كيف ارتجاها وهي جد ذميمة وا بابها وهي التي تزجي البلا
تدعو العزيز الى المهانة والمذلة شر ما كرث الفتى
انا والابا ومروءة امويه لا انتحي ربعا لها طول المدى
انى تروم وانت تعلم شيمتي أن اهبطن يا صاح قاعا مجتوى
فيه الثعالب والذئاب وكل من تدريه ممن خان رقدها او درى
ممن شرى شرى الضمير بدرهم وصبا الى دين الخمائل والرشى
انا لا اعايشهم وربك ما حييت وما بدأ نجم بآفاق السما
فحذار أن تلحى حذار فانني يا من جهلت ضرائبي ذات الفتى (١)

ولعل وقع شعر اسعاف في هذه المرحلة ان يتضح من حكاية رواها الكاتب الروسي المعاصر له ثيودورف في جريدة ريتش وهي من الجرائد اليومية المشهورة التي كانت تصدر في بطرسبرغ قال فيها : "اجتمعت ببعض ادباء القدس في منزل الخواجا بندلي الجوزى ، استاذ الاداب العربيه في كلية قازان : وكان معي الخواجا كراتشكوفسكي المستشرق الروسي • وكان قد جاء الشرق في مهمة علمية فأقام في مصر وسوريا وفلسطين لهذه الغاية سنة ونصف السنة ، فاتقن اللغة العربية ، وتخلق بأخلاق العرب وعاداتهم • اما الادباء الذين اشرت اليهم فهم الاستاذ خليل السكاكيني ، والشاعر الكاتب اسعاف النشاشيبي ، وارستقراطي من سلالة الفاتحين جميل الخالدي ، وكان حديثنا بعضه بالفرنسية وبعضه بالانكليزية واكثره بالعربيه ، وكان رفيقي المستشرق وصاحب المنزل يترجمان الحديث • • وكنت اسمع وأنا مسرور مرتاح حديث هوءلاء الشبان المتقدين ذكاء وحماسة ووطنية • • وقد علمت امورا كثيرة خطيره مما لا نعلمه نحن الاوروبيين عن هذه الامة العظيمة بتقاليدها ، وتاريخها ، وآدابها ، ولا يخفى أن جمهور السياح الاوروبيين اذا كتبوا شيئا عن سوريا وفلسطين انما يلتقطون ذلك من افواه الحوذيين والحمالين والباعة المتجولين ، وغيرهم ممن يضاهون هذه الطبقات ، وليت شعرى ماذا يكتسبون من الحقائق اخذا عن هوءلاء الناس • ان السوريين هم جزء من الامة العربية المشهورة بعمرانها وتاريخها وشعرها • وهم الان متأخرون في العلم والادب بسبب استبداد الحكومة السابقة بهم وبغير ذلك من الاسباب التي لا حاجة الى ذكرها • • كنت جالسا اسمع اللهجة العربيه وكأني اسمع انغاما موسيقية جميلة ، يستشف منها القوة والعناد ، وكأن تلك الالفاظ نار تستعر حدة ، ثم لا تلبث ان تخمد فيستولي بعدها التأمل والسكينة • •

---

(١) النفائس العصرية / الجزء الخامس / المجلد الثاني سنة ١٩١٠ ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠ •

وبعد أن مضى هزيع من الليل اقترحت على النشاشيبي ان يسمعنا شيئا من شعره فانشدنا قصيدة في الحرية (ذكرى فتاة مكدونيا) ارتحت اليها كل الارتياح ، واكبرت المعنى العربي العظيم في اللفظ العربي الفخيم وخلت كأني اسمع اصوات جمهور لا صوت فرد ٠٠ كان هذا الشاعر يقرأ قصيدته وفي كل نبرة من نبراته معان عظيمة ، وقد ظهر لي وهو يقرأ نشيطا عنيدا متحمسا ٠ هذا الشاعر عربي قبل كل شيء مسلم ، ولكنه ممتزج مع اخوانه المسيحيين امتزاج الراح والماء " (١)

ومن اغراض الشعر في هذه المرحلة القول في السجون ٠٠ فقد كانت الايام ايام حرب عصيبه ٠٠ وكان الناس يؤخذون بالشبهات ٠٠ وكان نصيب الاستاذ خليل السكاكيني في سنة ١٩١٧ ان يساق الى السجن في الشام ٠٠ فيقول في مذكراته :

" من نافذة الغرفة الصغيرة في السجن رأيت شجرات عيد الميلاد تحمل الى البيوت ، فثارت اشجاني واغرورقت اجفاني ٠ ارجو ان تكون سلطانه قد عزمت على نصب شجرة صغيرة لسري" تنيئها بالشموع وتزينها احسن زينه ثم تهديه هدية باسمي لعل عواطفه الرقيقه الطاهره تؤثر في الزمان وفي ابنائه ٠٠ امي" وسري" لا اذكرهما الا بكيت ٠ ويلاه اذا رجعت ولم اجد امّي ٠ مسكينة امي كم صبرت على الجوع والعري رجاء ان يقبل الزمان فتعيش بقية عمرها مجبورة الخاطر ٠ فكان جزاء صبرها أن انفى عنها وعن سائر احبائي بدون ان ارى احدا ٠٠ حاولت اليوم ان انظم بعض ابيات تترجم ما يكنه صدري :

ذكراني وان اكن غير ناس	بزمان جم الولاء مؤاس
ذكراني ايام كنت سعيدا	لا اقاسي من الجوى ما اقاسي
ذكراني وان تصدع قلبي	وتلظت من حرها انفاسي
ذكراني ولا تبالا بدمع	بل نحري واترعت منه كأسي
كيف انسى وحبهم في فؤادي	اينما كنت ثابت الاساس
لا تراني الا رأيت شجيا	قلق الفكر دائم الوسواس
ان شوقي الى ذوي لشوق	علم الله ماله من قياس
ان احاول كتمان شوقي اذا	عته دموعي على جميع الناس
لست اخلو الا تخيلت اني	في بلادي وانهم جلاسي
ان يحل بيننا الفراق ولم	يبق سبيل لم ناهم احساسي
لست اخشى الا الفراق والا	فشديد على الزمان مراسي
كل خطب يهون عندي فاني	ان تجل الخطوب طود راس" (٢)

---

(١) النفائس العصريه / الجزء الرابع / سنة ١٩١١ / السنة الثالثة ص ١٨٩ — ١٩٠ ٠

(٢) يوميات السكاكيني / ص ١١٥ ٠

وهكذا مضت الاغراض الشعرية متصلة بالحياة وبحياة الشعراء الخاصة ..
وهي اغراض لم نكن نجدها في المرحلة الاولى من حياة الشعر..

ومن اتجه اتجاها وطنيا مناضلا في هذه المرحلة " العالم والشاعر الوطني الشيخ سعيد الكرمي.. وقد ولد في طولكرم سنة ١٨٥١ .. ونشأ في مهد العلم والادب وتلقى دراسته العلميه في الازهر ونال شهادته العاليه .. وكان حجة في العلوم الشرعيه والفقهيه ، فعهد اليه بالافتاء ، في طولكرم .. وهو من الرعيل الوطني الاول الذين تطوعوا لانقاذ الوطن من براثن الاتراك والمستعمرين .. كان معتمدا لحزب اللامركزيه في قضاء بني صعب ، ومن احرار العرب الذين حكمهم السفاح جمال في المجلس العرفي خلال الحرب العالمية الاولى في عاليه . واصدر المجلس العرفي حكم الاعدام على هذا الشيخ .. ثم ابدل بالحكم المؤبد لشيخوخته ، فقال يصف سجنه بموشح طويل .. وقد نشر في كتاب الهلال في شهر مايس سنة ١٩٢٠ بعنوان المشاهير والسجون بقلم عيسى اسكندر المعلوف صاحب مجلة الاثار وهي سلسلة أبحاث تكلم فيها عن اقوال واعمال المعتقلين السياسيين اثناء الحرب العالمية الاولى " (١) ومن هذا الموشح :

بين ناموس وبرغوث وبق ... سال مثل السيل في بقعتها
عندما وافيتها ذقت الاشق ... رغم ما يؤثر من سمعتها

فلو الراحة كانت تشترى ... لشريناها بكل الذهب
فترى الكل يعاني السهرا ... من مساء لاختفاء الشهب

انما حيّر فكري عجبا ... كونهم قد جرّموا مثلي بسرى
والذى لفق عني كذبا ... صلبوه مذ رأوه مفترى

ويلهم لم لم يخافوا العطبا ... من سهام الليل وقت السحر
فدعا المظلوم ان جدّ السرى ... ليس ينجي منه الهرب

وترى الظالم مهما استكبرا ... يأته الموت بأدنى سبب
ظلموا والله فيما حكموا ... حين القوني بسجن ابدى

كذبوا والله فيما زعموا ... ليس في العالم شيء سرمدى
ويلهم اذ انهم ما علموا ... ان مولاى غدا معتمدى

وهو لا يبغي لظلم مظهرا ... ويفاجي اهله بالنوب
وترى الحال سريعا غيرا ... من عناء لصفاء معجب

وتعجب للـــذى قد عملوا   من فعال ذكرها يبكي الجماد

ويلهم كم من برئ قتلـــوا   واستباحوا نهب اموال العباد

وعن العدل بقصد عدلوا   واذا هم كل يوم بازديـــاد

جعلوا فعل الدنايا متجرا   وهو سر الكسب للمكتسب

لا يجلّـون سوى من سكرا   واذا هام ببنـــت العنـب !

وهكذا نجد أننا في هذه المرحله ازاء اغراض جديده وتعبير يبتعد عن التركيب التقليدى للقصيده القديمه بعدا يقرب من بعد الاغراض الجديدة عـــن الاغراض القديمة .

وفي هذه المرحله تتضح اهداف الحركه العربيه ، وتتبلور شعاراتهـــا ، وتنظم الظروف خط سيرها .. وتسمع اصداء ذلك كله في الشعر الذى ورد الينا في اطار هذه الفتره .. ونواجه لهجة جديدة في النضال ..

فالشاعر سليمان التاجي الفاروقي ، الملقب ببدوى فلسطين حين يخاطب السلطان محمد رشاد ، يخاطبه بلهجة قوية يدافع بها عن حقوق العرب ويعـدد مناقبهم وفضلهم على الاتراك العثمانيين .. ولا يخدع بالدستور فهو وسيلة وليـس غاية .. فيقول :

العرب لا شقيت في عهدك العرب   سيوف ملكك والاقلام والكتـب

هم الجبال فما حملتهم حملـوا   لكن اذا مسهم ضيم النفوس ابوا

وكل فضل أتى فالعرب مصـدره   بل اى فضل اتى لم تحوه العرب

كنا نعلّل بالدستـور انفسنـا   بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقـب

حتى اذا جاء لم يعدث لنا حدثا   ولا استجيب لنا في مطلب طلب (١)

ثم يخاطب مبعوثي العرب في مجلس النواب العثماني فيوجه اليهـم بلسان الامة العربية هذه الابيات :

يقولون ان العرب مات رجالها   يقـولون ان الجو اصبح خاليا

يرون سقوط العرب ضربة لازب   وأمرا اراد الله لا شك ماضيا

ابغيا علينا وافتئاتـا واثـره   ويرجون منا بعد هذا تغاضيـا

الا قل لهم لو انصفوا اين مجدهم   وذاك البناء الضخم من كان بانيا

ومن ذا الذى قاد المقانب وارتمى   الى ما وراء الصين في الشرق هاديا

الا ليت شعرى هل ارى العرب امة   يساند بعض بعضها لا تجافيـا

---

(١) محاضرات الموسم الثقافي في الكويت / شعراء الشام والفكره العربيه خلال النصف الاول من القرن العشرين / محاضرة الدكتور امجد الطرابلسي ص ١٤٩ .

ان صاح في وادى الكنانة صائح　　　يبيت له الريح الشآمي داريـــا
وان أن في الصقع اليماني مثقل　　　اجاب له القطر الحجازى باكيـــا (١)

ويقوى الوعي ٠٠ ويظهر في سماء هذا الوطن سحاب قاتم من صنـــع الاستعمار الاوروبي ، ويحس الشعر بهذا السحاب ٠ ويشعر بما يحمل في طياته مـــن خراب ومن نوايا تدميريه وتتحول تلك الابواب الشعريه ذات الاغراض السياسية الـــى اغراض حماسية ومن ثم تندمج كلها وتحمل طابع الوطنيات ٠٠ فيها الوعي العقلي ٠٠ والمنطق الايجابي ٠٠ والحجة القويه ٠٠ وفيها صقلة الوجدان السليم ٠٠ ويتاح لفلسطين في اعقاب هذه المرحلة الاولى شاعر خصيب الوجدان ، يقظ العقل ، واعي الضمـــير يتصل بحياة هذه البلاد السياسيه اتصالا وثيقا يخبر خفاياها وخباياها فلا يبخل على اهلها بالتوعية والتحذير ٠٠ وقد اتصل بالقضيه العربيه الفلسطينيه الداميـــة منذ شهر تشرين الثاني من عام ١٩١٧ وهو الشهر الذى في ثانيه المشؤم صـــدر التصريح البغيض المنسوب الى بلفور وعدا بالوطن القومي لليهود منطويا علـــى " دولة يهودية " ٠٠ هذا الشاعر هو " وديع البستاني " الذى كان يجيد كثيرا مـــن اللغات ٠ وقد تخرج من الجامعة الاميركيه ونال اجازتها في العلوم والاداب سنـــة ١٩١٧ ودرّس العربيه والفرنسيه في الجامعة نفسها سنتين ٠٠ واستقال ليتولـــى امانة الترجمه للقنصليه البريطانيه في في اواخر سنة ١٩٠٩ ٠ وفي سنة ١٩١٧ عيّن مساعدا مدنيا للكولونيل ـ باركر ـ (ابن اخت اللورد كتشنر) وكان اول واكبر موظـــف مدني في حكومة فلسطين ٠٠ وانتهت خدماته سنة ١٩٣٠ بعد صراع طويل في مقاومة الصهيونيه ٠٠ وكان المؤسس للجمعيه الاسلاميه المسيحية التي عرفت فيما بعد باســم " اللجنه العربيه التنفيذيه للمؤتمرات العربيه " الى أن قامت ثورة سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٤٠ فحلت محلها " اللجنة العربية العليا " وكان وديع من اعضاء اللجنة التنفيذيه حـــتى سنة ١٩٣٤ ٠٠ وقد كان عضوا وسكرتيرا للوفد العربي الفلسطيني الثالث الى لندن سنه ١٩٣٧ وهو الوفد الذى كانت مهمته الحيلولة دون ابرام المعاهدة الانكليزيـــة العربية (الحسين ـ كرزن) ٠٠

وقد نال شهادة الحقوق واجازة المحاماة من معهد الحقوق الخـــاص في القدس سنة ١٩٢٠ وتابع الاشتغال بالمحاماة الى ان سلم مكتبه الى ولده المحامي اللامع الاستاذ فؤاد ٠٠

---

(١) محاضرات الموسم الثقافي الثاني / الكويت / شعراء الشام والفكرة العربية / الدكتور امجد الطرابلسي ٠

ومن هنا كان يرقب الاحداث السياسية عن كثب.. فقد رأى على باب غرفة في سراى يافا لوحة " الجمعية اليهودية ـ الرئيس الملازم مكرورى " فرأى فيها نواة الدولة اليهودية .. فقال في هذه الدولة الرضيع في الشهر الذى صدر فيه تصريح بلفور :

تريدونها جدّا وجدّا اقولها	من اليوم سرا ان اردتم او جهرا
فتحنا لكم صدرا مددنا لكم يدا	واني لاخشى ان تديروا لنا ظهرا
عرفت طريق الهند من باب طارق	الى عدن عبر القناة ولا نكرا
فأن تحسبونا الجسر يبنيه عابر	فلا تهدموه في الطريق لكم جسرا
ارى هوّة تزداد عمقا سحيقة	على عدوة انتم ونحن على الاخرى
ارى الوطن القومي يعلو بناؤه ،	ارى غرفة في القصر تحجبه قصرا
وذكرهم ذكرا ولست مسيطارا	مخافة يوم فيه لا تنفع الذكرى (١)

وهكذا دخل الشعر ميدان المعركة ، وحمل رسالة جليلة الشأن ، فاخذ يرسل بصره الوجداني في اعماق القضايا ، واخذ يكشف للناس مواطيء اقدامهم ، وينطلق معهم في كفاحهم ، يرسم لهم خط سيرهم !

وحين اخذت خيوط القضية تتجمع لتنسج شباكها المهلكة اشارت اصبع الشعر الوجدانية فكشفت عن الايدى التي تنسج تلك الخيوط .. فقد اقيم الاجتماع الرسمي الذى عقد في دار الحكمة بيافا لسماع بيان الدكتور حاييم وايزمن رئيس اللجنة الصهيونية .. ودعى الى الاجتماع اعيان العرب بيافا ، اسوة باجتماعين سبقاه : الاول في القاهرة في بيت الدكتور فارس نمر ، والثاني في القدس في منزل حاكمها العسكرى رونالد ستوروس المشهور .. وكان قول الزعيم الصهيوني ـ على الناعم ـ ما مآله : لسنا بآتين انما نحن عائدون ، وبلاد فلسطين وطننا القومي ، نعود اليها بشوق عظيم ، وعيوننا ونحن اربعة عشر مليونا منصبة على هذا البيت ـ البيت القومي ـ لم ينسنا حبها البعاد واليها المعاد . وقد سمى الشاعر وديع البستاني الخطبة الخرساء خطبة الدكتور وايزمن هذه **الخرساء**، لان الزعيم الصهيوني سكت ، واطرق ولم يفه بكلمة عندما سأله الشاعر : ما المراد باللفظتين الانكليزيتين وترجمتهما (الوطن القومي) تعريفا وتحديدا ؟ وكان الزعيم قد اصر ان يكون الشاعر المترجم لبيانه . فلما سكت ، وطال سكوته ، تكلم عضو من اعضاء اللجنة المسيولاني ، بالفرنسية ، ففسر قائلا : ان اليهود يودون ان يجتمعوا في فلسطين كما يجتمع اهل البيت الواحد حول " موقد النار " .

---

(١) ديوان الفلسطينيات / انظر كلمة المؤلف / ثم انظر ص ٨٢ .

وكان جواب العرب بلسان القاضي (الشيخ راغب الدجاني) ما جاء في الابيات معنى لا مبنى :

وخطبته الخرساء عندى جوابها ... وما هال قاضي المسلمين غشاشها

اذا هبّت الانواء فالهطل هطلنا ... وليس ليروى الارض منكم رشاشها

متى حان للاقوام يوم حسابها ... يهولكم الهندى ان جاس جاشها

وعدّوا النصارى مسلمين او اعكسوا ... وخط النجاشي ما محته حباشها

الى النار نار البيت والبيت بيتنا ... تريدونه عشوا وانتم فراشها (١)

وهذا الاتصال الوثيق لوديع البستاني بالقضية وبرجالاتها لم يفوّت عليه صغيرة ولا كبيرة منها الا كان للشعر فيها دوره الوجداني :

فحين القى عليه صديقه الشيخ مصطفى الخيرى (رئيس بلدية الرملة) معارضة لقول سديف للسفاح بحضور رجال بني امية :

لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس

فلكم اظهر التودد منهم ... وبهم منكم كحزّ المواسي

وهي :

وكيف تقيلون اليهود عثارهم ... وهم قتلوا يحيى وهم كفروا عيسى

لكم منهم ظهر التودد خدعة ... وفي حلقهم منكم كحزّ بالموس

اجابه الشاعر :

واتى لمّا اتاكم ملك ... ملك يحيى من القبر الرحيما

فطلبتم موته في ذلة ... وعليكم بقى الذّل مقيما

صدق الله الذى انزلها ... آية ان تقرأوا الذكر الحكيما

لستم للسيف الا جزرا ... لستم في نارنا الا هشيما (٢)

وكذلك الامر حين ترد برقية في صيف سنة ١٩١٨ ، ويعلنها الشاعر وديع البستاني ، بحكم وظيفته الرسمية ، على لسان الدلّال في مدينة يافا حيث يقرأ الدلّال نص البرقية ، وكانت النفوس قد اجتاحتها الريب في نية السياسة البريطانية تجاه عرب فلسطين ، يقول الشاعر في موضوع الخلافة العربية ما يلي :

على الاتراك اعلنا جهادا ... وبايعنا الشريف لنا خليفة

اردناه لملك العرب قصرا ... من الشم الممردة المنيفة

---

(١) ديوان الفلسطينيات / الخطبة الخرساء / ص ٨٣ / ٨/ ٥/ ١٩١٨ (٢) ديوان الفلسطينيات / جواب الاطروحة ٠٠ ٩/ ٧/ ١٩١٨ ص ٨٤

ولما راح (بيت الوعد) يبنى — نقضنا حجة القوم السخيفة
فقلتم (تضرب الارياح فيه) — وجاءت نكتة منكم لطيفة
وقد قامت سقيفتهم تعلى — ورايتكم على سطح السقيفة
وقمنا حولها وبنا سؤال — تردده عقيدتنا الضعيفة
اتصرا في الهوا ام بيت شعر — ستبني للشريف يد الحليفة (١)

وفي يوم ٢٤/٧/١٩١٨ اقيمت حفلة كبرى لوضع اساس الجامعة العبرية بالقدس ووضع كل من مطران الانكليز (مكنس) ومفتي القدس (الشيخ كامل الحسيني) حجرا . فسأل الشاعر وديع البستاني سؤالا بالشعر يطلب الجواب من المفتي فجاء الجواب بقلم شقيقه الحاج امين الحسيني .. فنظم الشاعر الجواب ايضا شعرا فكانت قصيدته " الفتوى " مكونة من السؤال والجواب :

افتني بالله بالكعبة بالحجر — الاسود بالركن الاغر
ان علت في عزها شامخة — فوق رأس الطور تلهو بالعبر
وغدت جامعة عبريّة — ونهى الحاخام فيها وامر
ايقول الشيخ والقس اتئد — ان للمطران والمفتي حجر !

الجواب :

يا اخا العرب اتئد حكما ولا — تعجلن باللوم ان امر بدر
اننا نحن بني الشرق لنا — في هراء القول عشق مستمر
ليس في الاقوال خير يرتجى — ارني الفعل والا فازدجر
انما الاعمال مسبار الفتى — ان يكن خيرا اتى او يك شرّ
(ان علت جامعة عبرية — فوق راس الطور تلهو بالعبر)
ولئن راحت يد واضعة — حجرا اسود او كان اغر
اترى ترفعها اقوالنا — ذات بيت الشعر لا بيت الحجر
فدع القول أخا العرب وخذ — معولا وابن معي مجد عمر
وضع اليمنى بيسراي وقم — نحو جيش العرب للعرب انتصر
او فحارب جيش جهل هائل — بظبا العلم وما تحوى البدر
فاذا أنت عن الحرب وعن — نصر جيش العلم تنأى فاستتر (٢)

وكان من ثمرات الغزو الصهيوني ووقوف الاستعمار بجانبه ان تحولت الموالد النبوية الى مهرجانات قومية بتدبير بين مفتي حيفا الشيخ محمد مراد ...

---

(١) ديوان الفلسطينيات / الخلافة العربية / ص ٨٦ (٢) ديوان الفلسطينيات / المولد النبوى / ص ٩٣ .

والشاعر ودين البستاني مستشار الحكومة ـ حكومة فينيقية (كما عرفت حيفا اذ ذاك) وكان يحضر الحفلة جميع الرؤساء الروحيين واعيان النصارى ولم يكن يدعى اليها اليهودى قط .. وهكذا اصبحت الموالد .. مولد النبي محمد ومولد السيد المسيح اعيادا شعبية تقام بمظهر قومي في مدن فلسطين وتسير فيها المواكب عربية صرفة . وقد كان الشاعر سجلا لذلك كله ولكبريات الحوادث ولأهم التطورات الفكرية في فلسطين مهوى افئدة الامة العربية .. ومن هذه الاعياد عيد المولد النبوى في كانون الثاني ١٩١٩ :

عيسى واحمد والورى فلك	قمران نعم الشمس والبدر
هذا قران السعد بينهما	قد ضمّ ميلاديهما شهر (١)

وحين كان يقف الاستعمار في وجه اية حركة فكرية كان الشعر يسجل وقفاته المخزيات .. وقد كان في طليعة المفكرين الفلسطينيين النابهين المتنبهين روحي الخالدى ، وقد وضع كتابا عن الحركة الصهيونية كشف فيه عن غوائل هذه الحركة العنصرية الحربية واخطارها السياسية .. وقبل ان يتاح له طبع مؤلفه النفيس توفاه اليه ربه . وكان الشاعر قد اعدّ ابياتا قالها وهو في القدس لتلقى في اربعين الفقيد حول (الخطر الصهيوني) ولكن الحكومة منعت اقامة الحفلة .. فلا غرو ان لم ينشر ذلك الكتاب .. كذلك كانت الحكومة تخاف على الطفل الرضيع في نعومة اظفاره من اى ريح !

ما رأته العينان لكن نفسي	عرفته وروحه اخت روحي
خالدىّ آثامه فاتنات	تسحر اللب كالمحيّا الصبوح
تتجلى فيها الحقائق نورا	حول وجه الدهر الكلاح الكلوح
ملكات المعنى الشريف رآى	حسنهنّ المحنّي بالتسبيح
لو تجلّين اليهودى صلّى	مؤمنا في محمد والمسيح
انزلوا آية العباب عليهن	وخافوا بأس المقال الصحيح
ان آثاره تدّل عليه	فانشروها والله يرحم روحي (٢)

ومن يوميات الشاعر بيتان بعنوان "تعصر خمرا" .. على اثر حادثة وقعت في سنة ١٩٢٠ حيث اصطحب المندوب السامي الفلسطيني مفتي يافا الى مصنع الخمور اليهودى الكبير في عيون قارة (ريشون لاسيون) وان المفتي جاء بعد المندوب السامي في القاء سلة من العنب في المعصرة ..

---

(١) ديوان الفلسطينيات / المولد النبوى / ص ٩٣ (٢) ديوان الفلسطينيات / الخطر الصهيوني / ص ٩٤ .

وقد بلغا سامع الشيخ المعنى بهما اذ تناقلتهما الالسن .. وكان الشيخ من اصدقاء الشاعر ، وحصر استياءه في نفسه ، وما عاتب صديقه الا منتحلا المجاملة عذرا ومصرحا : إن الاعتذار عن الحضور كان اولى .. والبيتان هما :

يا مفتي الاسلام تحصر خمرة … عند اليهود وما حديت تمودا

انكرت دين محمد ومحمدا … اليوم تحصرها وتشربها غدا

وحين يرى الحكومة تعبث بالمجالس البلدية وتهيء لليهود جوا حرا للانتخابات وتعين لهم ميزانيات سخية وتحرم المدن العربية من رئاسة البلديات يقول الشعر ويبيّن حجة العرب ويكشف عن عبث الحكومة بحقوق العرب وذلك في ابيات عنوانها " الحكم الذاتي " ويعني بها البلديات والمجالس (١)

وعلى اثر انهيار الملك العربي في سوريا ونفي زعماء لبنان بحجة التآمر من ملك سوريا وتسلم هربرت صموئيل لمقاليد الحكم في فلسطين انفسح المجال للدس واحداث ردة في الايمان الوطني فجاءت قصيدة البستاني المولدية تحمل هذه الصورة :

ابكل عام حفلة للمولد … تقضي مراسمها وتنسى في الغد

وتجدّد الذكرى لمجد تالد … والمجد ثاو ليس بالمتجدد

ايامنا تترى تمر ومن لنا … منها بيوم مثل (يوم محمد)

ما حال لون الصبح عن عهده … لكننا في حالة لم تحمد

والامس يوم تقرب لتوحد … واليوم يوم تفرق لتبدد

شتى المذاهب والدروب كثيرة … درب الكنيسة غير درب المسجد

يا للبلاد أأنت وحدت السماء … وربما وغدوت لم تتوحدى

يا ضيعة الاقوام بين تمقدس … وتمدين وتدمشق وتبغدد ! (٢)

ولعل خير ما نختم به هذا التيار الوطني اليقظ في شعر الشاعر وديع البستاني في حدود هذه المرحلة التي نحن بازائها حكاية الرد على الرصافي : وتبدأ الحكاية بكتاب رسمي صادر عن دار الحكومة :

---

(١) ديوان الفلسطينيات / الحكم الذاتي ص ١٠٠ (٢) ديوان الفلسطينيات / المولد النبوي الشريف ص ١٠٣ .

دار الحكومة .. القدس ... في ٢٦ كانون الاول ١٩٢٠

حضرة الفاضل محرر جريدة (او مجلة) الكرمل في حيفا .

لقد عهد اليّ ان ارسل لكم نسخة من الشعر الذى نظمه الشاعر المطبوع السيد معروف الرصافي لفخامة المندوب السامي بمناسبة الخطاب الذى القاه الاستاذ يهودا . وقد تلطف حضرة الشاعر فوافق على نشر هذا الشعر في الجرائد المحليه .. لذلك نرجوكم ان تنشروه في جريدتكم الغراء .

وتفضلوا بقبول احترامي

الامضاء

ماكس نورول

(عن السكرتير المدني)

القصيدة (قصيدة الرصافي) الى هربر صموئيل المعظم :

خطاب يهودا قد دعانا الى الفكر ... وذكّرنا ما نحن منه على ذكر
ومجّد ما للعرب في الغرب من يد ... وما لبني العباس في الشرق من فخر
لدى محفل في القدس بالقوم حافل ... تبوّاه هربر صموئيل في الصدر
دعاهم رئيس القدس ذو الفضل راغب ... اليه فلبوا دعوة من فتى حر
فأمسوا وفي ليل المحاق اجتماعهم ... يحفون من هربر صموئيل بالبدر
فيا ليلة كادت وقد جل قدرها ... تكون على علاتها ليلة القدر
ولمّا تناهى من يهود خطابه ... وقد سرنا من حيث ندري ولا ندري
تصدى له هربر صموئيل ناطقا ... بسحر مقال جلّ عن وصمة السحر
فصدق ما للعرب من تآلد العلا ... وما لهم في العلم من خالد الذكر
وزاد بأن اومى الى ما لصنعهم ... على صخرة البيت المقدس من اثر
وقال وقد اصغى له القوم : اننا ... سنرأب ما اثأته منكم يد الدهر
وننهضكم في منهج العلم نهضة ... مقومة ما اعوج منكم من الامر
فكانت لهذا القوم في القوم هزة ... سرورية من دونها هزة السكر
حنانيك يا هربر صموئيل كم لنا ... على الدهر من حق مضاع ومن وتر
لنا قلب الدهر الخؤون مجنه ... وكرّ علينا لابسا جلدة النمر
واغرى بنا الاحداث مبتكرا لها ... فلم يأتنا الا بحادثة بكر
وقد افنت الايام كل عتادنا ... سوى ما ورثنا من اباء ومن صبر
فلسنا وان عضت بنا اليوم نابها ... نقرّ على ذلّ وننقاد عن ذعر

فمن سامنا قسراعلى الضيم يلقنا	مصاعيب لا نعطي المقادة بالقسر
انا انفس تحيا بثروة عزها	وان نشأت بين الخصاصة والفقر
اذا نحن عاهدنا وفينا ولم نكن	اذا ما ائتمنا جانحين الى الختر
فان شئت يا هربر صموئيل فاختبر	خلائق منا لا تميل الى الغدر
وعدت فأمس القوم بين مشكك	ومنتظر الانجاز منشرح الصدر
فكذب وانت الحر من ساء ظنه	فقد قيل ان الوعد دين على الحر
ولسنا كما قال الاولى يتهموننا	نعادي بني اسرائل في السر والجهر
وكيف وهم اعمامنا واليهم	يمت باسماعيل قدما بنو فهر
واني ارى العربي المعرب ينتمي	قريبا من العبري ينمي الى العبر
وها انا قبل القوم قد جئت معلنا	لك الشكر حتى املاء الارض بالشكر

وابى السيد نجيب نصار صاحب (الكرمل) ان ينشر قصيدة الرصافي الا مردفة بـرد شاف ‥ وما خيّب الشاعر البستاني امل صديقه ‥ فعداليه بالرد ، وكان قد نظمه في دار السيد ميشال خوري ، مراسل هافاس، ومراسل (الف باء) ‥ وآثر صاحب الكرمل ان يلام على تخلفه عن نشر بلاغ الحكومة على أن يؤاخذ على نشر الرد ‥ وظفر بالبلاغ وبالرد مراسل (الف باء) ‥ فارسلهما الى جريدته الدمشقية ‥ نعلم السيد هراري (ابن هراري باشا من كبار يهود مصر) بالرد ، وبارساله الى صحيفة دمشقية ، فرغب الى صاحب الرد الشاعر البستاني ان يحول دون نشره ، وكان السيد هراري المستشار الاقتصادي لحكومة فلسطين ، وبينه وبين الشاعر (وهو يومئذ سكرتير لغرفة التجارة) شأن خطير ‥ فأبرق الى صديقه السيد يوسف العيسى يرجو اليه عدم النشر ‥ ولكن الاستاذ العيسى احترم الصداقة شهرا ، ثم لزمه ان يحترم حرية الصحافة فنشر ‥ وكشف ما استتر ‥ وكانت النتيجة ان فارق شاعر العراق فلسطين مضطرا مختارا لان شبان فلسطين قاموا يهجونه على صفحات جرائدهم ‥ وما كانت ردودهم محدودة بحد ‥ وهذا هو الرد على الرصافي :

خطاب (يهودا) ام عجاب من السحر	وقول الرصافي أم كذاب من الشعر
وحقك ما ادري وادري وبالها	مراوحة بين الرصافة والجسر
وما من عيون للمهى تجلب الهوى	بأرض بها عين الزمان على الحر
ببغداد ، يا معروف بالارض ، بالسما	بربك ، بالاسلام ، بالشفع بالوتر
قريضك من در الكلام فرائد	وأنت ببحر الشعر اعلم بالدر
ولكن هذا البحر بحر سياسة	اذا مد فيه الحق آذن بالجزر
اجل عابر الاردن كان ابن عمنا	ولكننا نرتاب في عابر البحر

ايهجر اوروبا ليبني (بيتـــه) … على قبة ما بين مهدى والقبر
عهدنا نات عباسا بوجه أعـــزة … فكيف لقيت الـذل بالعز والبـ...
اصليت فـي الاقصى صباحا وفي المسا … عشوت من العاشين للرسم والذكر
ويا صاحب الفانوس والسحر نلـــة … رويدك لا ذقت الحلاوة بالمـــر
تذكرنا المجد التليد ومـا تـرى … لنا طارفا من مثل ايامنا الغـر
في الحرب ابلينا بلاء مونقـــا … تسطر نورا فوق الـوية النصـر
وراقهم التقسيم اجرا مـوزعـا … وعز جهاد الحرب عن ذلك الاجر
بلى قصموا وتقى العرى ليحولـوا … على عروة في الرث تنبو عن الـنزر
بلى قسموها لا اثنتين وحيـدة … ولكن الى خمس فخمس الى عشر
فبغداد في قطر ومكة وحـدها … وعكاء في قطر وصيداء في قطـر
وقف بي على الاردن وقفة تـائه … فتحديك اقوال النيفـادع في النهر
تنق : بغرب الماء ملك وشرقـه … ممالك ! بئس الكبر من ذلك الصغر!
وقف بي على الطور المقدس وقفة … نجاوز فيها عالم البحـر والبـر
هنالك للقـبر الكريم كنيسـة … تذكرنا صلب المسيح مدى الدهـر
هنالك للاسلام اول قبلـة … هنالك سـر والحقيقة بالجهـر
فحيكلكم يا للكـرامة مسجـد … وفيه نصلـي في العشية والفجر
فما بالكم تبكـون خلف جـداره … وتـذرون هاتيك الدموع على الصخر
ويا حضرة المندوب يا سامي النهـى … رويدك في نهي رويدك في امـر
وان شئت شكرا انت بالحق اهلـه … فاني مـن بيت الفصاحة في العصر
وما أنت بالراضي بلفـظ منمـق … ولا انت بالمدلي الجزاف بمغـتر
أ أنت صموئيل سموأل اسمنـا … وهل ساد ارض الانكتار بنو فهـر
لئن كنت خصمي في البلاد وحاكمي … فقدرك معروف وتعرف لي قـدري
ومعروف معروف بمأسدة الشـرى … ولكن فن الوكر اعرف بالـوكـر
وقد جئت قبل اليوم مستوفيا لهم … واياك استفتي ومثلك مـن يدري
أنوءمن في بلفور بعـد محمـد … وعيسى وموسى والوزير من الـوزر
وربك ، لا ، فالوحي في الذكر صادق … يكذب ما في الطرس من لوثة الحبر
فما بالهم تاهوا وضلوا وضلـلـوا … ولم يفقهوا ما جاء في حكمة السفر
"اورشليم" دار النشر والحشر حولها … تقومون في يوم القيامة والحشـر (١)

وبذلك ندرك الدور الايجابي الذى قام به الشعر في هذه المرحلة من حياته.

---

(١) ديوان الفلسطينيات / الرد على الرصافي / ص ١٠٤ — ١١٠ .

وكنا نرجو أن نكسب لميدان المعركة ، ولهذا التيار الصاعد ، شاعرا تمرس بالشدائد ، وعرف الخطوب ، وانتصر على معوقات سيره ، واتصل بجذور الثقافة العربية والاسلاميه القديمه ، اتصالا متولها عاشقا ٠٠ وهو الشاعر الشيخ ابراهيم الدباغ ٠٠ وقد ولد في يافا سنة ١٨٥١ ، ونشأ فيها الى سن الشباب ، ثم رحل الى مصر ، واستوطنها حتى وفاته سنة ١٩٤٦ ، وتلقى دراسته العلميه في الازهر ، واشتهر بذكائه وجرأته ، وكان بيته في مصر ملتقى اهل الادب ٠٠ ومن رفاقه حافظ ابراهيم ، وخليل مطران ، وزكي ابو شادى ، وزكي مبارك ٠٠ وكان ابراهيم الدباغ صدر هذه الحلقة الادبيه ، يناظر ويساجل ويروى الشعر وينفث الطرائف من مداعباته ونكته ٠٠

وقد ذكر الشاعر خليل مطران ان الشيخ ابراهيم الدباغ كلف بنظم الشعر ، وهو في الثالثة عشرة ، وكان يقرأ في صغره قصة عنترة ٠٠ ويستظهر كل مايمر من شعر فيها ، وفي قصة الف ليلة وليلة ٠٠ وكان اساتذته في الازهر يصدونه عن قول الشعر ، ولا يقره على معاناته الا استاذه الدرستاوى وجده الشيخ سعيد الشرقاوى ، على انه لم تعقه العوائق عن موالاة النظم الى ان بلغ العشرين ٠٠ ثم يجيد الشعر ما شاء بين العشرين والثلاثين ، سوى أن الاغراض التي شحذت لها قريحته واستخدم في ادائها سجيته لم تكن مما يلائم الغاية السامية التي اراد — حين اكتمال العقل — ان يوجه اليها مراميه في الحياة ٠٠ وقد كان مما نظمه في العقد الثالث من عمره وجمعه بين دفتي كتاب هو الجزء الاول من ديوانه " قصائد مدح بها شيوخه في الازهر ومنهم الاستاذ الامام محمد عبده والعلماء الاعلام بخيت ، وابو خطوة والطويل والامبابي والشربيني والاشموني والقطب النواوى والرفاعي الكبير والنجاتي والدسوقي العربي وراشد امام المعية وسيد علي المرصفي وآخرون ٠٠ هذا الى قصائد أخر هنأ بها السلطان عبد الحميد والخديوى السابق ٠

نهذا النوع من الشعر في ذلك الدور الاول دور رياضته للذهن وشحذه للقريحة لو سألت شاعرنا عن اكثر ما قاله فيه لود أن يبرأ منه فقد آثر لشاعريته بعد ان طوى ذلك الدور وجهة اسمى ٠٠٠ فطفر الى الدور الثاني ٠٠ وقد اقفل باب الغزل والمدح ٠٠ وفتح بابا واسعا للمراثي ٠٠ فكان رثاؤه لمصطفى كامل وسعد زغلول وسليم سركيس ٠٠ وقد كان الطرب متغلغلا في جوانحه فلم يغفل ذكرى احد من مشاهير المغنين الذين توفاهم الله ٠٠ كالشنتورى وخليل محرم وعبده الحامولي وعبد الحي حلمي وسلامة حجازى ٠٠ ثم غلبت عليه نزعة القول في الوطنية والاجتماع وتسجيل الحوادث الكبرى ٠٠ من نزعة الى التصوف ٠٠ على أن مسحة الكآبة والحزن في قصائده قد يتخللها موضع للدعابة كالفرجة يتسرب منها النور بين السحب الكثيفة

فتماوده بادرة المرح الاصيلة في فطرته ويرسل النكتة غير مبال بالموقف ، وقد سمعه الناس على قبر الشيخ سلامه حجازى بعد ابيات من تفجعه عليه يقول :

واسكت الموت منا بلبـــــلا   لو أنه غنـــــاه لم يـــــرده

ثم يقول :

ما مت اذ مت ولكن قضـــى   صديقك الدباغ في جلـــده (١)

ورثاه يوم الاربعين في حفلة جامعة فقال :

أرأيت اذ عبث الزمان بحسنـــه   ومضى بآخر نسمة مـــن فنـــه

من اربعين وأنت في هذا الاسى   في سهده ونهاره او مـــزنه

لم يبتسم لك ساعة عن صفـــوه   يوم ولا افتر الهنا عن سنـه

يبكي الفتى والحـــزن ملء فؤاده   حتى يود خروجه من عينيـــه

حال الاسى في نفسه فأسالهـــا   دمعا ففر مع الكرى عن جفنه

الى ان يقول :

ملأت به الايام اكـــبر حيّز   فتحيّرت ابناؤها في وزنـــه (٢)

ولعل الذى حرمنا هذا اللسان المتمكن في القول في هذه المرحلة فلم يشارك في التيار الصاعد الذى اشرنا اليه واوردنا صورا منه أن شاعرنا نشأ نشأته في مصر ٠٠ حيث كانت منفصلة عن الدولة العثمانية انفصالا مضى عليه زمن طويـــل ٠٠ وابتليت بمشاكل خاصة من جراء الاحتلال البريطاني منذ سنة ١٨٨٢ ٠٠ ولهذا لم تلتفت مصر الى ما كان يحدث في البلاد العثمانيه بوجه عام وفي البلاد العربية بـــوجه خاص ٠٠ فكان تأثرها بها وتأثيرها فيها ضعيفين ٠٠ مع أن جماعات العرب الواعية كانت تتطلع بقلوبها نحو مصر (٣) ٠

من اجل هذا تأخرت مشاركة شاعرنا في احداث العالم العربي عامـــة واحداث وطنه الاول خاصة الى ما بعد هذه المرحلة التي نحن بازائها ٠٠ وقـــد خشينا أن ينحرف الى الاتجاه المضاد للحركة الصاعدة حين رأيناه يعطف علـــى السلطان عبد المجيد ويأسى لخلعه (٤) ٠٠ وحين استقبل ظهور كتاب الحقيقة الدكتور شبلي شميل فزعا جزعا (٥) ٠٠ وفي هذه المرحلة "ابتدأت تدبّ فيه روح التصـــوف والنزعة الى الحكمة وكتبها فأخذ الطريقة على طائفة من شيوخ الطرق ، وقد نظم فـــي التصوف والحكمة كثيرا في ذلك العهد ٠٠ ولكن ما **نظمه** لم يرق له حفظه فضاع فيمـــا ضاع من قصائده ٠٠

---

(١) مقدمة ديوان الطليعة / الجزء الثاني / بقلم خليل مطران / ص ٤ — ٧ (٢) وحي الشاطيء ص ٧٠ (٣) محاضرات في نشوء الفكرة القوميه لساطع الحصري ص ٢١٦ ٠
(٤) الطليعة / الجزء الاول / ص ١٠١ (٥) في ظلال الحرية / ص ٢٠

ونزعته الى التصوف ورفض الدنيا كان حليفا له من نعومة اظفاره الى هذا العهد" (١) ولكنه ما كاد يمضي في السبيل المضاد للحركة الصاعدة حتى آب الى الصواب .. وقفل راجعا قبل ان يبلغ فيها شوطا بعيدا ...

ومن شعراء هذه المرحلة الشيخ صالح التميمي (١٨٧٧ — ١٩٢٢) المولود في نابلس .. حيث نشأ ودرس على اعلام عصره ، واخذ حظه من العلوم العقليه والنقليه واللغة وآدابها .. وكان قاضيا في مجدل غزة .. ثم عين موظفا في المحاكم الشرعية في بيروت . وكانت تعرفه الاوساط العلميه عالما وشاعرا فذا .. وكان له ديـــوان مخطوط .. ضاع فيما ضاع من فلسطين ، ومما يروى له في الغزل :

بدت فأرتني الغصن كيف يميل	بخصر يحاكي السمر وهو نحيل
وأرخت على فجر من الحسن في الدجى	شعورا لذا ليل المحب طويل
شكوت لها ضعفي لطول بعادها	فقالت وطرفي ناعس وعليـــل
فقلت لها مالي أراه اذا رنـــا	علينـــا يحاكي البيض وهو كحيل

ومنها :

مشيت لها لكن دهري عاقـــني	وحظ اخي الاداب منه قليـــل
يعاندني دهري ويبغي تأخري	فيبغي وايديه على تطـــول

وهو القائل :

ولي مجلس عذب نزيه من الاذى يزيل كدورات الحشا ويطـــير (٢)

وفي هذه المرحلة كذلك ، يصرّ الاستاذ اسكندر الخوري البيتجالي اصرارا عنيدا على ممارسة الشعر رغم ضآلة الثروة اللغوية لديه .. وهو يحرّك هذه الثروة في كل مناسبة ويغامر بها في كل جانب ويقامر عليها في كل مجلس لعلها ان تتكاثر ، ولكنها تضيق عن طموحه وعن حركته وعن مجالسه .. فيديرها على هيئات مختلفـــة ويصرفها تصاريف قلقة ، لكنها تعجز عن أداء ما يريد .. رغم ذلك كله يثابر ويصابر ويعاند ويمضي في اصراره ويحملها مالا تحتمل .. وهو رغم هذا الفقر اللغوي مكثار .. لا يعوقه عن الاستمرار في القصيدة انكسار وزن معه ، او تكرار قافية ، او تناقـــض ، او تنافر ، او هلهلة تعبير ، او ضعف حوار ، او اضطراب موسيقى ، او سخف صورة ، او ركاكة مسفة ، او تركيب ضعيف .. ولكنه رغم هذا كله لم ينحرف الى التيار المشدود للوراء في مضمونه او محتوى اشعاره ...

وهو خريج الكلية البطريركية في بيروت .. وهو ابن الكاهن الخـــوري جريس يعقوب استاذ العربية اولا ومدرس العلوم الدينية بعدها في مدرســـة السيمنار الروسي للأناث في بيت جالا .. وقد اصبح الشاعر اسكندر حاكم صلـــح ..

---

(١) اعلام الادب والفن / جزء ٢ ص ١٢٥ .

ومما يروى عنه أنه كان يصور الاحكام نظما .. فهو ابن عتاهية العصر الحديث من حيث الشكل الشعري لا المضمون .. ولعل هيامه بقول الشعر في اي بادرة جعله يتناول اغراضا متعددة .. وله ديوان كامل في هذه المرحلة وحدها ظهرت الطبعة الاولى منه سنة ١٩١٩ سماه " الزفرات " .. وقد قال فيما قاله في المقدمة:

" للشعر انواع وابواب ورتب وطبقات لا اتصدى لها في هذه المقدمة الوجيزه .. غير أن افضل ما يجب ان يصرف الشاعر اليه شاعريته هو الشعر الاجتماعي لانه باشتماله على عبرة مبكية او حادثة مضحكة في سبيل اصلاح المجتمع ، افعل في نفس القارئ او السامع من سواه من انواع الشعر .. بمثل هذا النوع من الشعر جاش صدري فقذفه على لساني قصائد معظمها اجتماعية يتألف منها ديوان ضئيل ..

ومن هنا فهو المكثر من الموضوعات الاجتماعية بحيث تكون الهدف الاول من الشعر في هذه المرحلة .. وهو يعرض هذه الموضوعات الاجتماعية داخل اطار قصصي وبذلك يفتح بابا في هذا المتجه كبير الاهمية مهما تكن معالجته له !

فهذا الاطار القصصي للمحتوى الشعري اتجاه فرضه الشاعر اسكندر الخوري البيتجالي باصراره وتكراره له حتى اصبح سمة من سمات هذه المرحلة من الشعر في فلسطين .. ومن موضوعاته الاجتماعية : الشيخ المتصابي — واحدى طريدات الزمان — والحب والحرب — والغرام سقام — والمرأة في الشرق — ومدينة تشتكي الالم — وهند وقيس — والجندي المسافر — والجندي الفار — والجندي الوحيد — والزوجة العفيفة .. وما يشبههما .

وكان من الطبيعي في ظروف هذه الفترة ان تكون الحرب موضوعا رئيسيا من موضوعات الديوان .. وان تكون كذلك في اطار قصصي .. ومن نا كانت قصائده في هذه السبيل محاولة لتسجيل احداث الحرب بشعر يحمل شيئا من طابع الشعر البطولي .. وقد حاول هذه المحاولة فيما يلي من مراحل .. ولنتخذ له مثلا من امثلة الشعر الاجتماعي قصيدته " الزوجة العفيفة ."

صبية عرب هام فيها (جميل)	وكل جميل للجميل يميل
لها دولة من حسنها ولحاظها	لها دول الارض العظام تدول
وحول محيّاها من الطهر هالة	حواها من الغيد الحسان قليل
رآها فولاها جميل فؤاده	وقال لها ما عن هواك احول
وهي مذ رأته كرست قلبها له	وقالت اديب انه وجميل
ولما تمادى في فؤاديهما الهوى	وجاشت صدور منهما وعقول
اغاثهما سر الزواج فاصبحت	عروسا لها ذات العميد جليل

ومرّ هلال الشهر تتلوه اشهر ... مضت والهنا للعاشقين خليل
ولم يلبثا في غبطة وسعادة ... وعيشة رغد بالرفاه تسيل
الى ان دوى صوت المدافع فجأة ... واعلنت الحرب الضروس طبول
هنالك حل الويل في الناس وانبرى ... الى الناس ضيق مجحف وقتول
هنالك بات الكل في شر حالة ... وباتت سعود العاشقين تزول
وفي ذات يوم بينما الضيق سائد ... اذا بجميل في الفراش عليل
وزوجته قرب الفراش حزينة ... وفي عينها دمن الدلال يجول
يقول لها صبرا سعاد فانما ... سحابة صيف لا اراها تطول
رأيت بأن لا شيء في البيت عندنا ... وان ليس لي للارتزاق سبيل
لهذا بكيت يا سعاد كفى كفى ... فهما قريب سوف يشفى جميل
فقالت وسقم الجفن دبّ لصدرها ... ومن خصرها للجسم دبّ نحول
سعاد ولو بات الشعير غذاءها ... بخير ولو خبز الشعير ثقيل
ولكنها تخشى المجاعة حينما ... (جميل) ترى ان الشعير قليل
وليس لدينا ما نصد ونتقي ... به جوعنا والجوع بات يصول
ولاسيما اني اراك بحاجة ... الى ما به الداء العياء يزول
غدا سوف يأتيك الطبيب فما عسى ... اذا لم ينل شيئا تراه يقول
فاطرق اذا ذاك المريض برأسه ... وقال بلى والطرف منه كليل
بلى قلت حقا يا سعاد فما لنا ... سوى جارنا ذات المسمى خليل
اليه اذهبي قولي له كي يديننا ... (جنيها) وهدى بالخليل فضيل
وراحت الى الجار العروس بذلة ... ولا بدع اذ ان السؤال ذليل
اعادت عليه كل ما قال زوجها ... بطرف خجول والعروس خجول
وقال لها هل تعلمين بانني ... سعاد محب في هواك قتيل
وان لي ما بين الاضالع (حاجة) ... يكون بها مني اليك وصول
سأعطيك مهما شاء قلبك من منى ... واجعل خيراتي عليك تهيل
وما عتمت حسناؤنا حينما وعت ... كلام خليل ان عسراها غفول
وقالت ايا ذا (حاجة) لا تبح بها ... فليس اليها ما حييت سبيل
"لنا صاحب لا ينبغي ان نخونه ... وانت لاخرى صاحب وخليل"
وحيّت خليلا بعد ذاك واسرعت ... الى زوجها والطرف فيه ذبول
وخافت اذا باحت بما جال بينها ... وبين خليل ان يمسّ جميل
فيشتد فيه داؤه ومصابه ... ويعروه من ذاك الحديث جفول

ولكنها قالت له بـرزانـة لعـل خليـلا يا جميل بخيـل
علينا ابى ذات الجنيه مجاوبـا بأن الرغى دون العطاء تحـول
وحينئذ قال المريض بنهـدة لما جاش داء في الضلوع نـزيل
سعاد عدمنا كل عـون وقد دنـا الى القبر مني يا سعاد رحيـل
اليه ارجعي لا تخجلي من لقائه الا ان ذيـات الحياء فضـول
اليه اضرعي واستكثري من سؤاله فما احرز الحاجات الا سـؤول
وراحت سعاد عند ذاك وخوفهـا على زوجها مما اعتراه جـزيـل
ويممت التجار الغـني وطرفها غضيض عليه للـهوان دليـل
واذ ذاك حيّاها وظن بأنهـا اتته لكي يروى الغليل خليـل
فراودها عن نفسها فتراجعـت وقالت اما عنك الضلال يـزول
وقد رجفت اعصابها وتشنجـت مفاصلها والحزن فيهـا قتـول
وآبت على اعقابها نحـو بيتهـا وفي عينها دمع الابـاء يجـول
ولما رآها زوجهـا في كـآبـة وذهل عرته سكتة وذهـول
وادرك سرّ الامر دون سؤالهـا وقال الا ان الخليـل سفيـل
دعيه فما من حـاجة لنقـوده اموت وعرضي يا سعاد نبيـل
واذ ذاك لم يبرح خليـل بدهشة وراع عن الفعل الحرام يميـل
واعجبه منهـا صيـان وعفـة حوامـا من القـوم النساء قليل
وقال بذا تسمو النساء وتهتـدى بتلك التي فيها العفاف اصيـل
وباح لـه كيف ارعوى بعفـافهـا وفي عينه الدمع السخـين يجـول
وطمأن ذيات المريض وعـسـه وقال : اغث بالصفح عني جميـل!
واقسم ان ما دامت الحرب في لظى سيعطى جميلا ما ابتغى وينيـل
وراح معيدا بيت شعر تفوهـت سعاد به وارتد وهو يقـول :
" لنا صاحب لا ينبغي ان نخـونه وانت لاخرى صاحـب وخليـل "

هذا نموذج من النماذج الكثيرة التي يضمها في هذا الاطار القصصي الطويـل العريض .. وقد اكثر من ذكر الحرب واهوالها ونتائجها الاجتماعية حتى اصبـح داعية سلام ، وحين رأى المعاملة السيئة التي عومل بها من دفعوا ابدالهـم العسكرية عندما صدر امر الحكومة الطورانية سنة ١٩١٧ بتجنيدهم وابعادهم الى ما وراء سوريا تشفيا وانتقاما ، فرّ شاعرنا واختبأ في احد الاديرة ، وقد شـدد الطاغية جمال يومئذ في امر ترصد اهل الادب وغيرهم .. وقد قال في ذلـك كله شعرا قصصيا .. وحين انكسر الاتراك بعد معارك شديدة دخل على اثـرها الجيش الانكليزى نظم تخميسا مؤلفا من ست وثلاثين تخميسة استهله بقوله:

مــريض قلبــه موجــع   نبــا بجفــونه المضجــع
اليه الضعف قد اسرع   فبات من الوغى يفــزع

رويــدا ايهــا المدفــع

رأى بالعين ذلـــته   غــداة اجاب دعــوته
بمن يبكــون غربتــه   وينتظــرون عــودته

رويــدا ايهــا المدفــع

فراق الاهل اضنــاه   وبعد الدار اشقــاه
والم القــوم اعمــاه   فخــاب اليوم مسعــاه

رويــدا ايهــا المدفــع

ثلاث سنــين بل اكثــر   قضاها تائها منــــكر
قضاها بالشقا الاكــبر   بجيش خيرة العســـكر

رويــدا ايهــا المدفــع

ويمضي على هذا الاسلوب يسرد الاحداث في الحرب ونتائجها ، ويشمت بالاتراك ، ويحيى الانكليز .. هذا الى غير ذلك من الموضوعات التقليدية التي لم تفلت منه في هذا الديوان .. وهكذا تكاد تعجب لقدرته على هذا العيش الشعرى بنصيــب من الثروة اللغوية ضئيل .. وهو عيش طويل عريض ولكنه ليس عميقا ابدا .. فلــم يقف في وجهه او يعقه خطأ لغوى او شعرى او ركاكة او غير ذلك .. بل كان يمر فوق هذه كلها حتى يستوفي الاطار الذى اراده .. ومن هنا كان رائـــــدا .. وصاحب اتجاه في الشكل وفي المضمون في هذه المرحلة التي نحن بصددها !

ولقد اغرى هذا الاطار القصصي في هذه المرحلة عددا من المترجمين فأخذوا يبحثون عن شعر اوروبي غنائي يصلح ان يوضع في داخله .. فترجــــم الشاعر اسكندر الخورى البيتجالي من الشعر الانكليزى قصيدة ينشدها الانكلــيز بنغم محزن موئثر عن بطولة فتى انقذ الراية البريطانية .. وضحى بحياته ... ولم يكن يعرف القائد ان الذى انقذها كان وحيده .. حتى جثا قربه .. وقد ترجمهــا شعرا (١)

وكذلك فعل بولس شحادة حين عرب شعرا قصيدة انكليزية بعنوان " الواجب " ونقلها في اطارها القصصي ، واستهلها بمقدمة من عنده فقال :

---

(١) انظر الاصل الانكليزى والترجمة في ديوان الافراح ص ١٣ — ١٧ .

خلّ عنك البكا وذم الزمان ... يا اميرا دانت اليه المعاني
ودع الخيل والعرامس والبيد ... ووخز القنا القنا وطعن السنان
تلك حال مضت وهذا زمان ... العلم والكهرباء والبرهان
زمن لم يحلم به المتنبي ... وزهير وعنتر وابن هاني
ليس يبقى سوى الحقائق فيه ... تتجلى كأنها القمران
ايها الناس انتم في جهاد ... مستمر الى مدى الدوران
فاذا الضعف خالط المرء اضحى ... مطمح الاغنياء والشجعان
واذا شئت ان تعيش قويا ... ذا فؤاد صلد وذا سلطان
فاستمع قصة جرت واتخذ منها عظات على مدى الازمان

. . . .

في بلاد التاميز حيث الجواري ... مالئات البحور والخلجان
مرّ نهر عليه جسر كبير ... متقن الوضع كامل البنيان
وعلى نفسه يدار سريعا ... بانتظام وغاية الاتقان
وعلى النهر عاش كهل فقير ... ليدير الجسر العجيب الشان
وله ابن وزوجة خصها الله ... بفضل المعروف والاحسان

ويمضي في القصة .. حتى :

فتح الجسر الابن طيشا وجهلا ... ومشى فوقه بكل أمان

ثم يجيء القطار .. ويشهد الكهل ابنه على الجسر المفتوح .. فيبقى في حيرة وارتباك ان الموت ينتظر الركاب ان لم يقفل الجسر .. وان اقفله وقع ابنه ..

بينما كان حائرا خائر العز ... م شديد البحران والخفقان
ايقظته ام الغلام بصوت ... وقعه كالرعود في الاذان

اغلق الجسر واترك الابن يغرق

فاغلق الجسر .. وانقذ القطار .. ثم رمى بنفسه في النهر .. والام تصلي من اجل ابنها .. ثم احضرت حبلا طويلا .. كان فيه النجاة للزوج والابن .. ثم ختم القصة :

هكذا تصلح البلاد وتحيا ... ويعيش الانسان للانسان
هكذا هكذا تسود البرايا ... وهي ترقى في سلم العمران (١)

تلك هي روح العصر في هذه المرحلة .. عرفها بولس شحادة في مقدمة الترجمة الشعرية : فالزمان زمان العلم ...

---

(١) النفائس العصريه / الجزء الثالث/ السنة السادسة ١٩١٤ ص ١٤٦ ــ ١٤٨.

ومن هنا نرى في القدس جرجس الخوري ايوب في هذه المرحلة يتمنى لابنته:

اتمنى لابنتي عقــلا سليمــا ينبذ الوهم ويهديها السبيــلا
ذات علــم وذكاء ونشــاط وخصــال صالحات لن تــزولا
فاذا ما جائني يوما جهــول ساحبــا في المال والجاه ذيولا
وابتغى مــني امــرا مستحيــلا لست ارضاه بمحاليها بديــلا (١)

اليس في هذه القيم الاجتماعية تحوّل وتغير عن القيم الاولى ؟! ان التغيير الذى حدث في الطبقات الاجتماعيه كان له صداه الذى تراه في هذا الشعر وامثاله !

حتى الشعراء من علماء الدين رأيناهم يتأثرون بروح العصر ·· وتهتز مشاعرهم حينما يرون ظاهرة من ظواهر العلم ·· فالشيخ علي الريماوى حين شاهد طيارة مارك بونيه تحلق في سماء القدس ·· ويتجمع حولها — حين تهبط — الاهلون على اختلاف طبقاتهم يقول قصيدة طويله يسميها "احدى عجائب العصر"

طار في الجو فاستثار العقــولا وانتهــى للسمــاء الا قليــلا
طار حتى تراه للشمس طيفــا او تراه لطيفهــا اكليـــلا
طار كالنسر اى رويدا رويـــدا ثم رام الفضــاء ميلا فميــلا
وصل الشام من بــلاد فرنســا في ثلاث فهللوا تهليـــلا
مـرّ كالبرق بالفرات فبينـــا أن تلقّت كان ام النيـــلا
ظنّ قوم ان السماوات غضــبى فاستشــاطت وهــولت تهويــلا
ثم قالوا هذا سليمان قــد عــا د وعادت آيات اســرائيــلا
ذلك العلم لا سليمان كـــم للعلم فينا من معجزات اولــى
ليس في العلــم مستحيـــل ولا صــحّ لــقوم ان يحصروا التفضيلا
ايه يا علــم ما احيــلاك لــولا انني غــاضب عليـــك طـــويــلا
انمــا انت للحياة ظلــم انــت تبيــد الورى قبيــلا قبيـــلا
انما انت للسلام فلم انـــت لهـــذى الحروب كنت الرسـولا
انت لولاك ما رأينــا بـــوقـت د ردنوطا ومــن يرى المستحيــلا
شيد قصــر الســلام لكن بقــوا تك يا علــم لم يكــن مأهولا
بك منا عفت بـــلاد ولـــولا ك لما اصبحـــت قفارا طلــولا
لســت وحدى غضبان ، قبــلي تــولستــوى كرأيي يــراك امرا مهــولا

---

(١) النفائس العصرية / الجزء الرابع / السنة السادسة ١٩١٤ ص ٢١٢ — ٢١٣

انت اهلكت قومه في سبريا ومـلأت البلاد منهم عويلا
لو هنا قد وقفت هان ولكن بـنت طوغو قد اغرق الاسطولا
هذه منك في الورى سيئات قيل هذا فهل ترى تأويلا
قال هذا مني صحيح ولكن ان طبع الوجود ما قد قيلا
انا نور ازلت كل ظلام وكشفت المعلوم والمجهولا
قام روسو باسمي وقام شكسبير وكل يهدي الى السبيلا
وتولستوى نفسه قد دعا لي فغدا عند قومه نبيلا
او ما قد فتحت باب المعالي او ما قد انرت هذي العقولا
او ما قد عمرت في الغرب والشرق بلادا اصبحن ظلا ظليلا
بي هذا الانسان اصبح انسانا قؤولا كما يشاء فعولا
بي طار الطيار (بونيه) حتى كاد يبغي على السماك نزولا
سوف يلقى المريخ يوما ويمسي عند سكانه الكرام نزيلا
ذاك فعلي وهذه حسناتي ما ذنوبي ان عاد شعب جهولا
ايه بونيه كم علوت جبالا في الفيافي وكم هبطت سهولا
وبحارا صادمتها ام رياحا وشمالا غالبتها ام قبولا
انما انت يافتى كيف اصبحت كبيرا وكيف صرت جليلا
قمت بالجد والجهاد فجاوزت طوق الزمان قيلا فقيلا
طرت في الجو تبتغي لفرنسا فوق هام الافلاك منك مقيلا
هكذا هكذا الشعوب فان طالت علاء فحقها ان تطولا
ايه يا شرق كم تنام تريد المجد عفوا وان تنال السولا
دون المجد في السماء فان طرت حري ان تدرك المأمولا
انت تلهو بالاختلاف ويلهو غيرك اليوم بالعلاء بديلا
كيف تعلو ولا تريد اتحادا كيف ترقى وانت لاه خمولا
كل قوم لهم سبيل الى المجد فماذا صنعت حتى نقولا
قد عذرناك بالخطوب فهل انت مريد الى المعالي وصولا (١)

وهكذا يحمل الشعر في هذه المرحلة كل القيم التي جدّت في الحياة السياسية والاجتماعيه والفكريه .. ويجسم طموح الشعب وتطلعه لحياة يرف فيها جناح السلام والامن والطمأنينة والمحبة والعلم الطامح الى الوصول للمريخ والكشف عن كل مجهول ..

---

(١) النفائس المصرية / الجزء الاول / السنة السادسة ١٩١٤ ص ٥٢ .

وهو يعبر عن هذا كله بلغة عربية سليمة وشكل مغاير للتركيب التقليدى الموروث للقصيدة العربيه .. ونرى فرق ما بين الاغراض الشعرية في المرحلة الاولى والاغراض الشعريه في المرحلة الثانية .. وهذا لا يعني ان الاغراض الاولى قد اختفت كلية من المرحلة الثانية .. فان منها ما لا يزال يجد له سوقا في هذه المرحلة .. ولكن البهلوانيات التي رأيناها في اللغة قد اخذت تنقرض في الشكل التعبيرى لهذه المرحلة ..

ونحن حين نجد غرضا تقليديا قديما في هذه المرحلة الثانية نجده ايضا قد عرض علينا في شكل تقليدى كذلك من حيث التعبير .. ولسنا بذلك نغالي وانما نحن نتتبع الواقع .. فقصيدة الريماوى في الطيارة تختلف اختلافا كليا في البناء والتركيب عن قصيدته نفسه التقليديه في تكريم العالم جورجي زيدان في الرابع من شهر آب سنة ١٩١٣ حيث اقيمت في القدس حفلة نادرة المثال اذ تألفت لذلك لجنة من بعض الادباء ، وقد غصت ردهة فندق الخواجات مرقس بجمهور كبير من المدعوين والمدعوات ، من نخبة اهل العلم والادب والفضل ، وتليت خطب وقصائد ترحيبية لفريق من الادباء .. ومنها قصيدة الشيخ علي الريماوى :

خطرت فقلت قضيب بان — وبدت فقلت البدر بان
ورنت فقلت لها ولى — في محرض الاجفان شان
يا بنت أنت من الورى — ام انت جئت من الجنان
طرفاك قد فعلا بقلب — ب الصب فعل العندوان
لم ادر ما سأل الفؤا — د وما اجاب الحاجبان
لحظات مهما هددا — ني لم اقل لهما امان
ما كنت بالقاسي ولكن — قل تنصفنا الحسان
زيدان يا رب الفضا — ئل والبراعة واللسان
يهنيك هذا المهرجا — ن فأنت زين المهرجان

ويمضي في الثناء حتى يقول :

لو ان في الايام انصا — ما لبست الارجوان
بك رحب البيت المقدس باسما والملتقان
انت المعزلدولة العلم الصحيح ولا مدان
فاذا مدحت مقام فضلك في الورى فانا ابن هان
هذى الخواطر عن بني — قومي وعني ترجمان
جئناك محتفلين نهـ — ديك التحية والتهان

العلم والوطن العزيز هما لعمري الجامعان
والدين لله العلي فان وقت العلم حان
يجب التفاهم والتعا رف والتقارب والحنان
جئناك يا رب التآ ليف الجليلة والحسان
ان قصرّ القول البليـــــــــغ فمنك قد خجل البيان (١)

ثم يختم قصيدته موجها القول الى الفاضلة قرينة زيدان والاديبة كريمته :

واليكما يا قرتي عين الفضيلة والصيان
هذى العقود فانني لكما اقدمها جمان

فحين اختلف الغرض اختلف بناء القصيدة !

اما تيار التراسل بالشعر الذى رأيناه في حياة المرحلة الاولى فقد امتد الى هذه المرحلة ولكن على نطاق اضيق .. ومثله تيار تقارض الثناء. !

فصاحب الفضيلة الشيخ محي الدين الملاح – وكان قاضي محكمة حيفا الشرعية ثم قاضي محكمة يافا .. حين طلب الى الشاعر اسكندر الخوري البيتجالـي ان يرسل له ديوانه الاول / الزفرات / طلب اليه ذلك في بيتين من الشعر وذلك بتاريخ ٢٥/ ٩/ ١٩١٩ .

يا صاحب الزفرات ارسل نسخة او نسختين الي من زفراتكا
واقبل ثناء اخي الوفاء فقد غدا ذا مهجة تصبو الى نفثاتكا

فاجاب الخوري طلبه وارسل اليه :

يا قاضي الاحكام هذى نسخة مني تزف هدية لمقامكـا
ارفق بها واصفح ولا تك قاسيا في الحكم ان الصفح من اخلاقكا

وحين وصلت (الزفرات) الى الشيخ الشاعر افاد بتسلمها بما يأتي :

هي غادة وافت الي هدية تختال في حلل من الاداب
سحرت بالافتها النهى مني وقد نزلت بعيني منزل الاعجاب (٢)

وقد رأينا الثناء في المرحلة الاولى على الشدياق .. وجوائبه .. وسر لياليه .. ولم نفقد هذا اللون من الثناء في المرحلة الثانية .. فقد كتب اللاهوتي الفاضل الخوري جرجس توما ايكونوموس واعظ الكرسي الاورشليمي الارثوذكسي في ابرشية عكا يثني على السيد خليل بيدس ونفائسه فيقول من قصيدة تبلغ الثلاثين بيتا بعنوان " فاتحة الحديث " :

---

(١) النفائس العصرية / جزء ٧ / سنة ٥ ١٩١٣ ص ٣٥٤ – ٣٥٥ (٢) ديوان دقات قلب / ص ١٠٠ .

اهلا بنفائسك الغرا ... برزت بنفائس دريه
يا قوتة فضل قد سطعت ... في اوج معاهد علميه
وكريمة عرب قد جليت ... بملابس فضل قدسية
او شعلة نور قد محقت ... ظلمات الجهل الكلية
قد غابت خمسة اعوام ... وبدت في فجر الحرية
من انقذ ذا الوطن المسكين ... من الافات التركية ؟

وبعد ان يجزل الثناء على بريطانيا (المنقذه) في نظره يقول :

أخليل لك البشرى فانعم ... واسمح لي منك بالنيه
واريد بذاك مقالات ... من لطفك لكن عصريه
بزواج الاكليروس ناد ... واحمل حملات هنديه
فبنانك امضى من رمح ... وجنانك روح عدنيه
شطب من دفترك الالمـــان ولا تخف العثمانية
يا بيدس لا تحذر سوءاً ... فاليوم الدنيا حريــه
ان الاقبال على الموضو ... ع ولو بنكات خلقيه
سيكون له اشهى وقع ... لا شك بمصر وسوريه
تأتيك رسائل من اقصى ... اقطار العالم برقيه
وترن لديك قصائدنا ... لا تخش الدفع مجانيه
ولعل الباز (ابا الاسبوع) ... يجود لكم بالخرجيه
فيضا فرني بمقالات ... عصماء المحتد بازيه
وكذلك رستمنا المشهو ... ر ابو الابيات البكريه
من يخلط هزلا في جد ... بفكاهة روح شعريه
فالناسك من ذاعت عنه ... اعمال عفاف نسكيه
لكن الراهب منبطر ... لشريكة عمر شرعية
والناس رأوا ان الراعي ... من مارس حق الزوجية
فزواج الاكليرس خير ... من فضح امور سريه
ودخول البيت مـــن الابـــواب من الاسرار الدينيه
يا بيدس كانت المولى ... بل حقق فيك الامنيه
ما لاح البدر وفاح الزهر ... شذا انفاس عطريه (١)

---

(١) النفائس العصريه / جزء ٨ سنة ٧ ١٩١٩ ص ٧٥ — ٧٦ه

ثم ظهرت في هذه المرحلة نتيجة لانتشار النوادى والجمعيات والاحتفالات وتزايد الوعي الوطني بذور اتجاه جديد صغير .. هي الاناشيد الوطنيه .. التي اخذ الشعراء في هذه المرحلة يولونها بعض عنايتهم ..

فقد كانت بعض الحفلات في فلسطين تختم بالنشيد الوطني الذى وضعه الاستاذ خليل السكاكيني في جبل الدروز يوم التحق بالجيش العربي ، ومطلعه :

ايها المولى العظيم	فخر كل العرب
ملكك الملك الفخيم	ملت جدك النبي
نحو هذا الملك سيروا	قبل فوت الزمن
وعلى الخصم اغيروا	لخلاص الوطن (١)

وحين طلب النادى العربي في القدس الى الشاعر اسكندر الخورى البيتجالي نظم نشيد حماسي يمثل حنان كل فلسطيني لبلاده كي يقدم للجنة فحص مع الاناشيد التي ترد للنادى من ادباء العرب لتوقع على **الالحان** المطلوبة لبى الطلب ونظم نشيدين (٢) الاول بعنوان :

(الموت في حب الوطن)

يا فلسطين اذكرى دور المحن	واشكريه واشكرى صرف الزمن
انهضانا من دياجير الوسن	علمانا الموت في حب الوطن

ومنه

ليس فينا عيسوى او مسلم	واحد نحن الا فليعلموا
ديننا اوطاننا فليفهموا	اننا عرب تحاشينا الفتن

واما الثاني فبعنوان :

(بلادى ما احيلاها) استهله بقوله :

متى ذكروا فلسطينا	ذكرنا الله والدينا
وموطننا واهلينا	وماضينا وآتينا

متى ذكروا فلسطينا

ويزداد هذا التيار اتساعا في المراحل الاتيه من حياة الشعر في هذا القطر

ونكتفي بهذا القدر للدلالة على هذا التيار الصاعد ، وما دار حوله من روافد صغيرة ..

---

(١) يوميات السكاكيني / ص ١٨٢ (٢) ديوان دقات القلب / ص ٧٢ — ٧٥ .

وليس يعني ذلك أنه لم يكن في هذه المرحلة تيار يشد القافلة الى الوراء اوقع جماعة من الشعراء عن قصد او غير قصد في حبائل السياسة الحميدية .. وخدع الناس بالدعوة الى ابقاء السيطرة العثمانية بحجة الجامعة الاسلامية . هذا التيار الذى استخدم الدين وسيلة من وسائل الرضوخ لسيطرة السلطان والظلم جمعية ... ل ولاستبداد الاتحاديين .

ولعل اوضح ما يشير الى هذا التيار تلك البعثه المؤلفة من "العلماء والفضلاء والوجهاء" التي اختارتها الولايات والالوية في سورية وفلسطين بامر من جمال باشا ناظر البحرية والقائد العام للجيش الرابع المخيم في ربوع سوريـــة .. "ليؤكدوا للترك عواطف الحرب القديمة وهما الشعبان اللذان حميا بيضة الخلافة يدا واحدة منذ اوائل الدولة العباسية" (١) .. وقد بدأوا السير من دمشق في ايلول سنة ١٩١٥ .. وقد سار هذا الوفد السورى الفلسطيني من طريق البر الـى عاصمة السلطنة العثمانية ومنها الى شبه جزيرة كليبولي ليكون داعية نصر وينقل الاخبار الى الاقطار العربية .. وكان عدد الموفودين واحدا وثلاثين رجلا نابوا عن اربعة ملايين من سكان سوريا وفلسطين .

وكان من فلسطين : الشيخ ابراهيم العكي والشيخ عبد الرحمن عزيز — من عكا — .. والشيخ محمد مراد مفتي حيفا .. والشيخ محمد رفعت تفـــاحـة ، وعبد الرحمن الحاج ابراهيم — من نابلس — .. والشيخ طاهر ابو السعود ، والشيخ علي الريماوى — من القدس — .. والشيخ سليم اليعقوبي من يافا .. وقد اختـــار الجيش الرابع الشيخ اسعد الشقيرى الذى اجمع الوفد على أن يعهد اليــــه بالرئاسة .. وقد كان رئيس مجلس التدقيقات الشرعية ومفتي الجيش الرابع" وقد عرف بسعة علمه وشدة عارضته وفصاحة بيانه في اللغتين العربيه والتركية ، ووقوفـــه التام على سياسة القوم ومعرفته بزمانه" (٢)

ولم يترك الوفد الرسمي مكانا في طريقهم لم يصفوه .. فحين انتهى بهم القطار الى جبل الساعات وصفوه .. وممن اجاد في وصفه الشيخ علي الريماوى اذ قال :

اثنية الساعات ويحك لنــا ... من متعب بك قد شكا اوجاعه
ما زلت في صعد وطول هائل ... حتى لقينا منك هول الساعة

---

(١) انظر مقدمة كتاب البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية ص ٣ — ٧
(٢) انظر مقدمة كتاب "البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية" ص ٨ — ٩ .

وقال ابو الاقبال الشيخ سليم اليعقوبي :

جبل الساعات لا كان ولا … كان نبت فيه من ذات النبات
انه اودى بارباب النهى … ورمى بالعقبات العربات
حسبنا فيه عذابا حره … وكفانا منه تلك العقبات

وقال رفعت تفاحة :

جبل الساعات صعب قطعه … كقلوب البيض عند النائبات
يصرع الاعدا اذا ما اقبلت … ويريهم معجزات بينات

ثم رجع الشيخ علي الريماوى الى القول فيه :

لا ارى القول حميدا في الذى … نظمته الشعرا في العقبات
اننا نقصد حربا والذى … يقصد الحرب حرّى بالثبات (١)

وحين صعد الوفد جبال طوروس الشهيره قال فيها الشيخ علي الريماوى :

جبال طوريس هل مطار لمرتقى … سوات لاعلى قمة ومقام
اطلت جبال القدس منك بعيدة … فمن مبلغ عني الحبيب سلامي (٢)

ويبلغ الوفد قصبة صبانجه فيقول الشيخ سليم ابو الاقبال اليعقوبي :

صبانجه دار دونها مصر بهجه … وهل شابهتها في محاسنها مصر
يحيط بها روض به كل مثمر … ويجرى بها من كل ناحية نهر (٣)

وحين وصلوا الاستانه ، دار الخلافه ، وجاء يوم الجمعه .. ذهب الوفد الى جامع الحميديه " دخلوا المسجد بترتيب وانتظام وكان الخليفه الاعظم جالسا في المقصورة الخاصة بحضرته الكريمة في الجامع في مصلى الخلفاء العثمانيين على عادتهم الممدوحه .. وانتهت الصلاة وخرج الوفد من المسجد ووقف تجاه المقصوره السلطانيه ينتظر خروج الخليفه ليحييه تحية الاخلاص لمقامه الاسنى .. فصدرت الاراده بأن ينتظر الوفد جلالته في قصر جيت الهمايوني .. فذهبوا اليه .. وبعد هنيهة صدرت ارادة الخليفة بقبول رجال الوفد فذهبوا الى القصر الخاص ووقفوا بترتيب تام حيث خرج اليهم مولانا السلطان من باب غرفته الخاصة فحيوه بالاجلال والتعظيم .. وهنا خطب الاستاذ اسعد افندى الشقيرى رئيس الوفد خطابا مناسبا لمقام الخلافة الاسنى ، وعرض على الذات السلطانيه الغاية من حضور الوفد ..

---

(١) البعثة العلمية ص ١٢ — ١٣ (٢) البعثة العلمية ص ١٧ (٣) البعثة العلمية ص ٢٤ .

فقال ان الوفد العلمي العربي زار عاصمة الخلافة العظمى والامامة الكبرى ليرفع لاعتاب الخليفة الاعظم اخلاص العلماء والاشراف وسائر الاهالي في سورية وبيروت وفلسطين وحلب ولبنان وملحقاتها ويشخص بعد ذلك الى ساحة الحرب في الدردنيل ليشاهد بأم العين الشجاعة والبسالة والاقدام التي يظهرها آساد العثمانيين وابطال الموحدين في ميادين الوغى وليبلغهم سلام الشعب العثماني في تلك الاصقاع ويظهر ما تكنه صدور الامة الاسلامية من عظيم الشكر والامتنان لاولئك الابطال الذين اتوا من ضروب الشجاعه ما حير الالباب ومن الخوارق ما ادهش العقول دفاعا عن حوزة الخلافة العظمى وبيضة الدين الاسلامي المبين وذكر ما اجراه الجيش الرابع من الاصلاحات في سوريه وفلسطين وما قام به قائده العظيم احمد جمال باشا من الاعمال التي سيزين بها التاريخ الاسلامي " (١)

بهذا اللون من الصغار في النفوس. وهذا الدجل التاريخي تطعن الحركة العربيه، ويستغل الدين، ويدل على خطط جمال باشا هذا الستار اللامع من المداهنه والرياء المتشح بجلباب الدين.. والدين الحقيقي منه براء وكذلك الوطنيه الحقه..

ويقابل الخليفة هذا الدجل بدجل اكبر :

" لقد سررت بمراكم جميعا يا علماء الدين ولاسيما لمصادفة قدومكم لدار الخلافة الاسلامية قرب ختم قراءة البخارى الشريف الذى اقرأه منذ بداية الجهاد حتى اليوم الى لفيف من العلماء الصلحاء.." ثم قال "انه كان مبتهجا جدا من البرقيات التي كانت ترد الى سدته من بلاد العرب تستفسر عن مزاجه الملوكاني الكريم وانه رأى آثار تجليات باهره من ختم البخارى " (٢)

تحت هذا الستار المفضوح من التدجيل المخزي كانت ترتكب كل المظالم بحق الامة العربية.. وباسم "الشعب العثماني " كان الفتك بالعرب مباحا!

ثم تنطلق السنة المديح المخزيه في ولي العهد .. وفي شيخ الاسلام .. ويقول الشيخ اسعد الشقيرى بين يدى صاحب : مولي العهد : " ان اخلاص العرب للسلطنة العثمانيه لا يمكن ان يزلزله مزلزل وان الرابطه الاسلامية متينه بين العنصرين الكبيرين ... وان اليوم السعيد الذى يشرف به صاحب السمو تلك البلاد المقدسة يبث روحا جديده في الاهالي جميعا " (٣)

وانطلق لسان الشيخ علي الريماوى امام ولي العهد :

---

(١) البعثة العلمية " ص ٢٦ — ٣٣ (٢) "البعثة العلمية " ص ٣٢ — ٣٣ .

(٣) "البعثة العلمية " ص ٦٣ .

يا ابن العزيز رعز الدين لا برحت ... منك المعالي تزين العز والدينا
دامت موائدكم مبسوطة لبني الا ... سلام والعلم تلطيفا وتحسينا
مكارما يا ولي العهد قد شهدت ... لها المكارم لا تحتاج تبيينا
انا الوفود تشرفنا بقصركم ... ننمي الصداقة توثيقا وتمكينا
لا زلتم يا بني عثمان في نعم ... خلائف الله طول الدهر آمينا (١)

لقد فرغنا من الدور الذى كان المديح فيه رياضة للسان وتدريبا لآلة البيان ٠٠ واذا بنا نواجه ثناء مخزيا للموائد المبسوطة ٠٠ والقصور المشرفة ٠٠ واثباتا للقيم التي انقرضت والتي تثبت السلطان الظالم وتموه على الناس انه خليفة الله وظله الدائم على الارض ٠٠ اليس في هذا الاتجاه خطورة على سير التيار الصاعد الذى اشرنا الى اصوله السابقة ؟ ان هذا التيار المخزى تيار رجعي يشد الحركة العربية الى الوراء ٠٠٠ انه تيار يحبب الظلم الى الناس ويلقي على ابصارهم غشاوة باسم الدين ٠

وكأن رئيس الوفد الشيخ اسعد الشقيرى قد كشف النقاب عن وجهه ووجه وفده حين قال : " ربما ظن بعض الحاضرين ممن لا علم له باخلاق اعضاء الوفد ولا وقوف عنده على حقائق احوالهم انهم من المداهنين المتملقين الذين يجازفون في مديح الامراء واطراء العظماء تزلفا لهم وطلبا للحظوة عندهم وذلك لكثرة ما سمع منهم من الثناء على القائد العظيم احمد جمال باشا واطرائه ٠٠ " (٢)

واشهد انه قال في نفسه وفي الوفد ما هم اهل له ٠٠ فليسوا الا مجموعة من المداهنين المتملقين الذين يجازفون في مدح الامراء واطراء العظماء تزلفا لهم وطلبا للحظوة عندهم لكثرة ما قالوا واوسعوا القول في الثناء على الظالم جمال باشا واطرائه ٠٠٠

وممن خطب في ارى بروني الشيخ سليم اليعقوبي " ودعا بعض المفاتي والادعية كانت خاصة بهم عقيب كل طعام وعقيب كل اجتماع وزيارة " (٣) ما اقبح استغلال الدين ! ٠٠٠ وكانوا يختمون ادعيتهم " لامير المؤمنين وحامي حمى الدين المبين السلطان ابن السلطان السلطان الغازى محمد رشاد خان ايد الله سرير ملكه الى آخر الدوران ووفق رجال دولته الفخام لما فيه الخير العام " (٤)

---

(١) " البعثة العلميه " ص ٦٧ ـ ٦٨ ٠ (٢) " البعثة العلمية " ص ٩٥ (٣) " البعثة العلمية " ص ١٢١ (٤) " البعثة العلمية " ص ١٧١ ٠

وتتبارى السنة هؤلاء العلماء الشعراء في هذا النوع من الثناء المداهن المتملق فيمتدح الشيخ سليم اليعقوبي رجال الاتحاد والترقي ويمدح عبد الرحمن عزيز السلطان وجيشه والامير علي باشا وسائر العظماء .. ويعود الشيخ سليم اليعقوبي لمدح الامير علي .. ويفصل فعلته الشيخ علي الريماوى ومما يقوله :

لله ليتنا بالانس صافية   بها الوئام تجلى والسرور جلي
لم يطلع البدر في افق السماء بها   لانه من وجوه القوم في خجل (١)

وتعود البهلوانيات اللفظية سيرتها الاولى في هذه المداهنات .. فحين يمدح الشيخ سليم اليعقوبي دولة انور باشا يلجأ اليها فيقول :

انور انت بالرقي جدير   كل ما فيك للسعادة مظهر
ان يك البدر في السماء منيرا   فوزير الحربية اليوم انور (٢)

وقد ظفر هذا التيار الذى يشد الحركة العربية للوراء بمجموعة شعرية ليست قليلة .. ففي كل مناسبة نجد شعر الثناء على جمعية الاتحاد والترقي ورجالها . كأبيات عبد الرحمن عزيز (٣) .. وكقصيدة الشيخ علي الريماوى التي تبلغ اثنين وثلاثين بيتا (٤) ومطلعها :

تيقظتم حزما فايقظتم الدهرا   واعلمتم عزما ناد هشتم العصرا

ويقول فيها :

سلام على الدستور حلوا مذاقه   وان كان بعض الناس قد ذاقه مرا

وقصيدته الاخرى في شيخ الاسلام خيرى افندى ، وابياتها تبلغ ستة وعشرين ومطلعها (٥)

أسماحة الشيخ الجليل سلام   لك من صفاتك رفعة ومقام

وكل ذلك لا يخرج عن المعاني التقليدية والمبالغات المعهودة في هذا الضرب الموروث من هذا الغرض الذى شقى به تاريخ الادب العربي في عصوره المختلفة .. وحتى تتبين اسلوب هذا الوفد في الثناء نختار اقوى قصيدة واطولها لتكون انموذجا لهذا الاتجاه نختم بها القول فيه وفي هذه المرحلة من حياة الشعر .. هي من نظم الشيخ علي الريماوى المقدسي " يخاطب بها صاحب الدولة والاقبال احمد جمال باشا الافخم " (٦) وهي في " عودة الوفد "

---

(١) " البعثة العلمية " ص ١٨٣ — ١٩٦ (٢) " البعثة العلمية " ص ١٩٨ (٣) " البعثة العلمية " ص ٢٠٧ — ٢٠٨ (٤) " البعثة العلمية " ص ٢٠٨ — ٢١١ (٥) " البعثة العلمية " ص ٢٨٣ — ٢٨٤ . (٦)

سرى وفدك الغازى ومثلك يوفد　　وعاد بملء البشر والسعود احمد
سرى منك مضمون النجاح مسيره　　وطالعه يا كوكب السعد (اسعد)
سرى لمقر الملك والدين قاصدا　　كما يقصد البيت العتيق الموحد
وجاء الى دار الخلافة والتي　　لها العلم العالي هلال وفرقد
فقامت له صفوا وقد عهدت وما　　الى غيره كانت تقوم وتقعد
اتى يحمل البشرى اليك ركابه　　وقد راقها المرعى الخصيب المخضر
لقد راقها مرعى الخزامى ندية　　وعذب نمير بالزلال مصرد
وقد بلغتك الان رحبى صدورها　　ومن غيرة حرى لما تتوقد
تميس على جوب الفلاة طروبة　　بما نبأ البشرى اليك مؤكد
بأن جيوش الله فازت غزاتها　　وأن عدو الله موعده غد

. . . . .

رأيت (جمال) الملك رأيك والذى　　تراه هو الرأى الصواب المسدد
رأيت بأن تختار منا عصابة　　مشائخ ترجى للملوك وتوفد
لها من جمال الفضل نور مشعشع　　عليها جلال العلم درع مسرد
اذا نثرت قلت الربيع وزهره　　وان نظمت قلت اللآلي تنضد
تترجم عن مضناك طلقا بيانها　　وتحسن القاء الثناء وتسرد
فجئنا الى دار السعادة والمنى　　محط رحال العز والعز يقصد
وزرنا عميد الملك يسمو عماده　　وزرنا ولى العهد بالفضل يعهد
تحف بنا القواد من كل جانب　　واقطاب دار الملك تحفى وتحفد
فمن (انور) رحب الفناء محبب　　الى سيفه والحرب هوجاء ينشد
عليه من الدين الحنيف شمائل　　حسان ومن عالى الفضائل سؤدد
و (شيخ) كرضوى بالوقار مصمم　　الى العلم ان ينحط وهو مسود
به قد علا الاسلام يزهو مناره　　الا ان (خيرى) للفضائل مورد
(ومن طلعة) في جبهة العصر (عادل)　　يقام له في الخافقين ويقعد
يحف بنا الاهلون بيضا وجوههم　　ووجه الحسود الخائن الحقد اسود
خطبنا لهم جما وقد خطبوا لنا　　وانشد منا القائلون وانشدوا
مجالس كانت كالربيع نواسما　　ذكرناك فيها والحقيقة تشهد

. . . . .

نعم يا جمال الملك لم ننس اننا ... ذهبنا لدار الحرب والبحر مزبد
ذهبنا وبصفحات السيوف بوارق ... تصل وافواه المدافع ترعد
فكدنا نضم الرمح تدا مصفصفا ... ونلثم خد السيف وهو مورد
شهدنا رحاها والقلوب ثوابت ... ابينا لقوات القذائف نسجد
هناك تصورناك ليثا غضنفرا ... فصلنا دما غير القنابل نقصد
رأينا (انا فرطا) رأينا جنودنا ... كأنهم من اسرة الاسد جندوا
وفي (اري برني) منهم كل خادر ... وفي (قلعة السلطان) جيش محشد
ينادون في الحملات الله اكبر ... فتنماع قوات العدو وتخضد
نظرنا الى الاعداء في الشطر بيننا ... وبينهم دون الخنادق مرصد
اذا اطلقوا نارا علينا غدت سدى ... وان نحن اطلقنا عليهم تبددوا
فلا يبرحون الشط والبر ضيق ... عليهم وسعاهم من الشؤم انكد
اذا ادبروا فالخزى او اقدموا الردى ... فموقعهم من ملمس الصنب اعقد
فبشراك فالنصر المبين محقق ... من الله والفوز الجميل موطد
اتى وفدك الغازى بجل فوائد ... ملخصها هذا الوفا والتودد
رجعنا وما بالقوم شيء ليعرب ... ولا يعرب ينسى الجميل ويحقد
على اننا ابناء دين محمد ... يحكم هذا الحب منا ويقعد
أ أنت حكيم الخلق ام انت قائد ... شمائل ليست عند غيرك توجد
لقد كان (واشنطون) مثلك مصلحا ... ورب حسام للعدو مجرد
فان قلت لا زلت الجمال فأنته ... ولا زلت محمودا فانك احمد
وان قلت زانت مجدك الرتبة التي ... زهت بك قدرا انت قدر ممجد
فدم خير مصلاح ودم خير قائد ... على يدك الرايات بالنصر تعقد

وهذه القصيدة **قدرة** خلاصة لمهمة الوفد منذ توجه الى ان عاد ٠٠ وهي لعمرى فائقة على القاء الثناء وسرد المديح قد اتجهت وجهة ما كان ينبغي لها في تلك **الظروف** ان تمضي فيها ! ونرى في القصيدة قوة التمكن من الاساليب العربية القديمة ورسوخ ملكة البيان وتصريفا **خبيرا** لمواكب من الاستعارات والمجازات والصور البيانية الموروثة ٠٠

وبهذا الصوت الرسمي نختم هذا الاتجاه الذى كان لفلسطين فيه هذا النصيب الوافي وهذا الدور الفعال في هذه الوفادة ولم **نعرض** لمواقف غير الفلسطينيين في هذا **الصدد** ٠٠ وربما كانت مواقفهم اخرى !

هذان هما التياران البارزان في هذه المرحلة الثانية من حياة الشعر في هذا القطر حين اتصل الشعر بالحياة وخاض معركتها ودخل غمارها وتـــرك عزلته التي اشتملت عليه في المرحلة الاولى ..

التيار الصاعد الذى يدفع الحركة الوطنيه المصرية للامام وروافده ...

والتيار الهابط الذى يشد الحركة الى الوراء وروافده !

المرحلــــة الثـــالثـــة

وتشتمل المرحلة الثالثة من حياة الشعر على الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين ٠٠ اى من سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٣٩ ٠٠ منذ انعقد مجلس الحلفاء في سان ريمو وقرر تمزيق البلاد العربية وجعل كل منها تحت سيطرة لون من الـــوان الاستعمار ٠٠ وانفرد كل قطر يواجه مصيره الذى فرضته عليه السيطرة الاستعمارية ٠٠ وبدأت فلسطين في هذا الدور صراعا عنيفا كان الطرف المعادى فيه الاستعمـــار والصهيونيه تواجههما وجها لوجه منفردة في اغلب الاحيان ! ٠٠٠ وفي سنة ١٩٢٢ يثبت صك الانتداب في عصبة الامم ويصبح لبريطانيا الحق الشرعي في ان تهيـىء هذا الوطن الصغير في ظروف اقتصادية وادارية واجتماعية تسهل انتزاعه مــــن اهله الاصليين واحلال مجموعة تخدم المصالح الاستعمارية جميعها في المنطقة ٠٠ ويحس اهل هذا الوطن الصغير بخطورة الموقف ٠٠ ويرون دولة حديثة تملك كل مقومات القوة الصناعية تهدد كيانهم وتعمل بموءازرة الدول الكبرى الاخرى ورضاها على اجتثاث جذورهم من ارضهم ٠٠ فيثور ثائرهم ٠٠ وتبدأ ثوراتهم في القـــدس سنة ١٩٢٠ ٠٠٠ وتتوالى هذه الثورات ٠٠ في يافا سنة ١٩٢١ ٠٠ و ١٩٢٤ ٠٠ و ١٩٢٥ وفي سائر البلاد سنة ١٩٢٩ ٠٠ و ١٩٣٣ ٠٠ و ١٩٣٥ ٠٠ و ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ٠٠ وامتدت الثورات الى ما بعد نشوب الحرب ٠٠ حيث توقفت بسبب ظروف الحرب العالمية ٠٠

وقد توالت المسكنات في اعقاب هذه الثورات ٠٠ من لجان تحقيـــق ٠٠ الى كتب بيض وسود ٠٠ الى محاولات مجلس تشريعي شكلي ٠٠ الى استدعاء وفــــد فلسطيني للندن ٠٠ الى تقرير خبراء في مسائل الاسكان والاراضي ٠٠ الى وساطة ملوك العرب وندائهم الموجه لعرب فلسطين ٠٠ وما الى ذلك من وسائل استعمارية لاجهاض الثورات حتى يتفرغ المسيطرون الى تنفيذ خططهم وسوق البلاد الى المصير المرسوم !

وقد قامت الى جانب تلك المحاولات الافنائية محاولات ايجابية خلقتها حتمية التطور التاريخي ٠٠ منها هذا النمو الاقتصادى الذى اصابته الطبقـــــة الوسطى ٠٠ فقد تضاعف عدد المصالح الصناعية الالية في البلاد من ٧ مصالح الى ٣١٣ مصلحة ٠٠ * ونشطت التجارة والنقل وزاد عدد المشتغلين بالتعليم والطـــب والقانون ٠٠

وتأسس البنك العربي سنة ١٩٣٠ وهو اول مصرف وطني ثم انشيء صندوق الامة في سبيل تمويل الحركة الوطنية وحماية الفلاح من الدين الذي تغرقه فيه النظام الادارية والاقتصادية التي تتبعها السلطات الاستعماريه الحاكمة بغية تسهيل انتقال الاراضي منه لليهود .. وبدأت نواة طبقة عاملة منذ سنة ١٩٢٥ بتأسيس " جمعية العمال العربية الفلسطينية .. وازداد التفاعل بين المدينة والقرية ... وانتشر التعليم (١) الحديث وكان الاتصال المباشر بالحضارة الاوروبية حتى هبطت نسبة الامية كثيرا .. " وانتقلت البلاد الى اوضاع حضارية جديدة ودخلت في حياة الناس : الكهرباء والسينما ومسارح التمثيل ومجالس اللهو والغناء .. وملاعب الرياضة .. والمدارس الحديثة .. وطرق المواصلات المتنوعة .. والاذاعة .. والصحافة ورغم ان المستعمر جعل من هذه كلها وسائل تفريق بين البلاد العربية الا انها كانت تحمل في طياتها عوامل تجميع :

كل هذا كان يقف في وجه استغلال الاوضاع الاجتماعية الموروثة ... فقد كان الاستعمار يسعى الى ترسيخ النظام الاجتماعي القائم على وحدة العائلة والعشيرة من اجل ربط الفرد بالولاء لتلك الوحدة .. وكان الاستعمار يعني شيئا من النفوذ .. والتقدم المادي .. وتيسير الوظائف .. لمن يحس فيهم عراقة نسب كما يقال .. "فكانت قوة العائلة ومركزها يحددان تقدمها في النفوذ السياسي على العائلات الاخرى .. وينبعان من مركزها الاقتصادي او من نسبها .. فكانت العائلات الضعيفة ترتبط بالعائلات القوية برباط ولاء تدعمه الروابط التاريخية والمصالح الاقتصادية والمصاهرة ويمثل ذلك كانت ترتبط حامولات الفلاحين بالعائلات المالكة والثرية والمتنفذة في المدن " (٢) ومن هنا لم تكن السلطة الاستعمارية فزعة جزعة من أن يتولى زمام القيادة وجهاء العائلات المتنفذة الذين اتيح لهم بحكم ظروفهم المادية والمعنوية نصيب من الثقافة .. او حظ كبير من الوظائف المدنية والدينية الرئيسية في البلاد .. فأقرت السلطة فعلا بزعامة موسى كاظم الحسيني .. وقد شغل منصب متصرف القدس ثم رئيس بلديتها .. ثم بزعامة الحاج امين الحسيني .. وكان خلف اخيه في منصب الافتاء بالقدس .. ثم بزعامة راغب النشاشيبي منافس الحاج امين وكان نائبا في مجلس المبعوثان ثم رئيسا لبلدية القدس .. ومن هنا استطاعت السلطة الاستعمارية توجيه شيء من النضال وحرفه الى الخلافات والمنافسات العائلية ..

---

(١) " الثقافة العربية " / عدد ممتاز عن فلسطين / السنة الثانية / عدد ٢ ايار/ حزيران ١٩٥٨ ص ٣٤ (٢) الثقافة العربية / السنة الثانية / عدد ٢ (ممتاز) ايار / حزيران ١٩٥٨ ص ٣٤ .

واستخدم المجلس الاسلامي الاعلى والبلديات لاثارة هذه الخلافات :

هزلت قضيتكم فلا لحم هناك ولا دم
بليت قضيتكم فصا رت هيكلا يتهدم
ضمرت الى بلدية فيها العدا تتحكم (١)

فتحويل النضال وتضييق القضية حتى تصبح رئاسة لمجلس بلدية حيلة استعمارية اعانت عليها تلك الصفة من العلاقات الاجتماعية :

وطني اخاف عليك قوما اصبحوا يتساءلون : من الزعيم الاليق؟
لا تفتحوا باب الشقاق فانه باب على سر العواقب مغلق (٢)

ولكن حركة النضال اخذت تتسع شيئا فشيئا رغم هذه المعوقات .. ومنذ المؤتمر السورى الاول توالت المؤتمرات الوطنية العامة في دمشق .. وحيفا .. والقدس .. ونابلس .. ويافا .. وقام المؤتمر النسائي .. ومؤتمرات الشباب .. ومؤتمرات العلماء .. ونشأت في هذه المرحلة الجمعيات المنظمة .. "كالجمعية الاسلامية المسيحية " .. وكان لها فروع في كل المدن الرئيسية .. وقد فوتت على الاستعمار استغلال هذه الناحية فلم ينجح في اثارة اى خلاف بين مسلم ومسيحي ..

وفي هذه المرحلة كذلك نشأت الاحزاب .. (حزب الاستقلال العربي)
حزب الدفاع الوطني ، الحزب العربي ، حزب الاصلاح ، حزب الكتله الوطنيه .

وقد استطاع الاستعمار تحويل هذه الاحزاب الى ما يشبه التجمعات العشائرية .. وتبديد نشاطها في الخلاف على المصالح الشخصية .

ويحس الحرب في فلسطين اصرار سلطات الاستعمار على تهديد مقومات وجودها الاساسيه فيتخذ نضالهم اتجاها جديدا تشارك فيه قاعده شعبية اكثر اتساعا من قبل .. وتبدأ هذه القاعدة تتحول من مقاومة اليهود الى مقاطعة الانكليز ، لانهم الاصل في الحركة الاستعماريه واليهود فرع من فروعها .. وتألفت "اللجنة العربيه العليا " ممثلة لجميع الاحزاب .. لتنظيم الحركة النضالية ..

ثم اخذ المجاهدون من البلاد المجاوره يتسللون من الحدود .. حتى دخلت كتيبه بقيادة فوزى القاوقجي .. واتسع نطاق العمليات الحربيه .. وتولى فوزى القاوقجي القياده العامة وتنظمت حركة النضال .. ولكن السلطة الحاكمه استعانت بالسلطات الحاكمة المجاوره .. فشددت الرقابه على الحدود ومنعت تسرب الاسلحة والمجاهدين .

---

(١) ديوان ابراهيم / ص ١٦٣ ـ ١٦٤ (٢) ديوان ابراهيم ص ٨٢ .

ولكن ما كادت الحرب العالميه الثانيه يقترب موعدها حتى كانت الثوره في فلسطين قد حققت بعض غاياتها فاحبطت مشروع التقسيم .. واستطاعت دماء الثلاثة الاف شهيد من عرب فلسطين ان ترغم الحكومه على الاعلان بأن وعد بلفور قد استنفد مفعوله ...
" وبذلك تأجلت نكبة العرب في فلسطين عشر سنين .. الى ان دخل الميدان عدو جديد في شكل الولايات المتحدة الاميركيه .." (١)

هذا هو الاطار السياسي والاقتصادى والاجتماعي الذى احاط بحياة الشعر في هذه المرحله من تاريخ هذا الوطن الصغير !

وتدخل الثورات في حياة الناس . وفي شعرهم .. وفي رسائلهم لذويهم فحين يكتب الاب لابنه نجد طعم الثوره في كل ما يكتب .

" .. اخذنا اول امس رسالتك المؤرخة في الرابع من هذا الشهر (٤/١٠/١٩٣٦) اما قلقك على فلسطين فأرجو أن يكون قد زال الان .. فان ما اظهرته من اتحاد ووطنيه وبطوله لا يزال مثار دهشه .. لم نكن في الشرق عامة وفلسطين خاصة نعرف الاضراب عن العمل ، فهو من صنع اوروبا واميركا يتوسل به العمال لارغام ارباب الاموال على انصافهم ، ومعها لهم من جمعيات وزعامه وصناديق احتياط ووسائل اخرى فاننا لم نسمع انهم قاموا باضراب عام .. وجل ما هناك ان يضرب عمال معمل واحد او شركة واحده او صناعة واحده في بلد واحد لمدة يومين او ثلاثة او اسبوع على الاكثر .. واين هذا من اضراب فلسطين : امة باسرها تضرب لا ليوم او يومين ولا لشهر او شهرين بل لنصف سنه لم يشذ فيها احد . ما احرى الغرب أن يأخذ دروسا عن فلسطين .. ولم يقتصر الامر على الاضراب ، فقد كانت معه ثورة تشيب لها الولدان ، ثم لما حان الوقت وقف الاضراب ووقفت الثورة في دقيقة واحده .. ان هذا لعجب لم يسمع به الناس قبل اليوم .. لقد خرج العرب من هذه المعركة الطويله وهم يقولون بلسان الشاعر الجاهلي :

الا لا يجهلن احد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلين

وهنا احب ان اذكرك بتلك الانشودة التي نظمتها سنة ١٩٢٥ ، وهي :

نحن قوم ابيـــونـــا	لا نقر الاذى فينـــا
لا نبالـــي منايانـــا	فـــي سبيـــل امانينـــا
يا بلادا ورثناهـــا	عن جـــدود ميامينـــا

---

(١) انظر مقال طاهر حمدى كنعان في / الثقافة العربيه / السنه الثانية / عدد ٢ ايار / حزيران سنة ١٩٥٨ ، ص ٣٢ ــ ٤٣ .

ان يحاجمك زرزور   يلقى منا شواهينا
يا بلاد امدیناها   واتخذنا الهدى دينا
ستظلين في عز   وامان بأيدينا
لا يغر العدا منا   مذ تمادوا تأنينا
ليس عجزا تأنينا   انما كان تهوينا
نلزم الحلم ما دمنا   لا نرى الحلم توهينا
ان ظلمنا نجد انا   قد غدونا مجانينا

الا ترى ان هذه الانشودة كانت وحيا لما وقع الان في فلسطين ٠٠ نعم يا سرى انا قوم ابيّون ٠٠ وان تهاونا لم يكن الا تهوينا ،فلما تمادوا في طغيانهم غدونا مجانين ولقوا منا ما لم يكن لهم ولا لاحد في حسبان " (١)

وبسبب تغلغل الاحداث الثورية في حياة الناس اخذ الشعر يعالج القضايا العامة معالجة يمتزج فيها الحس بالفكر امتزاجا تاما لااثر للازدواجية فيه ٠٠ ومن هنا نشأت فيحياة الشعر في هذه المرحلة معارضات ايديولوجية همها المضمون الشعرى اكثر من المعارضات الشكلية في اللغة والبلاغة ٠٠ فحين يطلب من المربي الكبير خليل السكاكيني انشودة لنادى الاخاء الارثوذكسي في سنة ١٩٣٣ يمازج بين الحس والفكر ٠٠ ويعارض قصيدة الشاعر الانكليزى "كبلنغ " التي جعل عنوانها " IF " فيجعل انشودته بعنوان " (ان) " ويكلف احد الموسيقيين ان يضع لها لحنا :

ان

ان يخفض الناس الرؤوسا   فاننا نعليها
او يرخص الناس النفوسا   فاننا نغليها
ان تتزلزل القدم   فاننا جبال
او تتضاءل الهمم   فاننا ابطال
ان يحسب الناس الحياة   المنّية الملاعب
فكل من منا تراه   يحسبها الواجب
اذ دعانا الواجب   ارهفت الاذان
لا قاعد ، لا غائب منا ولا جبان

---

(١) يوميات السكاكيني / ص ٢٩٠ — ٢٩١ / رسالة يبعث بها السكاكيني من فلسطين الى ابنه سرى في اميركا ٠

ان يطلب الناس الزهيد | من هذه الدنيا
سمت بنا الى البعيد | هممنا العليا
لا نعتدي على احد | كلا ولا نستجدي
ليس لنا من معتمد | الا على الجهد
لن يجد اليأس الى | نفوسنا سبيلا
مهما جنى الدهر فلا | نفارق التأميلا (١)

وكدنا نظفر بالاستاذ السكاكيني شاعرا لهذا الاتجاه في حياة الشعر .. لولا ان مصابا نزل به تجاوز طاقته .. فصرفه عن المضي في هذا اللون من الوان الشعر .. وقال ثلاث قصائد فائضات بالاسى والجزع والشجى — وفيها يمتزج الحس بالفكر — وثار حتى على القضاء .. فكتب تحت رسمه (لن نرضى) .. فقد فقد من كان يخوض الحياة معها .. وتشد من عزمه حين تعترض الخطوب وتقوم العقبات.. فقال في هذا المصاب :

قفا نبك من ذكرى اذابت حشاشتي | ولا تبخلا بالدمع فالدمع حاجتي
قفا اسعفاني في مصابي فانني | اراه مصابا قد تجاوز طاقتي
لقد كنت قبل اليوم احسب انني | صبور على الارزاء يقرعن ساحتي
واني كبير القلب لا تستخفه | حوادث هذا الدهر اما توالت
وأني على حظ من الحلم صالح | على قدر ما قد زودتني ثقافتي
فلما دهاني ما دهاني وجدتني | ضعيفا جزوعا ذا شجا وكآبة
رجعت الى قلبي واين اصطباره | وراجعت ما ادري واين درايتي !
تلفت علّي ان اراها فجاءة | واصغيت علّي ان افوز بنامة
وقلت : هنا عاشت ، وهذا مكانها | وكدت اناديها على مثل عادتي
فلم الق الا خدعة بعد خدعة | ولم الف الا ما يشق مرارتي
تذكرت ايام السعادة علّها | تخفف من حزني وتشفي حزازتي
وقلت لقد كنا وكنا فزادني | اسى والتياعا ذكر تلك السعادة
فحاولت أن انسى فلم تجد حيلتي | ولم يكن النسيان طوع ارادتي
تجلدت لكن لم يفدني تجلدي | شكوت ولكن لم تفدني شكايتي
تعللت بالامال ارقب وقتها | فلم تكن الامال غير علالة
واصبح عمري بعد ذلك فضلة | ارق واغدو فيه من غير غاية

---

(١) يوميات السكاكيني / ص ٢٥٥ .

وعـــادت لياليّ الملاح منـــاحـــة تقـام بها الاتــــراح اثر مناحــة
وبدل عيشي بعد صفوى غصـــــة اردد ها في الصـدر دون اصاغـة
ولـم يبق لي من سلـوة غير قـبرها اليه اوالـي ما حييت زيارتـــي
يقولان : انا قد عهدناك قبـــل ذا شجاعـا ، ولكن أين اين شجاعـتي
الا لا عزاء يا خليلـيّ بعـــــدها الا لا عزاء فاتركاني وحـــالـتي (١)

ويستهل القصيدة الثانية بقوله ٠

اسعفـــــاني بالبكـاء ودعـــا كل عـــزاء (٢)

كما يستهل الثالثة بقوله :

لك الويل ياسنتي الماضية لك الويل من سنة جانيه(٣)

ولولا مقطعات في البحر قالها في سفراته البحرية (٤) ٠٠ ما ظفرنا لــه بشعر بعد هذا ٠٠ وقد نقل هذا التيار من الشعر الى النثر ٠٠ ومضى فيه فــي حياة النثر ٠

اما صاحبه اسعاف النشاشيبي ، فقد اراد لنفسه أن يكون اديب العروبة من الطراز الاول : ولما لم يحله شعره هذه المرتبه زهد فيه ٠٠ وحقق له النثر مـا عجز عنه الشعر ٠٠ غير أننا قد ظفرنا له بقصيدة تطفح عاطفة وشعورا ، وقد حررتها العاطفة الدافقة من قيدين : قيد القافية ، وقيد وحدة البيت ٠٠ فجاءت صورة عاطفية للجزع والهلع والنواح ٠٠ وحين يقتضي النواح انغاما متشابهة تعود القافيـــــة للظهور ٠٠ هذه القصيدة قيلت في التأبين ليوم الاربعين في بيت المقدس ، ونابلـــس وحيفا حيث اقيم مأتم للشاعر شوقي ٠٠ ويستهلها بأبيات لشوقي نفسه ، ثم لأوس ابـــن حجر ، ثم لحبيب ٠٠

" انمـــا الدنيا شجون تلتقـــي وحزيـــن يتأسى بحــــزيـن "
" ضحك الدنيا احتشـاد للبكـــا واغانيـــها معـــدات الانـين "
" ايتهـــا النفس اجملـي جـزعا ان الذى تحذريـــن قد وقعا "
" كان الذى خفت ان يكـــونا انا الـــى اللـه راجعونـــا "
" أمسى المرجى ابو علـــــي موسّـــدا في الثرى يمينـــا "
" اصبت فيه وكـــان عنــــــدى على المصيبـــات ان يعينـا "
" كنت عـــزيزا به كثـــــــيرا وكنـــت صبّـــا به ضنينـــا "
" آليت أنساه مـــا تجلـــــى صبـح نـهـــار لمصبحينـــا "

---

(١) يوميات السكاكيني ص ٣٠٥ (٢) يوميات السكاكيني ص ٣٠٧ (٣) يوميات السكاكيني ص ٣٠٩
(٤) ما تيسر / جزء ٢ / ص ٩٢ — ٩٣ ٠

ثم يمضي في الرثاء النائح المتفجع وقد مازج ولم يزاوج بين الحس والفكر وقد غلب الحس !

شاعر العرب قضى ! يا فتاة العرب ، فالبسي ثوب الحداد !
وابرزي بين الملا ! حاسرة ، واندبيه !
زحزحي هذا النقاب ! لنرى وجهك الحزين !
اعرضي عن خفر عودته ، فعيون القوم غرقى في الدموع !
شيعي دمعك هذا قانئا بنحيب ونشيج وعويل !
وابذلي الدمع رخيصا ! ان من تبكين غال !
واحشدي كل بنات العرب للبكاء ، واندبيه نائحات سافرات !
وذري الترب يبيسا ، يرتوي من عبرات !
اذكريه ، اندبيه ، ابنيه بمراث مشجيات خالدات !

...

بلبل (الكرمة) ولى : اين غاب البلبل ؟!
غادر الطير ثكالى ، في حنين وانين وشجن !
زهر الكرمة يبكي بدموع ناضرات في الصباح
فنن الكرمة آس : لا اهتزاز ، لا ارتياح ، لا طرب !
بهجة زالت ، وجاءت وحشة ، وعرا الكرمة حزن لا يريم !
مدره العرب قضى ، يا فتاة العرب فالبسي ثوب الحداد !
مدره العرب قضى !

من يكف الخصم ، اما يجترئ ، ومن الخصم ظهير ونصير ؟!
من لشعب قدبدا من مشعب ، يرتجي شرا لا بناء العرب ؟!
من يبيد البطل في الناس مشى ، ويبين الحق يهدي الحائرين ؟!
اين شهبا حجج ، قد درأت كدد الخصم عنيفا فخنع ؟!
اين صوال على الظالم ضحى ، قدع الظلم شباه فانقدع ؟!
من لغرب عاسف متعصب ، لدس حق العرب في الصبح المبين ؟
يا حليفا والسما ما ان له ابد الاباد عهدا ويمين !
بيت كذابا ، وجينا عربا ، ومشى اللوم من الخيم الكريم !
خاس هذا الغرب بالعهد ولم يتئب من دنس الغدر الذميم !
داعر ، فسق ، وشر كله ، دعر جسم مخلوقا يهيم !
ايها الظالم ارهق سادرا ، سيرى الظالم عقبى الظالمين !

قد هدانا (احمد) منهاجها ، سنلبي (احمد) في كل حين !
علّم الاقوام قول بيّن خطة الاعتاق من رق مهين !
" ولا يبنى الممالك كالضحايا ولا يدنى الحقوق ولا يحق "
" ففي القتلى لاجيال حياة ، وفي الاسرى فدى لهم وعتق "
" وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق "

" وكن رجالا ذامرة وحصافة يلاقي الحدى منه بغلظة جانبا "
" ولم تر مثل الفتى انحى لمجرم ولا سيما بالماضيات المضارب "

عبقري الشعر ولي يا فتاة الحرب فالبسي ثوب الحداد !
طرفة الدهر التي ضنّ بها الفحول ثم جاد !
(احمد) عاد .. وعاد (البحتري) ، ورأى القوم حبيبا يبدع
لا شكسبير ، ولا دانتي ، ولا جوته ، قد فضلوه !

هذه آثاره الزاهرة ، هذه آياته بينة !

عاش الغرباتئد ، لا تفتتن بغريب قد طغت فتنته
انصف القوم ، ولكن لا تنبع حق ذي حق سنت حجته
مبدع في كل قول قاله : في نشيد وقصيد وروايه !
نور القرآن قولا فصلا ، وسما صاحبه في القائلين
انما القرآن هدى الناطقين ، انما القرآن نور العالمين
غث قول لم يهذبه (الكتاب) !

عبقريات تجلت للورى ، عبقر موطنها ! يا لها من فاتنات ساحرات!!!
فاتت الحسن ولاحت عجبا ، هل رأيت الحور في دار النعيم !؟
هل رأيت الحور في جنة عدن !؟
ابنة الدهر ثباتا وخلودا ، ونشيد الدهر حزنا وحبوراه
" كان شعري الغناء في فن الشرق وكان العزاء في احزانه "
كم من اهرام رست ثم عفت ، وكلام عبقري لن يبيد !

رقية ، سحر ، نعيم ، ولظى : جنة العرب ، جحيم الغاصبين !
انه الاعجاز قسم الاحدين ! انه الابداع حذل المبدعين !
رب احقاب تقضت ، ما رأت عبقريا في شؤون او فنون .
آه من دهر خبيث ، ناقد ، باخل بالعبقريين ضنين !
وكأن الدهر يخشى الخالدين ، فهو لا يبدئهم في كل حين !
انما الدهر خصيم العبقرى !

غادة الضاد رزاها رازئ وهي في سلطانها !
بزّها اروحس بنيها نجدة ، وفتى فتيانها !
ما رأى ابي كشوقي ، فارسا جال في ميدانها !
خافه الصنديد لما أن مشى في سنا قرآنها !
ابسل الاقوام في يوم علا ، وحمى شجعانها !

ابو علي قد ثوى يا بنات العرب !
مفخر العرب قضى يا بنات العرب !
فتاة العرب واجمة .. فتاة العرب ذاهلة .. فتاة العرب والهة !
فتاة العرب باكية .. والدمع مدرار ... تبكي فتاها ابا علي !
فتاة العرب ثاكلة ... يا بنات العرب !
يا بنات العرب اين المنجدات بدموع في الضحى منحدرات !
يا بنات العرب أين المسعدات في الزوايا النائحات الثاكلات !
من لنا قد صبحتنا الكارثات ! (والدواهي في الورى مختلفات)
هل لنا الا (اللواتي) مسعفات .. من لنا في الحزن الا (فاطمات) !
آويات للهيف راثيات ! آسيات للجراح الداميات !
ابو علي قد ثوى ! يا بنات العرب ! يا شموسا في الليالي الداجيات !
فبكاء ونحيبا وعويلا !

ثم يضمن ابياتا لابي العلاء من قصيدة : غير مجد في ملتي واعتقادى
ويتبعها بأبيات لابن مناذر .. ثم بأبيات لابي تمام .. ومن ثم بأبيات لشوقي !
وبعدها يبدأ خطبته التي يقول فيها : انها اللغة العربيه .. لغة (الكتاب) ...
لغة (النبي) .. لغة (الصحب) .. لغة (الفاتحين) .. انها اللغة العربيه ، اللغة
الخالده ، لغة الخلود ، لغة احمد شوقي .. (١)

---

(١) البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد احمد شوقي / ص ٩ ـ ٧١ .

وهكذا فقصيدة اسعاف لها امتداد وطول ٠٠ بحيث تتجاوز الصفحات العشر ٠٠ وتبلغ خطبته كلها السبعين من الصفحات ٠٠

وبذلك انتقل الطول والامتداد في القصيدة من ميدان الدين في المرحلة الاولى من حياة الشعر الى موضوعات الحياة في هذه المرحلة الثالثة ٠٠٠٠

وهكذا كان دور الصاحبين السكاكيني والنشاشيبي في الشعر ثم توقفا عنه ٠٠ ومضيا يمارسان النثر حتى اصبحا زعيمين لا يجاريان وصاحبي مدرستين كبيرتين في حياة الادب !

وما اخصب هذه المرحلة بالشعر والشعراء ! وما اكثر من قال فيها الشعر من شعراء ومحامين واطباء ورجال سياسة وتجار ومجاهدين ومدرسين ورجال دين وغيرهم ٠٠ وقد جمعت في هذه الفترة شعرا لما يزيد عن اربعين قائلا — كالسكاكيني — والنشاشيبي — والبستاني — وطوقان — وابي سلمى ، والدبّاغ ٠٠ ابراهيم ٠٠٠ ثم مصطفى — وعبد الرحيم حمود — وابي الاقبال — وحسن البحيرى وجميل البحرى — والبيتجالي — ومحمد حسن علاء علاء الدين — والصبوشي — وفدوى طوقان — ومطلق عبد الخالق — ومؤيد ابراهيم — ومحمد خورشيد — ومحي الدين الحاج عيسى — وبولس شحاده — والدكتور قيصر الخورى — والخورى جون بيطار — والخورى يواقيم قرداحي — وعيسى البندك — وحبيب صنبر — ووديع عزام — والدكتور توفيق زعرب — والمحامي محمود الماضي — ونعمة الصباغ — وهاني ابي مصلح — ونعمة الله فرحات — وعبد الرحيم بدر — وعصام حمّاد — وجرجس الخورى ايوب — واحمد حلمي باشا — وراضي عبد الهادى — ومنيف الحسيني — والدكتور سليم سلامه — هذا غير من وقع بامضاء (بحّار) ٠٠ او امضاء (اسير) ٠٠ او من قال شعرا بالعبارة الفلسطينيه الشعبيه كعوض المجاهد الشهيد ٠٠٠

ونجد من بين هؤلاء القوّالين ثلاثة عشر لهم دراوين او ما يشبه الدراوين من المجاميع ٠٠ وليس يعني ذلك أن كل قائل من هؤلاء الاربعين كان يمثل اتجاها او يمضي في تيار من التيارات وانما كثير منهم كان يقول لان المناسبه اقتضته ان يقول ولو لم يجد وسيلة للقول مواتيه ٠ فالذين رثوا شوقي غير النشاشيبي لاينطبق عليهم اتجاه بعينه ٠٠ وانما كان رثاؤهم تقليديا كأى رثاء يقال في اى زمان واى مكان ٠٠ وهؤلاء هم محمد خورشيد ، وراضي عبد الهادى ، ومنيف الحسيني ، ومحي الدين الحاج عيسى ومصطفى الدبّاغ (١) ٠٠ ومن هذه المراثي مرثاة ابي سلمى /عبد الكريم الكرمي :

---

(١) انظر شعر هؤلاء في رثاء شوقي : "امير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ" ص ١٧٤ / ص ٢١٧ / ص ٢٤٦ / ص ٢٥٣ ٠ / ص ٢٧٣ / ص ٢٧٧ ٠

تحـــيّر الدمع في ارجاء وادينا   وجيرة الايك ناحت في روابينـــــا
فالدمع في مقل الازهار لـــؤلـــوءة   والنوح في الدوح قد هاج الافانينا
يا وادى النيل ان الجرح يجمعنا   ونحن في الشرق اشباه عـــوادينـا
ما ردّد النيل انات الشكاة جـــوى   الا انثنى بردى يروى فيشجينـــا
تلفت المسجد المحزون ثم نعـــى   شوقي امير القوافي للمصلينـــا
وقال محرابه يشكـــو لمـــــنبره   هل شعره الحي في الدنيا يحزينا

حتى يقول :

ليلى على جبل التوباد باكيـــة   تهدى الى قيسها وردا ونسـرينـا
تدور في ظلمات الليل قائلـــة   يا ليتنا في الهوى كنا خليينـــا

ثم يختمها :

وبعد قيثارة الالهام ما انشـــرت   من يسمع الدهر يا شوقي اغانينــا (١)

وهكذا تدور هذه المراثي في دائرة مستوحاة من روح شوقي واشعاره وحياته الشعرية .

اما اتجاه الصاحبين السكاكيني والنشاشيبي الذى اشرنا اليه وهـــو الممازجه بين الحس والفكر .. وتغلب الحس لدى النشاشيبي ، وتغلب الفكر لـــدى السكاكيني من غير أن يكون في الامتزاج ازدواجيه ، فقد مضى فيه الشاعر وديـــع البستاني في هذه المرحلة من حياة الشعر في هذا القطر وقد قال ما يزيد علـــى خمس واربعين قصيدة كلها من الوطنيات التي تحمل في طياتها منطقا وصـــورا حسية متمازجه ... ومن بينها محاولة تشتمل في ثناياها على انفاس دافئة مـــن انفاس الشعر الملحمي وحماسته المثيره الحارة ...

وهذا مثل آخر على انتقال المطولات من الميدان الديني الى ميدان الحياة ، سواء أكان في الرثاء ام في الوطنيات.. وقد نظمها على فترات.. وجاء ت الثورة في تطوراتها ما بين ١٩/٤/٣٦ و ١٣/١٠/١٩٣٦ .. وختم القصيـــدة في العراق.. استهلها :

خطب يعم ولما يغضب العـــرب   الله اكبر بعد اليوم ان غضبـــوا
يا ابن الحسيني يا مفتي الديار الا   فتوى تسير بها الركبان والنجـــب

ثم يقول :

سبعون يوما على الاضراب قاطبـــة   بالعز ما اكلوا بالعز ما شربـــوا
والسعي للرزق والاوطان في خطـــر   بغي وفي الذود عنها الغنم والطرب

---

(١) انظر " امير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ " ص ٢٢٨ ــ ٢٣٠

بذل وجود بارواح وما ملكت — يد الفقير الى ان قيل قد نكبوا
ثار الشباب وثار الشيب قبلهم — والصبية احتشدوا للحرب ان لعبوا
وللنساء بلاء في مصاحبها — والنفي آنق ما اولاهم الادب
ويسجنون وقد ضاقت سجونهم — ويدفنون وكادت تزحف الترب
ويهدمون (لتجميل) مساكننا — هدم القلاع وقد راقتهم الخرب
والغاز والماز يبكون العيون وما — تبكي ومنها شرار البأس تنسكب
وقل لهم اننا نفدى القتيل متى — نبكيه والموت دون الفوز مطلب

ثم يمضي فيصف الصمود ونقضهم اياها ... ويؤرخ للثورة منذ ايام الحسين .. ويصور جهاد الشام .. ثم يوجه العتاب لامير شرق الاردن آنذاك فيقول :

يا ابن الحسين امير الشرق تبعده — وكنت احسب ان الشرق يقترب
ان الذى سامنا ما سام منتدبا — من فوقنا فوق عبد الله منتدب
ماذا تقول وفي آذانهم صمم — وانت تعلم يا مولاى ما يجب

ثم يوجه النداء الى ابن السعود :

يا ابن السعود اباها من يكون لنا — سعدا يلبي متى يدعى وينتدب
قد قامت الحرب يا رب الحجاز ويا — سلطان نجد وهلا جاءك الحرب
حرب العفاريت طياراتهم سفن — تنهال منها علينا النار والشهب
حرب الابالس دباباتهم زحف — فوق الجبال وحيث اصطكت الركب
حرب الاشاوس رشاشاتهم حمم — تنصب دفقا كما لو شقت القرب
ونحن رون فدى الاوطان نبذلها — عند الهجوم وفي راحاتنا الخشب

وبعدها يتوجه الى امام اليمن .. ثم الى مصر .. والى العراق .. ثم يدعو الى السلاح فيقول :

احفاد يعرب نسأك صوامعهم — تاهت بها القمم الشماء والهضب
المهد والقبر والاقصى مقادسهم — ولا مآذن تدعوهم ولا قبب
نودوا فلبوا ووحي النفس صائحهم — وفي النعلى قلوب للحمى تجب
هم الدراوشة الرهبان ارقهم — قصف المدافع : رهبان وما هربوا
الى السلاح الى الموت الخلود الى — ما ينبئ السيف لاماتنبئ الكتب
ملء الربى مهجات ثار ثائرها — الى ايا فدى تلك الربى تثب

ثم يصف الثوار من طلاب العلم .. ويوجه تحية التقدير للقائد الاعلى فوزي القاوقجي ثم يذكر لنا رد القائد

الى السلاح بني قومي انا لكـم   حرب العصابات حرب جدّ ما لعب
كر وفرّ فكروا حيث آمركـم   والامر امرى ان آمركم انسحبوا
فلا سلاح لجند في منازلهم   ولا امان لمن في ركبهم ركبوا
هم الصفارت طياراتهم سفن   يا حسن واحدة منهن تنقلب
هم الابالس دباباتهم زحف   مثل السلاحف لا عدو ولا جنب
هم الاشاوس رشاشاتهم حمم   نصلي لظاها كما لو سحّت السحب
يا حسن قافلة ترتد قافلة   والنقع ثار وهذا رأسها عقب
يا حسن قاطرة طاح القطار بها   وما احيلا جسرا وهو منشعب

ويقول بعد ذلك عن فلسطين :

باب الجزيرة باب الدار مغتصب   ان الجزيرة بعد الباب تغتصب

ويأتي الى ذكر الضحايا :

سبعون يوما توالت بعدها مائة   وسبعة والضحايا فوق ما حسبوا
في ذمة الله قتلانا وذمتهم   دين الى اجل يقضى ولا طلب

ويصف ثورة بغداد .. ويحذر من الانتداب. :

الانتدابات يا جيراننا جرب   وقاكم الله لا يفتك بنا الجرب (١)

مثل هذه المطولات من ميزات هذه الفترة في حياة الشعر .. وقد مضى تيار الاناشيد الوطنيه في سبيله منذ المرحلة الثانية وامتد حتى اتسع نطاقه في هذه المرحلة الثالثة :

فجماهير المتظاهرين في يوم ٢٨/ ٣/ ١٩٢٠ في المظاهرة التي اريدت سلميه فانقلبت دامية كانوا يرددون النشيد الذى نظمه الشاعر وديع البستاني :

يا للنصارى والمسلمين   لمن تركتم فلسطين
نمتم فقوموا باسم الدين
هذى بلادى ام البلاد   مثوى اجدادى والاحفاد
ما للاعادى فيها زاد
قدست ارضنا روحي فداها   ولست ارضى لي سواها
اموت فرضا في هواها
ربي موحد دين صحيح   والارض معبد للتسبيح
يا قوم احمد والمسيح
الله ! الله ! الله ! الله ! الله ! الله ! الله ! الله!

---

(١) ديوان الفلسطينيات / ص ٢٢٨ - ٢٤٣ .

الى آخر النشيد .. وقد استدعى الشاعر للتحقيق .. وجاء في ضبط التحقيق الاداري الذى قام به النائب العام :

— النائب العام: وردت بينات على انك كنت مرفوعا فوق الرؤوس وانت تقول ووراءك الجمهور : يا نصارى ويا اسلام !

— المتهم : نعم

— النائب العام: لمين تركتو بلادكم ؟

— المتهم : نعم

— النائب العام: اذبحوا اليهود والكافرين

— المتهم : لا ، هذا اخلال بالوزن والقافية . وما قلته كان مقفى موزونا وذا معنى ويقال له الشعر . (١)

وقد استدعت الظروف التاريخية ان يفرد الشعراء بابا خاصا في دواوينهم للاناشيد الوطنيه ... ونحن نكاد لا نجد شاعرا ليس له اناشيد في هذا الباب .. وليس له قصيدة او قصيدتين في الشهيد لكثرة ما قدمت البلاد من شهداء ابرار في سبيل الوطن ، والدور الذى قام به شعر وديع البستاني في المرحلة الثانية قام به في المرحلة الثالثة فلم يترك حدثا من احداث الوطن لم يسلط عليه فكره وشعوره وبيانه بينها في تصوير وطني رائع .. فقال في الامة وجمعية الامم (٢) . وقال في زيارة بلفور لفلسطين وضحايا زيارته (٣) . وقال مولدياته الثالثه والرابعه والخامسة (٤) ومنها :

اجل عيسوى وأسألوا الامس والغدا ولكن عروبي يحب محمدا

وقال في "حرب الاقتصاد" (٥) ثم في "دمشق الحمراء" (٦) وفي بلفور دمشق (٧) و"صوت الشعب" وفي "فتنة المبكى" (٨) . وفي غير ذلك من القضايا العامة والخاصة .

ولقد اتصل الشعر اتصالا وثيقا بالقاعدة الشعبية واصبح الصق بالقضية الوطنيه والثورات في وجه الاستعمار .. واستجاب الشعراء جميعا لهذا المتجه .... ولسنا نجد في هذه المرحلة شعرا يحتل الاتجاه الهابط الذى رأيناه في المرحلة السابقة .. حتى شعراء ذلك الاتجاه الذين امتدت بهم الحياة الشعرية الى مرحلتنا الحالية قد انصهروا في التيار الوطني الجارف وكبحوا اعنة خيلهم وعادوا يشاركون

---

(١) ديوان الفلسطينيات ص ١١٣ — ١١٤ (٢) ديوان الفلسطنيات ص ١١١ (٣) ديوان الفلسطنيات ص ١١٥ — ١٢١ (٤) ديوان الفلسطينات ص ١٢٣ / ص ١٥٥ / ص ١٦٠ (٥) ديوان الفلسطينات ص ١٢٧ — ١٢٩ (٦) ديوان الفلسطينات ص ١٦٥ (٧) ديوان الفلسطينات ص ١٦٢ (٨) ديوان الفلسطينات ص ١٨٢ .

في التيار الصاعد بقدر ما توايتهم مقدرتهم .. في هذه المرحلة .. اخذ الاستاذ الشيخ ابو الاقبال اليعقوبي اليافاوي ينحي على رجال الحركة الوطنية بفلسطين نومة طويلة ناموها — فراح — وهو الشاعر المجيد — يوجه عتابه الى من احسن فيهم ظنه بأبيات تنشرها جريدة (الصراط المستقيم) بامضاء — انا — وفي عددها ليوم ٢٢/١/١٩٣٠ قرأ الناس :

أودين لم تجهر بصوتك عاليـــا ... والدار حتى اليوم فـي اغلالهـا
تشكو ولما يستمع لشكاتهـــا ... احد وما تشكو سوى اهوالهـا
فالفاتحون وما بهم من رحمـــة ... لم يعملوا الا على اذلالهـا
هم زلزلوها حينما نزلـــوا بهـا ... وكفى الخطوب تزيد في زلزالهـا
فلم السكوت وانت بالادب الذى ... اوتيته بالحق من ابطالهـا
انا ما عهدتك في فلسطين سوى ... رجل الجهاد تجد في استقلالهـا
فاجهر بصوتك والبغاة كما تـرى ... فلعله يقضي على آمـالهـا
واعطف على تلك الحروبة مثلمـا ... عطفت عليك وانت من اشبالهـا
فلأنت ممن راح يكبر شعـــره ... ببني فلسطين (ابو اقبالهـا)
لمن السوابق اعجبته فلتقـــل ... في هذه الايام من امثالها!

فيرد عليه البستاني وكنيته "ابو فؤاد" بعنوان — الى "انا" :

"ابا الاقبال "ناد "ابا فؤاد " ... وانت "انا" وننفخ في رمـــاد
وقلبك مثل قلبي في التيـــاع ... وشعرك مثل شعري في النوادى
ولو طربت سعادك للقوافـــي ... لما بانت ولا بانت سعـادى
نغنيها بواديها اشتيـــاقـا ... وهودجها وقد ظعنت بـــواد
ومن بعد اتحاد الشمل بتنـــا ... انشتت شملنـــا بعد اتحـاد
قلوب حية يـــوما ويومـــا ... قلوب من موات كالجمـــاد
انقدم ثـم نحجم ثم نصحـــو ... فنرقد ثم نمعن في الـرقـاد
وربـة نائـم وله غطيـــط ... يؤرق نائما فـوق القتـاد
وقتلانا بعقر الدار هـــد ... دماؤهم تصـير الى سمـاد
فان زرع الشقاق وراح ينمـــو ... فيا ويـــلاه من يوم الحصـاد
ابا الاقبال انت انا رثـــاء ... لناديك في معاشرنا وغـــادى
وبالتالي جهـرت وبح صـــوتي ... وما يغنيك صوت ابح صـــاد؟" (١)

---

(١) ديوان الفلسطينيات / ص ١٨٩ — ١٩٠ .

تلك هي المسؤولية النضالية التي كان يمتلئ بها ضمير الشعر في هذه المرحلة ٠ فحين يقتل المرحوم جميل البحرى — صاحب مجلة الزهره — في ٦/ ٩/ ١٩٣٠ في نزاع على قطعة ارض بين الوقفين الكاثوليكي والاسلامي ٠٠ ويكاد يتسع الخرق ٠٠ ويخشى على الاتحاد الاسلامي المسيحي الذى اقامه النضال في وجه الاستعمار ٠٠ وتحاول ايد شريره يدفعها الاستعمار ان تثير الخلاف ٠٠ يقف الشعر وقفته الكريمة ٠٠ فيقول البستاني فيما يقول :

قف بي على قبر (الجميل) الدامي	واقرأ عليه تحيتي وسلامي
هل فيك غير فتى حديث بعده	للصيموية كان والاسلام
يا ناكرين على الجميل جميله	ومرغين جماله برغام
يا قائمين الى التباعد بعده	يا حاجبين ضياءه بظلام
لا الدين قاتله ولا اصحابه	يا ضاربين لجفوة بسهام
لا تلبسوا الدين الحنيف جريمة	يا آثمين كبيرة الاثام
لا تجعلوه ضحية لخصومة	هذا شعار في الحمى لوئام
قم يا جميل لذالميك والمهم	واطلب اخاك تجده في الظلام
قم يا جميل وانطق الاحباب ما	عودتنا من ثغرك البسام
قم يا جميل لكاتبين محطما	ما في اكفهم من الاقلام
قم يا جميل وقل لهم لا تحجبوا	وجه الصباح ببرقع الايهام
لا تقتلوني بعد قتلي قتلة	يا تاركي وسيلة لخصام
أ أخا الجميل بحق حبك للجميل	وحق حبي للضريح الدامي
خل النقيق لا سن وانظر الى	غصن عليه انوح نوح حمام
أسيت فلسطين أساك لفقده	فارياً به عن موطن الايلام (١)

وفي هذا المقام يقول الشاعر الاجتماعي اسكندر الخورى البيتجالي :

لا لن تنال من اتحـ	ـاد الامتين يد الفتن
كلا ولن تطدع ما	بينهما هذى المحن
كنا وما زلنا كما	كنا فدى هذا الوطن
قبل المسيح واحمد	كنا وما زلنا عرب
كانت وما زالت لنا	اوطاننا أما وأب
لا دين يجمعنا سوى	دين المحبة والنسب

---

(١) ديوان الفلسطينيات / ص ١٩٥ ٠

ماذا جرى حتى تغير	عهدنا فيما مضى
يأبى المسيح واحمد	ان يقضيا هذا القضا
او يسمحا للخلف فيما	بيننا أن ينتضى
اخشى على هذى البلا	د طلائعا فيها الهوان
خلل الرماد وميض نا	ر شرها لا يستهان
اني على الوطن العز	يز اخاف من هذا الدخان
ولقي فديتك بالنفوس	بكل ما عندى ثمين
كان (الجميل) بك الابر	ولا يزال لك الامين
ما دينه الا النصارى	اخوة للمسلمين
دين به كنا ند	ين ولا نزال به ندين
القاتلون (جميلنا)	لهم جزاء القاتلين
اما الخصوم فيرجعون	عن الغنيمة خاسرين
اني اراهم المحروبة	من بعيد كامنين
يتوقعون الخلف بين	صفوفها في كل حين
اما فلسطين الحبيبة	فهي في حصن حصين
تحتاطها عين العناية	رغم انف المرجفين
ولها من العقلاء درع	لا يهون ولا يلين
ان المسيحيين فيها	اخوة للمسلمين
دين به كنا ندين	ولا نزال به ندين (١)

وحين تقام حفلة افتتاح الجامعة العبريه ويقدم اللورد بلفور نفسه ليشهد حفلة الافتتاح كما قدم احمد لطفي السيد مندوبا عن الحكومة المصرية سنة ١٩٢٧ ... يهتز ضمير الشعر وينبه الفيلسوف الكبير الى اثر فعلته في النفوس، فيقول اسكندر الخورى البيتجالي :

الله اكبر كل هـ	ذا في سبيل الجامعة !
ما تلك جامعة العلـ	وم بل المطامع جامعة !
ان السياسة اوجد	تها والسياسة خادعة
من لندن هرولت تنسـ	ـى نار هذى الواقعة
يا لورد ما لومي عليك	فانت اصل الفاجعة

---

(١) المنقود ص ٦٢ — ٦٣ .

لومي على مصر تمد | لنا اكفا صافحة
وتجيء تشهد حفلة | فيها السموم الناقعة
يا (سيد) قد جئتنا | وقلوب قومك هالعة
وشهدت جامعة المطا | مع لا العلوم النافعة
أرأيت كيف تحيط بالعرب | الذئاب الجائعة
لو جاء هذي الارض (احمد) | قبل يوم الجامعة
لرأى فلسطينا تقيم | له المحافل ساطعة
ولهرولت من كل حد | ب للقاء مسارعيه
نشكر لكم منكم بني | مصر الحروف الراقعة
اوهمتم الاعداء انا | امة متقاطعة
لا تشمتوا اما غدت | فينا وفيكم طامحة (١)

فقد كان الشعر الفلسطيني في مضمونه يعي الدعامات الثلاث التي اقامها الاستعمار للكيان الصهيوني :

١) الدعامة الاولى — التنظيم الاداري .. تقوم به الوكالة اليهودية المؤسسة سنة ١٩٠٨

٢) الدعامة الثانية — التنظيم المالي .. يقوم به الصندوق اليهودي القومي

٣) الدعامة الثالثه — التنظيم الفكرى .. تقوم به الجامعة العبرية .

ونحن نلمس وعي الحس في هذا الشعر .. وعمق الوعي فيه لان المرحلة التاريخية على حركة النضال في هذا الدوران يكون الفكر رائدا واعيا الحس في الاحداث ومن هنا كانت حتمية الممازجة بين الاثنين في هذه السنوات من حياة الناس وحياة الشعر في هذا القطر ..

وهذه الممازجة بين الحس والفكر في الاتجاه الشعرى تقتضي انفاسا طوالا وامتدادا في طول القصيد .. لان المنطق الحسي يحتاج الى مقدمات وتمهيدات حتى يصل الى النتائج المرجوة وهذا كله يتطلب فسحة في النفس الشعرى .. كمجموعة (النظرات السبع) التي نظمها ابو الاقبال اليعقوبي "في عروبته ، في قوميته ، في وطنه" .. وهي مجموعة سوانح وخواطر وذكريات واناشيد من الشعر الاجتماعي الاخلاقي السياسي .. فيقول مثلا في (النظرة الثالثة) من هذه النظرات .

---

(١) المنوقد ص ١٠٦ — ١٠٧ .

بحمـــاة الوطن يستعزّ ابن الوطن
هم له في المحن لا دجا ليل المحن
وبهم لم يبن فيه من ألم

يا بني قومي ويا اسد النــزال — في فلسطين ويا شعب القلوب
آزروا الشرق وجدوا في النضال — عنه حيث الحرب فيه والخطوب
ان اهل الحرب والحرب سجال — جنف ابن الضرب في الشرق الضروب
ادرك الحرب به شر الوبال — فاثاروا ويثيرون الحروب
قبل ما تقضي على الشرق الامم

ما صليل البيض والسمر الرقاق — في دياجي الحرب من اجل (النقود)
لا ، ورب الارض والسبع الطباق — والذي يأبى على الخلق المرود
انما ذلك من ضيق الخناق — ومن الغدر ومن نقض العهود
قسما بالله ما هذا اختلاق — انا مالي في سوى الصدق جدود
ولعمري قسمي خير قسم

مزقوا من يبغضون الوطنا — ليس بالانسان من يأبى الوطن
واهزموا من يوقدون الفتنا — فيه ان الشر في اهل الفتن
واضربوا الجائر فيكم علنا — لا يكون الضرب الا في العلن
انكم اما فعلتم حسنا — فعل الله بكم كل حسن
فنراكم في نعيم منه جم

واستقلوا يا بني الضاد به — فهو للعرب وللعرب البنود
وانبذوا من لم يذد عن شعبه — نبذ اهل العز والعزم الجحود
واجعلوا كل فتى من عربه — مطلق الرأي وفي غير قيود
واستميتوا جهدكم في حبه — ما لمن مات به غير الخلود
والا لي لم يخلدوا فيه رمم

وارفعوا فوق الرؤوس العلما — ان رمز العرب في الشرق العلم
واذيقوا مبغضيه الالما — ما لمن يبغضه الا الالم
واخلقوا في العالمين الشمما — غيركم لم يستطع خلق الشمم
وابعثوا في المشرقين الكرما — انكم ما زلتم رسل الكرم
في بني الشرق وفي كل الامم

وانشروا العلم فللعلم شؤون — وبنشر العلم نيل الامل
وابتنوا للغة الفصحى الحصون — قبل ان يأتي يوم الكسل

واعضدوا الشرق فبالشرق يهون   كل ما ترجونه من عمل
واسيئوا في بني الغرب الظنون   ما لكم في الغرب غير الفشل

وبعد ان يضع ثقته وآماله في الناشئين — ان هم لم يجمدوا — وفي الناشئات يقول :

واهدموا السمسار لا كان ابوه   قبل ان يقوى على هدم الديار
وافعلوا ما شئتم ان تفعلوه   فيه حتى لا يرى غير البوار
انه ان انتم لم تهدموه   يهدم المجد ولا يخشى الصغار
وجدير بكم ان تصرعوه   فلكم بأس معد ونزار

وهباء عندكم ذاك الصنم

واهجروا الجاسوس لا نال مناه   ليس للجاسوس ما عاش ضمير
والفظوه عنكم لفظ النواه   ولكم في ذلك الخير الكثير
واذا ما رمتم صفع قفاه   فاصفعوه فهو بالصفع جدير
انا لم احقر من الناس سواه   انه في ناظري وغد حقير

لم يفرق بين بهم وبهم (١)

وعلى هذا النهج يمضي في نظرته هذه حتى يستوفيها ٠٠ وهي خلاصة لسائر النظرات في شكلها ومضمونها ٠٠ وشتان بين شعره في ديوانه " حسنات اليراع " الذى اشتملت عليه المرحلة الثانيه وبين شعره في هذه النظارات التي اشتملت عليها المرحلة الثالثة من حياة الشعر ٠٠ فهو هنا لا يتخلف عن التيار الصاعد في مضمونه الشعرى كما تخلف عنه في السابق !

ومن مظاهر هذه **الاطالة** والامتداد في القصيد التي نتجت عن طبيعة النضال الذى اتسم بالامتزاج بين الفكر والحس ٠ قصيدة انور عرفات خريج الجامعة الامريكية بعنوان :

" الدمعة المنحبسة في رثاء الاراضي المقدسة " ٠٠٠ وقد استهلها بقوله :

خل البلاد من القاصي الى الداني   واندب بلادك ذات العز والشان
وابدأ بنفسك فالزمها حمايتها   ثم امض عنها الى صحب وجيران
مالي ارانا قد استرعت عنايتنا   معارك بين احبار وطليان
نقول جيش لها قد حل ارضهم   وعندنا من بلايا الغرب جيشان

ويمضي في هذا النهج شكلا ومضمونا حتى يتجاوز بالقصيدة الثلاثمائة من الابيات (٢)

---

(١) النظرات السبع / ص ١٣/ ١٧ ٠ (٢) الدمعة المنحبسة ص ١ — ٢١

وقد كدنا نظفر في هذا الدور بمطولة فيها امتزاج الفكر والحس امتزاجا لا اثر للازدواجية فيه مع ميزة اخرى هي البناء الشعري بالصور بدلا من الوصف التقريري الرتيب.. ولعل ابا سلمى / عبد الكريم الكرمي أن يكون من اقدر شعراء فلسطين على هذا اللون من البناء الشعري .. فقد قال قصيدته الدالية لدى مصرع الشيخ الوقور فرحان السعدي الذي قنصت سياسة الاستعمار اعدامه رغم تجاوزه السبعين من عمره .. وارادها ان تكون مقدمة او خاتمة لملحمة شعرية ذكر انه ينشئها عن الثورة العربية الفلسطينية لتكون تاريخا لجهاد فلسطين العربية منذ اليوم الذي استشهد فيه الشيخ عزالدين القسام الى نهاية الثورة . اما المقدمة او الخاتمه للملحمة فهي :

انشر على لهب القصيد   شكوى العبيد الى العبيد
شكوى يرددها الزمان   غدا الى الابد الابيد

......

ايه ملوك العرب لا   كنتم ملوكا في الوجود

......

قوموا اسمعوا من كل نا   حية يصيح دم الشهيد
قوموا انظروا فرحان   فوق جبينه اثر السجود
يمشي الى حبل الشها   دة صائما مشي الاسود
سبعون عاما في سبيل   الله والحق التليد
خجل الشباب من المشيب   بل السنون من العقود
قوموا انظروا الاملين   بين الوعد ضاعوا والوعيد
ما بين ملقى في السجون   وبين منفي شريد
او بين ارملة تولو   ل او يتيم او فقيد
او بين مجهول يرى   عصف المنون من النشيد
قوموا انظروا الوطن الذبيـ   ـح من الوريد الى الوريد
تتزاحم الاجيال داميه   الخطى حول اللحود

......

ايه شعوب العرب انتم   مبعث الامل الجديد

......

فلذا تقطعها سيا   ستهم من القلب العميد
اسكندرونة نبتة   حمراء من زرع حصيد

سيروا على الترب المخضب والثموا اثر الجدود
حرية الانسان بالدم تشترى لا بالوعود

. . . .

ايه فلسطين اقحمي لجي اللهيب ولا تحيدى
لا تصهر الاغلال غير جهنم الهول الشديد
حلفت دماء الثائرين على العلوج بأن تسود
والثورة الحمراء تطعمها الجسوم مع الكبود
ايان تسأل نارها فتجيبنا هل من مزيد ؟
يا نار لا تتالمي وتقبلي شرف الوقود
يا من يعزون الحمى ثوروا على الظالم المبيد
بل حرروه من الملوك وحرروه من العبيد (١)

ولعل ابا سلمى أن يكون من اقدر شعراء فلسطين على اثارة القوة في عزائم الناس بشعر رقيق عذب سلس ناعم تمتلىء به القلوب وتستجيب له النفوس .. يمثل طموح القاعدة الشعبيه ببنائه التصويرى الرائع .. وما احببت تلك القوة الثائرة والوهج **الجامح** في ثنايا هذه العذوبة والرقة ..

ونحن الذين نثور على الظالم والجهل في كل حين
ونحن الذين انرنا الطريق وكنا مشاعل حق ودين
ونحن الذين خلقنا الجهاد ونحن الذين حمينا العرين
فلسطين انا بنينا الحضارة فوق الصخور كما تعلمين
ونحن الذين حملنا الرسالة للاولين وللآخرين
نطهر ارضك بالدم حرا فكيف نجود ولا تطهرين
تسير على **جانبينا** الشعوب ونحن امام الصباح المبين
ومبدأنا عالم واحد وتخليد حرية العالمين

انه يفهم الحرية فهما شاملا لا يتجزأ .... يريدها لنفسه .. ولرفاقه في التاريخ :

ايها الثائرون في العالم الرحب على الظالمين في الآفاق
حطموا النير فهو من اثر الوحش على الارض واعصفوا بالوثاق

---

(١) انظر كتاب شعراء فلسطين العربيه في ثورتها القومية !

وامسحوا الظلم والجهـــالة **والفقر**من الكون بالدم المهراق
اينما كنتم فنحن رفـــــاق وحدتنا حرية الاعتـــــاق
والتقينا على جناح الاعـــا صير وفوق اللظى وبين الرقاق
في الميادين والمعامل اخوانا وفوق الربى وفي الاعمـــاق
جمعتنا مبادئ وعهـــود فالتقينا من قبل يوم التلاقي

وهكذا كان تصويره للظلم :

حرموا الظلم بينهم واستراحوا ولدينا يحللون المحـــرم
ثم قالوا بيع العبيد حــرام ان بيع الاحرار انكى واظلم
كل يوم لجنة فكتـــــاب لا نرى فيه غير ظلم **منظـــم**
ان فوق الشفاه جمرا فدعهـــا اليوم واسمع قلوبنا تتكلـــم
قم وناد الاحرار من كل قطـــر وانشر الراية التي انت تحلم
غدنا عالم الشعوب وانــــا في طريق التحرير جد معرم
نحطم النير اينما كان في الكون ولن نستريح ما لم يحطـــم

انها الشعلة **الوضاءة** التي تضوئ معق الشعوب . ومن هنا كان ابو سلمى في تجاربه الخاصة متصلا بالتجربة العامة الكبيرة ، فعالمه الصغير وثيق الارتباط بعالمه الكبير ..

انت الهوى يا ولـــــدى يا نفحة الزهر النـــدى
يا حلم الماضي ربــــا عرس الاماني فـي غـــد
نصبت من قلـــبي لـــك المعبد الوثير فارقـــد
لا تخش من خفـــوقه هذا الغرام الابـــدى
نزعـــت من طـــريقك الشوك بلا تـــــردد
حتى تـــروح فــــوق ازهار الربى وتغتـــدى
يا ليتـــني ادفـــن آلام الحيـــــاة بيـــدى
حتى تعيـــش لا تـــرى غير النعيم السرمـــدى
يا ليتني اطوى الدجى طـــي الخمـــار الاســـود
واقبـــس النـــور مـــن الصبـــاح حتى تهتـــدى
بنـــي انت من دمـــي وقطعـــة مـــن كبـــدى
اعـــدت قلبي ناضـــرا بالعمـــر المجـــدد (١)

---

(١) الطريق / مجلد ٦ / جزء ٨ ١٩٤٧ ص ٢٠ — ٢٦ .

هذه المضامين الواسعة الدلالة الرحبة الافاق لم نكن نعهدها في المراحل السابقة .. وانما هي ثمرة لنضالات الشعوب المختلفة .. والتقاء هذه الشعوب في كفاحها التاريخي ضد قوى الظلم والاستعمار .. (١)

ولقد كان الشيخ ابراهيم الدباغ من السابقين الى تسجيل مثل هذا اللون من الوان الكفاح في قصيدته " ذكريات الثورة المصرية في سبيل الدستور" وكان الايذاء والتحدى على حقوق الاوطان يغمر جميع الطبقات من ابناء مصر حتى انتهى الى اطفال الكتاتيب والشوارع .. "فالضغط على الحرية في جميع الامكنة من ضواحي مصر وقراها ودساكرها حتى بيوت النمل وخلايا النحل .. الحرية صريعة في كل مكان اخيذة من نفس كل انسان .. البلاد في رهبة مريعة وفزع شديد ..

وصدى هذه التطورات والغضب في سبيل الحرية في البلاد العربية يرتفع وينخفض بمقادير مختلفة من ميزان الحرارة . والبلاد هنا وهناك تتقارن الحركات المنظمة وتتبادل الثورة والهياج .. الله !! الله ! فيها لو كان قيامها متحدا متفق الوقت ! لانقشع عنها ظل الاستعمار وزال كابوسه من جميع انحاء الشرق ...

الشبح تحوم حول كل انسان واعوذ بالله من عفريت الرهبة في ذلك العهد . فكم اقام على كاهلي . ومن شيطان الواشي فكم كان يحوم حولي . وهذه صورة من صور الفزع والجزع من اولئك الشياطين وقد كان اخذها مني نجيب من الطلاب واذاع منشورا ضمنه الكثير منها ولم اتمكن من اثباتها كلها . وقد اربت ابياتها على المائتين من شعر آلام وتصوير حبيس قصيد . وهي اصدق سهم في كنانة (وطنيتي) واحساسي نحو بلاد الشرق .. وكنت اكتب هذه القصيدة وانا مريض لا ابارح سريري .. لتشهد ويشهد التاريخ افاعيل مظالم الحكم الاستبدادي .. وكثيرا ما سمع السامعون جنديا ينادي صوته (اسلك واد وطني) .. كل هذا رسمته في هذه القصيدة وضاع اكثره بين اضابير الصحف وزبانية الجواسيس اللئام .. واعطيت لها عنوان الذكريات فهي صوت الحرية والفناء في حبها وقوة الشعوب ترتبط بحرية الخطابة والكتابة والاجتماع في دائرة مشروعة واذا لم يكن الخطيب والكاتب والشاعر حرا لا تكون الشعوب حرة ولا قوية ."

هذا شيء من المقدمة التي قدم بها الشاعر ابراهيم الدباغ قصيدته

---

(١) انظر ديوانه الطليعة / الجزء الثاني من اجل هذه القصيدة وغيرها من القصائد الاتية .

سكنت كل نأمة في البلاد   وخبت كل جذوة في الوادي

اخمدوها فأوقدوها فشبت   رب نار تهيج بالاخماد

يثب القاتج الشرارة قد يعجز   حتما عن ردها في الزناد

تصطليها جوانح ونفوس   او غلاظ من ابرد الاكباد

تتلظى ما بين قلبين قلب   في ابتراد ومهجة في اتقاد

رجعت دورة المآسي وعدنا   من اغاريدها على اعواد

يحسبون الجموع صفرا ولكن   يضربون الجموع بالاحاد

في مئات هي الملايين في اصدار   احكامها وفي الايراد

وبناء من الرجال منيع   فوق كهل الزمان كالاطواد

خاض بحرا من الدماء الى كسب   مرام ناء ونيل مراد

في طراد من امر حكم وتشريع   ومن سنة العلا في طراد

وقفت مصر منهم خلف حصن   من بناء الخلود عالي العماد

ويمضي في هذا النفس فيشير الى سبعة خلفوا (سعد) بعد النفي واعتقلوا فتلاهم سبعه الى ان يقول :

ليس في الارض للعصرة ذكر   بين تلك الوهاد والاوتاد

قد خلت من مفاخر غيرها او   دع فيها ابو العلا من عتاد

آدم او بنوه من عهد قابيل   طوال المنى قصار الايادي

ابدا يبتغون من فاسد الامر   صلاح النفوس والاجساد

فيخوضون للهوى كل بحر   ويجوبون للخنى كل واد

فتراهم من المآثم غرقى   في عباب يظل في ازدياد

لا يلبون عند عقل نداء   او يتوبون عن هوى لرشاد

فظلوم من مثله راح يستعدي   ثمودا على بقية عاد

وكفور بنعمة لم يقدر   فضل ذي نعمة من الحساد

وترى الارض وهي تزخر بالنا   س وتدنيهم ليوم التناد

كورت او تدافعت ثم بادت   في ثنايا القرون والاباد

كم طوت من مسرد عاث جلا   دا عليها يقتص من جلاد

ما أقلت مذ مما مثل جبا   ر خبيث مثوثب الشر عادي

مالنا ماضية يمطر زورا   وبروق البهتان في ارعاد

كيانا لا يعرف الصدق الا   في ضروب الاذى وضر العباد

ثم يقول :

بت ابكي الوادى وحرية الوادى والهو بحقل جبار عنادى
انا ابكي حرية الناس طرا وارأها حصنا لكل العباد
يا فؤادى امسيت من جامد التبر واصبحت ذائبا يا فؤادى
والمنايا تدور مندلعات كالافاعي على رؤوس الصعاد
شاطرتها الصروف ما غادرته والبقايا في ذمة الاحقاد
لا بكت مصر كفكفوا دمع مصر من بكت من شبابها الامجاد
دم فخار لها وسر علاها وضداها على اختلاف المواد
وثب الشر في بنيها عليها وجرى ضيرها على الرواد
غسلت بالدماء جرح فلسطين وقد راعها جوى بغداد
يوم شقت من وسطها حلة الخضراء شقت من فارس كل سواد
ودمشق طوت بساط التمنى من فعل اتهمت الى انجاد
الميادين والمسالك غصت بصفوف الرماة والقواد

ثم يقول :

غضبت شبية البلاد لالف اسلمت للسجون والاصفاد
اخذت عصبة الشبيبة عنهم فن حب العلا وحب البلاد
في بناء من الرجال منيع في ثمان الخلود كالاطواد
ان تفادت رماحهم وظباهم سبقتها نفوسهم في التفادى
يصبح النائب البرئ جريحا عائدا للنضال قبل الضماد
وسواء من بات في القصر والاكواخ والسجن في اتسام السهاد
اجزاء الامين للنيل سجن وجزاء الجلاد بيض الايادى
ايها القائمون بالامر رفقا بشعوب مهضومة وبلاد
اى قومية بنيتم عليها ما هدمتم من حكمة وسداد
طال تلبيسكم على اهل بابيس وكيد الطيور في اكباد

ثم يختم القصيدة الطويلة ذات المائتين من الابيات بالبيتين التاليين :

لا ارى الشرق وادعا وهو طلق يتلاحى وامره في صفاد
ينتهي حيث يبتدى الناس حربا وسلما والحكم حكم المبادى

وله مطولات تشبه هذه المطولة تتجاوز المائة من الابيات كقصيدته "صوت فلسطين"

ردوا على القوم كيدا وعد بلفور ونسجه بيدى كيد وتدبير
قد ساء تدبيره عفوا فلو عقلوا لم يفرط الوعد الا بعد تفكير

ويقول فيها :

حتام يخلبنا برق السياسة مشفوعا برعد وغيث غير مطور
وفيم يخدعنا مكر يكذبه ما يشهد العدل من افك ومن زور

ثم يذكر كاظم الحسيني فقيد الثورة والوطنية في سبيل تحرير الوطن .. ويذكر نهر العوجا ويافا .. الى ان يقول :

هذى فلسطين بعد الفاتحين غدت خرافة او مراحا للاساطير
لا يغفر الله ذنب العابثين بها وما سمعت بذنب غير مغفور
وكيف تطهر من رجس ومن دنس الا اذا غسلت من وعد بلفور

ثم يقول :

ليست فلسطين في البلدان عارية تهدى وتمنح بين الصير والصير
وليس ابناؤها ملكا لمنتدب فوعد بلفور عندها وعد مسرور

ويوم نكبت فلسطين بزلزالها المريع تزلزلت الارض بشاعرنا في مصر .. ونظم شعرا كثيرا ضاع اكثره وبقى اقله ومما بقي قصيدة بعنوان زلزال فلسطين منها قوله :

الدمع والغيث رزم ايهما الذى انسجم
فانا على طول الصراء والجبال والقمم
زلزلت الارض وكادت بالسهى ان تصطدم

وله في فلسطين الدامية بعض خلجات شعرية نظمها في اوقات مختلفة اوحتها الحوادث المريحة التي نزلت بفلسطين بفعل الضغطين الصهيوني والانجليزي والقصيدة تتجاوز المائة من الابيات ومطلعها :

ما للشرائع دون السيف والذهب رأى ولا لظبي الاقلام والكتب

وللمدباغ في الحرية واصوات مختلفة منظومة منها قصيدته " صوت الحرية في الشرق " ومطلعها :

غلت فغلى في كل صدر وجيبها ولست لها ان كان غيرى مجيبها

وله قصائد ومطولات كثيرة في فلسطين : ثوراتها .. واضرابها .. وقضيتها ولجان التحقيق فيها :

وهكذا تقرأ الدباغ في هذه المرحلة وتقرأ دواوينه الشعرية فتحس قوة فيما تقرأ ، وتحليلا لظواهر اجتماعية حسب نواميس الاجتماع فتتذكر طاقة كنت تقرأ لها في علم الاجتماع ، وتحس نفسا متشابها ومنهجا متقاربا فتلمح في ذلك كله وجه ابن خلدون ثم تقرأ في شعره قصائد في الكون والنجوم والسياسة والاجتماع والبؤس فتتذكر بعض الصور السالفة وتلمح وجه ابي العلاء المعرى ..

ثم تقرأ له شعرا رقيقا ناعما "فكها" فيه دعابة وخفة دم فتلمح وجه البهاء زهير او الشاب الظريف او ابن النبيه .. ثم تقرأ له نوادر في المجتمع وحديثا واقعيا فيه هزل ممتزج بالجد فتلمح وجه كاتبنا الكبير الجاحظ ...

غير انك تحس ان هذه الوجوه ليست مزيفة وليست ممسوخة وليست صور تقليد ، وانما هي ممتزجة امتزاجا محكما متفاعلة تفاعلا عضويا حتى انها تكون نفسا جديدة اصيلة متماسكة هي نفس شاعرنا الدباغ ...

هذه الايجابيه المحموده في حياة الشعر في هذه المرحلة اكسبت الشعر خصوبة لم يعرف مثلها في الفترات الاخرى !

ولقد دفعت هذه الايجابيه الكثيرين من الشعراء ليقولوا في مضامين وجدت لدى الناس اقبالا ورواجا .. وحاول الشاعر محمد حسن علاء الدين ان يعالج هذه المضامين باشكال يمتزج فيها الفكر بالحس .. وحاول ان يخفى الازدواجيه في ذلك المزيج .. ولكن التوفيق قد اخطأه فكلح لون الشعر وبدت عظام الازدواجيه في بنيته حتى هزلت القصيدة بين يديه .. مع انه طوّف ما طوّف في بيئات مختلفه ليهيئ نفسه للشعر .. وسافر الى باريس .. ومضى بين المسارح والقاعات الموسيقية ومعارض الرسوم .. وقرر ان يعيش على النباتات .. وذهب الى لبنان .. وحاول ان يتفرغ للشعر واتصل بالثورة وكان ينشر في " الدباغ " قصائده الوطنيه سنة ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ ولكن الوصف التقريرى كان يثقل قصائده فيفقدها حيويتها ويحملها الى الفترات السابقة لهذه الفترة ، لكن مضامينه الشعريه ايجابيه تنتمي الى هذه المرحلة من حياة الشعر ، ولولا هذا اللهاث الذى يبهر الانفاس بسبب هذا الاسلوب التقريرى التقليدى الذى يجعل البيت يتعثر في نصفه الثاني :

يقول في قصيدة شبح الرحيل :

شبح الرحيل خسئت من تمثال يزجي الى قلبي رؤى الاهوال
شبح الرحيل اما تكف عن الاذى شبح الرحيل اما تنى تغتالني
ما الذنب ذنبك يا خيال وانما هو ذنب شعب موغل في القال

كم ذا ادار من الكلام سلافه   وارتد منصاعا لدى الافعال
ان لم تثر يا شعب ثورة ذائد   فلانت حقا جلمد بجبال

ومن قصائده في ديوان ـ أثير ـ قصيدة مجد الخلود في موضوع الزعيم :

اين الزعيم لامة عربية   اين الحكيم له يروح مساعدا

وهو يكاد لا يدع مناسبة وطنيه الا قال فيها شعرا .. وقد ملأ بذلك ديوانه "نور من الشرق" وديوانه "قصائد الوحدة العربية" (١)

وليس من الشعراء احد لم يجد من الواجب عليه ان يقول شعرا في الوطنيه حتى امتلأت الصحف باشعارهم .. وامتلأت الدواوين بأناشيدهم ، وكانوا لسان الثورة الناطق .. حتى كان الشعر في هذه المرحله اغلب من النثر . !

وهكذا طلعت علينا في هذه المرحله مجموعة من شعراء الوطنيه كنا نود ان نقف عندهم وعند شعرهم وقفة تفصيليه تحليلية لولا اننا وجدناهم ايجابيين من حيث المضمون الشعرى .. ولكنهم مضوا في السبيل التقليدى ذات الاوصاف التقريرية التي لا تكسب شعرهم ميزات المرحلة التي هم منها .. ومن هؤلاء الاستاذ محمد خورشيد ... والاستاذ برهان العبوشي (٢) والدكتور قيصر الخورى .. والخورى جورج بيطار .. والاستاذ حبيب صنبر والاستاذ بولس شحاده .. والاستاذ جرجس الخورى ايوب والشاعر حسن البحيرى وامثالهم من شعراء هذا الاتجاه . وهذا لا ينفي ان تكون اتجاهات المراحل الاولى ما زالت تأخذ طريقها .. فالشعر الاجتماعي في اطاره القصصي مضى فيه الشاعر اسكندر الخورى **البيتجالي** وتناول تفاعل المجتمع بالحياة الجديدة .. ونتج له من ذلك التفاعل شعر قصصي عليه مسحة من صقلة المرانة ازهى من شعره في المرحلة الثانيه .. وقد صدر له عن هذه المرحلة ديوان "دقات القلب" . وديوان "مشاهد الحياة" ومعظم ديوانه "المنقود" .. ومضى غيره في هذه السبيل القصصية الشعريه .. فترجم حبيب صنبر عن الفرنسيه شعرا في اطار قصصي بعنوان "الاسد" (٣) ووضع حبيب صنبر قصيده في اطار قصصي اجتماعي حول "هند" (٤) النقية التي وقعت في حبائل الغدر .. ومثلها قصيدة "الحق يعلو" (٥) .. كما اتجه الشاعر عيسى بندك رئيس تحرير جريدة "صوت الشعب" ببيت لحم هذا المتجه من الشعر الاجتماعي في اطاره القصصي (٦)

---

(١) شعراء "فلسطين العربية في ثورتها القومية" (٢) انظر شعره في ديوانه "جبل النار"
(٣) الزهره / السنه ٤/ عدد ٤ / آب ١٩٢٤/ ص ٢٣٦ ـ ٢٤٠ (٤) مصرع اقلام الزهره القسم الثاني / عدد ٧ـ٨/ سنه ٢ ص ١٨١ (٥) مصرع اقلام الزهره / عدد ٣/ سنة ٣ القسم الثاني / ص ١٢٢ ـ ١٢٣ . (٦) انظر قصيدته بعنوان "لعمرك ما داعي الجنا لحسن طلعة" الزهرة / السنه ٣ / ايار ١٩٢٣ ـ نيسان ١٩٢٤ ص ٥٢ ـ ٥٥ .

ومثله هاني ابو مصلح في القصيدة القصصية "خائنة حبيبها" (١) ٠٠ ونجد الشيخ ابراهيم الدباغ في ديوانه الطليعه يضع اغنية وطنيه في اطار احدوثة غرامية ٠٠ (٢)

حتى الاتجاه الديني لم ينقطع سيله في هذه المرحله ٠٠ فنجد الخوري جورج بيطار يقول شعرا في البشاره والميلاد ٠٠ (٣) ويطيل القول فيه كما عهدنا مثل هذا القول في المرحلة الاولى ٠٠ وله تباريك الميلاد (٤) ٠٠ وهي اشبه بالروح الديني الذى كان يشتمل على قصائد الشيخ يوسف النبهاني ٠٠٠

كما ان الروافد الصغيره في المرحلة الاولى لا يزال بعضها يقطر في هذه المرحله ٠٠ فالرياضات اللغويه التي كانت تصحب الشعر ٠٠ نرى لها شبها هنا كتشطير القصائد (٥)٠٠ والتخميس ٠٠(٦) وما الى ذلك من رياضات العصر الشعرية

وبمقدار ما ساءت الظروف السياسيه اهل هذا القطر وشد الشعراء الوطنيون اعصابهم ٠٠ واجهدوا حسهم ٠٠ والهبوا بسياط الوجدان افكارهم ٠٠ فقد طلع عليهم تيار لعل مطلعه كان من اجل التسلية في بادئ الامر ٠٠ على حد قول الشاعر :

ان من ساءه الزمان بشيء لأحق امرئ بأن يتسلى

ثم غرق فيه بعض الشعراء ٠٠ واذا بهم في بحر من الدموع ولها فيه آخرون فاذا بهم يلبسون (المايوه) ويقفزون ٠٠ ويسبحون ٠٠ ثم لا يلبثون ان يتجمعوا متندرين بما لقوا في الماء ٠٠

اعانت ظروف الحضاره الحديثه على هذا التيار ٠٠ وساعدت في تكوينه تلك الفترات الهادئة القصيره التي كانت تتسلل فيما بين الثورات ٠٠

هذا التيار هو تيار الغزل ٠٠ ففي هذه المرحله بالذات رأينا شعراء يقصرون شعرهم كله على هذا الباب ٠٠ واذا به يستوعب معظم ديوانهم الشعري، ان لم يكن مستوعبا له كله !

فمن بين السابحين في هذا التيار الذين اتخذوه الهية ولهوا ولعبا وزينة لهم في المجالس ٠٠ الشاعران ابراهيم طوقان ٠٠ وابو سلمى ٠٠

ومن بين الذين غرقوا في هذا التيار وذرفوا الدموع غزارا وحزنوا وبكوا وشكوا وارقوا وتعذبوا ٠٠ مؤيد ابراهيم الايراني ٠٠ ومحمد حسن علاء الدين ٠٠٠

---

(١) الزهره / السنه ٥/ عدد ١ ـ ٢ ص ٦٠ ـ ٦٢ (٢) الطليعة / الجزء الاول / ص ١٠٧ ـ ١٠٩ (٣) معرض اقلام الزهره / عدد ١١ ـ ١٢/ السنه ٣/ ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ ٠ (٤) معرض اقلام الزهره / عدد ١٥ ـ ١٦/ السنه ٢/ ص ٣٢٠ (٥) الزهره / عدد ١ ـ ٢ السنه ٢ / ص ٤٤ (٦) معرض اقلام الزهره / عدد ٣ / السنه ٢/ ص ٨٥ ـ ٨٦ ثم الزهره السنه ٣/ ايار ١٩٢٣ / ص ٢٥ ٠

ومن بين الذين وقفوا متفرجين يشاهدون السابحين والغارقين اسكندر الخوري البيتجالي وعبد الرحيم محمود ..

ولقد قام الدكتور عمر فروخ في كتابه " شاعران معاصران " بدراسه ممتعه لاغاريد الهوى (١) التي صدرت عن ابراهيم طوقان .. واخباره مع ابي سلمى وصحبه.

فمن امثلة الاتجاه الاول قصيدة ابراهيم طوقان في فتاته الجامعيـــة التي يقترب منها وهي تطالع في مكتبة الجامعة الاميركية :

وغـــــريرة في المكتبـــه بجمــــالها متنقبـــــه
جلست لتقـــرأ او لتكـــ تب ما المعلم رتبـــــه
فدنوت استرق الخطـــى حتى جلســـت بمقـــربه
وحبســـت حتى لا ارى انفـــاســـي المتلهبـــه
ونهيت قلبي عن خفــــو ق فاضـــح فتجنبــــه
راقبتـــها فشهدت ا ن الله اجـــزل في الهبـــه
يا ليت حــظ كتابهــــا لمتلـــوعي المتعـــذبـــه
حضنتـــه تقرأ ما حـوى وحنت عليــه وما انتـــبه
فاذا انتهى وجه ونـــا ل ذكاءها ما استوعبـــه
سمحــت لانملها الجميـ ل بريقها كــي تقلبــــه
وسمعت وهي تضغم الكلما ت نجــوى مطربـــــه
ورأيت فـي الفم بـــدعة خـــلابة مستـــعذبـــه
احدى الثنايا النـــيّرا ت بدت وليس لها شبـــه
مثلوبة مـــن طـــرفها لا تحسبنهـــا مثلبـــه
هي لو علمت مـــن الحجا سن عند ارفـــق مرتبـــه
هي مصدر " السينـــات " تكسبهـا صدى ما اعذبــــه
واما وقلب قـــد رأ ت في السابديـــن تقلبـــه
ما رمت اكثر من حديـــ ث طيب ثغرت طيـــبّه
واروم سنـــت ضاحكـــا حـــتى يلـــن وارقبـــه (٢)

ومن امثلة الاتجاه الثاني مؤيد ابراهيم في ديوانه (الدموع) .. فقـــد عشق على حد تعبيره " جمالا غير انساني " كان " اصل آلامه واحزانه " .. و " سالت عبرته " لان طيفه " ابى ان يدنو منه " .. فرق لحاله ودنا منه . وقال له :

---

(١) شاعران معاصران ص ٨٣ — ١٠٣ (٢) انظر " شاعران معاصران " ص ٨٦ — ٨٧ والديوان ص ٩٢ — ٩٤ .

"فاطلب سمي في الحياة فانني ادعى سعاد يا حبيبي الباكي"

ويمضي شكاء بكاء كالاطفال ..

ملأ الهوى سبل الانام ازاهرا وعلى سبيلي جاد بالاشواك
وانا ل حيران الدموع مؤرقـا ابكي بشعري كالحمام الباكي

وتتناقض صوره

والزهر كلله الندى بآلالىء فافتر عن ثغر له ضحـــاك
وجرى الغدير مرددا اناتـه في مثل انات العليل الشاكي

وهكذا يمضي في رومانتيكيه فارغه سلبيه محرومه غير بارعه حتى في **التزييف** .. وكأن قصائده جراب شحاذ مليء بالصور الرثة الباليه .. وتشابيهه مشوّهه للجو الشعرى ، تافهة احيانا :

فشممتها ولثمتها ونممتهـا شغفا كنسمة مرضع لـــرضيــع

ثم يقول :

اقضي
ليس لي في العيش الا مطمح وهو أن لرجليك فـــــداء

ولسنا نجد في شعره اى تجربه او حركة من حياة او اى حدث واقعي ، لهذا يدعى الحرب الى الطبيعة فيعدد ازاهرها تعدادا رتيبا جامدا مملا .. ثم يمضي بعيدا في حروبه **ليهتصر** الصور من هناك حين يجد نفسه فارغة من الصور الحقيقية ..

انا في الهوى موسى الكليم وهذه في الحب يا محبوبتي الواحى

نجد نظما لا لون له ولا طعم ولا رائحه .. ولا غرابة بعد ذلك أن نجد في شعــره هذا الانطواء والانزواء والهزيمة **والفرار** من الحياة والدعوة الى الانقراض ..

ومعانيه وصوره كلها تقليد ساذج ليست له ولا هو لها .. ثم تبد و فيه (دونكيشوتيه) مضحكة :

قد لبست الالام ثوبا وغيرى لابس للهناء ثوب الدمقس
ذات سيفي وذات ترسي ولم آل الرزايا ضربا بسيفي وترسي

وكل هذه الرزايا لان محبوبته لم تصله !... ثم يتجلد .. ربما يجمع الزمـــان الجاني بين قلبه وقلبها .. وربما ينفح **النسيم** عليلا .. وربما ينجلي السحاب..!

ربما .. ربما .. وهل ربما تبعث غير الاشواق والتحنان..

وقد اخذ يكرر المضمون الواهي اياه في ديوانه كله بصور واشكال شتى حتى غدا الشكل في بعض قصائده الاخيرة اصقل منه في اولها :

تحت جنح الظلام والليل داج   والفضاء الرحب الممطر ساج

أتنزّى في حيرة واختلاج

وفؤادي من الجوى في سعير   يتلوى كفرع غصـن نضـير

هاجمته في الروض هوج الرياح   وعليه ثارت بكل جمـاح

يا حبيبي لواعجي بين جنبي   كنار الغضا تشب اشتعالا

....

قد قضيت النهار كدحا وجدا   واقتحاما جبل الحياة وكدا

وامامي ليل ساقضيه سهدا

وسأبقى حتى انبلاج الصباح   هائما مثل ريشة في الرياح (١)

ويمضي في القصيدة على هذا النهج حتى يبلغ بها النهايه .. وهو لون من الـوان الرومانتيكيه السلبيه في الغزل ..

وقد اثمر تيار المتفرجين لونا من الوان الغزل .. فيه وصف لمشـاعـر الاخرين من الشعراء او غيرهم وكأنه شعر تمثيلي في اطار غنائي .. ومن ذلك قصيدة "نجوى المحتضره" (٢) مثلا .. وقد نظمها عبد الرحيم محمود بلسان ليلى الصفوري التي احبت الشاعر ابراهيم طوقان ، ابا جعفر ، تخاطبه وهي في سكرات الموت :

دنا الموت مني ابا جعفـــر   وغاض الجمال وزاغ البصـــر

سأقضي غدا فالوداع الـوداع   وداع الفـراق وداع العمـر

واعبر برزخ هذي الحيـــاة   وكل عنـــاء له مستقـــر

لك الله اسعّرت نار الهـوى   بقلبي وجانبت لما استعـر

فكنت انادي الحريق الحريق   وناديت يا ناركوني أحــــر

وما كنت تعطف عطف الشقيق   وتحنو حنو الحبيب الابـــر

تعذبت في الحب امن في الهوى   تذوق ما ذقت؟ من في البشر

امنت عزيزي واسلمت نفسي   اليك لترضى الا تـــذكـــر

وخالفت اهلي وعاديتهـــم   وهم مثلما قد علمت الخير

وحاذرت منك النوى والصدود   ولم يغن عني شديد الحذر

وها أنت قد نبت واحسرتـاه   وغادرتني لمذارك أخـــر

ولم يبق منك سوى ذكريـات   ولم يبق لي منك الا صـــور

فها انت في الدير تشكو الهوى   ومن ألم البعد لا تختصـــر

وها انت تبكي بكاء الرضيع   فأمتص من مقلتيك الصـــبر

---

(١) ديوان "الدموع" ص ٧٣ ـ ٧٥ (٢) الامالي / السنة الاولى ـ عدد ١١ / ١٩٣٨ / ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ .

وارمي بنفسي على ساعديك   فترفق بالخصر لا ينكسر
تدغدغ نهديّ يا للغرام   ويا لزمان تقضى ومرّ
وما انا ذي في فراش الممات   اتسمع نجوى التي تحتضر

الى ان تقول :

اموت وتهوى من الغيد غيري   لهذا من الموت عندي أمرّ
ابعدي تهون على من تحب   لي الله غائرة تستعر
وددت لو انك بين اليدين   اضمك للصدر ضمّا عسر
والتف لف الافاعي عليك   وانظر سمّي فيك انتشر
ويجمعنا ميتين السرير   ويا طالما جمعتنا السرر
وتقضي ويقضين حزنا عليك   وما نال منك سوى الوطر

واخيرا تنتهي الى القول :

اموت ابا جعفر فالوداع   وداع الفراق وداع العمر (١)

وهنا في هذه المرحلة من حياة الشعر يصب رافد صغير جنح لون شعره الى التصوف .. وفيه مسحة من الالم الممزوج باليأس حينا وبالتأمل الحزين المر حينا آخر .. ويمثل هذا التيار بعمقه الشاعر ابراهيم الدباغ . ويمثله ببساطة الشاعر مطلق عبد الخالق الذي جمع اشعاره اخوه صبحي وطبعها في ديوان "الرحيل" وقد ولد في الناصره سنة ١٩٠٩ وكان قائما على رئاسة تحرير مجلة . النفير في حيفا (٢) وقد صرعه القطار وهو في ربيع عمره اذ صدم السيارة التي كانت تقله سنة ١٩٣٧ الى منزل الاستاذ وديع البستاني لشؤون تتعلق بالمعتقلين في مخيم المزرعة .. وقد رثاه وديع البستاني ..

يا مطلق الامة في اسرها   بأسرها تبكي معي مطلقا (٣)

وقد جنح مطلق الى التشاؤم وكان يؤثر الموت :

أوثر الموت اثرة لا تجاري   وارى في الحياة داء وبيلا
اطلب الموت وهو ينفر مني   يا لتعسي هل اطلب المستحيلا

ومن انفاسه الصوفيه :

---

(١) انظر القصيدة في آخر المجموعة الشعريه التي نشرت بعنوان عبد الرحيم محمود نشرتها لجنة تكريم ذكرى الشاعر الشهيد في عمان ٦/ ٥/ ١٩٥٨ (٢) انظر ترجمته في كتاب " شعراء فلسطين العربيه في ثورتها القومية " (٣) ديوان الفلسطينيات ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨

نحب ونكره في لحظه ونشقى ونسعد في ثانيه
ونرتاب في الامر حتى اليقين ونوقن في الريبة الطاميه
ونأمل واليأس مستحكم وننأى حين المنى راضيه

وحين اعتراه مرض كان يتوجع توجع الصابر فيقول :

وكيف يقول الشعر من بات صدره على قلبه والداء فيه دفين
اقضي طويل الليل سهران ساهدا تحاول اغماض العيون جفون
ويخمد هذا الصدر وهو جهنم ويرقص هذا القلب وهو حزين
ارى الموت يدنو من فراشي فانثني افكر في ماذا عساه يكون
اموت وفي ارضي علي رسالة اذا خفيت يوما فكيف تبين
الا ايها الموت الذى انت ساخر بضعف تأخر ففي الفؤاد شؤون

وله قصائد في الوطنيه : شهداؤنا .. وفلسطين الشهيده وغيرهما .. ومن قصيدته في الضحايا قوله :

ما هم اشقياء لكن شقي كل من قال عنهم اشقياء
والشقي الشقي من يظلم الناس فيشقى بظلمه الضعفاء
فقراء لا يطلبون ثراء غير أن يلحدوا وهم شرفاء

ثم يهدى قصيدته "لك في الخلود" لكل جريح نكب في جسمه اثناء الثورات الفلسطينيه

والحر ان يسمع رنين القيد ثار على رنينه او ما رأيت الليث مع تقلا يحن الى عرينه
انظر اليه وقد تبدى النور يسطع من جبينه وانظر الى دمه يسيل من الجراح ومن جفونه
في لونه شفق الاصيل وفيه سحر من فنونه

اما الشاعر ابراهيم الدباغ فله في هذا الاتجاه خماسيات تزيد عن عشرين خماسيه كلها خمسة خمسة ومنها :

عشت مريض النفس او ميتا يصبو الى القبر ولم يدفن
ما هام من عسر على يسرة اذا انا العبد الفقير الغني
الارض في دورتها والسما مسرعة في سيرها لا تني
والناس فيها خائب خابط او حاطب للناس ما يقتني
ان كانت الالام لم تشفني فهذه العبرة لم تكفني

وله قصيدة بعنوان "وحوش الانسانيه الضاريه في حديقة ابيقور" مطلعها

ليس المعين على بغي بمشكور ولا القوى على ظلم بمنصور
انا الرشيد ولي في كل مملكة امر اجرد فيه سيف مسرور

ويختمها بقوله :

فيا حقول ابيقور وشيعته   لا ضقت ذرعا بقطعان الخنازير

وكان تفكيره بالموت دائما يقترن بتفكيره باكواخ الفقراء وانينهم وشكواهم ٠٠ وكانت الخوالج النفسيه تختلف عليه ولا يستطيع تقييدها بسبب شدة المرض ٠٠ وابتدأ يوم عوفي بتدوين بعض خواطره الشعريه بعد ان حذف منها كثيرا من المؤلمات واخفى كثيرا مما كان يحمل صدره وتعي ذاكرته :

رصع الطل شفاه الــزهر والغصن الوريــق
وحلت اسورة الطــاقة حبات الرحيــق
ان جرى ريق الغوادى في الحميا جف ريق
قام يا صاح بنــا بــين صبوح وغبوق
وانبذ الكاشح ما طــاعته مما يليــق
فهو مزّان ولا احــسب مزاتا يــذوق

ويمضي في هذا النسق الخيّامي حتى يقول في نازل الكوخ :

نازل الكوخ رقيــق الــحال بالــرفق خليــق
يرد الماء ويكفيــه قليل من سويــق
وعلى اعتابه قــام بنــا المجــد العــريق
بين أنات وشكــوى وحنــين او شهيــق
ليس في الارض رحيــم او رؤوف او شفيــق
يا بني حــواء من سفــل وذى أصل عــريق
هجن الاحساب فيمــا بينكم وغــد لصيــق

وهكذا يمضي في هذه الخواطر والخوالج النفسيه حتى تبرز تيارا في هذه المرحلة من حياة الشعر !

ولما كانت القاعده الشعبيه تقوم بالعبء الكبير في ثورات هذا القطر فقد كان التعبير الشعبي والاغاني الشعبيه يعينان على القيام بهذا العبء ٠٠ من ذلك خماسيات الشاعر الشعبي صاحب التوقيع (دال) التي كانت تطلع بها جريدة النفير في حيفا حول المقاطعة (١) ٠٠ وكان يمزج فيها الجدّ بالهزل ٠٠ وحول (المطاحن) (٢) التي كان يدعي اليهود انشاءها ولم تكن غير قلاع ٠٠ ولعل خير ما يمثل هذا التيار الشعبي تلك القصيده التي تروى للثائر الفلسطيني (عوض) وقد قالها في السجن ليلة كان ينتظر تنفيذ حكم الشنق فيه صباحا ليلحق بأخوين قبله كانا قد اعدما ٠٠

(١) النفير/عدد ١/ السنه ٢٧/ ١٩٢٩/ ص ٧ـ٩ (٢) النفير عدد ٣/ السنه ٢٧/ ص ١٤ـ١٥

وقد تمثّل في هذه الليله وجه القاضي العسكري وقد جمدت عيناه .. وتمثّل وجه اخيه الاول وحبل المشنقه منعقد على عنقه .. ثم وجه اخيه الاخر الذي خنقته المشنقة كذلك .. ثم ارتسمت صورة اطفاله وامرأته .. من يطعم اطفاله بعده ؟ وقد سبقه اخواه الى هذا المصير؟! انه لم يترك لاسورة لامرأته .. لقد باعها ليشترى السلاح .. حبذا لو ترك لامرأته واولاده سوارا واحدا .. وقد افرغ (جوزي) بعبارة فلسطينيه شعبيه كل هذه الخواطر في الليلة الاخيرة في قصيدة شعبية رائعة ومضى في الصباح الى المشنقة مطمئنا .. وقد ترك روحه في تلك القصيده وراءه مكتوبة بفحمة على حائط السجن :

يا ليل خلّي الاسير	تا يكمل نواحو
راح يفيق الفجر	ويرفرف جناحو
تا يمرجح المشنوق	في هبة رياحو

.....

يا ليل وقف تاأقضي كل حسراتي
يمكن نسيت مين أنا ونسيت آهاتي
يا حيف كيف انقضت بيديك ساعاتي
وشمل الحبايب ضاع وتكسروا قداحوا

... ...

لا تظن دمعي خوف	دمعي عا اوطاني
وعا كمشة زغاليل	بالبيت جوعاني
مين راح يطعمها	بعدي واخواني
تنين قبلي شباب	عالمشنقة راحوا

... ...

بكرا مرتي كيف راح	تقضي نهارا
ويلها علي او	ويلها على صغارا
يا ريتني خليت في	ايديها سوارا
يوم الدعاني الحرب	تا اشترى سلاحو
ظنيت الناس ملوك	تمشي وراها رجال
تخسا الملوك ان	كان فيك الملوك انذال
والله تيجانهم ما	يصلحوا الناس نعال
احنا اللي نحمي	الوطن ونبوس جراحوا (١)

(١) الطليعة / الجزء ٢ / السنه ٥ / فبراير سنة ١٩٣٦ ص ١٠٤ — ١٠٦

هذا هو التيار الشعبي الذى حمل العبء .. وكان بالعبء مستقلا !

وفي هذه الفترة اطل على حياة الشعر بعمان تلمح فيهما كل مقومات الحياة ... تفجرت شاعريتهما كليهما في مناجاة والديهما .. الاول عصام حماد بدأ شعره يناجي والده وقد خرّ صريع الواجب في ميدان الجهاد عام ١٩٣٦ ... فكانت تجربة نضاليه حيه رسخت في قلب الشاعر الصغير والتقى فيها الحدث الخاص بالاحداث الكبيره العامه .. فقال اول ما قال وهو اصغر من هذه الاعباء التي حطت على كاهله :

اذا كان دمع العين اصبح عاصيا	سأجعل قلبي في الجوانح باكيا
خلت منك داريا أبي قد عهدتها	اضأت بها اركانهـا والنواحيـا
واقفرت الدنيا من الجود والندى	واصبح ورد الفضل بعدك ذاويـا
حرام علينا الدمع والحزن يا ابي	اذا لم نذق كأس المنايا الاعاديا
حرام علينا الشعر ان نحن لم نعد	نقدم للماضين الا المراثيـا
حرام علينا النوم ان نحن لم نسر	لثأر ونعرورى الربا والفيافيـا
حرام علينا العيش ان نحن لم نعد	الى الحرب ما تيك القرون الخواليـا (١)

والثانية التي فجرت شاعريتها مناجاة والدها " الذى كان يتململ على فراش المرض في ظلمات السجن " سنة ١٩٣٨ هي الشاعره فدوى عبد الفتاح طوقان شقيقة شاعر فلسطين ابراهيم طوقان .. حيث قالت (٢)

وطني بي مما عراك شجـون	وبقلبي مما دهاك كلـوم
الرزايا حلت بساحك والايـا	م جارت والبؤس فيك عميـم
الايامى ويا لبؤس الايامـى	غضب الارض دمعها المسجوم
رفرفت حولها فراخ هزايل	براها الشقاء فهي رسـوم
اجنح ما نمت قوادمها الزغب	وقد هاضها المصاب الجسيـم
والنسور الاباة لما استضيمت	نأت عنها في الارض هذا الاديم
انفت عيشة الهوان وراحـت	في سما المجد والعلاء تهيـم
يا ضحايا الجهاد في ذمة الله انما	ولو ذهاها لريح منها الجحيـم
قد تركتم في مصحف المجد ذكرا	هو باق على الزمان مقيـم
سطرته لكم مواقع حمـر	صبغتها جراحكم والكلـوم

ولا غرابة ان تكون بواكير شعرها وطنيه .. فيها " نفحات شوقيه .. وفيها قوة مستمدة من ابي تمام والمتنبي ..

(١ ، ٢) انظر خبريهما في كتاب (شعراء فلسطين العربيه في ثورتها القوميه)

وطني لئن عصفت بك الايام فالدهر حرب تارة وسلام

وفيها تقول :

وطني فديتك لا ترعك مصائب سود لهن على حماك زحام
الشرق يحمل ما تنوء بحمله وله اليك تطلع وقيام
شكواك شكواه وجرحك جرحه تؤذيه ان دالفت بك الايام
بغداد مصر والحجاز كلاهما والمسجد الاقصى هم والشام
قد الفت ما بينكم لغة وان شطت ديار او نأت اجسام

وتمضي في هذه الديباجه الشوقيه الصافيه والمتانه التركيبيه التقليديه وتستعير معالم الاندلس وتعوج على سيشل حتى تختم قصيدتها :

تالله ليس يذل شعب لمه هدى الكتاب وضمه الاسلام (١)

ثم يتعهدها اخوها ابراهيم فيصقل شاعريتها وتتهيأ لتكون شاعرة فلسطين كما كان اخوها شاعر هذا القطر الحبيب !

هذان البرعمان عصام حماد وفدوى طوقان بدأ اريجهما يعبق ينبئ بتيارين لكل منهما طعمه ولونه ورائحته ..

ثم كان من نصيب هذه المرحله شاعر مناضل نشأ في مرحلة النضال التي مرت فيها فلسطين بتجربتها القاسيه .. هو الشاعر المناضل عبد الرحيم محمود .. ولم يكن شاعرنا بمعزل عن ذلك النضال .. وانما مارس كل ما صدر عنه من فن قولي ممارسة عملية ، وخاض معارك الكفاح في فلسطين ، واستشهد في معركة الشجرة سنة ١٩٤٨ ، وكان شعره صورة لفظيه وجدانيه لتجاربه التي خاضها وعاشها .

وبحكم اتصاله بالتجارب العامه وربط تجاربه الخاصة الذاتيه بها كان يدرك موقفه من هذه المرحلة تمام الادراك ، فكان يعي المفهوم الوطني الكريم للمواطنية ، وكان يعرف الاعباء التي ينبغي على المواطن ان يحملها ليكون بطلا من ابطال الكفاح :

سأحمل روحي على راحتي والقي بها في مهاوي الردى
فأما حياة تسر الصديق واما ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان ورود المنايا ونيل المنى

وهو من اجل ذلك يرسم لنا صورة ساخرة للجبان في هذه المرحلة النضاليـة :

---

(١) الامالي / السنة الاولى عدد ١٣/ ١٩٣٨ ص ٤٠٣ .

وقلت لمن يخاف من المنايا … اتفرق من مجابهة الحوادث
اتقعد والحمى يرجوك عونا … وتجبن عن مصاولة الاعادى
فدونك خدر امك فاقتعده … وحسبك خسة هذا التمادى

وما كان فهمه للنضال فهما فرديا ، وانما كان فهمه له صورة من نضال شعبه لانه ابن

شعب تمرس بالصعاب … فلم تنل منه الصعاب
متمرد لم يرض يوما … ان يقر على عذاب
عرف الطريق لحقه … ومشى له الجدد الصواب
الحق ليس براجع … لذويه الا بالحراب
والحملة الشعواء تجدى … لا التلطف والعتاب

فكان مفهومه ثوريا من اجل الخلاص من الظلم والاستبداد والاستعمار والفساد ، فليس يجدى في ذلك مفاوضات او ملاينات او تلطف في طلب الحق :

اصهر بنارك غل عنقك ينصهر … فعلى الجماجم تركز الاعلام
واصب حقوقك قط لا تستجدها … ان الاولى سلبوا الحقوق لئام
هذى طريقك للحياة فلا تحد … قد سارها من قبلك القسام

تلك كانت سبيله في تلك المرحلة النضالية !

وهو حين يخوض معارك الكفاح ويشارك في ميادين النضال لا يتطرق الى قلبه اليأس ولا تتغلغل الافاق في ناظريه ، وانما يفهم الحياة فهما متفائلا :

ان تجد باب الاماني مغلقا … لا تكشر او تلم من سكره
ان بواب الاماني مرح … يبغض اليأس ويخشى الكشره
فتبسم يا عزيزى
ان للعيش طريقين هما … الجد في الضحك وجد في بكاء
لا تقل اجبرت في شرهما … تلك الخبرة فاختر ما تشاء

. . . . . .

ثم ما ساءك من هذى الدنى … ما الذى رد لك الطرف كميلا
ان دنياك التي تصنعها … فسر الاشياء تفسيرا جميلا
وتبسم يا عزيزى

وهكذا يؤمن بأن الانسان هو صانع ظروفه ، ومن هنا كان للنضال ثمرته ، وللكفاح نتيجته ومن هنا يؤمن بالتطور ويأبى الجمود : فهو حين يتأمل حجرا في كثبان الرمل بين تدمر والعراق يخاطبه فيقول :

واذا قعدت كما قعدت ... افير بالروح القعود
والروح يا بعض الجماد ... عني ومحطها يرؤد
تأبى الجمود حصافة منها ... ويأباها الجمود

ولا يقف شاعرنا في حياته عند الظاهرة السطحية وانما ينفذ الى اعماقها ، ويمضي الى جذورها ، ويتأمل العلاقات الاجتماعية من خلال صلته بالطبيعة ، فيخاطب حجرا منفردا في الرمال :

هل كنت يوما في القصور ... وعفت ضافية القصور
وابيت ان تبنى عليك ... صروح بهتان وزور
فنجوت للصحراء من ... صخب المزاهر والزمور

وهو حين يتأمل الظاهرة الاجتماعية ويقف عند الموازين والقيم يتجاوز الظاهرة الى اسبابها ويمضي الى ما وراءها :

الخير والخبز غدا حكرة ... لبعضهم والويل للسارق
هم اوجدوا السارق من حاجة ... وقيل هذى قسمة الخالق
يا منطقا لم يرو عن عاقل ... الصمّ خير منه للناطق
بغى في قسمة الارزاق ناس ... وقالوا هكذا قسم الاله

....

لقد وصفوا الاله بشر ظلم ... بما كذبوا تنزه في علاه !

....

اتينا الحياة فلي نصيب ... كما لك انت في الدنيا نصيب
فلم تعدو وتغصبني حقوقي ... وتطلب ان يسالمك الغضيب
اعدلك قال أن اسعى وتجني ... واطلب المحال فلا اجيب
فانصفني ولا تجحف فاني ... اخوك اذا دها الخطب المصيب

وهكذا فانه يقف مواقف اجتماعية واعية ايجابية يضع فيها يده على العلل الصحيحة لتلك المواقف ! وهو من اجل هذه الايجابية مؤمن بوجوب تكافؤ الفرص ! .. ومن هذه المواقف نظرته الى العمال ، وفهمه لوظيفة هذه الطبقة .. فيقول على لسانها :

نحن المصادر والموارد ... وسلاحنا فتل السواعد
ان اسمنا العمال لا ... نلهو بلغو عن مقاصد
نقضي على حد الاسنة ... لا النمارق والوسائد
ونقابل الظلم الفرّى ... بهمة تفرى الجلامد
وتذيب في نار الجها ... د وحرها عنا الصفائد
لسنا كمن يهذى على ... الاعواد بالخطب الرواعد

ومن هنا كان فهمه للمعيد على صعيد انساني اجتماعي :

اذا رق احساسنا في الوجود — وفاضت احاسيسنا الشاعره
اذا ما صهرنا قيود العبيد — بنار من القوة الداهره
اذا ما نعمنا بلقيا المنى — وقرت رغائبنا الحائره
اذا كان هذا فثمة عيد — وتلك مظاهره الساحره
وثمة يحسن وجه الحياة — فتصبح فتانه ناضره
وتجمل دنيا زهدنا بها — والا فموعدنا الآخره

وحين يعبر الحياة يعبرها متأملا يقظا واعيا ، فلا تفوته لقطة من لقطاتها الاجتماعية ولا صورة من صورها الانسانية من غير أن يكون له رأي فيها ومن غير أن يلتقطها بعدسة وجدانه فيكشف لنا عن جذورها ويصور لنا علاقاتها : فهو يمر بحمال ميت في حيفا وبجانبه سلّه وحبله على قارعة الطريق يمر به الناس فلا يأبهون ! فينفعل بهذه الصورة الانسانية وتقع في عدسة وجدانه ، فيعرضها لنا صورة انسانية وجدانيه مترابطة الاجزاء بالمجتمع :

لو كنت في حبلك شناقهم — لولولوا حزنا وشقوا الجيوب
او كنت من سلك رزاقهم — لقام عند السل الفا خطيب
ونزهوا حبلك عن عيبه — وبللوا السل بذوب القلوب
لكنك الحمال — لم يطمعوا — فيك لم ويخشوا اذاك الرهيب
رغيفك الطاهر غمسته — من عرق زاك ودمع حبيب
ما كنت سلابا اخا غصبة — بل كنت ذا حق سليب غصيب
حبلك والسل لقد اوديا — بهيبة الموت الوقور الرهيب
وفيهما لو انصفوا رفعة — وشاهدا فضل وخير وطيب
كم قد سألت الناس ماء فلم — يجبك في النزع شفيق مجيب
او استعنت الطب لكنما — لم تملك الاجر فعز الطبيب
او ربما ارصيت او شئت ان توصي فلم يسمعك جار وقريب
رب صغير لك خلفته — منتظرا اياك حتى تؤوب
يرجوك للجوع الذي شفه — يا غائبا عنه — وطال المغيب
لثوبك الرث واخلاقه — كرمت اثواب الحرير القشيب
والجسد اليابس في بيده — كره لي الغصن الناري الرطيب

وكانت له مواقف كريمة واعية من كل القضايا العامة التي تدور من حول وطنه ، فله موقف من مشروع المجلس التشريعي الذي عاد المندوب السامي آرثر واكهدب من لندن يحمله سنة ١٩٣٦ :

في جيبه لعب الهوى يلهو بها الصب اللعوب
لك في حقيبته نصيب فاخر بئس النصيب
فلتنتظر غدا (الكراسي) ماكنا وغدا قريب

وهكذا ينبه الى ما يحاوله المستعمر من تحويل الانظار عن القضية الكبرى وشغلها بالمناصب.. وكان له موقف رائع كريم من وعد بلفور .. وقد عرض لادوار القضية عرضا تصويريا بارعا سنة ١٩٢٥ ، فبيّن موقف العرب مع الترك .. ثم مع الحلفاء .. ثم يبين خبراء هذه المواقف .. ثم وجه انذارا للحليف ..

العرب ما خضعوا لسلطة قيصر يوما ولا هانوا امام تجبر
لا يصبرون على اذى مهما يكن والحر ان يسم الاذى لم يصبر
والترك قد كبروا وانا معشر كبر وفوق تكبر المتكبر
واذا به امر نهيتـه لهم تحت الاسنة والقنا والسمهري

. . . . . .

واتى الحليف وقام في اعتابنا متحيرا ، انا هدى المتحير
واستنصر العرب الكرام وانهم غوث الطريد ونصرة المستنصر
واذا عتاق العرب تورى في الدجى قدحا وتصهل تحت كل غضنفر
واذا السيوف كأنهن كواكب تهوى ــ تلامع في العجاج الاكدر
رجحت موازين الحليف ومن نكن معه يرجح بالعظيم الاكثر
وبنت له اسيافنا صرحا فلم يحفظ جميل العرب باللمنكر
في ذمة الرحمن صرعى جدلوا وعلى ثرى بدم الرجال معصفر

. . . .

عذر الحليف واى وعد صانه يوما وأية ذمة لم تخفر
لما قضى وطرا بفضل سيوفنا نسى اليد البيضا ولم يتذكر
واذا الدم المهراق لا بمراقه يجدى ولا بنجيعه المتحدّر

. . . .

يا ذا الحليف سيوفنا ورماحنا لم تنثلم فاعلم ولم تنكسر
بالامس ابلت في عداك وفي غد في كل قلب غادر متحجر
تغلي الصدور وليس في غليانها الا نذير العاصف المتفجر
ولقد تصبرنا عليك فلم نطق منك المزيد ولات حين تصبر
هذى البلاد عريننا وفدى لها من ولد يعرب كل اسد هصّر

وهو لا يبيح لاى مناسبة ان تضيع عليه وعيه ويقظته ، فحين مر الملك سعود بن عبد العزيز (الامير حينذاك) في ١٤/ ٨/ ١٩٣٥ بعنبتا قرية الشاعر القى قصيدة بعنوان نجم السعود قال فيها :

يا ذا الامير امام عينك شاعر ضمت على الشكوى المريرة اضلعه
المسجد الاقصى اجئت تزوره ام جئت من قبل الضياع تودّعه
حرم تباع لكل اوكع آبــق ولكل افاق شريد اربعــه
وغدا وما ادناه لا يبقى سوى دمع لنا يهمى وسن نقرعــه (١)

هذا هو الشعر حين تمتزج به التجربة النضالية فيتفاعل بها ويقوم بالدور الدافع للحركة الثورية ! فهو يمثل التيار الايجابي في البرجوازية الشريفة ، وهو تعبيرعن طموح الطبقة المتوسطة التي خلقتها ظروف ما بين الحربين في حبها للاستقلال والتخلص من ضغط الاستعمارين الاوربي والصهيوني !

ونقف عند ظاهرة فذّة في تاريخ الشعر في هذه المرحلة .. ظاهرة تمثلت فيها كل ايجابية البرجوازية الحديثة .. ظاهرة الذروة في حياة الشعر في هذا القطر اتخذت لنفسها دور الموجّه للحركة الصاعدة .. واخذت بيد العوامل المحركة للحياة العربية وسلطت الاضواء على الحركات المحرّقة والعوامل الحابطة والمثبطة .. هذه الظاهرة الفذة هي ظهور ابراهيم عبد الفتاح طوقان شاعرا في هذه المرحلة التي نحن بازائها (١٩٠٥ ــ ١٩٤١) وهو اصدق مثل في هذه المرحلة على الرومانتيكية الايجابية في حياة الشعر في فلسطين.

وقد التقت في تكوينه الشعرى عوامل كثيرة : بيئته البيتية حيث جده لابيه الذى كان يقرض الشعر والزجل (والعتابا) .. وامه التي تقرأ لجده قصص (عنترة) و (ابي زيد الهلالي) و (سيف بن ذى يزن) والقرآن الكريم الذى يعني اصحاب البيت بتنشئة اطفالهم على تلاوته والتشبع بروحه .. ثم بيئة المدارس التي تقلب فيها : المدرسة الرشادية الغربية وكان فيها من المدرسين الشيخ ابراهيم ابوالهدى الخماش ، والشيخ فهمي هاشم ، وقضى فيها ابراهيم سني الحرب العظمى .. وكان اساتذتها قد تلقوا علومهم في الازهر فتأثروا بالاصداء التي خلفها شوقي وحافظ .. وحين انتقل الى مدرسة المطران في القدس وصله اخوه احمد طوقان بالاستاذ نخلة زريق مدرس اللغة العربية آنذاك في الكلية الانكليزية .. ثم بيئة الصحافة .. ففي سنة ١٩٢٢ يقول ابراهيم عن اول قصيدة له: "لعلها اول قصيدة نشرت لي في صحيفة .. رحم الله عمي الحاج حافظ ! قرأها ، فأبدى اعجابه بها (على سبيل التشجيع) وطلب الي أن ابيضها لنشرها في الجريدة !

---

(١) انظر المجموعة التي جمعت للشاعر بعنوان "ديوان عبد الرحيم محمود" وطبعت في عمان ١٩٥٨

في الجريدة ؟ شيء يطيش له العقل ! فاسرعت الى تلبية طلبه ، وعنيت بكتابتها قيراطا ، وبوضع اسمي تحتها ثلاثة وعشرين قيراطا " ٠٠ ثم بيئة الجامعة الامريكيه ببيروت المفتوحة الافاق الاجتماعيه بالقيارى الى الانطلاق الذى كان يشتمل على قلبه وعقله في نابلس ٠٠ حيث أخوه احمد وصديقه سعيد تقي الدين ٠٠ والشيخ امين تقي الدين ٠٠ يضاف الى ذلك عامل المرض الذى خلق فيه حساسية خاصه ٠٠ هذه العوامل الخاصة تتفاعل مع العوامل الكبيره التي كانت تغلي بها ظروف الوطن ٠٠ حين استقبلت ابراهيم وقد نال شهادته الجامعية في عام ١٩٢٩ ٠٠ وحين عمل في التعليم ٠٠ ثم طمح الى ان يكون صحافيا ولكن الجامعة الاميريكيه طلبت اليه التدريس فيها ٠٠ فدرّس فيها عامين ٠٠ ثم عاد الى التدريس في المدرسة الرشيديه ٠٠ ثم عمل في دائرة البلدية حتى اذا تأسست اذاعة القدس وقع الاختيار عليه ليكون مدير القسم العربي فيها ٠٠٠ ثم يدخل في دور صراع من السلطات ومع الصهيونية التي ارادت الاذاعة لغير ما اراد ها ابراهيم ٠٠ وتنتهي الدسائس باقالته من عمله في سنة ١٩٤٠ وما هو الا عام مضى ابراهيم في نصفه الاول الى العراق ليدرس هناك ٠٠ وعاد في النصف الثاني الى وطنه ليسلم الروح الى بارئه ٠ (١)

وحين التقى ببيئة بيروت اراد ان يخرج من جلده كما يقولون ليعوّض عن ذلك الضغط الذى حط عليه في بيئة نابلس ٠ لهذا رأيناه يطلب اوسع اتصال بالمجتمع والناس والصحافة ٠٠ فيقول الشعر لا ليكون حديث النفس ولكن ليكون واسطة اتصال بينه وبين الناس ٠ ومن هنا تلقى الدرس الاول في وظيفة الشعر الاجتماعية ٠

وبمقدار ما كان وطنه يغلي بالاحداث كانت بيروت تلهو وتلعب وتتسلى ٠٠ وكانت البرجوازية الصغيرة فيها تجد من حقها ان تملأ فراغها بالوان العبث المختلفة ٠٠ وكانت الفتاة في مقاعد الدرس في الجامعة تثير في الاوساط نشوة كبيرة ٠٠ وكانت الصحف تتلقف آثار تلك الاثارة وتروج لها ٠٠ وتثير حولها الاصداء ٠٠ لان بيروت الجامعة الامريكية آنذاك لم تكن تعني بأنباء البطولات التي كانت تطفح بها حياة الوطن ، وطن ابراهيم ٠٠ وانما كانت تروج للغزل واللهو ٠٠ ومن هنا بدأت حياة ابراهيم الشعرية بداية غزلة ٠٠ وانصرف اول ايامه عن حياة وطنه ٠٠ حتى اذا رجع الى ميدان المعركة هزّته حياة النضال ، فشمر عن ساعد الوجدان ، وانطلق فيه الى ابعد الاشواط ٠٠ شأنه في ذلك شأن ابراهيم الدباغ حين الهته الحياة في مصر عن نضال وطنه ٠٠ فلما صحا على نفسه ، انطلق يعوض ما فاته فكان لشعره شأن عظيم ٠

---

(١) ديوان ابراهيم / المقدمة بقلم شقيقته فدوى ٠

لهذا رأيناه في اول امره يوجه همه للغزل ، حين رأى اهتمام الناس به .. وحين لقى فيه شهرته ، حتى اذا صدمه أخوه احمد وصديقه سعيد تقي الدين ، رجع الى صوابه ، وتحوّل ، واخذ ينظر للشعر نظرة أبعد جديّة !

وقد كانت مواقفه الغراميه بعضها جادة ، وبعضها مجرد اعلانات وتجارب شعرية لاتكاد تبلغ حد الجد ! وحتى تجربته الجادة التي مضت تتطور وتنمو لم تبلغ الغاية الايجابية وانما كان فيها سلبيا لدرجة انه طلب من اخيه احمد ان يساعده في شأنها .. واخيرا انخذل وانهزم ووقف موقفا سلبيا ولو كان الامر يعدو المواقف السلبية في حياته الغرامية لكان لهذا الجانب اثر كبير في نفس شاعرنا ، هذه النفس الشاعرة المنتجة ، ولظفرنا منه بتجربة في الحب تشبه التجارب الكبار في هذا المضمار في تاريخ الادب العالمي لاسيما وقد لمسنا طاقته الشعريه الفائقة وقدرته الرائعة .. لكن خطر المواقف السلبيه على الانتاج الادبي كخطرها على حياة الناس .. انها ليست تنتج الا القلق والاضطراب والشوق الفائض والحنين المرير والانين والالم **واللوعة** والحرقة وما الى ذلك في هذا الباب .. انها لا تبني وانما تقود الى الضياع ! انها لا تنتمي الى شيء ذي بال وانما تنتمي الى تبديد وهدر ! وهي صورة لحياة البورجوازيه في **ذلك** العصر ! ... لا يشاركون في بناء حياتهم مشاركة فعاله ايجابيه : حياتهم تفرض عليهم من فوق : اقتصادهم **يصرفه** غيرهم .. مناهج ثقافتهم ليست في ايديهم .. حياتهم السياسية ليس لهم يد في توجيهها .. وعلى ذلك فحياتهم الاجتماعيه تفرض عليهم نتيجة لهذه الاوضاع ! ... والذي لا يشارك ايجابيا في شيء من هذه الاشياء سيكون نهبا للقلق والضياع والهم والفراغ ! .. والايجابية الضئيلة والواقعيه النسبيه التي طالعتنا في شعر ابراهيم الغرامي ان هي الا ثمرات التجارب الجزئيه الفرديه التي كان يمارسها طوقان ممارسة فرديه . اما الخطوط الكبيرة في الحياة فلم يكن يتاح لاحد بان يوجه منها شيئا انما كانت تفرض على شباب الاحتلال في ذلك العهد ! ولن يكون الغرام الا صورة لهذه الحياة .. ولهذا خسرنا شيئا كبيرا من انطلاق طاقة ابراهيم الغرامية ولم نظفر الا بشيء يسير من واقعيته التعبيريه في تجاربه الغراميه .. **كتعبيره** عن علاقته بغادة كفركنّا .. اما سائر غزله فكان اشبه (باعلانات) منه بصور جاده للتجارب التي خاضها .. ولهذا لا نجد غرابة في ان تنقضي آثار الهوى ولوعته في عام واحد .. ونجد هذا التعبير عن الحب " بعد عام اليها " اشبه بتعبيرات وصور العصر العباسي حين نشأت الطبقة المتوسطة في الحياة العباسية وتشابهت ظروف العيش ...

فيقول ابراهيم :

هواك اصبح نسيا	كلــوعتي منسيّــــا
قد كان شغلا لقلبي	فصار قلبي خليـــا
كأنّ حلو الامانـي	والوصل لم تك شيّــا
مسحت آثار حـــب	كانت علــى شفتيـــا
فيا جفون استقـري	عاد الرقاد شهيّــــا

وارقص على حب ليلاك يا فؤاد مليا

فالهوى الذى كان شغلا لقلبه طواه عام واحد فلم يعد شيّاً ٠٠ وليس من قبيـل المصادفه ان يعجب ابراهيم بأصحاب المذهب (الرومنتيكي) امثال كولريدج وكيتس وشلي وبيرون ٠٠ وان يتأثر في بعض منظوماته بأوسكار وايلد ٠٠ وان يتجه اعجابه بشعراء العصر العباسي خاصة كأبي نواس والعباس بن الاحنف والبحترى وابن المعتز وسبط بن التعاويذى (١)

وهذا التشابه في الحياة بين بيئة بيروت وبين الحياة العباسية حين نشأت فيها البورجوازيه او الطبقه المتوسطه ، وبين بيروت وبين حياة اوروبا فـي اوائل القرن التاسع عشر ٠٠ جعلنا لانستغرب ظهور المجون في شعر طوقـا ن ورفاقه وبراعتهم في هذا الباب براعة فاقت شهرة ابي نواس ٠٠ فكان بين اوراق ابراهيم التي خلفها دفتر طواه على قطع شعريه اطلق عليها اسم الشرارات : الاولى والثانية والثالثة الخ ٠٠ وقد نظم بعض هذه الشرارات بالاشتراك مع صـديقه الشاعر الدكتور وجيه بارودى ٠٠ وهي قسمان : الاول : في الغزل المذكر ، والثاني : في الغزل المؤنث ٠٠ وبعض مقطوعات الغزل المؤنث قيلت في نفر من طالبـا ت الجامعة الامريكيه في بيروت وخارجها ٠٠ وقد استقل الدكتور البارودى بأربع قطع من الغزل المذكر ما زال في عهد الجامعة يرددون ابياتها ٠ والشرارة الخامسة اشترك في نظمها ابراهيم ووجيه بارودى وغالب عرفات ٠٠ وقد كانت قصيد تـــه المشهوره المتناقله " شهر ايار " ذروة المجون ٠٠ ورغم مجونها المفضوح وبذاءتها المكشوفه فهي بناء رائع بالصور وعمل فني كبير مهما يكن مضمونها مؤذيا لطائفـــة من الناس (٢) ومثلها قصيدته (ليلة في دير) ٠٠ واشتراك طوقان مع غيره من الرفاق في نظم قصيدة ظاهرة تشبه الظاهره في الادب الانكليزى حيث كان يشترك كولردج مع غيره في نظم قصيدة طويله !

---

(١) راجع " شاعران معاصران " ص ٧ ، ص ٩٦ (٢) انظر " شاعران معاصران " ص ١٠٠ ـ ١٠٣ ، وانظر كتاب " الخواني في شعر طوقان "

وظاهرة التجمع الادبي هذه كانت من الظواهر التي تدعو اليها الحياة الاجتماعية الجديدة ، ولاسيما في بيروت ٠٠٠ ولذلك رأينا في عام ١٩٢٦ " دار الندوه " حلقة ادبيه يجتمع فيها ابراهيم طوقان ، ووجيه البارودي ، وحافظ جميل وعمر فروخ ، ونديم البارودي ، ٠٠ وليس من المصادفة ان يتجه هؤلاء الى نفر من شعراء العصر العباسي فيتخذون من اسمائهم اسماء ادبيه لانفسهم : فابراهيم اتخذ اسم العباس بن الاحنف ، ووجيه اسم ديك الجن الحمصي ، وحافظ اسم ابي نواس ، وعمر فروخ اسم صريع الغواني مسلم بن الوليد البغدادي ٠٠ شبه كبير في النظام الاجتماعي دفع الى شيء مثله في الحياة الادبيه !

ولعل تجاربه الغراميه قد تصنفت كلها ٠٠ فسالت في خلاصة تجمعت فيها عصارة ايامه الخوالي ٠٠ فقال في "مناجاة وردة " (١)

حنى عليك الحسن يا وردتي   وطيب رياك فذقت العذاب
لولاهما لم تقطفي غضة   بل لانطوى في الروض عنك الشباب
لولاهما مر بك العاشقون
لا ينظرون
وربما اعوز عنك الندى   وجازك الطير فما غردا
عرفت بالفضل وكم فاضل   جنى عليه الفضل يا وردتي

روضتك الغناء يا وردتي   قد أنبتت من كل زوج بهيج
تنفس الصبح بازهارها   عن ضاحك اللون زكي الاريج
نسرينها ، ورندها ، والاقاح
كل مباح
تنقل عنها نسمات الصبا   تحية لكل قلب صبا
وطوف الناس بارجائها   فوقفوا عندك يا وردتي

لله ما اصدقها حكمة   فاه بها (المجهول في عهده)
" تشتاق ايار نفوس الورى   وانما الشوق الى ورده
تعزية اودع فيها الضرير
حكم البصير
الم يكن في قومه كوكبا   لاح ليمحو نوره الغيهبا
فما لهم آلمهم فضله   حتى لقد آذوه يا وردتي

---

(١) الديوان ص ١٤٦ ـ ١٤٧ ٠

تحكّم الناس بمستضعف — سرّ من الاسرار لا يدرك
يا وردتي وربّ سهل بدا — طريقه يهلك من يسلك
هل حسبوا غصنك لما دنا
سهل الجنى؟
كلا ، بل النفس التي تضعف — تصطنع اليأس فلا تعرف
والسر في بطن الورى خوفهم — من هذه الاشواك يا وردها

. . . .

هذه خلاصة موجزة لطوقان في بيئة بيروت .. فحين كانت بيروت داره يغلب على شعره الموضوعات الغزليه .. حتى اذا عاد الى ارض الوطن دار المعركه الوطنيه .. حيث النضال المرير مع الاستعمار والصهيونيه .. غلبت على شعره الموضوعات الوطنيه والسياسية ..! وهذا فضل وجود الشاعر في ميدان المعركه يخوض في الاحداث.. ويرقب نتائجها .. وينفذ الى صميمها .. ويرى التيارات الخفية الموجهه اليها ...

في سنة ١٩٢٨ دخلت على الحركة الوطنيه روح من التشاؤم روّجها بعض الدجالين .. وكان ابراهيم قد عاد في ذلك العام الى نابلس.. وكان قد عقد في السنه نفسها مؤتمر (عربي عام) في القدس.. فكان صوت ابراهيم في الحفلة التي اقامتها كلية النجاح الوطنيه في نابلس يدوّي ليبدد ذلك التشاؤم وذلك الوهن الذي غشي البلاد .. وليحيي الروح العربيه في المؤتمر .. فقال قصيدته "تفاؤل وأمل "(٢) جاء فيها :

كم قلت : " امراض البلاد " ! وانت من امراضها
والشؤم علتها ، فهل فتشت عن اعراضها
يا من حملت الفأس تهدمها — على انقاضها
اقعد فما انت الذي — يسعى الى انهاضها
وانظر بعينيك الذئا — ب تعب في احواضها
وطن يباع ويشترى — وتصيح : "فليحي الوطن!"
لو كنت تبغي خيره — لبذلت من دمك الثمن!
ولقمت تضمد جرحه — لو كنت من اهل الفطن!

---

(١) انظر "ابراهيم طوقان" لزكي المحاسني / ص١١٣ — ١١٤ ، (٢) الديوان ص٤٦ ، ٥٠ وانظر " ابراهيم طوقان" لزكي المحاسني ص ٥٥ — ٥٦ وانظر " شاعران معاصران" ص ١٠٧ — ١٠٨

بهذا الاشراق الخطابي .. وهذا الوضوح في الغرض .. وهذا الجلاء في البيـــان ..
وهذه الطواعية في التعبير بدأ توجيهاته الوطنيه !... ثم يحيي المؤتمر فيقول :

الله ثم الله ! ما احلى — التضامن والوفاقـــا !
بوركت مؤتمرا تألـــف — لا نزاع ولا شقـــاقا !
كم من فؤاد راق فيـــه — ولم يكن من قبل راقا !
اليـــوم يشـــرب موطـــني — كأس الهناء لكم دهاقا !
لا تعبأوا بمشـــاغبـــين — ترون ازجهم صفاقا !

وهذا التفاؤل الذي يستشرقه والامل الذي يطل عليه لايلقي على بصره غشاوة تخفي
عن عينيه فعلة السماسره .. وانما هو فضاح لهؤلاء وامثالهم ممن يتسترون : فقال
سنة ١٩٢٩ :

باعوا البلاد الى اعدائهم طمعا — بالمال ، لكنما اوطانهم باعـــوا
قد يعذرون لو ان الجوع ارغمهم — والله ، ما عطشوا يوما ولا جاعوا
وبلغة العار عند الجوع تلفظهـــا — نفس لها عن قبول العـــار ردّاع
لكنهم وعذاب الله يمحقهـــــم — للبطن والفرج دون الخير نزّاع
تلك البلاد اذا قلت اسمها (وطن) — لا يفهمون ودون الفهم اطماع
اعداؤنا — منذ أن كانوا — صيارفة — ونحن — منذ هبطنا الارض — زرّاع
لم تحكسوا آية الخلاّق بل رجعت — الى اليهود بكم قربى واطبـــاع
يا بائع الارض لم تحفل بعاقبـــة — ولا تذكرت ان الخصم خـــدّاع
لقد جنيت على الاحفاد والهفي — وهم عبيد وخدّام واتبـــــاع
وغرّك الذهب اللمّاع تحـــرزه — ان السراب كما تدريه لمّـــاع
فكّر بموتك في ارض نشأت بهـــا — وآترك لقبرك ارضا طولها باع (١)

وكان ابراهيم حين يقع في خطأ يشير الى خطأه .. فحين انشيء "صندوق الامة"
سنة ١٩٣٢ لانقاذ اراضي فلسطين من البيع لليهود .. وكان من بين القائمين
عليه الحاج امين الحسيني وموسى كاظم الحسيني مع اعضاء اللجان في المـــدن
الفلسطينية المختلفه ... لم يؤمن ابراهيم بهذا المشروع ولكنه يقول : "(وتيّست)
فلبيت دعوة جريدة فلسطين للمعاضدة بقصيدة ، واقسم بالله والرسول والملائكة
اجمعين انني لو علمت ان النتيجة ستكون برهانا على موت اهل فلسطين ما حركت
قلمي ، ولكن هكذا كان ونظمت القصيدة (٢) وذيلتها بامضاء (ابو جعفر) :

---

(١) "شاعران معاصران" ص ١٠٨ — ١٠٩ (٢) "شاعران معاصران" ١٠٩ — ١١٠ .

حبذا لو يصوم منا زعيم — مثل (غندي) عسى يفيد صيامه
لا يصم عن طعامه • في — فلسطين يموت الزعيم لولا طعامه
ليصم عن مبيعه الارض يحفظ — بقعة تستريح فيها عظامه

ففي رسالة ارسلها للدكتورعمر فروخ يقول ان ثمانية من القائمين على مشروع صندوق الامة كانوا سماسرة على الاراضي لليهود •• وهو يعلم كيف قامت الاحزاب فيقول :

كل يوم حزب وحلم فحدّ ث — عن ضعيف سلاحه احلامه
مغرم بالبلاد صبّ ولكن — بسوى القول لا يفيض غرامه
بطل ان علا المنابر كرّا — ر سريع عند الفعال انهزامه

ولم يؤمن ابراهيم بهذه الطائفة التي نصبت نفسها للقيادة • طائفة الزعماء من اصحاب النعرات العائليه :

وطني مبتلى بعصبة (دلاّ — لين) لا يتقون فيه الله

يا رجال البلاد يا قادة الامة — ماذا دهاكم ودهاها ؟
عرف الناس والمنابر والاقلام — افضالكم فهاتوا سواها
كلكم بارع بليغ بحمد الله — طبّ بحالنا ودوها
غير انّ المريض يرقب منكم — هذه الجرعة التي لايراها
كان اولى بكم لو ان مع القول — فعالا محمودة عقباها

نبئوني عن القوي متى كان رحيما — هيهات من عزّ تاها
لا يلين القوي حتى يلاقي — مثله عزة وبطشا وجاها
لا سمت امة دهتها خطوب — ارهقتها ولا يثور فتاها (١)

وما اكثر ما يصيح بهذه الرجالات •• ويفضح سرائرهم :

احرارنا ! قد كشفتم عن (بطولتكم) — غطاءها يوم توقيع الكفالات
انتم رجال خطابات منمقة — كما علمنا وابطال (احتجاجات)
وقد شبعتم ظهورا في (مظاهرة) — (مشروعة) وسكرتم بالهتافات
ولو اصيب بجرح بعضكم خطأ — فيها اذا لرتعتم بالحفاوات
بل حكمة الله كانت في سلامتكم — لانكم غير اهل للشهادات
اضحت فلسطين من غيظ تصيح بكم — خلّوا الطريق فلستم من رجالاتي
ذاك السجين الذي اغلى كرامته — فداؤه كل طلاب الزعامات (٢)

---

(١) انظر القصيدة كاملة في الديوان ص ٥٥ ـ ٥٦ (٢) الديوان ص ٧٣ •

وحين كانت القدس مركزا للتطاحن الحزبي بين طائفة من ذوي الثراء والجاه قال :

دار الزعامة والاحزاب كان لنا ... قضية فيك ضيعنا امانيها
هل تذكرين وقد جاءتك ناشئة ... غنية دونها الارواح تفديها
تود لو وجدت يوما اخا ثقة ... لديك يوسعها برا ويحميها
ما كان كفوءا عفيف النفس كافلها ... ولا ابيا حمي الانف راعيها
ولا افادت سوى الاحقاد تضرمها ... فوق البلاد (زعامات) وتذكيها
ولم تبال بما تلقى لها حطبا ... ولا بأي كرام الناس ترميها
قضية نبذوها بعدما قتلت ... ما ضر لو فتحوا قبرا يواريها (١)

ثم يشير الى دور الجرائد والصحافة في التغطية على عصبة السماسرة . :

اما سماسرة البلاد فعصبة ... عار على اهل البلاد بقاؤها
ابليس اعلن صاغرا افلاسه ... لما تحقق عنده اغراؤها
يتنعمون مكرمين كأنما ... لنعيمهم عم البلاد شقاؤها
هم اهل نجدتها وان انكرتهم ... وهمو وانفك راغم زعماؤها
وحماتها وبهم يتم خرابها ... وعلى يديهم بيعها وشراؤها
ومن العجائب ان كشفت قدورهم ... ان الجرائد بعضهن غطاؤها
كيف الخلاص اذا النفوس تزاحمت ... اطماعها وتدافعت اهواؤها (٢)

وتبلغ به السخرية المريره من هؤلاء الزعماء ذروتها حين يخاطبهم :

انتم (المخلصون) للوطنيه ... انتم الحاملون عبء القضيه !
انتم العاملون من غير قول !! ... بارك الله في الزنود القويه !!
(وبيان) منكم يعادل جيشا ... بمعدات زحفه الحربيه !
(واجتماع) منكم يرد علينا ... غابر المجد من فتوح اميه !
وخلاص البلاد صار على الباب ... وجاءت اعياده الورديه !
ما جحدنا (افضالكم) غير انا ... لم تزل في نفوسنا امنيه :
في يدينا بقية من بلاد ... فاستريحوا كيلا تطير البقية ! (٣)

ولا يدع حادثة خاصة من غير ان يربطها بالقضية الوطنية الكبرى .. فحين يطغى الطوفان على مدينة نابلس سنة ١٩٣٥ .. يقول :

من كان ينكر نوحا او سفينته ... فان نوحا بامر الله قد عادا !!
حل الوبال بعيبال فمال به ... يا هيبة الله ابراقا وارعادا

---

(١) الديوان ص ٧٧ (٢) الديوان ص ٧٨ (٣) الديوان ص ٧٨ .

في جارف كمجيج البحر طاغية | امواجه تحمل الاسواق امواداً
ولا تزال من الزلزال باقية | تذكارها يوقد الاكباد ايقاداً

منذ احتللتم وشؤم الحيف يرهقنا | فقرا وجورا واتعاسا وافساداً
بفضلكم قد طغى طوفان (هجرتهم) | وكان) وعدا) تلقيناه ايعاداً
واليوم من شؤمكم نبلى بكارثة | هذا هو الطين والماء الذي زادا (١)

ومع ان اكثر لومه ينصب على عصبة القيادة من الزعماء ، الا انه حين يشير الى الدولة البريطانية المنتدبه والصهيونيه سنة ١٩٣٥ خصمين يقول :

امامك ايها العربي يوم | تشيب لهوله سود النواصي
وانت كما عهدتك لا تبالي | بغير مظاهر العبث الرخاص
مصيرك بات يلمسه الادانى | وسار حديثه بين الاقاصي
فلا رحب القصور غدا بباق | لساكنها ولا ضيق الخصاص
لنا خصمان : ذو حول وطول | وآخر ذو احتيال واقتناص
تواصوا بينهم فأتى وبالا | واذلالا لنا ذاك التواصي
مناهج للابادة واضحات | وبالحسنى تنفذ والرصاص

وحين يوجه الحديث الى ثقيل ويريد رسمه للناس لايجد ابلغ من تعبيرات القضية الفلسطينية لتلخص ثقل هذا الانسان فيقول :

انت (كالاحتلال) زهوا وكبرا | انت (كالانتداب) عجبا وتيها
انت (كالهجرة) التي فرضوها | ليس من حيلة لقومك فيها
انت انكى من (بائع الارض) عندي | انت اعذاره التي يدعيها
لك وجه كأنه وجه (سمسار) | على شرط ان يكون وجيها
وجبين مثل (الجريدة) لما | لم تجد كاتبا عفيفا نزيها
وحديث فيه ابتذال (احتجاج) | كلما نمقوه عاد كريها
جمعت فيك (عصبة) للبلايا | وارى كل امة تشتكيها (٢)

وهكذا فقد كان حربا على الوجاهة والزعامة والنفوذ العائلي ٠٠ ومن هنا جاءت روائعه في القاعدة الشعبيه وما يصدر عنها من بطولات ٠٠ حيث يقيم بناء فنيا بالصور للشهيد فيقول :

عبس الخطب فابتسم | وطغى الهول فاقتحم
رابط الجأش والنهى | ثابت القلب والقدم

---

(١) الديوان ص ٨٥ (٢) من مخطوطه لدى ملك (يوسف طوقان) ٠

لم يبال الاذى ولم　　　يثنه طارئ الالم

نفسه طوع همة　　　وجمت دونها الهمم

تلتقي في مزاجها　　　بالاعاصير والحمم

تجمع المائج الخضمّ　　　الى الراسخ الاشمّ

وهي من عنصر **الفدا**　　　ء ومن جوهر الكرم

ومن الحق جذوة　　　لفحها حرر الامم

سار في منهج العلى　　　يطرق الخلد منزلا

لا يبالي مكبلا　　　ناله ام مجدلا

فهو رهن بما عزم

ربما **غاله** الردى　　　وهو بالسجن مرتهن

لم يشيع بدمعة　　　من حبيب ولا سكن

ربما ادرج الترا　　　ب سليبا من الكفن

لست تدرى بطاحها　　　غيبته ام القنن

لا تقل اين جسمه　　　واسمه في فم الزمن

انه كوكب الهدى　　　لاح في غيهب المحن

ارسل النور في العيو　　　ن فما تعرف الوسن

اى وجه تهللا　　　يرد الموت مقبلا

صعد الروح مرسلا　　　لحنه ينشد الملا

انا لله والوطن (١)

وحين عينت الحكومة المنتدبة يهوديا بريطاني الجنسيه لوظيفة النائب العام في فلسطين امعن في النكاية والكيد للعرب بالقوانين التعسفية الجائرة التي كان (يطبخها) • ولما ثقلت على العرب وطأته كمن له احد الشبان الفدائيين في مدخل دار الحكومة في القدس واطلق عليه النار فجرحه • فقال ابراهيم في هذا الفدائي ، وفي كل فدائي مثله :

لا تسل عن سلامته　　　روحه فوق راحته

بدلته همومه　　　كفنا من وسادته

يرقب الساعة التي　　　بعدها هول ساعته

شاغل فكر من يرا　　　ه باطراق هامته

بين جنبيه خافق　　　يتلظى بغايته

---

(١) الديوان ص ٣٦ — ٣٧　(٢) ديوان ابراهيم ص ٦٥ — ٦٦

من رأى فحمة الدجى	انضرمت من شرارته
حملته جهنم	طرفا من رسالته
هو بالباب واقف	والردى منه خائف
فاهدأى يا عواصف	خجلا من جرائته
صامت لو تكلما	لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته	خلق الحزم **ابكما**
واخو الحزم لم تزل	يده تسبق **الفما**
لا تلوموه قد رأى	منهج الحق مظلما
وبلادا احبها	ركنها قد تهدما
وخصوما ببغيهم	ضجت الارض والسما
مرّ حين فكاد يقتله اليأس انما
هو بالباب واقف	والردى منه خائف
فاهدأى يا عواصف	خجلا من جرائته (١)

فهل رأيت صورا اروع تداخلا واحسن تكاملا من هذه الصور المتلاحقة المتداخلة المتماسكة بحيث تتوالى كأنما القصيدة كلها بيت واحد من مطلعها الى وسطها الى غايتها لا تتوانى ٠٠ ولا تتحشر ٠٠

وحين صدرت احكام الاعدام على الشهداء الثلاثة : فؤاد حجازى من صفد ومحمد جمجوم وعطا **الزير** من الخليل على اثر حوادث سنة ١٩٢٩ على اثر خروج اليهود على التقاليد **الثابتة** المتعلقة بصلاتهم في موقع (البراق) وهياج العرب لانهم فطنوا الى ما يضمر اليهود من وراء هذه المحاوله من اعتداء على الاماكن المقدسه ٠٠ قال قصيدته التي اشتهرت على السنة الشباب في فلسطين وهي :

"الثلاثاء الحمراء" وهو يوم تنفيذ الاعدام ٠٠٠ جعلها في ادوار دراماتيكيه ٠٠٠ وجعلها في مقدمة ٠٠ وايام تاريخيه تواجه هذا اليوم (الثلاثاء) المتسائل عن الفظائع ٠٠ حيث يسأل ايام محاكم التفتيش ٠٠ وايام الرقيق ٠٠ وايام الطاغية جمال ٠٠ وتكون النتيجة ان لا يجد من هذه الايام يوما افظع من يوم الثلاثاء ٠٠ ويصف فظاعته ٠٠ حيث تفزع منه تلك الايام الخوالي ٠٠ ثم تقف ساعات الاعدام في هذا اليوم مواقفها فتصف كل ساعة شهيدها ٠٠ حيث نفذ حكم الاعدام بالابطال الثلاثة في ثلاث ساعات متواليه : فكان اولهم فؤاد حجازى ، وثانيهم محمد جمجوم وثالثهم عطا الزير ٠ وكان المقرر في قرار الحكم ان يكون الشهيد عطا ثانيهم ولكن جمجوما حطم قيده وزاحم رفيقه على الدور حتى فاز ببغيته !

(١) ديوان ابراهيم ص ٦٥ — ٦٦ ٠

وقد عرض هذه الادوار الدراماتيكيه وهذه المواقف التمثيليه في اطار غنائي رائع فريد ! فقال في المقدمه يخاطب هذا اليوم :

لما تعرض نجمك المنحـوس وترنحت بعرى الحبال رؤوس
ناح الاذان واعول النـاقوس فالليل اكدر والنهار عبـوس
طفقت تثور عواصف وعواطف
والموت حينا طائف او خاطف
والمعول الابدي يمعن في الثرى ليردهم في قلبها المتحجر

—

يوم اطل على العصور الخالية ودعا : "أمرّ على الورى امثاليه؟"
فأجابه يوم : اجل انا راويه لمحاكم التفتيش تلك الباغيـــه ٠
ولقد شهدت عجائبا وغرائبا
لكن فيك مصائبـا ونوائبا
لم الق اشباها لماضي جورها فاسأل سواي وكم بها من منكر (١)

ويمضي على هذا النسق يقيم بناءه الفني بالصور الرائعه التي تبعد بالتعبير عن الجمود في الصياغه التقريريه **القديمه** ٠٠

ولقد تمكن ابراهيم من وسائل صياغية يستعين بها على تصوير اجـواء معينه في مضمونه الشعري ٠٠ منها استعماله المصطلحات ذات صور وايحاءات شعبيه "افضالكم على الرأس والعين" "خجلنا من لطفكم" حين وجه الكلام "الى الاقوياء" اي (الحكومة البريطانية) قائلا :

قد شهدنا لعهدكم بالعداله وختمنا لجندكم بالبسـالة !
وعرفنا بكم صديقا وفيّـــا كيف ننسى انتدابه واحتلاله ٠٠
وخجلنا من (لطفكم) يوم قلتم : وعد بلفور نافذ لا محاله !
كل (افضالكم) على الرأس والعين وليست في حاجة لدلا لـــه
ولئن ساء حالنا فكفانا انكم عندنا بأحسن حاله !
غير ان الطريق طالت علينا وعليكم فما لنا والاطالــــه
اجلاء عن البلاد تريدون فنجلو ام محقـنا والازالـــــه ؟ ! (٢)

وله من هذه الوسائل عبارات كثيره ٠٠ من ذلك تعبيره عن فضح السماسره :

ومن العجائب ان كشفت قدورهم ان الجرائد بعض من عطاءها (٣)

---

(١) الديوان ص ٣٨ ـ ٤٥ (٢) الديوان ص ٧٦ (٣) الديوان ص ٧٨ ٠

والامثلة كثيره يطفح بها ديوانه في موضوعاته المتنوعه ...

ومن هذه الوسائل معالجته للقضايا العامه معالجة يمتزج بها الحس بالفكر امتزاجا لاتظهر فيه ازدواجيه . وقد برع في هذا حتى جعل التهكم والسخرية وقلب الدلالات الى معكوسها يرتفع بالتعبير الفني الى مستوى لايجاريه فيه شاعر من الشعراء ... ومن هنا كانت معارضاته ايديولوجيه يقصد فيها الى اثبات مضمونه وليس يقصد المعارضات اللغويه او البلاغيه لمضمون القصيده المعارضه .. ومن هنا لم يكن حريصا على عود الابيات في المعارضات ولا على المجاراة البلاغيه .

فحين رأى (شوقي) ربيب القصور يتحدث عن التعليم والمعلم حديث من لم يجرب هذه المهنه ..وانما هو يطل عليها من احدى شرفات تلك القصور الملكية . ويتناولها تناول الوعاظ والنساك .. وحديثه يذكر بغناء محمد عبد الوهاب من اسطوانات عن عيشة الفلاح وحلاوتها وطمأنينتها .. كاد الشاعر المعلم البرجوازي (ينفلق) فيقول :

(شوقي) يقول – وما درى بمصيبتي ... قم (للمعلم وفه التبجيـــلا)
اقعد فديتك هل يكون مبجلا ... من كان للنشء الصغار خليلا
ويكاد (يفلقني) الامير بقوله : ... كاد المعلم ان يكون رسولا !
لو جرب التعليم (شوقي) ساعة ... لقضى الحياة شقاوة وخمولا
حسب المعلم غمة وكآبــــة ... مرأى الدفاتر بكرة واصيلا
مئة على مئة اذا هي صلحت ... وجد العمى نحو العيون سبيلا
ولو ان في (التصليح) نفعا يرتجى
وابيك لم أك بالعيون بخيلا
لكن اصلح غلطة نحوية ... مثلا ، واتخذ (الكتاب) دليلا
مستشهدا بالغر من آياته ... او (بالحديث) مفصلا تفصيلا
واغوص في الشعر القديم فأنتقي ... ما ليس ملتبسا ولا مبذولا
وأكاد ابعث (سيبويه) من البلى ... وذويه من اهل القرون الاولى
فأرى (ابن كلب) بعد ذلك كله ... رفع المضاف اليه والمفعولا !!
لا تعجبوا ان صحت يوما صيحة ... ووقعت ما بين (البنوك) قتيلا
يا من يريد الانتحار وجدته ... ان المعلم لا يعيش طويلا !

أرأيت كيف يحس واقع القضية شاعر برجوازي من ابناء هذه المهنة .. وكيف يحلق حولها ولا يمسها شاعر الارستقراطيه ربيب القصور ! الفرق شاسع واسع في التناول ... ومن هنا كان هذا التصوير الواقعي الرائع وهذه الصور المتماسكة المتمازجه ...

وهذه التعابير والمصطلحات ذات الايحاءات والصور الشعبيه ، ومع ان ابراهيم لم يجرب التفعيله الواحده لتكون وحدة للتعبير الشعري الا انه نجح في بنائه الفني .. فكانت صوره متداخله متكامله واقعيه لم تبددها غيوم الاوهام وخيالات غير الواقع ... !

وهكذا كان الشعر وصفا تقريريا حتى جاء طوقان فبعث فيه روحا جديدة وبث فيه صياغة حية متحركه .. وكان اطاره الشعري غير مصمت ادخل فيه وسائل مختلفة حديثة ...

ولم يكن ابراهيم يتناول اي حدث من غير ان يربطه بالافاق العامة الواسعة .. فهو في التجارب الخاصه غير منعزل ولا منطو وانما يقرب التجربة العامة ويبين صلتها بالتجربه الخاصة الجزئيه .. وهذا ثمرة ارتباطه الوثيق بالحياة الاجتماعية العامة ... فحين طلب اليه ان يرثي موسى كاظم .. "لانه حضر جنازة عمه الحاج حافظ .. اضف الى ذلك عنعنات عائليه حزبيه يجب ان يحتفظ معها بشيء كثير من الموازنه .. اخذ في نحو هذه المقبلات الشعريه واحد وعشرين بيتا .. وحين قيل له انه كان مجحفا في قصيدته .. وانه اتكأ على الرجل ثم انصرف عنه الى بحث القضية سرّ بتلك الشهادات وعلم منها انه لم يحد الغرض الذي اراده في تأبين الباشا " (١)....

أرأيت الى اخلاصه لفنه ولمنهجه ، لا يصرفه عن متجهه مجاملة ولا عنعنه!

ومن اروع مظاهر الربط بين التجربة الجزئية الخاصة والافاق العامة الواسعة قصيدته "الحبشي الذبيح " .. (٢) فقد رأى في الحادث صورة الام المغلوبة على امرها

برقت له مسنونة تتلهب	امضى من القدر المتاح واغلب
حزت فلا خد الحديد مخضب	بدم ولا نحر الذبيح مخضب
وجرى يصيح مصفقا حينا فلا	بصر يزوغ ولا خطى تتنكب
حتى غلت بي ريبة فسألتهم	خان السلاح ام المنية تكذب
قالوا حلاوة روحه رقصت به	فأجبتهم ما كل رقص يطرب
هيهات دونكه قضى فاذا به	صعق يشرّق تارة ويغرّب
واذا به يزور مختلف الخطى	وزكية موتورة تتصبب
يعدو فيجذبه العياء فيرتمي	ويكاد يظفر بالحياة فتهرب
متدفق بدمائه متقلب	متعلق بذمائه متوثب

---

(١) شاعران معاصران ص ١٣٩ (٢) الديوان ص ١٤٢ .

اعذابه يدعي حلاوة روحه   كم منطق فيه الحقيقة تقلب
ان الحلاوة في فم متلمظ   شرها ليشرب ما الضحية تسكب
هي فرحة الصيد التي قامت على
الم الحياة وكل صيد طيب

وهو بذلك يجمع بين التعبير التقليدي العام والتعبير الذاتي ·· في بيان يذكرنا بقدرة ابي نواس التعبيريه حين كان يعمد الى الصور في طردياته ··

وله محاولات ناجحة في تيار الحكايات الشعرية وهو اتجاه عالجه كثيرون من شعراء هذه المرحلة ·· كالحكاية الرمزية التي تمثل الواقع في حياة المدن الكبرى حين يدخل غمارها الشاب القروي البسيط فتخلبه بزخرفها ولهوها وعبثها وتذهب به في مزالق الضلال ··· ثم لا يلبث ان يصحو بعد فوات الاوان ·· بعد افلاس في المال او الصحة او المستقبل او فيها جميعا ·· ويرمز للشاب المخدوع بالبلبل ولبائعة اللهو بالوردة وللحانة او الملهى بالروض ·· وتتجاوز الحكايــة الثمانين من الابيات التصويرية الرائعة ! ·· وقد سمى حكايته " مصرع بلبل " (١)

ومن مطولاته كذلك محاولته التأريخ لحياة المتنبي تأريخا في رواء شعري فني ·· جعل عنوانها " مرابع الخلود " (٢) وقال قبل ان ينظمها :

" فكرة القصيدة ومحورها جاهزان ولا ينقصهما غير النظم فاذا توفقت في ابراز الفكر والمحور كما ينبغي لهما ان يبرزا جاءت القصيدة آية ، لان الفكرة والمحور طريفان بكل ما في الطرافة من معنى " (٣)

ومن هنا كان يجيء الفكرة لكي يشتمل عليها الحس فيمازج في هذه الموضوعات بين الفكر والحس ممازجة فنية !

ومن ذلك النوع القصيدة التي رد بها ابراهيم على شاعر اليهود وقد قال في رسالة لصديقه الدكتور عمر فروخ :

" ترجمت جريدة فلسطين نهار امس قصيدة لشاعر يهودي يعيرنا فيها بأننا ابناء هاجر فبدأت بقصيدة مطلعها :

هاجر امنا ولود رؤوم   لا حسود ولا عجوز عقيم

ومنها :

يوسف باعه ابوكم يهوذا   ان حب الدينار فيكم قديم

---

(١) ديوان ابراهيم طوقان ص ١٨٠ — ١٨٦ (٢) ديوان ابراهيم طوقان ص ٢٠٢ — ٢٠٨ (٣) من رسالة بعث بها الى صديقه الدكتور عمر فروخ " انظر شاعران معاصران " ص ١٤٨ ·

وهذه الفكرة مقتبسة من التوراة (سفر التكوين ، اصحاح ٣٧ ، رقم ٢٦ ، ٢٧ ،) :
(فقال يهوذا لاخوته : ما الفائدة ان نقتل اخانا ونخفي دمه • تعالوا نبيعه للاسماعيليين) ومنها :

وشكسبير خالد القول فيكم   أمر (شيلوخ) في الورى معلوم
غير أن الذين منهم شكسبير   تناسوا ما قال ذاك العظيم

وأراني سأجعل كل بيت من ابيات هذه القصيدة مأخوذا عن مصدر **تاريخي** بل من التوراة نفسها فانها تفيض بخبثهم منذ قال الله لموسى "اضرب بعصاك البحر الى اليوم " (١)

بهذا النوع من الجهود كان ابراهيم يخطط لقصائده وموضوعاته الشعرية ••• ولكنه لا يبيح للفكر ان يطغى على الحس او ان تبدو ازدواجية بينهما في بنائه الفني •••

اما الاناشيد الوطنية فهو شاعرها الذي لايجارى •• وكان المتبارون من كبار الشعراء يجرون في بحر اناشيده مجرى واحدا •••(٢) لاسيما نشيده عن ثورة مراكش بقيادة الامير عبد الكريم الخطابي •• ومطلعه

في ثنايا العجاج   والتحام السيوف
بينما الجو داج   والمنايا تطوف
يتهادى نسيم   نحو عبد الكريم
حاملا ازكى تحايا المشرق

وله النشيد المشهور الذي ينشد في معظم الاقطار العربية :

موطني   الجلال والجمال   والسناء والبهاء   في رباك
والحياة والنجاة   والهناء والرجاء   في هواك
هل اراك
سالما منعما   وغانما مكرّما
هل اراك   في علاك
تبلغ السماك
موطني

موطني   الشباب لن يكلّ   همه ان يستقل   او يبيد
نستقي من الردى   ولن نكون للعدى   كالعبيد
لا نريد

---

(١) شاعران معاصران ص ١٤٩ ــ ١٥٠ (٢) شاعران معاصران ص ١٢٣ •

ذلّنـــا المؤبد   وعيشنا المنكدا
لا نريد   بل نعيد
مجدنا التليد
موطني

موطني   الحسام واليراع لا الكلام والنزاع   رمزنـــا
مجدنا وعهدنا   وواجب الى الوفا   يهـــزنـــا
عندنا
غاية تشرّف   وراية ترفرف
يا هناك   في علاك
قاهرا عداك

وهناك باب بأكمله للاناشيد الوطنية في ديوان ابراهيم (١)

والافاق الشعرية لدى ابراهيم طوقان متعددة النواحي واسعة الاماد ولا يتسع المقام لايفائها حقها جميعها !

وقد جعلناه خاتمة المطاف في حياة هذه المرحلة الشعرية ليكون مسك ختامها .

---

(١) ديوان ابراهيم طوقان ص ١٨٧ ـ ٢٠٠ .

المرحلة الرابعة

وتمتد هذه المرحلة من الحرب العظمى الثانية حتى وقوع الكارثة في فلسطين ... وقد رأينا ان ثورات العرب في فلسطين قبل الحرب العظمى قد احبطت الموعد المبكر لحلول النكبة وأخرت تنفيذ التخطيط الاستعماري الصهيوني الى عشر سنوات ... وهذه السنوات العشر هي السنوات التي تدهورت فيها القضية ، وأحس الاستعمار بضرورة التعجيل في تنفيذ مخططاته .. وشعر ان الرأي العام العربي فرح متفائل بالضربات التي انزلها النازيون بأعدائهم .. وكان فرحهم ذلك لا عن مبادئ معينة وانما هو فرح نكاية ليس غير ... وقد وجد الاستعمار فرصة في الحرب من اجل اقامة البناء العسكري الصهيوني .. وحرم العرب من اي لون من الوان التنظيم العسكري .. وما كادت الحرب العالمية الثانية تنتهي حتى اخذ الصهيونيون العسكريون يجربون عضلاتهم .. ويختبرون مدى قدرتهم العسكرية .. فأخذوا يوجهون ضرباتهم للانكليز .. ولكنهم بعد قرار التقسيم الصادر في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ اعدوا حملة تشريد منظمة ليحملوا السكان العرب على النزوح الجماعي ... فتحولوا من الانكليز الى العرب .. وجعلوا ينظمون المذابح لاشاعة الهلع والفزع ... واخذ الانكليز يجردون المدن العربية من السلاح ثم يجلون عنها ويسلمونها لليهود ... وانسحب الانكليز من فلسطين في ١٤ ايار سنة ١٩٤٨ .. ودخلت الجيوش العربية النظامية فلسطين بقرار من مجلس الجامعة العربية في ١٥ ايار ، واخذت امريكا على عاتقها تنفيذ المخطط الاستعماري الصهيوني ثم عقدت الهدنة الاولى بعد اربعة اسابيع من القتال .. وبعدها استؤنف القتال في ٩ تموز سنة ١٩٤٨ واستمر الى ١٨ منه حين عقدت الهدنة الثانية .. وكانت النكبة قد انتهت الى غايتها .. (بفضل) امريكا وبريطانيا ...

هذا هو الاطار السياسي الاسود للقضية في هذه المرحلة .. وقد كان النضال فيها لونا من الوان الانتحار .. فقد كانت المرحلة مرحلة تدهور حط الاستعمار فيها قضية البلاد من عل حتى ارتطمت بصخور القاع !

وحمل الشعر دوره في هذا التدهور المريع .. فحين احس الرأي العام بتفاؤل من جراء انتصارات الالمان اخذ الناس يظهرون التشفي بالاعداء .. فرأينا في هذه المرحلة بابا يسمى الهتلريات (١) في ديوان جبل النار للشاعر برهان الدين العبوشي .. يقول في الاسطر التي سبقت الشعر :

---

(١) ديوان جبل النار ص ٩٦ .

"نظمتها نكاية بأعدائنا الذين اضاعوا فلسطين وغيرها رغم انني اكره كل استعمار مهما كان لونه ، ولا ارضى بغير العروبة مبدأ والقرآن كتابا " . ويقول في مقدمة قصيدته "هتلر" : " نظمتها يوم اجتاح هتلر بولونيا ففرنسا واعتقدت ان فرنسا ستسحب جيوشها من سوريا ولبنان فيستقل كل منهما ، وان الجيوش البريطانية ستضطر الى الانسحاب من البلاد العربية فنغتنم الفرصة للاستقلال ، **والتنفس** بملء رئتينا فلا نعود مستعمرة الى الانكليز او الالمان او غيرهم ... وحين طلب الانكليز من عرب فلسطين ان يحالفوهم وهم يذبحونهم ويشردونهم ويظاهرون اليهود عليهم قال في قصيدة عنوانها : "لا يلدغ المؤمن من **جحر** مرتين " (١)

ارهقتمونا وقربتم منـــايانا ... واليوم تبغوننا نغسى ضحايانا
لا تتركوا فوقها **انثى** ولا ذكرا ... الاقتلتم له اهلا واخدانا
ولم تراعوا لاهل الدين حرمتهم ... بل انتبذتم وراء الحور صبيانا
زاحمتم الله في **الدنيا** فقوضكم ... وزلزل الارض حيتانا وعقبانا
وصاح فيكم فاشقاكم وشردكم ... وضاقت الارض فيكم من خطايانا
وما جمعتم طول العمر **بدده** ... وصرتم للعبيد السود عبدانا
يحمونكم من نسور (الريخ) خاوية ... عليكم كرجوم الجن حسبانا
ومن صواعق يابانية صهرت ... من جمرة الشمس نيرانا وبركانا
تذيبكم في ثنايا الارض مائعة ... عظامكم وحليف الشر لا كانا
تذيبكم مثلما ذبنا وتصهركم ... كما صهرتم امانينا وقتلانا
ابعد ما جرتم واشتط حاكمكم ... جئتم تريدوننا اهلا وخلانا
او بعد ما بعتم صهيون حرمتنا ... وعرضنا تبتغون العرب اخوانا
لا كانت العرب ان **مدت** لكم يدها ... بغير سيف تجلت فيه احزانا
تعال (رومل) ان كنت الذي بعثت ... فيه العناية آمالا وايمانا
ان كان لا بد ان تبقى مواطننا ... مستعمرات فان الموت قد هانا

ويظل الشعر يحمل عبء التوعية والتنبيه ويفضح دسائس المستعمرين .. فحين اقبل الجنرال سبيرز على دمشق (منتصرا لها) على زعمه ضد الفرنسيين نشرت جريـــدة (الوحدة) العربية المقدسية في ٢٥ تشرين الاول سنة ١٩٤٦ على اثر زيارتـــه قصيدة للشاعر برهان الدين العبوشي عنوانها " التاريخ يعيد نفسه " (٢) او " الجنرال سبيرز " جاء فيها :

---

(١) ديوان جبل النار ص ٩٦ (٢) ديوان جبل النار ص ٦٩ .

هل مات (لورنس) ام هل عاد للناس ... ام هل تقمص في اثواب خناس
لقد تقمص في (سبيرز) فلا عجب ... ان اشكل الامر يا هذا على الناس
اهل الوزارة قد شقت محاجرهم ... شوقا ولو قدروا ساروا على الراس
اجئت تحمل ترياقا لامتنـــا ... من (لندن) ام لدس السم في الكاس
ام جئت تحمل اموالا واوسمة ... قد جاء قبلك (لورنس) بأكياس
قد غبت عنا ولم ترحم جوانحنا ... ففيم صدك عنها ايها القاسي
ماذا جرت بالوصايا السبع نمقها ... (لورنسكم) هل ترى باءت بافلاس
اهلا وسهلا فانا من عبيدكم ... نحن الضيوف وانت المطعم الكاسي
ان كان ينفر منك الشعب من حذر ... ففي الوزارات تلقى خير ايناس
ان كنت في الشام في دنيا معاويه ... لاتشتم الصيد من ابناء (عباس)
ان رحت تسدي يدا للعرب ناصحه ... فمن ترى نكب الاقصى بوسواس
قد جاء قبلك (لورنس) فما نفعت ... رقاه بل طمروها تحت اكداس

وانت تلمس مسحة من حزن تشتمل على شعر هذه المرحلة ٠٠ وكأنه حزن الذي يخشى وقوع الكارثة ٠٠ تلمس هذا الاسى حتى في قصائد القوة ٠٠ فقصيدة الشاعر برهـــان الدين العبوشي التي قالها في بغداد سنة ١٩٤٠ بعد نزوحه من فلسطين ، ونشرتها جريدة الاردن بعمان في ٩/ ٥/ ١٩٤٣ بعنوان "كلنا مستعد " (١) تحسّ فيها هذا الحنين الحزين :

هل رجـــوع ... للمعنى الغريب ... للـــربوع
فالضلـــــوع ... حنت لذكر الحبيب ... والدمـــوع
مترعات الاسى ... في كؤوس المسا
احتسيها عسى ... تستريح الجفون
يا ليال ... عبدك المستغيث ... استحال
كالخيال ... سار سيرا حثيث ... للزوال
عله يستريح ... مدرجا او يريح
انه لا يبيح ... نفسه ان تهون
غربتان ... غربة في البلاد ... او هوان
للجبان ... يا ربوع الجهاد ... بالامان
انني لن اعود ... تحت حكم اليهود
في ثنايا اللحود ... قلب ام حنـــون

(١) ديوان جبل النار ص ٣١ ــ ٣٢ ٠

عش سما يا ربيع النفوس يا حمى
فالدما ذي فدى والرؤوس كلما
سامك المستبد بالمواضي
كلنا مستعد لارتياد المنون

حتى التيار الشعبي في هذه المرحلة لفته سحابة من الاسى والتألم الموجع فقال الشاعر الشعبي (ابو دياب) : (١)

يا لايمي في قولي آخ الدهر بعد العز شاخ
وشباننا عملوا شماخ وخلا البقيع من الرخاخ
وتسلطنت فيه البيادق
الفكر شت من الذهون والنذل دل للظعون
انا ناديت اهل الفنون سكتت بلابل الغصون
واصبح الخفاش ناطق
تاه في فكره الامير وتكرم الرجل الحقير
والخيل حلفت لا تسير وتسابقت عرج الحمير
كله من عدم السوابق
. . . .

واذا اغاني الغرام في هذه المرحله تغشاها تلك السحابة وتغرورق بدموع الحزن :

طارحتني بالجوى ظلم الزمن اذ تلاقينا على ورد الشجن
واشتكت لي واشتكيت وبكت لي وبكيت
وتعانقنا ولوعا فتمازجنا دموعا
ورجونا الدهر ان يبقى اللقا فاجابتنا ليالي الغد : لا !
ثم سارت فأشارت من بعيد بالقبل
وتناءت فتوارت خلف اعطاف الجبل
فجرى دمع المقل وجوى وجدى اشتعل وخبا نور الامل
واكتس الغاب من البين الرهيب لوعة الباكي وناح العندليب
والبلابل في ذرى الاغصان حنت وهفت
والجداول في ظلال البان أنت وبكت
وارسل الوادى لما حدا الحادى مدامع الحزن كوابل المزن (٢)

(١) ما تيسر (الجزء الاول) ص ٣٧ـ٣٨ (٢) من ديوان الاصائل والاسحار ص١٣١ـ ١٣٣ للشاعر حسن البحيرى ٠

وانت تحس في هذه الاشكال الشعريه انفاس الاندلس... وهو امر طبيعي دفعهم اليه حزنهم وتوقعهم نزول الكارثة .. فأخذت هواجسهم تمثّل لهم اشباح الضياع والمجد المفقود ... فعادوا بنفوسهم الى الاندلس وتمثلوا فيها الكارثة قبل وقوعها ... واصبحت الاندلس موضوعا شعريا يتناوله الشعراء حتى ولو لم يروا آثار الاندلس.. وانما هم يتمثلونها من واقعهم .. ومن قراءاتهم ومطالعاتهم في (رحلة الى بلاد المجد المفقود) او في (رحلتي الى الاندلس)

خطرات منها تصدع نفسي ضاع صبري بها وبان التأسّي
كلما عاود الفؤاد عهيد من رؤاها على الزمان المنسي
هاج كلم الاسى فغيب رشدي بين حر الجوى واطياف هجسي
يا زمانا مضى وعهدا تولى في ليال خلت كلذه خلس
اين تلك المنى بلاسم برء لجراح الجوى وتطبيب نطس (١)

ويمضي حسن البحيري في هذه الديباجه (الشوقيه) (البحتريه) حتى يبلغ الثمانية والخمسين من الابيات ... يصف فيها " المجد المضاع " (٢) في غلالة من الحزن الفاجع ! وقد ظفرت هذه المرحلة لهذا الشاعر بدواوين ثلاثة : الاول : الاصائل والاسحار ... وهو ديوان الغزل .. نشره نادي انصار الفضيلة بحيفا في سنة ١٩٤٣ .. والثاني : افراح الربيع وهو ديوان الطبيعه .. نشره محمد احمد حجازي سنة ١٩٤٤ ... والثالث : ابتسام الضحى .. وهو ديوان الوطنيه .. نشره صندوق الامه العربيه سنة ١٩٤٦ .

ومضى الشعراء يتلمسون العزاء فلا يظفرون به :

اعيا به الشعر اعواما فما نطقا حتى جرى الحب في اعراقه طلقا
ونادمته الليالي فهو ذو ارق وكان قبل دمشق يجهل الارقا
سبع من السنوات الجهم زاحفة تحبو كشيخ طوى في صدره الرمقا
انكرت فيها شبابي لا ادل به ولا ارى لاحتباس القلب منطلقا
قالوا نزعت الى الفيحاء قلت لهم الى الفراديس لا هما ولاقلقا
استل من جنبات الصدر بعض اسى
واطفيء الالم المشبوب والحرقا
حتى اذا ما استبد الليل معتسفا والكون في مدلهمات الدجى غرقا
ناجيته في اكتئاب هل تركت لنا يا ليل جفنا على الاحلام منطبقا
يا اخت من زينوا الدنيا ومن حملوا
على المفارق من هاماتهم فلقا

(١ ، ٢) ديوان الاصائل والاسحار ص ٨٩ — ٩٨ ، لشاعر حسن البحيري .

أنسيتني عقد الالام في بلـــــد ... جار الضلال على اشباه واختلقا
والعبقريون من ابنائه زمـــر ... لم تحن للظلم واستبداده عنقا
حتى رأت مريم فيه وآمنـــة ... أن ليس الا ذراع الموت معتنقا
ولتصبح الجنة الخلباء عاريـــة ... والعندليب المنادى اسحما نعقا
وهب شعب على سيحات صخرته ... يستلّ من عذبات الله ممتشقـا
وراح ينحرها حربا مقدســـة ... شرقية بضمير الغرب لن تثقـا
كم حدثونا عن العدل المقيت وكم ... كانت لهم حلبات الظلم مستبقـا
لن نستقر ولن تهدأ مراجلنـا ... والحق في عالم الاطماع قد خنقـا
سيعلمون وفي التاريخ موعظـــة ... كيف استمدوا من التقطيع متفقـا (١)

ومثل هذا الالم المرير .. والحزن الذى يتوقع الكارثه ... قصائد للشعراء معـين بسيسو ... وحنا جاسر .. وهارون هاشم رشيد .. ودعد الكيالي .. وغيرهم من شعراء فلسطين في هذه المرحلة .. حيث تلمس ظلال الاسى في شعرهم مهما يكـن مضمونه سواء أكان في الغزل أم الوصف أم الرثاء ام الوطنيه !

وتنسحب هذه الظلال على الاقاصيص الشعريه في هذه المرحلة :

كان شحرور وحيدا ... ناعم البال سعيـدا
هائما بـين الظلال ... جاهلا غيب الليالي
حالمـا حلم الاماني ... بـــين ترجيــع الاغانـــي
فأتى طير وابـــدى ... بجميل القـول ودّا
قال يا شحروراني ... باحث عن خير خدن
ولك اليوم فؤادى ... قد صفا قبل ودادى
سيصون العهد قلبي ... افلا ترضى بحـــبي
قبل الشحرور عهده ... ومضى يصفيه وده
قطفا زهر الامانـــي ... وجنى الامال دان
فاعترى الشحرور داء ... ماله بمسه نجـــاء
كان في العش الامين ... نائما بين الغصون
فاذا بالرعد يقصـف ... واذا بالريح يعصـف
كسرت منه جناحـــه ... فغدا يشكو جـراحه
شهد الطير الخدينا ... يقطع الليل انينـا

---

(١) قصيدة للشاعر محمود الحوت / نشرتها الصحف في يافا في كانون الاول سنة ١٩٤٧ بتوقيع (ربيع)

ترك الالف صريعا   موجعا يذري الدموعا
ومضى الطير الخؤون   لم تحركه الشجون
والصديق العون صاحب   ما سرت عنك النوائب
فبكى الشحرور وجدا   قائلا ما خنت عهدا
خانني الصاحب لما   أن رأى البؤس ألمّا
بت في أبأس حال   وكذا حال الليالي
ان غدا الصيان رغيدا   اصبح الكل ودودا
واذا الدهر تنكر   مال كلّ وتغيّر (١)

ومثلها اقاصيص الشاعر اسكندر الخوري البيتجالي الاجتماعية في ديوانه "العنقود" وقد مضى في الابواب والاتجاهات التي سبقت مع صقلة ابدع في التعبير تترقرق في شعره في هذه المرحله من حياة الشعر ا

وفي هذه المرحله من حياة الشعر اخذت تتراءى صور لتيار جديد على الحياة الفلسطينيه لا يخوض الحياه .. وانما ينزوي في حنيّة من حناياها .. وشخصه خشية الحياة **ازور** ... وقد التقت عوامل خاصه مع عوامل بيئة اخرى خارج فلسطين في تكوين صاحبة هذا الاتجاه ثريا ملحس الشاعره الفلسطينيه التي نشأت في لبنان وتأثرت بالرمزيه اللبنانيه .. وبدأت تطلع علينا بقصائد في هذه المرحله تحمل هذا الاتجاه الرمزي كقصائدها في الاديب : "في المنحنى "أو "ايمان" (٣) و "الليل) (٤) و "شرود " (٥) و "تمرد " (٦) و "يأس" (٧) .. وفي هذه القصائد تلملم ثيابها **وتفزع** الى الليل .. الى عالم غير عالم الناس وتطلب أن يهيلوا تراب الزمن على رأسها لانها ملّت النهار ...

وتتجمع الانفاس الملحميه التي لمسناها في المرحلة السابقة عند ابراهيم الدباغ وغيره والتي تشيع في قصائد وديع البستاني (٨) في هذه المرحله : " كصوت من فلسطين " و "يوم النجاح " و "مهرجان الجلاء " .. حتى تصب في تيار جديد يتخذ الاطار الملحمي على ابعاد اطول ... وفسحات اوسع ...

---

(١) ديوان الاصائل والاسحار / للشاعر حسن البحيري / ص١٠٦ – ١٠٩ (٢) الاديب / سنة ٦ / جزء ٤ ص ٤٦ (٣) الاديب / سنه ٦ / جزء ٦ ص٣٤ (٤) الاديب سنه ٧ / جزء ١ ص ٢٩ (٥) الاديب / سنه ٧/ جزء ٢ ص ٣٤ (٦) الاديب / سنه ٧ / جزء ٨ ص ٣٢ (٧) الاديب / سنه ٧/ جزء ٩ (٨) ديوان الفلسطينيات / ص ٢٥٩ – ٢٦٥ وص ٢٧٨ –٢٨٧ / وص ٢٩٩ – ٣٠٧ .

لا يبلغ حد المدلول الحقيقي للملحمه كما نعهدها في الاداب العالميه الكبيرة ٠٠ ولكنه يحمل منها بعض انفاسها الحرى ٠٠٠ كتلك المحاولة التي عالجها الشاعر اسكندر الخوري البيتجالي حين بدأ مع بدء الحرب العالمية ينظم (ملحمته) ٠٠ ثم مشى معها حتى آخر مراحلها ٠٠ وقد تقيد فيها ببحر واحد ، وقافية واحدة ٠٠ **واتى** فيها على تراجم الشخصيات البارزين الذين وردوا فيها ٠٠ ووصف معاركها الدامية وقد قال الشاعر علي محمود طه في مقدمة هذه الملحمة :

"ليس بدعا أن تخرج لنا فلسطين ، ارض الدم المسكوب ، والحق المغصوب والصراع المشبوب ، شاعرا حكيما مبينا ، كالاستاذ اسكندر الخوري البيتجالي ، يؤرخ لنا هذه الحرب العالمية الثانية ، ويقف من أحداثها وفواجعها موقف القاص المدقق والقاضي المحقق ٠٠ وشاعرنا قوي الاسلوب ٠٠ بيّن اللفظ ٠٠ متين العبارة ٠٠ غنّي المادة ٠٠ طويل النفس ٠٠ وقصيدته هذه بين شعر السير وشعر الملاحم تستمد من الحقائق المجرده ، وذلك الوصف الدقيق الرشيق ، ولا تأخذ من الخيال الا بقدر ممتع دون مبالغة او تزويق ٠٠ وهو بين الاجمال والتفصيل يرق ويعذب ، ويشتد ويصلب في كل ما يمس العروبة او امجاد الشرق او يتصل بذكريات الوطن والاهل والاحباب ٠٠

اقرأ له في وصف معركة برلين او ستالينجراد او في غيرها تر الشاعر سبوحا محلقا مجليا متألقا يعطيك الشعر الجيد كفاء اغراضه ٠٠ وللشرق العربي واقضيته الكبرى من هزات هذه الشاعرية صيحات وترانيم تنادي بالحق ، وتهتف بالخيره وتتغنى بالمثل العليا ، وتمجد البطولة ، وتنعى على الحضارة الالية هذه المذابح الحمر ، واقرأ له عن الوحدة العربيه ، وعن مصر ، وسورية ، ولبنان ، والحجاز ، وعن قضية بلاده الشهيدة ، تحس الشاعرية الحية في فورتها ٠٠ وتلمس اصدق الاحاسيس في ذروتها **متكلمه** وشادية ومصوره واقرأ له عن مؤتمر سان فرنسيسكو واسمع لهذا النداء الانساني الصادق الذي يترسل بحكمة الشرق ويتمثل الامه وآماله ، في صميم هذا المضطرب بين دعاة الصهيونية وبناة عالم الغد ٠٠ تقرأ شعرا واقعيا عاطفيا رفيع التعبير بليغ التأثير ٠٠٠ "

وقد أربت القصيده على المائتين والستين من الابيات ، بدأها بتصوير ما قبل العاصفة :

ناموا طوال لياليهم خليينا	واستأمنوا الدهر لا شرا يظنونا
باتوا نشاوى من النصر الذي ثملوا	بخمره منذ ثنتين وعشرينا
قالوا : لنله ، فلا حرب يهددنا	ولا هموم فقد نلنا امانينا
وتمتعوا في ملذات بها انغمسوا	فآستمرأوها لذاذات افانينا
لاهين عن عاديات الدهر قد غفلوا	ففاجأتهم عوادي الدهر لاهينا

وقام في الغرب جبار ينازلهم يدعوهم للوغى في شهر تشرينا

يا شهر تشرين لا جادتك غادية ولا الروائح جادت في كوانينا

هيأت للناس حربا لا مثيل لها وقمت للحرب تستدعي الملايينا

ان أنس لا انسى ماضينا وما فعلت بنا الوغى يوم قاربت الثلاثينا

ما جف دم الاولى خاضوا معاركها كلا ولا جف دمع في مآقينا

عادت الينا فعاد الويل ثانية وها انا اليوم اصبحت ابن خمسينا

شمطاء ما شاب قرناها وما وهنت وقد وهنا وقد شابت نواصينا

وهكذا يمضي في وصفها قبل العاصفة حتى يبلغ اثنين وعشرين بيتا .. ثم يصف العاصفه في ثلاثة عشر بيتا .. ويصف معركة دنكرك .. في ثمانية ابيات .. ومعركة فرنسا في تسعة .. وايطاليا في خمسة .. ومعركة انكلترا في ستة .. وطبرق في ثلاثة .. والعراق في اربعه .. وفلسطين الشهيدة في ثمانية .. والثورة العربية الكبرى في ثلاثة عشر .. وفرنسا الحره بقيادة ديجول في ثلاثة .. ثم جاء الى غزو روسيا فقال :

وطار هسّ الى انجلترا حذرا يفاوض القوم في غزو الشيوعينا

وبخ للروس بالسر الذي صعقوا فقال هتلر : هسّ كان مجنونا

وبات يحذر روسيا فاجمها لم يرع عهد التصافي مع ستالينا

ثم يمضي بعد ابيات خمسه الى وصف الجيش الاحمر حين يلتقي به الجيش الالماني :

برا وبحرا وجوا قام قائمهم الى المنايا مشوها مشمخرينا

همت سحاب المنايا فوق هامهم عنها سل الارض سل خاركوف والدونا

عصائب الريح جدت في كوارثهم حين اكفهرت وأودت بالعديدينا

والثلج قائدها الاعلى وقد عصفت رياحه الهوج يغمرن الميادينا

من القنابل تهوي من عل سحبا تهوي حديدا وبارودا وبنزينا

من طائرات تقل الموت حائمة قوادهم خلتهم فيها عفارينا

والرعب طاح بدباباتهم فمشت فوق الركام من القتلى طواحينا

يقذفن افواههن النار نافثة ومن خياشيمها الغازات تسرينا

من خلفهن جيوش لاعداد لها تمنطقوا بالمنايا لا يبالونا

تصارعوا كالضواري يصطرعن على فريسة ومضوا موتا يموتونا

حتى دعا عاهل السوفييت امته يا قوم امكم روسيا تدعونا

طغى العدو وتمادى في دياركم داس المحارم واحتل اكراينا

شدوا عليه ولا تبقوا له اثرا لا ترحموه اطردوه من اراضينا

لبى الدعاء بنو الفولغا فكان لـه   منهم مغاوير بذوا بأس شمشونـا

ثم يصل بعد ستة عشر بيتا الى معركة ستالنغراد فيقول :

واستأسدوا في ستالنغراد واقتحموا   وادى المنون وشدوا مستميتينـا
وبرهنوا انهم شجعان عصرهـم   وانهم ويحهـم ابناء لينينـا
مدينة الحرب هل جن جنودك ام   جنودك الحمر أنس آدميـونـا

وبعد ابيات ستة يصف دخول اليابان الحرب .. ثم دخول اميركا .. ومعركة العلمين واستسلام ايطاليا ... وغزو اوروبا .. حتى يقول في **مفاخر** اوروبا :

على مفاخر اوروبا السلام فقـد   آن الاوان وراح الله يجزينـا
لا تدعوا العلم بحتانا وسخريـة   لا تزعموا بعد هذى الحرب تمدينا
والشرق ما عاد يغريه تبجحكـم   بان الخفا وبدا ما كان مكنونا

وحين يصور اطماع اليهود يحن الى ايام الاندلس:

يا من تخذناهم الاخوان في بلـد   بالمال والروح نفديه **ويفد** ينـا
لا تنبشوا بيننا الاحقاد ثانيـة   ولا تعيدوا الذى يقصي تآخينا
سعيا لايامنا في أرض اندلس   كنتم ركنا كما نرجو وترجـونـا
واليوم أمارة بالسوء تدفعكـم   الى الذى ليس يرضاه المحبونـا
أتستسيغون هضم الحرب حقهـم   في مهد عيسى وفي **مسرى** النبيينـا
وتطلبون جلاء عن مواطننـا   وان نبيحكم خضـرا اراضينـا
وان يكون لكم جيش ومملكـة   فيها لجمع شتات الموسويينـا
هيهات تحقيق هذا الحلم ما ارتفعت   فوق المآذن اصوات **المحبينـا**

ثم يجد مكانا في الملحمه للقضيه الارتوذكسيه فيقول :

حسب البلاد رهابين بها عبثـوا   جاءوا فلسطين منذ البدء آوينـا
وقد قبلناهم في سلك بيعتنـا   قساوسا منهم سمنـا مطارينـا
حتى اذا كثروا ما بيننا انتحلـوا   لنفسهم سلطة كانت بأيديـنـا
عاثت باوقافنا منهم زبانيـة   قد ادعوا انهم جاءوا رهابينـا
ما جاء بطريكنا من سامني قدمـا   كان البطاريك فينـا يعربيينـا

ويعرض للوحده العربيه تضم فلسطين اليها .. ثم يصف تراجع الالمان .. وعودة النور الى باريس .. ثم مهاجمة الريخ .. والهجوم المعاكس ... ووفاة روزفلـت ومعركة برلين ... :

وحث جوجوف خطو الجيش مقتحما ... ابواب برلين يا ويل ابن برلينا
هل آخر الليل هذا ام بدائته ... هل انتهى الجيش ام ماذا يرجونا
مدينة العلم والاعجاز ما صنعت ... بك الليالي او للافلاس ترمينا
لو كان شلر حيا ما مددت يدا ... ولا حملت على ابناء بوشكينا
دارت معارك فيها بين فاتحها ... وبينهم شيبت رأس ابن عشرينا
مشت اليها الجيوش الحمر نافثة ... سمومها وسحوافيها ثعابينا
في الارض في الجو نيران مؤججة ... ومجزرات ضحاياها الملايينا

ويستغرق وصف معركة برلين سبعة وعشرين بيتا .. ثم يصف نهاية موسوليني . واستسلام المانيا .. حتى اذا جاء ذكر سان فرانسسكو قال فيما قال :

يا طير سان فرنسسكو على مهل ... احمل لسان فرانسسكو امانينا
قل للوفود مقال الصدق هل ذكروا ... بنود ولسن هل هم غير ناسينا

حتى اذا ضربت المدمره الفرنسيه سوريا ولبنان في ٤ مايو سنة ١٩٤٥ قال :

ماذا جرت اصحيحا ما سمعت وما ... تحدث القوم همسا في نواديـنا
ابناؤنا في ربوع الشام تحصدهم ... نيران ديغول هل صدقا يقولونا
أمخزيات ترى ام انها بدع ... اتى بها القوم لا التاريخ حاشينا
الحرب في الشام في لبنان حيث هم ... للتضحيات شباب ان يحيونا
لهم مواقف في الماضي مسجلة ... وليس حاضرنا الا كماضينا
الصيد فيها سوى استقلالهم عبث ... يا قوم يكفيكم الماضي ويكفينا
" لا تطمعوا ان تهينونا ونكرمكم ... وان نكف الاذى عنكم وتؤذونا "

ويعرض بعد ذلك لمؤتمر الاقطاب في بوتسدام .. والى القنبلة الذرية في هيروشيما ونغازاكي واستسلام اليابان .. ثم يصف ضحايا الحرب .. ويقول :

قف ناديا شهداء الحرب قل لهم ... كان المسيح شهيدا مثلكم فينا

ثم يخاطب (جبابرة الدنيا) قائلا لهم فيما يقول :

هلا انتهيتم من الحرب التي عصفت ... رياحها بينكم تسعا وخمسينا
هلا اكتفيتم بها درسا وموعظة ... اللسلام تشيدون الاواوينا
ما بين ايديكم ذرية فدعوا ... هذا الصراع ولا تفنوا ذرارينا
لاتفلتوها على الدنيا فان فلتت ... بتنا وبتم مع الدنيا طواحينا
ما الانتدابات الا بعض ذرتها ... وما الوصايات الا النار تكوينا
وما بليتنا الا مطامعنا ... دعوا الشعوب كما عشتم يعيشونا

ويختم هذه الانفاس بأبيات منها :

اهلا بدنيا سلام لاح بارقهـــا　　وذرّ شارقها للخير يهدينـــا
دنيا سلام على الاخلاق قائمـــة　　لا ء لاء على نزوات المستبدينـــا

. . . .

ولقد كان من الطبيعي في هذه المرحلة التاريخيه من تاريخ هذا الوطن ان يكون (وطن الشهيد) .. وفكرة (الاخذ بالثأر) ... و (طلب النجدة والغدر) ... من المضامين التي تلوح للشعراء .. وتدعوهم الى تناولها .. وتلوينها .. والدوران بها .. حتى تفعل آثارها في النفوس .. ولقد أحس الشعراء بخطورة المرحلة التي هم فيها .. وشعروا ان الشعر الغنائي لا يشفي لهم غليلا فتأثيره مقصور على عـــدد قليل من الناس .. ووقعه في النفوس لا يبلغ دائرة واسعه .. ثم رأوا ان تلك الانفاس الملحميه قد تطرق الاسماع فلا تستوعب منها كل اطرافها .. فهي تخاطب عددا من الحواس محدوده .. وليس لهم امام هذا الخطر الداهم الا ان يلجأوا الى وسيلـــة اخرى تشترك فيها دوائر ابعد اتساعا .. وتبلغ آثارها النفوس .. ويكون وقعها ارسخ في القلوب .. ويشترك السمع والبصر والافئدة وجميع الحواس في استيعابها .. ولا يستطيع ذلك الا المسرح بالوانه واضوائه ومناظره وحركاته وحوادثه .. ولكن حظ هؤلاء الشعراء من الثقافة المسرحيه حظ يسير .. والمسرح يحتاج الى تجارب كبيرة وخبرة واسعة واتصال بشؤونه دقيق .. فعلى خشبته تتشابك الفنون وتتمازج وتتعاون .. والشاعر طرف واحد من اطراف كثيره تشترك في العمل المسرحي ... فان لم يكن على علم واسع بسائر الاطراف خرج عمله ضئيلا .. فما العمل ؟ ليس لهم الا التقليد .. وما اقل ما ينجح التقليد في بادئ الامر !

وكان للشعر تجارب في هذا الباب .. ففي آخر هذه المرحله طلع علينا الشاعر برهان الدين العبوشي بمسرحية شعريه : "وطن الشهيد" .(١) .. وطلع علينا الشاعر محمد حسن علاء الدين بمسرحية شعرية : "امرؤ القيس بن حجر" (٢) وطلع علينا الشاعر محي الدين الحاج عيسى بتمثيلية شعريه : "مصرع كليب" (٣)

اما الموضوعات في هذه التمثيليات فهي تاريخيه .. الاولى تتناول القضية الفلسطينيه منذ كانت بيد الحسين ... حتى اصبحت بيد اليهود ..

اما الثانيه فتتناول امرأ القيس منذ أن وافاه نبأ مصرع والده الى حادث الغدر به في القسطنطينيه على يد هرقليا س مندوب العاهل الروماني .. حيث اهدى له حلة مسمومة قضت عليه ...

---

(١) وطن الشهيد / المطبعة الاقتصاديه / القدس سنة ١٩٤٧ (٢) المرسحيه الشعريه امرؤ القيس بن حجر ١٤٩٦ (٣) مصرع كليب / دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٤٧ .

اما الثالثة فتتناول الحرب التي أثارها عقر ناقة البسوس ·· ومقتل كليب ·· والثأر له ··

وقد جعل برهان العبوشي مسرحيته في فصول خمسة ···

في الفصل الاول : يسأل الحسين بنيه قائلا

الا خبروني عن دمشق واهلها . وعما جرى في الشام من ظلم ظالم
سمعت بأن الترك عاثوا وافسدوا زان جمالا قد أتى بالعظائم
فان صح ما قالوا فيا ويح امهم اذا نحن ثرنا بالاسود الضراغم

فيجيبه فيصل :

لقد صح ما قد قيل ياسيد الحمى واضحت ربوع الشام دار المآتم
فقد نبذ السفاح نصحي ولم يجب رجائي واودى سيفه بالعمائم
تسيل ربا (عاليه) بالدم قانيا وتلك الضحايا لم تجد قلب راحم

وفيما هم كذلك يدخل رسول :

أتيت من ارض مصر ··············
أتيت أبرم أمرا للانجليز يرام
يعاهدونك عهدا يصان فيه الذمام
حملت منهم كتابا اليك فيه سلام

وبعد قراءة الكتاب يكتب الحسين الجواب :

بلّغ رجالك اني شاكر لهم ودادهم وجميل كل ما كتبوا
لكن تاجي بغير القدس منتقص فان رضوا سألبي كل ما طلبوا
لا تجعلوا فبلاد العرب واحدة يضمها الدين والتاريخ والنسب

ومن المناظر الجانبيه التي عمد اليها الشاعر لتصوير الظروف ·· منظر شاعر يتجول في اسواق بيروت في يوم المجاعه ·· يصف الطفل يئن يلتمس طعاما فلا يحصل عليه ··· وقد سيق ابوه للحرب وسقطت امه عياء :

شعب بلا راع يموت ولا طبيب ولا دواء
الموت يحصد امتي وعمال ينعم في الرخاء
يا عزة العربي لا يشفي سوى سفك الدماء

ويصور شدة الجوع حين يرينا رجلا وجيها يحمل معه هرة وسكينا يريد ذبح الهره ليطعم جياعه في البيت ···

ثم يرينا رجلا ومعه ابنته لا تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها يريد تأجيرها لينجو من نفقاتها واطعامها ويشتري اكلا لسائر اهله ٠٠

ثم يجيء ما يعلن ان جمال لم يقبل وساطة الحسين ٠٠ فيقول الحسين:

ارسلوا الفرس الخضرا

فيفهم الحاضرون

انها دعوة حرب ... فجمال زاد كفرا

قد طلبناه لصلح ... فتعالى الشر كبرا

سوف نجتاح دمشق ... وسنصلي البغي جمرا

ثم يطلق الحسين من قصره عيارا ناريا علامة الثوره ٠٠٠

لا سلم ، لا سلم بعد اليوم فالتمسوا ... سلاحكم وازحفوا للحرب نصلاها

هذا عيار ابي دوى فلا تهنوا ... اليوم نقتحم الهيجا ونغشاها

لبيك يا سيد الاحرار نحن لها ... فكل مكرمة كنا ضحاياها

وفي الفصل الثاني : يرينا وايزمن ٠٠ ومعه جماعة من اليهود ٠٠ وبينهم كاهن ٠٠ وهم حول مختبر ٠٠٠ ويقول وايزمن :

نصبت لهم خمسين فخا فصدتهم ... وما كل صياد اذا اصطاد يفلح

وعلمتهم انا سنصبح شوكة ... لهم في جنوب الشرق نوئذ يونجرح

فلان لقولي عود خمسين دولة ... تقر لنا ما نبتغيه وتمنح

نزعت لكم بالمال وعدا مصدقا ... فتيهموا بهذا الوعد يا قوم وافرحوا

ثم يصور نوايا اليهود وانصارهم من الدول لاحتلال فلسطين وما جاورها بمساندة المنظمات العسكريه التي تغذيها دولة اجنبيه لصالحها ٠٠ وفي آخر الفصل يرينا شاعرا عربيا يناجي نفسه :

ما بال قلبي غدا بالهم منفطرا ... لقد رأيت على اوطاننا خطرا

سمعت من قول (اللنبي) وشرذمة ... من اليهود كلاما يوجب الحذرا

وباع سرسق تبا لاسمه قطعا ... من ملكنا رعيون الساكنين ترى

لهفي على المرج قد جلت مصيبته ... ولم يجد من بني قحطان من ثأرا

هذا الحسين سجين في غياهبه ... في قبرص قد ابى ان يغضب القدرا

آلت علينا مروءات توارثها ... ان لا يبيع لعادينا ولو حجرا

قد خانه حلفاء الامس وانتقضوا ... ولم يراعوا له قدرا ولا عمرا

ويحد ان يصور خداع اليهود ومكرهم وطرقهم في استلاب اموال الناس واراضيهم لاسيما من الملاكين الكبار ٠٠ يحن للثورة بقيادة فوزي القاوقجي ورفاقه المجاهدين ٠٠ ثم يصف المعتقلات وما يجري فيها ٠٠ الى ان يتوسط مندوبو الدول العربيه لتوحيد الشمل وتجديد العهد ٠٠٠

على هذه الشاكله يمضي في سرد الاحداث سردا تقريريا بسيطا بطابع تغلب على احداثه السذاجه الملحميه وليس فيه التمازج والتركيب والبناء المتشابك الذى يحتاجه الشعر التمثيلي ٠٠ ومن هنا كانت المسرحيه في نظرى اشبه بمجموعة من الاشعار الغنائية التي تحمل انفاسا ملحميه بسيطه ٠٠ ومن هنا فهي امتداد لهذا النوع من الشعر الذى لمسناه في المرحلة الثالثة ٠٠

ولعل محمد حسن علاء الدين ان تكون ثقافته المسرحيه ارحب ٠٠ وصلته بالمسرح الاوروبي اوثق ٠٠٠ ومن هنا كان تناوله للموضوع اكثر توفيقا من حيث التمثيل ٠٠ وان يكن التعبير الشعرى لايواتيه في كثير من الاحيان ٠٠٠

ولقد ساير شخصية امرئ القيس بن حجر الملك الضليل ٠٠٠ وتنقل معه في نجد في ارض (ضرية) حيث تقوم مضارب (بني اسد) ٠٠٠ ومضى معه في تطوافه بسوريه ٠٠ والقسطنطينيه ليطلب المعونة من البلاط الروماني ٠٠ وقد وفق في اختيار المناظر ذات الدلالة على البيئة سواء منها البيئة المادية ام البيئة المعنويه ٠٠٠ وقد اجهد نفسه حتى يرسم صورة صحيحة بقدر الامكان للصحراء ٠٠٠

ويطلع علينا اول ما يطلع فيرينا كثيبا في ارض (ضرية) في القسم الشمالي من نجد ٠٠٠ ويشرف على غدير وسط واحة فيها اشجار النخيل ، والبشم ٠٠ والثمامة ويرينا امرأ القيس ورفاقه من شباب (بكر) و (طيء) و (كلب) حيث تقوم على مقربة منهم خيمة حولها الاقواس والسهام واسراج الخيل وبعض القدور ٠٠ وبين يدى امرئ القيس وصحبه دنان الخمر والاقداح والكؤوس ٠٠ وشواء اللحم ٠٠٠ والشبابات والقيثارات والدفوف والطبول ٠٠ والوقت اصيل ٠٠٠

كل هذه المواد يستعين بها الشاعر لبناء صورة صحيحة حية ٠٠ ورغم قدرة الشاعر محمد حسن علاء الدين على توفير المواد اللازمه للبناء الشعرى ٠٠ الا انه تخونه القدرة في اقامة البناء الشامخ من هذه المواد المتوفره ٠٠ وما ذلك الا لان وسيلة الربط بين هذه المواد غير طيعة لديه !

فيبدأ حواره مع رفاقه :

ـ هات كأسا يا نديمي
ـ هاتها خمسا وستا
ـ هاتها عشرا وعشرا
ـ واسبها
ـ لا تسب بنتا !

وبعد منظر تعاطي الكؤوس ... يمضي الى سرب من الحسان كن حول الغدير وقد فرغن من استحمامهن .. وبينهن فاطمه بنت عامر الكندي ابنة عمه .. وقد انتحت دون الحسان ناحيه .. ويدير الحوار بين الحسان :

ـ نريد اوابا ه جاء وقت مباتنا بخيمتنا
ـ يا (هر) لا تتحولي !
ـ فلسنا نرى في كل يوم مهرجا
ـ يدير علينا خير نقل ومأكل
ـ يضحي لنا جوابة البيد والربى
ـ ويشدو بشعر يفذ شعر (المهلهل)

وحين يقبل امرؤ القيس عليهن يصيح :

ـ من يعتدي من يمتري	في عرضكما ؟!
انتن عند غضنفر	اني لكما !
ترس وحق تندري	بدعابكما !
اسراركن بمحضري	في الغيب صرنا
واذا تحدوا خنصري	يختال قرنا

ثم يمشي حتى يحاذي فاطمه بنت عامر ابنة عمه :

ـ اصفحي عني فاني مذنب	اصفحي عن ذنب تواب صدوق
اصفحي ما كنت الا لاهيا	
ـ	دائما الف الطلا الف الغبوق
الف غيد ...	
ـ اقصري اني على	مثل جمر النار تخشاني الحروق

ثم يناجيها :

افاطم كم ناجيت تلا واربعا	لاحظني بصوت منك يشفي مفجعا
سقيت الربى بالدمع حتى تخضلت	وقالت كفى من دمعه الدهر منبعا
مللت الحمى وارتدت بيدا بعيدة	لعلي انسيه الفؤاد المصدعا

جفوت فخادنت الجبال برفقـــة   قصاراهم ان لا اجن فاصرعـــا

رنوا ، ولا تقسي فويطم انـــني   كرهت ثواء بالنجيع مرقعـــا

ـ: كفى كذبا لو كنت حقا متيمـــا   لما رحت ترتاد الخدور لتنقعا

غليلا الى (ام الرباب) وحلسوها   وعطفا على صقع بيذبل شعشعا

وهبتك حبي فاجترات وسولت   لك النفس تشهيرا بودي مرجعا

وهبتك لم اعلم فجورك عندما   وهبتك لم ادر الوداد مضيعـــا

ثلمت الهوى ثم انثنيت وثلمـــت   يداك حمى القربى فأهوى وتصدعا

طفولتنا كانت غراما وعفـــــة   فحولتها للريب والشتم مرتعا

دع الكذب واغرب عن عياني ولا تقم   فاني ارى نور الاصيل تقشعـــا

اتى الليل لا تلحف فلست تريكة   ولست بمن يرضى سوء الطهر برقعا

ضميري على عرضي رقيب وان لي   من الاهل من يحمي ذمارا ومهيعا

ـ : فويطم

ـ: لا تبس وزايل تضرعا   اردت به صيدا فخاب وضعضعـــا

وتتركه وتمضي الى مضاربها ، فيناجيها :

ـ: فويطم ! لا الالام تجدي ائتلافيا   اليها ولا تذكار ماضي وداديا

جفت ورمتني للسهاد كأنهـــا   تريد لحبي ان يبيد حياتيـــا

ثم يمضي في هذا الشعر التقريري يجمع صورا ويراكمها فوق بعضها .. بغير حركة او نمو او بناء ويقبل عليه صحبه ...

ـ : اتندح هون من اساك ولاتهم بمن لم يهم ...

ـ: اقصد وساعد هياميا

رميت شباكي لن احور خطتي   والا فلا ظل الوفاء مداريا

والافلا ظلت جبال مواطني   تطل على نجد فيصبو مواليا

ثم ينتحي ناحية دون رفاقه ....

ثم ينتقل بنا الشاعر الى موقف آخر من مواقف هذه المسرحيه فيرينا والد امرئ القيس ملك بني اسد وغطفان تحف به حاشية من الفرسان وغيرهم .. ويمضي في مناظر هذا الفصل يرينا طرفا من الحياة الجاده بعد أن صور لنا طرفا من الحياة اللاهية ...

واخيرا ينقلنا الى عقدة المسرحيه حيث امرؤ القيس يوافيه نبأ مصرع والده الملك وتحدث تلك الحادثة انقلابا في حياة امرئ القيس التي عهدناها .. فنراه يطوف في سوريا حتى يبلغ القسطنطينية لعله يظفر بما يعينه على الثأر لابيه ...

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه   وايقن انا لاحقان بقيصـــرا
فقلت له لا تبك دونك انمـــا   نحاول ملكا او نموت فنعذرا

وقد اخذ بالرواية القائله ان مندوب العاهل الروماني اهدى له حلة مسمومة قضت عليه!

اما الاثر التمثيلي الثالث في هذه المرحله فهو "مصرع كليب" للشاعر محي الدين الحاج عيسى الصفدي .. الذي فاز باحدى الجوائز الادبيه في مسابقة لندن الشعرية ... وصاحب الخدمات الطويلة في حقل التربيه والتعليم .. حيث مارس التعليم ما يقرب من ثلاثين سنه .. ولعل المسرح المدرسي البسيط أن يكون ماثلا في خاطره حين اعد هذه التمثيليه فلم يجنح الى ادوات وافره من اجل بنائه التمثيلي لئلا يعجز عنها ذلك المسرح ... **واعتمد** لقصته المصادر الاتية : الاغاني ، العقد الفريد ، وابن الاثير ، وخزانة الادب ، وايام العرب ... فمن جراء انتصار كليب وظفره بجموع مذحج في يوم (خزاز) اجتمعت عليه (معد) كلها .. وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيبته وطاعته .. وبعد مضي زمن داخله الزهو فطغى وبغى على قومه لما كان فيه من عزة وانقياد (معد) له ... فكان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه .. واذا جلس لا يمر احد بين يديه اجلالا .. ولايحتبي احد في مجلسه .. ولا تورد ابل احد مع ابله .. ولا توقد نار مع ناره ولم يكن بكري ولا تغلبي يجير رجلا ولابعيرا او يحمي حمى الا بامره .. ومن صور بغيه انه اتخذ جرو كلب فكان اذا نزل منزلا فيه كلأ قذف ذلك الجرو فيه فيعوي فلا يرعى احد ذلك الكلأ الا باذنه .. وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يردها احد الا باذنه او من آذن بحرب ... وكان يحمي الصيد فيقول : صيد ناحية كذا في جواري فلا يصيد احد منه شيئا ...

هذه الصور من العزة والمنعه كانت تتمثل في اذهان المربي محي الديـــن الحاج عيسى الصفدي حين رأى نذر النكبة تؤذن بالعاصفة .. فاراد ان يملأ بها صدور الناشئة الذين يشرف على تهذيبهم وتنشئتهم ...

لهذا رأيناه يتقبل هذا اللون من البغي وقلما يقف منه موقف المنكر له ..

وقد تزوج كليب جليلة بنت مره بن ذهل بن شيبان اخت جساس ...

وكان لجساس خالته (البسوس) ... نزلت عليه وكانت في جواره ومعها ناقتها الخوارة وفصيلها ...

ويقع الاعتداء على ناقة البسوس .. وتثور ثائرة جساس .. ويمعن كليب في بغيه حتى تقع الحرب بين بكر وتغلب .. ويقتل جساس كليبا .. وتقف جليلـــة موقفا محيرا من الامر فهي بذلك قاتلة مقتوله ... ويعقد اللواء للمهلهل بعد مقتل اخيه كليب : —

خذ العهد الاكيد علي عمري	بتركي كل ما حوت الديار
وهجري الغانيات وشرب كأس	ولبسي جبة لا تستعـــــار
ولست بخالع درعي وسيفـي	الى ان يخلع الليل النهار
والا ان تبيد سراة بكر	فلا يبقى لها ابدا اثار

وقد رأينا الشاعر المربي لا يهمل موقف الحارث بن عباد ودعوته للسلام ... وان تكن الظروف لا تروق مثل هذه القيم .. وقد رأينا رأى ابن عباد في السلام لا يثمر الا في نهاية الحرب بعد ان روعتهم وحصدت سراتهم ورجالاتهم ...

فحين يبلغ (مره) ان ابنه (جساسا) قتل (كليبا) يقبل (مره) مخاطبا (الحارث بن عباد)

ـ: يا ابن عباد ما ترى	بما من الخطب نزل
انت الحكيم المرتجى	لمعضل اذا عضل
سمعت ما قال تميم	ذلك الشيخ الاجل
وما يراه الحارث ابني	هل بما قالا خطل
حزت وايم الله في	امري والخطب جلل

ادل برأى :

ـ: ليس لي	من ناقة ولا جمل
فتنة صماء ما شأني بها	كل من خا .. لظاها احترقا
فاذا صلح فاني مصلح	واذا حرب فما اهوى اللقا
كيف القى تغلبا في معرك	وهم درعي الذى ما اخلقا
ما يميني يا ابن عمي مرة	تقطع اليسرى اذا الجمع التقى
ـ: يا ابن عباد فلك الخيار	ليس على الناجين منها عار

حتى اذا قتل المهلهل (بجيرا) بن الحارث بن عباد .. صلى حرها الحارث مضطرا حتى وقع المهلهل اسيرا في يده فجز ناصيته .. واطلقه وهو يقول :

ـ: الان تطلق صاغرا	من بعد جز الناصية
وكفاك يا ابن ربيعة	لا تبغ حربي ثانيه
فلقد اصبت وقد اصبت	فدع لقومك باقيه
ولقد غلوت بما ارقت	من الدماء الزاكيه
طالت على اقوامنا	ويلات حرب حاميه
فارجع الى رأى السلام	وكف دمع الباكيه

ثم يقول الحارث بعد يوم (التحالق) :

ثأرت ولكن من يميني ومن كفي ... واتلفت اذ اتلفت من تغلب طرفي
اليسوا بني عمي ونسل بني ابي ... وانفهم ان عز او ان دنا انفي
فان خذلوا يوم (التحالق) انما ... بخذلانهم انزلت في معشري خسفي
وقدت بجيرا من بجير ولم اكن ... قريرا لما الحقت بالقوم من حتف

ثم يتداعى الشيوخ الباقون لرفع راية الامان .

الحارث :— وها انا اعقد للكرام
عهدى على الوفاء والسلام
عني وعن قومي مدى الايام
والله يرعى راعي الذمام
بعينه في البدء والختام !

وبذلك يختم الشاعر تمثيليته ...

وما قلناه في مسرحية برهان العبوشي ينطبق على هذه التمثيليه بفصولها الخمسه .. فهي عرض لاحداث فيها انفاس ملحميه وربط بين هذه القطع الغنائيـة المختلفة لتكون مجموعة شعريه فيها بساطة السرد القصصي ... وليس فيها البنـاء التركيبي العضـوى للمواد التمثيليه ! ومن هنا فهي اشعار غنائيه .. ذات انفـاس ملحميه ... عرضت علينا في اطار تمثيلي تفضحه مسحة التقليد التي تبدو على وجهها!

وبذلك نختم الحياة الشعريه في هذا القطر ، ونقف بها عند هذه الحدود لان وراء هذه الحدود التهلكه التي تدهورت فيها القضية .. وكبكبت فيها جمهور الناس في هذا الوطن .. وكان للنكبة اتجاهات في الادب جديده ... وتيارات في الشعر خاصه .. ومضت الحياة في مسارب اخرى ، تحتاج الى تأريخ خاص بها !

البـــــــــاب الثـــــــــا لـــث

الفصـــل الاول

حيـاة النـــــــــثر الفـــــــــني :

المـــــرحلـــة الاولـــــى

اتفقنا في الابواب السابقة على ان يكون النصف الثاني من القرن التاسع عشر بداية مرحلتنا في فلسطين ... وستمتد المرحلة الاولى من حياة النثر الفـــني كما امتدت المرحلة الاولى من الشعر الى من هذه البداية حتى تبلغ فترة اعلان الدستور في تاريخ السلطنة العثمانية — ١٩٠٨ —

وقد عثرنا في تاريخ هذه المرحلة على آثار فلسطينية ، وجهود محمـودة تتلخص فيما يلي :

(١) ديوان اشعار للشاعر لبيد بن ربيعة العامري ، طبع منه الجزء الاول في فينـــا عاصمة النمسا الشيخ يوسف ضياء الدين باشا الخالدي المقدسي (١) سنة ١٨٨٠ م (٢) حيث كان استاذا للغة العربية .. وجعل له مقدمة وشرحا (٣) .

(٢) "ما حرره رب البيان والاخلاق الحسان ابو السعود افندي من افاضل القدس الشريف" في تقريظ كتاب سر الليالي للشدياق . (٤)

(٣) من قلم صاحب الفضيلة احد اشراف وعلماء نابلس ، السيد عباس خماش زاده (٥)

أ — الدرر الحسان في مدح الجنان (تقريظ لمجلة الجنان)

ب — السياسة (مقال كتبه للجنان)

ج — الانصاف (مقال كتبه للجنان)

(٤) رسالة بعث بها من القدس مكاتب (الجنان) عن ولاية سورية (٦)

(٥) آثار الشيخ يوسف النبهاني النثرية في كتبه الكثيرة عن الرسول والاحاديث والصلوات.

---

(١) ولد في القدس سنة ١٨٢٩ .. وتوفي فيها سنة ١٩٠٦ م .. تلقى علومه في القدس في احدى المدارس الانكليزية .. ثم في فرنسا .. اختير نائبا للقدس في مجلس المبعوثان وكان كلما تولى عملا في بلاد اجنبية تعلم لغتها وحذقها .. فتعلم اليونانية واجادها .. واتقن لغة الاكراد حين كان مديرا لاحدى المقاطعات هناك .. والف فيها (الهدية او التحفة الحميدية في اللغة الكردية) .. ثم كان استاذا للعربية في جامعة فينا فجمع اشعار لبيد في ديوان ظهر سنة ١٨٨٠ م وقد ترجمت هذه الطبعة الى الالمانية مع تعليقات بالمقابلة على نسخ خطية وترجمة حياة الشاعر بعناية هوبر Huber وطبع في ليدن سنة ١٨٩١ م .. وله مجموعة مذكرات وآراء ومعالجات شتى عنوانها "انا" عدا محاضراته الكثيرة (٢) انظر كتاب "فكتور هوكو وعلم الادب عند الافرنج والعرب" ص ٣٩ (٣) وقد ارسل هذا الجزء بمقدمته القصيرة وشرحه ليطبع في الكويت من جديد ! (٤) الجزء الرابع من كتاب كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ص ٧١ (٥) الجنان / جزء ١٦ سنة ١٨٧٠ ص ٤٩٧ ، جزء ٩ ص ٥١٥ ، جزء ١٩ ص ٥٩٦ (٦) الجنان جزء ٢٠ ص ٦٢٣ .

(٦) "تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوكو" للاستاذ روحي بك الخالدي، وقد طبع بمطبعة الهلال. سنة ١٩٠٤ (١)

(٧) رسائل كتبها الاستاذ خليل السكاكيني سنة ١٩٠٧ من القدس ومن اميركا الى حبيبته سلطانة التي اصبحت زوجته فيما بعد .. والى صديقه داود صيداوي (٢)

اما مقدمة الشيخ يوسف الخالدي لديوان لبيد فعلى قصرها ادخل في باب التحقيق منها في باب النثر الفني ؛

واما "تاريخ علم الادب" فهو بباب الابحاث وتاريخ الادب والنقد والادب المقارن الصق منه بباب النثر الفني !

واما الاثار الاخرى فيمكننا اعتمادها نصوصا تعطينا صورة عن النثـــر الفني في هذه المرحلة من حياة الوطن !

وهي تلدن في مسالك ثلاثة :

الاول : مسرب التصنع او التكلف والمضي فيه على انه اساس البلاغة والمقصود منهـــا بالذات.. وقد احتشدت فيه تماثيل البديع والاستعارات التي صرفت الاذهان والعقول والنفوس عن تناول المضامين الواسعة ذات الافاق الفسيحة ... فضمر المضمون وشحب وغدا عليلا .. وترحلت عليه الجلود والعروق !

---

(١) ومؤلفات الاستاذ روحي الخالدي :

١ ـ "علم الادب عند الافرنج والعرب" .. نشر اولا في مجلة الهلال بدون توقيع، ثم طبعته تلك المجلة بتوقيع المقدسي سنة ١٩٠٤ .. ثم اعيد طبعه باسم مؤلفه الصريح

٢ ـ "رسالة في سرعة انتشار الدين المحمدي / وفي اقسام العالم الاسلامي"

ـ وهما نبذتان من الدرس (القونفرانس) الذي القاه في دار الجمعيات العلمية في باريس ونشرتا في جريدة (طرابلس الشام) بمطبعة البلاغة سنة ١٣١٤ هـ ؛

٣ ـ رسالة في علم الكيمياء عند العرب وترجمة أحد كبار الكيماويين الفرنسيين

٤ ـ كتاب في رحلته الى جزيرة الاندلس (مخطوط) ٥ ـ "الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة" نشرتها مجلة الهلال ؛ ٦ ـ كتاب تاريخ الشرق وامراؤه ـ نشر قسم منه في مجلة الهلال ؛ ٧ ـ كتاب علم الالسنة او مقابلة اللغات (مخطوط) ؛ ٨ ـ كتاب في تاريخ الامة الاسرائيلية (مخطوط) ؛ ٩ ـ كتاب في تراجم العائلة الخالدية (مخطوط) .. ١٠ ـ المقدمة في المسألة الشرقية / القدس ١٩١٣ ؛ ١١ ـ تاريخ مملكة الداهومي وتوابعها (نشر قسم منه في الهلال) .. ورسائل ومقالات اخرى .

(٢) مذكرات السكاكيني ص ٤ ـ ١٤ .

الثاني : مسرب تحسس الوسط الذي ينتمي اليه الكاتب والمرحلة التي يعيش فيها والروابط التي تربطه بمجتمعه .. والتعبير السليم عن شعوره بهذا الوسط وهذه المرحلة وتلك الروابط ...

الثالث : مسرب توصيل المعاني بطريقة ليس فيها شيء من العناية او التنسيق او التلوين النفسي والشعوري .. ولايدخل المسرب الثالث في نطاق النثر الفني . وانما جئنا به ليلقي اضواءه على المسربين الاول والثاني .. فتتضح به معالمهما .. ولندل به على صورة التعبير اليومي الدارج ومستواه في هذه المرحلة حتى نتبين مدى الجهد المبذول في الاتجاهين الاخرين ...

والمسرب الاول اعانت عليه العزلة عن الحياة.. والقوقعة والانغلاق فاصبح التناول ميتافيزيقيا .. وغدت القيم غيبية.. والتحليلات وهمية هوائية فضاقت ميادين المضامين واصبحوا يتقفزون ويدورون في مسافات ضيقة واتجه همهم الى التزاويق والبهلوانيات اللغوية ليلفتوا بها الانظار !

فلنستمع الى ابي السعود من افاضل القدس يقرظ كتاب سر الليالي :

"لقد تقلد جيد فكري بعقود اللالىء المستخرجة من بحر سر الليالي ، فيا لها من جواهر نظمت في سلوك الادب ، ولله در غواصها حيث اتى بفنون العجب .. تزينت بها جمين كتب الاداب ، وظفر بها اسرار معاني والسنة الكتاب . شمس بزغت في افق سماء المآثر والمفاخر ولما استوت اذن موءذنها :الله اكبر كم ترك الاول للاخر.. اضاءت على كل المحافل والمواكب واختفى بظهورها جميع الكواكب .. ولما امتلأت الاكوان بضيائها ، طمعت في ان احلى كلامي بثنائها ، اذ كلامي كلام ، ونظامي خال عن النظام ، غير اني اطمع في ناظر مقالي ان يقول : هذا مادح سر الليالي .. فهو عندي من اعظم الافتخار ، واشهى والذ من منادمة الابكار ، وفي الحقيقة هي غنية عن الامتداح ، بل ثمرة مدحها حلية المداح ..."

وقيمة هذا المتجه تنحصر في حفظ قوالب اللغة في صناديقهم الضيقة ريثما تدفع بها الحياة الى الدوران والنمو في فسحات واسعة ! وفي هذا المتجه يندرج تقريظ (الجنان) بقلم عباس خماش ... حتى نجدهما يلتقيان في بعض الصور: "... كيف لا ورضوانه البستاني منشىء اغراسه ببيان بديع المعاني ، كم جلا علينا من حور بنات افكاره ابكارا وطفقت انواره ترقص بمحكم المباني وجميل نكات الفنون جهارا .. فلعمري ان الفكر بفكاهة ثماره .. والسرور بكواعب اترابه تجمع.. فلساني لا يستطيع القيام بشكر ما اولى من الانعام على ذوي العقول واولى الانعام .. فهو على كل حال قاصر يقول كم ترك الاول للاخر وغاية مقولي على مقدار معقولي هذا."

حتى اذا كان هناك مضمون اوسع في هذا المسرب ·· وجدنا اصحابه تقل تقفزاتهم اللغوية وبهلوانياتهم الزخرفية فتنفس خطواتهم ·· فحين يكون موضوع المقال " السياسية " او " الانصاف " نجد عباراته اقرب الى التعبير السليم منه فيما سبق :

" من المعلوم ان مدار انتظام العالم انما يكون بالسياسة الحسنة اعني وضع الشيء في محله ··· فان هذا هو الاساس الذى تبنى عليه قواعد العدل والامان وتنتج قضاياه بما يؤمل من كل ما هو ذو شأن ·· فترى في ارضه الذئاب مع الغنم ترعى ، والعصاة على قدم الطاعة تسعى ·· ويكفينا من ذلك ما شاهدناه الان من جملة قبائل العربان بني صخر والسردية والفحيليه والحيس والسرحان فانهم لقلة ما عندهم بهذا العام من النبات قد انتقلوا بمضاربهم وابلهم ومواشيهم الى جهة بلاد حارثه وغور بيسان وعجلون داخل متصرفية لواء البلقاء وسلكوا في ذلك مسلك عموم الرعايا بدون تعد على شخص ولاعلى زرع ولا على ضرع ولا على ضريح ·· فاين هذا مما كانت تنطوى عليه سرائرهم الخبيثة في الزمن الماضي ·· فمن نظر اليوم ورأى ما هم عليه من عدم التعدى والسلوك كبقية الرعايا جزم بأن هذا من توفيق المولى سبحانه وتعالى الذى هيأ ويسر لنا ذاتا كذات دولة والينا الافخم ·· "

ورغم ان الشيخ يوسف النبهاني تناول موضوعاته عن الرسول والاحاديث والصلوات والابحاث الدينية في شكل يوهم بأنها تقوم على البحث والتدقيق والمنطق ·· الا انه حين تناولها بطريقة متطرفة مغالية تجاوز بها حد المألوف من التعبد والتهوس ·· فسلك نفسه في مسلك المسرب الاول ··· واعماه هذا التجاوز عن النظر في الحقائق والمقدمات والنتائج ··· فجاءت مضامينه عليلة ·· وكان بتعبيره اقرب الى تلك القوالب المتكلفة والصيغ المجمدة التقليدية ···

فحين اورد في كتابه " الانوار المحمدية " انه اختصر كتاب " المواهب اللدنية " للشيخ احمد شهاب الدين القسطلاني قال في مقدمة كتابه :

" ··· اختصرته احسن اختصار اقتصرت به منه على لبابه وجردت سيفه الصقيل من قرابه ·· واماطت عن وجهه الجميل ستار نقابه ·· وازلت عن بدره المنير حجاب سحابه ··· فكان مستوفيا لكافة شروط الحسن وجميع اسبابه ··· وقد جاء بحمد الله اقل من نصف حجمه ·· مع بقاء كل المقصود من علمه ·· وصار سهل الحصول مع سهولة فهمه ··· مع الحرص على بقاء عبارات مصنفه العلامة الخرير ·· وربما تصرفت بها في النزر النادر ·· بتقديم وتأخير ·· او اكمال حديث او تبديل يسير او زيادة تفسير من الشارح او نهاية ابن الاثير ·· عقب بعض الالفاظ الغريبة التي تركها بلا تفسير ·· "

ثم اقبل على حياة النثر الاستاذ خليل السكاكيني ·٠" وبدأ بداية كانت تشير الى نهاية تخالف نهايات غيره من معاصريه ٠٠ وكان منذ صباه متحررا من الاوهام ثائرا على التقاليد ٠٠ مبتكرا شجاعا قوي البنية كبير القلب والعقل كان موسيقيا بارعا يعزف على الكمان ٠٠ وكان من فرسان حلبة الرقص ٠٠ ذواقا للجمال في خلق الله جميعا ٠٠ تعشق عيناه الحسن حينما وجد وينشد الشعر الجميل ٠٠٠ ويحسن صوغ العبارة الانيقة ٠٠" (١)

ففي رسالته الى صديقه داود صيداوي يذكر حبه لسلطانة : "٠٠ يوم الخميس الواقع في ١٩٠٧/١٠/٣ اخذتها مع اختي ميليا ، وذهبنا الى قالونيه ، هناك تحت شجرات الليمون جلسنا ، وكم كنت اتمنى لو كنت معنا ٠٠ لاشك انك كنت تشاطرني سروري وطربي بل كنت ترى من علائم الوجوه ولمعان العيون وسائر حركاتنا وسكناتنا ما يفصح عما في القلوب ويغني عن التصريح ٠٠ ولما آذنت الشمس بالمغيب ركبنا حميرنا ورجعنا ، ولعل الجو هناك يعبق الى اليوم بانفاس حبنا ٠٠ مشيت الى جانبها فجعل حمارها يتعثر فخشيت ان يقع فأخذت بلجامه وقدته كل الطريق ٠٠ وفي المساء جاءت عندنا وسهرت وحدها ٠٠ثم اوصلتها الى البيت وحدي ٠٠ ووعدتها في الطريق ان اكتب لها ٠٠٠ وفي الغد قمت كما قال الشاعر ذا شجى وترنم ٠٠ فلم اتمالك ان اخذت القلم وكتبت لها رسالة افرغت فيها كل عواطفي ثم ذهبت الى المدرسة فخرجت الي ووقفنا في الباب ، وسلمتها الرسالة يدا بيد ٠٠ وفي وجهي رسالة اخرى (٢) ٠٠ وفي رسالة بعث بها الى سلطانة من نيويورك يقول :

"٠٠ كنت اتصور اني اذا احببت الازم من احب واطوف معها باكناف السحاب المخيم واهيم معها في اودية الخيال وانسى الناس مجنون ليلى وجميل بثينة وكثيّر عزّة وقيس لبنى وغيرهم من المحبين ، اسمعهم من اقوالي ما لم يكونوا يسمعون واتلو عليهم من آياتي ما لم يكونوا يعهدون ٠٠ كنت اقدر اني سأوغل في عالم الخيال الى حيث لا يصلون واصل في الحب الى درجة لا يصل اليها احد قبلي ولا بعدي ، فلما احببت هجرت خيالي وهدمت احلامي وزججت بنفسي في عالم غير عالم الخيال ٠٠ اجرى ولكن وراء المادة ٠٠ انطق ولكن بغير الشعر ٠٠ انشد ولكن اقوال غيري ٠ ارى ولكن غير محياك ٠٠ اسمع ولكن غير ندائك ٠٠ احب ولكن كأنني غير محب ، اسير بين الناس ولكن مثل بقية الناس ٠٠ اعيش كما يعيشون واسعى كما يسعون ٠٠ نهاري مثل نهارهم ٠٠ وليلي ، لا ، لست في ليلي مثلهم ٠٠٠

---

(١) من مقدمة كتاب "كذا انا يا دنيا" بقلم الدكتور اسحق موسى الحسيني

(٢) كذا انا يا دنيا ص ٥-٦ ٠

بل في يقظتي ، في نهاري وانا في معترك الحياة الهائل ، وانا اسير في شوارع نيويورك وقرقعة القطارات والترامات على الارض وفوق الارض وعواء البواخر وضجيج الناس — تصم الاذان — وحركة السيارات والعربات تخطف الابصار ، لا افيق على نفسي الا محلقا في جو القدس ، تارة فوق المدرسة ، وتارة فوق المنزل الذي احبه واجله ، وتارة فوق "ارتاس" او "قالونة" او "عين كارم" او "رام الله" او "بيت جالا" ... هذا دأبي في ليلي ونهاري ، لا اقيم الا على سفر اما على اجنحة الخيال في اليقظة واما على اجنحة الحلم في النوم .. لولا كما يا خيالي ويا حلمي لكنت خليقا ان امل وجودي ... (١)

ليس من شك في اننا بهذه الرسائل امام متجه جديد .. وتعبير عن وسط جديد وروابط جديدة وعلاقات ومفاهيم اخرى غير الاولى .. انها طبقة برجوازية تبزغ براعمها وانه تعبير ايجابي عن مشاعر هذه الطبقة بكل ما يشتبك فيها من عوامل وارتباطات ! ومن هنا جاءت هذه البداية التي احس بها الدكتور اسحق موسى الحسيني لدى الاستاذ خليل السكاكيني والتي تخالف نهايات غيره من المعاصرين .. وتتحرر من الاوهام .. انها الصدق بالواقع والتعبير الواقعي السليم ...

ومن هنا كانت هذه الرسائل التي هي اشبه ما تكون بأدب اليوميات مطلع مسرب جديد في حياة النثر في هذه المرحلة ..

وما كان التعبير جميعه في هذه المرحلة على هاتين الشاكلتين صحيح البناء رغم جمود القوالب في الاتجاه الاول وسليم البنية يتحرك مع الحياة في الاتجاه الثاني ... وانما كان هناك تعبير يظلع فيه كثير من الضعف والاضطراب ومن هنا لم يكن الاتجاهان الا ثمرة جهود كبيرة ...

كان هذان الاتجاهان في الوقت الذي كنا نقرأ في كبريات الصحف مثل هذا التعبير الذي ارسله مكاتب الجنان من القدس الى الصحيفة . (٢)

" لا يخفى ان هم دولتلو والي الولايه الافخم ما زالت تزداد يوما فيوما .. ومن اهم هذه الاجراءات هو ادخال قبائل العربان الساكنين البادية في سلك الطاعة والخضوع للحكومة السنيه .. فانه لم يبق احد من العشائر البدوية الا وقد اطاع ولبّى نعمتنا الدوله العليه ومن الجملة قبيلة الحميه المتبدده في ضواحي قضاء غزه الكائن داخل متصرفية القدس الشريف مع كونهم متوحشين جدا وهو معلوم ان العربان المرقومين كانوا قد رجعوا الى ما كانوا عليه من التوحش غير ان سعادة متصرف اللواء الحالي كامل باشا قد دارك الامر حالا بسوق الاوردي لجهة غزه فأوقع في قلوبهم الرعب ... ولم يسعهم الا الفرار ..

---

(١) كذا انا يا دنيا ص ١٣ — ١٤ (٢) الجنان / جزء ٢٠/ ص ٦٢٣ تشرين الاول ١٨٧٠ .

فتحرك قلبه المملوء شفقة ورحمة ومالت به سجية الشفقة الى جهة العفو عن اقتفاء آثارهم .. واختار استعمال وسائل ارجاعهم الى محلاتهم بواسطة التأمين .. واقتضت افكار حضرته السامية الى **اتخاذ** بعض التدابير .. "

بهذا المثل واشباهه ندرك قيمة الاتجاه الاول والثاني في حفظ بناء اللغة .. ورغم ان اصحاب المنهج الاول جمدوها في صندوق الا انهم اصحاب الفضل في حفظ هذه الثروة للمراحل الاخرى حيث تنطلق فيها الحياة .. فتحرك هذه الثروة وتطلقها من قمقمها الذى انحصرت فيه وانغلق عليها بحكم الظروف التي **اشرنا** اليها سابقا

المرحلة الثانية

امتدت المرحلة الثانيه في حياة الشعر من سنة ١٩٠٨ اى منذ اعلان الدستور حتى نهاية الحرب العظمى الاولى ودخول البلاد في شبكة الانتداب البريطاني اى حتى سنة ١٩٢٠ .

وسنتخذ هذه الفتره لتكون المرحله الثانيه في حياة النثر الفني كذلك لانها الفتره التي تبلورت فيها مقومات الطبقة الوسطى حيث اخذت تتلمس ذاتها وتحس بكيانها وتتبين علاقاتها وتخطو خطوات جاده في سبيل تحسين اوضاعها ..

وظهرت الصحف كظاهره طبيعيه لظهور هذه الطبقة .. وظهرت في هذه المرحله اشكال ادبيه تلائمها وتحقق اغراضها تنحصر في : المقالة الادبية واليوميات / والخطابه ...

وقد اتسعت هذه الاشكال الادبيه فشملت جميع انواع المضامين التي خلقتها ظروف الحياة الجديدة في هذه المرحلة ...

اتسعت لمضمون الكد والكدح والعمل ومشكلة العامل ... ودور الشعوب والحكومات في علاقات الامم .. والطبقات والبناء الاجتماعي .. وصلة اللغة بحياة الناس .. والتقاليد **والاوهام** . والثورات والحرب والسلم والسياسة .. والظواهر العلمية المتعددة .. والسير والابحاث في علوم الطبيعة وفي النشوء والارتقاء .. وفي الدعوة الى الطبيعة .. وفي ادب السجون .. وما الى ذلك من قضايا الطبقة الوسطى ومشاكلها وارتباطاتها .(١)

ومن كتّاب هذه المرحلة : الاستاذ خليل السكاكيني .. والاستاذ خليل بيدس .. والاستاذ اسعاف النشاشيبي .. والاستاذ عيسى العيسى والاستاذ حنا العيسى .. والاستاذ بولس شحاده .. والشاعر اسكندر الخوري البيتجالي .. واصبحنا نجد نساء كاتبات يشاركن في التوجيه الادبي ويكتبن المقاله التوجيهيه مثل الكاتبه سلمى النصر في الناصره (٢)... واصبح لدينا ادب علمي او علم متأدب كمقالات الاستاذ توفيق زبيق في شكلها العلمي المتأدب .. وهؤلاء غير طبقات الخطباء في فلسطين ويتجاوز عددهم العشرين خطيبا في هذه المرحله ..(٣)

---

(١) تجد هذه الموضوعات في (النفائس المصرية) في سنواتها الاولى والثانيه والثالثه والرابعه .. وفي "يوميات السكاكيني" . (٢) النفائس المصرية / المجلد الثاني / الجزء الثاني سنة ١٩٠٩ ص ٩٧ ـ ١٠٠ (٣) النفائس المصرية / السنة الرابعة الجزء العاشر سنة ١٩١٢ ص ٤٦٠ ـ ٤٦٥ ، والجزء الحادي عشر ص ٤٩٣ ـ ٤٩٥ .

واللغة ثروة من ثروات الامم كالمال ٠٠ تتجمد فلا ينتفع بها في كثير او قليل ٠٠ وتتحرك فتأتي اكلها وتثمر ثمارها وينتفع بها اهلها جميعا ٠

وقد كان الكتاب يصنعون الكتابة في القرن التاسع عشر من اجل انفسهم ٠٠ يجمدونها ، غير حريصين على من يقرأها كتجميد الاموال فلا يبالون بأمر وصولها الى الناس ٠٠ كان همهم ان يقتلوا الوقت في صوامعهم بهذه الصنعة الكلامية ٠٠

حتى اذا كان القرن العشرون بظروفه الطبقية والاقتصادية والسياسية والثقافية ٠٠ دفعت بهم الظروف فحاولوا تحريك هذه (الاموال) ٠٠ ثم حاولوا ان يجدوا لثروتهم اسواقا وقبولا لدى الناس فماذا فعلوا ؟! ٠

وجدوا نوافذ تطل بهم على النهضة الاوروبية ٠٠ فمد بعض المثقفين ابصارهم من خلال هذه النوافذ ففتنتهم العوامل التي ادت الى النهضة الاوروبية ولم تكن الوسائل مهيأة لهم بالدرجة عينها فأخذوا يتصايحون ويعلنون اهمية المدارس والتعليم ويؤنبونهم ويقدمون لهم الافكار في اطباق زاهية ملونة على شكل حكايات وفكاهات ومحاورات ، وجعلوا يقدمون لهم مع تلك الاطباق شتى المقبلات ، واخذوا يعضون على اللغة بنواجذهم ٠٠ ولم يكونوا متفرغين للكتابة ، بل كانت صحفهم تنشأ على هامش حياتهم المعاشية في اوقات فراغهم من التدريس وغيره ، ولكنهم بعد بضع سنين جعلوا يتفرغون للكتابة ٠٠ ويجعلونها شغلهم الشاغل وعلمهم الدائب ٠٠ والعلم وجعلوا يحثون الناس

وحين وجدوا ابناء قومهم عازفين عن الحقيقة عارية اخذوا يجهدون انفسهم في كسائها واظهارها في اثواب براقه تلفت النظر ٠٠ فلم يكن القوم في مستوى بحيث يرون الحقيقة ارقع من اليمن ٠٠

ومن هنا كانت الحكايات الكثيرة ٠٠ والطرائف ٠٠ والفكاهات ، والحوار في الشعر والنثر ٠٠٠ والمقدمات الطويلة للموضوعات ٠٠٠ والتوسعات اللغوية (١) ٠٠

وكانت (الواجهة) في المجلات : (مجموعة لطائف وفكاهات) ثم اصبحت مجلة (فكاهية ٠٠٠ ادبية ٠٠٠ تاريخية ٠٠)

ثم اخذت (المقبلات) تتراجع شيئا فشيئا فاصبحت الواجهة : مجلة (أدبية ٠٠٠ فكاهية ٠٠٠ تاريخية) (٢)

---

(١) انظر موضوع انطون بلان عن قادة الفكر / المجلد الثاني من النفائس ص ٤٥٥ ـ ٤٦٣ وموضوع اسعاف : " المدرسة " حيث جعله حوارا بين عربي وشرقي المجلد الثالث ص ٤٣ ، وموضوع توفيق زيبق عن التربية البيتيه المجلد الثاني ص ٢٥٥ ٠

(٢) انظر واجهة النفائس سنة ١٩٠٨ / ١٩٠٩ / ١٩١١ ٠

هذا من حيث الاطار الذى احاط النثر ٠٠ اما من حيث المسارب والاتجاهات التي اشرنا اليها في المرحلة السابقة فقد تطورت تطورا واضحا بفضل هذه المضامين الجديدة ٠٠

وحين دخلت هذه الاتجاهات في معترك الحياة ٠٠ ظهرت عليها اشراقة الحياة ٠٠٠ وتدفقت فيها دماؤها ٠٠ واصبح لها لمعتها وبريقها ٠٠ ودب فيها نشاط الحياة وحركتها ٠٠٠

فجنحت مدرسة السكاكيني الى الواقع وتسجيل علاقاته وتصوير مشكلاته باسلوب فيه حلاوة التجديد ٠٠ وفيه انسام روح العصر ومقتضيات الزمن ٠٠

فلا عجب اذا رأينا حامل لواء هذا الاتجاه / الاستاذ خليل السكاكيني (١) يعمد الى " اليوميات " حين رأى الرسائل في الدور الاول لاتستطيع ان تستوعب مزاجه الواقعي ٠٠٠

" من اسباب نزعتي الى هذا الاسلوب انه يوافق مزاجي ، فليس شيء اكره الي من ان يتكلف المرء ما ليس من شأنه ، وكم حدثتني نفسي ان اقابل ما اراه من اسراف بعضهم في التكلف باسرافي في الابتذال لعلهم يرجعون عن تكلفهم فارجع عن ابتذالي ، ولكل شيء آفة من جنسه ٠٠٠

---

(١) مؤلفات الاستاذ خليل السكاكيني :

١ ـ الاحتذاء بحذاء الغير / القدس ١٨٩٦

٢ ـ النهضه الارثوذكسية في فلسطين / القدس ١٩١٣

٣ ـ فلسطين بعد الحرب الكبرى / القدس ١٩٢٠

٤ ـ الجديد ـ بأجزائه الاربعة / القدس ١٩٢٤ ـ ١٩٣٣

٥ ـ مطالعات في اللغة والادب / القدس ١٩٢٥

٦ ـ سرى / القدس ١٩٣٥

٧ ـ الدليل ـ جزءان ـ القدس ١٩٣٤ ، ١٩٣٦ ثم جمعهما في كتاب واحد عنوانه "الاصول " في تعليم اللغة العربية " القاهرة سنة ١٩٥٢ ٠

٨ ـ حاشية على تقرير لجنة النظر في تيسير قواعد اللغة / القدس ١٩٣٨ ٠

٩ ـ لذكراك / القدس ١٩٤٠ ٠

١٠ ـ ما تيسر / جزءان / القدس ١٩٤٣ ، ١٩٤٦ ٠

١١ ـ وعليه قس / القدس ١٩٤٣ ٠

١٢ ـ معالم التاريخ القديم / القدس ـ بالاشتراك مع وصفي عنبتاوى واحمد خليفه

١٣ ـ كذا انا يا دنيا ـ يوميات خليل السكاكيني / القدس ١٩٥٥

١٤ ـ اساليب التعليم ٠

ومنها ان هذا الاسلوب هو اسلوب هذا الزمان ٠٠ ولكل زمان لغته واسلوبه ٠٠ واذا اردنا ان نتفاهم فلا بد لنا من ان نخضع للغة زماننا ٠٠ لو ادركت زمان الحريرى لما كتبت الا سجعا ٠٠ ولو ادركت زمان ابي العتاهيه لجعلت حديثي كله شعرا ٠٠ ولكن احمد الله الف مرة اني لم ادرك زمان الحريرى ولا زمان ابي العتاهيه وان كان العهد بيني وبينهما غير بعيد ٠٠ ليس هذا الاسلوب حديثا وانما الحديث هو الثقافة العصرية الراقية الواسعة مما يمكن ان يقال معه ان الكتاب الى عهد قريب كانوا بالنسبة الى كتاب اليوم اشبه بالاميين ٠٠ ونصيحتي للكتاب الناشئين ان يكونوا من اصحاب الكفايات قبل ان يكونوا من اصحاب الاقلام "٠٠ (١)

ويقول في كتاب آخر (٢)

"٠٠٠ لم يكن هناك علم لغة او ادب او شعر ٠٠ اذ لم يكن اللغوى لغويا الا على قدر ما يحصي في صدره من الفاظ اللغة وغرائبها وشواردها ٠٠ فكان اشبه بالحفاظ والرواة منه بالعلماء ٠٠ ولم يكن الاديب اديبا الا على قدر ما كان يغير على الفاظ المتقدمين فيسردها سردا جزافا ٠٠ فكان ابرعهم في الادب من اذا كتب في موضوع نسخ كل كلمة فيه من كلام متقدمي الادباء والكتاب ، ولو سلخ في تفقد اللفظة والتفتيش عنها من مظانها الاسبوع والاسبوعين ٠٠٠ بل كان من الادباء ولا يزال منهم الى اليوم من اذا اراد ان يستعمل كلمة بحث عن عمرها فاذا لم يرب على الفي سنة او الف على الاقل فلا يستعملها ٠٠ بل كان منهم ولايزال كثيرون الى اليوم من اذا جاء بكلمة اتبعها بمرادفاتها على غير اقتضاء ولا مناسبة ، تبجحا بكثرة محفوظه وسعة معرفته ٠٠٠

ان الاديب كان اشبه بالناسخ بل بالماسخ منه بالاديب ٠٠

لم يكن هناك علماء وادباء بل حفاظ ورواة ونساخ ٠٠ وكلهم مقلدون والتقليد لا يكون في اوله الا مشوشا ٠٠ ثم يصير الى الاجادة والاتقان ٠٠ ولكن التقليد تقليد سواء اكان مشوشا ام متقنا ، والمقلد مهما اجاد واتقن فانما هو غريب دخيل ٠٠ وما زمن التقليد في حالتي التشويش والاتقان الا زمن تعلم وتحصيل لا زمن ابتكار واستثمار ٠٠٠

وقد كان من فائدة هذا التقليد ان تجدد عهد الفصاحة ٠٠٠

ولعمرى انها لفائدة عظيمة يستحق عليها كل من اشتغلوا باللغة الثناء الطيب ولو كانوا مقلدين ٠٠ لم تكن للامة لغة فصارت لها لغة ٠٠ وانها للغة غنية ٠٠ ولم تكن لها ادبيات فصارت لها ادبيات ، وانها لادبيات راقية ٠٠

---

(١) كذا انا يا دنيا ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ (٢) مطالعات في اللغة والادب ص ٧٨ ـ ٨٧ ٠

وما احياء لغة انقطع عهد الالسنة بها منذ امد بعيد ، وما احياء ادبيات كاد يحيفها الزمان ، بالمطلب السهل الذي يتم في زمن قصير مثل هذا الزمن الذي مضى منذ اول هذه النهضة الى اليوم لولا همة اولئك الابطال زعماء النهضة ، وما رزقوا من الذكاء والجلد ·· يكفيهم فضلا انهم وصلوا ما انقطع من سلسلة نسبتنا الى السلف الصالح وانزلونا منهم منزلة الابناء من الاباء ·· بعد أن كنا ادعياء لا اصل لنا ولا فصل ·· ولم يبق لنا بعد ان اجتزنا دوري التقليد ، اي دور التشويش ودور الاتقان الا ان ننزل من اللغة منزلة ابنائها منها ·· فالاديب ليس ذلك الذي اذا كتب استعار الفاظ غيره سواء ارادها ام لم يردها ، ناسبته ام لم تناسبه ، ولكن هو الذي يتصرف بالفاظ اللغة كما كان يتصرف بها ابناؤها ، فكل كلمة يقولها هي له تترجم عما في نفسه ·"

ويقول في موضع آخر من الكتاب نفسه (١)·" نحن في عصر تغلبت فيه روح الاقتصاد ، فاذا لم يراع الكاتب الاقتصاد فيما يكتبه ، في وقته ووقت القارئ ، لم يجد من يقرأه ··· اذا لم يرتكز الادب فيه على العلم فلا قيمة له ··"

ثم يقول في موضع ثالث من الكتاب نفسه (٢)··" : ان الناس كانوا يميلون الى التكلف في الكتابة فصاروا يميلون الى الاساليب الطبيعية فيها ·· كما كانوا يتكلفون في كل شيء فصاروا طبيعيين في كل شيء ·· التطور ناموس عام ·· فما من عنصر من عناصر الحياة الا خاضع له رضينا ام كرهنا ·· ومن لا يؤمن بهذا الناموس فقد جهل كثيرا واللغة خاضعة لهذا الناموس ، وانه ما من سبيل لاخراجها عن حكمه ·· ان الناس صاروا يميلون في كل مظاهر الحياه الى الاساليب الطبيعيه ، وليس شيء اثقل على الروح في هذا العصر من التكلف ··· فالاسلوب الطبيعي للكتابه ان يكتب الانسان كما يفكر وكما يتحدث فمن حاول ان يكتب ما لا يفكر فيه او يتحدث به هو او غيره وما لا يلائم الحياة في شيء فقد تكلف · قد يكون تفكيره او حديثه شيئا وما يكتبه شيئا آخر ·· قد يترجم حديثه نفسه واما كتابته فلا ·· اذا اراد الكاتب من اصحاب المذهب القديم ان يكتب فلا يستوحي عقله او قلبه ، ولا يستعمل من الالفاظ ما يؤدي مراده ويناسب المقام ويفهمه الناس ، ولكنه يستوحي القدماء ، يفتش عما قالوه في موضوعه في كل **مظنه** فيستعير معانيهم والفاظهم ويدعيها لنفسه · لا تقرأ شيئا لهؤلاء الكتاب الا احسست ان كل لفظه فيه ليست لهم ·· كان القدماء يستحسنون (التضمين) ··(والاستعانه) ·· و (الايداع)·· و (الاقتباس) ·· و (التلميح) ···· و (العقد)···

---

(١) مطالعات في اللغة والادب ص ٩٩ (٢) مطالعات في اللغة والادب ص١٦٩ - ١٧٦ ·

واما اليوم فان اصحاب المذهب الجديد لايميلون الى شيء من هذا فانك لا تجد في ما يكتبونه آية اوحديثا او مثلا او شطرا اوجملة من بيت بل لاتجد كلمة ليست لهم او لا يعنونها .. اذا لم يكن بد للكاتب او الشاعر ان يستعير معاني غيره ويستعين بألفاظه فعلى الا يسرف في ذلك ، والا كان كلامه صدى مرددا ، هذا اذا لم نعده مسروقا ، وعلى ان يكون ما يستعيره من المعاني وما يستعين به من الالفاظ مما يعنيه ، ويقتضيه الحال الذي هو فيه ، والا فقد يكون ما يعنيه او ما يقتضيه الحال شيئا وما يكتبه شيئا آخر وهذا هو التكلفبل الجمود بل النفاق !... ومن آثار هذا التطور أن اصحاب المذهب القديم ينزعون الى الارستقراطيه في هذا الزمان الذي انتشرت فيه الديموقراطيه . فصار الكتاب فيه يكتبون لا للخاصه ، ولا لتسلية الامراء والكبراء او التملق لهم او السخر منهم ولا للتفصح او التمدح بل لعامة الناس في ما ينفعهم في هذه الحياه ..... لا ننكر التأنق .. فانه فطرة في بعض الناس.. وهو دليل علو في النفس، وسلامة في الذوق وهو مدعاة الى الرقي ... ولكن على ان لايتأنق لاجل التأنق والا كان دليلا على سخافة العقل وفساد الذوق وكان مدعاة الى التدني ..

لو فرضنا ان هذه الالفاظ الغريبه التي يسميها الارستقراطيون "جزلة فخمه" وان تلك التراكيب التي يسمونها " انيقة الديباجه " اصبحت شائعة فماذا يعملون؟ هل يخترعون الفاظا وتراكيب جديده ؟ ام يغضبون كما غضب الصاحب بن عباد على صاحب كتاب الالفاظ. فقال : لو ادركت عبد الرحمن بن عيسى مصنف كتاب الالفاظ لامرت بقطع يده ، فسئل عن السبب فقال : جمع شذور العربيه الجزله في اوراق يسيره فأضاعها في افواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمه ...

لم تغضب ايها الصاحب بن عباد على عبد الرحمن بن عيسى لانه رفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير والمطالعه الكثيره الدائمة ، وانما غضبت لانه حاول ان يجعل من صبيان المكاتب وعامة المتأدبين ارستقراطيين مثلك وليس شيء اثقل واشد على الارستقراطي من ان يدانيه احد من العامه .. لقد احسن عبد الرحمن بن عيسى في تقريب منال اللغه من المتأدبين فهو يستحق على ذلك الشكر الجزيل ولكنه اساء من حيث لايدري . اذ قيد اقلام الكتاب بعده بتلك الالفاظ التي جمعها فلم يحيدوا عنها . واذا استعمل احد غير الفاظه قالوا هذا ليس عربيا ...

فكان كتابه هذا اول عهد اللغة العربية بالجمود والتكلف.."

هذا وصف شامل دقيق لحامل لواء هذا الاتجاه في النثر .. وقد تمكنت ملكته في الكتابه من اصول هذا الاتجاه وخصائصه حتى غدا صاحبه الاول .. واصبح رئيس هذه المدرسة في حياة النثر ...

ونرى ان الحياة الجديده في هذه المرحلة من حياة النثر قد التقى فيها مسرب التعبير عن واقع الوسط الذي ينتمي اليه الكاتب بما في ذلك من روابط تربطه بمجتمعه وغيره ·· مع مسرب توصيل المعاني دون عناية متكلفه ·· واندمج هذان المسربان في المرحله الجديده هذه ·· وجنح اتجاههما الى الواقعية في كثير من خصائصه ··· واصبح من هذا المنهج ان يكتب الانسان كما يفكر وكما يتحدث ·· ومن حاول ان يكتب مالا يفكر فيه او يتحدث به هو او غيره وما لا يلائم الحياة في شيء فقد تكلف ··

اصبح كتاب هذا المسرب الجديد منتجين · بدلا من ان يكونوا مستهلكين بلغة الاقتصاد ·· مثلهم كمثل الامة التي تنتج وسائل عيشها بيدها ·· وتملك مقومات حياتها بنفسها ·· انها امة منتجه ·· وهي على نقيض الامم التي تستورد عيشها وموقومات حياتها من غيرها ·· انها امة مستهلكة ليس غير ···

ومن هنا كان اصحاب هذا التيار الجديد هم الذين يصنعون حياتهم بأيديهم ويملكون زمام انفسهم بأنفسهم فجنحوا الى هذه الواقعيه وانتجوا وابتكروا ·· اما المستوردون فهم المستهلكون لانتاج غيرهم المقلدون لاساليبهم !

وكان التمازج بين الحس والفكر من مميزات هذا التيار الحديث تمازجا تاما لا اثر للازدواجيه فيه كما شاهدنا ذلك في حياة الشعر في مرحلته الثانيه ·· وقد كانت حياة الاستاذ خليل السكاكيني ، صاحب هذا الاتجاه ، اخصب حياة للحس والفكر ممتزجين ·، وكانت يومياته اثرا فنيا رائعا وظاهرة كبرى في حياة النثر الفني في هذه المرحله · فكل ثنية او حنية من هذه الحياة كانت مصدرا للتصوير الواقعي الفني ··· فكانت في قيمها اشبه برواية كبيرة للكتاب الواقعيين ·· وهي بهذه القيم تقف الى جانب الاثار الكبيره لكبار الكتاب كالام لغوركي ! واليك مثلا منها :

" الثلاثاء في ٣٠/٦/١٩٠٨ : معمل في بلدة في اميركا ··· دخلت المعمل ·· فنزعت ثيابي ·· وشمرت عن ساعدي ، وجريت وراء العربة ·· كان الشغل اليوم شاقا جدا فكأننا لم نكن نحمل رزم اوراق ولكن صخورا ·· كان عرقي يتصبب من قدمي ، وانبثرت يداي ، وغلظت كفاي ، وتسلخت ساعداي · لا فرق بيننا وبين الخيول التي تشد الى العربات الا انها تجر العربات وراءها ونحن ندفعها امامنا · نعم اشتغل كعامل ولكني اشتغل بنشاط وحماسة بل مروءه ، واعني بذلك انني لم اكن ادع رفيقي يتعب ·· جئت الظهر الى المطعم وما وصلت اليه الا كانت الساعة اثنتي عشرة ونصفا فالتهمت غدائي بسرعة وخرجت واللقمة في فمي ورجعت الى المعمل وعدنا الى العمل ذاته ·· لا فرق بين العامل في المعامل وبين الالات الصماء ، يروح ويجيء بدون فكر ولا اراده ·· لا اثر للعقل في كل ما يعمل ·

لا عجب اذا ماتت نفوس العمال وافكارهم وذوت عواطفهم •• يشتغلون عشر ساعات بدون انقطاع شغلا شاقا ثم لا يحصل الواحد اكثر من ريال ونصف في اليوم • ما اظلم ارباب الاموال وما اقبح هذه المدنيه ! " (١)

أرأيت الى هذا الاتجاه في النثر الفني كيف يجنح الى الواقعية الحديثه وينفذ الى جذور القضايا بفكر ثابت •• ويعالجها بحس يقظ وضمير متنبه ووجدان سليم فيبين ظواهرها ويكشف عن روابطها •• ويصور علاقاتها المتشابكة تصويرا طبيعيا سليما •• انه ادب هذه الطبقة البرجوازية الناشئة ••

وقد انضم الى هذا التيار الجديد الاستاذ خليل بيدس(٢) في مجلته النفائس حيث طلع علينا بابحاثه ومقالاته ودراساته ، والسير التي عرضها ••

---

(١) "كذا انا يا دنيا " ص ٢٩ (٢) ولد في حوالي سنة ١٨٧٥ في الناصرة •• وتعلم في المعهد الروسي •• ثم علم في المدارس الروسية في حمص وسوق الغرب وبسكنتا وحيفا •• ثم في المدارس اليونانيه والانكليزية في القدس •• وتوفي في بيروت سنة ١٩٤٩ •• ومن اهم موءلفاته المدرسية :

ــ١ــ العقد الثمين في تربية البنين ــ لبنان / ١٨٩٨ ــ٢ــ مرآة المعلمين ــ لبنان ١٨٩٨ ــ٣ــ الكسور الدارجة / لبنان / ١٨٩٨ ــ٤ــ الكسور العشرية / لبنان / ١٨٩٨ ــ٥ــ درجات الحساب / القدس ١٩١٣ ــ ٦ ــ درجات القراءة / القدس ١٩١٣ ــ ١٩٢١ ــ٧ــ مختار البيان والتبيين / بالاشتراك مع شريف النشاشيبي / القدس ١٩٢٤ •

ومن اهم موءلفاته التاريخيه :

ــ١ــ العقد النظيم في اصل الروسيين واعتناقهم الايمان القويم / لبنان سنة ١٨٩٧

ــ٢ــ تاريخ روسيا القديم / لبنان ١٨٩٨ •

ــ٣ــ تاريخ الطيران / القاهرة ١٩١٢ •

ــ٤ــ الدول الاسلامية / القدس ١٩١٢ •

ــ٥ــ رحلة الى سيناء / بيروت ١٩١٢ •

ــ٦ــ ملوك الروس / القدس ١٩١٣ •

ــ٧ــ تسريح الابصار فيما تحويه بلادنا من الاثار / القدس ١٩٢٠ •

ــ٨ــ تاريخ القدس / القدس ١٩٢٢ •

ــ٩ــ الحرب ابطالها واشهر حوادثها / القدس ١٩٤٢ •

١٠ــ الروضة الموءنسة في وصف الارض المقدسة / بيروت ١٨٩٩ •

عدا ترجماته التي سبقت في الفصل الخاص بعوامل النهضة •

كما انضم الى التيار نفسه الاستاذ بولس شحاده والاستاذ عيسى العيسى ، وحنا العيسى وكانوا على درجات متفاوتة من حيث تمثل اصول هذا الاتجاه وخصائصه .

اما الاتجاه الثاني المقابل لاتجاه السكاكيني فقد تطور عن منزب التصنع والتكلف وحشد الاستعارات التقليدية والصور المزوقة وتكديس المترادفات المحشوة بالمحسنات البديعية ، وحشر (التضمين) و (الاستعانة) (والابداع) و (الاقتباس) و (التلميح) و (العقد) وما الى ذلك .. تطور الاتجاه الثاني عن هذا المسرب الذى الذى كان يجنح الى التقليد حين بلغ حد الاتقان وقد رأينا من ثمرة ذلك الاتجاه ان الامة كادت ان تفقد لغتها فأعادها اصحاب هذا الاتجاه اليها ... ثم اغنوها وكادت ان تفقد ادبياتها فأرجعوها اليها واخصبوها ورفوها .. فاحيوا بذلك لغة كاد ينقطع عهد الالسنة بها منذ امد بعيد .. وبعثوا ادبيات كاد يعفيها الزمان ... ووصلوا ما انقطع من سلسلة تسبتنا الى السلف الصالح وانزلونا منهم منزلة الابناء من الاباء بعد أن كنا ادعياء لا اصل لنا ولا فصل .. كل هذا كان بهمة هؤلاء اللغويين والمتأدبين من رجال النهضة الاوائل ورواد الادب الحديث .. الذين تهيأ لهم من الجد والصبر والجلد ما لم يكن لغيرهم .

غير ان اصحاب هذا الاتجاه بعد ان اطمأنوا الى بعث اللغة من رقادها اغراهم تمرسهم بالقديم واتقانهم له ان يبقوا حيث هم ... وان يتزيوا بزي القدماء ... وان يتخذوا سمتهم .. ويعبروا تعبيرهم .. وكأنهم من عصر اولئك القدامى ! ولعل خير من دافع عن منهجهم الاستاذ اسعاف النشاشيبي (١) في رده على الاستاذ امين الريحاني : (٢)

---

(١) مؤلفات الاستاذ اسعاف النشاشيبي : ١- كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه / القدس ١٩١٦ -٢- مجموعة النشاشيبي / القاهرة ١٩٢٣ - ٣- قلب عربي وعقل اوروبي / القدس ١٩٢٤ -٤- البستان / مصر ١٩٢٤ ثم ١٩٢٧ - ٥ - كلمة في اللغة العربية / القدس ١٩٢٥ -٦- مجموعة : العربية وشاعرها الاكبر / العربية والاستاذ الريحاني / العربية في المدرسة / مصر ١٩٢٨ - ٧- البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد احمد شوقي / القدس ١٩٣٢ -٨- مقام ابراهيم / القدس ١٩٣١ -٩- الاسلام الصحيح / القدس ١٩٣٦ -١٠- نقل الاديب / بيروت ١٩٥٦ -١١ - امثال ابي تمام الطائي : .. نشرها في النفائس العصرية) -١٢- امالي النشاشيبي .. (مخطوط) -١٣- التفاؤل عند ابي العلاء .. (مخطوط) -١٤- الامة العربية - ١٥ - حماسة النشاشيبي - ١٦- جنة عدن (الارقام ١٤ - ١٥ - ١٦ لا يعرف ماذا فعل بها الزمان)

(٢) اللغة العربية والاستاذ الريحاني في كتاب منه المجاميع الثلاثة (العربية وشاعرها الاكبر - العربية والريحاني - العربية في المدرسة) ص ٣٣ - ٣٩ .

"... وجدت الاستاذ الريحاني يعيب في مقاله التقليد والاغراب ويهجن (اصطلاحات واستعارات يشغف بها المقلدون) ويعد الانشاء فنا - والتجاوز في الكلف بالفن خسران واللغة ذريعة - واتخاذ الذريعة غاية ضلال - ويرى اننا محتاجون جد محتاجين الى الذي هو انفع الى العلم الغربي الحق فلا يجوز ان يشغلنا الكلام المزوق عنه. اجل ان في هذا العصر من يقلد المتقدمين ومن يشمله اللفظ الغريب ومن يستجيد الاستعارات ويستعملها فتظلم فيها معانيه ولكني (والحمد لله) لست كأحد منهم فما انا بالمقلد اديبا قديما او حديثا بل ممن ينعى على ذي التقليد تقليده .. وقد الاقي الكاتب العظيم من المتقدمين فلا يسيطر علي ولا امشي وراءه وله قوته وطريقته ولي ضعفي وطريقتي ، وقد يكون متقدم بعد التحقيق ضعيفا متأخرا .. وقد تكون طريقته مضلة فلست اذا مقلدا في القول احدا وانما هي الفاظ عربية مضرية عرفتها واسلوب عربي مبين عقلته وملكة جاءت ثم كلام هو ذوب روحي وابن نفسي وخليقتي وطريقتي ، وفي الخلق شدة وفي النفس قوة وفيها وضوح ظاهرها كباطنها وباطنها كظاهرها . فانا اشنأ التزويق في الكلام واشنأ هذه الاستعارات المخسرات وابغض بديع الجماعة فلا اعرج الا على القول المبين ولا يجي مني الا الجملة البينة . وكرهي الغريب الذي ذموه ككرهي الاستعارة الممقوتة .. وما هذه الالفاظ التي يطلبها مكانها ويحسبها بعض الناس غريبة (وما هي غريبة ولا تشبه الغريب) الا الفاظ مضرية لا حميرية ولا يمانية وليست من الفاظ حضرموت او الشحر فلا تذمها (يا اخا العرب) ولا تنكر منها ولا ترينها غريبة ، واعرضها على السمع لا يمجها وحرك اللسان فهو لا يستثقلها وما غرب مثلها الا تقهقر امة ، القارئ في بدوها وحضرها في الالف واحد . ولو كان لها حال كحال الاصم ما انكرت معروفا ولا استغربت غير غريب .. فلست وحدي (وهذه حالتي) كما اراد الشيطان ان يصبغني في عيني الاستاذ الريحاني ... وهذه " كلمتي " وهي خطبة خطبت بها الخاصة بل خاصة الخاصة وما انشأتها للعامة ولا لمن هم فوق العامة - هل تجد فيها غريبا وحشيا ؟ وهل تعرض لك في جملها استعارة او تعقيد او صنعة يستغلق بواحد منها معنى ، وهل تعثرن فيها على تقليد متقدم في دهره او متأخر ام تجد كلاما عربيا طبيعيا حرا قد خاصم الاستعارات وعادى كل صنعة ... ولقد كان الكاتب الخطيب الكبير الاستاذ محمد توفيق دياب ارحم في قوله في (الكلمة) فانه يقول في مقالته البليغة في (السياسة الغراء) - (نعم لقد اعادنا الاستاذ النشاشيبي الى عهد الجاهلية او صدر الاسلام حين كان المعنى الضخم يبرز في اللفظ المتين الضخم وحين كان الكلام يصدر عن القلب فيقع في اعماق القلوب في مستقر ثابت مكين ، حين لم تكن صناعة مجلوبة ولا حلية مغصوبة ولا ركالة ولا عوج)... وذاك العهد الذي ذكره الاستاذ دياب ينبيك ببيان قوله المبين وباستقامته وطبيعيته (قرآن محمد)

ـ على عبقريته وعلى اعجازه وعلى كونه فوق القول ـ والصحيح الذي جمعه محمد بن اسماعيل ، وكامل محمد بن يزيد .. فاغد يا قارئا الى اولئك الكتب واعكف عليها ثم قل لي : هل بعد هذا البيان بيان ؟ وهل وراء هذه السهولة سهولة ؟ وهل تقابل غرابة .. او تكلفا تمقته او تحلية تنفر رائيها ؟ .. وهل تجد عندها ما تجده في كلام ابن المقفع والجاحظ والصابي والهمذاني والرضي والمعري والحريري وامثالهم من قلق او ارتباك او تمطيط او تمحل او زخرفة ؟! ... وهل يلام من يهيب بالادباء في هذا العصر الى ورود تلك الينابيع العذبة الصافية ويدعوهم الى ان يشيدوا بناء لغتهم في هذا الوقت على تلك الاسس الثابتة القوية لكي يستحكم البناء ويرغد عيش اهله فيه ولكيلا يهتي او ينهار ولئلا يقدم على ان يسوىء على بانيه بناءه مهندس او بناء .. وهل هذه الملاحة على وجوه طائفة من الادباء والقوة في اجسامهم الا لانهم كانوا يردون الينابيع القرآنية ويشربون من مائها . ولك ان تشيد (والعلم بالذي تأتيه هاديك) على ذاك الاساس ما تريد تبني حمراء او زهراء او قصرا بلوريا او قصرا بندقيا او كل صرح يعجبك شكله .. وذاك الاساس فيما تنشيه اساسك .. وذاك النبراس في البناء نبراسك !

هل يلام الداعي الى ذلك وهل يعد صادا عن طريق الخير وسادا اياها ، وهل يستأهل ان يردى بثوب التقليد ، وانا (والله) لم البسه منذ عقلت قط ولن البسه (ان شاء الله تعالى) ابدا ! .... الحق ان اللغة لم تك الا ذريعة .. ولكن المرء قد تفنن في هذه الذريعة فجاء منها الفن .. وراح ذاك الفن يتساوى مع سائر اخوته من الفنون الفتانة ... فمرغبي ومرغب من يترأى برأيي ان نصون هذا الرونق او هذه الديباجة كما يصون الكريم ديباجتيه فلا يبذلهما ..."

هذه خلاصة لاصول هذا الاتجاه وخواصه ، وقد كان حامل لواء هذا المسرب الاستاذ اسعاف النشاشيبي ومن هنا كانت حرارة الدفاع عن هذا المتجه صادرة عنه .. والحق يقال ان الاستاذ النشاشيبي كان بريئا من التقليد .. انه ورد تلك الينابيع العذبة الصافية وفتن بها وجعلها اساسا ثابتا قويا لمبانيه الشامخة .. انه ليس صورة من هؤلاء القدامى .. ولسنا نستشف فيه وجها من وجوههم .. وانما هو علم كبير يعد في طليعتهم يجلس الى جانبه بديع الزمان او غيره .. من الاعلام الكبار فلا يتزحزح عن مكانته .. ان فيه تلك الفخامة التي ورثناها عن الجاهلية وصدر الاسلام .. والمتانة التي انحدرت الينا منهم بغير شوائب تشوبها .. ولكلامه وقع في اعماق القلوب ومستقر ثابت مكين في النفوس .. لا تحس فيه صناعة مجلوبة ولا حلية مغصوبة ولا ركالة ولا عوج ..

ولكن من يستطيع ان يتجه هذا **المتجه** من غير ان يقع في منزلق عميق ..
ويضل في متاهة مظلمة... فتشتمل عليه شباك التقليد .. وتستولي عليه بهرجة
التعمل ومحسنات الزخرفة !

لا يستطيع ذلك الا **الاستاذ** اسعاف بما تهيأت له من ظروف قلما تتهيأ
لسواه ... ومن هنا كان نسيج وحده .. وكان ظاهرة رائعة من ظواهر هـذا
المتجه الخطر .. متجه (الخاصة) ... ولكنه ظل محافظا على الرونق وكان تأنقه
ملكة مستقرة في قلبه .. وكان دليلا على علو نفسه اللغوى وسلامة ذوقه الادبي ..
ومن هنا كان التعايش السلمي بين المتجهين : متجه السكاكيني ومتجه النشاشيبي
ولم تقع خصومة بينهما تفسد صفو ودهما .. كما وقعت بين السكاكيني من جهة
وبين الامير **شكيب** ارسلان من جهة اخرى ... فقد كان النشاشيبي ارسخ قدما في
المتجه من شكيب .. وقد كان السكاكيني يقدر اصالة النشاشيبي وكان النشاشيبي
يقدّر اصالة السكاكيني ..

فحين اعلن الدستور وانتفضت الامة وزال القبر والكفن واقبلت على الحياة
يقول السكاكيني : "... وكنت قد سافرت الى اميركا فلما اعلن الدستور رجعت الى
القدس وعاد اسعاف الى ملازمتي في الليل والنهار ، وجعلنا نكتبما توحيه الظروف ،
وجاء المرحوم حنا العيسى من يافا الى القدس ، وهو من النبل وعزة النفس على
جانب عظيم ، فأنشأ مجلة " الاصمعي " ولنا فيها مقالات كثيرة ، وكنا نحن الثلاثة
على اتصال مستمر ، وكان اسعاف مولعا ببديع الزمان الهمذاني ينسج على منواله في
كتابته ، وكنت انا مولعا بأبي الطيب المتنبي ، وكان حنا العيسى مولعا بالاصمعي ،
فتوزعنا كنى هؤلاء الثلاثة : اما اسعاف فكنيناه ابا الفضل / واما انا فكان نصيبي
كنية المتنبي وهي ابو الطيب / واما حنا العيسى فكنيناه أبا سعيد وهي كنية
الاصمعي / وعرفنا من ذلك الحين بهذه الكنى وشاعت على الالسنة .." (١) وسنختار
للاستاذ اسعاف ما يدل على شيء من منهجه :

كتب في موضوع "البشر وقوانينهم" يقول : "... اجتمع الحزبان او
الفريقان ممن ينتمي الى حكمة (فوق) وحكمة (تحت) وحكما على الناس اظلم حكم
وقالا هذا اعدل حكم . ثم جبرا الاقوام من المساكين الضعفاء على الاذعان لـه
ولم تأخذهما بهم رأفة ولا رحمة .. فأصبحت الارض دار شقاء وبلاء وبؤس وعناء
وشدة وحزن ولم تكن وربك كذلك . لم تكن يوم كنا نقلد الوحش في عمله ونتقيل
منازعه من مشربه ومأكله وانما طلع الشر يوم بدا نور العقل الذى لم يشأ الانسان
ان يضيء به ظلام هذا الكون الغاسق لاخيه الانسان فيسيرا في هذا الوجود آمنين
مطمئنين متعاضدين متآزرين يقاومان معا كل خطب ويذودان كل ملم نزل .

(١) (كذا انا يا دنيا) ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

لم يشأ يا ويله ذلك ولم تجنح اليه نفسه بل اعان الدهر على اخيه :

اعان علي الدهر اذ حك بركه كفى الدهر لو وكلته بي كافيا

اعان الدهر الليالي عليه في كل امر حتى في هذه القرائين التي تأنق فيها وبالغ في زخرفها وما كان قصده غير سوق النفع الى نفسه — وكل مجر النار الى قرصه ... " (١)

أرأيت كيف أن دفقة الحياة اندفعت في هذا المسرب الذي كان في المرحلة الاولى خاويا منها .. وكيف امتلأ بها مضمونه .. فأصبح يعالج الموضوعات التي يعالجها المسرب الاخر، مسرب السكاكيني .. واصبحت تمتزج فيه اشراقة الفكر بحرارة الحس .. واستقبلت المجلات نتاج المسربين .. وتجاورا فيها حوارا حميدا .. ومضيا الى جانب بعضهما .. فرأينا اسعافا يتناول بمنهجه التقاليد والخرافات ويقابل بين الشعب الالماني والشعب العثماني فيقول :

"... ان الالمان لم يبلغوا ما بلغوه .. وهم هاجدون نائمون ، ومنغمسون في النعيم مترفون .. لاوالله ما ظفروا بذلك كذلك ولكن بحوادث وكوارث شابت لها الاطفال ، ووقائع يوم الحروب تقلقلت منها الجبال ، ولم تتزلزل الابطال من الرجال ، ومدارس بنوها على اساس من الحقائق متين ، وعلوم برزت على علوم المتقدمين والمتأخرين وتضافر واتحاد هما اثبت من الراسيات والاطواد وكدح ودأب وجد .. لا حظ من الدهر وجد" ..... " (٢)

ويتناول موضوعات اخرى متنوعة من موضوعات الحياة ... فيكتب في موضوع " المدرسه " (٣) عن الوسيلة للرقي ونظرته الى عصر العلم والتطلع الى ما وصل اليه الغرب .. ويكتب عن اللغة العربية ويصور مبلغ الحماسة والثورة والحرص في سبيل سيادة هذه اللغة (٤)... ويكتب في السياسة ... والتفتح على الثورات .. ويبين رأيه في الاوروبيين .. ويكتب عن ثورة الصين في اعجاب شديد (٥)... وعن الحكومات الاوروبية .. المستعمره التي حياتها معصوبة بموت غيرها .. وسعادتها مربوطة بشقاوة غيرها ... وهي لاترجب ولا تحب الا المصلحة ولا تدين الا بدينها كما اوضح ذلك في مقالة "اوروبا والمصلحة" المنشورة في (الجريدة) الغراء (٦) ..

وفي هذه المرحلة بدأ اسعاف كتابه "امثال ابي تمام الطائي " حيث يقول :

---

(١) النفائس/ المجلد الثاني / الجزء السادس ١٩١٠ ص٣٣١ — ٣٣٥ (٢) النفائس الجزء الحادي عشر/ المجلد الثاني ١٩١٠ ص ٥٦٢ (٣) النفائس العصرية / السنه الثالثة / الجزء الاول ١٩١١ ص ٤٣ — ٤٤ (٤) النفائس / السنة الثالثة / الجزء الثاني ١٩١١ ص ٦٥ — ٦٨ (٥) النفائس/ السنة الرابعة / الجزء الثاني ١٩١٢ ص ٦٠ — ٦٨ (٦) النفائس/ السنة الرابعة / الجزء الثالث ١٩١٢ ص ١٣٤ — ١٣٦ .

" كنت انشد اخواني وخلصائي من الادباء البلغاء ، والكتاب ممن يكلفون بالقول المتين والشعر الحكيم ابياتا من امثال ابي تمام الطائي الشاعر الاسلامي الكبير فكانوا يعجبون بها ... ويستظرفونها لفصاحة لفظها وبلاغة معناها ، وللحكمة الباهرة التي اشتملت عليها . وقد سألوني منذ برهة أن اجمع لهم هذه الامثال كما جمع من قبل اسماعيل بن عباد المعروف بالصاحب امثال احمد بن الحسين المتنبي وان اطرفهم بهذه الطرفة فوعدتهم بأن اعطيهم سوءلهم وابلغهم امنيتهم . ثم غدوت الى ديوان حبيب وأنشأت اختار من قلائده وفرائده ما اختار واوضح من اللفظ الغريب في الامثال ما اوضح واعلق على بعضها من النوادر الادبية والنكات اللغوية ما يمزج اللذة بالفائدة سالكا في ذلك سبيل الايجاز هربا من تبرم القارئ وملله ، وها اني الان احملها اليهم فليكرموها بحفظها .. وقد آثرت نشرها في هذه المجلة البليغة النابهة لانتشارها الباهر في القطرين الفلسطيني والسوري ولميل ادبائهما اليها جد الميل ." (١)

ومن اطرف تعليقاته على امثال ابي تمام الطائي ما يلي : بعد ان يورد ابياتا لعروة بن اذينة حين وفد على هشام بن عبد الملك :

لقد علمت وما الاسراف من خلقي	ان الذى هو رزقي سوف يأتيني
اسعى له فيعنيني تطلبــــه	وان قعدت اتاني لا يعنيــــني
لا خير في طمع يدني الى طبــع	وعفة من قوام العيش تكفيــــني

يقول اسعاف : -

" ايها القارئ اسمع : اني انما اوردت هذه القصة في القناعة والقعود عن السعي والكدح مجاراة لمقصد صاحب الامثال فاحذر بذلك وحاذرن أن يستزلــك الشيطان فتلهو عن الدأب والجد في نشدان الرزق ولاسيما في هذا العصر (عصــر التنازع في البقاء) الذى ان تغفل فيه قليلا عن الركض وراء معاشك تمت جــوعا دون ان تجد لك من راحم او مسعف ! " (٢)

وحين يختم النماذج التي اختارها من "امثال ابي تمام الطائي" ونشرها في "النفائس العصريه" يقول :

".. هذا نموذج من موءلفي الذى عانيت في تأليفه وجمعه واختيـار ابلغ القول له ما عانيت ، والذى اجبرت على ان اتلو اربعمائة كتاب من كتب الادب وغيره من الفنون من اجله ، وسأظهره للناس بعد برهة من الزمن .

---

(١) النفائس العصرية / السنة الرابعة / الجزء الثالث / آذار ١٩١٢ ص ١١٠ - ١١٧

(٢) النفائس العصريه / السنة الرابعة / الجزء السابع تموز ١٩١٢ ص ٣١١ - ٣١٥ .

واني أشكر لطائفة من الاساتذة والمحققين والكتاب البلغاء اشادتهم به وتقديره فوق قدره بما عدوه خير كتاب بدا في الادب العربي في هذا العصر • ولا ريب في انه لم يحملهم على ان يقولوا الذي قالوا الا كرم اخلاقهم وطيب اعراقهم وكثرة فضلهم وجنوحهم الى تشجيع اهل العلم والادب في عصر اردیت فيه الهمم وهلكت العزائم"(١)

وفي هذه المرحلة فتن اسحاق بالعلم ، واقترح عليه فضلاء ان يحاضرهم في "سير العلم وسيرتنا معه" • • (فأودعها موجزا من تاريخ العلم من اول نشأته في ادمغة البشر ، وافرغها في قالب من حسن السبك موثق ، وجعلها تغرد في روض بالفصاحة والبلاغة مورق • وافاض على السامعين من بحر علمه درا ، وجلا عليهم من عرائس معانيه بكرا ، فلفتت اليها انظار اهل الفضل والادب ومحبي الدرس والبحث • •)(٢)

وقال في كلمة امام الكلمة :

" • • • وما حسّن هذه الكلمة الا انها خرجت من القلب لا من اللسان تحمل نصحا خالصا وتذكيرا وتقريعا وتحنيفا لمن بات ليله هاجدا حليف احلاف • وقد سرى الجاد" محمد غبّ سراه ، وانما تجملت بذكر النبي وتزينت بالتويه بالمصلح العربي فجملت وحسنت وصبحت وملحت وما هي بالصبيحة ولا المليحة ولم يستجد ها مستجيد ها من قبل انها تعطفت من البلاغة بمعطف موشّى ذى زخرف ، وارتدت من الفصاحة بثوب باريسّي • فان بين طبيعة عصرنا هذا وطبيعة اهله — وهل انا الا من غزيّة — وبين تجويد القول وابداعه فراسخ واميالا والف عام • ولقد ذهب الذى كان يقول فيبدع ويجيد ويبلغ ما يريد • • • (٣) "

ثم يبدأ الكلمة كما وصف ابن خلدون في مقدمته عالم التكوين فيقول اسحاق :

" كانت هذه الكره • • وكان الجماد • • فجاء انقلاب فكان النبات • • ثم ردف الانقلاب الاول ثان فكان الحيوان • ثم عزّزا بثالث ورابع فتبدّت الاناسي" وكانوا اربعة انواع • • استأصل التناحر على البقاء ثلاثة منها من سنخها ولم يثبت في ميدان الجهاد في الحياة الا نوع واحد فذ"

والحرب لا يبقى لجا	حمها التخيّل والمراح
الا الفتى الصبّار	في النجدات والفرس الوقاح
وتساقط الاوشاظ	والذنبات اذ جهد الفضاح

---

(١) النفائس العصرية / السنة الرابعة / الجزء العاشر تشرين الاول ١٩١٢ ص ٤٣٩ — ٤٤٤ (٢) من قول في هذه الكلمة — (كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه) — ص ٥

(٣) كلمة امام الكلمة ص ٣ •

وهذا النوع هو النوع البشري الذي نعتزي اليه ..

اجتاز الانسان افق الحيوانية وصار الى افق الانسانية فطلع عليه الفكر في حالكات الحالة اللا ادراكية واللاشعورية ولم ينفك يضيء له ظلما الظلم الى ان بلغ من الحضارة المبالغ ، ونال المآرب والرغائب ، وقذف بالعجائب والغرائب ، وبهر سحر اعين الناظرين وان الاقليم الذي نبت فيه الانسان وفارق فيه صنوه او صنوانه انما هو الاقليم الهندي فانه كان ثمة ثم ابذعرّ وبيغز وورد على كل رجا من ارجاء هذه الكرة الارضية ومنتحي . فلولا الهند لولا الهند لم يسمر بمكة سامر ، ولم تجتل العين في الكون ما يحبرها مجتلاه ولم تلاق العقول ما يحيرها ! ..." (١)

" بهذا الاسلوب يستعرض الادوار التي مر بها العلم .. ويصف دور العرب في هذه الادوار ودور الامم الاخرى ... واخيرا يشيد بذكر الامام ارنست هيكل . وحين كانت الحرب الكبرى تتأجج نارها يأتي الى ذكر الشرق والغرب فيذكر انهما خصمان الدّان ..

هذا هو اسعاف النشاشيبي وتلك مدرسته في النثر الفني تقف شامخة اصيلة امام مدرسة السكاكيني الشامخة الاصيلة... ويسير الرائدان جنبا الى جنب يمضيان في تيار صاعد في حياة هذا الوطن ..

وهذه العناية بالعلم والاقبال على منابعه والحث على ورود مناهله كل ذلك اكسب هذه المرحلة من حياة النثر رافدا صغيرا له اهميته هو رافد الاسلوب العلمي المتأدب فأصبح العلماء يتناولون القضايا العلمية باسلوب ادبي .. واصبح العلم مضمونا من مضامين الاشكال الادبيه في النثر .. وعلى رأس هذا الاتجاه الاستاذ توفيق زيبن .. فيكتب باسلوب المقدمات والتزاويق ، طابع العصر من حيث العناية (بالمقبلات) ولف الحقائق بأوراق براقة تستهوي القارئ ... ومن موضوعاته ، "الجمال (٢) .. ثم يلقي خطبة او محاضرة طويلة موضوعها العين (٣) تنشر في جزئين من النفائس ... :

"... العين ايها السادة وما ادراكم ما العين عضو صغير نحيف . (ويورد قول شاعر .. وقول عالم فيها ...) وارى ان اقرب طريقة لفهم تركيب العين فهما جيدا ان ندخل اليها جميعا لنشاهد ما في العين بالعين .. فان كنتم على استعداد فهيا بنا نتقدم الى هذه الغرفة التي امامنا ترون بابا بيضوي الشكل فوقه لوح هلالي اسود لكي يمنع العرق من التصبب اليه من الجبين مكتوب عليه كلمة (نور) ...

---

(١) كلمه موجزه في سير العلم وسيرتنا معه .. ص ٧ — ٩ . (٢) النفائس العصرية / السنة الثالثة / الجزء الثالث ١٩١١ ص ١١٥ — ١٢١ (٣) النفائس العصرية / السنة الثالثة / الجزء السابع والثامن ١٩١١ ص ٢٩٩ — ٣٠٦ ، ٣٦٣ — ٣٧١ .

فهذه الغرفة اذا تخص الخواجا نور او الست نور ان شئتم ان تؤنثوه ٠٠ وعلى اعلى هذا الباب واسفله ستارتان عليهما تخريج بديع من الداخل ٠٠ هاتان الستارتان هما الجفنان وهما تستخدمان لاغلاق الغرفة وفتحها وتعديل كمية النور الداخل اليها ٠ وهذا التخريج على الجانبين هو الاهداب وفائدتها منع ذرات الغبار من الدخول ٠٠ الباب مفتوح فهلموا ندخل ٠ الا تقدرون ان تدخلوا ؟ نعم ٠ هنا غشاء محكم على مقدم العين يتصل اطرافه ببطانة الستارتين ٠ هذا الغشاء هو الملتحمه ٠٠"

ويمضي في هذا الاسلوب العلمي المتأدب ليبلغ به الحقائق الى عقول الناس ! ٠

تلك هي الروافد الصغيرة والتيارات الكبيرة في هذه المرحلة من حياة النثر ٠٠٠ ولم تكن هذه المرحلة بمنجى من التيارات الهابطة التي رأيناها تشد الحياة الى الوراء في تاريخ الشعر ٠٠ فكما رأينا تيارا هابطا في حياة الشعر في هذه الفترة كذلك رأينا مثله في حياة النثر ٠٠ وهو مجموعة الخطب والكلمات التي قيلت في التمدح والتزلف على الموائد وبين ايدي كبار الدولة العثمانية وقد صدرت عن رجالات الوفد ورئيسه من البعثة العلميه التي اوفدها جمال باشا الى (دار الخلافة الاسلامية) لتكون ابواق دعاية في اثناء الحرب الكبرى ٠٠ ونورد مثلا واحدا من خطبة رئيس الوفد الشيخ اسعد الشقيري :

"٠٠٠ فاذا سمعتم رجال الوفد السوري يمدحون احمد جمال باشا ويطرون اعماله ويثنون على اخلاقه وعاداته ويقدسون مباديه ٠٠٠ فليس ذلك الا لانهم وجدوا فيه الرجل الفعال الذي يطلبونه منذ الزمن الاطول فلا يجدون اليه سبيلا حتى صاروا يعدونه من الاشخاص الخيالية التي يصورها الوهم وينفيها الحس والعقل لذلك هم يقدسونه من اعماق قلوبهم ويقدسون كل من كان على شاكلته من رجال العمل المخلصين ٠٠(١)

وحسبنا من هذه البركة الآسنة هذه القطرة الفاضحة لندل بها على هذا الاتجاه الهابط في حياة النثر ٠٠٠

وقد كان لازدهار الحركات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في هذه المرحلة ان قامت دواع متنوعة للخطابة وظهرت طبقة من الخطباء في هذه المرحلة كان لخطبائها ميزات واضحة في نفوس من كانوا يسمعونهم ٠٠٠ وقد وصف الاستاذ محمد المغربي (٢) بعض هؤلاء الخطباء وصفا موجزا ٠٠ ثم عددهم وصور اثرهم في نفسه ايضا الاستاذ عزيز عريضه من يافا (٣)

---

(١) البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلاميه ص ١٠٠ (٢) النفائس العصرية / السنة الرابعة / الجزء العاشر ١٩١٢ ص ٤٦٠ ــ ٤٦٥ (٣) النفائس العصرية / السنة الرابعة الجزء الحادي عشر ١٩١٢ ص ٤٩٣ ــ ٤٩٥٠

واليك ما قالاه في هؤلاء الخطباء :

١ـ اسعاف النشاشيبي : القدس: شاعر ناثر واديب قادر يمتاز بلغته ولهجته ، ولسان حاله ينشد دوما :

العلم والفضل والاخلاق تشهد لي والمجد والجد والاداب والحكم

اذا كتب او خطب قلد قدماء العرب.. اكثر نظمه حماسي .. كثير الانتقاد .. اذا كلف للخطابة استظهر الموضوع وكذلك اذا كتب .. كان قبلا يستشهد في حديثه بأقوال العرب .. اما الان فبأقوال الافرنسيين. وهو احد نوابغ فلسطين الذين حملوا مكانتهم بجدهم واجتهادهم.

٢ـ روحي الخالدى : مبعوث القدس السابق / يستعد على خطابه ، ويكتب بعضه . سياسي غزير المادة.. ولكنه ضعيف الصوت . وهو كاتبا اكثر منه خطيبا .

٣ـ انطون شكرى لورنس / القدس/ رأينا في كرم طباعه فضائل التربية البدنية وما ابصرته على منبر الا ذكرت قول ابي تمام :

خلق كالمدام او كرضاب المسك او كالعبير او كالملاب

وحياء ناهيك من غيرعي وصبا مشرق بغير تصاب

٤ـ خليل بيدس: تكاد ظلمات الشك تتبدد عند قوله ، وافئدة السامعين تناجي روحه عند صوله ، وما ان وجدت قولا يلصق به وصفه خيرا من قول ابي زياد الكلابي :

له نار تشب على يفاع اذا النيران البست القناعا

ولم يك اكثر الفتيان مالا ولكن كان ارحبهم ذراعا

٥ـ خليل السكاكيني / القدس/ لو وزن قدره وعلمه وقوله لما زاد الواحد على الاخر بذرة فهو ينشد والاعشى :

وفضلني في الشعر واللب انني اقول على علم واعرف ما اعني

يستشهد كثيرا باقوال الامريكيين راداتهم في خطبه . يشبه المعلم اكثر من الخطيب وهو كاتب من الطبقة الاولى واحد افراد النهضة الادبية في فلسطين .

٦ـ راغب الامام / محام بيافا / طلسان مكثار ، يقلّب لحمة فمه كيف شاء ويسيّرها انّى اراد ، يضرب برجليه ويهز عطفيه وينشد قول سالم بن وابصة :

وموقف مثل حد السيف قمت به احمى الذمار وترميني به الحدق

فما زلقت ولا ابديت فاحشة اذا الرجال على امثالها زلقوا

لغته الفصحى ومعلوماته الغزيره وقوة ذاكرته وطلاقة لسانه تنيله مطلبه . لا يكتب ما يخطب . بل اذا كلف للخطابة راجع ما يقدر أن يستشهد به . وقفته جميلة مهيبة . صوته يسير على وتيرة واحدة حتى اذا انتهى من خطابه بح ، واذا عد خطباء فلسطين كان اولهم .

وكما انه كاتب مجيد فهو شاعر مجيد ايضا • ولكنه قلما يذاهر معلوماته وقصائده •

٧- سليمان التاجي الفاروقي / محام ضرير بيافا / تحوّل نور بصره الى بصيرته فأرانا سيرة بشار وابي العيناء في قوة الحافظة وانه لينصت للمقالة تقرأ في كتاب او جريدة فاذا دعى الى خطابه جاء بكل معانيها واكثر الفاظها (ولو في الطب) وهو ما ينفك ينشد قول الحارث بن همام الشيباني :

انا ابن زيّابة ان تدعني آتك والظن على الكاذب

وهو طويل النفس متين العبارة يجيد في فنون الشعر والحماسة على انه قليل المعاني المبتكرة •

٨- يوسف العيسى ، رئيس تحرير جريدة فلسطين بيافا - لو شرفت الفاظه شرف معانيه ، ودقت جمله دقاقة ملحه لما فرق عن صخر الخنساء الذى قالت عنه

خطّاب مفصلة فرّاج مظلمة ان هاب مقطعة اتى لها بابا

خطيب لسن يرضي السامع ولا يمله ، يتنقل في خطابه من موضوع الى غيره ويمزج الجد بالهزل يجيد ارتجالا اكثر مما يكون على استعداد • واكثر خطبه جميلة جدا ، واكثرها في المواضيع الانتقاديه • يتمثّل احيانا ببعض ابيات من الشعر • خطبه من السهل الممتنع •

٩- داود يلين : القدس / ذو اطلاع ، جرئ ، لكنه لا يرضى السامع لانه فاتر اللهجة •

١٠- الشيخ سليم اليعقوبي / يافا / خطيب جرئ ، يستشهد في خطبه بكثير من الحكايات والنوادر والاشعار العربيه ، وكلما رأى اعجابا من سامعيه تحمس وزاد في الكلام ، ولكنه لا يملّ سامعيه !

١١- عادل جبر : يافا / يكتب خطابه / ويستظهر بعضه ، ويتلو باقيه ، صوته ضعيف يتمثل في خطبه كثيرا بقصص مشاهير الغرب • هو خطيب بالافرنسية ايضا ، ولكنه لا يخطب بدون استعداد • يعرف اصول الشعر ، ولا يقوله واذا كتب اطاعته معارفه •

١٢- الدكتور مويال : يافا / اعرف من سمعت باصول فن الخطابة بيد ان سامعه يمله لطول خطبه •

١٣- نسيم الجريديني : يافا / خطيب وشاعر معا • حاضر البديهة لولا اشتغاله بتجارة البرتقال لكان افصح من قال •

١٤- نسيب الخطيب / باشكاتب رسومات يافا / جهوري الصوت ، حسن اللهجة قليل الابتكار ، يخطب ارتجالا ، ويستشهد باقوال غيره واشعارهم •

١٥- عيسى داود العيسى / صاحب جريدة فلسطين • لولا ضعف صوته ونزوعه الى الهدوء لاشبه السكاكيني بكل شيء • هو شاعر لكنه متكتم •

١٦- شبلي نوفل / يافا - خطيب جرئ، حسن النية ، قليل الحظ .

١٧- ريكاردو صلبان / يافا - خطيب يمتاز بوقفته ولهجة القائه . عصريّ ، كيّس ، اقرب الى الممثل منه الى الخطيب . يستشهد احيانا ببعض ابيات من الشعر العصري .

١٨- احمد حمدي الامام : يافا : خطيب اديب ، كثير المطالعة ، قليل الكلام . لا يخطب بدون استعداد . اذا دعي لبى واجاد . صوته ضعيف .

١٩- مهيب النابلسي : نابلس - خطيب - حسن الحديث ، لطيف الاشارة ، يرتجل ما يخطب فيجيد ويرضي السامع ، يؤثر في العواطف فيثيرها ...

وبهذه التيارات والروافد والاتجاهات وطبقات الخطباء نختم هذه المرحلة من حياة النثر الفني !

المرحلة الثالثة

وهي الفترة التي امتدت ما بين الحربين : من نهاية الحرب العظمى الاولى الى بداية الحرب العظمى الثانيه اى من سنة ١٩٢٠ حتى ١٩٣٩ .. حيث انفردت فلسطين تواجه مكايد الاستعمار والصهيونية ... وما كادت الحرب الثانية تشتعل حتى كانت حركات النضال في فلسطين قد انتهت الى غاية تستطيع ان تأخذ فيها انفاسها وتسترد روحها ... وتحبط مشروع التقسيم .. وتؤجل النكبة الى عشر سنوات !

وكما كانت هذه المرحلة خصيبة في حياة الشعر كذلك نجدها خصيبة في حياة النثر .. وقد مضت مدرسة السكاكيني في النثر بعد ان قويت سوقها وانطلقت غصونها ونضجت ثمارها ... وقد مضت الى جانبها مدرسة النشاشيبي ولم يكن من السهل الانتماء اليها والسير في مسراها ... ولكن قلة المنتمين اليها لم توهن من عزيمة رجلها الاول اسعاف فمضى يحمل اللواء ، لم يضعف ولم يتوان !

وتطورت المدرستان بحكم ظروف الحياة التي المت بهما .. واتسعتا لكثير من المضامين الجديدة ..

ودهش الناس امام هذا الغرب الذى يصنع المدنية واخذوا يتلمسون مواطيء اقدامهم وقد اخذت تتزلزل من تحتهم .. واخذوا يتحسسون مظاهر هذه المدنية .. ويتحسسون انفسهم بعد ذلك .. :

وقف بولس شحاده امام ابي الهول (1) :

"... لا ادرى ارمز الحرية انت ام رمز العبودية ؟ اواقف هناك لتشهد على استبداد الفراعنة ايام كانوا يسوقون الرجال كالاغنام ليشيدوا لهم الاهرام الباقية الى الان لتشهد كيف كانت الافكار تجول في الشرق وفي ضمن اية نقطة كانت تتحرك هم الملوك والى اية غاية كانوا يرمون .. نعم يا ابا الهول ان قوة الشرق العظيمة كانت تسير في دائرة ضيقة ، وهذه العقول السامية لم تولد سوى بقايا ابنية ضخمة لم تنفع العالم بشيء ، اما هذه المدنية الحديثة التي لا قوام للعالم بدونها فقد كانت في ذلك الوقت تتكون شيئا فشيئا في جو عقول اهل الغرب ولم تلبث ان انفجرت انفجارا هائلا فغيّرت وجه الارض وغلب الشرق على امره فغرب الشرق واشرق الغرب وها انا واحد من ابناء الشرق الحديدين اقف امامك لابكي على طلول الشرق الدارسة واترحم على البقية الباقية فيه ..."

---

(1) النفائس / السنه ٧ / جزء ٩ سنة ١٩١٩ ص ٩٠ — ٩٢ .

ثم ينتهي الى القول :

"... نحن ننشد الحرية يا ابا الهول .. حرية الفكر وحرية القول .."

وحمل النثر مسؤوليته تجاه وعية الناس كما حملها الشعر في هذه المرحلة :

"... فلسطين ، مهد الاديان ، لاينقذها عيسى ولا موسى ولا محمد

ولا يرد عنها ما تخشاه وتحذره مقالة تجدّ او كتاب ينشر او جمعية تتألف ... الا

الاله الجديد الذى صنع منه بنو اسرائيل الها وعبدوه في برية سيناء ! اجل ان المال

هو الركن الاول الذى عليه المحول في دفع الخطر الذى يهددنا به الصهيونيون ..

فهم لم يزحفوا علينا بالاساطيل والجيوش ولكنهم زاحفون بالملايين الجرارة من

الدولارات يبتاعون بها المنازل والحقول والغياض والرياض وينفقونها في بناء المعاهد

والمدارس وانشاء الطرق وتجفيف المستنقعات واستثمار الاراضي ونشر الصناعة والتجارة

والقيام بالمشاريع الكبيرة التي تعود بالنفع الجزيل على القائمين بها ..(١)

واصبحت الصحف تطلع على الناس بمقالاتها الافتتاحية تحمل تلك

الانفاس الحرّى :

"... ثم شعرنا واذا بأيدى السياسة تمد يدها الى هذه الشجرة —

وقد كانت هذه الشجيرة السورية في عداد اشجار الحديقة المباركة العربيه — وتتناول

الغصن الاشد اخضرارا والاكثر تقديسا — انا المسكينة فلسطين — لتسلخني عنها

وتسلمني الى امة صهيونية تطعمني طعما جديدا فتغير ورقي وثمرى وتميت لغتي

وقوميتي وتعيش مع الزمان في بقية انحاء الحديقة فتقلب ترابها وتبدل اشجارها

وتجعل التفاح خروبا والكمثرى زقوما !! ....."

(ثم يوجه الحديث الى الملك حسين فيقول :)

وستكون نتيجة حزم شبلك واميرنا فيصل استقلال سوريا ووحدتها فحاشاك

وحاشاه القبول بأن تستثنى فلسطين من هذه الوحدة ...

ايها الملك !

اذا كنت تجفوني وانت ذخيرتي وموضوع حاجاتي فما انا صانع ! نعم

ما هي صانعة فلسطين .. وقد تمكن عدوها في وسطها واشتركت ام الارض في

اصدار حكمها عليها واخذت العهود على اخراج اهلها منها وكتبت المعاهدات على

فصلها عن الوحدة السورية وتسليمها الى امة صهيونية ... فلسطين عربية .. عربيه

بمسلميها .. **عربيه** بمسيحييها .. عربية بيهودها الوطنيين ايضا

---

(١) من رسالة بعث بها اديب من يافا الى شقيقه في نيويورك ، نشرت في جريدة "مرآة الغرب ، بعنوان "الاله الجديد " / انظر النفائس/ سنه ٧ جزء ١٤ ١٩٢٠ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

فصار يبيح حماها الاجنبي الصهيوني وتسيل عليها انهار المهاجرة الصهيونية من الحرب ويأخذ ابناؤها اهبتهم لترك الوطن والرحيل ... ان زوابع الطبيعة ربما تهدأ ولكن زوابع فلسطين لا تهدأ اذا فصلت عن سوريا وجعلت وطنا قوميا للصهيونية ."(١)

وهكذا أخذ النثر على عاتقه تناول هذه القضايا السياسية والوطنية وكشف النقاب عن خفاياها وهتك الستر عن المؤامرات التي تحاك ! واثارة العزائم الوطنية .. ومقاومة سياسة التفريق .:

"... ان بعض حكومات الغرب تتنصل من سياسة التفريق التي سارت عليها في الشرق ... واذا جئتها ببينات من بعض ما تجريه من ضروب التفريق والتمزيق اجابت : الا انكم انتم المفرقون ... ثم اوعزت الى فئة ممن اضلتهم غاياتهم وطمس على بصائرهم وهل تخلو امة من مثلهم ـصاحوا معها مرددين ما تلقنهم اياه او تمليه عليهم نفوسهم الامارة بالسوء .. فمن ذلك ما سمعته بأذني ورأيته بعيني وهو ان سوريّا تقدم الى حكومة فلسطين في طلب وظيفة فأبت عليه هذه استخدامه بحجة أنه سوريّ وانما تريد حصر الوظائف بابناء البلاد من الفلسطينيين الاصليين زاعمة ان ذلك مما يرغب فيه الاهالي على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم .. نحن لا ندرى متى استفتى الفلسطينيون في هذه المسألة ، ولا متى تبرأوا الى الحكومة من اخوانهم السوريين وهم ابناء امة تربطهم اللغة والاخلاق والعادات والتاريخ والبيئة فضلا عن اواصر القربى وصلات الرحم ووحدة المنفعة وغير ذلك .. لا جرم ان الفلسطينيين يعلمون حق العلم ان من الظلم الفادح ان تقطع اوصال البلاد وان يحال بين المرء واخيه وبني عمه وذويه لتحقيق امان وهميه واحلام استعماريه ينبذها العقل السليم وينبو عنها العلم الصحيح ولا تتفق ولا بوجه مع اخلاق اهل البلاد الودعاء المسالمين ." (٢)

هذا النثر امتلأت به الصحف واعتمدت عليه المقالات ، واتخذ المنطق الطبيعي ، والحجة الراسخة ، والفكر النافذ ، دعائم يستند عليها ليصور اهدافه ويصل الى غايته باسلوب طبيعي بعيد عن التكلف والتصنع يتخذ الحس اداة تصوير والفكر مادة اقناع ووسيلة جدال وحجاج !

وقد امتلأت بهذه المضامين نفوسهم .. واشتملت على عقولهم الباطنه ..

".. في يوم الاربعاء لسبع خلون من شهر ديسمبر سنة ثماني عشرة وتسعمائه والف غادرنا شنغهاى قبل الغروب فأخذت السفينة (دونيرا) تشق بنا عباب البحر ....

---

(١) فلسطين تستغيث / مقال افتتاحي نشره الكاتب يوسف العيسى عن لسان (فلسطين) انظر النفائس / سنه ٧ جزء ١٦ سنة ١٩٢٠ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ (٢) من مقال "لأديب فلسطيني كبير" في جريدة الفباء الدمشقية / انظر النفائس / سنة ٨/ جزء ٢ ١٩٢١ ص ٦٢ ـ ٦٣ .

وقضينا سحابة ذلك اليوم بين اليأس والرجاء الى ان اكتمل النهار وجن الليل فآوينا الى مضاجعنا وما كدت استلقي على فراشي حتى ادركني النوم ... فخلت نفسي طائرا في الجو على متن طير اخضر عريض الجناحين وهبته الطبيعة مزية النطق كما وهبتها الانسان .. ارتعدت فرائصي عندما رأيتني طائرا في الجو .. واخذت تساورني الاوهام وكأنّ الطير علم ما بي فبادرني بلسان عذب وقال : لا تخف يا صاح ! اني احبك ولذا أريد ان اطير بك في سماء هذا الكون لاريك من غرائب الدنيا وعجائبها ما لم تكن تحلم به من قبل . قل لي اى البقاع احبّ اليك ؟..

— بلادى ، بلاد العروبة .

— ما الطف هذا الاسم ! وما اجمل هذه البلاد ! انها بلاد علم ومعرفة بلاد زراعة وصناعة ، بلاد كسب وتجارة ، بلاد جد ونشاط ، بلاد نور وجمال ، بلاد رقي وكمال ، بلاد حرية وكرامة ووحدة وعزة واستقلال . كنت اعلم علم اليقين ان بلادى كانت غارقة في بحر الجهل والشقاء ...

فبادرني بقوله :

— تمسك بحبل الصبر ! فسأريك عما قليل أشياء تخلب الالباب .. انظر ! ها هي ذى جزيرة العرب !

— جزيرة العرب ؟ ! لا ! ان هذا لهو المحال !

— لماذا ؟

— لاني سمعت قبل اليوم ان هذه البقاع ليست الا قفارا بلاقع .. وجهل وامراض .. وركون الى الدعة وبعد عن فكرة الوطنية .. واستفحال وباء الا تكال .. اما الان فلا ارى الا مباني شامخة .. واشجارا باسقة وطيورا مغرده ... وكأني بالجزيرة كلها قد اصبحت تجرى تحتها الانهار وكل ما هنالك من مناظر وآثار يدل على ان في السويداء رجالا يفهمون معنى الحياة .. لا ، لا .. فقال الطير :

— آه ايها المسكين : ان جميع ما سمعته عن الجزيره العربيه من قبل اصبح الان في خبر كان .. ان الاكثبة الرملية .. بعضها تم تثبيته بانواع النباتات الملائمة .. والبعض يرشه بالنفط الخام .. والريح السموم اخترع من الالات الصناعية ما خفف وطأتها .. واما الشمس فان اشعتها تقوم اليوم مقام البخار والكهرباء .. في انتاج القوة وتكوين المادة وتوليد الكهرباء وبناء المصانع والتبريد والطهي والضوء ورى الصحارى وزرع الرمال والطب والجراحة ... واستفادوا من قوة الذرة التي تمكن اقوام آخرون من تفتيتها ... وتمكنوا من استخراج الماء العذب الكافي .. ومن المطر الصناعي .. والبترول ...

وانشئت شبكة المواصلات في البر والبحر والجو ، وانشئت المدارس والمصانع والمعاهد والحدائق والقصور لرفاه الشعب .. وتوحدت اساليب العيش واستقامت نظم الحكم وشملت العدالة الاجتماعية جميع الطبقات. ان العرب اصبحوا في يومنا هذا احرارا كل الحرية .. ليس من الوجهة الادارية والسياسية فحسب بل من حيث الفكر والدين ايضا .. فلا رجال الدولة ولا فطاحل السياسة حتى ولا اساطين العلم وفقهاء الدين يستطيعون في هذا العصر ان يرغموا شخصا من افراد الدولة العربية الكبرى على التمسك باية عقيدة من العقائد السياسية او الدينية .. وكذلك قل عن العرب من حيث العقائد الاجتماعية والمبادئ الاقتصادية وأساليب الكتابة والادب .. فلكل فرد يعيش تحت ظلال الراية العربية ان يفكر كيف يشاء ، ويقول كما يفكر ويسجل ما يقول ....

... اصبح في مقدور الانسان ان يقرر مصيره لغد وبعد غد والى ما شاء هو لا الى ما يشاء له الاخرون ... لم يعد التعليم يعتمد على اسس دينيه بل على اسس علميه بحتة .. والمقام الاول للفن .. والاغاني لم تعد نواحا بل مدعاة للفرح .. المرأة كالرجل على حد سواء .. والفرق الوحيد ، انما تقوم بالاعمال الخفيفة بينما يقوم الرجل بالاعمال الصعبة .. ليس هناك اسر كريمة واسر غير كريمة .. وما عاد العرب يعبأون بالاصل والنسب والحسب .. بل بالعلم والخلق ودرجة النفع للناس .. والزواج ميزانه الحب ولا ميزان سواه .. وقد الغوا تعدد الزوجات ... ووصلت العلوم الطبيعية الى قدرة التحكم بجنس المولود .. فعدد الذكور كعدد الاناث ... واصبح التلقيح اصطناعيا ..

ليس ثمة مساجد وكنائس .. انما هناك معابد موحدة يؤمها العرب على اختلاف ثقافاتهم ومعتقداتهم .. لا مآذن ولا جرسيات ولا خوره ولا مشايخ . الخطيب يعالج الشؤون **اليومية** والموضوعات الاجتماعيه كحياة العمال وشروط استخدامهم واجورهم وساعات العمل وشروط العمل ونقابات العمال ...

.... ويا لعجبي عندما رن في اذني صوت الجرس الذى كان يقرعه ربان السفينة - دونيرا - ليوقظ الركاب من نومهم .. ففتحت عيني ورأيتني مستلقيا في فراشي ملتحفا بغطائي .. فأيقنت حينئذ ان كل ما رأيته وسمعته عن العرب والعروبة في نومي كان ولا ريب اضغاث احلام .." (١)

بهذا كان يحلم النثر .. والخبز اكثر ما يحلم به الجائع !

---

(١) انظر كتيبا للمؤرخ عارف العارف بعنوان "رؤيا" كتبه لاول مره سنة ١٩١٨ وطبع سنة ١٩٤٣ .. وقد اضاف اليه في خلال المدة بين كتابته وطبعه بعض الاماني المنبثقة عن تطور الاحداث وتغير مفاهيم الحياة ..

وقد شغل هذا النثر السياسي الوطني الناس والصحف والنوادي والجمعيات في فترات طويلة من هذه المرحلة ...

ومن الموضوعات التي شغلت الناس والصحافة والنثر جميعا موضوع المقابلة بين الشرق والغرب ...

"... نعم لست من اولئك المتشائمين وان كثر عددهم .. وكذلك لست من اهل الخيال الذين يهيمون في كل واد ويتصورون المستقبل لا كما يجب ان يكون .. التشاؤم مرض في الدماغ والاغراق في الخيال ضرب من الجنون . ولكنني ممن يعتقدون بمذهب النشوء والارتقاء وانه لا يصح الا الصحيح ، ولا يبقى الا الانسب رضينا او لم نرض .. "

هذا ما قاله الاستاذ خليل السكاكيني في خطاب له (١) .. وحين سئل : ايهما اسعد الغرب ام الشرق ، اجاب :

".. لقد عنيت بهذا الموضوع قبل اليوم ، ولقد اتفق لي ما قلما يتفق لغيري من السفر الى اوروبا واميركا والمعيشة فيهما والاختلاط بالناس من كل الطبقات . تعرفت باساتذة واطباء وعلماء وقسوس وضباط ، واشتغلت في المعامل وعرفت شيئا كثيرا عن حالة المرأة فضلا عما عرفته من احوال اوروبا واميركا الروحية والعقلية من المطالعة مدة ربع قرن . فاذا جاز لي ان اقول كلمتي في هذا الموضوع فاني ارى ان الشرق اسعد حالا من الغرب .. الفضل في كل ما نراه من مظاهر تمدن اوروبا وترقيتها راجع اكثره الى وسائط لا الى مبادئ .. وسائط تمنعهم من الاخلال بالامن وتمنعهم من ان يخرجوا عن العدل وتجبرهم على التعليم ... "

وهكذا آمنت مدرسة السكاكيني النثرية بمذهب النشوء والارتقاء .. وبناموس التطور .. وبما يتبع الايمان بهما من قيم في التفاؤل .. ونبذ للاوهام والخيالات ، وجنوح للواقع .. ومزج بين الحس والفكر ..

وبه آمنت كذلك مدرسة النشاشيبي .

"... عكف الاباء على علوم يونان عكوف الصوفي على احزابه واوراده ، وطفقوا ينقلون الى هذه اللغة ما ينقلون ويشرحون ويلخصون ، ويهذبون وينتقدون وقد يتمّمون ما اشتملت عليه من الاراء البارعة الباهرة ، والمباحث الرائعة الساحرة واخلق بعاشق العلم ان يستهويه العلم . ولم يمقت الاباء آراء افلاطون وارسطو مقت الابناء اقوال داروين وسبنسر وهيجل ، ولم يعرض السلف عن الخير في ذلك الزمن اعراض الخلف بل الخلف الخالف عنه في هذا العصر ، ولم يتولهم الاعجاب بادبهم العربي فيصدهم عن الكلف بالعلم الافريقي ... "

---

(١) النفائس/ السنه ٧/ الجزء ١٨ سنة ١٩٢٠ ص ٢٦٤ – ٢٦٧ خطاب بعنوان "ماذا كنا وماذا صرنا "

جفوا رسول الجهل ومقتوه ولم يأتوا الا الذى هم محقوقون بأن يأتوه ..

والعلم الحق لن يلقاه في هذا العصر ناشده ولن يجد رائده الا في الاقليم الافرنجي فان اهل هذا الاقليم قد هجروا الكرى منذ قرون والمشارقة هاجدون ، واتبلوا يفكرون ويحققون ... حتى جاء باكون رب الطريقة الاختبارية في الفلسفة ونيوتن الذى هدى العلماء بجاذبيته الى ما هداهم اليه و ... وسبنسر البحاثة الاجتماعي وواضع فلسفة النشوء والمنعوت عقله بجبار العقول وداروين صاحب المذهب الذى ورد على كل ناد وولج كل بيت ، وشرق وغرب واقعد الانسان في مقعده ، وجاء البخار والكهرباء والصحيح من علمي الطبيعة والكيمياء ... وجاء علم الانسان وعلم الحياة .. وجاء الاستاذ (ارنست هيجل) الذى ادرك ما لم يدرك وعلم ما لم يعلم والذى بث مذهب النشوء في المانيا وصارع خصومه فصرعهم والذى قال بالوحدة وكان رسول هذه النحلة الى الناس وجاءت مباحث هذا البحر القذاف بجواهر الحكم التي ربط بها الحلقات ، وحل المعضلات وهتك الاستار عن الاسرار وكاد يطلعنا على الغيب .. وجاءت علوم ومقالات وآراء لا يحصيها الاحصاء ولا يستقصيها الاستقصاء ومشت جماعة الفكر مع شيعة الاختبار والتحقيق ... وآخى النظر البحث فآنس الانسان من الايات العلميه ما لم يؤنسه قدما (ورأى بعينه يقالان ما لم يعلم به وسنان وجاد العيان بما بخل به السماع) فطلع الاقليم الافرنجي بذلك مجليا في ميدان الحياة وسابقا في حلبة العلم ، ومخبّرا في وجه كل اقليم ، وتبذخ قطينه بما ابدعه ، وحق له ان يتبذخ وصغرت في عينه الدنيا واحربها ان تصغر ، وطمع في سكني النجوم ولا نستبدع ظفره بمتمناه وقد ارانا منه ما رأيناه .. " (١)

ويقول الاستاذ اسعاف النشاشيبي في خطبة اخرى : " .. فالعربي الذى يكرّه الينا المدنية الغربية ويثلب علمها ونظامها وفنّها ويسخر من روادها لا يروم — وحياتكم — ان نجافي هذا الوجود او ان نسود بل يريد ان نبيد او ان نعود في الناس مثل العبيد ... " (٢) ثم يدعو الى ان تحمل هامة العربي (عقلا اوروبيا) كما يقل صدره (قلبا عربياً) ... والنشاشيبي ، منذ نهاية الحرب الكبرى الاولى " منصرف الى التعليم ونشر رسالته في حب العرب والعربيه بصوت عربي فصيح وجرأة كانت على خصوم العربيه كحدّ السكين

---

(١) كلمة موجزة في سيرة العلم وسيرتنا معه / انشأها الاستاذ اسعاف النشاشيبي ص ١١ — ١٧ (٢) خطبة اسعاف النشاشيبي في الجامعة الامريكية / قلب عربي وعقل اوروبي " ص ١٥ .

وقد تجلى ذوقه الرفيع وتوجيهه القومي في (مجموعة النشاشيبي) و (البستان) .
وقد كان دفاعه عن العربيه في (كلمه في اللغه العربيه) لا يدانيه دفاع في الادب العربي الحديث اذاع صيته في البلاد العربيه عامة والقطر المصري خاصة اذ جهر به في جمعية الرابطة الشرقية في القاهرة سنة ١٩٢٤ فتهافت الادباء على لقائه وتعظيمه " ومن نتاج هذه الفترة رسالة عنوانها (العربيه وشاعرها الاكبر احمد شوقي) وهي خطبة في المهرجان الشوقي ، و (العربيه والاستاذ الريحاني) وله خطب القاها في مناسبات مختلفه منها (مقام ابراهيم) و (بيروت والغلاييني) و (العراق في سبيل العربية) وسلسلة مقالات في الرد على المبشرين . (١)

وآمن بقيمة العلم كثيرون من اتباع المدرستين وظهر ذلك في انتاجهم خطبهم ومحاضراتهم وترجماتهم ومعالجاتهم لكثير من الشؤون !

وليس يعني ذلك أن هذا الاتجاه الذى استوعبه النثر ومضى يصدر فيه لم يجد له من يصرخ في وجهه صائحا مستنكرا .. فنقرأ للخورى بولس السمعاني ، احد محررى جريدة رقيب صهيون الكاثوليكية ، مقالا طويلا حول قيمة الانسان الروحية وان لا صلة له بالحيوان ، يرد بها على الماديين .. بعنوان " في الانسان " ..(٢)

ونقرأ في "حديث الصومعه" للاستاذ الشيخ ابراهيم الدباغ صرخته العاليه :

" جاء الدكتور شبلي شميل من ٢٥ عاما بأول حملة على الاديان في الشرق نقلها عن هكسلي وداروين وما اشبههما ، ووضع عنهم رسالة الحقيقة في اصل الانسان .. فتلقحت الاذهان بهذا المصل الخبيث فشاع في اهله رابوة آدم له وكاد يقول بصحة ابوة القرد له ، فيا ايها الانسان اعد نظرا وافرض ان الطبيعة لا الخالق سبحانه وتعالى هي التي انبتت ما على هذه البسيطة من حيوان وانسان ، فهل اصابها خور او عجز بعد خلق الحيوان عن خلق مثله حيرانا ممتازا اسمه الانسان ؟ ولم لا يكون الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق جميع مخلوقاته وفيهم الطبيعة واستودعها ما استودعها من قوة فوران وشدة غليان ! الله الله ! ايها الملاحدة انكم لا تقولون بوجود الله ؟ فان الله عندكم بلغة احرار فرنسا نوع من (الانتيكة) وما هي في نظركم الا ارحام ـ تدفع وأرض تبلع ، وما يهلكنا الا الدهر ولكن الله سبحانه وتعالى ـ واستميحكم عذرا اذا ذكرت الله وما انزل من آيات بينات ـ يقول : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى !)

---

(٢) الزهرة / السنة الثانيه العدد ١ ـ ٢ ١٩٢٢ ص ٣١ ـ ٤٣ . (١) مقدمة كتاب (نقل الاديب) بقلم الدكتور اسحق موسى الحسيني ص ١١ ـ ١٦ .

لستم بالافذاذ في هذه (الموده) مودة الالحاد والاباحة فقد تقدمكم كثيرون من هذا النوع او من هذه الفاتورة ،كثيرون منهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان خليفة ، وقتل بكفره والحاده من اهله وعشيرته واقرب الناس اليه ثم تمزق ما حوله من جموع اتفقت معه على الضلال وهم لفيف من الادباء والشعراء من ذوى الدعارة والفجور وبقى من فساده بثور خبث ، تولاها من بعده من امثاله اهل الاستهتار بالدين والديان ، فظهر امثال ابي يحيى بن الراوندى وغيره ... " (١)

واخذت هذه المجادلات تتماوج النثر في هذا القطر وهو منها في اخذ ورد وفي جذب وشد يعصى ويطيع ويطيع ويعصى حتى غدا طيعا مرنا واصبح كالطول المرخى وتنياه في اليد .. وروضته تلك المجاذبات حتى اصبح طابع العصر في كثير من ابحاثهم ..

فالشيخ ابراهيم الدباغ في مجموعتي رسائله الى ابن اخيه الاستاذ الاديب مصطفى درويش الدباغ: "حديث الصومعه" وفي "ظلال الحريه" ينحو هذا المنحى في النثر وتحس في كل رسائله روح المجاذبة والشد والاخذ والرد والجدال والنزال ! وترى هذه الروح تشتمل على "كرميات" الاستاذ احمد شاكر الكرمي حيث تكشف عن ايمانه بالتطور والتقدم والترقي في حياة الفكر البشرى : " فالفكر البشرى.. جار على سنن الكائنات الحية ... " (٢) .. وقد آمن بالجديد بعد ان رأى ارتقاء العلوم البشرية ارتقاء لم يكن يحلم به الاقدمون ، فالجمود ، في رأيه ، هو الوقوف عند ما عرفه السلف الاقدمون .. "... ان من الجنون المطبق ان نسابق سيارات هذا العصر وطياراته بجمال اجدادنا وحمرهم وبغالهم .. كما ان من العبث المحض ان نرجو الوصول الى ما وصل اليه اهل هذه المدنية الفخمه بتضحية الكثير من قديمهم من غير ان نضحى شيئا من قديمنا .." (٣)

فكان من اهم اغراضه في (كرمياته) مطاردة الاساليب القديمة في اللغة والكتابه .. ومن اطرف ما يطالعنا به هذا الاهداء الذى يعلن فيه :

" ... ان عظمة الملك في سلطانه ، وظلم المستبد وغنى الكبير ما هي الا مظاهر باطلة " ثم يعرض بمن درجوا منذ القدم على حرق ذكائهم بخورا امام هذه الجنائز الثلاث ، ويعلن ان له طريقا آخر يسير فيه :

" لا اهدى كتابي للملوك والظلام ... لانني ابغضهم .

ولا اقدمه للأغنياء والمثرين ... لانني احتقرهم ولكنني أرفعه لك يا محيي الدين ، يا صديقي العزيز ليكون ذكرى لصداقتنا واعترافا بأدبك وفضلك!"

---

(١) حديث الصومعه / الرسالة الثانيه ٣/ ٧/ ١٩٢٩ ص ٧ـ٨ (٢) الكرميات المقدمة ص ٦
(٣) الكرميات المقدمة ص ٧ .

وقد كتب تلك (الكرميات) لتكون صلة بينه وبين الشبان " الراغبين في الحرية والصراحة " كي تدفع بهم الى الجهر بما يرونه صوابا ٠٠ (١)

وقد كان من ثمرات هذا الحجاج وتلك المشادة وذاك الجذب والشد في الافكار والمضامين المختلفة ان ظفر النثر بنتاج قيّم في هذه المرحلة ٠٠٠

فقد كان من تلك الثمرات كتاب للاستاذ خليل السكاكيني بعنوان " مطالعات في اللغة والادب " (٢) ٠٠ خرج فيه على المألوف المتحجر والجمود الممقوت ٠٠ وكان اثر الاجتهاد فيه واضحا وكان في هذا الكتاب صاحب رأي جديد بالنظر والتقدير ٠٠٠ وكان هذا الكتاب مثلا قويا على قدرة السكاكيني في البحث والمحاضرة ٠٠٠ وهو في محاضراته اللغوية يجري على ناموس النشوء والارتقاء ٠٠٠

"٠٠٠ ادلة البيان ثلاثة : القرينة والترتيب والاعراب ٠٠ ولا بد ان تكون هذه الادلة قد مرت على ادوار مختلفة قبل ان وصلت الى صورتها الحاضرة التي ورثناها من عهد التدوين جريا على ناموس النشوء والارتقاء كما سنبينه فيما يلي ٠٠٠ (٣) "

ثم هو يخشى على الجيل من ضعف المناهج النحويه وضعف العلل والاسباب فيقول : —

" ٠٠ والطالب الذي يتعلم على هذا الاسلوب السطحي الشاق ويقتنع بتلك الاسباب والعلل الواهيه ، ويتعود أن يتلقاها بدون تكير ولا تفكير ، تظلم مع الايام بصيرته ويأفن رأيه وتضعف فيه أداة الحكم بحيث يسهل استدراجه الى تصديق كل خرافة واعتقاد كل سخافة فضلا عما يستغرقه الدرس على ذلك الاسلوب من الوقت الطويل عبثا ٠٠ " (٤)

وقد كان الاستاذ السكاكيني في محاضراته تلك واسع الثقافة ، نافذ البصيرة ، عميق التفكير ، دقيق الملاحظة ٠٠ يعرض للآراء المختلفه والوجوه المتخالفة ثم ينفذ من بعد ذلك كله الى رأي صائب يختاره ويلقي عليه الاضواء المشعة والادلة المقنعة ٠٠ وقد كان ذلك كله ثمرة من ثمرات اتخاذه لناموس النشوء والارتقاء ميزانا يزن به طبائع الحياة ٠٠٠

وقد دارت بين الاستاذ السكاكيني وبين الامير شكيب ارسلان مراجعات وخصومات وجدل ومشادّة حول المذهبين القديم والجديد في الكتابة على صفحات جريدة (السياسة) حيث كتب السكاكيني بتاريخ ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٢٣ موضوعا بعنوان " تطور اللغة في الفاظها واساليبها " عرّض فيه بالاساليب القديمة وبموضوع للامير شكيب ، فاشتعلت نار الخصومة بينهما ٠

---

(١) الكرميات / المقدمه ص ١٠ (٢) طبعه في مطبعة مدرسة الايتام الاسلاميه بالقدس سنة ١٩٢٥ (٣) مطالعات في اللغة والادب ص ٤ (٤) مطالعات في اللغة والادب ص ١٩٠

وظفرنا من وراء تلك المشادة بثروة في النثر وبتجلية وتوضيح للمذهبين القديم والجديد واصول كل منهما وخصائصه (١)

ثم دارت بين الاستاذ السكاكيني وبين ابنه (سري) رسائل حين ارسلـــه الى امريكا ليأخذ نصيبه من العلم هناك ما بين سنة ١٩٣١ و ١٩٣٥ ٠٠ وكانت هذه الرسائل صورة متطورة نامية وجدانية لحياة انسان ، ومن هنا فهي كيومياته اثر ادبـي رائع يقف الى جانب الاثار الكتابيه الكبيره :

"٠٠٠ هذه بعض رسائلي اليك ، اعد نظرك فيها تجد انها سجّل لتطورك واحمد الله انه تطور الى الاحسن والاعلى ٠٠٠

كنت متمسكا بالقديم فحاولت ان احبب اليك الجديد لتأمن النزاع بينهما ٠

كنت اتكاليا ٠٠ فشجعتك على ممارسة الحياة الاستقلالية ٠٠

كنت ضعيف الثقة بنفسك فحاولت ان استدرجك الى الثقة بها ٠٠

كنت مترددا بين هذا المطلب وذاك فحاولت ان اسدّد خطواتك وارهف عزمك ٠

كنت طفلا فحاولت ان اعمل منك رجلا ٠

لا تعدم في رسائلي هذه آثار تطورك ، فقد كنت دائم القلق عليـــك فاصبحت مطمئنا ، كنت انصحك فصرت استنصحك كنت كثير التدخل في امورك فتركتك لنفسك ، وقد كنت اوصيك واوصي بك ، فصرت اوصي اليك ٠٠ (٢)

ويقول في احدى رسائله الى سرّي :

"٠٠ تقول انك تشتاق احيانا ان يكون لك اخ ٠ احب ان اناقشــك في هذا الموضوع : اولا : الا تظن انك تحقر اختيك ، الا تغنيانك عن كل اخ ؟ لقد اردنا ان يكون لك اخ فكانت لك اختان ٠ اذا كانتا صغيرتين فستكبران ، واذا كنت كبيرا فما يضرّك لو تصاغرت قليلا ؟ ثانيا : اتشتاق ان يكون لك اخ ؟ وهل انا الا اخ لك ، وقد قيل اذا كبر ولدك فآخه ٠ لعلك تظنّ اني اكبر منك سنا ، ان هذه اهانة لا اقبلها منك اذا كنت في الثامنة عشرة فاني لم اتجاوزها الا قليلا !! ثالثا : اتشتاق ان يكون لك أخ ؟ هؤلاء اصدقاؤك وهؤلاء رفاقك في المدرسة ، فخذ منهم اخا بأخ وربّ اخ لم تلده امك ٠٠٠ " (٣)

أرأيت الى المناقشة والاخذ والرد وتقليب الفكرة وتحريكها وبلورتها كيف اصبحت طابعا للنثر في هذه المرحلة تصطبغ بها الابحاث والمحاضرات والمحاورات والمقالات والرسائل وسائر الوان الادب !

---

(١) مطالعات في اللغة والادب ص ٩٤ ــ ١٧٦ (٢) (سرّي) ص ١٦٧

(٣) (سرّي) ص ١٩ ٠

ويقول في رسالة اخرى :

"٠٠ تقول ان المدرسة ارسلتك مع خمسة من رفاقك الى لجنة من علماء النفس ليمتحنوك امتحانا نفسيا Psycological Test ويظهر من سياق كلامك انك استخففت بالامر ، واستسخفت الاسئلة ٠٠٠ اما انا فقد اكبرت الامر كثيرا وعلا قدر مدرستك في نظرى ، لاني اقدر هذا الامتحان قدره ، واعتقد ان المدرسة التي لا تمتحن طلابها هذا الامتحان ليست جديرة ان تسمى مدرسة عصريه ٠٠ ليست المدارس معاهد تعليم فقط لكنها اشبه بمستشفيات تعالج الاجسام والنفوس معا ٠٠ لذلك اعتقد انه يجب ان يكون كل استاذ او على الاقل كل مدير مدرسة طبيبا وعالما من علماء النفس ، والا فالتعليم ناقص ، والتهذيب طلاء كاذب ٠٠٠ ان اباك يا سري غير راض عن هذا النوع من البشر في حالته الحاضره ٠٠ غير راض عن الاجسام والنفوس واساليب الحياه ٠٠ وهو يرى انه يجب عليه ان يعمل مع العاملين وان قلّوا على خلق نوع جديد ارقى واصلح ، وما اسعده ان يرى ولده طليعة هذا النوع ان شاء الله ٠٠ (١)

وفي رسالة اخرى يقول ٠٠

"٠٠ تقول انك ازددت نفورا من الطب بعد ان شرّح صاحبك ضفدعة امامك ٠٠ ان تشريح ضفدع لأهون من تشريح الضمائر الباليه والنفوس القذره والقلوب العفنة ٠٠ ان تشريح ضفدع بيديك لأهون من ان ترى القوى يعتدى على الضعيف لأهون من ان ترى المجرمين يرتكبون ما يرتكبون ثم يحاولون ان يوقعوا الابرياء في ما اتهموا به هم انفسهم ٠٠" (٢)

وفي موضوع الاعتداء يقول :

" ٠٠٠ انا لا اعتدى على احد ، ولكن احتقر نفسي كل الاحتقار اذا اعتدى علي احد ، لان الاعتداء لا يقع الا من جانب القوى على الضعيف ، او من جانب ذي الدهاء على الغبي ، واني لاكره كل الكره ان اكون ضعيفا او غبياً ٠٠ لا اتقي الناس الا اذا كنت قويا ذكيا ٠٠ لا اعتدى على احد ، ولكن لا اسمح لاحد ان يعتدى علي ٠٠ الا فليعلم الناس اني لست ضعيفا ، ولست غبيا ، فمن اراد الاعتداء علي فليجرب " (٣)

وفي موضوع كتب القراءة يكتب :

" يظهر من كلامك انك تستهين بكتب القراءة المدرسيه ، وقد فاتك أن كتابا صغيرا يوضع في ايدى الاطفال قد يكون له اثر في نهوض الامة وسعادتها ابعد مما للكتب الادبية الضخمة العظيمة ٠٠٠

---

(١) سرى ص ٢٦ (٢) سرى ص ٣٢ — ٣٣ (٣) سرى ص ٣٧ — ٣٨ ٠

يدلك على ذلك ان تكون من جملة الشروط التي املتها النمسا ومن ورائها المانيا القويتان الجبارتان قبل نشوب الحرب الكبرى على سربيا الصغيرة الضعيفة أن تلغى كتاب قراءة كانت تستعمله في مدارسها الابتدائية . دعني يا سيدى اشتغل بكتب القراءة ولا يهمني بعد ذلك من يضع لهذه الامة شرائعها ، او يؤلف لها الكتب الادبيه ، ولو وجدت اقل من كتب القراءة ، وعرفت انه يفيد الامه ، وكان في مقدوري عمله لقصرت همي عليه وتركت تأليف الكتب العظيمة لك ولامثالك .. " (١)

وفي رسالة عن الشرق والغرب يقول :

" ... كنت قبل اليوم اومن بالغرب . كنت احسب انه في الذروة العليا من الحضارة والرقي " ، ولكن لم تلبث الايام ان ارتني ان الغرب لا يزال متأخرا : حضارات الشرق كانت حضارات مبادئ . ذهب المسيحيون الى الغرب يبشرون ان الله أب ، ثم ذهب المسلمون الى الغرب يبشرون ان لا اله الا الله ! واما الغرب فماذا عمل ؟ .. كان من المنتظر ان يطوف رسله العالم يبشرون بالعلم والمبادئ العاليه التي تضمن للعالم كله السعادة والسلام ، ولكن الغرب اظهر انه بعيد عن المبادئ فانه ما كاد يحسّ بقوته وضعف الشرق حتى اخذ يحاول اكتساح الشرق .. رأى هنا زيتا فمد " يده ليأخذ الزيت .. رأى هناك مغاوص لؤلؤ فمد يده ليأخذ اللؤلؤ .. رأى هنالك قمحا وذره فمد يده ليأخذ القمح والذره .. رأى هنا ملحا فاستولى عليه .. رأى هناك حجارة الماس فأغار عليها .. الى غير ذلك ! علام قامت الحرب الكبرى التي ذهب في سبيلها ملايين البشر ؟ .. اقامت لتحرير العبيد ؟ ام لنشر المبادئ العاليه ؟ لا ، لا ، انما قامت لشهوات ومطامع لا تبالي في سبيلها بالتعدى على حرية الامم (٢) !

ويقول في رسالة جعل عنوانها " بين الكتب " :

" ... اني احترم اولئك الذين وقفوا ايامهم على اصلاح البشر كل الاحترام ، فكم جاهدوا وكم ضحوا وكم تعبوا وكم تألموا ! اذا قابلت حياة المسيح بحياة كارل ماركس او كوروباتكن او باكونين او غيرهم من دعاة الاصلاح ، وجدت ان الام المسيح على عظمها ، ليست شيئا بالقياس الى الام هؤلاء ! .. فقد كانت حياتهم جهادا مستمرا وبؤسا مستمرا وحرمانا مستمرا لم يخرجوا من سجن الا الى سجن ولم يرجعوا من منفى الا الى منفى ولم يسلموا من حمام الا الى حمام من لدن ظهورهم الى قبورهم . نعم اني احترم هؤلاء الاصلاحيين كل الاحترام واحني الرأس لهم اجلالا ". (٣)

---

(١) سرى ص ٦٩ (٢) سرى ص ٩٦ (٣) سرى ٩٩ — ١٠٠ .

وفي رسالة فكهه بعنوان "سيارتي" يقول :

"... خطر لي ، وانا بحكم عملي موكّل بقضاء الله اذرعه أن اقتني سيارة ، سيكون لعملي هذا دويّ عظيم في طول البلاد وعرضها .. سينكره عليّ الصعاليك ، عشيرتي الادنون ، اصعلوك وله سياره ؟ .. سيتبرم بي اغنياء آخر الزمان الذين كنت امشي في حمّارة الصيف ، وصبّارة الشتاء ، فيمرون بي في سياراتهم الفخمة فاتنحى ليعبروا .. يا ايها الاغنياء ، ويا ايها الوجهاء الذين صرتم اغنياء ، ووجهاء في غفلة من الزمان ستكون لمحسوبكم الاصفر سيارة فخمة ذات نور ساطع باهره وذات بوق صدّاح كذا فتنحّوا عن طريقها .. اما انتم ايها الصعاليك عشيرتي الادنون ، فليطمئن بالكم ، فان سيارتي ستكون وقفا عليكم ، ورهن اشارتكم ، سأجعل مني ومنكم اغنياء ووجهاء .." (١)

وهناك موقف جاد لا يقفه الا السكاكيني المربي الفيلسوف يعرضه علينا في رسالة من رسائله الى سريّ :

"... انتدبني احد المحامين أن أكون خبيرا في دعوى اختلف فيها في معاني بعض الالفاظ ، فذهبت وكانت المحكمة غاصة بالناس ، وكان القاضي انجليزيا فقال : ضع يدك على الانجيل ، واقسم انك لاتقول الا الصدق ، فقلت له : لا اقسم فظن أني لا ادين بدين ، فقال : اذن وكّد انك لاتقول الا الصدق ، فقلت : ولا اوكّد فقال : لماذا ؟ قلت : لان تكليفي اليمين او التوكيد معناه انكم تشكون في صدقي فكأنكم تقولون لي : انت كذاب فأقسم او وكّد انك لا تكذب . وهذه اهانة انتم اعلى من أن توجهوها اليّ ، وانا أعلى من أن اقبلها . فقال : القانون لا يقبل شهادة من غير يمين او توكيد .. فقلت : لااقسم ولا اوكّد . فقال : اذن لا استطيع أن اقبل شهادتك . فقلت له : اشكرك وخرجت .. كنت احب ان تطول المناقشة بيني وبين القاضي لأتمكن من نقد هذا القانون الذي يعد كل الناس كذابين ، وانتقد هذا الاسلوب العقيم الذي يعتقدون انه يضمن الصدق .. ولم ألق احدا بعد ذلك الا استوضحني وجهة نظري ، فأقول : لا يقسم او يوكد كلامه الا احد رجلين رجل كاذب فهو يقسم بالايمان المغلظة على التوراة والزبور والانجيل والقرآن ، ويوكد كلامه بأن ولام التوكيد وتكرار الكلام وتشديد النبرات ليضلل الناس ، وينجو من طائلة القانون على حد المثل القائل : قالوا للسارق اقسم . فقال : قرب فرج الله!.. او رجل صادق ولكنه يحس انه مهين لا يصدقه احد فهو يقسم ويوكد كلامه استجداء لثقة الناس به ، وأجلّ نفسي ان اكون احد الرجلين ..." (٢)

---

(١) سري ص ١١٣ (٢) (سري) ص ١٣٤ .

هذا قليل من كثير خصب ممتع من هذه الرسائل التي استطاعت ان تخلق من سرّي انسانا كبير النفس متيقظ الضمير !

وتظفر هذه المرحلة بقسم كبير من كتاب "ماتيسّر" للاستاذ السكاكيني بجزئيه .. وهو معالجة لطائفة من القضايا الاجتماعيه والسياسية والتربوية والثقافية على جانب كبير من الاهمية .. وتظهر فيه خصائص ومزايا المدرسة السكاكينيه بأجلى مظاهرها .. وسنختار منه انموذجا واحدا لندل به على مستوى الكتاب ليس غير ، وقد جعل هذا الانموذج بعنوان " السارق المسروق " :

"... بين سنة ١٩٢٠ و ١٩٢٢ توليت ادارة القسم العربي في المدرسة العبيديه في مصر ... وفي هذه الفترة سرق بيتي في القدس ، فكتبت هذه الكلمة وقد نشرت في مجلة المقتطف الغراء في ١/ ٥/ ١٩٢٢ :

ايها اللصوص المحترمون :

بلغني ، والعهدة على الراوي ، انكم طرقتم بيت العاجز بل بيتكم الاصفر في القدس في ليلة ظلماء ذات اندية ، فسرقتموه ، فان صح ذلك فاني عاتب وشاكر : أعتب لانكم طرقتم البيت ونحن غائبون في مصر ، كأني بكم قد اعتقدتم اننا ادنياء الحرص .. فخفتم ان زرتمونا ونحن فيه ان تأخذنا الحفيظة . فنبادر الى السلاح فنردكم ردا غير جميل ونثنيكم على وجوهكم تتعثرون في اذيال الخيبة ، هذا اذا لم نظفر بكم فنوثقكم كتافا ونسقكم كالاسارى الى حيث يقتص منكم عما اجترحتم بالليل لا بالنهار .. اذا كان هذا اعتقادكم فهو خطأ ، بل هو اهانة لانقبلها منكم . لو اخرتم زيارتكم الى ان نرجع لفتحنا لكم الابواب على مداها بدلا من أن تكسروها ، وقدمنا لكم التليد والطريف والثقيل والخفيف ، واعتذرنا أننا مقصّرون ، لو حصل لي الشرف أن اكون لصا لما دخلت بيتا واهله غائبون ! ان تسرقوا البيوت برغم انوف اصحابها وكلابها ذلك اشرف لكم لو كنتم تدرون . واشكر اولا لانه في الليلة التي سرقتم فيها بيتي في القدس كنت في مصر اركض من محل الى آخر افتش عن طبيب يسعف ولدي الذي اشتدت عليه وطأة الحمى القرمزية القتاله ، فلما بلغني انكم سرقتم بيتي فزعت الى التفاؤل كأن الاقدار كانت تهددني بشر مستطير فصرفتموه عن ولدي الى بيتي ، فكنتم الشارى (قضيب الصاعقه) تتلقى به الصواعق ، ولو لم يكن لكم الا هذه المنّة لكفت ! واشكر ثانيا لانكم اعلنتم بعملكم هذا أن لي بيتا يسرق ! بشركم الله بالخير ! لقد صرت استطيع ان اتوهم ولو مرة في العمر اني كنت على شيء من هذه الدنيا يطمع اللصوص في" ! .. اذا كان الناس في قديم الزمان يتجملون بكثرة الرماد كناية عن الكرم ، فانني اتجمل اليوم بأن بيتي يطمع اللصوص كناية عن الغنى .. وقد استرسل في الوهم فأحسب أنه كان لي بيت وكان مملوءا بالتحائف والطرائف ، وكانت في خزانته الحديديه الضخمه اوراق مالية وسندات ، ولكن لي لا عليّ ،

وآنية من الفضة والذهب من صحاف وملاعق وكؤوس وطاسات وأباريق .. بل قد اتوهم انها كانت عندى ودائع كثيرة من نقود وعقود اودعنيها الناس عن ثقة منهم أن بيتي حرز حريز بفضل الحكومة الساهرة التي لا تأخذها سنة ولانوم!... قبل ان تسرقوا بيتي لم أكن لأطمع أن أملك في هذه الدنيا شيئا لا كثيرا ولا قليلا ، فكأنكم حين سرقتموه ملكتموني ما لا املك ! ولست اكتمكم انه ليس من مصلحتي أن افتش عنكم ، بل لو عرفتكم لتغاضيت عنكم ، فليطمئن بالكم ، لأني أحب أن اظل على وهمي الجميل أنه كان لي بيت فسرق . أن املك فأخسر خير من الا املك شيئا ابدا لا شك انه لم يدفعكم الى سرقة بيتي الا الحاجه ، ويا حبذا لو وجدتم فيه حاجتكم ولكن ما احراكم انتم ان تتوهموا في دوركم - كما توهمت أنا في دورى - انه صار في مقدوركم أن تأكلوا أطيب المأكولات وتلبسوا افخر الثياب وتقتنوا افخم العربات والسيارات من فضل هذا العاجز تشبها بكثيرين من اللصوص الذين يسرقون كل يوم ثم يوهمون الناس ولا يستحون انهم من الطبقة الراقيه وانهم لم يغنوا الا بفضل ما اكتسبوا من الحنكة والدرّية ، وما رزقوا من الهمة العاليه ، ولافرق بينكم وبينهم الا انكم لصوص الليل وانهم لصوص كل ساعة !.

اتعرفون لماذا لم تجدوا في بيتي شيئا يحرص عليه او يطمع فيه ؟

ليس ذلك علم الله عن صغر في النفس ورضى بالهوينا ، ليس عن تخلف في الذهن وعمى في البصيرة ، ليس عن وناء في العزيمة ، ليس عن تعثّر في الجدّ . لا ، لا ، وانما ذلك لانكم لستم اول من سرقني لقد تقدمكم كثيرون لم يبقوا ولم يذروا . لم ازل عرضة لهجمات اللصوص منذ عرفت هذا الوجود .. ! انتم سرقتم بيتي وليس فيه ما يجدى عليكم او آسف عليه ، وأما هم فقد سرقوا قواى ومواهبي ، سرقوا شبابي ونشاطي واخلاصي وتعبي سرقوا اجتهادى واستحقاقي !... لقد سر[illegible] هذا الزمان الذى لا ازال معه في حالة حربيّة ولا تزال الاسباب بيننا مقطوعة ، لا ينقاد لي ، ولا انقاد له ، لا ينزل على حكمي ولا انزل على حكمه ، يطاردني عن نيل ما اريد واطارده ، يغالبني واغالبه حالة الفتها منذ عرفته وعرفني ، لا يلقاني الا محتفلا ولا القاه الا غير مكترث ، والنصر بيد الله !.... اني لا احب القتال ولكن ماذا اعمل والدهر يسومني خطة خسف ، ويحاول ان يقنعني من الغنيمة بعد الكد بالقفل ؟...!

ترى الرؤوس مرفوعة فتظن أن هناك شمما واباء ، فاذا عرضت الاطماع تمرّغت الجباه في ردغات الذلّ ، وصارت الرؤوس في مواطيء النعال .. لقد سرقني من ابناء هذا الزمان من ارخصوا نفوسهم فاغليت ، وخفضوا رؤوسهم فأعليت . سرقني الذين عملت فجنوا ، وغشيت الوغى فغنموا ، وثبتّ على مبدأى فتغيروا ، وقنعت عن اباءة فطمعوا عن دناءة . سرقني اولئك الرؤساء الذين ساوموني على ضميرى قبل ان يساوموني على عملي ، اولئك الذين لم يكن يرضيهم من عملي الا ان اقبل اذيالهم ، واعلن عبوديتي لهم . !

لا لم يسرقني الدهر ولا ابناوءه ولا روءساوءه حتى ولا الذين تسوروا داري ونقبوا جداري لم يسرقني احد من هوءلاء ٠٠ لم يسرقني غير نفسي واخلاقي فانا السارق المسروق والسلام"(١)

بهذا المستوى كان يتناول السكاكيني الاحداث الخاصة ويصلها بالحياة العامة٠٠٠ ولقد اشرف في يومياته التي اشتملت هذه المرحلة على آفاق واسعة فصوّر علاقات متشابكة وعرض لروابط متماسكة ومضى الى جذور وابعاد عميقه في حياته وحياة وطنه٠٠ حتى كان اضوأ ظاهرة في حياة النثر ٠٠ وكان ممثلا للايجابية الصاعدة وصورة شريفة للبرجوازية المناضلة في كل ما صدر عنه من آثار !

وكان من ثمرات الاحداث وتأثير هذه المدرسة الجديدة في النثر ان شاعت في الحياة قيم وموازين تناسب هذه البرجوازية النشطة المناضلة الشريفة فانتشرت في نفوس الناس بعض القيم الماديّة ٠٠ والقيم الديمقراطيه والمفاهيم الدارونية وناموس النشوء والارتقاء والاشتراكيه وغيرها من القيم المماثلة !

وكان على رأس الانتاج في مدرسة النشاشيبي الصاعدة أيضا " كتاب الاسلام الصحيح " الذي الفه اسعاف النشاشيبي وقد جاء بحثا وتحقيقا وردّا وحجاجا وقراعا فكريا ثمرة لهذا التيار الذي مضى يهدر في هذه المرحلة من حياة النثر ٠٠

"٠٠٠ الهدى من لدن الله يسير في الارض مع الناس هاديا ودليلا ، ذلكم هو القرآن الذي يتلوه القارئون : اباء الابيّ ، وعزة العزيز ، ووفاء الوفي وكرم الخلق والفضيلة والصدق وقول الحق والعدل في الحكم والكفر بسلطان الاجنبي (ومن يتولهم منكم فانه منهم) والتواضع (واخفض جناحك للموءمنين) والنظر والبحث والتفكير والعلم والتعليم ووداد بل اخوة بين الموءمنين (وانما الموءمنون ٠٠) هذا بعض الذي هو في الاسلام وذلك هو المسلم واولئك هم المسلمون ٠٠ والاسلام في (كتابه) لا في الاحاديث ولا في التفاسير ولا في الاساطير ولا في الاضاليل ولا في الاباطيل ٠ واللسان عربي جليّ مبين ، فلا استبهام ولا استعجام ٠ والقرآن يضوّئ عن نفسه ويجلّي عن امره ويوضح بعضه بعضا ويهدي المستهدين الى مقاصد هذا الدين ٠٠ وقد جاء تأويل الموءولين وقصص القاصين وتحديث المحدثين ، ونجم هوى الزائغين ، ومشى ضلال الضالين واعترض جدل الحاجيّن الجدليين (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) وبدت في التفسير عجائب ولاحت غرائب ٠ لكنما الشمس الشمس باهرة نيرة في نهار لم يغم لاتخفى ٠ وان كان في الدنيا كمه عمون فهناك الناظرون المبصرون ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

---

(١) ما تيسر / الجزء الاول / ص ٥١ ــ ٥٥٠

محمد دينه دين التساوى ودين العدل والنصفة ، فلا شريف ولا مشروف ولا كبير ولا صغير ، ولا امير ولا مأمور ولا قبيل افضل من قبيل ، ولا قوم خير من قوم (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم) والتفضيل بالفضل والتقديم بالفعل (وان ليس للانسان الا ما سعى) ٠٠٠٠٠ : ٠ انما الاسلام دين التساوى فالصعلوك مثل الرئيس ومثل الملك ، والملك والرئيس مثل الصعلوك في هذا الدين ٠٠ " (١)

وسنختار انموذجا من هذا الاثر الجليل جعل عنوانه : " هل في الاسلام طبقات ؟" وقال :ـ

" فضائل هذا الدين التي علا بها كل دين كثيرة ، ومنها المساواه ، فالمسلمون في الاسلام اكفاء بواء والمسلم كفوء المسلم بيد أن أناسا من المنتمين الى الاسلاميه ارادوا ـ ضالين زائغين ـ أن يسلبوا الاسلام تلك الفضيلة ، وما هم بالقادرين أن يسلبوها وأبوا الا ان يكون المسلمون طبقات كمثل الهنادك في الهند فجماعة تنوقت في طغيانها والحادها فألهت من الهت ٠٠ وما هذا (والله) بطغيان ولا ضلال لكنه فنون من الجنون ٠ وهذه الجماعة لا تجادل ولا تلحى ٠ وهنا ايراد المثل (انما يلحى الفتى ليس الجمل) وجماعة انزلت رجالا من هاشم في غير منزلتهم ، واعطتهم ما ليس في الدين لهم ٠ ومشايعتك المرء على باطل انما هو خذلان والتقريظ والتمجيد بغير الصدق وغير الحق زور وبهتان ٠ وقد جاء الاسلام ليحرّر فأبى معتاد الاستعباد في الدين والدنيا من قبل الا استعباده والا ان يشرك بعبادة ربه عباده ٠٠ والله تعالى ما أنزل فرقانه ليكون شرفا لقريش او للعرب (ان هو الا ذكرى للعالمين) (وذكرى لقوم يؤمنون) (ان هو الا ذكرى للعالمين) و (هدى للمتقين) فما (اوحى الله الى عبده ما اوحى) لتوجيه قريش وتشريف هاشم او اميه : قال الله تعالى : (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) فقال قائلون : الناس في الدنيا درجات وطبقات ، فالمسلمون درجات وطبقات ، وقد أبعدوا في غزوهم بقولهم هذا ابعادا كثيرا ، وضلوا ضلالا كبيرا ٠٠ ان للكلام الكريم سببا قد جهلوه ، وان لله في انتظامه الكون كما انتظمه قصدا لم يعلموه : (كان الوليد بن المغيره المخزومي يقول : لو كان حقا ما يقول محمد لنزل هذا القرآن عليّ او على عروة بن مسعود الثقفي) فأوحى الله : (ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر ، وانا به كافرون ٠ وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم اهم يقسمون ، رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم سخريا) ٠٠٠

---

(١) الاسلام الصحيح / المقدمة / ص ٤ ـ ٨ ٠

فليس في كلام الله متشبث يتشبث به مستعبدون ليثبتوا اختلاف الدرجات وتفاوت الطبقات في الاسلاميه بين المسلمين • ان الاية تخذلهم ولاتنصرهم •• هـــم منتفخون نفاجون ، وشقاقون مشعبذون من الهاشميين والقرشيين والعرب وهم منافقون مراؤون يشايعون ذا السلطان وهم اغمار جاهلون ـ وفي العلماء جهلاء ـ تألبوا على كتاب الله وتظاهروا على تحريف دين الله •• " (١) ومن هنا استقبلت (الطليعة) كتـــاب (الاسلام الصحيح) بما هو اهل له وقرظته بما يستحقه ووضعته في مكانه الصحيح بين الاثار الكبار في تاريخ النثر ! (٢) وهكذا كان النشاشيبي يسير بمدرسته في تيار صاعد ايضا ! لم توهن من عزيمته متانة اللغة ولم تثقله في سيره الصاعد تلك الزينات الرائعة التي كان يحلي بها تعبيره !

ولتصوير هذا " القراع الفكرى " وهو الطابع المميز لهذه المرحلة نـــورد فقرتين من مذكرات عجاج نويهض عن " الريحاني ـ واسعاف والتعالبي " جعل اسعاف ينشر من حين الى حين فصولا في صحف مصر (كالجهاد) (والبلاغ) و (كوكب الشرق) تدور حول موضوعات اسلامية دقيقة ، لا يسلكها الا مشيخة العلم ، وكان قد اختار له توقيعا مستعارا هو (أزهرى) من (المنصوره) وابتدع اسعاف له طريقا في اثارة نظريات الموضوع طردا وعكسا ، وهذا لا يكون الا اذا انقلب الموضوع سجالا بـــين كاتبين يتولى كل واحد منهما طرفا ••• فماذا صنع اسعاف ؟ جعل يرد علـــى نفسه بنفسه ، ويضيف الرد الى كاتب آخر بتوقيع مستعار ، ويبعث بهذا الى جريـــدة اخرى ، وكل هذه الصحف توالي اسعاف وتنشر له ما يريد وتطلب منه المزيد ، فكنت اذا قرأت مثلا مقالا في (الجهاد) اليوم (للازهرى) من (المنصوره) ، قرأت بعد اسبوع مقالا في (الكواكب) بتوقيع آخر يرد به صاحبه على (الازهرى) • والخطاب والرد كلاهما (للازهرى) • (فالازهرى) لم يكن ليتغير ، وانما كان يتغير من ير عليـــه والكل واحد !

وسار اسعاف في هذه الطريق مراحل خلال سنة او اكثر • وكنت مطلعا على هذا بعجره وبجره • أما عبد العزيز التعالبي (زعيم تونس ومن اعلام العـــرب والمسلمين في النصف الاول من هذا القرن •• وصديق اسعاف) فلا ، واذ لم يشأ اسعاف أن يطلعه على سر هذه (الازهريه) ، وانما كان اسعاف احيانا يتصيـــد المناسبات الحسنه المؤاتية فيقرأ على التعالبي خطابا وردا ليدخل بعد ذلك في بحث معه حول الموضوع ، ولم يكن هنالك لدى التعالبي اى سبب يدعوه للشك في امر هذه الفصول والردود ، وما تحتوى عليه من القراع الفكرى ••

---

(١) الاسلام الصحيح ص ٢٦٠ ـ ٢٧٢ (٢) الطليعة / عدد ٤/ سنة ١٩٣٦ / ص ٣٦٣ ـ ٣٦٥ •

واخيرا شاء اسحاق ان يكشف الغطاء للثعالبي فصنع . فاكبر الثعالبي جولات اسحاق في هذه الموضوعات ولم ينكر عليه شيئا من أمر ما كتم . واخيرا اقترح الثعالبي على اسحاق ان ينشر هذا في كتاب " (١)

ثم انبثق عن التيار البرجوازي الايجابي الصاعد في حياة النثر تيار طامح الى اتجاه جديد ، تيار يصرخ في اجواء الفضاء :

" مات (جوبيتر) الاولمب - مات ابوالآلهة - مات غالب الجبابرة ، وقاهر (ساتورن) - مات الرعد المزبد - فمادت الجبال ، وحطم تمثال (فيدياس) لنوره - وثلت عروش اشقاء الميت واولاده واحفاده من بعده ، وانحدرت الالهة كلها من ذروات جبل الاولمب ، وضربت في فجاج الارض ، وغاص ، (نبتون) الى قاع البحر وتوارى في قعره بعد أن كانت خيوله المطهمة ذات الاعراف الذهبية تجر مركبته فوق الامواج ...

وهدأت ثائرة أبناء الارض من (التيتان) بعد ان راكموا الجبال ونصبوها سلما الى السماء .... الادب الاشتراكي هو الذى صرع آلهة الاساطير وقضى على الارباب وابطل السيادة وحطم الاغلال الماضي ونشد الحرية للجميع وطوى صفحة العصور الوسطى واضجع الاقطاع في رأسه وخلّف في قلوب مشيعيه حسرة ولوعة .... نريد أدبا تحريريا يعصف بالنفوس ويقضي على التقاليد الباليه والعوائد المرعيه وكل مالا يتفق وروح العصر ... نريد أدبا ينهض ويرمي الى اهداف انسانيه عليا بعيدة عن أية نزعة او سيادة طبقية طاغية .. نريد ادبا قويا أنضجه التفكير لا أدبا ضعيفا جملته الصياغة .. نريد ادباء مارسوا الاتجاهات الفكرية في القارة الاوروبيه وعرفوا مناحيها الاجتماعيه .... نريد .... كثيرا ما نريد ... وبعد ، هل من المؤسف أن يموت جوبتر الاولمب ، اذا كان جوبتر العقل سيخلفه ! " (٢)

وقد نادى هذا النداء الذى انطلق من يافا عن لسان عارف العزوني ودعا هذه الدعوة عدد غير قليل من ادباء فلسطين قبل قيام الحرب العالمية الثانية ... وانطلقت مجموعة من الشباب تلتهم الاتجاهات الفكرية في القارة الاوروبية وتربط بينها وبين القيم الاقتصاديه والاجتماعيه والسياسية القائمة هناك .. وتأخذ عنها ما ينطبق على ظروف الحياة المشابهة في هذا القطر الصغير ... وتثير قضايا متشابهة : (الخير المطلق هو القانون الطبيعي في آيين هذا الكون) ، (الثقافة وسيلة من وسائل الخير لمجتمع انساني جديد) ، (لوى غيوم يمثل حدا فاصلا بين ثقافتين) ، (جان جيونو وعالمه الجديد) ، (أندريه ملرو وتطورات العصر) ....

---

(١) القلم الجديد / السنة الاولى / ١٩٥٢ / ص ١٩ - ٢٠ (٢) الطليعة / عدد ٩/ نوفمبر ١٩٣٦ / ص ٧٦٥ - ٧٦٧ .

واتجهت المطالعات نحو (البحث عن الحقيقة) في ادب اندريه جيد ، و (هل الموت أفضل من الحياة ؟) في نظر موريس ماترلنك ، و (د . هـ . لورنس) ظاهره خطيرة في الثقافة الانكليزيه ، و (كاترين منسفلد) وقضية الحياة كحقيقة وحلم ... ، وما تركته مظالم العصر والتقلبات الدينية والاجتماعيه من طابع على تماثيل (انجلو) ولوحاته .. وما يلوح عليها من معاني الالم العميق في نفس ثائر قديم لم يجد منفذا لثورته غير تسجيل القهر والالم في صميم الصخر... صورة الهول والعذاب الذى تنطق به لوحاته المائيه .. وتصوير كل ذلك في سيرة آنجلو ، ومثله في سيرة رافائيل ، وسيرة دافنشي .. ثم دراسة متمثله لعصر النهضة .... وقد تناول هذا كله واحد من الشبان الذين احسوا بمسؤوليتهم الثقافيه ازاء وطنهم وهو الاستاذ محمود سيف الدين الايراني .. تناوله في الصحف اولا .. ثم جمعه او جمع معظمه في كتابه "اول الشوط" .. وجعل تلك الدراسات مجاورة لقصصه في اول الكتاب ...

... واصبحنا نرى المفكر في الاتجاه الجديد " ينظر الى ما هو (كائن) بعين يومض فيها ذكاء نادر وادراك عميق ووعي لامثيل له ، فاذا به فجأة تحروه رعشة من يفزعه كل هذا الهول الانساني فيسخط ويتمرد ويثور ويشرئب ببصره الى ما (سيكون) فلا يرى آية قيمة لكل ما يند عن قلمه وفكره الا اذا كان يرءدى مباشرة الى ما يكون فيه الخلاص النهائي للانسان من قيود آلامه ومواله وذله ... تلك هي (نقطة الانطلاق) التي تنبعث منها جهود الجيل الجديد ليجعل منها (سيكون) سعادة وخيرا ونورا واعزازا لحياة الانسان وسموا بكرامته الى غاية السمو " (١)

وأصبحنا نحسّ في النثر حرارة جديدة ، وتعمقت فيه قيم انسانية بعيدة الجذور .. : ـ

..... لم اعد اشتهي الموت يا أخي ، لقد وجدت (انسانيتي) الضائعة .. اهتديت الى حقيقة وجودى ووجود كل انسان ... حقيقتنا جميعا دون تمييز دون أى فارق ، حقيقتنا الانسانية الكبرى هي في هذه الكلمة البسيطة : (السعادة حق مطلق للجميع) ... لعلك تريد حججا وبراهين على هذه الحقيقة الواضحة ، أحقا تطلب ذلك ؟ هل لا بد من (كمانة) منطقية لولبية لتقتنع وترضى ويمحى الشك من نفسك .؟...... هذه الحقائق هي نفسها منطق وقوة لانها من منطق الحياة وقوتها من جمال قوة الجوهر الانساني ... " (٢)

---

(١) من مقدمة كتاب (اول الشوط) (٢) (اول الشوط) ص ٩٦ ـ ١٠٢ .

هذه نغمة صغيرة من النغمات التي تتكون منها السمفونية الكبيرة التي تزدحم في صدور الجيل الجديد من الشبان المثقفين وقد صدرت عن محمود سيف الدين الايراني في احدى رسائله ... ومثلها نغم آخر انطلق من عارف العزوني :

"... اخواني ، تعلمون انني لانطق عن الهوى .. حدثتكم قبل هذه المرة عن النشوء والارتقاء وعن الطريق الوعر الشائك الذى سلكته البشريه منذ فجر تاريخها ، واجمل أخطائها ومساوئها ، واوضحت كيفية تغلب الفئة القليلة على الفئة الكثيرة واذلالها وتعذيبها والنيل منها ، وقد رأيتكم تنتصرون للمظلومين وتلوحون بأيديكم ناقمين متوعدين ... اخواني ، خففوا من حدتكم ... ولاتدعوا هذه البراكين المتأججة تفور قبل استكمال النضوج .. وقد كلمتكم في المرة الثانية عن المملكة الحيوانية وأريتكم أن المكر والدهاء والختل والخداع والتنازع والتناحر من صفات الانسان المكتسبة وقد نقلها عن جده القرد .. وعمه الذئب .. وخاله النمر . وأمه اللبوءه .. وضربت لكم فيما بعد الامثال ، ونقلت الاقاصيص ورويت حكاية الثعالب!..(١)

.... ثم اصبحت حاجة كاتب اليوم ماسة الى "معرفة التاريخ والادوار التي تقلبت عليها الانسانية منذ اقدم عصورها الى ان وصلت الى عصر اهم مظاهره التفوق الفردى ، والتحكم بالجماهير وتسخير الشعوب واستغلالها الى ابعد حد . فينبغي للكاتب المتحرر النزيه أن يعرف اذن ماهية النزعات الاجتماعية التي عصفت بالعالم وأدت حتما الى ترجيح الفكرة الاشتراكية ... لانها ترمي الى تخليص الجماعات من سلطة الافراد وشحذ المواهب واعلاء شأن الانسان ..." (٢)

من ذلك رأينا من ثمرة هذا الاتجاه تلك الدراسات العميقة القيمة التي قام بها الكاتب نجاتي صدقي واستخلص منها "أن ابن خلدون عالم مادى ومؤرخ واقعي يضع الحياة الارضية ، والبيئة الاجتماعية ، والظروف التي تكتنفنا ، والوسط الذى يحيطنا اساسا لتفسير كل انواع المظاهر الاجتماعية والاحداث التاريخية ، وهو يستهزىء بكل المؤرخين العرب المثاليين الذين يعتقدون بالخرافات والخزعبلات . ونراه في انتقاده لهم لايرمي الكلام على عواهنه بل يأتي بالبراهين العلمية المقنعه التي يعجز عن الوصول اليها اليوم الكثير من علماء اوروبا" ثم يقول الاستاذ نجاتي صدقي :

---

(١) الطليعة / عدد ١ / سنة ٢/ آذار سنة ١٩٣٦ / ص ٥٨ — ٦٢ (٢) من مقال بعنوان : واجب الكاتب اليوم بقلم عارف العزوني ، في الطليعة / عدد ٢ ، ٣ / سنة ٣ سنة ١٩٣٧ / ص ١٢٠ .

" من العار علينا ان نجهل أن عندنا فيلسوفا عظيما كعبد الرحمن بن خلدون · من العار أن لا نعمل على احياء نظرياته وتدريسها في المدارس العربية! يمينا لو كنت في دمشق مثلا لفتحت (ناديا خلدونيا) او (مدرسة خلدونية) تستقي الشبيبة العربية من نبعها الصافي الغزير كل ما هي بحاجة اليه من مادة روحية تساعدها على رؤية الحياة بأعين الواقع والمحسوسات نقيض التخريف والسطحيات·· "

وقد جلا في دراسته هذه فلسفة ابن خلدون ، والاتجاه العصرى الفلسفي الذى ينتمي اليه ··· وبيّن التشابه القوى القريب بينه وبين ارنست هيكل من ناحية نظرته الفلسفية الجدليه ·· وبينه وبين كارل ماركس من ناحيه المادية وصراع الطبقات·· وجاء بالحجة والبرهان من اقوال ابن خلدون نفسه في المقدمة·· ويوضح نظرية ابن خلدون في تكوين العالم وفي النشوء والارتقاء تلك النظرية التي تعد اسمى ما يقدر أن يصل اليه الفكر البشرى في هذا الشأن وهي مقبولة لدى العلماء الماديين الواقعيين اكثر من اى نظرية سواها ··(١)

وقد اتخذ الكتّاب اصحاب هذا الاتجاه ، الطبقية أساسا لدراستهم ·· فحين درس الاستاذ نجاتي صدقي "الايقاع الموسيقي التاسع لبيتهوفن" كأعظم قطعة موسيقيه كلاسيكيه عرفها البشر حتى الان ، قال في مطلع دراسته :

" ··· كتب بيتهوفن سيمفونيته عام سنة ١٨١٧ وكانت تلك الايام كأيامنا هذه تخمض بالنضال الطبقي الحاد ، ليس بين الديمقراطيه والفاشيستيه ولا بين الطبقة العاملة والرأسماليه ، بل بين الحكم الفردى الاقطاعي القديم والحركة البرجوازية الصناعية التقدمية ·· والعرف المتبع في التطور التاريخي أن الطبقة الثائرة توجد لها دائما الكتاب والشعراء والموسيقيين الذين يعبرون عن حالتها الروحية من حيث يشعرون انهم يقومون بهذه المهمة او لا يشعرون على الاطلاق ··· وبيتهوفن ثار على النظام الملكي الاقطاعي بما خطه يراعه الموسيقي من نوتات عظيمة الشأن نخص بالذكر الايقاع التاسع ··· (٢)

ثم يمضي الاستاذ نجاتي صدقي يحقق ما يهدف اليه الكاتب الحديث من دراسات ·· فيدرس شارل داروين ويتتبعه في حياته ونظرياته وآراء خصومه فيه·· كما يدرس ديكارت والمادية الميكانيكية·· ثم يقوم بدراسة واسعة تطبيقية للحركة الوطنية العربية ، من الانقلاب الاتحادى الى عهد الكتلة الوطنية ، ويخضع دراسته تلك للآراء المادية (٣)

---

(١) انظر الابحاث التي قام بها الاستاذ نجاتي صدقي حول فلسفة ابن خلدون في الطليعه عدد ١ / سنة ٣/ ١٩٣٧ ص ٦ — ١٣ ، وعدد ٤/ سنة ٣ ١٩٣٧ ص ٢٨٩ — ٢٩٤ (٢) الطليعه / عدد ٢ — ٣/ سنه ٣ ١٩٣٧ ص١٢٧ — ١٣٢ (٣) وقد نشر تلك الدراسات في الطليعه سنة ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ·

وكان من كتاب هذا الاتجاه المؤرخ الباحث الاستاذ عبد الله مخلص حيث خلص في تتبعه الى أن الاستعمار "طبقي" لا تكاد تؤثر فيه العنصرية ولا أي مؤثر آخر الا بمقدار .. " ؛ ثم يقول بعد توضيح وبيان لأنواع الكتاب والادباء المغرضين :

" علمت أن قطب الدائرة عند البرجوازيين استغلالنا ، وعلمت أن الشبان منا أشد الناس تعرضا للخطر الادبي البرجوازي ، وعلمت أن أخطر ما في هذا الادب التوجيه الكاذب لعقولنا ومشاعرنا الى أغراض هي ابعد الاغراض عن الحياة الحقيقية والتي في تلميتنا بما امان لهم وتوغل في شهواتهم ودعرهم . ولعل من اغربما وضع الادباء المغرضون من النظريات نظريتين مضحكتين سنتحدث فيهما اليك الان ؛ الاولى : (الفن للفن) .. والثانيه : (النقد للذوق الموهوب) ." (١)

ومن مجموع هذه النغمات ممتزجة تكونت سيمفونية الاتجاه الادبي المادي في حياة النثر .. واشترك في هذه السيمفونية كل من الادباء : محمود سيف الدين الايراني ، عبد الله مخلص ، عارف العزوني ، رجا الحوراني ، عبد الله البندك ، نجاتي صدقي ، خليل البديري ، ومحمد عزة دروزه ورفاقهم .. وقد ظهر ذلك الاتجاه قبل قيام الحرب العالمية الثانية .. واتضحت خيوط المدرسه المادية العربيه في النثر في هذه المرحلة ... واستبانت خصائصها وظهرت واضحة صواها .. وقد جمع خيوطها وأشار الى خصائصها وضوأ صواها الاستاذ نجاتي صدقي حين كتب (للأمالي) (٢) موضوعه بعنوان " المدرسه المادية العربيه " فقال :

" ... والاتجاه الادبي المادي" هو والاتجاه الادبي الخيالي على طرفي نقيض .. فبينما الاخير يستمد مادته من الاشباح والارواح ومن فضاء اللانهاية نرى الاول يقوم على الوقائع المحسوسة ويستمد مادته من الحياة المحيطة ، ويتطلب من الاديب ان يغادر صومعته وينزل الى معترك الحياة الاجتماعيه ويبحث عن ابطاله او عن اهدافه في القصور الشامخة وفي الاكواخ الحقيرة .. في اسواق المدن الصاخبة وفي ازقة القرى الوادعة .. والادب المادي ينكر على كل من يقول بأن الادب ما هو الا الهبة ، وجد ليقتل به الاديب سأمه فيتسلى به كما يشاء غير مكترث لاراء الناس او احتفالهم به .. وينكر ايضا على الاديب قوله بأنه انما كتب لنفسه وارضى وجدانه فقط ، أو أنه كتب للفن ليس الا ... فمنذ اقدم الازمنة اي منذ أن ظهر الفن الفكري المعبر عنه بالكتابة والخطابة والكاتب يتساءل . من هو في هذا الوجود ؟ .. اهو نبي جيله أم ربانه ام طباله ؟ وكانت الاجوبة على هذا السؤال تختلف بالنسبة الى الاحوال الاجتماعية التي تحيط بالكاتب وتؤثر عليه ...

---

(١) انظر مقال (الادباء المغرضون) بقلم عبد الله مخلص / في الطليعه عدد ١ سنه ٢ ١٩٣٦ ص ٦٣ — ٦٧ (٢) الامالي / السنة الاولى / عدد ٤ / ١٩٣٨ ص ٢٦ .

فمنهم من قال بأنه خلق من طينة خاصة ... ومنهم من قال بأنه يستمد الوحي من الفكر المجرد كمن يرمي بنظره الى الفضاء الواسع ... ومنهم من قال بأنه لا يستمد الالهام الا من عبقريته الشخصية المستندة الى عقله الباطني ... والواقع ان جهود الكاتب الفكرية لم تكن ولن تكون مجهولة لدى الناس فاسم المؤلف وشخصيته مهما كان احدهما ضئيلا فانما هو دائما موضع طلب الجمهور وعنصر التحكيم في كيفيه مؤلفاته ... فعندما ينتج العامل مثلا حذاء او الفلاح حبا فهو يضع في عمله كل شخصيته وكل مواهبه الذاتية بل كل روحه ، ومع كل هذا يبقى عمله مجهول الاسم فهو لا يكون اكثر من حذاء وحبّ ... ولكن لو ان كاتبا انتج عشرة اسطر فكانت مظلمة خاوية مملة لوقعها باسمه الصريح ليعرف الناس أن كاتب تلك الاسطر انما هو فلان ولقد كان هذا الفارق بين الانتاج الجسماني والعقلي سببا لظهور نظرية كاذبة تحمل اسماء شتى مفادها أن الكاتب يحمل بين ضلعيه (حويصلة سرية) عرفها الكيماويون القدماء (بحجر الفلسفه) وأن هذه الحويصله انما هي التي تنتج الاشياء الثمينة كالادب !

ويعتقد الكاتب بمقتضى هذه النظرية ان واجبه المقدس ان يتعمق في نفسه وأن يحيطها بسياج حصين حتى لا تتطرق اليها التأثيرات الخارجية بل ينهمك في صنع عصير فنه الخاص . فالادب الماديّ ينقض هذه النظرية من اساسها ويقول بأن شعورنا بالكتابة لا يولد باطنيا بل هو مظهر لما يحيط بنا ولما نراه ونسمعه ونلمسه ونقرأه ونختبره بذاتنا او نتأثر به من غيرنا .. شعورنا بالكتابه هو مظهر لحالات الشعب الفكرية .. هو تعبير لمطامحه وحاجاته ولبأسه وتفاؤله ولسخطه وسروره ! ...

... ونحن اتباع المدرسة المادية لا نتغنى بالشمس قبل بزوغها بل بطلوع النهار وبانتشار الضياء ! ... ولا نلتذ بهدير المياه المختبئة في جوف الارض بل في تفجرها وتدفقها بشده .. فاذا سمعنا بجعجعة مطحنة لا نجزم بأن هناك دقيقا الا متى اخذناه بالكف ، واذا رأينا دخانا يتصاعد فلا يستقر لنا قرار الا متى اهتدينا الى مقر النار ... اننا نتغنى بانهيار الحاجز القائم بين احلام الفن والمؤثرات الخارجيه ... لان الفن اليوم لم يبق نسيجا من الغيب بل هو نتاج الحياة الماديه ... والحقيقة التي لامراء فيها أنه كلما عمل الشاعر او الكاتب على ابعاد احلام فنه عن المؤثرات الخارجية زاد ابتعاده عن المحيط البشري واصبح وحيدا هائما على وجهه يلعن الهيئة الاجتماعية ويصب عليها جامات غضبه ... والمدرسة المادية تقر الوصف الخيالي وتعترف بجماله غير أنها تشترط أن يكون هذا الوصف قائما على اسس طبيعية حقيقية .. ثم ان القول بأن الادب بعيد عن النزعات السياسيه والاجتماعية قول خاطئ لا يوافق الحقيقة والواقع ...

فالكاتب لايكتب شيئا الا ونرى من خلال سطوره بأنه يعبر عن نزعة ما ٠٠٠٠٠٠
الادب المادي يقضي على الحيرة والتردد ٠٠ فهو يريد من الكاتب أن يضع كل
قواه الفكريه في تصانيفه حتى لايصبح في مؤخرة القراء ٠٠٠ وخلاصة القول ان المدرسة
المادية تتطلب من الاديب والفنان والشاعر والكاتب أن يستمد مادته من الحياة ٠٠ وان
يؤثر على هذه الحياة بدوره ويدفعها الى الامام ويغير فيها ما تسمح الاحوال
بتغييره ٠٠٠ "

بهذا التوضيح نستبين معالم هذه المدرسة ٠٠ وبذلك يكون الاقطاب
الثلاثة قد حددوا لنا مدارسهم ورسموا لنا خطوط هذه المدارس وصوروا لنا أسسها
ووصفوا خصائصها ومميزاتها : مدرسة السكاكيني ٠٠٠ ومدرسة النشاشيبي ٠٠٠
والمدرسة المادية !

وهناك اتجاه آخر لا تنطبق عليه خصائص واحدة من هذه المدارس ،
انما هو دعوة الى العزلة وتحبيب بالوحدة ومضيّ الى الطبيعة واستغراق فيها ٠٠٠
واستنجاد بالتعبير الرومانتيكي ٠٠٠ وحين يجد نفسه فارغة لم تمتلئ بالجمال القائم
بين يديه امتلاء يخلق فنا ، يترك ذلك الجمال ويمضي الى قراءات عن الجمال في
شعر الرومانتيقيين ٠٠٠ ومن دعاة هذا الاتجاه الدكتور علي كمال ٠٠ وقد كان من
كتّاب (الامالي) ٠٠٠ وله فيها "رسائل مصطاف في ربوع لبنان " (١)

" ٠٠٠ أنت كما تعلمني أحب العزلة ٠٠ واعشق الوحدة ولا أجد لروحي
غذاء الا فيهما ٠٠ لقد آلمني (بيكون) بقوله ان من يحب العزلة انما يكون وحشا
ضاريا او الها ، فلست ذلك الوحش وان كنت من روح الاله ٠٠٠ وأنا حتى الساعة
ومنذ اليوم الذي تركتك فيه لم أجد في روحي أي ميل للامتزاج مع روح بشرية فأخذت
ابحث عن هذه الروح في معاني الطبيعة وجمال الكون فوجدت فيها كل ما رغبت
وتمنيت ٠٠٠ امواه لبنان ٠٠٠ ارز لبنان ٠٠ جبال لبنان ٠٠ سماء لبنان ٠٠ كلها ارواح
سماويه تفتح ذراعيها وترحب بامتزاج الارواح السماوية وروحي من روح السماء فتبحث
ظلها حتى استقرت تحت الارز ٠٠٠ "

ويمضي في هذا اللون من الوان الادب الخيالي المثالي السلبي المريض
الشاذ : " ٠٠٠ اذ ليس أشد عليّ من أن اقصد السفوح والوهاد في ليلة مقبلة
فألقاها تعج بالناس تتحسس الجمال كما اصبحت اراه واتحسسه ٠٠ ولكن احمد الله
ان للناس في الجمال مذاهب ٠٠ فمنهم من يراه في الجسم ومنهم من يراه في الخلق
وآخرون في الغناء والترف وغيرهم كثيرون فيما يتصل بعالم الحس والارادة من عالم
الاغراء والاغواء ٠٠٠

---

(١) الامالي / السنة الاولى / عدد ١٠ / ١٩٣٨ / ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ ٠

الا انني احمد الله أن مثلي في لبنان قليل ، ولعلي اغبط نفسي على ما اتخيله من وحدة في هذا المذهب ٠٠"

ومن حسن حظ هذه الفترة في حياة النثر أن يكون صاحبنا الدكتور "انفرد بهذا الشذوذ الذى يراه الناس فيه "٠٠٠ فدعوته هذه دعوة متخلفة تشدّ الحياة الى الوراء٠٠٠ ولقد كان في فلسطين كتاب في هذه المرحلة جنحوا الى الادب الخيالي في كتاباتهم ولكنه خيال ايجابي غير سلبي ٠٠ ومن هنا كانوا دعاة حياة لا دعاة موت٠٠ واقبال لا ادبار ! تجد كثيرا من كتابات عيسى السفرى في كتابه الممنون "رسالتي " في الادب والفن والاجتماع والشعر المنثور تجنح الى الادب الخيالي المثالي في احيان كثيرة وفي مواضيع متعدده ولكنه خيال مثالي ايجابي يتصل بالحياة النامية المتجددة المتطورة ، ولهذا لا نجد في أدبه ظلا من ظلال الانهزامية او الانعزال ! يقول تحت عنوان " احب من الناس المجانين " (١)

"٠٠٠ هو مجنون ! كلمة سمعتها يوم ان استشهد شيخنا الجليل عز الدين القسام ٠٠٠ سألت نفسي ، ما عسى أن يكون جنون القسام ٠٠٠ انما كان جنونا بالوطنية ٠٠٠ طالعت سير الابطال ، وتأريخ العظماء ، وقصص الادباء واخبار الفاتحين ومجازفات الرواد ورسالات الانبياء والمرسلين قابلت بين اعمالهم كلها فوجدتها متفقة في المبدأ متشابهة في الغاية ، قرأت فيها : الجنون في البطولة الجنون في العظمه ، الجنون في الفن ، الجنون في الفتوحات ، الجنون في المجازفات ، الجنون في العقائد والرسالات ، قرأت هذا ثم عدت الى شهيدنا القسام ٠ فحصت جنونه على ضوء ما مر من انواع الجنون فوجدته نوعا آخر من انواعه ٠٠ انه جنون في التضحية ! فقلت حينئذ في نفسي : اذا كان من فيه هذا النوع من الجنون يدعى مجنونا ، فلست احب من الناس الا المجانين ! ٠٠"

وكثيرا ما تدفع به هذه الايجابيه الى قيم يشترك فيها مع الواقعيين٠٠ فحين يعرض (لحرية الفكر) ينتهي به القول (٢)

"٠٠٠ لو تعصب البشر لعقيدتهم في عبادة الاصنام لما ظهر دين التوحيد ولو تمسك علماء الكيمياء بالنظرية القائلة ان عناصر الكون اربعه٠٠٠ لما كان من هذا العلم نفع ! ولو ظل الناس يعتقدون أن الحمار أفضل وسائل النقل لما امتطينا الهواء ! ولو اعتمد البشر في معالجة مرضاهم على السحر والعرافة حتى اليوم لما تم لعلم الطب ارتقاء !

---

(١) رسالتي / ص ٩٨ ـ ١٠٣ (٢) رسالتي / ١٢٣ ٠

علينا ان نتمسك بما نراه حقا اليوم ، ولسنا بمسوءوليسن عن فساده اوصحته في المستقبل اذ لايليق بنا ونحن في القرن العشرين ان نعيش بعقول ابناء القرون المظلمة ."

ويدرج تحت هذا التيار المثالي الخيالي الاستاذ يوسف حنا في مقالاته "بيروت بين عيــــدين " جعلها في صورة ذكريات طفل ومطالعات رجل (١)

وهكذا فكل اثر من الاثار الكتابيه في النثر الفني المتصل بهذه المرحلة لا يخرج عن هذه المدارس التي عرضنا لها ... وقد يكون فيه اطراف من كل مدرسة وقد ينتسب في مجموعه الى واحدة منها ! ...

وهناك فرع يصب في هذه التيارات انفرد بدفع المدد اليه الاستاذ العالم الرياضي قدري طوقان في هذه المرحلة فقد كان حامل لواء الاسلوب العلمي المتأدب ، وله في ذلك ابحاث في الاذاعة والصحف والتأليف ! فجانب كبير من كتابه "بين العلم والادب " يقع في حدود هذه الفترة من حياة النثر !

وفي هذه المرحلة يظهر عالم جليل يجيد الحديث في الكتب والمدارس والمكتبات ويحيط بعلوم العربية ورواياتها فهو شيخ المحدثين في هذا الباب يتسع صدره ويعي جزئيات التراث العربي الاسلامي ، ويتمثل الثقافة العربية الاسلاميــة ويحدث الناس بأخبارها حديث خبير ! هذا العالم الذى وعى الثقافة في صدره هو الشيخ خليل الخالدى وكان رئيس محكمة الاستئناف الشرعية في القدس .. علمه لا ينفد وحفظــه لايخطىء "يبدأ حديثه عن الكتب فيذكر انه رأى كتاب كذا فـــي مكتبة كذا ، ويصف النسخة وما عليها من سماع العلماء ثم يتكلم عن قيمة الكتاب ومكانته بين أشباهه ، ويذكر المؤلف فيبين عن تاريخه ومكانته من العلم ودرجته بين العلمـــاء وهلم جرا ... يفضي من حديث الى حديث ، والسامع فرح بما يسمع معجب متعجب . وقد زار مكاتب الاستانة والاناضول وفينا والشام ومصر وبلاد المغرب والاندلس، ونقب فيها عن نفائس الكتب فاحاط بما لم يحط به سواه " (٢) ويروى الدكتور عبــد الوهاب عزام لنا ما حفظه عن الشيخ خليل الخالدى في مجلس من مجالسه في القاهرة .. وهذا النوع من حديث المجالس الممتع بقية انحدرت الينا من السلف الصالح وهــو لون من ألوان الادب النثرى الممتع !

اما تيار الخطابة فقد مضى يهدر في هذه المرحلة لان دواعيها قد كثرت وتنوعت حتى امتزجت الخطابة بالمحاضرات ، وامتلأت بها النوادى ودور العلم والمجالس السياسية ، والمجتمعات ! وقد عنى بها كثيرون وعدوها " ارقى طبقة من طبقات الرقي وصل اليها الانسان ... وهي من لزوميات الاجتماع التي لا تنفك عنه ابـــدا وقد وصل الانسان الى هذا الطور اتباعا لسنة الاجتماع وقضاء لمقتضياته ..

---

(١) الجمهور / عدد ١١١ ــ ١١٢ / سنة ٣ ١٩٣٩ ص ٨ ــ ٩ و ص ١٣ (٢) انظر مقالة بعنوان (الشيخ الخالدى) للدكتور عبد الوهاب عزام في الرسالة عدد ٧٨ سنة ٢ ١٩٣٤ ص ٢٩١٢ .

وشعر الانسان أن الكتابة لاتقضي وطره ٠٠ اذ صار للقوم محافل يجتمع فيها جمهورهم وصار من الواجب أن يكلم المرء الجماهير ويدعوهم الى امر من الامور ، فكانت اذ ذاك الخطابه وكان الخطباء ، فالخطابة ارقى من الكتابة لما يقترن بالكلام من نفسية الخطيب وبمالها من الواقع في الجمهور ! ٠٠٠ قال ابو عمرو بن العلاء : (فلما كثر الشعراء واتخذوا الشعر مكسبة وشرعوا الى اعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر) ٠"(١)

وفي حفلة التكريم التي اقامها المصريون لامين الريحاني في بهو الجامعة الاميركية والخطب التي قيلت فيها يقول الاستاذ خليل السكاكيني : "٠٠٠ اذا كانت الخطابة أن يكون الكلام منسجما آخذا بعضه برقاب بعض ، أن يكون المنطق جزلا والصوت جهيرا ، أن نفخم الحروف المفخمة ونرقق الحروف الرقيقه ونختلس الحركات القصيرة ونشبع الحركات الطويلة ونمد الممدود ونراعي فيه كل اصول التجويد ، أن يمثل المعنى تمثيلا ، فكل الذين خطبوا خطباء مصاقع ٠٠٠ ولكن اذا كانت الخطابة أن نكاشف الناس بأفكار جديدة او نعالج المواضيع المبتذله من باب جديد ، أن نعرض على الناس من علمك او اختبارك ما لم يكن لهم به عهد ، فليس بينهم من يستحق ان يسمى خطيبا ٠٠ بل قد سمعت قبل اليوم في سوريا وفلسطين من الخطباء والشعراء من هم اطول باعا في هذا النوع من الشعر والخطابة ٠ " (٢) هذا هو مفهوم هذه المرحلة للخطابة من حيث مكانتها في المجتمع ومن حيث مضمونها وشكلها ٠٠ ولقد كانت معظم آثار الاستاذ اسعاف النشاشيبي خطبا خطبها في المحافل الجامعية وغيرها ، وكذلك كثير من آثار الاستاذ خليل السكاكيني ٠٠ وتكاد لا تجد أديبا من ادباء هذه المرحلة ليس له مواقف خطابية تحمل طابعه وتدل على اتجاهه في الادب ! حتى نستطيع أن نقول ان أدباء هذا الدور كانوا جميعهم خطباء ٠٠٠ وكانت الخطابة تتناول كل فروع المعرفة في هذه الفترة !

بهذه الخطوط الكبيرة نكتفي في وصف هذه المرحلة من حياة النثر !

---

(١) انظر موضوع الخطابه في الزهره عدد ١ـ٢ السنة الثانية ١٩٢٢ ص ٥ ـ ٢٠ ص ٥٣ ـ ٦٤ للكاتب توفيق زيبق ٠ (٢) يوميات السكاكيني (كذا انا يا دنيا) ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤

المـــــرحلـــة الـــرابعـــة :

المرحلة الرابعة من حياة النثر هي نفسها المرحلة الرابعة من حياة الشعر ، وهي التي تبتدئ بقيام الحرب العالمية الثانيه وتمتد الى حدود النكبة ... وهي السنوات العشر التي تأخر فيها وقوع الكارثة بالوطن الصغير نتيجة للنضال المرّ الذى قام به ابناء هذا القطر ! واكنها السنوات التي نواقح فيها وجه الاستعمار فتبكبك القضية العربية من اعلى ذرواتها وحطها من عل فارتطمت بصخور القاع وقد تحطمت وتناثرت اشلاؤها !

ولم تنشأ في هذه المرحلة تيارات او اتجاهات جديدة في حياة النثر وانما مضت التيارات السابقة ، وقد اصابها الفتور في سيرها ، وغشيتها سحابة قاتمة في كثير من مراحل سيرها في هذه الفترة !

اما مدرسة السكاكيني فقد اصاب رأسها صدمة ترنح لها وكاد يتزعزع كيانه ويقع فريسة الجزع والهلع والحزن الممض ... لولا بقية من قوة دفعت به الى التماسك والى الثبات والى تحمل الخطب الجسيم ، وكأن الانسان حين يصاب بمصاب خاص والمجتمع من حوله في ازمات وتدهور ونكبات لايجد منفذا تتسرب منه احزانه فيجل المصاب ويعظم الخطب ، ويصيبه من جرّاء ذلك كله ما يشبه الشلل والاضطراب !

ولقد فقد الاستاذ خليل السكاكيني شريكة حياته في فترة كانت تمر البلاد فيها بأيام سود .. وكان أحوج ما يكون الى تلك الشريكة فلم يحتمل الخطب .. بل جزع وهلع واضطرب وانخلع فؤاده :

" آه يا سلطانه ، ان موتك غصة في صدرى لا تساغ ، لا يسيغها البكاء ولا يسيغها التجلد ، ولا يسيغها أن انهمك في العمل ، او اقرأ الكتب ، او السمر بالحديث ، لا يسيغها أن أنام ، ولايسيغها أن استيقظ ، ولا تسيغها الايام فانها تتجدد كل يوم ... لقد نبا ناظرى عن كل منظر ، ونبا سمعي عن كل صوت ، ولولا الحياء لصارمت خلاني وأهلي وانزويت في غرفتي أناجيك وأبكيك ... كيف التفت واين رحت فاجأتني الذكريات .. خيالك في عيني ، وذكراك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيبين؟"(١)

ويستبد به الحزن حتى يدفع به الى التشاؤم وهو الذى لم يعرف للتشاؤم طعما من قبل طوال حياته كلها ، ويزيد حزنه حتى يخرجه عن اناته ، فيثور بالقضاء ويعلن السخط على الارض والسماء :

"لا اتأمل هذه الدنيا الا عجبت من هذا الانسان ، يدفن بعضه بعضا ويتألم ، ويحزن ، ويبكي ، ثم يعود سيرته الاولى وكأن ما قد كان لم يك كان .

---

(١) يوميات السكاكيني ص ٣٠٦ — ٣٠٨ .

يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم ،ثم يحمد الله . لا يكفي أنه يتلقى المصائب اثر المصائب حتى يكلف ان يرضى ويحمد الله . فمثل حالته هذه مثل مجالس القضاء في عهد الحكومة العثمانية السابقة ،فقد كانت اذا حكمت على احد بالموت تقول له : (حكمنا عليك بالموت فادع للسلطان بالنصر) .. ايتها السماء احكمي علينا بما شئت واما أن تكلفينا الرضى فهذا لن يكون .. نعم ،نعم ،لن نرضى ... كلفت احد الخطاطين ان يكتب لي هذه الجملة (لـــن نـــرضى) لاعلقها في بيتي . بل خطر لي أن اكتب على قبورنا (لن نرضى) لنكون اول من يعلن السخط على الارض والسماء !" (١)

ثم يمضي في هذا الحزن المضطرب الجزع الهلع :

" كنت اظن أني احب الحياة ،فاذا بي احبك أنت لا الحياة ، فلما غبت عني اصبحت الحياة في نظرى شيئا تافها لاقيمة له .

وما هذه الحياة ؟ نسير فيها من الطفولة الى الشيخوخة ،من الصحة الى المرض ،من الازدهار الى الذبول ،من النشاط الى الكلال ،من الامل الى اليأس ،من السرور الى الكآبة ، من الحياة الى الموت ! ... اول يوم في الحياة هو اول خطوة الى الموت . فاذا كنا نخاف من الموت فالاولى أن نخاف من الحياة لانها مجلبة الموت واذا بكينا لفراق الاحباء فالاولى أن نبكي من اليوم الاول لان هذا الفراق واقع لا محالة . أليس الافضل ان لا تكون هناك حياة ، فلا يكون هناك موت ؟ ايها الناس تعالوا ننقرض ... " (٢)

ولكن حزنه حزن مثمر :

" في آخر النهار وأنا قاعد وراء مكتبتي اشتغل بكتابة (لذكراك) ودموعي تنهمر فكأني كنت اكتب هذا الكتاب بدموعي ،دخل سرّى الصالون وقعد وراء البيانو يضرب قطعة لبيتهوفن ، وهي القطعة التي كانت تحبها سيدتي ام سرّى ، وكان الضرب مؤثرا جدا ،فأمسكت عن الكتابه وانخرطت في البكاء " (٣)

ثم يمضي به الحزن الى التأملات الفلسفية الحزينة الثائرة :

" لا ازال اشتغل في اوقات فراغي من الزائرين في كتاب (لذكراك) . واهم ما كنت ابحث عنه في هذه الايام الاخيرة هو العزاء . فتشت عنه في الدين ،فتشت عنه في اقوال الفلاسفة ،فتشت عنه في اقوال الشعراء والحكماء ،فلم اجده .. لايضيرني أن يكون هناك عالم آخر لا هم فيه ولا غم .. ما اجمل القيامة ! واذا آمن الناس بها فلا لانهم يتمنون ان يقوموا ،فهم يؤمنون بما يتمنون لابما يعتقدون ، كأنهم تمنوا فكان الدين او كان الدين فكان ما يتمنون ، واذا فتشت وجدت أن الاديان كلها أمان ،واذا خلت الاديان من هذه الاماني فلا يؤمن بها احد ... " (٤)

---

(١) يوميات السكاكيني ص ٣٠٩ (٢) يوميات السكاكيني ص ٣١٠ (٣) يوميات السكاكيني ص ٣١٢ (٤) يوميات السكاكيني ص ٣١٢ _ ٣١٣ .

ثم يدفع به الحزن المنتج الى أن يضع في ذلك رسالة فلسفية :

"... لا ازال مكبا على كتب الفلسفة اطالعها بعناية عظيمة استعين بها على وضع رسالتي (تعالوا ننقرض) ...... سأكتب ، واخطب ، واتحدث قائلا : (ايها الناس الحياة عبث ، فتعالوا ننقرض ! " (١)

ثم يقول مبررا مضيه في هذه الاحزان الفلسفيه :

" كنت احزن قبل اليوم ، ولكن حزني كان حزن الطبيعة الانسانية ، ولكن العقل من جهة والصبا ، من جهة اخرى ، وبقايا الدين من جهة ثالثة ، وسعادة الحياة الزوجيه من الجهة الرابعة ، كل ذلك كنت معه لا البث أن اتغلب على الحزن واعود الى الحياة واما الان . فاذا حزنت فحزن الطبيعة الانسانية ، وحزن العقل ، فاذا اضفت الى ذلك تقدمي في السن ، واني اصبحت بلا دين ، عرفت أني في حزن لا ينفع فيه عزاء ، حزن الطبيعة ، وحزن العقل ، وما حال من كانت نفسه حزينة وكان عقله حزينا ؟!..." (٢)

ويخلص من ذلك الى فلسفة تشاؤميه يرسي قواعدها ويقيم صرحها :

" لايهم الطبيعة الا أن نكون ، ولكن لا يهمها كيف نكون ، لايهمها جمالنا او بشاعتنا لا يهمها اسعداء كنا ام اشقياء .... ولا فرق عندها بين الانسان والدودة .... نعم ، نعم ، لايهم الطبيعة الا ان نكون ، وقد جعلت المكان الاول لغرائزنا لا لعقولنا لاننا اذا رجعنا الى عقولنا تمردنا على الطبيعة وزهدنا في هذا الكون ، واضربنا عن هذا الوجود ، فهي تخاف من عقولنا ولذلك جعلت العقول آخر ما ينمو في الانسان واذا نمت العقول ونضجت سلطت عليها الخرف ، واذا افرط الانسان في استعمال عقله واشرف على اكتشاف الحقيقة مسته بالجنون ، حتى لقد اصبح عند الناس النبوغ والجنون شيئا واحدا . واستعمال العقل يتقاضى صاحبه القعود الطويل والهدوء المستمر ، فتستولي عليه الامراض فيقصر اجله واذا فتشت وجدت أن اصحاب العقول اما ان يموتوا صغارا واما ان ينتهي بهم الامر الى الخرف او الجنون . فاذا صح ذلك فان مصير البشر اما ان يخضعوا لعقولهم فينقرضوا ، واما أن يلغوا عقولهم فيعودوا بهائم او اضل سبيلا (٣)

ولكن هذا الحزن الثائر لم يحجب عن عينه الحياة فقد سجل آراءه في السياسة ، وآراءه في الطبيعة ، وآراءه في الجمال ، وآراءه في النصرانية ، وآراءه في رجال الدين ، وآراءه في التربية ، وآراءه في التاريخ ، وآراءه في المجتمع ... ومن آرائه في الجمال قوله في هذه المرحلة الحزينة :

" ليس في الطبيعة جمال او قبح ، لا فرق عند الطبيعة بين الغراب والبلبل ، وبين الزهرة الزاهية والزهرة الذابله ، وبين البقرة وعجلها ، وبين الروضة والمزبلة ، ولكن الانسان يقسم كل المحسوسات باحد حواسه الخمس الى جميلة وغير جميله . فما الجمال ؟

---

(١) يوميات السكاكيني ص ٣٢٣ — ٣٢٤ (٢) يوميات السكاكيني ص ٣٢٤ — ٣٢٥

(٣) يوميات السكاكيني ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

يظهر ان الجمال هو ما يوافق الحياة . يحب الانسان صغار الحيوانات لانها في دور النمو ، ولا يحب كبارها لانها في دور الانحطاط .. يحب الازهار الزاهية المشرقة لانها رمز الحياة ، ولا يحب الازهار الذابلة لانها رمز الذبول والموت .. يحب تغريد الطيور واصوات الحيوانات الصغيرة لانها تعبر عن اقبال الطيور والحيوانات على الحياة واغتباطها بها .. يحب الملموسات الغضة الناعمة الممتلئة لانها تشف عن تشبعها من الحياة ، يحب المذوقات اللذيذة الحلوة لانها غذاء للحياة ، احب هذه الاشياء فكانت عنده جميلة !

لنأخذ الجمال في الانسان .. كان الجمال في الرجل او المرأة هو الصحة والقوة والصبى والاشراق . كان الجمال في الجسم أن يكون ممتلئا متناسب الاعضاء مفتول السواعد شديد العضل ، أن يكون كل عضو فيه قائما بعمله . كان الجمال في العيون ان تبصر وفي الاذان ان تسمع وفي الانوف أن تشم وفي الاسنان ان تقضم وفي اللسان أن يلوك وفي الفم أن يبتلع . وفي الرئة أن تتنفس وفي القلب أن ينبض وفي المعدة أن تهضم وفي الارجل أن تكون قادرة على المشي والركض والحمل ، وفي الايدى ان تكون قادرة على اللكم والضرب والعمل لكن لم يلبث الناس ان اصبحوا طبقات ، الطبقة المترفة ، والطبقة العاملة فكان الجمال في الطبقة المترفة غير الجمال في الطبقة العاملة ! فلما كانت الطبقة العاملة ممتلئة الجسم كان الجمال في الطبقة المترفة أن تكون الاجسام نحيفة .. كانت الاقدام في الطبقة العاملة كبيرة فصار المترفون يحرصون أن تكون اقدامهم صغيرة حتى بلغ بهم الامر أن يضعوها في قوالب حديدية تمنع نموها . كانت العيون في الطبقة العاملة واسعة صحيحة فصار : جمال العيون في الطبقة المترفة أن تكون العيون منكسرة كأن بها مرضا . كانت الاذان في الطبقة العاملة مرهفة فصار من علائم السؤدد في الطبقة المترفة أن يكون السمع ثقيلا . كانت الالوان في الطبقة العاملة مشرقة فصار من علائم الجمال في الطبقة المترفة ان تكون الالوان صفراء او بيضاء ولو اضطروا ان يصبغوا ها بلون اصفر او ابيض .. كانت اصوات الطبقة العاملة قوية حشاء ، فصارت الطبقة المترفة تتكلف الاصوات الضعيفة الرخوة ، بل كادت لا تتكلم الا همسا . كانت الطبقة العاملة تروح وتجيء في سرعة ، فصارت الطبقة المترفة لا تمشي الا وئيدا تتمادى ذات اليمين وذات الشمال .. الخلاصة أن الجمال في الاشياء كان نموا واشراقا وصحة وقوة واقبالا على الحياة واغتباطا بها .. هذا هو القياس عندى الذى يجب أن يقاس به الجمال " (١)

اما رأيه في النصرانيه فيقول :

---

(١) يوميات السكاكيني ص ٣٣٣ _ ٣٣٤ .

" اني اعتقد أن النصرانية هي دعوة الى الانقراض ، ودليلي على ذلك ما يأتي :
سقوط آدم ! ماذا فعل آدم ؟ رأى تفاحة فاشتهاها ، فوقع بين امرين : الطبيعة
تقول له : كل ما تشتهي واذا قدرت على الاكل فلا تتأخر ، اى ان قانون الطبيعة
هو أن يفعل الانسان ما يحب ان يفعله ، وان يفعل ما يقدر أن يفعله ، وهذه التفاحة
في متناول يده فهو قادر أن يتناولها ، وهي لذيذه فهو يحب أن يأكلها ، فاذا اكلها
فهو منقاد لطبيعته فلا لوم عليه ولا تثريب . واما الشريعه فقالت : لا تأكلها ! اى
اخمد شهواتك وامتنع عن فعل ما تحب أن تفعله وامتنع عن فعل ما تقدر عليه .
الخلاصة أن النصرانية مبنية على سقوط آدم ، اى تعتبر انقياد آدم لطبيعته خطيئة ،
فهي تكلف الانسان ان يعصي اوامر طبيعته فاذا اشتهى فليخمد شهوته ، واذا قدر
فليبطل قدرته ، واذا اراد فليلغ ارادته ، واذا غضب فليقمع غضبه . اذا فعل الانسان
ذلك فمصيره الى الانقراض " (١)

ولا يدخل كنيسة ، ولا يرى راهبا او شيخا ، ولا يسمع صلاة او دعاء الا
قال مع ابي العلاء المعري :

فوا عجبا لمقالاتهم ايعمى عن الحق كل البشر

وهكذا يقربه حزنه من ابي العلاء فيلتقيان في كثير من الاراء .. حتى اذا خفت وطأة
الخطب عليه عاد الى الاندماج في الناس ، وعاد الى حب ما كان يحب وكره ما كان
يكره مع غشاوة من الحزن ظلت تلف آراءه وافكاره وتأملاته وكتاباته في هذه المرحلة .
حتى حين القى كلمته في جمعية الشبان المسيحية في القدس عن الريحاني نظر اليه
بمنظار عليه تلك الغشاوة فقال :
"يخيل الي أن الريحاني تمنى لو لم يوجد ، ولا عجب فقد ندم الله نفسه أنه خلق
هذا العالم .. لو ملك أن يتكلم وهو على فراش الموت .. لقال : ايها الناس
الحياة عبث فتعالوا ننقرض ! " وقد اعترض عليه شقيق الريحاني وانكر عليه ان يكون
الفيلسوف امين الريحاني اجنح الى التشاؤم (٢)

وكان ذلك احساس من كتابه هذه المرحله بتوقع الكارثة .. وهكذا كانت
حياة السكاكيني رأس المدرسة السكاكينية .. في هذه المرحلة من حياة النثر ، بدأت
باستسلام السكاكيني الى الجزع والهلع .. ثم أخذ يجمع قواه في وجه القدر ويثور
ويضرب ذات اليمين وذات الشمال ويؤلف (لذكراك) و (تعالوا ننقرض) ثم تأخذ
هذه الاحزان تتصافى وتنساب في عروقه حتى تغدو تأملات فلسفية تمضي في اعماق
الحياة وتبلغ الجذور وتلتقي بأبي العلاء !

---

(١) يوميات السكاكيني ص ٣٤٢ (٢) ما تيسر / للسكاكيني / جزء ٢ ص ٤٠ - ٤٢ .

أما النشاشيبي فقد "ظل في هذه الفترة يقرأ ويكتب ليلا ونهارا ، ويختفي حينا ويظهر حينا آخر ، حتى كان اصدقاؤه لا يعرفون أعائد هو من سفر أم معتكف في البيت .. وترك آثارا مخطوطة حمل منها ثلاثة الى القاهرة في رحلته الاخيرة لطبعها • وهي (نقل الاديب) و (امالي النشاشيبي) و (التفاؤل عند ابي العلاء) اما سائر آثاره التي لم ترفهي كتاب (الامة العربية) و (حماسة النشاشيبي) و (جنة عدن) ... وقد بدأ شاعرا واديبا ومنشئا وناقدا وراوية وانتهى فقيها مجتهدا ، قوى الحجة ناصع البيان • ولكأنه من فقهاء المسلمين في صدر الاسلام يتخذون اللغة وسيلة للتفقه في الدين وفهم اسرار القرآن الكريم .. وسافر النشاشيبي الى القاهرة شتاء عام ١٩٤٧ ليشرف على طبع مخطوطاته الثلاثة وليتطبب .. فعاجلته المنية هناك ... " (١)

وقد ظل الاستاذ النشاشيبي يمد (الرسالة) بمختاراته التي كان يحسن انتقاءها من بطون الكتب من سنة ١٩٣٧ حتى ١٩٤٧ ، وقد كان القراء ينتظرونها من عدد الى آخر ويتشوقون بسببها الى صدور (الرسالة) ليقرأوا فيها (النقل) • وقد كان النشاشيبي في (نقله) كأبي تمام في (حماسته) ... وقد قال فيها الاستاذ خليل مردم حين اهداه مائة نقله من (نقل الاديب) :

"... كنت احسب ان هدية الاستاذ نقل كاسمها فاذا هي سحر وخمر ونقل • ذلك أن عنوانها يستدرج القارئ ويوهمه أنه نقل فكه ليس غير • وهذا لعمرى أول ابواب السحر ، فاذا جاز هذا الباب ، او جازت عليه تلك الحيلة ، وجد نفسه في روضة فردوسيه بين اقداح ونقل • فالنقلة تغرى بالقدح ، والقدح يستدعي النقلة ، وهكذا دواليك حتى تستخفه نشوة الطرب وتتلاعب بنفسه ولبه" (٢)

واليك مختارات من هذه النقلات :

اختار نقلة لغوية بعنوان (أمسلم هو ؟) :

" في لسان الميزان : مما يذكر من سرعة جواب المتنبي وقوة استحضاره أنه حضر مجلس الوزير ابن خنزابه وفيه أبو علي الاموى الاديب المشهور فأنشد المتنبي ابياتا جاء فيها : انما التهنئات للأكفاء ...

فقال ابو علي : التهنئة مصدر ، والمصدر لا يجمع .. فقال المتنبي لاخر بجنبه : امسلم هو ؟ فقال : سبحان الله ! هذا استاذ الجماعة ابو علي الآمدى • قال : فاذا صلى المسلم وتشهد أليس يقول (التحيات) ؟ قال : فجن ابو علي وقام •" (٣)

---

(١) مقدمة كتاب نقل الاديب للدكتور اسحق الحسيني ص ١٢ ـ ١٣ (٢) من دباجة الكتاب (نقل الاديب) جمع الدكتور اسحق موسى الحسيني ص ١٥ ـ ١٦ (٣) (نقل الاديب) جمع الدكتور اسحق موسى الحسيني ص ١٨

ونقلة أخرى لغوية بعنوان : (لا ندعه يبرد) جاء فيها : "قيل لاعرابي : ما تسمّون المرق ؟ قال : السخين . قال : فاذا برد ؟ قال : لا ندعه يبرد " (١)

ونقلة اخرى اجتماعية فكهة بعنوان (طلبناه في النهار فما وجدنـــاه)

" دخل اللصوص على ابي بكر الدبابي يطلبون شيئا فرآهم يدورون في البيت فقال : يا فتيان ، هذا الذى تطلبونه في الليل قد طلبناه في النهار فما وجدناه " (٢)

ونقلة اخرى اجتماعية فكهة بعنوان : (أنت اسد فاطلب لنفسك لبوه) :

"قال المفضل بن محمد الضبي : حدثنا بعض اصحابنا أن جارية لأميه بن عبد الله ابن خالد ابن أسيد ذات ظرف وجمال ومرّت برجل من بني سعد ـ وكان شجاعا فارسا ـ فلما رآها قال : طوبى لمن كان له امرأة مثلك ، ثم انه اتبعها رسولا يسألها : الها زوج ، ويذكره لها . فقالت للرسول : ما حرفته ؟ فأبلغه الرسول قولها ، فقال : ارجع اليها فقل لها :

وسائلة ما حرفتي تلت حرفتي   مقارعة الابطال في كل شارق

اذا عرضت لي الخيل يوما رأيتني   أمام رعيل الخيل أحمي حقائقي

وأصبر نفسي حين لا حرّ صابر   على ألم البيض الرقاق البوارق

فأنشدها الرسول ما قال ، فقالت : ارجع اليه وقل له : أنت اسد فأطلب لنفسك لبوة ، فلست من نسائك !" (٣)

بهذا الذوق الممتع كان اسعاف يجذب القرّاء ويشوقّهم ويحملهم علـــى ترقب صدور (الرسالة) ليتلقفوا (نقل الاديب) فيها !

تلك هي الادوار الاخيرة التي مرت بها المدرستان السكاكينيه والنشاشيبيه في حياة النثر الفني !

ويطلع علينا في هذه المرحلة أديب باحث رسخ في نفسه خلق الباحثين المدققين الامينين في تتبع القضايا الادبية والفكرية ، ورث عن اساتذته المستشرقين صبرهم وجلدهم في البحث وطول أناتهم ودقتهم وانصرف عن نوايا بعضهم المغرضة .. وكان من المعجبين بمدرسة السكاكيني في النثر ويكاد يحذو حذوها مع تغليـــب الفكر على الحس في احيان كثيرة ...

وجدانه حساس ، يكتب فتحس فيما يكتب منطق العقل وأناة الفكر . حتى تكاد تخدع عن وهج الوجدان والشعور المتأجج في التيارات التحتيه التي تمد ذلك السطح الشكلي من التعبير .... مع أن الذى يثيره للكتابة ليس الا حرارة الحس ووهج الوجدان ... لكنه تمكن ببراعته من اخفاء تلك الحمى في حسه ووجدانه ...

---

(١) نقل الاديب ص ١٨ (٢) نقل الاديب ص ١٣٤ (٣) نقل الاديب ص ١٣٥ .

واسع الافق انساني كبير يدعو الى حل المشاكل عن طريق الحب ...
لسانه وقلمه لسان أديب ونفسه وقلبه نفس فيلسوف وقلب متسامح كبير .

تحسّ احيانا بانفراد في كتابته يجنح به الى التأملات الفردية المنعزلة والى استبطان نفسه كثيرا والمضي في اغوارها حتى ليكاد هذا التغلغل أن يقطع عليه الروابط والعلاقات التي تربط نفسه بما يحيط بها ... وهذا لا قبل لكتاب المثالية بتجنب الانزلاق فيه ولا مناص لهم من الوقوع في منحدراته بين حين وآخر مهما يتخذوا من حيطة ومهما يبذلوا من احتراس! هذا الاديب الباحث هو الدكتور اسحق موسى الحسيني (١)

وقد كان من نصيب هذه المرحلة لهذا الاديب :

(علماء المشرقيات في انكلترا) ، و (مذكرات دجاجة) و (عودة السفينه) و (هل الادباء بشر) ....

اما (مذكرات دجاجة) فنرجىء الحديث فيه الى فصل القصة .. واما (علماء المشرقيات) فهو دراسة وبحث اكثر منه نثرا فنيا .. ولهذا سنختار أمثلتنا من (عودة السفينة) ومن (هل الادباء بشر) :

---

(١) مؤلفات الدكتور اسحق موسى الحسيني :

١) رأي في تدريس اللغة العربية / القدس ١٩٣٧
٢) علماء الشرقيات في انكلترا / القدس ١٩٤٠
٣) مذكرات دجاجة / القاهرة ١٩٤٣
٤) العروض السهل / بالاشتراك مع الاستاذ فائز الغول / القدس ١٩٤٥
٥) فن انشاد الشعر العربي / مترجم عن الفرنسية بالاشتراك مع الاب اسطفان سالم / القدس ١٩٤٥
٦) عودة السفينة / القدس ١٩٤٥
٧) اساليب تدريس اللغة العربيه / القدس ١٩٤٧
٨) هل الادباء بشر / بيروت ١٩٥٠
٩) الاخوان المسلمون / بيروت ١٩٥٢
١٠) الاسلام في نظر الغرب / ترجمة / بيروت ١٩٥٣
١١) أزمة الفكر العربي / بيروت ١٩٥٤
١٢) رسالة باللغة الانكليزية حصل بها على درجة الدكتوراه في الاداب وهي عن (ابن قتيبه) مطبوعه باللغه الانكليزيه !

في مقدمته لكتاب عودة السفينة يقول :

"... نحن نؤمن بكفايات الامم جميعها دون تمييز ، وبأن كل أمة تستطيع أن تمر في ادوار الحضارة ، ان تيسرت لها الاسباب ، وهذا الايمان يدعو الى الاعتراف بالحق والتنزه عن الدعاوى الباطلة " (١)

والدكتور متفائل حتى في احلك الشدائد :

"... فاذا فطن الناس لطبيعة الشدائد وعلموا أنها محن تبتلى بها الامم كما تبتلى السفن بالاعاصير ، وانها مدعاة لاثارة قواهم ، وايقاظ مشاعرهم وتكاتف جهودهم ، خرجوا من العسر الى اليسر ، كما يخرج ركاب السفينة الى شاطئ السلامة .. واقل ما في مذهب المتفائلين أنه ينفع ولا يضر ، في حين أن مذهب المتشائمين يضر ولا ينفع وليس هناك ادنى ريب في أنه خير لركاب السفينة التي تبتلى بالعواصف العاتية أن يدفعوا الموت بكل ما يملكون من قوة وايمان وسعي .." (٢)

وحين يتلمس دليلا على وعي الشباب يقول :

" كلفني نادي الشبيبة الاسلامية في يافا — وهو ناد يصح أن ينهض بنفسه دليلا على الوعي — أن اتحدث اليه في موضوع اختاره . وبدا لي أن اخير النادي بين ثلاثة احاديث : الاول ادبي محض . والثاني ثقافي محض . والثالث اجتماعي محض . وهو ذو صلة وثيقة بهذا الذي اكتبه . فتخير الحديث الثالث فتوكد في نفسي أن الشباب واع وأنه يبحث عن سبيل العودة الى شاطئ السلامة"(٣)

والدكتور يؤمن بالمجموع ويقدمه على الفرد :

" اول درس يجب أن يراجع هو أن المجموع مقدم على الفرد ، وأن على الفرد أن يرعى حرمة المجموع ويصونها من كل عبث ، وأن يجعل من نفسه دعامة قوية لبناء الامة ...... فترى شخصا يطول ويعرض حتى ليصبح في شكل عملاق في حين يبدو من حوله هزالا كالاشباح او قصارا كالاقزام . وان تعرضت مصلحته الشخصية للعطب ثار وزمجر حتى تحسبه أسدا ، وان تعرضت مصلحة المجموع للعطب استكان واستخذى حتى تحسبه هرا او دون الهر ... لقد مضت علينا قرون وهذا الكائن المعنوى العام مفقود او في حكم المفقود . لأن نظام الحياة كان قائما على تقديس الحقوق الفردية واهمال الواجبات الاجتماعية ! " (٤) .

---

(١) عودة السفينة ص ٧ (٢) عودة السفينة ص ١١ (٣)عودة السفينة ص ١٥
(٤) عودة السفينة ص ١٩ .

ثم يؤمن بحقوق المرأة :

" اننا لن نكوّن امة ، ولن تخرج السفينة الى شاطيء السلامة الا اذا مارست المرأة حقوقها الطبيعية كاملة ، وعالجنا مشاكلها باعتبارها مخلوقا كريما علينا ، ووضعناها في الموضع الذى ينبغي ان تكون فيه ، وهو موضع (الام) الغالية وموضع (الامة) الرفيعة الشأن "(١) ..

ويدرك الرابطة المؤثرة المتأثرة بين الكتّاب وقرائهم فيقول " اذا اردنا أن نكوّن أمة تحيا حياة عقلية راقية لا بد لنا من نشر التعليم في جميع البيئات ، في المدن والقرى ومضارب البدو ، لتجتمع الامة الواحدة على وحدة التفكير ، ووحدة الثقافة وليظهر بيننا كتاب ومؤلفون يخلقهم قراؤهم في بيئتهم التي يعيشون فيها "(٢)

والدكتور من دعاة دعم البيان بالفكر وهو الطابع الذى اشرنا اليه في المراحل المتأخره من حياة الشعر وحياة النثر :

" .. ولكنا بحكم تراثنا القديم ، وبحكم تجاربنا الماضية ، نفرّط في العناية بالفكر والفن اللذين هما قوام العبارة . ولذلك لا بد من دعم البيان بالفكر حتى يتزن أدبنا .. " (٣)

وفي كتابه " علماء المشرقيات في انكلترا " (٤) يظهر اعجابه الشديد بمناهج علماء المشرقيات فيقول :

" .. اول ميزة استرعت عنايتي وأثارت اعجابي وافتقدتها في جل مؤلفاتنا الحديثة ، هي عمق الثقافة وسعتها ، لقد كنت اتوهم من قبل — أن الموضوعات الادبية منفصلة عن الموضوعات العلمية ، وأن الاديب هو من يحسن صوغ الكلام ويفتن القراء بمتانة سبكه وجزالة لفظه وروعة بيانه . ثم تبين لي — بعد — اني مخطيء وما عرفت خطئي الا بعد أن درست على اولئك الاساتذة : كنت أقرأ النص الادبي على الاستاذ متباهيا بمعرفتي مغترا بسليقتي فما يرد اسم نبات او شجر او طير او حيوان او مكان حتى اقف ، ويتناهى علمي . وما اكثر ما كانت ترد هذه الاسماء في النصوص العربيه القديمه لظهور الادب في الصحراء ، وتكوّن البيان — بمعناه الفني — من العناصر الصحراوية ، وحرص النقاد والادباء على الاحتفاظ بالروح الصحراوية والتأثر بالادب الصحراوى لفظا ومعنى ، في جميع العصور الادبيه ...

كنت عند ورود تلك الاسماء اجد من علم استاذى ما يبصرني بعيوبي ويفتح عيني على نواح جديدة ويرشدني الى طرائق البحث الجديدة ...

---

(١) عودة السفينة ص ٣٤ (٢) عودة السفينة ص ٤١ (٣) عودة السفينة ص ٤٢

(٤) علماء المشرقيات ص ٢٢ — ٣٠ .

ما أنسى يوما زرت فيه الاستاذ جب في بيته في الريف ... فقادني الى بستانه الى بستانه واخذ يسمى الازهار ، زهرة زهره ، فهذه زهرة انكليزية لا تعرفها التربة الشرقيه ، وتلك زهرة تنبت في الشام ، وتلك رآها في فلسطين وتلك تزرع في الصيف وهذه تزهر في الربيع . تولاني العجب يومئذ من معرفة الاستاذ الواسعة لموضوع ما خطر ببالي أنه يعني به ، وقلت له : ألك عناية بعلم النبات ؟ قال : لا ، ولكن ازهارنا نعرفها منذ الطفوله ، وازهاركم رأيتها في بلادكم في اثناء زيارتي فعرفت ما تنبت تربتكم بالمقابلة والمعارضة .... ورأيت من استاذى الدكتور ترتن مثل ذلك . كنا في صيف عام في رحله الى تدمر — وقد قصدها الاستاذ من لندن — وفي اثناء الطريق كان الاستاذ اذا لمح سربا من الطير يقول : انظر ، انها كذا وكذا باسمها الاوروبي والعربي . واجتمعنا في لبنان فكان يسمي الازهار والاشجار والازهار بأسمائها ويذكر ما ينبت منها في بلاده وما هو خاص بالتربة اللبنانية .... رحم الله الاستاذ برجشترسر G. Bergestresser لقد اخبرني أنه استمع الى القرآن الكريم من مقرئ مشهور في القاهره فأحب أن يسجل تلحينه فذهب اليه ودون انغامه بالرموز الموسيقيه (النوط) وهذا ما فعله قبله العلامه (لين) في كتابه (آداب وعادات المصريين المحدثين) فانه دون الاغاني العامية بلفظها العربي وارد ف بالترجمة الانكليزية فالرموز الموسيقية ...

... وبينما كان استاذى أنو لتمان Enno Littman يترجم (الحداويت) العاميه التي جمعها في فلسطين ونشرها في اميركا ، اذ عثر على اسماء اقمشة متنوعة ، فأحضر النصوص ، وسألني : ما البفت / وما اليمنى / وما المالطي / وما المنصورى/ فأسقط في يدى لانني ما انتبهت يوما الى فحص هذه الاقمشة . وما دريت في صباى ان معرفة هذه الامور هي العلم بعينه . وادرك الاستاذ ارتباكي فقال : ما عليك ! اكتب الى اهلك وأحضر لي نماذج منها ، وانا افحصها هنا مع زوجي ، ففعلت ، واستفدت ما لا انسى ..

الدكتور يرى أن الادب خلاصة وزبدة ينتج عن الغليان في اعماق الفكر حين تزدهر الثقافة وينتشر العمران :

" ومتى ظهر القراء المثقفون ، واستفحل العمران ، وحدث الغليان في اعماق الفكر ، تكونت الزبدة التي نسميها أدبا . وقد ينبت الادب في عقل الرياضي او الفيلسوف او الطبيب ." (١)

والدكتور يدرك أن عوامل القلق في مجتمعنا منشأها حياتنا الاقتصاديسة القلقة ... ويدرك أن الاستقلال السياسي او الاجتماعي او الثقافي لا وجود له مع فقدان الاستقلال الاقتصادى " (٢)

---

(١) عودة السفينة ص ٤٢ (٢) عودة السفينة ص ٤٥ .

ويخلص الى أن "الاخلاق ملامح اجتماعية تكونها وتكيفها طبيعة البيئة ونظم الحكم والصنائع التي يتخذها السواد ، والثقافة ، والتاريخ بما يشمل من ايام سوداء وبيضاء .." (١)

واخيرا ينادى بالحرية الفكرية :

" واخيرا لنقدس الحرية الفكرية ولنستمع الى الناس كما نحب أن يستمع الينا الناس . لنأخذ ونعطي .. ولتجمعنا الافاق البعيدة التي تستطع فيها نجوم الخير والعدل وحب الوطن !" (٢)

وموقفه من الحضارة الاوروبية كموقف الكتاب الايجابيين في هذه المرحلة :

" اننا لن نلقى على الماضي الا نظرة واحدة . اما المستقبل فله منا نظرتان . واننا لنعلم أن الوقت لا ينتظرنا حتى نبدأ من حيث انتهى آباؤنا . ولا من حيث ابتدأت الامم الراقيه . سنبدأ من حيث انتهت . وسنأخذ من كل جديد نهايته . وسنغرف من الحضارة الاوروبية ما يطلق مواهبنا الى غاياتها ، وما يبعث في تراثنا حياة جديدة ." (٣)

ويؤمن بالتقدم في سير التاريخ :

" ان التاريخ لم ينته .. انه سائر في طريقه .. وسيبقى سائرا ما بقيت الحياة على وجه الارض ... " (٤)

ثم يختم الكتيب بقوله :

" علينا أن نصون السفينة من العطب ومن ادعاء من يدعي أن له حقا في ثقب الجزء الذى يملكه منها ، وأن نعمل بجد وحزم وتعاون معتمدين على انفسنا اولا وعلى جوارنا ثانيا وعلى عالم الخير والعدل الذى تتمخض عنه الايام ثالثا .. اجل : اننا سنعود الى القمة حيث كنا .. وستعود السفينة الى شاطئ السلامة باسم الله مجراها ومرساها .. فكن أنت ، نعم انت من البحارة الذين يصونون السفينة ويدفعونها بعرقهم وحزمهم في وسط البحر المائج والاعاصير العاتيه الى الشاطئ لا تقل : ليتقدم غيرى . اذا قلت هذا سيقوله غيرك . واذا قاله غيرك فلن يعمل احد واذا قلت : سأتقدم أنا .. سمعت أصواتا تنبعث من كل جانب : سأتقدم انا ، سأتقدم انا .. كأنها اصداء تتجاوب في اعماق الاودية . وعندئذ تتوحد القوى المبعثرة ، وتتضافر الهمم المتفرقة ، وتبلغ السفينة شاطئ السلامة باذن الله وعونه." (٥)

---

(١) عودة السفينة ص ٥٦ (٢) عودة السفينة ص ٦٢ (٣) عودة السفينة ص ٦٨
(٤) عودة السفينة ص ٧٠ (٥) عودة السفينة ص ٧٠ - ٧١ .

بهذه الافاق الواسعة ، وهذا الاحساس بالمسؤليه يتقدم الدكتور اسحق ليمين مجتمعه على المضي في الطريق الى الامام وهذا هو الدور الذى يقوم به النثر في هذه المرحلة من حياة الوطن !

اما كتابه الاخر (هل الادباء بشر) فهو مجموعة فصول في الادب كتبت في اوقات مختلفة سبقت النكبة ، ثم جمعها الدكتور وطبعها في بيروت .. وقد اطلق عليها عنوان الموضوع الاول .. وقد احس الدكتور بواجبه ازاء وطنه فدعاه هذا الواجب الى ايراد فصلين في الكتاب : احدهما يتناول الادباء في فلسطين من قديم الزمان الى الوقت الحاضر لاثبات الاصالة الادبيه في الوطن الغالي .. والثاني يترجم لاديب العربية استاذه اسعاف النشاشيبي .. (١)

يقول الدكتور في موضوعه الاول :

" احقا ـ عباد الله ـ أن الادباء ليسوا بشرا ؟ احقا أنهم في منجى عن مرمى العيون القاتلة ؟ ان كان ذلك كذلك فلنحكم على الادب الحديث أنه ادب هزيل متكلف ، بعيد عن التحدث عن سرائر النفوس ، وبعيد عن الكشف عن خفايا القلوب ، وبعيد عن تصوير النفس الانسانية وهي تتقلب على مثل الجمر ، وتشوى كما يشوى لحم الخراف .. وأقول اكثر من هذا صادقا : بعيد عن الادب الحق ." (٢)

ومن ابرع الصور الادبية التي رسمها الدكتور في هذا الكتاب صورة الصّلف ..

" شاهدت شيئا يسمونه الصلف في نفر من خلق الله ، فنفرت منه اشدّ نفور ، وكرهت هذا الخلق ... وفي الوقت نفسه ظهر فيّ ميل شديد الى التواضع الى ابعد حد يمكن أن تتصوره .. ولولا عيون الناس لخلعت البستي ووضعت على ظهرى بردعة الحمال او اطمار الدرويش الحق وضربت في الريف على غير هدى ، حتى ينساني الناس وانسى انا نفسي ... وفي هذه الحالة النفسيه مرّ ببالي خاطر كلمح البرق ... وكنت في تلك الفترة أجلس في غرفة يشاركني فيها اثنان ، كل منهما منصرف الى عمله ، لا يدرى ما يدور في هذا الرأس الصغير المجاور له .. وفي لحظة دب في جسمي شعور عجيب اشبه بالحمى التي تنتاب الجسم من اعلى الرأس الى أخمص اخمص القدمين ، وشعرت فعلا بارتفاع خفيف في حرارة جسمي ، ونهضت قليلا من مقعدى ، وسويت جلستي وانتصب ظهرى ، وتوترت عروق عنقي ، وارتفع رأسي ، وشعرت بثقل يتجمع في اعلى الدماغ ويؤثر في حركته ، وادرت رأسي نحو من يجلس الى يميني فاذا بي اراه صغيرا قليل الشأن ، وما هو كذلك ، فاستعذت بالله ! وادرته يسارا فاذا بي أرى من يجلس الى يسارى صغيرا وضيعا كصاحبه ، وما هو كذلك ، ونظرت امامي ورحت افكر فيما اصابني ،

---

(١) انظر مقدمة كتاب (هل الادباء بشر ؟) ص ٥ ـ ٦ (٢) (هل الادباء بشر) ص ٨ـ٩

لقد بدا لي صاحباى على هذه الحال لان ارتفاع رأسي عن مستواه العلوى غيّر الزاوية التي أنظر منها ، فبدا المنظور مخالفا لما اعتدت أن اراه ، والمرئيات تختلف اشكالها باختلاف الناحية التي يصوب منها النظر اليها .. ولكني قلت : ولم اختلفت طبيعة المرئي ؟ لم هذا الصغار الذى اجده في هذين الرجلين وهما بريئان منه ؟ وادركت يا عزيزى ، فورا أني مصاب بالصلف ، وأن الفكرة التي جالت بخاطرى قد تحققت بالتآمر بين عقلي الباطن وشعورى الباطن .. ورفعت يدى الى موضع الشاربين اريد أن افتلهما وارفع طرفيهما الى اعلى ليشبها شاربي عنترة بن شداد ، كما تصوره الصور الشعبيه ، ولكن يدى وقعت على مثل الشواك القصير ، وندمت لأني لم اطلق شاربيّ ولم اشذبهما ولم اعالجهما بالزيوت ! ... (١) ويمضي في رسم الصورة ويمعن في جزئياتها ويتقن الوانها ويحسن عرضها في الحياة الاجتماعيه ! ونحن نرى جنوحا في هذا التيار الى التحليل النفسي والمضي الى الشعور الباطن والعقل الباطن .. وهذا خلاف التيار المادى الذى اشرنا اليه ...

ولعلّ خير ما يوضح هذا التيار تيار الاستبطان الذى تجنح اليه البرجوازية في تعبيرها احيانا (الهيات) (٢) الدكتور اسحق موسى الحسيني وهي أشبه بتأملات صوفيه :

" يا الــهي !.. أرى عشرائي نوعين : نوعا يفتق حديثه ذهني ، ويلهمني ويوسع آفاقي ، ونوعا يسد حديثه عليّ ابواب الفكر ويضيّق آفاقي ، ولا يلهمني شيئا .. يا الــهي ، اذا كنت من الفريق الثاني ، فيا لضياع عمرى ! .... يا الهي ! تحدثت ثم تأملت فيما تحدثت ، فوجدت جزءا منه مدحا لنفسي ، وجزءا اتعالى فيه على محدثي وجزءا أزين فيه بياني ، والباقي جوهر الحديث . وعندئذ صغر حديثي في عيني وعزمت أن اصمت واتكلم قليلا ! ... يا الهي ! ... ان اقسى عقاب تنزله بالانسان ان يسرد عليك أفعاله وعيناه في عينيك ! ... يا الهي ! دانني والدى فدنت ولدى ! وسيدين ولدى حفيدى ، وحفيدى ولده الى نهاية الذريه . فمتى ، يا الهي ، نرتقي بدلا من ان ننحدر ، فأدين والدى ، ويدينني ولدى ، ويدين حفيدى ولدى ؟!..
يا الهي ! ان الارض وطن الناس جميعا ، اما وطن الفرد فمحمول على منكبيه ! ...
يا الهي ! اشكو اليك ضعفي .. اني اهجم على لجة البحر ، متحديا ، مصاولا ، ولكنني اغرق في ملء ملعقتين ماء ! يا الهي ! اغفر لي ...

يا الهي ! فكرت أن ابرأ من بني قومي ، فوجدت أني أبرأ من نفسي ، وعندئذ عزمت على أن احمل ذنوبهم بشجاعة . ! "

---

(١) (هل الادباء بشر) ص ٥٥ ــ ٦٢ (٢) الاديب / السنة الحادية عشرة / الجزء الاول ص ١٤ .

تلك هي الافاق التي جالت فيها هذه المدرسة في هذه المرحلة من حياة النثر ...

اما التيارات الاخرى كتيار الادب الاشتراكي او المدرسة المادية التي اشرنا اليها سابقا فما زال يحمل بعض الكتاب فؤوسهم ليشقوا له طريقه ، فحين تسأل (مجلة الطريق) عن الدور الذى يستطيع الادب ان يمثله في نهضتنا القوميـــة ، يجيب الاستاذ محمود سيف الدين الايراني قائلا : (١)

"... وانا وان كنت اعتقد بانسانية الادب ، فانني أرى انه - في ظروف معينه - يجب أن يكون حافزا قويا من حوافز الدفع والتحريك ، او على الاصح ان يكون الحفز والتحريك ، من طريق مباشر او غير مباشر ، من اغراضه .. فنحن مثلا بحاجة الى أن نفهم القومية فهما صحيحا ، فما يزال فهمنا اياها ناقصا او مشوها او مغلوطا في احيان كثيرة ، حتى اننا لا نفهم احيانا اكثر من مدلول الكلمة اللفظي مكتفين بما يثيره فينا من شعور بدائي ساذج فنطرب لما لا نفهم ونضج ونتشي دون ما وعي او ادراك ، وحتى الذين يفهمون القوميه فينا فهما قريبا من الصحة في حدود الكرامـــة والتحرر والنهوض واستكمال اسباب النقص في النواحي الاجتماعيه والعلميه والسيـــاسية حتى هؤلاء بحاجة الى التسامح واطراح ما يشوب فهمهم وتفكيرهم من شوائب التعصب بل والاسراف في هذا التعصب الى حد مؤسف حقا ! والادب الادب الصحيح الواعي - يستطيع أن يفعل الشيء الكثير عن طريق الايحاء ، على أن يقوم المفكرون والباحثون - من غير الادباء - بحظهم الكبير في التوجيه السليم النظيف ... الا أن هذا كلـــه اذا لم يؤد" في آخر الامر الى تأييد الاتجاه الانساني السامي ، واعتبار القوميـــات جميعا دعائم قويه وركائز متينه يقوم عليها بناء الانسانيه وصرحها الممرد .. فلا خير فيه ... " وكما وجد التيار المادى في النثر من يشق له سبيله حتى لا ينقطع عن السير كذلك نجد تيار الادب الخيالي ينضم اليه كتاب جدد .. كالكاتبه نجوى قعوار من الناصرة التي تخاطب (الفراشة الحائرة) (٢)

"... كقنديل ملون سابح في الرياض ...

... أمي رسول مجاهد حملته الرسالة هائما لا يستقر ولا يهدأ

... أم رسول من رسل الجمال ....

... ولكن مالك حيرى ، مضطربة ، يزيدك الارتواء ظمأ ....

... والتجوال حنينا الى التجوال ....

... فرّي يا عروس الرياض ، فلن يهدأ مضجعك بعد ..

... فالجمال آلهة راهبة تستنزف قوتنا وتمعن في اغرائنا فاذا نحن صرعى ولما نبلغ غاية ..

---

(١) الطريق / مجلد ٢ / جزء ٧ ١٩٤٣ ص ٧ - ٨ (٢) الادب السنة ٦ / جزء٧ ص ١٥

... هل انت الا كاهنة حسناء تؤدى مراسيم العبادة في هيكل الذكرى الحزين ... !"

ثم ينضم الى هذا التيار الخيالي الاديب الكاتب مصطفى درويش الدباغ في كتابه (وحي الشاطيء) ... وهو مجموعة مقالات أدبية ونقدية واجتماعية وفكاهيه كتبها قبل حلول النكبة ثم جمعها وطبعها بعد النكبة ..

" .. لقد استغرق الشابان في حديثهما ، واستعرضا ذكريات الامس وعاشا في متحفه البهيج ... ثم دلفا الى خارج المكان فاذا بوحشة غريبة تمسّ نفسيهما مسّاً عنيفا وارتد الحاضر في يده معول ليجتث الذكريات القديمة ويبتلعها فانسرب الامس الى عالم الابد الى عالم النفس السحيق مختفيا عن العيون والانظار يشيعانه بنظرات ساخرة وعيون تقذف الشرار ، وبكآبة خرساء تضفي على الليل اشجانا فوق اشجان " (١)

ثم نحس قلقه وجزعه من المصير الذى يسوق اليه الانقلاب الصناعي فيقول : " الريف جميل : فيه حياة مائجة ، فهو أمنا التي اسلمتنا الى أخوان هذا الاجتماع والامه .. لقد انفلتنا من حضنها مؤثرين التشريد ، والاندفاع وراء صناعيه لا يصرخ الحب في قلبها ولا الصفو في حسها !

فيا ايها الانسان الذى يقتات من همومه وأشجانه ، ويا ايها الانسان الذى عضك الاس بنابه ، فتقلبت على حجره ولهبه ، عد الى امك الطبيعة الحنون وبثها همومك وأشجانك صامتا ، وصل في محرابها الوسيع الفسيح مطلقا أساك بخورا في بيعتها المقدسة فتتبخر اشجانك . فان فيها العزاء من الالام الانسانيه وطلوعها وبثورها الجنينه .... الى الريف الجميل فان فيه سلوى المحزون وهدر العاشق وان فيه الشفاء من السقام ! "

وفي هذه المرحلة بدأت اسمى طوبي (احاديثها) وفيها : رجل وامة (٢) وفي هذا الحديث حرارة الرومانتيكية الجامحه ... والايمان المتطرف بالفرد الذى ينقذ المجموع ...

" عندما يدلهم الظلام يخرج مع الفجر رجل واحد يحمل مشعل النور فهل اقفرت بلادى من رجل ؟ .. رجل واحد ! " الا ان الكاتبة اسمى طوبي ستدفع بها حرارتها العاطفية تلك . وخيالها الادبي الجامح الى اتخاذ السبيل الايجابية في تيار الادب الخيالي ، وتظهر هذه الايجابيه في ما كتبته فيما بعد من احاديث ظهرت لها بعد النكبة .

---

(١) وحي الشاطيء ص ١١ — ١٢ (٢) نشر في (كل شيء) بيروت في تموز / ١٩٤٥ وهو في مجموعتها " احاديث من القلب " التي طبعتها مؤخرا .

وهكذا لم تنقطع التيارات الكبيرة عن الانطلاق ولا الروافد الصغيرة عن السيل ٠٠ وانما مضت جميعها كل في طريقه الذى هيأته له الظروف !

اما تيار الخطابة فقد مضى قويا في هذه المرحلة ، واحس الناس بحاجتهم اليها ، واليك أنموذجا يبين هذا الاحساس بهذه الحاجة :

"لم يمر بالامة العربية زمان كانت فيه احوج الى الخطابة منها اليوم ، ولو استطعنا لاقتصرنا من كل الدروس على الخطابه ، ولجعلنا كل طلابنا خطباء مردة يضربون في الافاق يخطبون في الاسواق ، في القهوات ، في الحدائق ، في الحقول ٠٠٠ ٠٠ الا ايها النوام ويحكم هبوا !٠٠٠٠ انما نحتاج الى خطباء يخلقون الامة خلقا جديد !٠٠٠٠ ايها الخطباء :

الامة ليست في حاجة الى التواضع ، فعلموها الكبرياء ٠٠٠ ليست في حاجة الى الحلم فعلموها أن الجهل خير من الحلم اذا اتسعت في الحلم طرق المظالم ٠٠ ليست في حاجة الى الرفق وسعة البال ، فعلموها أن تكون نزقه تقاتل خيالها اذا لم تجد من تقاتله ٠٠ (١)

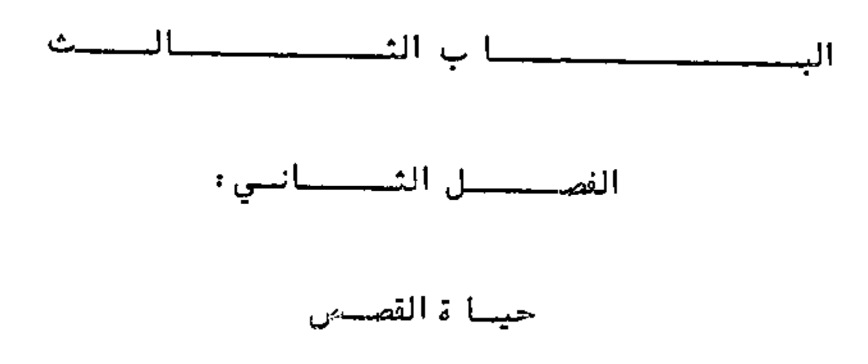
ثم انتقل المحدثون البارعون أمثال الشيخ خليل الخالدى من مجال المجالس الادبيه الى استوديوهات الاذاعة ٠٠ وكان من ابرع المتحدثين وراء الميكروفون الاستاذ عجاج نويهض والاستاذ خليل بيدس ٠٠

وقد كانت الاذاعة منبرا لكتاب هذه المرحلة من حياة البلاد وادبائها وعلمائها ٠

وبذلك نطوى سجل هذه المرحلة من حياة النثر في هذا القطر العزيز !

---

(١) انظر الخطبة التي القاها الاستاذ خليل السكاكيني في حفلة توزيع الشهادات على خريجي كلية النهضة في نادى جمعية الشبان المسيحيه بالقدس / في ٣٠/ ٦/ ١٩٤٤ (ما تيسر / الجزء الثاني / ص ١٠٠ ــ ١١٠)



الباب الثالث

الفصل الثاني :

حياة القصص

المـــــــرحلـة الاولـــــى :

كانت المرحلة الاولى من حياة الادب في فلسطين تشتمل على الفترة الممتدة ما بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر وسنة اعلان الدستور اى من حوالي ١٨٥٠ حتى عام ١٩٠٨ .. وقد المعنا بظروف هذه المرحلة الاقتصاديه والسياسيه والاجتماعية والفكرية في الفصول السابقة وقد رأينا أن تلك المرحلة لم تكن خالية من بذور ذات دلالة في الشعر والنثر الفني ...

ومن حسن الحظ أن نجد بعض الاخبار المتناثرة هنا وهناك عـــن القصص في هذه المرحلة وان اعوزنا الظفر بالاثار القصصية جميعها ... ومن هذه الاخبار نستطيع أن نتلمس طبيعة هذا القصص في منشئه في اوائل هذه المرحله ...

والقصص ألصق ما يكون بالسواد الاعظم من كل امة ... ولايخلو منـــه المجتمع في أى دور من ادوار حياته .. حتى حينما يكون في دور الامية.. فسكان بلدة سلفيت مثلا القريبه من مدينة نابلس الذين يقل عددهم عن الالفين في هـــذه المرحلة لا تجد بينهم أكثر من شخصين "يقفان على اللغة الفصحى في العـــربية... ويقال أن في القدس شيخا سلفيتيا واحدا له عدة مدائح وغزليات منظومة ولكنهـــا غير مطبوعة "

ومع ذلك "لايقرأ شيء من آثار الاقدمين في سلفيت سوى سلسلـــــة حكايات (قصص بني هلال) الحماسية ، فيجتمع الرجال مساء في محل واحد ويأخذ واحد منهم يقرأ ويسمع له الاخرون .. ويتعقبون بهياج وتأثر كبير اخبار الحروب التي وقعت بين الامير (رزق) وأبي زيد ... والسبب في اقبال أهالي سلفيت علـــى (قصص بني هلال) أنه جيء بهذه القصة الى سلفيت فقرأها الاهلون فأعجبتهـــم لانها جاءت موافقة لاذواقهم ... ... وعلاوة على ذلك فان للسلفيتيين قصصـــا وحكايات ليليه تسمى (حدوته) وهي لا تتعدى وقائع العشق والخوف والشجـــاعة.. ومصدر هذه الحكايات الاساطير القديمه ... ولكنهم أضافوا عليها بمرور الزمـــان قسما من المواضيع الشخصيه وحوادث سلفيت الخصوصية .... ويمكننا ان نعتبر كتاب (الف ليلة وليله) من جملة المآخذ الخرافية التي يعتمد عليها في (الحدوته).. ويقال ان شيوخ القصبة يستفيدون من هذه الحكايات لتربية اخلاق الشبان فيها."(١)

ويقول الشيخ ابراهيم الدباغ في هذا المجال :

---

(١) ولاية بيروت / القسم الجنوبي ص ١٠٠

"... وقد قرأت وانا صغير قصة (عنتر) ثلاث مرات لجدى السيد عبد القادر الدباغ رحمه الله ، وقرأت الظاهر بيبرس ، وألف ليلة وليلة لجدى المرحوم سعيد الشرقاوى ، فمررت بأعاجيبها ، واكاذيبها ، وآمنت بخرافاتها وأساطيرها ، ولم اجد بعدها في عجائب الدنيا شيئا يذكر .." (١)

من ذلك نرى ارتباط القصص بالعامة لانها اسلوب من اساليب رواية التاريخ لديهم حيث يزجون فيها "بأصداء حياتهم ووقائعها .. ويبرزون فيها ما يريدون ، ويخلدون بها النماذج والشخصيات والوقائع التي تمثل حاجة في مجتمعهم ."(٢)

والقصص سواء في بنائها او في عرضها تتصل بدائرة أكثر اتساعا من الدائرة التي يتصل بها الشعر الغنائي والنثر الفني .. وهي تصور قطاعا اوسع في الحياة... ومن هنا كانت أبعادها اطول وكان أثرها في المجتمع أشد خطورة ..

" وقد ظهرت الرواية في الشرق بالصورة التي نعرفها الان منذ عهد طويل ، واقبل أدباؤنا على الترجمة اقبالا عجيبا ولم يتصد للتأليف ، وخصوصا تأليف الروايات الكبيرة الا النفر القليل " (٣)

" والقصة في الادب الحديث في فلسطين لها تاريخ طويل .. يكاد - في نشأته - يواكب نشأة هذا الفن في لبنان ومصر ، او بعدهما قليلا .." (٤)

ومن الاخبار المتناثرة عن حياة القصص في فلسطين خبر ورد في ترجمة الشاعر محمد بن الشيخ احمد التميمي ، واصله من مدينة الخليل ، وهو مولود في سنة ١٨٢٤ ، يقول : " .. وهو اول من أبرز رواية بالعربية وسماها (أم حكيم) ..." (٥) ولعل صلته بمصر أن تكون قد يسرت له ولوج هذا الباب !

ومن الاخبار التي تبين نشأة هذا الفن في فلسطين في وقت لم يتأخر بزمن طويل عن نشأته في سائر البلاد الشقيقة ما جاء في تاريخ الاداب العربيه للاب لويس شيخو في ترجمة ميخائيل بن جرجس عورا . :

"... مولود في عكا سنة ١٨٥٥ ومات في نابلس .. ومن آثاره روايات مختلفه .. وقصائد قليلة ..." (٦) ولعل صلته .. ببيروت أن تكون قد هيأت له كذلك السير في هذه السبيل القصصية ...!

---

(١) حديث الصومعة ص ١١٧ (٢) فنون الادب الشعبي / الجزء الثاني لاحمد رشدى صالح ص ٢٨ (٣) مسارح الاذهان ص ١٤ (٤) الاتجاهات الادبيه الحديثه في فلسطين والاردن ص ٩٣ (٥) اعلام الادب والفن / الجزء الثاني ص ٤٣١
(٦) تاريخ الاداب العربيه في الربع الاول من القرن العشرين ص ٢٧ .

ومن بين الذين كانت لهم صلة بفلسطين ، وكان لهم فيها انتاج قصصي الاستاذ شاهين عطيه المولود في سوق الغرب سنة ١٨٣٥ ، تلميذ الشيخ ناصيف اليازجي ، والشيخ يوسف الاسير ، والذى انتدبته الجمعيه الفلسطينيه الى تعليم اللغة العربيه في بيت جالا ، حيث خدمها ثلاث عشرة سنه ... وقد نشر ديوان ابي تمام مع بعض تعليقات عليه ، وشرح رسالة ابي العلاء المعرى شرحا خفيفا قبل أن يتوسع فيه مرغوليوث ، ومما جاء في ترجمته : أنه "نقّح بعض المطبوعات ، وأنشأ الراوايات التمثيلية ، كعاقبة سوء التربية / وحكم سليمان . (١)

وقد كان بحكم اتصال فلسطين بالاقطار الاجنبيه بدعوى الدين في الظاهر والمصالح والامتيازات الاجنبيه في الواقع أن عرف هذا الوطن كثيرا من الالسن الاجنبيه في وقت مبكر جدا ، وقد اعانه ذلك على أن يفتح النوافذ على آفاق قصصية في وقت مبكر كذلك فترجم ولخص واقتبس واقتدى بهذه الافاق في الحقل القصصي ..

ولعل ذلك أن يفسر لنا ارتباط القصص المترجم في مطلع هذه المرحلة بالدعاية الدينية اولا وبالاغراض التعليميه ثانيا .. قبل أن يعرض المترجمون للقصص المتصل بواقع الناس وحياتهم .. من ذلك مثلا : "تسعة أمثال لربنا يسوع المسيح" (٢) اعدت للتمثيل بشكل تسع روايات اخذت مادتها من تسعة امثال للسيد المسيح ، وقد ترجمها الى العربيه عن الانكليزية بولس صدقي من القدس ، واخرجتها مطبعة بيت المقدس ، وقد قدم لها بكلمة في كيفية تمثيل القصص في المدارس الصيفية والمدارس القروية اليوميه ، وهذه الروايات هي :

١) المتكآت الاولى في الاحتفال .
٢) العذارى الحكيمات والجاهلات .
٣) الدعوة المستخف بها .
٤) الابنان .
٥) الوزنات .
٦) الدرهم المفقود .
٧) الأب .
٨) العبد الذى لم يصفح عنه .
٩) تاجر اللؤلؤ ..

---

(١) تاريخ الاداب العربيه في الربع الاول من القرن العشرين ص ٦٩ .

(٢) فن التمثيل في خلال قرن / بقلم يوسف اسعد داغر / ص ٤٥١ .

ثم اطل على الحياة القصصية في هذا القطر في هذه المرحلة الاستاذ خليل بيدس خريج المعهد الروسي الذى فتحت له صلته باللغة الروسيه آفاقا في القصة بعيدة المدى ، وقد بدأ حياته القصصية بتتبع آثار كبار القصصيين الروس امثال بوشكين وتولستوى وغيرهما ، وبفضله انتقلت حياة القصص في فلسطين في اواخر القرن التاسع عشر الى آفاق جديدة ترتبط بحياة الناس ... فحين اتصل الاستاذ خليل بيدس بسيرة بوشكين اعجب بهذه السيرة وبحبه لخدمة الادب ، وباصداره في سنة ١٨٣٦ (١) مجلة (المعاصر) التي نشر فيها الشيء الكثير من كتاباته وقصائده وشذراته وتحليقاته كما فتح صدرها للكتاب الناشئين .. ومن مظاهر عناية الاستاذ خليل بيدس ببوشكين أن عرّب له روايته الكبيره (ابنة القبطان) التي تمثل جانبا من حركات الفلاحين في روسيا ، وهي من بين أشهر مؤلفات بوشكين في الدور الاخير من حياته (١٨٣١ ـ ١٨٣٧)... وقد طبع الترجمة في جريدة المنار البيروتيه سنة ١٨٩٨ .. ومن القصص التي ترجمها الاستاذ خليل بيدس في هذه المرحلة عن اللغة الروسيه : قصة (الطبيب الحاذق) وطبعها في بيروت عام ١٨٩٨ ، وقصة (القوزاقي الولهان) بيروت ١٨٩٩ .. وكأنه كان يعدّ نفسه لما اعدها لها بوشكين من خدمة الادب بالروايات المترجمة والموضوعة وباصدار مجلة .....

ولعل من حسن حظ الحياة القصصيه في هذا القطر أن تنفتح نوافذها على الحياة الروسية القصصية وعلى بوشكين في اوائل عهد البلاد بنشأة الفن القصصي .. فان اطلاع بوشكين على الحقائق الروسيه اطلاعا واسعا ، وتصرفه الى مختلف نواحي بلاده ، وتبحره في تاريخها ، وتتبعه للعلاقات القائمة بين عموم طبقات الشعب الروسي ، وتثقيف نفسه تثقيفا عاليا متواصلا استمر طوال حياته ، كل هذه الامور أتت ثمارها في تبلور نزعة بوشكين الواقعيه في الادب ! " (٢)

ومن حسن حظ الحياة القصصية في هذه المرحلة كذلك في فلسطين أن يقوم الاستاذ روحي الخالدى بفتح النوافذ على مؤلفات فكتور هوكو القصصية ، ويحللها ويبين مكانتها ، ويلخص فصولها ، ويحسن عرضها عرضا واعيا متمثلا في كتابه الرائع " تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوكو ..." (٣)

تلك هي الظروف التي احاطت بحياة القصص في هذه المرحلة فأكسبتها صحة ومناعة وحيوية منذ نشأتها في أدوارها الاولى التي سبقت ظهور الصحافة في هذا القطر !

---

(١) النفائس العصريه / السنه الرابعه ١٩١٢ / الجزء التاسع / ص ٣٨٧/ وانظر (بوشكين) لنجاتي صدقي حيث يورد سنة ١٨٣٥ بدءا لاصدار (المعاصر)

(٢) بوشكين لنجاتي صدقي ص ٩١ (٣) انظر عرضه وتحليله في الكتاب ص ٢٣٨ ـ ٢٥٨ .

المرحلــة الثــانيــة

وتمتد هذه المرحلة من اعلان الدستور (سنه ١٩٠٨) حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ودخول البلاد في شبكة الاستعمار تحت ستار ما سمى بالانتداب ..

وتمتاز هذه الفترة بانطلاق الطاقة الصحفيه ونشاط رواد الصحافة نشاطا رائعا كمن كان محبوسا في قمقم فاندفع منه ..

والصحافة كما نعرف تقوم على دعامتين متينتين تحفظان عليها حياتها وتمدانها بما ينير الطريق للقراء في ميادين الحياة المختلفة هاتان الدعامتان هما أدب المقالة وأدب القصة ...

ولقد كان القراء في مطلع النهضه منصرفين عن تناول الغذاء الثقافي ، فكان لا بد من مقبلات (١) على المأدبة الصحفية لتثير نهم القارئ فتجذبه الى ما تشتمل عليه تلك المقبلات من نفع وما تنطوى عليه من توجيه !

وقد اتخذ الصحفيون القصة والاقصوصة والحكاية والرواية مقبلات في صحفهم تثير شهية القارئ الى موضوعات في المجلة غيرها ، كما كانوا يحشون هذه المقبلات نفسها بمختلف الفوائد والتوجيهات والاغراض !

فالاستاذ خليل بيدس رأس هذه المدرسة القصصية في هذه المرحلة سواء منها القصة والاقصوصة او الحكاية او الرواية ، المترجم منها والموضوع ، يعلن في مقدمة صحيفة (النفائس) التي اصدرها في الاول من تشرين الثاني عام ١٩٠٨ ما يلي :

"... وبعد فلا يخفى ما للروايات على اختلاف مواضيعها من التأثير الخطير في القلوب والعقول حتى اعتبرت انها من اعظم أركان المدنية بالنظر الى ما تستبطنه من الحكمة في تثقيف الاخلاق وما تنطوى عليه من العبر والمواعظ في تنوير الاذهان .. (و) عقدنا النية على اصدار هذه المجموعة نضمنها من الروايات الادبيه والفكاهات العصرية ، وغير ذلك من النوادر واللطائف ما يتوق الى مطالعته والتفكيه بتلاوته كل اديب .. " (٢)

وحين يقدم لرواية (شقاء الملوك) التي ترجمها في العام نفسه يقول :

".. هذه الرواية تتضمن من العبر والحكم تحت ثوب اللهو والفكاهة ما يجعلها من انفس الذخائر ، فانها تمثل باسلوب شائق حالة الملوك ونسبتهم الى الرعية وواجباتهم نحوها ، ونسبة الرعية اليهم وحقوقها عليهم ،

---

(١) انظر مارون عبود / رواد النهضة الحديثة / ص ١٤١ (٢) النفائس/ عدد ١ المجلد الاول / سنة ١٩٠٨ ص ١ .

وما يتصل بذلك من شؤون الملك وأحوال رجال الدولة والبلاط وقوة الشعب، بصور مختلفة تنطبق على الحقيقة، وفي خلال كل ذلك حوادث مشوقة ومباحث فلسفية اجتماعية يستعذبها السمع ويتعشقها الطبع.. الفتها ماري كورلي الكاتبة الانكليزية الشهيره ... ونقلتها ز. جورافسكايا الى اللغة الروسيه بعنوان (تحت نير السلطة) فعربناها عن الروسيه باسم (شقاء الملوك)، وتصرفنا فيها بزيادة واسقاط وتغيير وابدال وتبويب وغير ذلك لتوافق ذوق القراء، فعسى أن يتلقاها أبناء العربية بما هي أهل له من الايثار والاقبال، وعلى الله الاتكال" (١)

وهكذا أقبل الاستاذ خليل بيدس على أدب القصة بقلب يملأه الايمان بهذا القصص الهادف.. ولهذا نراه رغم ثوب اللهو والفكاهه الذى يخرج فيه الرواية يسلط اضواءه على واجهات بعينها تحمل مواقف من القيم الجديدة فيضرئها ويبرزها وهو حريص على أن تنطبق الوقائع على الحقيقة في كل ذلك ...

فحين يتجاوز البستاني والملك في موقف من المواقف في حديقة القصر، لا يدع هذا الموقف من غير أن يبين لنا رأيه الطبقي في الموضوع، وبذلك نتبين لون القيم التي يقع عليها اختياره:

"... يجول البستاني في حديقة القصر يقطف منها ما يراه صالحا لتزيين مخادع القصر. البستاني لا يجسر أن يرفع نظره الى الشرفة تهيبا واجلالا. اما الملك في الشرفة فكان يتظاهر بانه غير عالم بوجود البستاني بالقرب منه. وعلى هذه الصورة كان هذان الرجلان المصنوعان من طينة واحدة واللذان سيتحولان بعد الموت الى رماد واحد يمثلان أمام السماء وأمام أنفسهما دورا مضحكا ذلك لأن الشريعة والعادة وسائر دواعي الحضارة وحيل المدنية قد جعلت بينهما سدا كبيرا ناهية الادنى عن الكلام مع الاعلى، من غير أن يؤمر بذلك منه، وناهية الاعلى عن محادثة الادنى لئلا يشمخ وتكبر نفسه، وهكذا فان هذين الرجلين اللذين لم يكونا من الطبيعة الا انسانين قد جعلهما الانسان نفسه مرائيين.. فاحدهما كان بستانيا والاخر ملكا.. وهما والوف وملايين غيرهما من الخلق يعيشون في هذه الدنيا بتلك الوجوه المستعارة او وجوه المساخر التي لم تخترعها الايد الانسان" ((٢)

وفي الحوار بين ولي العهد وبين معلمه العالم الفيلسوف ترى تمثل هذه القيم والمفاهيم الجديدة التي تعتلج في صدور الطبقة البرجوازية الناشئة في مواقفها الايجابية ...

---

(١) مقدمة رواية "شقاء الملوك" / ص ٢٨ من النفائس / عدد ٢ / مجلد اول ١٩٠٨

(٢) شقاء الملوك الروايه المنشوره في المجلد الاول من النفائس ١٩٠٨ ص ٢٩ - ٣٢.

- لم يفضل الملك احدا .. ولكنه بالوراثة صار ملكا ..
- ولو كان مجنونا ؟
- اذا ولد مجنونا تسلم ادارة شؤون المملكة الى وكيل ينوب عنه ويبقى هو مع ذلك ملكا (قد تجاوز الحديث بنا الحد ، وليس يؤذن لنا الخوض فيه الى ذلك الحد) " (١)

ثم يرد خطاب ثوري القاه الاشتراكي (سن طورد) رئيس جمعية ثورية تمد فخدمة الامة والبلاد ورفع كل ظلامة عنها : " ... لا يجب أن نصدق الملك لانه عبد شهواته .. وما هو الا عبء ثقيل على كاهل المملكة ... فيا ايها الناس تشددوا بالروح لاجل هذا العمل العظيم الذى ادعوكم لاجله .. انهضوا كلكم وقوضوا اركان الظلم واهدموا دعائم الاستبداد ، لانها تحجب النور عن وطننا العزيز قاوموا الشر بكل قواكم .. وليكن غيظكم وزمجرتكم اشبه بقصف هذه الرعود ورميض هذه البروق ... " (٢)

على مثل هذا النوع من القيم السياسيه والاجتماعيه يقع اختيار الاستاذ خليل بيدس .. سواء في ترجماته للروايات او في قصصه الموضوعة او في اقاصيصه اواو في حكاياته ...

الادب القصصي الهادف الذى يحمل في طياته مواقف اجتماعيه واضحة من شؤون الحياة المختلفة الساسية منها والاجتماعية والطبقية ويشير في ثناياه الى الاتجاه المطلوب والغرض الحافز ... المبنى على حوادث واقعية او ممكنة الوقوع باسلوب يرتدى ثوب الفكاهة واللهو ليكون شائقا .. ويستعمل اللغة وسيلة لتبليغ المضمون من اقرب طريق لغوى واسهله على سمع القارئ حتى ليكاد في بعض الاحيان يبلغ حد الابتذال .. غير انه يحمل في طياته صراعا قويا وجدلا عنيفا وحوارا حارا ويتخذ الفكر دعامة للحسم في قراع الحجة .. هذا اللون من الادب القصصي هو التيار الذى انطلقت فيه مدرسة بيدس القصصية .. وحين يجد الفن القصصي يريد ان يعتمد على الايحاء او التلميح البعيد للغاية او الغرض التوجيهي ويخشى ضياع الغاية بهذا التلميح والايحاء البعيد ، لا يرضيه ذلك بل يعمد الى تقوية الالوان الناصعة والى القاء الضوء الساطع على الهدف حتى يبين ويتضح امتلاء .. من اجل ذلك نجد جرأة الاستاذ خليل بيدس ، رأس هذه المدرسة القصصيه ، في التصرف بالتعريب ، واقدامه على الزيادة او الاسقاط ، بل عدم التردد في التعبير والابدال والتبويب حتى يصل بالرواية المعربه الى الغاية المرجوة منها ...

---

(١) شقاء الملوك / في المجلد الاول من النفائس ١٩٠٨ ص ٤٨ — ٥٠

(٢) شقاء الملوك / في المجلد الاول من النفائس ١٩٠٨ ص ١٦٩ .

ففي مقدمته لرواية (أهوال الاستبداد) التي جعلها في آخر اعداد السنة الثانية من النفائس المصريه ١٩٠٩ يقول :

" وضع هذه الرواية المؤلف الشهير والكاتب البليغ الشاعر الذائع الصيت الكونت الكسي تولستوى الروسي وهي من خيرة الروايات الادبية لما تتضمنه من العبر والحكم في تثقيف الاخلاق وتنوير الاذهان وحث النفوس على الكمالات الانسانية فضلا عما تنطوى عليه من الحقائق التاريخية والوقائع المؤثرة والحوادث المشوقة الى غير ذلك مما يتفكه به المطالع، ويستفيد منه المتأمل بصيرة وعلما . ومما يدل على شهرتها في عالم الروايات انها ترجمت الى اكثر اللغات الافرنجيه كالفرنساوية والنمساوية والانكليزية والبولونيه والايطاليه وغيرها ... وحازت بين سائر الروايات مقاما رفيعا ومنزلة سامية ... ولقد تصرفت في تعريبها بزيادة واسقاط وتغيير وابدال وتبويب لتكون موافقة لذوق قراء العربية ... وسميتها (أهوال الاستبداد) لما يراه المطالع فيها من الاستبداد والجور والعسف والظلم وغير ذلك من الفظائع والكبائر التي تعافها الانسانية ...

اما اسمها الحقيقي فهو (كنياز سيريبرياني) اى (الامير سيريبرياني) وهو احد ابطالها ..." (١)

وتبدأ حوادثها في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وفي الفصل الثاني من الرواية يطلع بنا المؤلف على صورة من صور الظلم يرتكبها طائفة من فرسان الحرس " وكان يتقدمهم شاب حسن الملبس، حاد العينين وقد نيط بسرج جواده مكنسة ورأس كلب وهو يسير بأنفة وخيلاء مرددا بصوت جهور قوله : انحروا المواشي ، امسكوا الفتيات، اجلدوا الفلاحين ، اقبضوا على الشيوخ واذيقوهم مر النكال .. احرقوا القرية ولا تشفقوا على احد ..." (٢)

ونقرأ مواقف أشبه بتلك المواقف التي قرأناها في رواية " شقاء الملوك ".. ففي الفصل الواحد بعد المائة نسمع الحوار التالي :

"— وأى وطن تعنين ؟ واين هو هذا الوطن الذى يجب أن ندافع عنه؟ ومن هم اعداء الوطن الذين ينبغي ان نقاومهم لنرد عن الوطن سهامهم ؟ فاعلمي يا هيلانة أن اعداء الوطن هم الملك نفسه وليس التتر او غيرهم كما تزعمين . فالملك وحده هو عدو الوطن الاشد وهو علة بلاياه وشقائه ..." (٣)

---

(١) المقدمه ص ٢ من رواية (اهوال الاستبداد) المنشورة في ختام السنة الثانيه ١٩٠٩ من مجلة النفائس (٢) اهوال الاستبداد ص ١٠ (المنشورة في آخر مجلد السنة الثانية من النفائس) (٣) اهوال الاستبداد ص ٣٣٠ (المنشورة في آخر مجلد السنة الثانية من النفائس)

وحين تكثر الاوهام والخزعبلات والتقاليد الخرافيه في فصول الرواية يعلن المترجم رأيه في تعليق يثبته في هامش الفصل السادس وموضوعه (الدجّال) فيقول : " اذا رأى القراء في هذا الفصل وفي غيره من فصول الرواية كثيرا من الاوهام والخزعبلات وما اشبهها من التقاليد التي كانت سائدة اذ ذاك في بلاد الروس ومتسلطة على عقول السواد الاعظم من القوم فلا يضربوا بها عرض الحائط ويحسبوها مقللة من شرف الرواية ومحطة من شأنها . واذا حاولنا تجريد الرواية من هذه الترهات لان فيها شيئا فاسدا كنا كمن يقلل جمال الحوادث التاريخية المتسلسلة فيها لان مؤلفها انما أراد في ايرادها بيان ما كان عليه الروس في ذلك العصر من الجهل والغباوة . وسائر تلك الرؤى والاوهام كانت محترمة عندهم وشائعة في بلادهم ليس فقط بين السوقة بل وبين الملوك والامراء والاعيان كما يتضح ذلك من سياق الرواية .. " (١)

وهكذا فلم يكن الاستاذ خليل بيدس مجرد مترجم وانما كان يعرف ما يقع عليه اختياره ويحوره ويبدله ويضيف اليه ويضوىء الجوانب التي يريد منه حتى يكشف لنا عن مواقف اجتماعيه وسياسيه تنسجم وطموح الطبقة البرجوازية الجديدة الناشئة في المجتمع العربي !

وهناك شيء يتصل بالشكل في امر هذه الرواية .. ففي مواضيع غير قليلة منها نجده يورد ابياتا من الشعر العربي لها اتصال بالمواقف التي في اصل الرواية؛ كما نجد في الفصل العاشر ، حيث تطلب هيلانة من الفتاة اولغا أن تسمعها اغنية فتندفع بما تعريبه :

الاما لنفسي والسرور وأشجاني   تزيد ودهري في هوى الهم القاني

ويورد المترجم عشرة ابيات في هذا المجال .. ويتكرر مثل ذلك ما يزيد على المرات الاربع .. وفي ذلك شيء من الاخلال بالاسلوب القصصي الطبيعي !

وفي نهاية مجلد السنة الثالثة من مجلة النفائس المصرية سنة ١٩١١ ينشر الاستاذ خليل بيدس رواية (الحسناء المتنكره) وهي رواية تاريخية غراميـة تتضمن تفصيل المواقع الحربيه التي نشبت في جزيرة قبرص بين الاتراك والبنادقة على عهد السلطان سليم الثاني .. والرواية في الاصل تأليف اميل سلغارى الكاتب الايطالي المشهور ، وعدد صفحاتها مائتان وثلاث وستون صفحة " فلم يربدّا في اثناء تعريبها من مخالفة الاصل والايجاز الكثير في اماكن كثيرة منها لكي لا يملّ القارىء ولا تزيد الرواية عن الفراغ المعين لها في المجلة .. " (٢)

---

(١) هامش ص ٢٧ من رواية اهوال الاستبداد المنشورة في آخر مجلد السنه الثانيه من النفائس ١٩٠٩ (٢) انظر كلمة المعرب في ختام الرواية المنشورة في آخر مجلد السنة الثالثة من النفائس المصريه ١٩١١

فجاءت في ثمان وثمانين صفحة !

ثم نشر في جميع اجزاء السنة الرابعة من (النفائس العصرية) رواية (هنرى الثامن وزوجته السادسة) واتمها في السنة الخامسة من المجلة.. ثم طبعها في مطبعة دار الايتام بالقدس وجعلها في ختام السنة الخامسة ١٩١٣ ... ومهد لها بما يلي :

" ابتدأت النهضة الفكرية في اوروبا منذ القرن السادس عشر فمحت كثيرا من اوهام القرون الوسطى وخرافاتها واطلقت العقول من قيودها وسارت بالام في جادة الاصلاح الحقيقي .. ظهرت هذه النهضة بادئ ذى بدء في ايطاليا ومنها انتقلت الى فرنسا ، ثم الى الألمانيا ، وانتشرت في انكلترا في اواخر حكم الملك هنرى الثامن اى في اواسط القرن السادس عشر وهو الزمن الذى جرت فيه حوادث هذه الرواية .. في عام ١٥٣٣ اقترن هنرى بحنه بولين بعد طلاق زوجته كاترينا واعترف مجمع الاساقفة في كنتربرى بعدم قانونية قران الملك بكاترينا اراغون لانها امرأة اخيه ، وسقطت من ذلك الحين سلطة البابا الذى عارض زواج الملك الغير القانوني واعلن هنرى نفسه رئيسا للكنيسة الانكليزية وكان ذلك تمهيدا للانقلاب الديني الذى حدث في تلك البلاد .. وكان رجال المذهب البروتستانتي قبل هذا العهد قد شرعوا بنشر تعاليمهم في البلاد الانكليزية واستمالوا اليها جمهورا من الشعب . غير أن هنرى بعد انفصاله عن روما ظل كاثوليكيا ولم يعضد جانب المبشرين .. لذا انقسم رجال بطانته الى جزيين متضادين : بروتستانت وكاثوليك .. وكانت زعامة البروتستانت لكرانمر اسقف كنتربرى وللكونت غرتفورد ، وزعامة الكاثوليك للدوق نورفولك ولغاردنر اسقف ونشستر . وكان كلا الحزبين يجتهد في استمالة الملك الى جهته للانتقام من الحزب الاخر . اما الملك فكان تارة يميل الى البروتستانت وأخرى الى الكاثوليك ، وينكل بكلا الطرفين .. لبث الامر كذلك الى أن انتهى هذا النزاع بانتصار البروتستانت على عهد الملكة اليصابات (ابنة هنرى الثامن) .. في هذه الرواية تفصيل لاشد وقائع الخلاف وتاريخ اقتران الملك هنرى بزوجته السادسة وذكر زوجاته الاخر ، وما تخلل ذلك من الحوادث والغرام .. وهي من وضع ف. ملباخ الكاتبة الالمانية المشهورة ، فعربناها عن اللغة الروسية ببعض التصرف " (١)

وهكذا يضع الاستاذ خليل بيدس يده على ملتقى الحلقات في الدورات الاجتماعية .. حيث الصراع يحتدم وحيث ينشأ القراع ويقوم الجدال ويقع الاصطدام بين المبادئ .. وهذه روح العصر في تلك المرحلة من حياة الادب في فلسطين ..

---

(١) انظر التمهيد ص ٢ ـ ٣ لرواية (هنرى الثامن)

واليك طرفا من اطراف الحوار الذى يجرى في مثل هذه الحلقات :

"ـ ولكن لا يمكنك أن تنكر أن الملكة من اشد انصار الديانة الجديدة التي نشأت في جرمانيا وانتشرت كالطاعون في كل اوروبا .. تراني مستعدا لمساعدتها اذا هي نهجت السبيل القويم ونبذت كل اضاليل هذه التعاليم الجديدة التي يذيعها الهراطقة والكفرة..

ـ أنت تدعوها اضاليل ولكن اصحابها يعتقدون صحتها وسموها" (١) ..

ثم يشرع غاردنر فيوغر قلب الملك على الملكة كاترينا ويتهمها بالهرطقة وبمساعدتهم سرا والترحيب بأقوالهم وتعاليمهم...

وتمضي الرواية في مثل هذه المصادمات والمصارعات حتى تبلغ ستة وثلاثين فصلا ، وتتجاوز الثلاثمائة صفحة ...

ومن الروايات الكبيرة التي وقع عليها اختيار الاستاذ خليل بيدس رواية (العرش والحب (، وهي رواية تاريخيه غراميه تمثل حالة روسيا في عهد بطرس الاكبر وتصف حياة القيصر وأحواله واعماله ووقائعه الغراميه والحربيه و احوال روسيا في عصره ...

ومن هذه الروايات رواية (الوارث) وهي رواية اجتماعية غراميه تاريخيه تتضمن وصف كثير من حوادث الحياة الاجتماعية وما يتوسل به بعض الناس فيها من ضروب المكر والدهاء الى غير ذلك . مما ورد كله تحت ثوب الفكاهة واسلوب القصة . وقد بنيت على حادثة وطنية وقعت وتقع امثالها في هذا الشرق كل يوم بل كل ساعة ومزجت حوادثها ببعض حوادث الحرب الكونية الاخيرة : نشرها متسلسلة في اجزاء السنه السابعة من النفائس.. وبعد أن انجزها طبعها على حدة " (٢)

هذه الروايات المعربة رسخت الاصول وارست القواعد لمدرسة الاستاذ بيدس القصصيه .. وقد رأينا اتباع هذه المدرسة يقع اختيارهم على مضامين روائية فيها صراع في الافكار الاجتماعية والدينيه والسياسيه .. ويتناولون هذه المضامين بأشكال متشابهة واسلوب مماثل لاسلوب الاستاذ خليل بيدس...

فيضع الاستاذ (يوحنا دكرت) احد صاحبي مجلة (بيت لحم) الغراء رواية اجتماعية اخلاقيه غرامية يدل عنوانها علي موضوعها وهي (ظلم الوالـــدين) ... كما يضع رواية بعنوان (أصل الشقاء) تثير ضجة في الاوساط الدينية والاجتماعية .. لانها تنسب اسباب الشقاء الى رجال الدين ، وقد جعلها هدية لمشتركي مجلته (بيت لحم) ، ولكنه لم يتيسر له نشرها لما قام في وجهه من الموانع ...

---

(١) رواية هنرى الثامن ص ٨ ـ ٩ (٢) النفائس / جزء ١٠ / سنه ٨ / ١٩٢١ ص ٣٢٠ .

فما كاد يطلع على امر هذه الروايه بعض رجال الدين في فلسطين حتى اقاموا يطلبون مصادرتها .. ورفع البطريرك اللاتيني الدعوى على مؤلفها الى المحاكم فحكمت المحكمة الابتدائية عليه بغرامة ماليه . فاستأنف ونقلت الدعوى الى محكمة الاستئناف العليا (١)

ومن اتباع مدرسة بيدس في هذه المرحلة الاستاذ رشيد الدجاني حيث وقع اختياره على رواية (ابنة الكاهن) او (يقظة الحبيبين) فعربها وهي رواية ادبيه اجتماعيه غرامية ، وموضوعها انتقاد أساليب بعض الكتاب في تأليف الروايات على اختلاف مواضيعها ، وبذلك جمعت بين "قصص الروايات وفكاهة الانتقاد" (٢)

ومن اخبار الروايات الطويلة أن رواية (الضحية) او (ابتسامة الهوى وضحية الحمام) من الروايات التي ألفت في هذه المرحلة ، وهي رواية اخلاقية اجتماعية غراميه عصرية الفها (ى ...) وريعها مخصص لعمل خيرى ..(٣)

ومن الروايات الطويله المعربه عن الروسيه في هذه الفترة رواية في (سبيل الحب) الرواية التاريخيه الادبيه الغراميه ، عربها الكاتب انطون بلان احد اساتذة مدرسة السمينار الروسية في الناصرة (٤) كما وضع الشاعر اسكندر الخورى البيتجالي روايته النثريه التاريخيه الغراميه الاجتماعيه عن اهوال الحرب الكبرى في هذه المرحله وقد سماها (الحياة بعد الموت) .

هذه هي بعض اخبار الروايات الطويلة ... واما القصص القصيرة فقد امتلأت بها مجلة الاستاذ خليل بيدس منذ صدورها في سنتها الاولى (نوفمبر سنة ١٩٠٨) حتى احتجابها الاول بعد سنتها الخامسة ١٩١٤ ... بسبب ظروف الحرب وفي اعدادها الاخرى بعد استئناف صدورها في سنة ١٩١٩ حتى احتجابها النهائي سنة ١٩٢٣ .

وكما كان الاستاذ خليل بيدس رأس مدرسة قصصية في القصة الطويلة (الرواية) في هذه المرحلة فقد كان كذلك رأس المدرسة القصصيه في القصة القصيرة ... وعنايته بالقصة القصيرة من اجل مجلته (النفائس) لا تقل عن عنايته بالقصة الطويلة للغرض نفسه ... فهو يقول في مقدمة السنة الرابعة (١٩١٢) من المجلة :

"اما المواضيع التي ستتضمنها المجلة في سنتها الرابعة فهي كما يأتي : الروايات : ينشر منها في كل جزء روايتان او اكثر من الروايات الصغيرة التي تبدأ وتختم في نفس الجزء . ورواية كبيرة متسلسلة في جميع الاجزاء . وستكون كلها من احسن ما كتب في هذا الموضوع فكاهة وادبا وفائدة ... (٥)"

---

(١) انظر الجزء ١٠ / السنه ٨ من النفائس ص ٣٢٠ (٢) انظر الجزء ٢ / السنة ٨ من النفائس ص ٦٣ (٣) الجزء الثالث / السنه الرابعة سنة ١٩١٢ من النفائس (٤) النفائس جزء ٧ / سنه ٤ / ١٩١٢ ص ٣٤٢ (٥) مقدمة السنة الرابعة من النفائس العصريه ص ٤

وقد التف حول الاستاذ خليل بيدس جماعة من الكتاب آمنوا بمدرسته القصصيه فترجموا ووضعوا القصص ونشروها في مجلته امثال : الكاتب انطون بلّان ، والاستاذ جبران مطر ، والسيدة كلثوم عوده ، والاستاذ فارس مدور ، والاستاذ ابراهيم حنا ، وغيرهم .

وقد جمع الاستاذ خليل بيدس قصصه القصيرة بعد أن نشرها في اعداد مجلته في سنواتها المختلفة في مجموعة وحدها وطبعها في المطبعة العصرية بمصر على حده باسم :

" مسارح الاذهان " على انها " مجموعة ادبيه فنيه روائيه في حقيقة الحياة "

وأهدافه واتجاهاته في القصة القصيرة هي اهدافه واتجاهاته في الرواية او القصة **الكبيرة** من حيث الادب القصصي الهادف الذى يحمل في طياته مواقف اجتماعيه واعيه واضحة في شؤون الحياة المختلفة حيث يشير الى الغرض الحافز في اسلوب مشوق ، وحيث اللغة وسيلة لتبليغ المضمون .. وهناك اختلاف شكلي بين اتجاهه هنا في القصة القصيرة واتجاهه هناك في الرواية فاسلوبه هنا اجنح الى التأنق الطبيعي .. وهو يتخذ في سبيل ذلك مختلف الاطارات ؛ فحينا يتخذ الاطار الاسطورى ، وحينا يتخذ الاطار التاريخي ، وحينا آخر يتخذ الاطار العلمي والفلسفي ... وحينا رابعا يتخذ الاطار الاجتماعي والطبقي .. وحينا خامسا يتخذ الاطار الرمزى ، وحينا سادسا الاطار التربوى المدرسي ، وحينا سابعا الاطار الديني ، ولكن هذه الاطارات لم تكن الا وسائل من وسائل التشويق ... فلم تباعد بينه وبين مفهومه السليم للادب القصصي ولم تصرفه الى التعليلات الوهميه او الشعوذات او المعتقدات الواهيه او المواقف السلبيه بل اخلص في مجموعته هذه الى اهدافه واتجاهاته التي عرضنا لها سابقا ...

والاستاذ خليل بيدس في مجموعته لا تستهويه الطرافه بمقدار ما تستهويه الحقيقه ، وحين يخشى أن تجور الطرافة على الحقيقة يضحي بالطرافة في سبيل الحقيقة . ففي احدى المحاورات في قصة من قصصه يجرى ما يلي :

" ـــ: أنا أرى أن أحسن وسيلة للانتقام ، هي الفتك به في منزله الخاص ، فما رأيك ؟

ـــ: ليس ذلك بجديد في عالم الروايات ..

ـــ: وفي عالم الحقيقة ، اذ ليست الرواية الا مظهرا من مظاهر الحياة .. "(1)

---

(1) انظر قصة (المقابلة المخيفه) في مجموعة (مسارح الاذهان) ص ٣٢٩ .

وقد بلغت مجموعته هذه اثنتين وثلاثين قصة وهي تحمل قيمه التي في الروايات الطويلة ، وكان الفرش الذى يفرشه في القصة القصيرة ينطوى على كثير من المفاهيم والمواقف التي كان يختار اشباهها في القصص الطويلة :

" ... وكان الناس في هذه البلاد طبقات ، كما هم في كل مكان .. فكان منهم العمال والنبلاء ، والعبيد والاحرار ، وكانت كل لبقة تكره غيرها من الطبقات ، ويزدرى كل فريق من سواه ... وانتشر الفقر والجوع في بعض السنين فانحطت بسبب ذلـــك الاداب ، وباع الاخ اخته ، والام ابنها والاب ابنته ، وتجرد الجمهور من الذمـــة والحياء وسرت في المدن الرذيلة وتفاقم الشر ...

.... رأى أن العبودية هي شر ما انتجه الانسان لشقاء الانســـان وقرأ ذات يوم مقالا في بعض الاسفار القديمه عن (حجر الفلاسفه) .. ادرك اخيرا أنه (الحرية والمساواة والاخاء) ..(١)

وفي احدى القصص يجرى الحديث بين سدنة هيكل (الاله أبيس)

" ـــ: ما أضل الامة التي تجوز عليها امثال هذه الخزعبلات !

ـــ: لا تقل هذا القول يا اخي ، لئلا يشيع وتتناقله الالسن فتكون عاقبته وبالا علينا

ـــ: ولكن اليس حراما علينا أن نمثل هذه الشعوذة ونموه على الامة بمثل هذه الاكاذيب ؟

ـــ: خلّ عنك ولا تعلق على الامر هذا الاهتمام كله ، فستفيق الامة يوما ويرتفع حجاب الضلال عن ابصارها !

ـــ: انها أخذت تبصر وتدرك . وقد سمعت اقوالا تدل على زعزعة عقيدة قائليها ووقوفهم على بعض السر .

ـــ: وهنا الطامة الكبرى والبلاء الاعظم . لان الامة اذا استنارت بنور المعرفة ومزقت عن ابصارها حجب الاوهام والاضاليل ينقطع رزقنا ونصبح كالسوقه لا يفصلنا عنهم شيء .

ـــ: اننا الان قوة عظيمة ولنا سلطان حتى على الملوك ، وفي ايدينا ثلث ارض مصر ، فيجب أن نسعى جهدنا لتظل الامة في دركات ضلالها ، ونظل نحن في اوج مجدنا وصولتنا .

ـــ: لا اظن ذلك يطول ، بل يخيل اليّ أن رئيس كهاننا نفسه قد سممت افكاره ببعض الاراء المصريه ، فلم يبق كعادته من حيث التدين والتعبد للثيران وعنايته بها ..

---

(١) انظر قصة (حجر الفلاسفة) في مجموعة (مسارح الاذهان) ص ٢٩٠ ـ ٢٩٥ .

ـ: اذا كان الامر كما تقول فلا اسهل علينا من ان نستبدل به غيره من ذوى الدهاء والفطنة أو أن **معزقه** اربا اربا ليكون عبرة للاخرين ٠٠٠" (١)

هذه بعض القيم التي تتخلل بعض قصصه ، وكل قصة من قصصه تحمل موقفا اجتماعيا ايجابيا يمثل طموح الطبقة البرجوازية الشريفة الناشئة !

ومن هنا فالاستاذ خليل بيدس جدير بأن يرأس المدرسة القصصية في هذه المرحلة من حياة القصة في فلسطين ! ولئن كان في ترجماته الطويلة اقل عناية بالشكل منه بالمضمون ففي قصصه القصيرة عنى بالامرين معا ! ولم يبلغ هذه المكانة بيسر ، وانما بذل في سبيلها جهدا اى جهد ، فقد أدرك الشأن الخطير للروايات في بناء المدنية ورأى انها اشد" المطبوعات رسوخا في النفوس والقلوب واثبتها اثرا في الاخلاق والعادات واعظمها عاملا في البناء والهدم ٠٠ وعرف ان الروائي يكتب للعامة ، وهم السواد الاعظم من كل امة ، يكتب للنفوس الحائرة والقلوب المتألمة ، يكتب للنفوس الجائعة والقلوب الظمأى ، وتبين أن الرواية انجع ما يتوسل به لاصلاح عاداتهم وتثقيف اخلاقهم ، واعذب مورد يستمدون منه البصائر ! واتضح له أن الروائي" ان لم يعاشر العامة ويدرس احوالهم او لم يكن منهم ويعش بينهم او لم تكن فيه قوة التصور ومهارة التصوير وبراعة الوصف ولم يكن فيه النظرة الادبية الصادقة الى كل حادث والارتياح التام بل الكلف التام ببحثه وان لم يسر بعمله على الدوام الى الامام ، الى اعلى درجات الكمال ٠٠٠ فليس بروائي عبقرى !

والروائي — في رأيه — ان لم يقرأ مئات الروايات ، ومئات التواريخ ، وان لم يطلع على حوادث الكون ، ويلج كل مجتمع ، ويدرك معنى الحياة واسرارها واساليبها وينتزع غرض روايته من حوادث الحياة وطبيعة الانسان ، ويجعلها منطبقة على الحقيقة والواقع ٠٠٠ فليس بروائي متفنن !٠٠٠ وهو — ان لم يكن نبيا ، يرى ببصيرته مالا يراه غيره ، وان لم يكن شاعرا يحلق في سماء الخيال ، ولم يكن عالما اجتماعيا يعلم الاحوال ويطلع على كل شأن من الشؤون — فليس بروائي ماهر ٠٠٠ !

والرواية — في رأيه — الجديرة بالاهمية هي التي ترمي الى المغازى الحكميّة او الاغراض الادبية ، الى تمجيد الفضائل او التنديد بالرذائل ، الى تهذيب الاخلاق وتنوير العقول وتنقية القلوب واصلاح السيرة ، وهي النقية من كل شائبة ، الخالية من كل وصمة ، التي تبقى اثرا في نفس القارئ ، وتحدوه على التأمل وتقوده في سبيل الرقي الادبي والحب النقي ، هذه هي الرواية الحقيقية ، الرواية الفنية ، الرواية الخالدة في رأيه (١)

---

(١) انظر رواية (مسارح الاذهان) للاستاذ خليل بيدس ص ٩ — ١٦ ٠

لقد أخذ الاستاذ خليل بيدس نفسه بكل هذه الشروط ، ومن هنا كان أدبه القصصي في طليعة الادب في هذا المضمار .. وكان جديرا بهذه المدرسة القصصيه التي أرسى قواعدها وأقام اصولها ! .

المـــــرحلـــــة الثـــــالثـــــة :

وتبدأ المرحلة الثالثه في الحياة الادبية لهذا القطر منذ نهاية الحرب العالمية الاولى وتمضي في الزمن حتى تبلغ بداية الحرب العالمية الثانيه .

ولقد شغلت القصة والرواية في هذه المرحلة حيزا كبيرا في الصحف والمجلات ، وازدادت الصحافة سرعة بعد الحرب ، ومضت عجلتها في دورات اكثر مما كانت عليه قبل نهاية الحرب .

وكانت الاناة قبل الحرب تتيح لكتاب القصص أن يأخذوا وقتا كافيا لتأمل الاحداث وتمثلها واختيار ما يصلح منها لبناء عمل فني قصصي ، فان لم يجدوا في انفسهم القدرة على البناء التمسوا ذلك في الاثار العالمية الكبرى لامم مرت بها ظروف مشابهة ، ومن أجل ذلك لم يترجموا الا بعد أن درسوا الظروف ، وتبينوا وجوه الشبه ، وتتبعوا حياة الامم ، فاختاروا على بينة من امرهم ، كما فعل الاستاذ محمد روحي الخالدى في المرحلة الاولى حين أحاط علما بحياة المجتمع الفرنسي قبل أن استقبل فكتور هوكو ، وحين ظهر فيه فكتور هوكو ، وحين مضت به الاحداث وخلفته وراءها .. وكذلك فعل الاستاذ خليل بيدس حين كانت تذر رأسها مشكلة من المشكلات .. فيمضي الى جذورها ... ويتصل بما يشبهها عند الامم الكبيرة . فيقرأ عن ظروفها .. ويورّخ لحياتها في منابعها الاصلية ثم يختار قصة او رواية تعالجها في آفاقها الواسعة فيترجمها بعد أن يكون قد استوفى الدرس والبحث والتنقيب في سيرة كاتب تلك الرواية وارتباطه بالجماعات من حوله .. وكأنه فعل ذلك حين واجه المشكلة الاورتوذكسية وما اثير حولها من خلافات وجدل مادى ومعنوى .. فمضى الى رواية (هنرى الثامن) التي تعالج قضية مبدأية ومضمونا ايدولوجيا .. ليشير من بعيد الى طريقة استقبال المجتمع للمبدأ الجديد وموقفه منه !

ولكن السرعة التي انتهت اليها الصحافة في هذه المرحلة لم تتح مثل تلك الاناة ، ولم تهيء الزمن الكافي للتمثل والدرس والاختيار ، ولهذا رأينا عامل السرعة يطغي على الادب المترجم في اول هذه المرحلة ... فكان العمل الفني المنقول من لغة اخرى الى اللغة العربيه خاليا من العوامل التي تحيط به والظروف التي سبقته وهيأت لظهوره ...

وظاهرة أخرى غير ظاهرة السرعة على الانتاج القصصي لهذه المرحلة هي ظهور الروايات البوليسيه ورواجها والعناية بذلك اللون من المغامرات والعقد الروائية التي تستثير فضول الناس لتشدهم بخيط الى انتظار النهاية ، ولعل الاستاذ جميل البحرى صاحب مجلة الزهرة أن يكون الكاتب المجلّي في هذا الميدان !

ولقد بدأت هذه المرحلة من حياة القصة بالاستاذ احمد شاكر الكرمي ..
وقد عمل محررا في عدة صحف ... كان محررا في جريدة الكــــواكــــب بمصر ،
وفي جريدة القبـــــلــــة في الحجاز .. ثم حرر جريدة الفيحـــــاء بدمشق ..
وتوج اعماله الصحفية فأصدر المــــيزان الاسبوعية الادبية التي احدثت في الاوساط العربية في حينها ... وقد اشترك مع طائفة من الادباء في دمشق ، وشكلوا جمعية (الرابطة الادبيه) حين أحسوا أن الجهد الجماعي انفع بكثير من الجهد الفردى.. واصدروا لها مجلة باسمها .

وكان يتقن اللغة الانكليزية .. وكانت كل ترجماته عنها ..

وقد اكتفى بالتعريب في هذا المضمار القصصي .. ولدينا له في هذا الباب آثار ثلاثة : قصصه التي نقلها وجمعها في (الكرميات) ، وقصته (مي او الخريف والربيع) عربها ، ونشرها تباعا في مجلة "الرابطة الادبيه" ، وقصة (خالد) الـــتي كتبها الروائي الاميركي ماريون كروفورد ، وقد عربها وطبعها بدمشق !

وقد اتيح للادب القصصي في فلسطين في مراحله الاولى أن يتنفس هواء نقيا ، وأن يتغذى غذاء صحيا ، ولهذا رأينا مدرسة الاستاذ خليل بيدس تجنح الى الواقع وتقترب منه في كثير من الاحيان ... وكنا نتوقع من الاستاذ احمد شـــاكر الكرمي أن يزيد في الاقتراب من الواقع .. ولكن نشأته الدينية في بيت والده الشيخ سعيد الكرمي .. واتصاله بالازهر في فترة من فترات تحصيله قبل أن يلتحق بالجامعة المصرية جنح به الى أن يتهيّب اقتحام الواقع اقتحاما قويا ، فبقى يراوده من بعـيـد دون ان يتمكن من لججه .. ومن هنا كانت الاطارات التي وقع عليها لقصصه فـي (الكرميات) تتلون باللون الديني والفلسفي والجدلي والاسطورى اكثر من تلونها بالالوان الاخرى ... فترجم قصة بعنوان (الفلسفة الشرقيه) او (نادى سورات) وهي قصة فلسفية من وضع الكاتب الفرنسي (برناردين دوسان بيير) . وقد نقلها عن الانكليزيه .. نشرت في احدى الصحف المصرية ... وتدور حول التقاء رجـــال من رجالات الدين مختلفي العقائد في ناد او مقهى ، حيث يثيرون جدالا ومنازعات ومناقشات في مختلف وجهات النظر الدينيه كل يحاول أن يعلو من شأن دينه على سائر الاديان الاخرى .. ثم "كانوا كلهم يتناقشون في حقيقة الاله الحق ، وكيف يجب أن يعبد ، وقد اشتد بينهم الجدال وحمى وطيس النضال ... وكان كل واحد منهم يؤكد أن الاله الحق لم يعرف ولم يعبد كما يجب في غير بلاده ومسقـــط رأسه ، ولم يكن فيهم من لزم السكينة ، وآثر الصمت غير رجل صيني من أتباع كونفوشيوس كان جالسا جلسة هادئة في زاوية من زوايا النادى يحتسي كؤوس الشاى وهو مصغ لما يقوله الاخرون ..."

ثم تنتهي بهم المجادلة والمناقشة في المفاضلة بين أديانهم وعقائدهم الى رأى الصيني تلميذ كونفوشيوس :

"... وهكذا مسائل الاعتقاد والايمان . ان الكبرياء والعناد هما سبب الاختلاف بين الناس، وان ما حصل من اختلاف اولئك القوم في فهم حقيقة الشمس هو خير مثال لما وقع من اختلاف بين الناس في معرفة الاله الحق . ان كل واحد في الارض يريد أن يكون له اله خاص به او على الاقل خاص بوطنه وقومه ، وكل امة تريد أن تحصر المعبود الحق في معابدها ، وهو الذى لا تسعه السماوات والارض. قولوا لي بربكم أيستطيع معبود من المعابد أن يضاهي ذلك المعبد العظيم الذى شاده الله ليوحد الناس **كلهم** ويجمعهم على عقيدة واحدة ودين واحد ؟!...

.. ولهذا يجب أن يمتنع ذلك الذى يرى نور الشمس بأسره مالئا ارجاء الكون عن ان يلوم او يحتقر الرجل الخرافي الذى يرى في صنمه شعاعا من ذلك النور نفسه ، بل وان يمتنع أيضا حتى عن أن يلوم او يحتقر الملحد الذى هو اعمى لا يبصر شعاع الشمس مطلقا .. " (١)

ويترجم عن (جي دو موباصانت) قصة (ما اغلاه!) عن ملك موناكو والموارد المشبوهة حيث تقرأ فيها :

أن الملك "يريد أن يعيش، وان يحكم ويهب الجوائز والاعطيات ويصدر الاحكام ويقيم المهرجانات والاحتفالات ولا يتسنى له ذلك الا بتناول الاموال من اى طريق جاءت . "

ثم ينقل عن الفيلسوف الروسي تولستوى اسطورة (العمل والموت والمرض) وهي قصة تطور استغلال الانسان لاخيه الانسان في مراحل الخلق المختلفة المتابعة في اطارها الديني .... وتنتهي الاسطورة الى تقرير ما يلي :

" .. ومرت على البشر عصور كثيرة قبل أن يفهموا كيف يكونون سعداء وفي الايام الاخيرة فقط بدأ قليلون منهم يدركون أن العمل ليس هو استعباد العاملين ، بل هو وظيفة عامة مشتركة يؤلف بين الناس ويجمع شملهم ، وشرعوا يفهمون أن الشيء الوحيد الذى يجب أن نقابل به تهديد الموت لنا في كل آن ، هو أن نصرف اعمارنا في الاتحاد والالفة والمحبة والسلام " (٢)

واخيرا يترجم اسطورة "الزهرة (فينوس) " عن كتاب الصور لمارك توين ، وقد كتبها في زمن شيوع خرافة المارد المتحجر في الولايات المتحدة الاميركية ...

---

(١) الكرميات / قصة الفلسفة الشرقية / ص ٤٨ ـ ٦٣ (٢) الكرميات / قصة العمل والموت والمرض ص ٧٤ ـ ٧٩ .

تلك هي الالوان والاطارات التي تشتمل على قصصه المترجمة في كتابه الكرميات ... ولما كانت تحمل مثل هذه المضامين فقد لاءمتها تلك اللغة المنتقاه التي كانت اشبه بمن يلبس طوال ساعات نهاره وليله حلة رسمية ، لا يتخفف منها حتى حينما تشتد به وطأة الحر !

وحين ينقل رواية (مي او الخريف والربيع) بعد أن قرأها في ديوان الشاعر البريطاني الكبير الكسندر بوب نقلا عن تشوسر ابي القريض الانكليزى .. يقول :

"... قد يكون فيها عبرة لضعاف الاحلام من الكهول والشيوخ الذين تقودهم حماقات المشيب الى الاقتران بفتيات في نضرة الشباب وربيع العمر ، فيجنون بذلك على الذوق الفني بجمعهم صورتين متناقضتين احداهما شوهاء قبيحة ، والاخرى حسناء مليحة في اطار واحد ... وقد يكون في هذه الرواية ايضا عظة للقساة الجناة من الوالدين الذين يلقون ثمرات أحشائهم بأيديهم في مهاوى التعس والشقاء (يمهدون لهن سبيل الغواية والضلال طمعا بمال زائل ومادة فانية ... وقد أثارت خواطر الجنس اللطيف ، وعكرت صفو السيدات المحترمات ، وحملتني من قذفهن ومطاعنهن شيئا كثيرا ، ولم يشفع بي لديهن أنني ناقل ، والناقل لا ذنب له " (١)

وفي نهاية القصة يلحق بها كلمة يبين لنا فيها منهجه في التعريب فيقول :

".. لو كنت ممن يبيحون لانفسهم التصرف في آراء سواهم بمحو او تبديل لكان من الجائز أن افكر في اصلاح خاتمة هذه الرواية التي اراد المؤلف أن يجرح بها النساء جرحا بالغا ، فانني وان كنت ممن يحترمون المرأة ويجلون قدرها ، الا انني احترم ايضا رأى سواى ، واحرص على الامانة في نقله ، ولا ابيح لنفس العدوان عليه بزيادة او نقصان " (٢)

وهو يلتقي بذلك مع خليل بيدس في عنايته بالغاية والهدف والموعظة التي تحملها القصة .. ويختلف معه في حرية الحذف او الانقاص او الزيادة او التصرف بالترجمة .. فقد كان خليل بيدس يبيح لنفسه كل ذلك في سبيل القاء اضواء ساطعة على الغاية التوجيهيه من القصة ... اما الاستاذ الكرمي فقد آثر الامانة العلمية في النقل ...

وهناك فارق أساسي بينهما في ذلك .. فمع أن الاستاذ بيدس كان يبيح لنفسه ذلك الا أنه كان يحرص على الا يدس نفسه بين شخوص القصة دسا صريحا ، لئلا يفسد الفن القصصي في مجرى الاحداث .. بينما نجد الاستاذ الكرمي رغم امانته يزج بنفسه بين ثنايا القصة ...

---

(١) تمهيد لرواية مي ص ٣ — ٤ (٢) رواية مي ص ٤٧ — ٤٨ .

ويشير ويومي ايماءا بدلا من التصريح الذى في القصة ... وهو ايماء يفوق التصريح في دلالته :

" تجلّدن الان ايتها السيدات جميعا ، ولا تصببن جام غضبكن على راعي الامانة في النقل تقضي علي بأن اقول الحق ، وان تلم صيت قصتي ، ولكني لا اصوره في الالفاظ الصريحة ، بل اشير اليه اشارة ، واومي ايماء ، انني لا اتعرض لوصف العمل العاهر الذى قامت به السيدة على الشجرة ، وسأبقيه سرّا مكتوما لا ابوح به لانسان ، ولكني لا اشك في أن (ميّا) تحلف بالله صادقة انها لم تر في حياتها ساعة اهنأ من تلك الساعة ، ولم تعمل طول عمرها عملا أسر من ذلك العمل ولا ارضى .. "(١)

وأما قصة (خالد) فيختارها من بين آثار الكاتب الاميركي (فرنسيس ماريون كروفورد) الذى يجنح في رواياته الى تصوير الحياة الشرقية .. وقد اشتغل في الهند بالصحافة مدة غير قليلة ... ويقول الاستاذ الكرمي في الكلمة التي يوردها في آخر الرواية :

"... هذه هي الرواية العربية الجميلة التي اخترنا أن نتحف بها القراء نزفها اليهم ونحن على ثقة من أنهم سيقابلونها بالاهتمام .. لما فيها من فوائد وخصوصا ايقاف قراء العربيه على ما يكتبه الغربيون عنهم ... وسنبذل الجهد في سبيل اختيار مثل هذه المؤلفات التي تجمع بين اللذة والفائدة للتعريب والنشر خدمة للغة الضاد وقياما بحق الادب .." (٢)

والرواية في اطار ديني :

"... هذه قصة خالد الجنى المؤمن التي كتبت بماء الذهب بقلم امير كاتب في نجد ليقرأها الناس ويتناقلوها ..." (٣)

ويرد في اولها :

"... انه ليس من المحال أن يهتدى الامير ويدخل في دين الاسلام .. اذا وفق الله هذا الامير واهتدى الى الايمان وتزوجته وذهبت معه الى بلاده فسأكون سببا في اسلام كل رعاياه وهدايتهم ... فاستحق أن ادعى ام المؤمنين كما دعيت عائشة زوج النبي وحبيبته رضي الله عنها ..."

تلك هي الالوان الغالبة على القصص المختاره التي عربها الاستاذ احمد شاكر الكرمي ، وهي تتجنب لجج الواقع التي اقترب كثيرا منها الاستاذ خليل بيدس ، وترتد عنها لتغتسل في غدران الرومانتيقية ، وتتظلل بالظلال الدينية ، وتكتسي ارواب الفلسفة ...

---

(١) رواية مي ص ٤٣ — ٤٤ (٢) رواية (خالد) ص ٢٤٦ (٣) رواية (خالد) ص ٢٤٥ .

والاستاذ الكرمي يولي عنصرى اللذة والفائدة اهمية كبيرة ، ولهذا عددناه من مدرسة بيدس، وان يكن غايتها بعض الشيء ! والاتجاه المثالي في قصصه اوضح بكثير منه في قصص بيدس.

اما الروايات التي اعتمدت على عنصر التشويق وامتلأت بالمغامرات والعقد الروائية المثيرة التي تستثير الفضول لمعرفة النهاية التي تؤدى اليها الاحداث المتشابكة ويغلب عليها الاتجاه البوليسي ، فقد كان كاتبها الاول في هذه المرحلة السيد جميل البحرى صاحب مجلة الزهرة ، ومطبعتها ، والمكتبة الوطنيه ، وجريدة الزهور في حيفا ...

وقد كانت واجهة مجلته الزهرة كالاتي :

"مجلة ادبيه روائية اخلاقيه تاريخيه فكاهيه" فكانت الروايات من "مقبّلات مأدبته الصحفية" كما يقول الناقد اللبناني الكبير مارون عبود .. ولكنه تمادى في هذه المقبلات حتى كاد أن يحشوها بأصناف التوابل والبهارات ليثير بها شهية القارئ .. وكانت العناية لديه بالاستثارة اغلب من عنايته بالنفع والفائدة ...

وقد كان يكثر من اختيار الروايات لمجلته ... ثم دفع به الامر الى ان يجعل من مجلته (الزهره) اقساما :

القسم الاول : قسم الرواية يصدر به العدد مستقلا ..

والقسم الثاني : معرض اقلام كتاب الزهر .....

والقسم الرئيسي : المجلة نفسها ...

فالقسم الاول من الزهرة في كل اعدادها رواية بوليسيه متسلسلة ، ففي السنة الثالثة كان القسم الاول بعنوان (اللص الظريف) (١) نقلها عن جريدة (الجورنال) ... وكان من سلاسلها التي تقع تحت هذا العنوان الكبير ما يلي :
" الطلق الناري " ، و "ايزادور الفتى" و "جثة الجريح" وغيرها ...

وفي العددين السابع والثامن من مجلة الزهرة في سنتها الثالثة يكون القسم الروائي بعنوان " قاتل اخيه " وهي مأساة تمثيلية في ثلاثة فصول ، وقد طبعها على حدة وظهرت الطبعة الاولى بعد الحرب الكبرى مباشرة ، وقد أعدها لعشاق التمثيل الادبي ، فمثلت على المسارح في سوريا وفلسطين وغيرهما من البلاد العربية وكان عليها اقبال شديد ...

ويقول في مقدمة الطبعة الثانية : "قاتل اخيه رواية ادبيه اخلاقية تمثل للقارئ الكريم الحالة التي يصل اليها كل من انصت لصوت عشراء السوء حوله .."

---

(١) الزهره / القسم الاول / السنة الثالثه ...

ولعلها ان تكون باكورة اعماله الروائية .. ومن غريب المصادفات أن تنتهي حياة الكاتب جميل البحرى بالقتل .. وحوادث الرواية تقع في اسبانيا في اواخر القرن السابع عشر ... والغريب في أمر الكتاب المترجمين في هذه المرحلة أن يحشرو الشعر العربي حشرا في المشاهد التمثيليه ،كذلك فعل البحرى في المشهد السابع من الفصل الثالث من هذه الرواية حيث يركع البطل هنرى ويناجي ربه قائلا :

الهي وخلاقي وحرزى وموئلي اليك انا العبد المسوّد ارجع

ويورد خمسة أبيات من الشعر !

والظاهره الشكليه في الروايات وهي حشر الشعر مألوفة لدى الكتاب في ذلك الزمن كما تراها في الحلقة الرابعة من روايات الزهرة التمثيلية وهي (الخائن) التي عربها (ا : ث) وارتقى بها الى سنة ١١٨٥ في ارلندا حيث الاقطاع والتحاسد بين الاقطاعات يؤدى الى سفك الدم بحيث يسفك الابناء دم الاباء ... فقد ملأها تضمينات شعرية .

وقد لقيت روايات البحرى التمثيليه اقبالا شديدا ومثلت على المسارح في الاقطار العربيه ،واعيد تمثيلها ،واعيدت طبعاتها .

وفي مقدمة الطبعة الثانية لروايته " سجين القصر " يقول :

" الرواية منسوجة الاصل في قالب غرامي فعمدت الى التصرف بها تصرفا لم اترك معه باب ملامة او تذمر من جهة آدابها ، كما اني استبدلت ادوار النساء والعشاق بأدوار تحاكيها رقة شعور ،ولكنها تبعد عنها وقائع وحوادث،فجاءت كما يراها القارئ والممثل عند رغبة القوم فيها ... ان روايات الغرام مهما كانت نبيلة شريفة لا تصلح لان تمثل على مسارح المدارس،فضلا عن انه يصعب ايجاد من يقوم بتمثيل الادوار النسائية بين الشبان حتى ولو كانت هذه الادوار خلوا من الغرام . فهذه الفكرة هي التي جعلتني انسج في رواياتي التمثيلية كلها على منوال اخلائها من كل دور نسائي مهما كان مع الاحتفاظ بالوقائع والمغازى التي وجدت الروايات التمثيلية لاجلها ."

وهو يقول هذا القول في شهر شباط سنة ١٩٢٧ ،وقد كانت الحركة المسرحية في بداية نهوضها .. وقد رأينا بعد ذلك وجود الممثلات في الفرق التمثيليه في فلسطين .. ولكن اتجاه البحرى كان للمسارح المدرسيه في الدرجة الاولى .. ومن هنا كان موقفه من الادوار النسويه والحوادث الغراميه ... وشأنه في (سجين القصر) كشأنه في سائر رواياته يحشر الشعر العربي في فصولها حشرا يزيد عن الحد الطبيعي فاذا المواقف التمثيليه بين يديه قد تحولت الى مواقف خطابية شعرية ،وبذلك يفسد الجو الروائي !

وكان له من الروايات التمثيليه ما يلي :

١) سجين القصر (خمسة فصول)
٢) قاتل اخيه (خمسة فصول)
٣) في سبيل الشرف (خمسة فصول)
٤) ابو مسلم الخراساني (ثلاثة فصول)
٥) الخائن (ثلاثة فصول)
٦) زهيرة (خمسة فصول)
٧) وفاء العرب (ثلاثة فصول)
٨) حصار طبريا (ثلاثة فصول : وكانت مأساة نسائية ادبية تاريخما ، وضعها خصيصا للآنسات الاديبات ولتلميذات المدارس)
٩) الوفاء العربي (اربعة فصول)

وهكذا كان قد سد فراغا في حاجة المسرح المدرسي الى الروايات التمثيلية وكانت رواياته استجابة لتلك الحاجة !

وكدنا نحكم على هذه المرحلة من حياة القصة بعدم القدرة على تجاوز الحد الذى بلغته مدرسة بيد س، بل بالرجوع عنه الى الوراء قليلا .. لولا أن طالعتنا في النصف الثاني من المرحلة مجموعة قصصية تحمل طابعا جديدا وتعالج مواقف اجتماعيه جادة ولها اهداف ادبيه ومضمون ايديلوجي بارز السمات... يهدف في مداه البعيد الى تجديد الحياة الاجتماعية كلها ، ولذلك نرى هذه المجموعة تلقي اضواء على طبيعة العلاقات بين الطبقات وعلى مستوى التطور الذى وصلت اليه كل طبقة من تلك الطبقات.

هذه المجموعة تتصدر كتاب (اول الشوط) للاستاذ محمود سيف الدين الايراني ، وتشتمل على نصفه الاول ... والمجموعة تحتوى على القصص الاتية :

١) (نداء البدن) ٢) (صراع) ٣) (رغيف خبز)
٤) (سحابة مرّت) ٥) (حياة انسان) ٦) (جرائيم)
٧) (احتمال الحياة)

والقصة الاولى متأثرة بفلسفة (د . هـ . لورنس)... "بيني وبين هذا البدن تجاوب عميق . وكأنما هو اعد لي ، وكان ينتظرني من امد بعيد . وكلما حاول الضمير أن يهمس في روحي خنقه دوى بدن حوائي الجديدة وصعقه واغرقه طميه وتدفقه .." (١)

---

(١) اول الشوط / قصة نداء البدن ص ٢٢ .

ويصوّر غرائز الطبقة البرجوازية ورغائبها :ـ

(... فلنتمرد .. ولنصرع القيود .. ولنأخذ حظنا من مائدة الحياة الحافلة... ونشبع نحن وتقتلنا الكظة ... وغيرنا يموت جوعا وظمأ ... "

ولكنك تحسّ من جو القصة انه لا يقف الى جانب هذه القيم الانتهازية !

ويثور نداء البدن حتى في الزوجة الكهلة حين تمددت الى جانب زوجها الشيخ **المهدم** : "... مسكين **انه** ضعيف ضعيف جدا . انها بدأت تكرهه . ادركت ذلك بغريزتها فقط . لم ؟ لا تدرى .. لعلها ليست على حق في هذا الكره فهو لم يسيء اليها . وهو اليوم اشد ما يكون عطفا عليها وحبا لها ولكن الكره بدأ على كل حال يدب في قلبها . ما أبعده اليوم عن قلبها . شيء يشبه الجوع والظمأ تئن له احشاؤها . لقد كان هذا الشيخ يستطيع ان يشبع هذه الاحشاء النهمة ويروى ظمأها . اما الان . فهو عاجز وما زال الظمأ يستعر ويطلب ريا . ولاح في بهرة خيالها طيف (قاسم) زوج ابنتها الكبرى . انه شاب قوى . تصرخ الرجولة في صفحة وجهه .. ولكن هذا الرجل ليس لها . انه ملك لامرأة اخرى . وتحرك في قلبها شبه حقد على ابنتها . وأحست كأنّ نصلا يمزق أحشاءها وجاشت في مآقيها الدموع الخرساء..."

ويجيل هذه الفكرة ويديرها كثيرا حتى تتشبع بها اجواء القصة :

"... هو لا يكره زوجته ، ولكنه يظن أن لا سبيل الى الاتفاق بينهما . لقد حاول جهده ، وهي حاولت ايضا ولكنهما اخفقا . هو لا يستطيع أن يحدد تماما لم لم يتفقا ، وهي لا تستطيع ذلك ايضا . لكن مما لا ريب فيه أنه يحسّ ان نفورا كامنا متأصلا بين جسده وجسدها يباعد بينهما ... ومن ذا يظل يفتك الجوع في احشائه وزاد الحياة امامه لا يستطيع ان يمد اليه يدا ....؟ .." (١)

تلك هي الفكرة التي ارادها أساسا يقوم عليه عمله الفني ..وهي بغير شك مأخوذه او مستوحاة من رواية (عشيق السيدة تشاترلي) للكاتب الانكليزى د . هـ. لورنس، ومن فلسفته في تفهمه للحياة من خلال الجسد !

وقد اعتمد التحليل النفسي وسيلة من وسائل عرض هذه الفكرة.. ورغم انها مستوحاة الا انه استطاع أن ينتزع لها المواد البانية من بيئته في رام الله ! واستطاع أن ينفذ الى جذور الروابط التي تربط الاسرة في المجتمع البرجوازى ... ومن هنا كانت بداية ثورته الاجتماعيه .. وهذا التيار المتصل بنداء البدن وحرارة الجسد تيار خطر قد يوقع الكاتب في هاوية التهلكة اذا لم يكن واعيا متنبها مستبينا بطريقه متفتحا على الصوى التي ترشده الى غايته...

---

(١) اول الشوط / قصة نداء البدن ص ٩ ، ١٠ ، ١٣ .

ولقد كان للاستاذ محمود سيف الدين الايراني من وعيه وادراكه لوظيفة الكاتب الاجتماعيه ما وقاه الانزلاق او الضلال في متاهات هذا التيار الخطر فهناك قيد شعرة بين السير السليم والسير المهلك في هذا المتجه من القيم الاجتماعية !

ثم يترك الاستاذ محمود سيف الدين الايراني ذلك التيار الخطر ..

ويتجه الى لجج الحياة الاجتماعية الكادحة التي يعيش افرادها في صراع بحكم روابطهم وعلاقاتهم .. ويختار لقصته بطلا من بين هؤلاء يحمل صندوقا صغيرا ويمر بالزبائن جميعا من آن لاخر وهو يسأل كلا منهم بابتسام : "امسح يابيه ؟" ، ونرى الاحداث ، والروابط الاجتماعية تتوالى على ماسح الاحذيه ... فتتطور به الظروف وتتقلب الاحوال ويحسن الاستاذ الايراني تصوير ذلك التطور والصراع الذى يصيب ماسح الاحذية في حياته ...

".. لكن والله يا بيه أنا برده راجل طيب وما احبش الحاجات الوسخة دى ولي ضمير ... يوبخني ، لكن ما اقدرش .. أنت فاهم يا بيه ما اقدرش ابدا . دول يقتلوني اذا خالفتهم .." (١)

وينسج خيوط قصته من واقع الحياة البرجوازية في مدينة يافا .

ثم يتخذ من الحرب الاولى وايامها وتأثيرها في المجتمع مادة لقصه جديدة بعنوان رغيف خبز ... وهنا تتجمع ثورته وتعنف على لسان بطله ، الرجل الذى كان "ينتزع القرش من بين فكي سبع" .. (٢)

وحين يرى الفلاحين هنا وهناك يؤدون عملهم المرهق في الحصاد يصيح : "هؤلاء الفلاحون الخانعون على قوتهم ، الراضحون للعنت والاذى . هؤلاء الاشقياء . أى شيء هذا الذى يقعد بهم عن التمرد ؟ اى شيء هذا الذى يجعلهم يقنعون بالرغيف الاسود وما هو دون الرغيف الاسود دون " (٣)

حتى اذا امضينا في القصة الفينا ثورته تشتد : " يخيل لي أني غريب عن كل ما يحيط بي .. كل هؤلاء الناس الذين اعرف ، والذين اتصلت بهم باسباب مختلفة متباينة .. اشعر وانا بينهم بقلق ونفور .. وبرغبة ملحه في الانطلاق من بينهم .. لشد ما هم بعيدون عن نفسي ... هم يعيشون في دنيا محدودة الامال والمطامح واني لاتخيلهم راسفين في اغلال وقيود صلبة يقدسونها ويعبدونها . بلى انسي اتخيلهم هكذا سائرين جميعا في تيه ضرير لا نهاية له يسوقهم قزم مشوه ما يفتأ يلسع اجسامهم بسوطه ... ثم يختفي في احشاد الظلام مقهقها ، اية سخرية هذه !!!

---

(١) اول الشوط / قصة صراع ص ٢٦ - ٢٧ (٢) اول الشوط / قصة رغيف خبز ص ٣٨
(٣) اول الشوط / قصة رغيف خبز ص ٤٠ .

... اجل هذا ما اريد ، ان احمل معولا رهيبا احطم به هذه الاصنام ! " (١)

ثم تمضي القصة وتتطور الاحداث ويتطور معها البطل " .. ان ميولا ونزعات اخرى خفية تعيش في نفسي .. كنت اجهلها ... طيبة .. رحمة .. حنان .. من يصدق ؟! ... (٢)

وينتهي به الامر :

"... فقد اندفعت في سبيلي متمردا . مجنونا . واني اليوم لاشد اغتباطا مني في أى يوم آخر ... فقد وجدت مجنونا مثلي ... وثانيا وثالثا ... ونحن نتفاهم بسهولة .. وميولنا تلتقي واغراضنا تتحد ، وامزجتنا تتوائم .. لا شك في ان هناك موحيات خفية قديمة راسبة في الاعماق تسيطر على حياتنا وتوجهها . فما اسعدني ! "

وهو يعتمد في قصصه كلها على التحليل النفسي ، ولكن هذا التحليل لا يباعد بينه وبين الاتصال الوثيق بالمجتمع الذى يستمد منه مادته القصصية بعد أن ينفذ الى اعماق بنائه البرجوازى . وتتمكن فيه القدره التعبيريه بحيث تصبح بضع كلمات منه كافية لحمل مواقف اجتماعية بكاملها (٣)

" ... وتنحنح بغضب ، وبصق على الارض ومسح فمه بكمه واردف : (الواحد منا مش لاقي ياكل .. واولاد الكلب بيركبوا عربيات ويتبرحوا ... اخص تفوه) ... وفي موضع آخر تنقل كلمات بسيطة جدا قصصيا بكامله :

" .. أنا والله يا جماعة مش صاحي على نفسي هالايام ، مش لاقيين لقمة نأكلها .... الوليه والاولاد حالتهم مجنناني .. العيش الحاف مش محصلينه " .

ويقول في موضع ثالث :

" .. كلابهم احسن منا بياكلوا خبز ولحم ، ونحن نتعرى ونجوع وندور في الشوارع بطالين ... ورانا عيال وفي رقابنا اطفال ... "

وتدور الجريمة في رأسه ، لا يبرح شبحها ذهنه .. سيشترى خنجرا ذا حدين يغمده في صدر (ريس الورشة) يخمد به انفاسه النجسه ، وبعدها لا يهمه أن يقتلوه ، أن يشنقوه ، أن يضعوا الحديد والاصفاد في يديه ورجليه ، يجب علي أى حال أن ينتقم لنفسه ولهذه المعد الجائعة بوجهه تريد طعاما كلما اوى لحظة الى بيته ...

ويأتي الحل بعد أن كاد اليأس أن يطبق .. فيناديه صديقه : " المعلم عاوزك تشتغل عنده لما عرف ان ريس الورشة التانيه اطلعك بدون سبب "

---

(١) اول الشوط / قصة رغيف خبز ص ٤٤ (٢) اول الشوط / قصة رغيف خبز ص ٤٥

(٣) اول الشوط قصة سحابة ومرت / ٤٨ ـ ٥٤ .

وتنتهي القصة وبطلها يردد " ما يزال في الدنيا أناس طيبون كلهم خير وبركة ٠٠" ولولا تدخل لا يلبث أن يقع فيه الكاتب ، فيقف موقف الخطيب المتحمس الذى يلقي بقيمه معقدة على لسان اشخاص بسطاء ، لكان الكاتب الاول في فضح الطبقة العليا من البرجوازيه المستغلة او البرجوازية الانتهازيه الكبيرة وفي تصوير غشها ولصوصيتها ٠٠٠ "الناس في عرف عبد الواحد هم هؤلاء السادة الاغنياء يملكون سيارات يركبونها ويسكنون قصورا منيفة ، ولهم حدائق واموال كثيرة مودعة في المصارف ويتحكمون بمعاش امثاله العمال الفقراء ينزعون من افواههم ما يسد الرمق ويدفع غائلة الجوع ٠٠ واتجه ذهن عبد الواحد اتجاها آخر ، هناك لصوص يجدون الف وسيلة ليمدوا ايديهم الى حيث يريدون فاذا اكفهم يلمع فيها الذهب لا يحجمون عن اية جريمة تحقق اغراضهم ، يذبحون الرجل كأنه دجاجة ثم ينامون ملء جفونهم لا يزعجهم الدم المراق ولا يقض مضاجعهم تخريب البيوت وازهاق النفوس ٠٠ كل شيء يهون امام هذا المعبود ، هذا الاله الهائل : المال !"

هذا السرد التقريري للقيم مادة تصلح لقصة وينبغي أن تستنتج من نمو البناء القصصي وتطور الاحداث وتشابك العلاقات والروابط في المجتمع ومن تصارع الطبقات ٠٠٠ اما أن يقذف به قذفا خطابيا فانه مفسد لطبيعة الادب القصصي مضعف لقدرته على التأثير في النفوس ٠٠٠ فهو ما زال في حاجة الى التخلص منه حتى يكون الكاتب القصصي الذى يحمل في صدره القيم الاشتراكيه الصحيحة وفي قصته (حياة انسان) (١) يخطئه التوفيق ٠٠ فالادوار في القصة القصيرة تتلاحق لاهثة مرهقة من سرعة التتابع ٠٠ ويحاول فيها تطبيق علم النفس على الحياة بشكل يكاد يتجاوز حدود المألوف فتبدو الاحداث كأنها غير واقعية ٠٠ ويغرق المواقف في بحر من التحليل النفسي حتى تختنق فيضطر الى تعليل ما يقع بالجنون ٠٠ وذلك من شدة المغالاة ٠

واما قصته "جراثيم" (٢) فمضمونها يبدو من اهدائها الى العامل التعس الذى يخون كل يوم الى حيث يفني حياته ويتلف قوته وشبابه ، ويعود اذا ما جن الليل يحمل في صدره هم طبقة شقية بأسرها كل حياتها قصة طويلة هائلة من القهر والحرمان والموت" ٠٠٠ وقد فعل خيرا بأن افرغ هذه الحقيقة التقريرية في الاهداء ، ولم يوردها في سياق القصة ٠٠٠ وبذلك ينجو من ثقلها البناء القصصي !

ولكنه يحشر في القصة غير ذلك من الاراء السياسية والاجتماعية ٠٠ ويجنح بها الى الخطابة لكثرة ازدحامها في صدره ، واصراره على ايرادها كلها في قصة واحدة ٠٠٠

---

(١) انظر القصة (حياة انسان) في "اول الشوط" ص ٥٦ — ٧٠

(٢) انظر القصة (جراثيم) في "اول الشوط" ص ٧١ — ٨٨ ٠

وفي قصته كثير من الاراء القيمة في نشوء الاحزاب ... وفي صلة الحياة الاجتماعية بالسياسة . وفي الطبقية... وفي طرق الانتهازيين النفعيين ... وفي المستوى الاقتصادى للمجتمع وفي عمليات السمسرة لليهود ... وفي الصحافة والالقاب

اما قصته (احتمال الحياة) فنحن نسميها قصة تجاوزا لانه ارادها ان تسمى قصة وما هي بقصة ! وانما هي حوار في فلسفة الحياة وفلسفة الزمن :

"... هذا في اعتقادى خطأ ، اذ الحياة والزمن وحدة كاملة بحيث لا سبيل الى الاحساس باحدهما منفصلا عن الاخر ... اننا نحيا حقا ونشعر بالزمن والحياة حقا واذا تعذر علينا أن ندركهما تمام الادراك فان لدينا على الاقل ومضات خالدة وموجات حية منهما في الاعمال الانسانية المجيده ـ وانا استطيع أن احيا الماضي ـ ماضي العصور والاجيال ـ حاضرى المحدود ."

ثم تنتهي البطولة عنده بثمرة ومكافأة وهي أن يمنح البطل الجسد والانوثة ليتمتع به جزاء اعجاب البطلة به !

ان الاستاذ محمود سيف الدين الايراني تزدحم في صدره القيم الديمقراطيه الصحيحة ، والمواقف الاجتماعية الواعية ، والتطلع الى الامام في حركة الحياة.. والايمان بانتصار القوى الكادحة العاملة ... وفي ذهنه صورة صحيحة للحياة السليمة.. ولكن هذا الازدحام رغم انه يمده بالحرارة الا أنه كثيرا ما كان يفوّت عليه النسق القصصي ويحرمه القدرة على تحميل الاحداث الايحاءات المطلوبة ، فكان يقذف بهذه القيم قبل أن تنضج في عملية فنية موحيه !

ولهذا فقد كانت قصصه زاخرة بمادة قصصية تصلح لبناء عشرات من الاعمال الفنية القصصية ، ولكنه كان يراكم هذه المواد في هذه المرحلة .. فعسى ان يخفف من هذا التراكم في الادوار التاليه ، فيكون رأس المدرسة الاشتراكية في حياة القصص في هذا الوطن !

وقصص الاستاذ محمود سيف الدين الايراني محاولات تطبيقية لفكرة الفن التعبيرى الهادف ، المناضل الذى يتفهم الظروف ويتخذ من المشاهدات والتجارب الخاصة نماذج فنية تصلح مقياسا للنواميس الطبيعية العامة ، ومع ذلك فيهما تلك الالوان الحسية الشخصية وفيهما تلك الحرارة الفردية ... ولكنها ليست فردية شاذة وانما هي فردية نموذجيه لها طابعها الخاص الذى يصلح قياسا للطابع العام حين تتشابه الظروف ... وهذا اللون المميز وهذا الطابع الخاص يضفي على المضمون حيوية تجعله عملا فنيا ذا شأن ..

---

(١) اول الشوط / ص ٩٠ ـ ٩٣ .

ولقد ادرك الاستاذ الايراني أن التمرس بالحياة وتاريخها ودراسة التجربة واستيعابها وتمثلها في ظروفها ومعرفة الاتجاه الصاعد فيها كل ذلك ضروري للعمل الفني الحق ... ولكنه في التطبيق لم يوفق الى عرض هذه القيم فنيا في بناء قصصي سليم .. فتراكمت معه ومالت الجدران في البناء .

كما فهم أن الفنان هو خادم المجتمع الامين ، وأن الفن أداة من ادوات ترقية الوعي الانساني ، وأنه وسيلة من وسائل تحسين النظام الاجتماعي الذي يعيش الناس في ظله ... من أجل هذه المفاهيم والقيم عددنا الاستاذ الايراني ظاهـــرة مضوئة في تاريخ الادب القصصي في هذه المرحلة ، كما كان الاستاذ بيدس ظاهـرة مضوئة في المرحلة السابقة !

والفصل الذي نشره في (الطليعه) (١) من مسرحيته (اللهب) خير مثل على اتجاهه هذا وآرائه تلك !

(يطل حمدي من النافذه .. يرقب حركة الشارع .. غوغاء . صياح .. تخالطه قعقعة العربات .. يرتفع صوت انسان ، لعله حمال يخاطب انسانا آخر ويتهدده بمثل هذا الكلام " يا ظالم ! خاف ربك ... مالكش دين ... ساعة كاملة وانا تحت الشمس والحر وعرقي مرقي ... انكسر ظهري تحت الحمل .. وبعدين تعطيني قرشين يا ظالم ... باخدش اقل من خمس قروش ... ادفع بقولك ادفع ... والله ان ما دفعت اقتلك واشرب من دمك عايفها يا شيخ .. كله شقى في شقى .. والموت افضل .." ويقف الناس موقفين .. موقف الى جانب الحمال ... وموقف الى جانب الظالم ...)

ومن هذه المواد يختار مواقفه المسرحيه حتى تنتهي به الى ايراد مفهوم في الحب :

" الحب ! اني لا افهم الحب الا في حدود الامال المشتركه ووحدة العمل والميول ، اما هذا الحب الذي يناصبني العداء ، ويريد أن يصرفني عن واجبي ويضع على عيني قناعا من حرير بينما كل شيء حولي يضج بالالم والذل ويدعوني من اعماق روحي الى العمل والكفاح والتضحيه ! هذا الحب الاحمق ، لا يمكن ان اومن به ! .."

ثم ظهر في هذه المرحلة اتجاه خيّل اليه أن المجتمع انما خلق من اجل الفنان ... وأن الفن ليس الا غاية في نفسه لا ينبغي أن يتخذ وسيلة والا هبط المستوى الفني .. واصحاب هذا الاتجاه قد ينكرون أن ينسب اليهم مثل هذا الرأي ، ولكنهم في واقع الامر انما يصدرون عنه حين يقيمون بناءهم القصصي ، تلمحه في مضمونهم كما تلمحه في اشكال البناء !

---

(١) الطليعه / عدد ٥ / سنه / مايو ١٩٣٧ ص ٣٦٣ ـ ٣٧٠

ومن حسن حظ الفن في كلا الاتجاهين أنه ارتبط بالحياة الاجتماعية سواء في ذلك أكان وسيلة أم كان غاية...

ولعل اوضح من يمثل هذا الاتجاه الاخير الذى يقابل اتجاه الاستاذ الايراني كاتبان من كتاب القصص هما الدكتور علي كمال والاستاذ جبرا ابراهيم جبرا وان يكن بينهما فارق جوهرى الا انهما مضيا في الاتجاه نفسه واختلفا ولكن اختلافهما لم يخرج بواحد منهما عن دائرة الاخر!

لقد حاول الاستاذ جبرا بحكم تمرسه الطويل بالادب الانكليزى أن يكون ايجابيا في رومانتيكيته .. واصّر الدكتور كمال على أن يكون سلبيا في رومانتيكيته ، كما اصرّ على عدم الانسجام مع البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ، على الاقل في مجتمعه القصصي الذى يتخذه !

هذا يفسر لنا الشكل والمضمون الذى اتخذاه في سيرهما القصصي ..

وليس من شك في أن الاستاذ جبرا متمرس بالفن القصصي سواء منه المترجم والموضوع ، ولديه قدرة على خلق الجو القصصي والظروف القصصية الموحية..

وسوف نختار قصتين الاولى للدكتور كمال والثانيه للاستاذ جبرا تمثلان اتجاههما بل اتجاهيهما .

الاولى قصة العدد للدكتور علي كمال بعنوان "صاحب القصر" (١) والثانية قصة "ابنة السماء" (٢) للاستاذ جبرا وقد اهداها للدكتور كمال .

ويحاول الدكتور كمال ان يملأ قصته بفلسفات وآراء يكدسها تكديسا بعضها فوق بعض ، كصاحب الدكان الذى يراكم بضاعته في الواجهة ويضع فيها ما ينبغي أن يكون في الرفوف الداخليه ، وما يصلح للرفوف يضعه في الواجهة ... وهكذا يفقد جمال التنسيق وحسن العرض سواء في الواجهه او في الرفوف... وتحسّ بقيمه من مطلع القصة :

"... هبطت هذه القرية الجبلية لاول مرة .. مصطافا .. اطلب العزلة في سفوحها النضرة ... ولبثت في صحبة الطبيعة مأخوذا .."

ومع أنه يحاول أن يدس في القصة ما يوحي بأنه يؤمن بالهدف والغاية والمنفعة من وراء القصص.. الا انه لا يعدو الامر هذه العباره .. فيقول على لسان الشيخ في القصه :

"... ولكنني سأضع امام عينك صورة من صور الحياة ادركتها بعد فوات الاوان فلعلها تكون للشباب درسا وللمسنين موعظة..."

---

(١) الامالي / السنة الاولى / عدد ١٩ ١٩٣٩ ص ٦٠٠ ـ ٦٠٢

(٢) الامالي / السنة الاولى/ عدد ٤٤ وعدد ٤٥ ١٩٣٩ / ص ١٤٠٦ ـ ١٤١٢ ١٤٤٠ ـ ١٤٤٥ .

حتى اذا مضينا في القصة لم نجد لهذا الدرس طعما ٠٠ بل نجد استسلاما ضعيفا ٠٠ واحتجاجا على الشاب الذى لا يستسلم " لما يحكم العالم من نظم ونواميس تقرر علائق الافراد مع بعضهم وتتولى تسيير امورهم " ، ونقدا لموقفه حين ينكر "كل قيد من قيود الحياة فلا هو يفهم بأن ثمة خارقا اجتماعيا او دينيا او ماليا يفرق الناس عن بعضهم ويجعلهم طبقات ٠٠٠"

وتحس أن الكاتب يؤمن بضرورة بقاء هذه الفوارق لانها من سنن الكون ونواميسه :

" هذه مشكلة يا بني يواجهها المجتمع في كل جيل فلا يقدر على حلها على حساب الشباب دون أن يصطدم بعاطفتهم الثائرة الجامحة ، ولا على حساب المجتمع لان في ذلك هدما لسنن الكون ونواميسه ٠٠٠ هي مشكلة عسيرة يابني نتركها للزمان يتولى أمرها ٠٠٠"

ثم ماذا كانت نتيجة عدم قبول الشاب بالفوارق الطبيعية : لقد فقده ابوه ٠٠فذهب ولم يعد ٠٠٠ والبنت التي احبها ٠٠ فقد نذرت نفسها للدير ، وصاحب القصر والد البنت هجر البلاد وترك قصره فأصبح اطلالا ٠٠ والشيخ والد الشاب اصبح مستسلما للحزن نضو الهموم والاشجان ٠٠

أهذا هو الدرس الذى يريد الدكتور أن يدركه الشباب ويكون موعظة للمسنين ؟ !

ان هذه المواقف هي ثمرة تلك الدعوة التي كان يرددها في كل كتاباته دعوة الانعزال ٠٠٠ وترك الارض ٠٠٠ والتميز بشيء عن سائر الناس ٠٠٠

هذه المواقف ليس من الغريب ان تصدر عمن رأى الافراد والجماعات " يكدحون ويعملون وينظرون الى الارض كل يومهم ويرمقون ببصرهم السماء بين الحين والحين لا لفهم ما في السماء ولا لاستجلاء حقيقة السماء ولكن لمعرفة الزمن منه لمواصلة العمل في الارض ٠٠٠ " (١) فيستنكر عملهم ذلك لان الله اراد أن يتحرر الناس من عبوديتها - على حد قوله - ثم يعجب بعد ذلك للارواح على خفتها كيف لا ترتفع عن تلك الارض الى الابد ولا رجعه ٠٠٠ ثم يعجب لتلك النفوس كيف ارادت الشقاء والتعاسة لنفسها ثم ذهبت تتهم الله والزمن والحظ بأنها جميعا كانت سببا لشقائها وتعاستها ٠٠٠

أرأيت كيف ينظر الدكتور الى مشكلة الكادحين هؤلاء ؟ وهو حين يخشى ان يتهم بالشذوذ في آرائه او حتى الجنون يعلن أن ذاك هو ما يشعر به ويكفيه ان يكون امينا فيسر صديقه بالذى يفكر به ويشعر !

---

(١) الامالي / السنة الاولى عدد ١٥ ١٩٣٨ ص ٤٦٩ - ٤٧٠ ٠

تلك هي القيم او بعضها التي يصدر عنها الدكتور فكيف لا تفضح نفسها في قصصه ؟ وتكشف عن مواقفه الاجتماعية المهزوزة التي هي من ثمرات الاتجاه السلبي المنقرض في الحياة .

اما الاستاذ جبرا فلا يقع فيما وقع فيه صديقه الدكتور ، وانما يجعل رومانتيكيته اجنح الى الايجابيه ، فهي رومانتيكية متحركة تحس فيها دبيب الحياة الطبيعية والحركة السليمة في الاتجاه السليم، وان يكن في الحركة بطء لكن فيها النمو والتطور الفني وليست الحركة متكررة على نفسها ... وقد اكسب شخوصه حيوية وتغيرا وتنوعا بذلك النمو الفني ... وكانت الظروف القصصية فاعلة متفاعلة بهؤلاء الشخوص .. ومن هنا كان الاستاذ جبرا يعد بحق صاحب المدرسة الرومانتيكية الطبيعية للفن القصصي في هذه المرحلة ... يصور طموح البرجوازية الصغيرة وعنادها واصرارها على الفوز:

"فقير ! فقير ! اينما ذهبت وصمت بالفقر كأنه عار لا يمحى . لا بأس لا بأس! سوف أرى هؤلاء الموسرين أن اقلالي خير من كل ثرواتهم واملاكهم .. لسوف آتي من العجائب ما سيحط انوفهم الى الارض اكبارا لقوتي وعجزا عن عظمتي .."

وحين يرد ذكر الفلاحين نجد موقفا يغاير موقف صاحبه الدكتور كمال منهم فيقول في صدد الحديث عن بطله :

"... صار يتردد في كل عشية على الضواحي .. حيث لا يرى الا يد الله في الارض والسماء ، ولا يلقى الا بشرا ينضح من وجوه الفلاحين المشرقة فيبتسم لنقاوة الفطرة .."

ويحب الفتى فتاة في الدير "مات ابوها قبل أن تولد ، وساءت سيرة امها بعد ميلادها ، فلم تجد غير هذا الدير ملجأ في حياتها .. وجدت في الدين بعض العزاء... وتطرقت الى سمعها انباء الحياة الماجنة الطليقة خارج الدير .. علمتها الكتب المهربه الى الدير الوانا من العلم لكن النصر الاخير عقد للفضيلة .. ولما سئلت اجابت بأنها تروم أن تزف الى يسوع الفادى "

ويحس بتعبيرات الشعراء الرومانتيقيين ولاسيما شعراء الانكليز امثال شلي واوسكار وايلد لكثرة ما اعجب بهم وقرأ لهم وترجم عنهم!

"... وعرفت زهية من هو الذى سقاها من الصبابة خمرا اليمه .."

ورغم انه يورد بعض المواقف ويصفها بأنها اوهام وترهات وهذيان الا اننا نحس من سياق بيانه عطفه على تلك المواقف وايمانه بها فحين يقول البطل : (ان احلى املي لدى هو أن نتزوج) تجيبه حبيبته : " من كان مثلك لا ينبغي له ان يتزوج .. الزواج سيقيد روحك... مثلك يجب ان يبقى عاشقا ، لا بد له من الم وحرمان يستحثان خطاه في طريق الكمال " .

وهذا فهم خاطيء للعلاقات الطبيعيه والروابط البناءة السليمه في الحياة٠٠ ان الرابطة السليمة هي التي تخلق الحافز وتستحث الى الكمال ٠ ثم ماذا كانت نتيجة هذه المواقف ٠٠٠ والى اية غاية اتجهت ٠٠٠ ان البطلة قد جنت ٠٠٠ وقد انتحت ركنا في الدير تلقى فيه رأسها على صدرها ٠٠٠ والعبرات تنهل من عينيها حيث يقال " ان الراهبة زهية كانت كثيرة البكاء في صلواتها لحرارة ايمانها ٠٠"

واما البطل فقد خرج الى التلال في ظاهر المدينه " عله يلقى زهية اخرى ٠٠٠ لكن هيهات ! وقيل ان اسمه بعد ذلك كان كثير الظهور في الكتب والمجلات "

كأن الكتابة انما هي وحي المأزومين المهزومين وليست ثمرة الوعي السليم للاتجاهات السليمة في الحياة ٠٠٠

تلك هي اخطار الرومانتيكية المثالية ٠٠٠ انها لا تعرف تخطيط الاهداف تخطيطا فنيا ٠٠٠ ان الظروف قد تشوق شخوصها الى الوقوع في الشذوذ او ما يشبه الشذوذ ٠٠٠ وقد يسلمون أنفسهم الى الضياع او ما يقرب من الضياع !

وهناك بعض تعبيرات تنبو عن الشخوص الصادرة عنهم وتبدو في السمع وكأنها ليست من ممتلكات تلك الشخوص ٠٠٠ وهي ثمرة من ثمرات تدخل الكاتب وزج شخصيته في القصة فيحس القارئ بافساد النسق القصصي قليلا ٠٠ هذه بعض الهنات التي تؤخذ على قصة الاستاذ جبرا ٠٠٠

ولكنه رغم هذه الهنات يعد بحق رأس هذه المدرسة الرومانتيكية المثالية في حياة القصة في هذه المرحلة ٠٠٠

ويحاول الشاعر ابراهيم طوقان ان يعالج القصة في هذه المرحلة فيكتب قصة بعنوان (متى وفاء الدين ؟) (١) ولكنه يجنح بها الى المثاليه ٠٠٠ ولولا أن موادها مستقاة من واقع المجتمع في بلدة نابلس لكانت القصة احدى قصص العرب القديمة بالاسلوب العربي الفضفاض ٠٠ وقد كانت لغته فيها كمن يلبس ملابس الشتاء الثقيلة في فصل الربيع او الصيف ٠٠

وكأنما كان موقف (جليله) " القاتلة المقتوله " اخت جساس وزوجة كليب في حرب البسوس متمثلا في ذهن طوقان حين كتب القصة !

اما محاولة الاستاذ فايز الصايغ في هذه المرحلة ، فان كان المقصود منها أن تكون قصة ، فقد جنح بها الى منهج الدكتور علي كمال ، وزاد عليه بأن البسها مسوح الدين ٠٠٠ ففي " سلم الالوهيه " (٢) التي جعل غايتها فلسفة الحب ، واتخذ الرؤيا لها اطارا ٠٠ كان أشبه بمواقف الدكتور كمال فهو يعلن في هذه القصة :

---

(١) الامالي / السنه ٣ / عدد ٨ ، ٩ ص ٩٩ ـ ١٠١ . (٢) الامالي / السنة الاولى / عدد ٤٩ ، ٥٠ ص ١٥٦٣ ـ ١٥٦٤ ـ ١٦٠٦ ، ١٦٠٩ ـ ١٦٠٩ ٠

" الا لتعلمن وليعلم العالم معك ان الحب الشعلة الروحيه الساميـــه ، لا يمكنه أن يدثر ابدا بأطمار المادة البالية ، او أن تحيط به مظاهر الحيوانيـة ممتزجة مع جوهره ... اما خرافة الحب الممزوج بالشهوة ، والروح الممزوج بالمادة ، والله الممزوج بالحيوان فخرافة تضحك وتضيظ ... "

فهو لا يريد أن يخضع لقيم الحياة الطبيعية ومفاهيمها وموازينها وانما هو يريد أن يلجأ الى الروحانيات والى قيم السماء وما وراء المادة او المثالية الميتافيزيقيه، ولهذا فهو لا يقع تحت حكم نقدنا الذى يمشي على الارض !

وفي هذه المرحلة من حياة الادب القصصي في فلسطين تظهر روايـــة للاستاذ انور عمرو عرفات بعنوان :

(ولكم في القصاص حياة) طبعها في بيروت سنة ١٩٣٤ ، واتخذ لها الاطار التمثيلي فجعلها في اربعة فصول ...

اما زمان الرواية فقد كان على اثر انتهاء الحرب العظمى مباشرة .. واما مكانها فهما المدينتان هويلنج وكونيكراتز في بوهيميا ... واما المصادر التي استقى منها روايته فقصة ظهرت في مجلة " شهـــــرزاد " (ص ١٣٥٩ ـ ١٣٦٨) بعنوان (حبيبي النورى) .

وقد حشد في الرواية كثيرا من القضايا المختلفه : كالقضاء والقدر ، وعزة النفس وذلتها ، والظاهر والباطن ، والاحكام البشريه ، والسعادة ، والجمال ، والفقـــر والغنى ، والعلم والجهل ، والانسان والحيوان ، وحرية الضمير ، والاصرار والعناد ، وخفاء الغيب ، والحب والحكمة ، والقصاص والحياة ، وشبكة الانام .

....

فحين تتزوج ابنة الاسرة المتنفذه بمن يبدو عليه أنه نورى حيث يحيا حياة النور نسمع مثل هذه الحكم العجائزيه المملوله :

"... ما الدنيا الا دار تعب وشقاء ، لا يفر ابن آدم فيها من قضاء الا ليقع في قدر ، ولا يظهر له نجذ الا لتغور نجوذ ... " (١)

وعلى لسان من ؟ على لسان البنت الشابة بنت هنرى رب اسرة سوهاج ذات النفوذ .

ولا تحس بالمشاهد التمثيلية ، ولا بالفصول .. وكأن الفصول اوعية فارغة ليس فيها حركة ولا فيها نمو ... ولا تحس بالتطور ولا بالبناء التمثيلي ، وانما هي حكم ومواعظ مملولة تصدر عن شخوص لا تلائمهم وليس لها صلة بنفوسهم ولا تطابق شخصياتهم :

---

(١) رواية " ولكم في القصاص حياة " ص ٤ .

فاسمع له كيف يورد موقفا لطفلة صغيرة (هي ابنة النوري الذي تزوج بنت الوجيه) حين تخرج امها على صوتها وهي تبكي فتسألها عن سبب بكائها فتقول الطفلة : "رأيت خالتي ليديا .. سألتها فرنكا .. فطوحتني ورمتني ارضا قائلة : (خير لك يا ابنة النور أن ترافقي اباك وتتسولي معه) (ثم تلتفت الطفلة الى والدها فتقول :)

-" مالي ارى والدي كئيبا ، لا يفتر ثغره ... عابسا لا تنبسط اسرة جبينه ... مرخيا العنان لقطيع افكاره ... مستسلما لشيطان هواجسه واوهامه .. يتسلل بين اروقة الدار كأنما يخاف شرا او يخفي سرا .. يألف الوحدة حين يجب الاجتماع .. ويخلد للسكون حيث توجد الحركة والضوضاء ... اني طالما أمحنت الفكر علي" اعرف حقيقة شأنه ... وأنى لي أن اجد مبررا لتصرفاته الشاذه ما دام كوكب حياته يدور ضمن هالة رغائبه وآماله...

فتقول امها :

- لقد اخطأ سهم صوابك كبد الحقيقة يا لورنا .. ولو انك تقفين على قصة ابيك منذ القت به يد الطبيعة العشواء في أحضان عالمها المملوء بالخبث والفساد لكانت لك ترنيمة حزن وأسى ترددينها على مر الشهور ، وتتابع الاعوام . انك تعجبين اذا علمت أن اباك يمت بصلة قرابة الى اسرة رديارد و وأن جدك كان من ملاكي بلدة كونيكراتز واصحاب النفوذ فيها على أنه لم يكد والدك يبلغ الثالثة ربيعا حتى ماتت امه فتركت في قلبه فراغا لايسد ... وتزوج جدك بابنة احد العمال الذين كانوا يشتغلون في مزارعه الواسعة ، ولسوء حظ أبيك كانت هذه المرأة من ذوات الدهاء وربات المنافقة والرياء فلم يطل بها المقام حتى لاذت بشغبها ، واظهرت محك نسبها فاذا هي من احط النساء ... وفي منتصف احدى ليالي الشتاء ترك دار ابيه والتحق بجماعة من نور هويلنج وحرم الميراث ... " (١)

وهكذا تجد قيما مهزوزة ، وقوالب من التعبيرات مصفوفة بغير أن يكون لها مناسبة ، وانما هي توضع على السنة اشخاص لا يمكن ان تصدر عنهم .. وليس فعله في ذلك الا كفعل من يجمع قوالب تعبيرية لغيره .. ثم يأتي بمسطرة ويأخذ في صفها صفوفا يقيسها انصافا بالمسطرة ، ويظن أن ذلك يجعلها شعرا ... ان عمله في هذه الرواية ليس خيرا من ذلك بحال من الاحوال .

ويحشر الشعر والاقوال الحكمية حشرا نابيا ساذجا واسمع له كيف يورد هذه القوالب التعبيريه التي لا تبدو أنها من ممتلكاته على لسان ليليا زوجة انطوني الذي كان ابوه ملاكا غنيا ثم التحق بجماعة النور .

---

(١) رواية "ولكم في القصاص حياة" ص ٩ - ١١

".... لست ادرى اية دهماء اصابته .. لقد مضى على غيابه ثلاث ليال واربعة ايام حسوما ، ولقد طال بها انتظارى حتى كأنها اربعة اعوام كل عام منها كالف سنة مما يعدون وما احسبه الا توغل بين احراج الالبا فبغتته سباع الغابة وفتكت به ، وما احسبني من بعده الا متعثرة في اذيال اليأس والفاقة اندب جدى العاثر واشيع املي الغابر ...." (١)

ثم ينهي الرواية على لسان البطل :

".. ويك يا ابن آدم ! تنصب شراك كيدك لتقع فيها ، وتغرس ثمرة عمرك لتجنيها ، امالك فيمن بادوا عبرة فترسل على ما قدمت يداك عبرة ... خفف وطأة نعلك .. ولا **تمش** في الارض مرحا .. فما أنت الا خيط في شبكة الانام او حجر في صرح سعادتهم .. تصيب احدا بأذى الا وتتألم لاذاه اذ لا يعقل أن يجرح الرجل اخاه .." (٢)

وهكذا فلا نستطيع أن نعد هذا اللغو من الادب القصصي في شيء وانما هو مسخ وتشويه للعمل التمثيلي .. وليست هذه القوالب ملكا للكاتب وانما هي اشبه بخطب الجمعه في صحن مسجد قديم لا تمت بالصلة للقصص ولا للتمثيل ولا للادب ، ولسنا نستطيع أن نعين لها اتجاها او نسلكها في اتجاه ، ولولا انها ظهرت في مرحلتنا هذه ما عرضنا لها ، فهي ليست جديرة بالقراءة ولا بالتقسيم ، لانها ضرب من ضروب الاضطراب !

ويؤسفنا أن نجعلها ختام هذه المرحلة في حياة القصة !

---

(١) رواية "ولكم في القصاص حياة" ص ٢٣

(٢) رواية "ولكم في القصاص حياة" ص ٧٣ .

المرحلة الرابعة

وهي المرحلة الاخيرة في حياة الادب القصصي ، وهي ذاتها في حياة الشعر والنثر ، تمتد من بداية الحرب العالمية الثانيه ، وتنتهي بالنكبة التي حلت بالبلاد .

وقد ظهر انتاج قصصي في هذه الفترة للاساتذة خليل بيدس ، ومحمود سيف الدين الايراني ، ونجاتي صدقي ، وعارف العزوني ... ثم ظهر انتاج للكاتبتين نجوى قعوار ، واسمى طوبي ... كما انتج الدكتور اسحق موسى الحسيني ، والاستاذ عبد الحميد ياسين ، والسيد جمال الحسيني قصصهم في المرحلة عينها ... واستمر الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا يوالي نتاجه القصصي كذلك .

وبعض المجاميع لهؤلاء القصاص طبعت بعد النكبة ، ولكن كثيرا من قصص هذه المجاميع تقع في حدود هذه المرحلة من حياة القصص .

وتمتاز هذه المرحلة بالنضوج الفني في ادب القصة واتقان العمل القصصي وبارتفاع مستوى الذوق الفني في بناء القصة ، وبالتقاء المستويات الرفيعة في المضامين والاشكال والانسجام الملحوظ بين الشكل والمضمون في اعمال هذه المرحلة ...

ومن حسن حظ هذه المرحلة أن المدارس المختلفة فيها قد اتخذت اتجاها واحدا تقريبا ، فاقتربت من بعضها في الاهداف والغايات ، وكان بينها اشتراك كبير في قيمها ، وعوامل مشتركة كثيرة في سيرها ..

فمدرسة الايراني بقيمها الاشتراكيه الصحيحة ، والمدرسة المثالية بقيمها الانسانية ، والمدرسة الرومانتيكيه ، كادت جميعها تأخذ وجهة السير نفسها في هذه المرحلة .. وما ذلك الا لأن الكتاب على اختلافهم في هذه المرحلة قد صدقوا انفسهم واخلصوا لاتجاهاتهم واتقنوا اعمالهم ... والصدق والاخلاص والاتقان في العمل مهما يكن المنهج ينتج كثيرا من التقارب في وجهات النظر !

ولعل ذلك يرجع للظروف التي أشرنا اليها في المقدمات الاولى للبحث من حيث ظهور الخطر الجسيم والهاوية السحيقة التي سيتردى فيها الكيان الفلسطيني وكل مقومات وجوده بفعل الاستعمار .. فقد أحس كل فرد أن الكارثة لا تفرق بين أحد ، فهرولوا جميعهم في اتجاه واحد ،

واول ما يطالعنا في هذه المرحلة قصة للاستاذ خليل بيدس بعنوان " البطلة " (١) وقد اذاعها من محطة الاذاعة الفلسطينيه بالقدس ... وهي مثال متقن حي على الفن الهادف المتصل بحياة الجماهير .. وعلى الحب الرائع الذى يخلق في النفس روح التضحية وحب العمل الوطني ...

---

(١) في آخر الجزء الاول من كتاب "حديث الاذاعة" / عن دار الاذاعة الفلسطينيه .

" ـ اذا كان هذا مبلغ حبك ، فلماذا تعرضين نفسك لاهوال الحرب ؟

ـ لأرضيه ، فقد قال لي مرة : انه يحتقر كل فتاة تقضي حياتها في اللهو والبطالة ولا يحترم الا التي لها في العمل الوطني القدح المعلّى .. "

وهي مثل قوى على أن هذه الاغراض وتلك المضامين الرائعة حينما تتناولها يد فنان بارع تتجلى في اروع صورها الفنية بحيث يمتزج فيها الشكل بالمضمون في عملية امتزاج فنية ، لا تحس فيها باعلان ولا بوعظ ولا بخطابة وانما انت امام عمل فني رائع !

ولعل للاستاذ خليل بيدس غير هذه القصة في هذه المرحلة ، ولكنا لم نظفر بخيرها .

اما الاستاذ محمود سيف الدين الايراني الذى اتخذناه رأس المدرسة الاشتراكية الصحيحة في ادب القصة في المرحلة السابقة ، فقد حافظ على اتجاهه . وواصل جهوده القصصية ، وان تكن مجموعته ظهرت بعد النكبة بعنوان (مع الناس) الا اننا من قراءاتنا لهذه القصص نستطيع أن نحكم بكل يسر ما اذا كانت الواحدة منها مكتوبة قبل النكبة او بعدها ...

ففي المجموعة حسب تقديرنا ثلاث قصص كتبت بعد النكبة ؛ وهي القصص التي تطالعنا في اول المجموعة تحت العناوين : الخروج من الجنة .. والارض الطيبة .. وقصة لم تتم ...

وتبقى بعد ذلك تسع قصص تقع في حدود مرحلتنا وتطالعنا بالعناوين الاتية : الظمأ ... حذاؤه الجديد ... حطام ... هراء ... الاحتراق ... ابو جسار رجل رهيب .. قيد لن يتحطم ... عود على بدء ...

وكأن الاستاذ محمود سيف الدين الايراني قد أحس بعيوبه في المرحلة السابقة ، واتصل بنماذج كثيرة رائعة من آثار كبار الكتاب الروس امثال غوركي .. فاخذ يحد من تدخله واندساسه بين شخوص قصصه ، ونجح في اخفاء رأسه حين كان يقف وراء شخوصه ليلقنهم على مسرح الفن ، وادرك ان ظهور رأس الملقن على المسرح يفسد الجو الفني .. وكبح جماح رغبته في الاعلان عن قيمه ومبادئه وآرائه ومواقفه ... وخفف من امر تراكم مواد بنائه القصصي بحيث كان ذلك التراكم لا يدع متسعا لوجود حديقة وفسحات تبرز البناء في تناسقه وجمال هيئته الفنية ...

ولقد بلغ الذروة في تجنب هذه العيوب في قصصه الثلاث بعد النكبة .. وكاد يتخلص منها في سائر قصصه الاخرى في المجموعة ...

ومضى الاستاذ محمود في هذه المرحلة يحاول ان يبلغ بمدرسته غاية بعيدة .. فأتقن عملية الامتزاج بين مضمونه الايديولوجي وبين الشكل الفني وكان اشد الناس حرصا على أن لا يخلو عمله الفني مطلقا من المضمون الايديولوجي كما كان يفعل ذلك الاستاذ خليل بيدس.

ثم كان الى جانب ذلك يحسن اختيار افكاره التي يتخذها اساسا لبناء العمل الفني ،وكانت عملية البناء تتم وتظهر فيها عوامل النمو والتطور والتغير التي تدفع الحياة الى الامام .. وكان يختار شخوصه القصصيه من بين جماهير الناس.. وكانوا بسطاء ولكنهم لم يكونوا بحال من الاحوال تافهين .. لان التفاهه في العمل الفني تخلق التناقض الذى يفسد على الفن قيمه .. ففي قصة " الظمـــأ " .. يتخذ خيوطها من وحي ثورة عام ١٩٣٨ بفلسطين .. وبطلها قروى هجر قريته الجبليه الى المدينة.. وكان في اول شبابه .. بعد أن اجتاح الجوع والموت قريته تلك ابان الحرب العظمى .. وتعلم القروى في المدينة صناعة الاحذيه .. ويموت اطفاله الثلاثة وامهم.. ويبقى وحده ،لم يستطع المرض ولا الفقر ولا الهم ان يقضي عليه .. فما زال في دكانه يصنع الاحذيه .. وبريق عينيه ما زال متوهجا .. ولكن "عاد صانع الاحذية الى الجبل منذ اسابيع ..عاد .. انضم الى رفاق له في الاعالي .. ثم لقي حتفه ببطولة خارقه ..."

وهكذا يختار في اعماله الفنية تلك الافكار التي تنتمي بالناس الى ان يقترب بعضهم من بعض ،ويتعاونوا في مواجهة الخطر ،فيستعذبوا باقترابهم وتعاونهم طعم التضحية !

ويبلغ الاستاذ الايراني ذروة الانسجام الفني بين المضمون والشكل في قصته "حـــذاؤه الجـــديـــد " ... وبطلها (عطيوى) الذى لا ينقطع صوته . دائما يصيح : فلسطين .. الدفاع .. الاهرام .. اهرام الطياره .. ولقد استقر في روع (عطيوى) أنه لا بد من سيد ومسود ... وان سيده ومالك رقبته هو هذا المعلم الخواجه نصار ... الذى يراه ايضا في احلامه .. يلعن له امه واباه ويهدده بطرده وقطع رزقه اذا لم يبع كل ما في عهدته من جرائد .. فكر (عطيوى) أن يترك بيع الجرائد .. ولكنه لا يقوى ..بينه وبين هذه الجرائد الفة مودة .. انها تستهويـــه بحروفها الدقيقه .. وصورها الخلابة ..صور كثيرة ملونة .. الحرب كلما يراها مـــن خلال هذه الصور .. وعلى الاخص هاتيك المجندات.. ولشد ما كان (عطيوى) يكد ذهنه ليتصور كيف يكون في وسعــه ان يقمن بمجهودهن الحربي فلا يفلح ابدا.. هناك طراز من الزبائن يعرفه .. يتفرج ثم لا يشترى ... وطفق (عطيوى) يرتب صحفه ووقعت عينه على صفحة مفتوحة في مجلة فبهت وفغر فاه .. وراح يتأمل باشتهاء صورة حذاء كبير .... حذاء اسود لامع .. ما شأن هذا الحذاء في المجلة !

ذهل عطيوي عن نفسه .. وشرع خياله يصور له أنه وضع قدمه العاريه في حذاء بديع وأن هذا الحذاء ملكه .. وأنه يسير به في شوارع يافا يوم العيد معجبا به .. واذا به يستفيق على لطمة قوية على صفحة وجهه ... ثم انصبت في اذنه لعنة لامه وابيه .. ثم هذه العبارة : (لقد اتلفت لي حذائي ايها الحيوان) ... وبنظرة واحدة فهم كل شيء .. لقد داس في ذهوله بقدمه العارية على حذاء زبون كان يقلب في صحفه ومجلاته من اولئك الذين يتفرجون ولا يشترون !

وهكذا تظهر براعة الاستاذ الايراني ونضوجه الفني في هذه القصة.. ان كل كلمة من كلماتها تحمل موقفا اجتماعيا كاملا ، " المعلم نصار مالك رقبة الصبي البائع " .. الشرّاء .. المتفرجون .. الخوف من المعلم في الحلم .. القدم العارية والحذاء اللامع " كل هذه المواد اقام منها بناء فنيا تعيش في ثناياه قيم واعية متحررة ...

وقريب من هذا المستوى قصة حطام.. التي يرسم فيها صورة تخايل انسانا اصبح حطاما من وراء سحابة رقيقة .."حانة ضيقة ... بعض المقاعد ... موائد صغيره قذره .. وفتاة متبرجة ..."

وفي قصة " هراء" يصور الزيف الاجتماعي في المجتمع البرجوازي وفي الطبقة التي تتظاهر بقشور الثقافة.

وقصة "الاحتراق" تصور انتظار الفتاة لخطيبها الجندي وورود رسالة تنبئ بموته ... ولكنها تخفي الامر عن شريكاتها في العمل ،وسيطالعها الوجوه وستظل تسجل تلك الخطوط الصاعدة والهابطة والمذبذبه ...

ويصور في قصة " شعـــرة بيضـــاء " الاوهام التي تثور في صدر سيدة اخذت تستفيق المرأة الكامنة في ابنتها فتسرع الى المرآة فتشاهد شعرة بيضاء ترتعد لها نفسها وتتقاذفها الاوهام ولا ينقذها منها غير كلمة حلوة من زوجها " ما احلاك " !

وفي قصة "ابو جســار رجل رهيـــب" يرينا كيف تفعل الظروف المختلفة في تطوير الشخصية .. وفي قصة " قيـــد لـن يتحطـــم " صورة الموظف المتقاعد .. الذى ابقت عليه الاثار الباقية من النظام التركي القديم .. وكيف اختفى يحمل ثقل السنين بجرة قلم حين حلت النظم الحديثة وتوارى مع النظم القديمة.. واصبحت حياته قيدا لن يتحطم..؛

ويختم المجموعة بقصة (عود على بدء) وفيها يعود البطل الى مقهاه تماما كما كان منذ اكثر من عشرين سنه .. ويعود يكتب للاميين الفقراء استدعائات وعرائض.. بعد أن ارتبط بزوجة عجوز امتصته ونعمت بشبابه على امل أن يرثها ويحيا بمالها حياة اخرى ... ولكنها ماتت ولم تترك له شيئا ..

تلك هي خلاصة موجزة لمضامين هذه القصص وللمواد الرئيسية التي يتكون منها بناؤها الفني وفيها قدرة وبراعة في اختيار الافكار الصالحة للعمل الفني والتي تستطيع أن تحمل مضمونا ايديولوجيا من غير أن يظهر عليها عبء الاثقال ..

ويظهر التطور واضحا في حياة الاستاذ الايراني الفنية ، وقد اصاب هذا التطور الشكل بصورة اصبح فيها يقرب من مستوى المضمون حتى اكتمل بعد النكبة اكتمالا تاما ..

اما الاستاذ نجاتي صدقي فيعد من رؤساء هذه المدرسة الاشتراكيه الصحيحة التي اتخذنا الاستاذ الايراني رأسا لها .. ولم يبدأ الاستاذ صدقي الا بعد أن اكتملت لديه ملكة القصة في هذا الاتجاه .. فلم يطلع بتجاربه قبل نضوجها وانما انتظر على نفسه ريثما نضج الفن بين يديه فوافانا بصور من هذا النضوج .. لهذا عددناه في المرحلة المكتملة من مدرسة الاستاذ الايراني ..

وقد جعلنا الاستاذ الايراني صاحب هذه المدرسة لان التطور الفني ظاهر عليه .. ورب عمل فني فيه ضعف ما يبرز اصول المدرسة وقواعدها وحدودها اكثر من العمل الفني المكتمل ..

ولسنا نعرض لترجمات الاستاذ نجاتي صدقي ولكنا سنعرض له في مجموعته التي وضعها بعنوان (الاخوات الحزينات)

وفي هذه المجموعة عدد من القصص كتبها الاستاذ نجاتي صدقي بعد النكبة وهي قصة (سعدى) و (حياة بلابسي) و (معركة صبيان) و (وليلة في القبر) و (سمكة العيد) و (الراقصة مارغو) و (فتى من الديوانية) و (سكيفولا) و (من يوميات منسيه) و (الشهادة الابتدائيه) و (اصدقاء المصلحة)

ومن بين المجموعة عدد من القصص كتبها في المرحلة التي نحن بازائها وهي : (الاخوات الحزينات) و (ايام من العمر) و (الجثة الحية) و (فتاة حائرة) و (شمعون بوزاجلو) ..

ثم في المجموعة قصتان في المرحلة السابقة لمرحلتنا هذه ، هما (كلوديت) و (اسطوره قوقاسيه) ...

ولم نشر اليهما في المرحلة تلك لاننا آثرنا أن نعالجهما مع المجموعة في هذه المرحلة ، ولانهما في مستوى سائر المجموعة نضجا .. ففيهما مقلة الاكتمـــال وليس فيهما شوائب الاعمال التي لم يكتمل نموها !

ولعل قدم الاستاذ نجاتي صدقي أن تكون ارسخ في ميدان القصة القصيرة من أية قدم في حياة الادب في فلسطين ، ولكنه يجنح الى البحث والدرس والتحصيل في جوانب الثقافة المختلفة حتى لا يبقى لنفسه متسعا للوضع والتأليـــف والانشاء !

وهو في كل ابحاثه ودراسته لديه ملكة قوية احسن شحذها ورياضتها حتى غدت قادرة على التقاط العناصر الرئيسيه المكونة لاى اتجاه سواء أكان ذلك في العلم ام في الادب ...

فحين كان يعد الابحاث الاقتصادية لمجلة (الجمهور) في عام ١٩٣٨ كان يضع اصابعه على مشاكل يضوئها تضويئا فنيا فيبحث المشاكل باضواء اشبه ما تكون بالمعالجة الفنيه القصصيه دون أن تفقد بين يديه عمق البحث العلمي ..

ولكي تتضح لنا نفاذ نظرته الفنية حتى في الابحاث العلمية نقرأ له على هامش الحياة الاقتصادية في لبنان سنة ١٩٣٨ (١) حيث يرسم صورتين شعبيتين : الاولى صورة بائع الليمون والى جوارها صورة بائعة اللذة .. ولكي يبعث الحياة في الموضوع ، يختار حادثة من الواقع :

احد المفتشين .. وطفل لا يبلغ العاشرة صاحب سلة الليمون .. ويرينا الطفل يحتمي من المفتش في حانوت ويبكي بكاء مراء بعد أن ترك سلته .. ثم يقترب منه :

— هل انت صاحب سلة الليمون ؟

— نعم ، يا سيدى !

— لماذا تركتها وهربت ؟

— لانني لا احمل الرخصة !

— لماذا لا تحملها ؟

— لانها تساوى الكثير من المال .. ست ليرات كل ثلاثة اشهر .. المائة ليمونه بأربعين قرشا .. ثمنها عليه خمسة وعشرون قرشا ... فيربح من ذلك خمسة عشر قرشا ومجموع ارباحه الشهريه تبلغ اربعمائة وخمسين قرشا لبنانيا لا غير .. فاذا دفع منها مائتي قرش ثمنا للرخصه فكم يبقى لديه لمعيشته ومعيشة اهله الفقراء ؟ .. بينما اكبر متمول واضخم شركة لا يدفعان نسبيا عشر ما يدفعه بائع الليمون ؟!

بهذه الطريقة من التبسيط ، والبراعة في التصوير يعرض للقضايا الاقتصادية : الا تحس من خلال مواده التي يقيم منها موضوعه أن اليد التي تتناول هذه المواد وترتبها يد قصاص ماهر متمرس بالفن القصصي متمكن من اصوله عالم بقواعده يعرف اهدافه وغاياته والسبيل الى تلك الاهداف والغايات ؟!

ولنمض مع الاستاذ نجاتي صدقي في قصته (كلوديت) (٢) التي كتبها في باريس عام ١٩٣٥ لنحس بنسمات قصصية ناعمة هادئة فيها روائح رقيقة انيقة ، والالوان فيها غير صارخة .. والاصوات فيها هامسة رائقة ..

---

(١) الجمهور / عدد ١٠٩ سنه ٣ ص ١٣ (٢) الاخوات الحزينات / كلوديت ص ٥٨ — ٦٣

انه متمكن من فنه في غنى عن الاعلان والزعيق والخطابة مطمئن الى مذهبه السياسي والاقتصادى والاجتماعي والفني لا يخشى أن يساء فهمه ، ومن هنا كان تناوله للاحداث هادئا رائقا ناعما ..

(كلوديت فتاة باريسيه تقف أمام رفوف الكتب لتختار من بينها كتابا .. توقع الكتب في هذه العمليه ... ويمر بها سعيد الطالب الشرقي .. فيساعدها .. ويراها تبقى (العقد الاجتماعي) لروسو ... واتخذت الكتاب تحرشا لتطبيق شيء منه في غاية كلامار .. ويدرك الشرقي الامر .. ويرحل من فندقه .. وبعد شهـــر يمر برفوف الكتب فيرى كلوديت الباريسيه يساعدها في جمع الكتب المتناثره شاب شرقي !)

وفي بياتيغورسك سنة ١٩٣٦ يكتب قصته (اسطوره قوقاسيه) (١) ويبث في القصة حرارة الاساطير .. ولكنه يحمل ذلك الاطار الاسطورى فلسفته النضاليه :

حيث يسمع في صوت الاعاصير وسط الثلوج في اعالي جبال قوقاسيـه اغاني طويله ذات لحن ممتزج واحد تقول :

" اتذكر ايها الانسان سليما وتاهان وعليك ؟ . واذا كنت تذكرهم فلماذا تنسى الخير والحقيقة ، ولا تحب الناس كما احبهم ثلاثة من الشبان ؟... الرياح تحمل في طياتها اغاني حزينه عن سليم وشاهان وعليك ، اغاني عن اولئك الشبان الذين قضوا نحبهم في سبيل سعادة غيرهم ! "

وفي يافا عام ١٩٤٧ يكتب قصة (الاخوات الحزينات) (٢) ويسمـى المجموعة كلها بهذه القصة .. ومن هن هؤلاء الاخوات ؟ انهن خمس جميزات يقفن في صف واحد .. كان يقابلهن منذ خمس عشرة سنه بناء عربي قديم كأنما كان منزلا او مدرسة او جامعا .. وكانت المنطقة منطقة بيارات عربيه .. وكانت اقصى طرف من اطراف يافا .. واليوم لا بناء ولا بيارات ... حل محلها عمارات [illegible] اليهود .. واصبحت الشجرات في شارع من شوارع تل أبيب اسيرات حزينات في عالم غريب عن العالم الذى نشأن فيه ..

ويجلس الكاتب عند احداهن ويسند رأسه الى جذعها .. وتأخذه غفوة ويحلم حلما عجيبا .. الشجرات يتحولن فجأة الى خمس اخوات متشحات بالسواد يجتمعن في حلقة ... وينبع صوتهن من النحيب ... فيرين أن تكون سهرة تلك الليلة في استعادة الذكريات ... فتروى كل واحدة ما مر بها من روابط زوجيه نشأت في ظلها .. او من جدال صوفي ديني جرى .. او من احداث تاريخيه واعدام ابطال علقوا على اغصانها حتى عرفت بجميزة الشهداء .. ويأتي دور الخامسة (صفراهن) التي رأت النور سنة ١٩١٧ ــ سنة الوعد المشؤوم ــ :

---

(١) الاخوات الحزينات / اسطورة قوقاسيه / ص ١٢٢ ــ ١٢٦ .

ــ أحقا انكن لا تعرفن شيئا من ذكرياتي ؟ وهل تدرين لماذا نحن متشحات بالسواد ؟ ولماذا ينعتنا الناس بالاخوات الحزينات ؟ قلن لهـا

ــ: كفى .. كفى .. لا تروى لنا شيئا .. لقد أدركنا الصباح !

ويقول الكاتب : وصحوت من غفوتي ، فوجدت نفسي راقدا الى جانب الجميزات الخمس وكانت رياح الخريف تعصف بشدة فتهز كل شيء .. تهز الجماد والاحياء .. الا انها لم تقو على تلك الشجرات ... فقد ظلت راسخة كالطود !

أ رأيت كيف تتحول القصة بين يدى القصاص البارع فتغدو قصيدة رائعة موثره ؟

هذه هو الاطار الذى استوعب دماء ةابه النابض فكان قصة تروى مأساة يافا رواية فنية حزينة .

ومن تعابيره التي جرت تحمل مواقف اجتماعية في ثنايا القصة ما يلي :

- قلن : في كل حادث عبرة وفائدة .. واذا لم تكن هذه ولا تلك فهناك المتعة !
- وقلن : حقا اننا حزينات ، ونفوسنا منقبضة ، لا تميل الى المسرات ولكن هذا لا يمنعنا الاستماع الى حديثك المرح ، اذ في المرح ما يحيى النفس ويشجعها ، ويبعث فيها الامل .
- وكان الفتيان (في القرية في حفلة الزفاف) يهتفون قائلين : يعيش محسن مثال القوة والنشاط والعمل ! وكانت الفتيات يهتفن قائلات : تعيش فاطمة مثال التدبير والوفاء والشرف ! وكان الرجال والنساء يهتفن قائلين : تعيش قرية (كفر النمر) مثال الصبر والبطولة والتضحيه ...

في التعبير الاول نحسّ الايمان بالادب الهادف ... وفي الثاني نحس الايمان بالتفاؤل حتى في احلك الظروف ... وفي الثالث نحس الايمان بالنضال والبطولة والتضحيه ..

وكل هذه العواطف يجريها الاستاذ صدقي جريان الدم في العروق هادئة سليمة نشطة في الوقت نفسه كنبضات القلب السليم !

وتدور قصته (أيام من العمر) (١) وقد كتبها في القدس سنة ١٩٤٧ حول ماجد .. كاتب العرائض .. الذى كان يجلس خلف صندوقه .. والى جانبه لوحة مكتوب عليها (نكتب ونترجم باللغات العربيه والانكليزية والفرنسيه والتركيه والالمانيه .الخ واسعارنا متهاودة) وقد التفت عليه المانية .. ربطت حياتها بحياته .. واذاقته صنوف الحياة واللذه .. وكان يطرب لمداعبتها له : (يا ماجد انك لحمارى الصغير) ..

---

(١) الاخوات الحزينات / ص ١٦ ــ ٢٥ .

ثم تبين انها تعيش على استنزافه .. وانها كانت تعبث به لتضمن لنفسها ولبنتها ولزوجها العيش في مستوى لا تهبط عنه .. ويجيء زوجها .. ويقيمون كلهم في بيت ماجد .. واخيرا تدبر حيلة هي وزوجها .. فتطرد ماجد من بيته ويدرك بعد فوات الاوان (انه حمار كبير) !

واما قصة (الجثة الحية (١) فتحمل كل آراء الاستاذ صدقي في الادب والفن والثقافة والاجتماع .. وقد جاءت هذه الاراء على لسان (الهام نواره) التلميذه النبيهة التي تزوجت استاذها ، استاذ الادب العربي في جامعة الجزيرة .. وقد اضطرت أن تطأطيء رأسها امام زوجها الذى انقلب بعد عام حاكما مطلقا خنعت لارادته خوف أن تمضغها الافواه فأنطفأ بريق غريب كان يشع من عينيها .. وقال لها زوجها ذات مساء غاضبا : ما بالك تذبلين .. وغادر البيت وهو يتمتم قائلا : مصيبة .. كارثة .. جثة تتحرك .. اجل جثة حية !

ويحرص الاستاذ نجاتي صدقي على أن يبين لنا رأيه فيأن عظمة الكاتب الصحيح تقاس بما يقدمه لافراد شعبه من غذاء روحي يصقل نفوسهم ويعينهم على التسامي بها نحو المثل العليا .. ولا بد من أن يستهدف الجمال والخير والحق في كتاباته .. انه يضرب مساوىء الحاضر بحسنات الماضي ، ويصور مستقبلا جميلا قابلا للتحقيق ... ان الادب هو (علم الانسان) تمكن مقارنته بعلم الطبيعيات وان الشخصية في الادب الفني هي مثل النوع والشكل في الطبيعة .. فكما أن العالم النباتي مثلا يصنف مظاهر العالم النباتي .. محددا النواميس التي يخضع لها النوع والشكل .. كذلك الادب يرمي الى ادراك كنه حقيقة الانسان .. فيعمد الى تصنيف الاشخاص بمثابة نماذج لها أشباهها ثم يردهم الى انواع واشكال بشريه ، ويحدد النواميس السيكولوجيه التي يخضع لها كل من النوع والشكل البشريين .. وهناك فريق من الاخلاقيين يرى أن علم الاخلاق يتصل اتصالا وثيقا بجوهر الادب ويتلمس فيه ثلاثة امور : الاول جمال الخطوط والالوان والظلال والحركات والانغام ، والثاني : الحقيقة اى تمييز الكذب من الصدق ولؤم النفس من كرمها ، والتعقل من الغباوة والثالث : الخير أى تلمس الحب والبطولة والالم والغيرة والتضحيه ..

وان الادب القومي يستند الى العادات والتقاليد والامزجة المحلية .. واما الثقافة فهي دستور العلوم ، هي عصارة الادمغة البشرية الجبارة .. هي دليل وجود النوع البشرى . والانسان لا يكون مثقفا الا اذا تحلى بثلاث سجايا : التحرر من الخرافات .. والتفكير في غده وغد غيره من ابناء قومه ... والقدرة على تخطي الحدود القوميه الضيقة في تفكيره وان الادب الواقعي انما هو تصوير الحياة بدقة وصدق ورزانة ومن ميزاته انتقاد الحقائق المحيطة به ...

---

(١) الاخوات الحزينات ص ٢٦ ـ ٣٦ .

الادب

وان الرومانتيكي انما هو تصوير لما لم تميزه الحياة بعد ، وهو ما يطمح اليه الكاتب ويجسمه في اشكال رائعة من الفن ويكون الكاتب الرومانتيكي غير راض عن الحياة وهو يسعى بقوة خياله الى أن يجعل ما يحلم به حقيقة ملموسة ..

وان انصار الادب الرمزي يزعمون أن ادبهم انما هو انارة الحاضـــر بمصباح الابدية .. ويسعى الكاتب الرمزي دائما الى الابتعاد عن الحياة وعن التأثر بأي وضع من اوضاعها الاجتماعيه .

كل هذه الاراء نجدها في القصة (جثة حيّة) ، وهي وان تكن محشورة حشرا وكثيرة الا أن الاطار الثقافي الذي اتخذه لها والشخوص المثقفين الذي تجري على السنتهم خفف من حدة الامر وجعلها مقبولة ومحتملة في قصة .. وان يكن في ذلك شيء من اضعاف المستوى الفني .

وفي قصة (فتاة حائرة) (١) يرسم صورة للمصير الذي يواجه الفتاة حينما ترغم على الزواج ممن تكره . والطريقة التي تواجه بها مشكلتها ، والحل الذي تتخذه .. وموقف الكنيســة ... والاهل منها !

وفي قصة (شمعون بوزاجلو) صورة ليهودي من جماعة (الحاسد) المعروفين بتعصبهم الديني .. ورغم غناه الا انه يتخفى ويمارس عملية استعطاف المارة !

تلك هي الريشة التي كان يرسم بها الاستاذ صدقي صوره الفنيـــة القصصية ، والاصباغ التي كان يغمس فيها ريشته ! والافاق التي كان يطل عليها في مضامينه ... ولئن كانت تنقصه حماسة الاستاذ الايراني .. وحرارة الدعوة العلنيــة التي كانت تبدو على الايراني في مواقفه ! الا ان تمكنه من غمس ريشته في واقـــع المجتمع وايمانه بكل تلك الاراء والنظريات التي عرضنا لها في قصته (جثة حيه) تجعلنا نسمي المدرسة باسم الاثنين فنقول انها مدرسة (الايراني — صدقي) ..

وقد انضم الى هذه المدرسة الكاتب المتحرر عارف العزوني ، وكان انتاجه القصصي في هذه الفترة قد ظهر في مجلة (الطريق) سنة ١٩٤٥ .

واولى هذه القصص هي (صانع التوابيت) (١) وفيها يصوّر صانـــع التوابيت وقد غدا همه الاكبر رواج بضاعته ، واقبال الناس على الموت .. ثم تنزل به كارثة موت قريبة متصلة به ... هي موت ابن عم عزيز عليه .. ويصنع تابوتا لابن عمه يفتنّ في صنعه .. وبعد الجنازه يأوي الى بيته .. ويرى في نومه حلما عجيبا .. ظل من بعده اسبوعا يعاني آلاما جسميه ونفسيه .

---

(١) الاخوات الحزينات / ص ٥١ — ٥٧

(٢) الطريق / عدد ٦ / سنة ٤ ١٩٤٥ / ص ١٨ — ١٩ .

- لماذا لا أترك هذه الصناعة البائرة .. لماذا لا اساعد عمل الطبيعة في ناحية اخرى .. ناحية الخلق والابداع .. صناعة المهود التي تتأرجح بالزهرات الناعمه من الاطفال يمنة ويسرة ... اربعون سنة خلفها وراءه ... في ظل الموت .. ها قد صمم أن ينحرف عن الظل القاتل ويتجه نحو الحياة .. لكن الموت هتف به . تعال الى اين انت ذاهب يا سيد !؟ أتصنع مهودا لفرائسي وضحاياي ؟

- دعني وشأني .. اريد أن اصنع مهودا لجيل جديد هو المهيأ ليتغير الاوضاع

- سيضلون الطريق .. ارجع الى عملك ، وايدني في مهمتي فانك ان طلبت الموت اعطك الحياة

- اضاليل .. احابيل .. خداع .. كلمات براقة جوفاء

ويترك صانع التوابيت .. مهنته الاولى ويحترف صناعة المهود **والسرائر** الخشبيه ويعرف بها في جميع الاوساط .. ويصبح كأنه ابن ثلاثين رغم انه كان في الستين من عمره .. وما ذلك الا لانه مهد لجيل طالع جديد .." اما الفروع الذابلة فانها تموت من تلقاء نفسها .. دعوا الاموات يدفنون امواتهم اما انا فسأفسح المجال للاجيال ! "

وهكذا يهيء الحزوني الظروف القصصية **ليتحول** بطله في القصة من صانع موت الى صانع حياة ويوضح فكرة التطور الطبيعية في الشخصية ، والتطور ركن اساسي في العمل الفني المتصل بالحياة !

ونحن نرى تصويرا صادقا دقيقا لقطاع في الحياة .. وتنبها واعيا لنقد الحقائق المحيطة .. وتحولا من الواقع الى مستقبل جميل قابل للتحقيق ..

وكل هذا هيأه للانتساب الحق للمدرسة الواقعية في الادب ، مدرسة (الايراني - صدقي) في ادوار اكتمالها ونضوجها ! وهو امين لهذه المدرسة مخلص لتعاليمها متمثل لاصولها متمكن من ميزاتها في كل ما يكتبه عن وحيها وايمانه بها .

ففي قصة (يا جملي) (١) يؤمن بمبدأ اجتماعي نبيل يجعله مدار القصة يتلخص في أن كل شيء لا أهمية له الا اذا كان له منفعه او وظيفة اجتماعيه .. فالنهد نتوء .. قد يكون تشويها لو لم تك له تلك الوظيفة الانسانية ومن هنا اصبح فتنة وجمالا وموضع تقدير ومثار اشتهاء .. والاضحوكة حين تؤدى وظيفة اجتماعيه تصبح اضحوكة محترمة جديرة بالتقدير .

كذلك الحال مع (فائق) بطل قصته الذى كانت صاحبته سنيه تناديه نداء محببا (يا جملي !) وكان يستعذب ذلك النداء منها ..

---

(١) الطريق / عدد ٨ / سنه ٤ / ١٩٤٥ / ص ١٦

لكنه حين هاجمته البدانة المتفاقمه اخذ يحس بالحرج من ندائها له ‥ فكفت عن تلك المناداة‥ وتصبح بدانته موضع تندر فتشمره الاهانة (المفتوحه) بوضاعة نفسه لاستعماله المشدات والمناطق يضلل بها حبيبته عن سمنه ‥ فيقلع عن التحفظ ويسترد حريته ؛ ما أمرّ الخداع! وما أشق الالم للتخلص من قيود التجمل ‥ ثم يكتشفه صديق قديم يقترح عليه الاشتغال في فرقته التمثيليه ‥ ليكون (دبا) في الفصل الهزلي ‥ تقتحمه الانظار المستهزئة الضاحكة ‥ فقبل العرض بدافع الحاجة ويستبدل اسمه اذعانا للانانيه ‥ ويحسن ادواره الهزليه باسم (فرهود) حتى يصبح (ملك الضحك) ويؤدى دورا فنيا في الحياة ‥ ويغدو مرموقا ‥ وتتطلع اليه الانظار ‥ فتعود سنيه تفاخر الناس بمعرفتها له وتتحدث بسخاء عن تلك الفراشة قبل خروجها من الشرنقة ‥ وفي ليلة العرض الاول يجن الناس اعجابا (بفرهود) ‥ انه لم يعد اضحوكة‥ انه موضع اعجاب‥ ويعود الى غرفته في المسرح ‥ فيجد امرأة تنتظره بفارغ الصبر ‥‥ وحين يقع نظرها عليه لا تجد كلاما لاول وهله ، ثم تتماسك وتهتف " يا صغيرى ! " ! ‥

هذا هو الاطار الفني الذى اتخذه لتوضيح فكرته وهذه هي الاحداث الممكنة الوقوع تنمو وتتطور في يديه حتى تحدث التغيير المطلوب والتطور الناجح!

ونكتفي بهاتين القصتين لندل بهما على المدرسة التي ينتمي اليها الحزوني ، وتشير الى حقائق الحياة الواقعية التي يختار من بينها فكرته ليحملها مضمونه الايديولوجي ، ونتابعه في لملمة مواد بنائه الفني **ليقيم** قصته ! وله في هذا المجال قصة (زواج موحد) (١) ، (ابو رجل مسلوخه) (٢) و (**صور** من المجتمع) (٣)

هذا وكانت (الطليعة) قد نشرت له قصة تحمل هذا الاتجاه سنه ١٩٣٧ بعنوان (هل يستقيم الظل) (٤) ٠

ومن حسن حظ المرحلة الرابعة من حياة الادب القصصي في هذا القطر ان تشارك المرأة فيه مشاركة جادة ، فيكون لها نصيب كبير في هذا الفن من فنون الادب ٠

لقد ظفرنا في هذه المرحلة بانتاج قصصي للكاتبتين الفلسطينيتين نجوى قعوار ، واسمى طوبي ‥ ولئن كانت مجاميعهما ظهرت بعد النكبة الا ان فيها ما كتبتاه قبيل النكبة بقليل !

---

(١) الطريق / عدد ٩ ، ١٠ / سنه ٤ / ١٩٤٥ / ص ١٨ ـ ١٩ (٢) الطريق / عدد ١٢ سنه ٤ / ص ١٨ ـ ١٩ (٣) الطريق / عدد ١٩ ، ٢٠ / سنه ٤/ ١٩٤٥/ ص ٢٣ ، ٢٤
(٤) الطليعه / عدد ٩ / سنه ٣ / ١٩٣٧ / ٩٧١ ـ ٩٧٣ ٠

ولقد عرفت الكاتبتان طريقهما فغمستا ريشتيهما في واقع مجتمعهما ٠٠ وهذه بداية محمودة دائما في الاتجاه القصصي !

أما مجموعة الكاتبه نجوى قعوار فرح فهي بعنوان (عابرو السبيل) وقد ظهرت بعد النكبه ، وان تكن قد سبق لها أن نشرت او اذيعت.

واولى هذه القصص (اى السبيلين) (١) وفكرتها تدور حول الاخفاق الذى اشتمل على حياة موظف ٠٠ توظف حين خروجه من الجامعة في احدى الدوائر ٠٠ فأخفق بسبب استقامته واعوجاج كل من حوله ٠٠ ثم شغل وظيفة معلم ٠٠ فأخفق لاصطدامه بعقلية المدير المتأخر ٠٠ ثم مارس الادب ٠٠ وكتب عن العصر العباسي ٠٠ فأخفق ٠٠ اين القراء ! ٠٠٠ وبلغت حياته نقطة تحول ، أى الوجهتين ينظر ؟ وأى الطريقين يتبع في حياته ؟ أكما يريد والده ، وموظفو الدائرة ، والمسؤول عن المدرسة ؟ ام يخلص لما عزم عليه ؟ الى اين ٠٠ وما الغرض من الرحيل ؟ اليس الرحيل بحدّ نفسه غاية !

هذا هو الاطار العام للقصة ٠٠ اما مقدمات القصة فليس لها ملامح مميزه وانما هي تعميمات لا تدخل في حركة القصة ونموها وانما تتجافى عنها لانها خلاصات مكدسة تستبق الحوادث ٠٠ وتزدحم بالكلام العام والمبادئ النظريه " لقد كان يؤمن بأن قيمة الفرد هي بما يحققه في مسماه نحو الكمال النسبي " ٠٠٠ " ويعمل على نشر رسالة الحيز الاعظم الذى يحقق غرض الانسان ويبرر وجوده "

ان هذه التعميمات المثالية تفسد الاحداث القصصية وترسب على القلب ٠٠ ثم تبدأ القصة بعد هذه المقدمة من التعميمات ٠٠ فماذا نجد ؟ ٠٠ نجد انسانا ٠٠ لكن من هو ؟ لا نعرف ٠٠ توظف في احدى الدوائر ٠٠ ؟ اى دائرة ؟ لا نعرف ! ان هذه العموميات تجعل الشخصية باهتة ضائعة ليس لها حدود ٠٠ انها تفقد الشخصية قدرتها الفنية على اعطاء صورة للانموذج الانساني الحي ٠٠ وفي سير القصة تحس بتكلس الشخصية بدلا من أن تلمس نموا وبناء قائما عضويا ٠٠ وتطورا في حياتها ٠٠ ان السرد الاخبارى التقريرى لا يوضح ملامح الشخصية بحال من الاحوال ٠٠

واما المضمون في القصة فأشبه ما يكون بغيمة من دخان ، لا تحس بأن البطل مرتبط بروابط او صلات ، وانما هو منقطع عن مجتمعه مبتور منه ٠٠ وكأن الاحداث قطع كرتون موضوعة في واجهات عرض ليس وراءها بضاعة ٠٠ فلا اتصالات ، ولا روابط ولا مشاكل ٠٠٠

ثم هذا الاخفاق الدائم والهزيمة للبطل ٠٠ وبأى سبب ؟ بسبب الاستقامة ! هل صحيح ان الاستقامه مقضي عليها دوما بالهزيمة؟!

---

(١) عابرو السبيل / ص ١٥ — ٢٥

ان هذا الانموذج من الابطال لا يثير في النفس رثاء !

وفي المشكلة التعليمية التي اتخذتها وسيلة من الوسائل القصصيه ، ظنت الكاتبه أن المدير على خطأ •• مع أن استعمال حبات الفول وحبات العدس تحفظ في علب كبريت في ايدى الطلاب جميعهم ، اوقع في النفس تربويا من استعمال الدوائر البيض والحمر والمعدات الخشبية التي تتخذ للفصل جميعه !

وصورة الادب عن العصر العباسي تعميمات لا تحس من ورائها اى غناء او اى اتصال للبطل بالحياة •• وانما هي نماذج من كرتون موضوعة في واجهات العرض لا تكشف عن مفاهيم او قيم بعينها : بغداد / مآذنها / قصورها / خلفاؤها / احزابها الاثر الفارسي •• واليوناني / الشعوبيه / بيت الحكمة / ثورة المأمون / فهرست ابن النديم ••• وغير ذلك !

ولكنها القصة الاولى ولعلها البداية ويكفي أن تكون محاولة جادة لغمس الريشة في واقع المجتمع من حولها ليمدها بمادة قصصها !

وفي القصة الثانية (بائع الصحف) (١) تتضح ملامح الشخصية اكثر •• وتحس بروابط هذه الشخصية وعلاقاتها ولكن ما زالت الامانة والصدق لدى الشخصيه تسبب الهزيمة ••

وفي قصة (العودة) (١) تحس بحرارة الحياة تدب في الشخوص وتنفعل بالعواطف الانسانية الاجتماعية •• ولكن الهرب سبيل البطل في حل المشكلة •• فحين ينمو حب (فاطمة) في قلب (احمد) وتحل المصيبه في شكل الكهل المثرى •• يهرب احمد من الذكريات ••

ثم في قصة (حكيم المقهى) (٢) تهتدى الكاتبة الى السبيل السليمة في النهج القصصي ••• فسمات ابطالها تتحدد واضحة ، وملامحهم تنطق حية ، وخطوط الحياة تبدو في تلك الشخوص •• ونمو الاحداث طبيعي والعلاقات والروابط متشابكه ولكنها واضحة •••

واحد الزبائن من اصحاب البدلات يدعى أنه دفع بعنف الجنيه ، الحساب الذى كان عليه •• وأن حسنا العامل في المقهى أخذه لنفسه وانكر على الزبون دفعه للمبلغ •• ويصدق صاحب البدلة •• ثم يظهر الحق •• ويعود حسن للعمل في المقهى •• وقد فقد ثقته بأصحاب البدلات ، وكلما كان صاحب البدلة الثمينة ممعنا في التأنق كان شك حسن في امره اكثر !

---

(١) عابرو السبيل / ص ٣٨ ــ ٤٩

(٢) عابرو السبيل / ص ٥٠ ــ ٥٨ •

وفي بعض القصص الاخرى تحس المثالية ممتزجة لديها بالروح الدينية وذلك بحكم نشأتها حيث كان خالها القس مروره رئيس المجمع الانجيلي في فلسطين والاردن ، ثم اصبحت زوجة قسيس هو القس الفاضل توفيق قرح راعي الطائفة الانجيليه في حيفا ٠

ولكن ظروف الاقتراب بين المذاهب المختلفة كانت قد دفعت كتاب القصة في هذه المرحلة الى أن يتخذوا الاتجاه نفسه ٠٠ ومن هنا التقت الكاتبة المثالية المتدينة في قصتها (حكيم المقهى) بكتاب الواقعية واتخذت سبيلهم !

وفي قصتها (الطبيب المجهول) (١) فلسفات قاتمة تضايق حركة الحياة في اوصال القصة ٠٠

وفي قصتها (القس) (٢) تصور زيف الطبقة التي تدعى الارستقراطيه ٠٠

وفي القصة (وحيدة) (٣) صوره لانتصار البساطه على التكلف الارستقراطي ٠٠

وفي قصة (منحة طفل) (٤) تبين كيف يملأ طفل فراغ الحياة لدى عمته ٠!

وتمضي على هذا النسق تختار البناء الاجتماعي لتأخذ منه مادتها في فنها القصصي ٠٠ واذا بالاحداث تنبض في يديها بالحياة ٠٠ واذا القصة لم تعد مجموعة اقوال مسرودة عن شخوص وانما اخذت حركة هؤلاء الشخوص وافعالهم تتلاءم مع الخلاصات والاقوال التي تصدر عنهم ولم يعد الامر كما كان في السابق مجرد خلاصات لتجارب هوائية غير ملموسة ٠٠ وتلمس هذا التوفيق كله في قصة (بهجة الخريف) (٥)

واما القصة التي في آخر المجموعة ٠٠ وهي القصة الخامسة عشرة بعنوان (عندما عاد النيروز) (٦) فهي اطول قصة في المجموعة ٠٠ وتدور حول الصراع بين قوتين : قوة الانحراف والانحلال ، وقوة الاستقامة والطيبة ٠٠

وفيها تنزوى قوة الخير الطيبة وتندحر مهزومة مخذولة امام قوة الشر والانحلال ٠٠ وتكتفي قوة الخير والاستقامة بالنظر من ثقب الباب او من فتحة الشباك لعلّ ظروفا تهبط من السماء تنتشلها !

يمثل الشر والانحلال الشقراوات البولونيات اللاجئات بسبب الحرب الى فلسطين ٠٠ ويمثل قوة الخير والطيبة الفتيات المواطنات في القرية التي نزلت فيها البولونيات اللاجئات !

---

(١) عابرو السبيل / ص ٥٩ - ٧٠ (٢) عابرو السبيل / ص ٧١ - ٨١

(٣) عابروا السبيل / ص ٨٢ - ٩٧ (٤) عابرو السبيل / ص ٩٨ - ١٠٩

(٥) عابروا السبيل / ص ١٢٢ - ١٣٠ (٦) عابرو السبيل / ص ١٨٥ - ٢٢٥

ولا نحس بصراع بين القوتين لان الصراع ينبغي أن يكون بين حركتين :
فحين اقبلت الشقروات كان ينبغي على البطلة الا تقف مشلولة كما فعلت :

هناك اثارة غرائز ... فلتقابل باثارة نزعات حب كريمة ..
هناك رقص فاجر .. فليواجه برقص جميل طبيعي يأخذ بالنفس ..
هناك سكر وعربدة .... فليقاوم بحركة اجتماعية مثمرة
اما السلبية ، اما الهزيمه ، اما الا نخذال فليس مصيرها الا الهلاك . !

ولولا هذه النهايات المنهزمة في كثير من قصصها لكانت مثاليتها ، وانسانيتها اخصب واطيب ثمرا ..لان ابطالها في كثير من الاحيان تختارهم من " بين المعذبين المتألمين نتيجة للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السيئة في الشرق ، او بسبب تحكم الاقطاعية او سوء النظم والحكم " (١)

اما الكاتبة الثانية في هذه المرحله ، السيدة اسمى طوبي ، فلم تشأ أن تسمي انتاجها قصصا .. ولم يكن قصصا في واقع الامر وانما هي (احاديث من القلب) ، ظهرت بعد النكبة ، لكن تستطيع أن تتلمس فيها بعض المواقف التي كتبتها قبل النكبة ...

وليس في المجموعة اى قصة ولكن فيها مواقف قصصية رائعة تشير الى مستوى قصصي رفيع يكاد ينضم الى تيار الواقعية في القصة لكنه يقصر عنه لانه لم يشأ ان يتقيد بالاطار الفني للقصة .. وساختار موقفين يدلان على هذا المستوى : الاول بعنوان (امنا الارض) (٢) والثاني بعنوان (ام زينه) (٣) .

وفي الموقف الاول صورة فنية واقعيه رائعة " للعم مصطفى يزيل عرقه من جديد عن جبينه وهو يقلب ارض حديقتنا ـ وكانت الذرات المبلورة تنحدر لتمتزج بالتراب وسمعته يهمس : ما اصدق هذا ! .... ان عرق جبيني وقوة عضلاتي في الارض دم قلبي ايضا هناك .. لقد حرثها آبائي واجدادى لعشرات السنين .. فلن اكون الرجل الذى يضيعها ... "

انها تكتفي بتصوير الموقف القصصي دون ان تكلف نفسها محاولة تجميع المواد لاقامة بناء فني قصصي !

والموقف الثاني يكاد يتخذ البناء القصصي له مسكا لولا ان الكاتبة قبيل الفراغ من تشييد البناء كاملا نفضت يديها واكتفت بما ارتفع منه !

---

(١) "عابرو السبيل" / المقدمه ص ٩ بقلم الاستاذ عيسى الناعورى

(٢) احاديث من القلب / ص ٧٨ ـ ٨٠ (٣) احاديث من القلب / ص ٨٩ ـ ٩١ .

"كانت ام زينه غسالة الحي .. فقدت ابنتها الوحيدة زينة.. وتزوج زوجها امرأة ثانية ليرزق الاولاد .. واصبحت ام زينة والزوج للعمل من اجل اعالة العائلة.. واصبحت الضرة للاعتناء بالاطفال في المنزل ..

وكانت امنية ام زينة الوحيدة هي الحج الى بيت الله الحرام.. فأخذت تقتطع قرشين من كل غسلة..

عادت من الحج .. وابتسامة الهناء تنتشر على المحيا المتعب وسعادة الايمان تطل من العينين الكليلتين ، سعادة لم تعد مآسي الحياة لتستطيع تبديلها.. كانت تعمل بيديها عملها الشاق بينما تتحدث دون ملل عن تلك السعادة منذ ان استقلت (زمزم) حتى عادت .. حدثتني عن فرائض الحج .. ام زينه ! ليهنك الحج فانه قد طهر نفسك.. تعملين دون تذمر لاجل الزوج ، زوج المرأة الاخرى ! تحملين طعامك ! اللقمه التي حصلتها بعرق جبينك الى اطفال المرأة الاخرى .. ضرتك .. وانت تتناسين مرارة الحرمان والام الثكل .."

هذه المواقف الاجتماعية بقيمها الايجابية تؤلف اهم عنصر في البناء القصصي كنا نود أن لا تقف عندها الكاتبة فنظفر بثروة قصصية خصيبه !

ثم نظفر في هذه المرحلة بانتاج كاتب ينتمي الى تيار المثاليه الرومانتيكيه.. ويصدر ادبه عنها وقصصه مستوحاة من قيمها ، ويطلع علينا في عام ١٩٤٦ بمجموعة (اقاصيص) ينشرها في سلسلة الثقافة العامة بيافا ... وفيها قصص ثمان : اربع منها مترجمات ز واربع من وضع المؤلف : اما المترجمات فلن نتعرض لها .. وانما سنتناول القصص الموضوعة !... هذا الكاتب هو الاستاذ عبد الحميد ياسين .."(١)

في المجموعة قصة بعنوان (عيد الفيلسوف) تفضح قيمها نوعا معينا من المثقفين الذين لا يرضون لانفسهم ان تحلهم ثقافتهم مكان المندمج بالناس المقترب منهم وانما هم يريدون لانفسهم استعلاء وفوقية وتنتفخ اوداجهم بطبقة الثقافة.. ونحن نحس في سير الكاتب بالقصة وقوفا الى جانب هؤلاء الناس بل ايحاء منه بأنه واحد من هؤلاء... وما علم هؤلاء النفر أن الثقافة الصحيحة عامل من عوامل التقارب بين الناس وليست عاملا من عوامل التفرقة ..

بطل كاتبنا "من الزاهدين في مجالس الناس، محبا للخير ، كبير القلب ، نير العقل ، بعيد مرمى الخيال .. جمل يحدق النظر في السقف ، تحديق من يجتاز ببصره العالم المحسوس الى عالم اقصى واسمى ، متخذا من الخيال والعقل والعاطفة وسيلة لاجتياز التخوم بين العالمين ...

---

(١) اقاصيص / ص ١٩ — ٢٦ .

جعل الشاب يفكر في العيد ، وكيف يحتفي به الناس ، وكيف انه لم يعتد مشاركتهم ذاك الاحتفاء .. ثم قال في نفسه : (ليس لي هذا العيد ..) قال هذا في شيء من الاستحلاء .. ثم جال ببصره في جوانب الغرفة ، واستقر محدقا في السقف من جديد ... ليت لي عيدا فأفرح ! ولكني لا اريد مثل اعياد الناس وافراحهم .. ثم عاد الى التحديق .. واغمضت عيناه فلم يعد يرى السقف .. ولكنه عوض عنه مشاهد ابهى طلعة وادنى الى امل الانسان .."

ثم يمضي البطل في احلام .. يحلم بعالم غير عالمه حتى اذا عاد اليه صحوه ... قال :

"لقد كنت في عيد ولكنني ويا للاسف قد صحوت "

هذه القيم المفرقة ، وهذا الهرب بالحلم عالم لا يمتزج به البطل ولا يتعاون معه ، ولا يخوض معه غمار النضال من اجل الانتقال به من طور الى طور ، سلبية منهزمة ممترئة لا تؤدي الى نفع او خير !

ان قيمة الانتاج الفني تحددها بشكل نهائي قيمة مضمونة .. وهذه المضامين التي في القصة مضامين مريضة انعزاليه فردية تعمل على التفرقة .... انها مضامين الرومانتيكيه المثاليه السلبيه ، التي لا تعتمد على التطور والنمو في الاحداث حيث يستتبعها تطور ونمو في الشخوص ... وانما هم الكاتب من اتباعها استنفاد طاقته الخياليه وجهده العقلي واحاسيسه العاطفيه في اجتياز التخوم بين عالم الواقع المحسوس وعالم ما وراء الطبيعة ، وبذلك يهدرون طاقاتهم في لا شيء !

وحين رأى الكاتب تهافت البناء الفني في قصته ألجأ بطله الى الاحلام والضياع فيها لعله ينجو من الصحو .. لان الصحو وعي والوعي يحتاج الى نوع آخر من انواع البناء ، راسخ القواعد ، ليس للوهن من سبيل اليه ..

وفي قصة (وجه فولتير) (١) يعمد الى التحليل النفسي والى شيء يشبه الحلم ايضا حيث يتذكر الجندي الحارس في شبه غفوة تمثال الفيلسوف فولتير فيذكره وكأنه يرى " صورة جلية الخطوط تحللها غلالة شعور مائج " ثم يعلن في شبه غفوته ان الحياة "الام على الام ، وان لاح في سمائها برق من السعادة خلب .. فلتكتحل عيونكم بمرآه على ان لا تحاول التطلع الى ما وراءه ! " .. ثم يتحدث عن ستار الغيب ... وعن يد القدر ... !

وهكذا فالقصة بين يديه مجموعات اقوال وحكم متضاربه مرة متفائلة ومرات متشائمة ، تروى على لسان بطل في شبه اغفاءة ... لا تحس في القصة لونا من الوان البناء الفني !

---

(١) اقاصيص / ص ٣٧ ـ ٤٥ .

وفي قصة (عبث الاقدار) (١) حين ينزلق منه موقف ايجابي ٠٠ فيرى الاحداث تسوق الى انتصار العمال ٠٠ تشوه يده فرحة النصر وتسلط عليه يد القدر لتلطمه لطمة عشواء ، فتقلب النصر الى مأساة ٠٠ وتجعل النصر سببا في القضاء على الطفل حيث يترك وراءه اما ثكلى وابا حزينا ٠٠

وفي قصة (على عتبة الفردوس) (٢) يتخذ الطرافة غاية ٠٠ وهو هو دائما يجنح الى الفرار من الناس الى الطبيعة ٠٠ ولست تحس في القصة بروابط او علاقات وانما هي تقوم على التحليل النفسي ٠٠ وفي هذا يظهر الكاتب براعته ٠٠ في الكشف عن احاسيس كفيف يعيش في اسر الظلام ٠٠ ويتطلع في شوق الى ان ينطلق الى فردوس يفيض بالنور ، ويخشى ان يعشيه النور اذا فاض وتدفق ٠٠ ويتخذ من اجل ذلك اطارا من قصة ابي فراس ، ليشبه به الكفيف حيث كان الفارس اسيرا في القلعة الحصينه يتطلع الى لقاء حبيبته فيلقى بنفسه فوق حصانه في امواج الفرات ولا يخاف ان تبتلعه تلك الامواج ٠٠

انه يتخذ من ذلك التشبيه اطارا قصصيا ٠٠ ويعتمد على الطرافة في تحليل الاحاسيس لدى الكفيف فيشير مثلا الى قوة تنبهه حينما قال الشاب ٠٠ وقد اتى الى المقهى يبغي من المجيء الى المقهى " تغيير اصوات " بدلا من ان يقول انه يبغي تغيير المناظر ٠٠٠

وهو مفتون بهذه الملاحظة حيث يقول :

" وهذه عبارة لم يسبق لي ان سمعتها او قرأتها " ان فتنة اتباع هذه المدرسة بالطرافة تصرفهم عن واقع الحياة وتدفع بهم الى التشبث بالشكل على حساب المضمون فيقيمون ابنيتهم الفنية من ورق

وكاتب مثالي آخر في هذه المرحلة ظفرنا له بنتاج قصصي ٠٠ غير أنه لم يرتطم فيما ارتطم به كاتبنا السابق ٠٠ ولم يجعل همه التقاط الطرافة في المشاهد ولم يتخذ خياله وعقله وعاطفته وسيلة لاجتياز التخوم بين العالمين عالم المحسوس والعالم الاخر ٠٠٠

لم تتجاوز به مثاليته تخوم عالمه ، ولم تدر به في اقبية السحاب ، وانما اتخذ فلسفته الوجدانية وسيلة لدرس شؤون مجتمعه السياسي والاجتماعي في تعمق وتدبر وفي اسلوب شعري رائع يصور به كثيرا من العواطف التي يرتبط بها افراد المجتمع ٠

---

(١) اقاصيص / ص ٦٠ — ٦٨

(٢) اقاصيص / ص ٦٩ — ٧٦

واتخذ اطارا رمزيا ليعرب به عما لا يستطيع أن يعرب عنه بحكم الظروف السياسية التي تكم الافواه ·· ولكنه رمز طبيعي ، ليس من ذلك النوع من الرمز الذى يسلخ صاحبه عن الحياة ويبتعد به الثائر بأى وضع من اوضاعها الاجتماعية ···

ولقد استهدف في هذا النتاج الجمال والخير والحق ·· بحيث تلمس في ادبه ما تلمسه لدى الاخلاقيين من جمال في الخطوط والالوان والظلال والحركات والانغام ومن طلب للحقيقة يتمييز الكذب من الصدق والزيف من الاصالة ولوءم النفس من كرمها ، والتعقل من الغباوة ·· ومن تلمس للخير بطريق تلمس الحب والبطولة والالم والعزة والتضحيه ··

ومن هنا اتجهت مثاليته وجهة متقاربة من وجهة التيار الواقعي في هذه المرحلة ··

هذا الكاتب المثالي المتعقل هو الدكتور اسحق موسى الحسيني في (مذكرات دجاجه) حيث صدرت عام ١٩٤٣ في سلسلة (اقرأ) رقم ـ ٨ ـ · فاثارت ضجة حينذاك ، واختارها القراء وقدموها على سائر ما صدر في سلسلة (اقرأ) من كتب في استفتاء اجرته دار المعارف لقراء العربيه ، وقد كتب لها مقدمة الدكتور طه حسين فقال فيما قاله (١)

" هذه دجاجة عاقلة جد عاقلة ، ماذا اقول ! بل هي دجاجة مفلسفة تدرس شوءون الاجتماع في كثير من التعمق وتدبر الرأى ، فتصل الى استكشاف بعض الادواء الاجتماعيه ، وتصف لها الدواء ·· ماذا اقول ! بل هي دجاجة شاعرة تجد الم الحب ولذته وعواطفه المختلفة التي تدق احيانا حتى لا تهتدى اليها الا الشعراء الملهمون ، ولا يقدر على تصويرها الا الذين ارتوا حظا من سحر البيان ! بل هي دجاجة رحيمة تعطف على الضعفاء والبائسين وترق للمحرومين وتوءثرهم على نفسها وان كان بها خصاصته ··

والله عز وجل قادر على كل شيء وقد علم سليمان عليه السلام منطق الطير ولغة الحيوان ، وكأنه علم صديقنا الدكتور اسحق الحسيني لغة الدجاج فقد قرأ مذكرات هذه الدجاجة الفلسطينية ففهم عنها أحسن الفهم وترجم عنها احسن الترجمة وقرأنا نحن ترجمته هذه فشاركنا دجاجة فلسطين فيما احست من حزن وفرح ومن لذة والم ·· ورأينا ـ وما اعجب ما رأينا ـ ان دجاجة فلسطين تجد من حب الخير وبغض الشر والطموح الى المثل العليا في العدل الاجتماعي وفي العدل الدولي وفي كرامة العروبة وحقها في عزة حديثه تلائم عزتها القديمة ما يجده كل عربي من اهل فلسطين بل من اهل الشرق العربي كله ، فليت شعرى ايهما ترجم عن صاحبه !! ترجم الدكتور اسحق الحسيني عن الدجاجة ام ترجمت الدجاجة عن اسحاق الحسيني ؟··· "

---

(١) مذكرات دجاجة / المقدمة ص ٦ ـ ٧ ·

وقد قدم لها كاتبها الدكتور اسحق نفسه فقال يخاطب القارئ الكريم :

" هذه القصة تصف حياة دجاجة عاشت في بيتي ، ووقع بينها ، وبيني الفة ومحبة ، فكنت اطعمها بيدي ، وارقب حياتها يوما فيوما .. والاحداث التي ترويها وقعت لها بالفعل وهي لا تتجاوز المألوف في حياة الدجاجة . ولو قدر لصديقتي الدجاجة ان تتكلم بلغة الاناسي لما قالت غير ما تقرأ . فانا — في الواقع — اترجم لك ما اوحت به الي .. اما عنصر الخيال فضئيل ، وهو لا يعدو ان يكون تعليقا على هامش الحياة او تحليقا في المثل العليا " .

اما التيار الرومانتيكي الذي كان من اكبر دعاته الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا فقد مضى في سبيله وشق طريقه ومضى فيه صاحبه الاستاذ جبرا شوطا بعيدا وقد ظفرنا له في هذا الاتجاه بقصة طبعها في بغداد سنة ١٩٥٥ بعد النكبة لكنه كان قد كتبها في القدس ، قبل النكبة ، في صيف ١٩٤٦ وقد نشرها باسم (صـــراخ فـي ليـل طــويل) ..

وتبدأ القصة بأن يقضي البطل ايامه الاخيرة وحده في عطلة على الجبل يذهب من مكان الى آخر كناسك لا رفيق له الا عصاه .. ثم يرى لافتة عليها (شنوب اخوان — المخزن الفرعي) . فيتذكر مقابلته هناك من اجل العمل عند سليمان شنوب ... ويتذكر كيف انه فيما بعد تزوج ابنة صاحب العمل .. يذكر أن زواجه لم يدم اكثر من عامين .. ثم تصله وهو في ذكرياته غارق ، رسالة تلفونيه فحواها ان عنايت هانم تريد رؤيته تلك الليلة .. وقد بدأ العمل معها بمرتب حسن يعينها على كتابة تاريخ اسرتها حيث تعيش في جلبة الماضي ومعها اختها ركزان الى جانب عمله مع عنايت هانم يعمل في تحرير صحيفة .. وكان من كتاب الروايات ..

ويدير قصته حول هؤلاء الشخوص وتنتهي القصة بين يديه هكذا :

(نزلت في الطريق أمشي على مهل .. غير أن الطريق لم تظل خالية طويلا .. وما هي الا فترة قصيرة حتى كانت شوارع المدينة تمتد وتتشعب امامي تملؤها جموع الناس .. ولم يكن من العسير علي حين حدقت في عيونهم أن ادرك ان الكثـــيرين منهم كانو هائمين على وجوههم كما كنت هائما لسنتين مديدتين يبحثون عن نهاية لليل طويل وبداية لحياة جديدة "

والقصة مليئة بالقيم البرجوازية الفردية ، وبالتعبير عن تلك القيم باسلوب رومانتيكي .. ولدى الاستاذ جبرا براعة في نسج الخيوط ، وقدرة على اقامة البناء الفني .. ولكنك لا تحس فيها بروائح المجتمع الشرقي او العربي منه او الفلسطيني بخاصة وانما انت في اجواء أشبه بتلك الاجواء التي كانت تثيرها كتابات آل برونتي او تشارلز ديكنز في القصص الانجليزي !

ولكن الاستاذ جبرا رسخ قواعد هذه البرجوازية التعبيرية في التيـــار الرومانتيكي متأثرا بالرومانتيكية الانجليزية ! وكان صاحب هذه المدرسة او هذا التيار في حياة القصة في فلسطين ..

ومن بين كتاب القصة الطويلة في هذه المرحلة السيد جمال الحسيني حيث اتخذ الوطنية والتضحية نواة نسج حولها قصته (على سكة الحجاز) وقصته (ثريا) (١) ..

تلك هي التيارات والمدارس التي استطعنا الظفر بها في حدود هذه المرحلة ... وبذلك نختم حياة الادب القصصي في هذا القطر ونقف به عند هذه الحدود لان وراء الحدود هاوية كبكبت فيها كل مقومات الحياة الفلسطينية وكان للنكبة اتجاهات في القصة جديدة وتيارات خاصة ، ومضت القصة في مسارب اخرى تحتاج الى تأريخ خاص بها !

---

(١) حاولت جاهدا الحصول عليهما لاعادة قراءتهما ، فقد قرأتهما في مرحلتي الثانوية فلم اوفق ، وحين اظفر بهما اضعهما في ضمن التيار الذى تنطبقان عليه .

البـــــــــاب الثــــــــالــث

الفصـــــل الثـــالث :

حيـــــــــــاة النقـــــــــــد

حياة النقد في ادب كل امة مرتبطة ارتباطا مباشرا ومتصلا بحياة الادب للامة ذاتها .. ومستوى النقد تابع في غالب الاحيان لمستوى الادب.. قد يتقدمه قليلا او يتأخر عنه قليلا ، ولكنه لا بد له من ان ينفعل به فيوءثر فيه ويتأثر به!

والقيم الادبية التي تروج في الادب كثيرا ما تروج في النقد في فترات متقاربة ...

ولقد رأينا في حياة الشعر وفي حياة النثر قبل ان يطلع القرن العشرين ان الاتجاه الى تقريظ الكتب واصحابها كان رائجا لدى ادباء ذلك العصر وشعرائه.. وكان ذلك التقريظ صورة من صور الفتنة والاعجاب وتلمسا تأثريا بسيطا لدواعي تلك الفتنة ، اقرب ما يكون الى التبرير منه الى التحليل .

فالسيد عباس خماش من نابلس حين "رمق" (جنان) احمد فارس الشدياق .. و "قطف ثمار آداب بدائعه" ... وجده "لهامة ذلك العصر تاجا" لانه "جدد خلق الاداب العربيه الباهيه ، وشيد اركان رسوم معالمها الواهيه واحيا دارس مواتها .. قضاياه الكليه سليمه عن الاعوجاج ، وقياساته الصحيحة صريحه ببراهين الانتاج .. لا غرو انه لا لغو فيه كما يعلم من تتبع قوافيه .. كيف لا ورضوانه البستاني منشيء اغراسه ببيان بديع المعاني ، كم جلا علينا من حور بنات افكاره ابكارا وطفقت انواره ترقص بمحكم المباني ، وجميل نكات الفنون جهارا ، فلعمرى ان الفكر بفكاهة ثماره تمتع والسرور بكواعب اترابه تجمع" (١)

ومن هذا المستوى في النقد تقريظ ابي السعود احد علماء القدس الشريف لكتاب "سر الليالي" للشدياق ... سواء في التقريظ النثرى او الشعرى (٢)

وشبيه به في هذه المرحلة تقريظ ياسين ابن اخي العالم المشهور عبد الرحمن النابلسي لجوائب الشدياق . تقريظا منظوما (٣)

هذه النماذج الثلاثة في هذه المرحلة من حياة الادب تدور كلها على تبرير الاعجاب بأدب الشدياق تبريرا بسيطا لا يعتمد على اسس ذوقية او جماليه علميه ، وانما هو تبرير تأثرى ليس غير ، يعد نواة للنقد آنذاك !

وفي الفترة نفسها نجد خطوة ابعد قليلا من الحد الذى وصله اولئك الثلاثة حيث لا يكتفي المقرظ بمدح الشدياق وانما يمضي الى ذم خصومه ومن انكروه او ارادوا أن يطفئوا نوره .. كما فعل يوسف اسعد نجل مفتي السادات بالقدس الشريف ... حين مدح صاحب الجوائب ..(٤) وكما فعل الشيخ يوسف النبهاني في تقريظه للجوائب وسر الليالي واعلائه من شأن الشدياق وحطه من شأن خصومه كصاحب (برجيس) وغيره (٥)

---

(١) الجنان / جزء ١٦ / ١٨٧٠ / ص ٤٩٧ (٢) "كنز الرغائب" / الجزء الرابع / ص ٧١
(٣) "كنز الرغائب" / الجزء ٤ / ص ٤٧ (٤) كنز الرغائب / جزء ٤ / ص ٣٥ — ٣٦ .
(٥) "كنز الرغائب" / الجزء ٤ / ص ١٣١ — ١٣٣ .

كذلك كانت القيم الادبية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر تجنح الى التقريظ ... وكذلك جنح النقد الادبي في هذه الفترة..فكان تقريظا تأثريا قائما على التبرير اكثر منه على التحليل .. وكان أشبه ما يكون بعرض لصناعة البيان الشكلية دون ان يكشف عن ارتباط الادب بالحياة !

ثم يقبل القرن العشرين ، ويقبل معه لون من الوان الروابط التي تصل الحياة العربية بالحياة الاوروبية وآدابها .. واذا نحن امام ظاهره في حياة النقد رائعة تكاد تتخطى الحدود الطبيعية لمرحلتها .. واذا نحن امام قيم في النقد شامخة ليست ثمرة من ثمار المستوى الادبي المحلي ، وانما هي ثمرة من ثمرات التمرس الطويل بالنماذج الرائعة في الادوار المختلفة لحياة الادب العربي منذ ان كان في الجزيرة قبل الاسلام حتى توالت عليه العصور فعملت فيه عوامل التطور المختلفة ، ثم هي ثمرة من ثمرات المقابلة بين حياة هذا الادب وظروفه ودواعيه المختلفة ايضا والكشف عن العوامل المشابهة والنتائج المتقاربة في الشكل وفي المضمون ولاسيما في الفترة التي اكتنفت حياة فكتور هوجو .

تلك الظاهرة هي ظهور كتاب " تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب ، وفيكتور هوكو " سنة ١٩٠٤ حيث " تشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية في علم الادب عند الافرنج ، وما يقابله من ذلك عند العرب من ابان تمدنهم الى عصورهم الوسطى ، وما اقتبسه الافرنج عنهم في الادب والشعر في نهضتهم الاخيرة وخصوصا على يد فيكتور هوكو .. ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر الفيلسوف ، ووصف مناقبه ومواهبه ومؤلفاته ومنظوماته وغير ذلك " .. وهو تأليف الكاتب الكبير روحي الخالدى ..

ومن هنا كان الناقد روحي الخالدى المقدسي في كتابه على مستوى تلك التجارب الانسانية الرائعة في الادبين العربي والفرنسي .

ومن هنا وضع يده على امثال تلك القيم التي راجت فيما بعد لدى كتاب الواقعية العلميه التي تعتبر ان الادب انما هو علم الانسان يمكن مقارنته بعلم الطبيعيات ، وان الشخصية الادبيه انما هي كالنوع او الشكل كذلك الادب يرمي الى ادراك كنه حقيقة الانسان ، فيعمد الى تصنيف الاشخاص بمثابة نماذج لها اشباهها ثم يردهم الى انواع واشكال بشريه ويحدد النواميس السيكولوجيه التي يخضع لها كل من النوع والشكل البشريين .

فهو يذكر في اول كتابه ان فيكتور هوكو "لم ير مباينة بين العلوم الرياضية المبنية على حقائق برهانية وبين علوم الشعر التي كان يظنها الناس خيالات باطلة واوهاما كاذبة . وان اعذاب الشعر اكذبه " .. (١) وكان هوكو يقول : " ان الكلمة كائن حي فاعلموه ! " (٢)

---

(١) تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب / ص ٩ (٢) تاريخ علم الادب / ص١٠

ثم اتصل بالعوامل الفعالة التي اعانت اصحاب المذهب الحديث (الرومانتيك) من الانتصار على اصحاب المذهب القديم (الكلاسيك) .

وتتبع الصراع بين المذهبين ، واتصل بأصحاب الاتجاهين اتصالا مباشرا من خلال كتبهم ومقالاتهم ..

وليس من الغرابة بعد هذا الاتصال أن يكون روحي الخالدى من انصار الذين يرجحون المعنى على اللفظ ويجعلون اللفظ من خدام المعنى ..(١)

ومن قيمه التي كانت ثمرة لهذه الصله ايمانه بأن علم الادب لا يكمل للمتبحر فيه الا "بعد أن ينظر في ادب الامم المتمدنة ولو نظرة عامة يطلع بها على مجمل تاريخ ادبهم وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وسمو الادراك وبلاغة المعاني ويعرف أساليبهم في النظم والنثر وتصرفهم في الكلام ويميز بين طرق المتقدمين والمتأخرين منهم" (٢)

وهذه الافاق تجعله يدرك أن البلاغة لا تختص باللسان العربي وحده ، وان الامه كلما ارتقت في سلم الحضارة كان لسانها ابلغ وادبها اوسع واكمل .. فيدرك ادباؤها حقائق المعاني التي ربما استعملها آباؤهم واجدادهم في غير مواضعها بسبب الجهل الناشيء من ضيق العمران وقلة العلوم (٣)

وكان بسبب هذا الاتصال لا يقر التكلف والتقليد "فالتكلف في زماننا لتقليد الانشاء العالي ، ونظم قصيدة ثامنة للمعلقات السبع او سجع مقامات ثالثة لمقامات الحريرى والهمذاني ليس فيه كبير فائدة ما دام الاصل في الكلام للمعاني ، والمقصود من المعاني اظهار اسرار هذا الكون الذى نصبح فيه ونمسي ونحن غافلون عن كثير من حقائقه ولا ندرى بأى عبارة فترجم عنها ولا كيف نوضح شعورنا واحساسنا بهذا الموسط الذى نحن فيه .. فهذه المعاني البليغة العالية ينبغي لادباء العصر سبكها في السهل الممتنع من الكلام الفصيح بغير تهافت منهم على الكلمات اللغوية والمحسنات اللفظية من جناس وطباق وقراءة الكلام طردا وعكسا .. وامثال ذلك مما يعده العقلاء من الملاعب الصبيانية اذ ليس هذا غاية الادب والغرض منه .

ويكتب فصلا يوضح فيه كيف أن الفرنساويين قبل اختلاطهم بعرب الاندلس لم يكن لاشعارهم روى ولا قواف فاخذوا عن جيرانهم الاندلسيين علم القوافي (٤)

وقبل بيان الطريقة التي سلكها فكتور هوكو في علم الادب وشرح اساليبه في النظم والنثر وفي تصوير القصص والروايات ذكر شيئا من اخبار العرب ليبين لنا التأثير الذى اثره ادبهم في اشعار الافرنج وقوافيهم بوجه العموم وفي فكتور هوكو بوجه الخصوص ، "لان هذا الشاعر الحكيم نفح بنفحة من النفس الاندلسي واغتذى بلبان من ارتضع قديما ثدى الادب العربي ." (٥)

---

(١) تاريخ علم الادب/ ص ٢٥ — ٢٦ (٢) تاريخ علم الادب/ ص ٢٦ (٣) تاريخ علم الادب/ص ٢٩

(٤) تاريخ علم الادب/ ص ٩٧ — ١٠٠ .(٥) تاريخ علم الادب / ص ٣٢ .

وهذه الصلة بالادب المقارن جعلته يتبين الخطر في توجيه العناية لحفظ الالفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها ، ومن اجل ذلك عرض القرآن الكريم بهذا النوع من الشعراء فقال تعالى :

(والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون) ... ويعلل ذلك بأن الشعر العربي قد ضيق النطاق على الشعراء فالزموا باتباع القواعد التي تخطاها شعراء الافرنج (١)

وهو يثير في هذا الكتاب قضايا نقدية في غاية الاهمية .. من ذلك :

" ان الشعر له ثلاثة ادوار وهي الغناء والحماسة والدرام ... ولكل منها مناسبة بدور من ادوار الاجتماع الانساني الذى هو عمران العالم . فالقرون الابتدائية غنائية والقرون القديمة حماسية ، والقرون الجديدة درامية ، والغناء يترنم في الازل . والحماسة تحتفل بالتاريخ ، والدرام يصور حياة الانسان . وخاصة الاول السذاجه . وخاصة الثاني البساطه .. وخاصة الثالث الحقيقة فرواة اليونان — ويسمونهم رايزود ، وهم اشبه برواة العرب الذين جاء منهم حماد الراوية ، وكانوا يطوفون القرى ، ويروون اشعار بنداره وهوميروس وايشيل — يدلون على دور الانتقال من الشعراء المغنين اى النظامين لشعر الاغاني الى الشعراء الحماسيين . والرومانيون اى مؤلفو الرومانات وهي الاقاصيص الموضوعة يدلون على دور الانتقال من الشعراء الحماسيين الى الشعراء الدراميين .. وبظهور الدور الثاني ظهر المؤرخون . وبظهور الدور الثالث ظهر الباحثون في حكمة التاريخ وبيان اسباب الوقائع وتعلقها .

واشخاص شعر الاغاني عظام الاجسام طوال القامات والاعمار مثل آدم وقابيل وهابيل ونوح .. ويدخل في زمرتهم عوج بن عناق . وأشخاص شعر الحماسة من القوم الجبارين وهم اقوياء اشداء مثل أشيل بطل الحروب اليونانية واسترة آلهة العدل واوريس ابن اغاممنون الذى الف فيه شعراء اليونان رواياتهم .. ثم جاء فولتر ونسج على منوالها روايته المشهورة باسم اوريست .. ويدخل في زمرتهم عنترة بن شداد . واشخاص الدرام هم بشر على الصورة الحقيقية للانسان مثل هاملت وماكبث واوتيلو الذين صورهم شكسبير في رواياته المشهورة بهذه الاسماء . وربما دخل في زمرتهم ابو زيد السروجي في مقامات الحريرى والشيخ علي بن منصور الحلبي في رسالة غفران المعرى .. ومنبع الاغاني الوهم والخيال ... ومنبع الحماسة العظمة والفخامة ومنبع الدرام الحقيقة .. وتتفجر هذه الينابيع الثلاثة من ثلاثة بحور كبيرة التوراة وهوميروس وشكسبير ....

---

(١) تاريخ علم الادب / ص ٤٢ .

فهذه هي اشكال الفكر المختلفة بحسب اختلاف القرون التي تقلب فيها الانسان والعمران • وهي في ثلاثة ادوار : الشباب والكهولة والشيخوخة •• فسواء نظرنا في ادب امة على حدتها أو في ادب البشر على وجه العموم فالنتيجة التي نستنتجها من جميع ذلك واحدة •• وهي تقدم الشعراء المغنين او الغنائيين وهم الناظمون اشعار الاغاني على الشعراء الدراميين ••• ••• ولا غرو في ذلك فان الاجتماع الانساني الذى هو عمران العالم يبتدئ في الترنم بما يتخيله ثم يقص ما يحمله • ثم يصور ما يفتكره ••فالدرام بجمعه بين الاوصاف المتضادة كان اوعب للافكار الفلسفية والتصورات العميقة • وكل ما في الطبيعة وما في الحياة يتقلب في هذه الاشكال الثلاثة وهي الغناء والحماسة والدرام • لان كل ما في الوجود يولد ويعمل ويموت " (١)

هذا تلخيصه لبعض القضايا الادبية التي كان يثيرها فكتور هوكو ••

وحين يعرض للطريقه الرومانية (الرومانتكيه) كما دونها هوكو في مقدمة رواية كرمويل يقول : " ومنها يفهم ان الطريقة الرومانية ارجعت الشعر الى الحقيقة والطبيعة والحياة ، وتركت فيه التصنع وزخرفة الكلام واجراس الالفاظ •• "

ثم يلتفت الى الادب العربي فيقول :

" فمن امعن النظر في البحث الاخير من تلك المقدمة وجده مطابقا لما ذكره ائمة البلاغة والادب في لسان العرب كأبي بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون وامثالهم ولا حاجة لايراد اقوالهم في هذا الباب فانها معلومة ومحصلها وجوب نصرة المعنى على اللفظ لان الالفاظ خدم المعاني •• " ((٢)

ويعرض للطريقة الرومانتيكيه وموسسها شكسبير ، ولظهورها في المانيا وانتقالها الى فرنسا ، وسقوطها بظهور الطريقة الحقيقية والطبيعية (٣)

ويطبق ما يمكن تطبيقه من ذلك على حياة الادب العربي من غير أن يتكلف في التطبيق •

ولا يدع اثرا من آثار فكتور هوكو من غير أن يدرسه ويتمثله في ظروفه الساسيه والاجتماعية ويعرضه عرضا دقيقا ويبين اوجه التشابه والخلاف في الشكل والمضمون بينه وبين شعراء العرب كأبي العلاء وغيره •••

تلك هي بعض المتفرقات من القضايا الادبية التي اثارها الناقد روحي الخالدى في كتابه القيم ، اشرنا اليها اشارات ليس غير لندل بها على مستوى هذا الكتاب في تاريخ النقد في الحياة العربية !

---

(١) تاريخ علم الادب / ص ١٥٥ — ١٥٧ (٢) تاريخ علم الادب / ص ١٥٨ — ١٥٩

(٣) تاريخ علم الادب / ص ١٦٢ •

وهو ثمرة ذلك الاتصال المتعمق الاصيل للثقافات الانسانية في ظروفها المتنوعة ومدارسها المختلفة واتجاهاتها المتطورة !

وبمقدار ما كانت الافاق النقدية متسعة في كتاب الاستاذ الناقد روحي الخالدى بحكم تلك النوافذ المفتوحة كانت الافاق النقدية منغلقة لدى الاستاذ الشيخ سليم ابو الاقبال اليعقوبي في مقدمته لديوانه "حسنات اليراع" ٠٠ وقد ظهر الناقدان في حياة الادب الفلسطيني في فترة متقاربة حيث طلعا علينا في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ٠٠

ولئن كان الاستاذ روحي الخالدى يجنح الى المدرسة الرومانتيكية في النقد ويطمح الى الطريقة الحقيقية والطبيعية فان الاستاذ اليعقوبي يجنح الى المدرسة الخيالية المثالية التي تميل الى التفسير الغيبي والتي تلتقي مع الاخلاقيين في وجوب تحميل الشعر الحكمة والموعظة الحسنة ٠٠

فالشعر لديه "روح طاهره يمزجها الله تعالى مع الحياة الطيبة في النفوس الابية ٠٠ لاسيما الخيالي منه الذى يرجع الى طبع صقلته الفضيلة وينشأ عن فكر جلا صفحة البيان ٠٠ او ما اشتمل على حكمة تفصل بأفئدة ذويها فصل الهداية بقلوب المهتدين و (ان من الشعر لحكمة) او موعظة تحرك العواطف الشريفة وتبذر في صدور أبنائها بذور الحياة (وان من الشعر لموعظة تحرك عواطف القلوب) ٠ ولقد كانت العرب في القرون الاولى لا ترمي الا اليه ، ولا تعول في نشر الفضيلة الا عليه ٠ اذ به حفظ المكارم والمآثر وتقييد الحوادث والوقائع وتخليد معالم المدح وتسطير آيات الثناء ٠٠ كيف لا وهو أجل صناعة يتوصل بها الى اشياء كثيرة من قبل احراز المقاصد الحسنة ونيل المآرب التي تطمح اليها الحضارة العربية وقضاء الحوائج واستعطاف افئدة الاصدقاء ، واستمالة قلوب الاعداء ٠٠ وما صاحب الجيد منه الا من اودع نفسه اسرار البلاغة والقى في قلبه دلائل الاعجاز ٠٠ او من كانت العلوم العربية بأسرها مهبط وحيه ٠٠ ومدارك الاذواق السليمة مرمى رأيه ٠٠ وكثير من شعراء اليوم غرضهم المزعوم رمي الالفاظ بدون استعارة حسنة ووصف جميل ولا ذكر خيال ترتاح له النفس ويطمئن به الخاطر ٠٠" (١)

وحين يعمد الى تعريف الشعر لا يوجه عنايته الا الى الشكل ، ويسطو في التزام عمود الشعر العربي القديم على النقاد القدامى امثال الخوارزمي وابن رشيق والبحترى وابن سلام ٠

"الشعر هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارات والاوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروى مستقل كل جزء منها في غرضه عما قبله وبعده ، الجاري على منهاج الاساليب المخصوصة به ٠٠" (٢)

---

(١) مقدمة ديوان حسنات اليراع ص ٢ ـ ٣ (٢) مقدمة ديوان حسنات اليراع / ص ٤

وهكذا يحصر نفسه في التعريف السطحي لشكل الشعر دون أن ينفذ الى مضمونه أو ارتباطه بالحياة !

وحين يقدّم بين أيدى الادباء ديوانه "حسنات البراع" يعتز به لأنه خلا من كثير من مبتذل الالفاظ كلفظ (الورى والملا والبشر والذكر وفخرى ومفاخرى وقد — ولو كانت للتحقيق — وحينئذ وحقا وقاطبة) ونحو ذلك من كل مبتذل تداولته الادعياء وعولت عليه في منظومها الفقهاء ." (١)

وهكذا نظفر في هذه المرحلة بأثرين من آثار النقد الاول فسيح الآفاق منغلق على نفسه !

ثم نتقدم خطوة في مطلع القرن العشرين وتنشأ الصحف على أثر اعلام الدستور عام ١٩٠٨ ، وتنفتح النوافذ بطريق هذه الصحف على الآثار الادبية العالمية: وكما اتصل الاستاذ الناقد روحي الخالدى بآفاق الادب الفرنسي المتمثلة في فكتور هوكو وبما أحاطه بهذه الآداب من ظروف اجتماعية الاستاذ الكاتب خليل بيدس في مجلته النفائس التي طلع بها على الناس والتي جعلها مدرسة قائمة بذاتها تطل على حياة الامم الاخرى وتنتفع بما أنتجه الفكر العالمي من آثار أدبية وغيرها .. وجعلها مسرحا لروايات أكبر الكتاب العالميين .. وفتح نوافذها على الآفاق الروسية وغيرها في الأدب القصصي . وعني بالروايات لما لها "على اختلاف مواضيعها من التأثير الخطير في القلوب والعقول حتى اعتبرت من أعظم أركان المدنية بالنظر الى ما تستنبطه من الحكمة في تثقيف الاخلاق وما تنطوى عليه من العبر والمواعظ في تنوير الاذهان .." (٢)

وحين يقدم لرواية شقاء الملوك الاجتماعية السياسية يقول فيما يقوله :

" هذه الرواية تتضمن من العبر والحكم تحت ثوب اللهو والفكاهة ما يجعلها من أنفس الذخائر لأنها تمثل باسلوب شائق حالة الملوك ونسبتهم الى الرعية وواجباتهم نحوها .. وحقوق الرعية عليهم وما يتصل بذلك من شؤون الملك وأحوال رجال الدولة والبلاط وقوة الشعب بصور مختلفة تنطبق على الحقيقة يتخلل كل ذلك حوادث مشوّقة ومباحث فلسفية اجتماعية يستعذبها السمع ويتعشقها الطبع .. " (٣)

والاستاذ خليل بيدس في كل ما ترجم وكتب من روايات طويلة أو قصيرة كان يستهدف شيئين : المضمون الذى تشتمل عليه وينبغي أن يكون شريفا يخدم أكبر مجموعة من الناس وهم العامة أو السواد الاعظم من كل امة .. والعبرة أو الموعظة التي يجب أن يبلغها ذلك المضمون للقراء !

ومن أجل أن يصل الى هذين الشيئين عمل كل ما في وسعه ليكون روائيا .. والروائي في رأيه — " ان لم يعاشر العامة ويدرس أحوالهم ، أو لم يكن منهم ، ويعيش بينهم ، أو لم تكن فيه قوة التصور ومهارة التصوير وبراعة

---

(١) مقدمة ديوان حسنات البراع ص ٧ (٢) النفائس/ عدد ١/ مجلد ١ ١٩٠٨ ص ١
(٢) النفائس/ عدد ٢ / مجلد ١ ١٩٠٨ ص ٢٨ .

الوصف ، ولم يكن فيه النظرة الادبية الصادقة الى كل حادث ، والارتياح التام بل الكشف التام ببحثه ، وان لم يسر بحمله على الدوام الى الامام ، الى اعلى درجات الكمال ، ولم يكاشفه الالهام والوحي والنبوة فليس بروائي عبقري .

وهو — ان لم يقرأ مئات الروايات ، ومئات التواريخ ، ولم يطلع على حوادث الكون ، ويلج كل مجتمع ، ويدرك معنى الحياة واسرارها وأساليبها ، وينزع غرض روايته من حوادث الحياة وطبيعة الانسان ، ويجعلها منطبقة على الحقيقة والواقع — فليس بروائي متفنن .

وهو — ان لم يكن نبيا ، يرى ببصيرته ما لا يراه غيره ، وان لم يكن شاعرا يحلق في سماء الخيال ، ولم يكن عالما اجتماعيا يعلم الاحوال ويطلع على كل شأن من الشؤون — فليس بروائي ماهر ...

والرواية الحقيقية الفنية ، هي التي ترمي الى المغازي الحكمية او الاغراض الادبيه ، الى تمجيد الفضائل او التنديد بالرذائل ، الى تهذيب الاخلاق وتنوير العقول وتنقية القلوب واصلاح السيرة ... (١)

وقد ظل الاستاذ بيدس أمينا لهذه القيم طوال حياته الفنية واخلص لها وعمل على تحقيقها في كل ما صدر عنه !

ونحن نرى التقارب الشديد بين الناقد الاستاذ روحي الخالدي والاستاذ خليل بيدس من حيث انهما يعدّان الادب كأنما هو علم الانسان ينبغي على من يمارسه ان يكون على علم ودراية بكثير من الشؤون ! ومن حيث عنايتهما بالمضمون : وحرصهما على أن يحمل المضمون عظة وحكمة وعبرة .. لتنهض بالامة وتقدم لها ما ينفعها في سيرها الى الامام ... وقد حرص الاستاذ بيدس فاعلن ان الروائي هو من " يكتب للعامة وهم السواد الاعظم من كل امة (٢)

وبذلك يكون الاستاذ بيدس امتدادا لمدرسة الاستاذ روحي الخالدي التي أضاء قممها بمشعل هاد منير : فحمل المشعل من يد الاستاذ الخالدي وسلمه للاستاذ خليل السكاكيني الذي كافح وناضل في سبيل اذكاء النار فيه وفي سبيل تبليغه الى الايدي الامينة من الاجيال الصاعدة لتسير به الى الامام وتتجه الى اعلى .

وقد عاد الاستاذ السكاكيني — على أثر اعلان الدستور — من امريكا الى القدس . وعاد الاستاذ اسعاف النشاشيبي الى ملازمته في الليل والنهار .. وجعلا يكتبان ، وانضم اليهما حنا العيسى من يافا ، وجاء الى القدس وانشأ مجلة (الاصمعي) وكانوا ثلاثتهم على اتصال مستمر .. وكان اسعاف مولعا ببديع الزمان الهمذاني ينسج على منواله في كتابته وقد كنى ابا الفضل بكنيته . وكان السكاكيني مولعا بأبي الطيب المتنبي وكني أبا الطيب بكنيته .. وكنى حنا العيسى أبا سعيد وهي كنية الاصمعي .. (٣)

---

(١) مقدمة مسارح الاذهان ص ١١ — ١٢ (٢) مقدمة مسارح الاذهان ص ١١

(٣) يوميات السكاكيني / ص ٣٨٢ — ٣٨٣ .

وحين يؤسس الاستاذ السكاكيني مدرسته (الدستورية) "يختار لها من أدبيات اللغة ما يثير في نفوس التلاميذ الحماسة ويوسع آمالهم ويكبر نفوسهم ويحببهم بالحياة ، لا الادبيات التي تخذر الحواس ، وتسفل الاهواء ، وتسمم الشعور ، وتثبط العزائم ، وتولد اليأس والخمول والزهد بالحياة .. (١)

وحين يعرض للوسائط التي بها يتنبه الشعور الوطني في الامة العربية يقول :

"وأكبر عامل في ايقاظ الشعور الوطني هو أدبيات اللغة ، والمعلم الوطني لا يعدم في ادبيات اللغة العربية ما يثير الحماسة في نفوس التلاميذ ، ويبث فيهم الحياة .. ان امة عندها أمثال المتنبي وأبي فراس وأبي تمام والبحتري وأبي العلاء وعنتر لا يمكن أن تموت ، ولا بد أن كثيرين من المعلمين يعدلون مع الوقت عن بعض ما في أدبيات اللغة العربية من الحكم الفارغة والخمريات والغزليات التي تسمم النفوس وتخدر الحواس الى ما فيها من الحماسيات التي تولد في النفوس النزوع الى المجد والفخر وتبعث في الصدور الاقدام والشجاعة والرجولية مما يناسب روح العصر . وسأجرب أن أختار لتلاميذي من أدبيات اللغة العربية ما يفي بهذا الغرض وسأبث هذه الروح فيمن حولي من المعلمين ان شاء الله"(٢)

وفي موضع ثالث من اليوميات يقول :

"الحياة ، الحياة ! اذا أردتم ان يكون لكم موسيقى أو غناء أو شعر أو أدب أو أي فرع من الفنون الجميلة ، بل اذا أردتم أن يكون لكم وجود ، فليكن فيه حياة والا فلستم الا هياكل بالية !"(٣)

وليس من الغرابة في شيء أن يكون الاستاذ السكاكيني بعد هذا رأس مدرسة المجددين في النقد والداعي الى صلة الادب بالحياة صلة قوية متينة ..

وليس من الغريب أن تقوم الخصومة بينه وبين الامير شكيب أرسلان زعيم المذهب القديم في الكتابة ..

ويعلن الاستاذ السكاكيني قائلا :

"نحن في عصر تغلبت فيه روح الاقتصاد ، فاذا لم يراع الكاتب الاقتصاد فيما يكتبه ، في وقته ووقت القارئ ، لم يجد من يقرأه .. بل نحن في عصر المعنى فيه الاول واللفظ المحل الثاني ، وبعبارة اخرى اذا لم يرتكز الادب فيه على العلم فلا قيمة له"(٤)

---

(١) يوميات السكاكيني / ص ٥٢ (٢) يوميات السكاكيني / ص ٦٦
(٣) يوميات السكاكيني / ص ١٤٦ (٤) مطالعات في اللغة والادب / ص ٩٦

ثم تصبح جريدة السياسة مسرحا للصراع القائم بين المذهبين : القديم والجديد ، بزعامتي الامير شكيب أرسلان ، والاستاذ خليل السكاكيني ، ويحمل ذلك الصراع وتلك المراجعات التي دارت بينهما على تحديد معالم المذهبين ، كما أشرنا الى ذلك في الفصول السابقة عن حياة النثر ٠

والاستاذ السكاكيني واثق من دعوته الادبية ٠٠ وهو يخاطب الامير شكيب في مراجعاته حول المذهب القديم : " لا يا سيدى لا يجوز لك ولا للزمخشرى ولا لابن الاثير ولا للجاحظ ولا لابن المقفع ولا للحريرى ولا لاحد أن يكثر من المترادفات في غير مواطن تكرار الكلام بلفظه أو بمرادفه ، وغلطي ، وغلط غيرى لا يشفع في غلطك ، ولا يفيد العربية أن تحزن على من مات على مذهبك في الكتابة من العلماء الاعلام ، وانما يفيدها أن تراعي اصولها وانت سيد العارفين ".(١)

ثم ينتقل الى الكلام عن الفروق بين المذهبين القديم والجديد فيقول :

" قلت في احدى رسائلي السابقة التي كانت منشأ هذا الخلاف بيني وبين الامير ، ان اصحاب المذهب القديم يكثرون من المترادفات في غير مواطن تكرار الكلام بلفظه أو بمرادفه ، وان اصحاب المذهب الجديد لا يكررون الكلام بلفظه أو بمرادفه الا في المواطن التي نص عليها البيانيون تفاديا من الحشود وذهابا الى الايجاز ٠٠ "(٢)

وفي موضع آخر يستوفي الحديث عن المذهبين فيقول : " التطور ناموس عام ٠ فما من عنصر من عناصر الحياة الا خاضع له رضينا أم كرهنا ، ومن لا يؤمن بهذا الناموس فقد جهل كثيرا ٠٠ ولا بد أن تكون قد رأيت ان اللغة خاضعة لهذا الناموس ، وانه ما من سبيل لاخراجها عن حكمه ٠٠ ومن آثار التطور في اللغة أن الناس كانوا يميلون الى الاكثار في الكلام ٠٠ فصاروا يميلون في هذا العصر الاخير ـ الذى انتشرت فيه روح الاقتصاد ـ الى الايجاز ٠٠ كما رأيت في ما دار بيني وبين الامير شكيب ارسلان من الجدال ٠٠ ومن تلك الآثار ان الناس كانوا يميلون الى التكلف في الكتابة فصاروا يميلون الى الاساليب الطبيعية فيها ، كما كانوا يتكلفون في كل شيء فصاروا طبيعيين في كل شيء ٠٠٠ فالاسلوب الطبيعي للكتابة أن يكتب الانسان كما يفكر وكما يتحدث ، فمن حاول أن يكتب ما لا يفكر فيه أو يتحدث به هو أو غيره وما لا يلائم الحياة في شيء فقد تكلف ٠٠٠ اذا أراد الكاتب من اصحاب المذهب القديم أن يكتب فلا يستوحي عقله أو قلبه ، ولا يستعمل من الالفاظ ما يؤدى مراده ويناسب المقام ويفهمه الناس ٠ ولكنه يستوحي القدماء ، يفتش عما قالوه في موضعه في كل مظنه فيستعير معانيهم وألفاظهم ويدّعيها لنفسه ٠

---

(١) مطالعات في اللغة والادب/ ص١٦٥ (٢) مطالعات في اللغة والادب/ ص١٦٦

لا تقرأ شيئا لهؤلاء الكتاب الا أحسست ان كل لفظة فيه ليست لهم .. كان القدماء يستحسنون (التضمين) .. و (الاستعانة) .. و (الايداع) .. و (الاقتباس) .. و (التلميح) .. و (العقد) ... وأما اليوم فأن اصحاب المذهب الجديد لا يميلون الى شيء من هذا ، فأنك لا تجد في ما يكتبونه آية أو حديثا أو مثلا أو سطرا أو جملة من بيت بل لا تجد كلمة ليست لهم أو لا يصنعونها ...

ومن أثر هذا التطور أن اصحاب المذهب القديم ينزعون الى الارستقراطية في هذا الزمان الذى انتشرت فيه الديمقراطية ، فصار الكتاب فيه يكتبون لا للخاصة ، ولا لتسلية الامراء والكبراء أو التملق لهم أو السخر منهم ، ولا للتفصح او التمدح ، بل لعامة الناس في ما ينفعهم في هذه الحياة ... ومن ارستقراطيتهم أنهم يبالغون في التأنق وتخير الالفاظ ولو خرجوا الى الكلفة بل السخافة ، وقد قسموا الكلام الى رصين ومبتذل أو سمين وهزيل . وما الرصين السمين في عرفهم الا الغريب المهجور ، وما المبتذل الهزيل الا المفهوم المأنوس . ولا تشيع لفظة على ألسنة الناس الا اصبحت عندهم مبتذلة هزيلة لا يليق بأمثالهم أن يتسفلوا الى استعمالها ، وربما امتنعوا عن الكتابة بتاتا اذا اضطروا ان يكتبوا بلغة الناس ...

يقول هؤلاء الكتاب الارستقراطيون انهم يكتبون للخاصة لا للعامة ، ومنهم من يبالغ في ارستقراطيته فلا تفهمه العامة ولا الخاصة .. وتراهم اذا كتبوا اضطروا الى تفسير ألفاظهم في ذيل كل صفحة وقد يكون التفسير أطول من المتن وأغمض ...

... اذا كنتم ايها السادة الاجلاء انما تكتبون للخاصة فلا حاجة الى هذا التفسير ، بل لا حاجة الى كل ما تكتبون . واذا كنتم تكتبون للعامة فكلفوا خاطركم غير مأمورين واكتبوا بلغة الناس ولكم الاجر ...

... ثم لو فرضنا ان هذه الالفاظ الغريبة التي يسميها الاستقراطيون (جزلة فخمة) . وأن تلك التراكيب التي يسمونها (أنيقة الديباجة) اصبحت شائعة فماذا يعملون ؟ هل يخترعون ألفاظا وتراكيب جديدة ؟ ام يغضبون كما غضب الصاحب بن عباد على صاحب كتاب الالفاظ فقال : لو أدركت عبد الرحمن بن عيسى مصنف كتاب الالفاظ لأمرت بقطع يده ، فسئل عن السبب فقال : جمع شذوذ العربية الجزلة في اوراق يسيرة فأضاعها في افواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة .. لم تغضب ايها الصاحب بن عباد على عبد الرحمن بن عيسى لأنه رفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة ، وانما غضبت لأنه حاول ان يجعل من صبيان المكاتب وعامة المتأدبين ارستقراطيين مثلك ، وليس شيء أثقل وأشد

على الارستقراطي من أن يدانيه احد من العامة ...

... لقد أحسن عبد الرحمن بن عيسى في تقريب منال اللغة من المتأدبين فهو يستحق على ذلك الشكر الجزيل ، ولكنه أساء من حيث لا يدرى . اذ قيد أقلام الكتاب بعده بتلك الالفاظ التي جمعها فلم يحيدوا عنها . واذا استعمل أحد غير ألفاظه قالوا هذا ليس عربيا . فكان كتابه هذا أول عهد اللغة العربية بالجمود والتكلف . " (١)

بهذه القيم النقدية : وهذا المنهج الجديد شق الاستاذ السكاكيني طريقه في حياة النقد ، وكان موقفه واضحا بينا وميزانه دقيقا سليما ... تستطيع أن تحكم على ضوء هذه المقاييس ما يكون موضع رضاه من الآثار وما يكون موضع سخطه ..

فحين جاءته دعوة من لجنة احياء ذكرى شوقي في مصر .. وطلبت أن يقول كلمة .. قرر أن يعتذر ، أولا لأن الداعين الى الحفلة حكوميون يقصدون من احياء ذكرى شوقي معارضة خصومهم الوفديين الذين لأمر ما يؤثرون حافظ ابراهيم عليه . كأنهم اذا اختلفوا في السياسة لم يكن بد من أن يختلفوا في الادب وغير الادب ، وهذا عجيب . " ومعاذ الله أن يشترك في حفلة ليس القصد فيها خدمة الادب بل خدمة أغراض سياسية ، وقضاء شهوات وحزازات تبعثها الخصومة في السياسة . ثانيا لأن له قياسا للشعر اذا قاس به شوقي كانت كفته مرجوحة ، ولم يبق له من هذه المزايا الشعرية التي يدعونها له وينحلونه اياها الا الشيء القليل الذى لا يغني ولا يسمن ، على حين أنهم ينتظرون اذا حضر حفلتهم أن يجاريهم في دعواهم فيكيل المدح كيلا . تعالى عن ذلك علوا كبيرا "(٢)

وحين كلّف ان يتكلم عن شوقي في احد النوادى قال : " ان شوقي يا استاذ ولم تنته نوبة رثائه ، وأنت ترى أن الذين رثوه ، وكثير ما هم ، قد رفعوه الى السماء السابعة حتى لقد بلغ من بعضهم ، وهو استاذ كبير في مصر ، ان قال ان اللغات بأسرها تعجز عن وفائه حقه ، فاذا أردنا أن نرثيه فيجب أن نخترع لغة جديدة وبيانا جديدا لعلنا نستطيع أن نوفيه بعض حقه وهيهات أن نستطيع ذلك . أفبعد هذا تريدني أن أتكلم عن شوقي ؟ انه لموقف حرج جدا ! ولكن أجل نفسي أن أحجم عن الوقوف فيه ومجاهرة الناس برأيي فيه ، ورزقي على الله . اذن سألقي محاضرة .. وأجل نفسي أن أتملق احدا أو أراعي خاطر أحد ، فسأقول ما أعتقد رضي الناس أم غضبوا . أجل نفسي أن اقول كلمتي وأمشي كما قال الريحاني ، ولكن سأقول كلمتي وأقف ومن شاء أن يصارعني فليتقدم ! . نحن في حاجة الى منبر حر يرقاه الواحد منا فيتكلم كما توحي اليه عواطفه ومداركه كما يريد لا كما يراد منه ، فأين هذا المنبر الحر ؟ " (٣)

---

(١) مطالعات في اللغة والادب/ ص ١٦٩ - ١٧٦ (٢) يوميات السكاكيني/ ص ٢٣٧ - ٢٣٨

(٣) يوميات السكاكيني/ ص ٢٣٩

وبهذه المقاييس التي تعنى بالمضمون درس شعراء الدولة الاموية وحين وجد أن معاوية احتاج الى شاعر يهجو الانصار ، وأبى الشعراء المسلمون ذلك عليه ، ودلوه على شاعر نصراني كان لسانه كأنه لسان ثور لا يجيد النظم الا اذا شرب وهو الاخطل ، فهجا الانصار " وكان شعره فيهم أشبه بالعربدة منه بالهجاء " قال الاستاذ السكاكيني في ذلك :

" اما نحن فلم نرض عن الشعراء المسلمين فقد كان يجب أن يترفعوا عن الهجاء لا لأن الذين طلب منهم أن يهجوهم كانوا الانصار ولكن لسببين آخرين : الاول لئلا يكونوا آلات في ايدى الناس .. الثاني لأن الهجاء في حد نفسه مكروه ، ولا سيما اذا كان موجها الى الاشخاص لا الى المبادئ .

ولم نرض عن الاخطل لانه قبل أن يبيع ضميره ولسانه فهو مثل كثيرين من أصحاب الصحف والاقلام والألسنة في هذا العصر الذين يشتغلون بنشر دعوة دون اخرى مأجورين فلو كان الاخطل في هذا العصر لوضع لسانه في سوق المزاد .. لذلك نادينا بأعلى اصواتنا : ليسقط الأخطل ! " (١)

وحين يتحدث عن الشاعر الشعبي (ابو دياب) .. ويجد قيمه متخاذلة منقوضة رجعية ، لا يرضى عن تلك القيم ، ولكنه يرضى عن الشاعر لانه مبتكر وليس من المقلدين فهو يصدر عن نفس صادقة في كل ما يقول ولهذا كان موضع تقدير الاستاذ السكاكيني لأصالته بينما لم يرض عن قيمه" ! (٢)

ومن هنا كان اعجابه بابراهيم طوقان شاعرا لانه لم يعرف التقليد فكل لفتاة وكل معنى من خلقه هو ومن ممتلكاته هو لا تجد وجها آخر يختفي وراءه غير وجه ابراهيم (٣) والاستاذ السكاكيني من أوائل الذين حملوا على نظرية (النقد بالذوق الموهوب) حين عرض لنقد الدكتور طه حسين لقصيدة حافظ ابراهيم في الدستور سنة ١٩٢٣ فيقول : " أجل الاستاذ عن أن يحيلنا في ادراك ذلك الجمال وتلك الروعة على الذوق ، فاننا نعتقد أن هناك اصولا للجمال وشروطا لروعة الفن(٤)

تلك كانت قيم الاستاذ السكاكيني النقدية ، وطريقته في تطبيق تلك القيم ، ونزاهته **وأمانته في** التطبيق ، وثقته بنفسه وبمقاييسه ، ومن هنا كان أجدر من يتلقف الشعلة من يد الاستاذ بيدس الذى تلقفها من يد الاستاذ روحي الخالدى .

والوقوف عنده والاستشهاد بأقواله يبين حدود المذهب الجديد الذى دعا اليه أولا ، ويوضح حدود المذهب القديم الذى ناصبه الجفاء والعداء ثانيا .

---

(١) ما تيسر / جزء ١ ص ٨ - ٩ (٢) ما تيسر / جزء ١ ص ٢٣ - ٣٨
(٣) ما تيسر / جزء ٢ ص ٥٢ - ٧٦ (٤) مطالعات في اللغة والادب ص ٧٥

وقد سار معه جنبا الى جنب يحمل علم المذهب القديم الاستاذ اسعاف النشاشيبي : وقد ذاد عن حمى ذلك المذهب وأحسن الذود عن اصالة وجدارة ورسوخ كلمة لا عن تقليد أو تشويه أو تزييف، ومن هنا كان السكاكيني رغم بغضه للمذهب القديم يحب الاستاذ اسعاف ويقدره ويرضى عن أصالته !

ورضى الاستاذ السكاكيني عن اسعاف راجع الى أن دفاعه عن العربية طوال حياته كان حافظا للغة من اولئك المستخلين الذين يتخفّون تحت شعار التجديد لا عن اصالة وممارسة وطول درس بل عن استسهال وضعف وعجز عن معاناة الجهد في معرفة لغتهم واجادتها وادراك اسرارها . ومن هنا كان اسعاف ومدرسته اللغوية ضرورة من الضرورات لئلا يسيء الناس دعوة الاستاذ السكاكيني وينحدروا بها ..

وفي دفاع الاستاذ اسعاف النشاشيبي عن اللغة العربية في أصولها وجذورها الضاربة في الدوّية والبهامه ، الصادرة عن حرشة الضباب ، النامية من الحركة الاسلامية ، المتجددة مع حضارة المسلمين ، الحافظة لمزايا ضريبتها .. لا يتنكر لمذهب النشوء والارتقاء :

" ... ولغات الامم كافة ، أي لغات التصور والفكر انما أصلها لغات الاصوات ، وقد ورثها الاناسى عن الاقربين من قردة آخر الوقت المعدني كما ورثوا عنها سواها ... وقد آثرت الطبيعة قطين . منا في الريح باللغة العربية كما آثرت غيرهم من الامم بغيرها . ولكن هذه اللغة لم تكن في أول يوم أنيقة مجوّدة كما حملها الينا (الكتاب) المعجز وقصائد شعرائها ، فقد كانت مثل شقائقها ، فشذبها الدهر وصقلها حتى عادت كالوذيلة المشوفة . وهذا صنع (الانتخاب الطبيعي) . " (١)

والاستاذ النشاشيبي لا يرضى عن شيعة البديع المتكلف :

" .. وكادت شيعة البديع تقوّض من اجل النكتة البديعية قواعد العربية تقويضا . " (٢)

ويلقى نظرة الى أصحاب المذهب الجديد فيقول : " فماذا يرى اليوم المتسمون بالمتجددين أو المجددين وفي أي سبيل يمورون المسير ؟ أيرون أن ننقلب الى القديم . فيجود القول ويستقيم . وتوقى الوحدة العربية بصون الاساليب العربية وتترجل الامة وتتفحل من بعد خنثها ، وتأنثها باستظهار الكلام الفحل الجزل ، ويتهذب ذوقها ، بمؤالفة الاقوال المهذبة المنتقاة ، وتكون هذه الامم العربية في الوجود شيئا مذكورا . أيرون هذا أم يضادوننا فيذهبون الى غير هذا المذهب الحدوى وينبرى لنا مدارهم قائلين : ان الزمان ليضيق عن الاحاطة بالعربية والتوغل في آدابها . وان سنّة ارتقاء اللغات تخالف شريعة المستمسكين بالقديم .

---

(١) كلمة في اللغة العربية/ ص ٨ - ٩ (٢) كلمة في اللغة العربية/ ص ١٨ - ١٩

وان المعوّل عليه هو المعنى ليس اللفظ وما أمر اللفظ عند العلماء بذى بال .

وأقاويلهم هذه (يا أخا العرب) أضليل وأباطيل . والباطل مضمحل فلا تغرّنك جولته . وللحق الحكم في كل حين فاسمع حكمه .. " (١)

ثم يتناول حجج هؤلاء المجددين ويرد عليها حجة حجة .. وينتهي بعد الرد على الحجة الاولى الى أن الاديب العربي "وان كدّ روحه وأسهر لياليه في اقتباس أدبه ، الا انه لم يضارع في الجد أخاه الاديب الغربي الذى لن يؤثر له قول ، ولن يطنّ له في قومه ذكر حتى يثخن لغته معرفة وحتى يفقه احدى اللغتين القديمتين اللتين نجلتا لغات الغرب ونفختا فيها من روحهما وهما الاغريقية واللاطينية . وكل أديب استخف بهما ولم يعكف طويلا عليهما فلا يعبأ له بقول " (٢) وفي رده على حجة النشوء والارتقاء يخلص الى القول :

" فأن مذهب النشوء لم يخالفنا ولم نخالفه في حال ، وهل يشجع مثلي على محادته . وان هذا المذهب الذى يقول : ان كائنات الكون نشأت نشوءًا وارتقت ارتقاء لهو القائل ايضا : ان العالي يسفل والخطير يحقر وان الامة التي تبلغ قنّة مجدها وتكاد تلمس السماء بيدها تتدحرج القنّة الى أهضام الوادى .. فاللغة العربية تبدلت يوم كانت في الجزيرة ووصلت الى الذى وصلت اليه ثم جاء الخطر فوقفها وظعنت أفاريق من أهلها عن مرابعهم ولابسوا الاعاجم فكادت العجمة تتادهم اليها وكان المعربون يتراطنون لولا أن جد القوم في حفظها وروايتها . وقد كانت العربية تمشي منذ ذلك الحين القهقهرى لا اليقدمّية " (٣)

ويرد على حجة أولوية المعنى فيقول : " وأما قولهم : ان المعوّل عليه هو المعنى لا اللفظ وان أمر الثاني ليس بذى بال ، فهو قول أملاه الخبث والعجز والجهل .. " (٤)

ثم يعلن بعد ذلك كله :

" وان انبرى لنا زنيم في العلم فقال : ان الامة لا تفقه القول ان اتصف بما تبغيه منا ، وان المعاني لتعمى عليها ، أجبناه : ان كنت تعنى بالامة جهالها فهؤلاء لا يعبأ بهم عاقل وهؤلاء لا يبالون أصح القول أم سقم . والجاهل خارج عن الدائرة لا يجرى عليه حكم ولا يعد في الناس " (٥)

وهو يعترف أن لكل دهر لغة ، وأن لطبيعة العصر سلطانا ولكنه يتخذ أزهى العصور مثالا يمتدى بهديه فيقول :

---

(١) كلمة في اللغة العربية / ص٢٠–٢١ (٢) كلمة في اللغة العربية / ص٢٢–٢٣
(٣) كلمة في اللغة العربية / ص٤٧ (٤) كلمة في اللغة العربية / ص٤٩
(٥) كلمة في اللغة العربية / ص٥٣

" أنّا كلما ابتعدنا عن زمان القرآن ابتعدنا عن جمال تلك اللغة المضرية العربية (١) ويتوجه لصاحب التجديد قائلا :

" ان لغتك المصرية هذه لغة من حديد طبع أجرب فنحن نريد أن نصقل هذا الحديد لنزيل خبثه وبشعه فترتاح اليه العيون ان آنسته ولا تضيق عن النظر اليه : ولغتك المصرية هذه لغة معتلة فنحن ندعوك الى مداواتها وتقويتها بتلاوة القول القديم لكيلا تسل أو يدوّد لحمها ثم تموت " (٢)

ثم يقول له :

" واما قولك أنك تهرب من استعمال الغريب الوحشي غير الفصيح ولا تريد أن تتقعر في كلامك ، ومقصودك بهذا القول انك لا تهوى التوعّر والتعقيد . فمن دعاك الى هذا ومن حبّبته اليك وأى أديب ذى ذوق قال لك : ان استعمال الغريب الوحشي الذى أنقذ الانتخاب الطبيعي اللغة منه منذ أحقاب محمود مندوب اليه " (٣)

ثم يقول له بعد ذلك : " وليس الغريب غير الفصيح الذى سمعت البلغاء يعيبونه ما غرب معناه عنك وعن أشكالك . فقد قال ابن رشيق في العمدة : " الكلمة الوحشية هي التي لا يعلمها العالم المبرز والاعرابي القح " (٤) .

ثم يسوقه الحديث الى التعرض لمن قال : " ان نهج البلاغة المعزو الى علي بن ابي طالب أو أمثال نهج البلاغة مثل القرآن " : وبعد أن يحمل عليهم يعلن أن " النهج ما هو الا جمع من هنا وهناك " فخطبة لقطرى ابن ابي الفجاءة في ذم الدنيا ذكرها ابن عبد ربه في عقده ، وخطب لطائفة من المحدثين يؤيد ذلك ألفاظها المولدة كالازل والازلية ومباحثها التوحيدية الكلامية التي لم تدريها العرب الا في القرن الثاني والثالث ..

وقد ضلّ ابن أبي الحديد اذ قال : ان عليّا كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين ويعلم العلوم كلها " (٥)

ثم يرد الخطب والاقوال والكلام والحكم التي في النهج الى اصحابه ويذكر **مظانها** .. ويخلص من ذلك الى فكرة الانتحال فيقول :

" .. وهذا دأب المغرمين في نابغتهم أوعظيمهم أو صاحب نحلتهم ، فأن كلفهم به يغطّي على بصائرهم فينسبونها اليه كل صنع باهر لم يصنعه وكل قول بليغ لم يقله وينعتونه بكل نعت غريب ويروون عنه كل آمر عجيب وربما ألهوه ،

---

(١) كلمة في اللغة العربية / ص٥٦ (٢) كلمة في اللغة العربية / ص ٥٦
(٣) كلمة في اللغة العربية / ص٥٨ (٤) كلمة في اللغة العربية / ص٦٠ــ٦١
(٥) كلمة في اللغة العربية / ص٦٧ــ٦٨

وكأى من اله رأته الناس يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ." (١)

وبعد أن يطمئن الى شكه في كلام على يرّد الظاهرة الى دواعيها فيقول :

"وان كتب اللغة لتنبئنا بأن الرواة كانوا يتقربون الى الخلفاء والسلاطين والنبهاء في الدولة برواياتهم فكانوا يضعون الاحاديث ، ويختلقون ما لم يكن ابتغاء خير يأملونه عند من يخطون سلعتهم الادبية اليه أو أجل تبريزهم على أقرانهم برواية قول أو شعر استبدوا هم بمعرفته — وربما صاغ العلماء والادباء الحديث لينصروا مقالة لهم أو نحلة كما فعلت جماعة على في تزوير بعض خطبه ، وكما فعل هؤلاء في اختلاق الكلام المعزو الى فاطمة والمنثور في كتاب (المنظوم والمنثور) لأحمد بن ابي طاهر ، ليضعوا من مقدار صديق النبي وليحزنوا به شيعتهم . وانه ليستبعد العاقل أن تدنوء نفس فاطمة (وهي ابنة محمد) (فتقبل في لمّة من حفدتها وتدخل على أبي بكر في حشد من المهاجرين والانصار) ثم تنشىء تئن أنين الامة وتخنّ خنينها من أجل قرية لا تساوى دمعة واحدة من دموع أم الحسن التي (دمعها في الحوادث غال) وان لغة ذلك القول تنادى على أنه مزوّر ،(٢)

ثم يورد أمثلة متعددة على الاختلاف في الادب ويبيّن وجوه اختلافها ويدلّل على ذلك بأدلة علمية عقلية وفنية ..

بهذا يتضح مذهب الاستاذ اسعاف ، وبينه وبين الاستاذ السكاكيني قدر مشترك كبير يجعل أحدهما يقدر الآخر ، ويرضى عن أصالته ، واخلاصه لمذهبه ، فحرص الاستاذ النشاشيبي على عدم التكلف ، وعلى التأنق الاصيل في الكتابة ، وعلى قبول مبدأ النشوء في اللغة ، وسخطه على الضعف والركاكة ، وطلبه للأدب الذى يبعث القوة في النفوس حتى تترجل الامة وتتفحّل من بعد خنثها وتأنثها ، كل ذلك جعل الاستاذ السكاكيني راضيا عن الاستاذ النشاشيبي يحب ملازمته ويرتاح اليه .

ومهما يكن من دفاع الاستاذ النشاشيبي عن منهجه فلن يخرج عن مذهب القدماء ، وان يكن صاحب أصالة وخلق وابتكار في هذا المذهب وملكة في اللغة متمكنة ..

" واعلم يا فتى ان المتقدمين هم الاعلون وهم المتقدمون وهم المجلّون في حلبة العلم العربي والادب وهم السابقون . وانما دأبنا في هذا الزمان أن نستهديهم وهم هداة الحائر نيهدون ، ونأتم بهم وهم الأيمّة فيرشدون . ونسألهم من فضلهم وهم الذرام البحور فيحسبون ، ونجدوهم والجود من شناشنهم فيجودون . " (٣)

---

(١) كلمة في اللغة العربية / ص ٧٠ — ٧١ (٢) كلمة في اللغة العربية / ص ٧١ — ٧٣

(٣) مجموعة النشاشيبي / الكتاب الأول / فاتحة الكتاب .

ومن هنا اتجهت عناية الاستاذ النشاشيبي الى الشكل فأولاه كل عنايته ، وان يكن لا يرضى أن يتهم بأنه أهمل المضمون .. بينما اتجه الاستاذ السكاكيني للمضمون ..

ومن هنا أدركنا فتنة النشاشيبي واعجابه بشاعر الفن الشكلي شوقي وعزوف السكاكيني عنه ..

واقبال النشاشيبي على شوقي صورة تطبيقية للنقد التأثري في المنهج القديم :

" ... وغدا محمود سامي البارودى يحمل علم الشعر ويبشر الحال برسول في القريض يأتي من بعد محمود اسمه (أحمد) ... وغدا الشيخ محمد عبده يحمل علم النثر . ويد جمال الدين عند محمد وعند العربية وعند مصر وعند المشرق لا تكفر ...

... وقد أرد ابن الحريرى في البدء أن يقتل الاستاذ الامام فنجّاه كتاب الله وحديث رسول الله منه . فأرجع يا فتى الى اسلوب القرون الثلاثة الاولى ، الى الاسلوب الطبيعي العربي ، الى الاسلوب الباريسي ، الى اسلوب القرن العشرين بل الثلاثين بل الاربعين ، وانبذ ، انبذ ، مقامات الحريرى ، مقامات الهمذاني وما شاكلها ولا تتصفحها اما ابتغيت تعرّفها الا خائفا ، وحذاريك أن يستعبدك متقدم في الزمان أو متأخر ، واياك وأن تقلد في القول احدا فالمقلد عبد ولا يرضى بالعبودية حر ، والعاقل لا يهب كينونته لسواه وان ساواه أو علاه ، وبعضهم لا يهبها لله (عز وجل) — والتقليد عدم والاستقلال كون فلا يؤثر على الثاني الاول الا أحمق .. وقد كتب الاستاذ (محمد عبده) في العلم بلغة الادب .. فراحت رسالته في التوحيد في ذلك العصر معجزة .. ظهر محمد ، وظهر محمود ، فتقوّت العربية بعد أن تضعفها الضعوم وتعززت بعد اذلال فغدا الدهر عند ذلك يحبّذ لنابغة يطلع على الدنيا طريقة ..

ومن سنن الله ومن دساتير الطبيعة الا يفاجىء نابغة أو عظيم فيما قدّر له أن ينبغ أو يحلّق فيه فوقه مفاجأة دون أن يستعدوا له ، اذ النابغة في شيء ما انما هو جوهر أمته ، ولا يلخص خير الا من خير ، وما حدث كون من عدم . وقد أشار الى مثل هذا واضع علم الاجتماع ابن خلدون حين ذكر أمر الرسالة المقدسة .

غدا الدهر يحبّذ لنابغة في القريض يطلع على الدنيا طريقة ، وغدا أهل الدهر يرتقبون شعرا يسمى شعر النبوغ قد عدموه منذ عصور ولم يجىء من بعد القرون الثلاثة الاولى .. " (١)

---

(١) العربية وشاعرها الاكبر أحمد شوقي / ص ١٦ — ٢١

وحين يحلل الاعجاز الشعرى الذى جاء به شوقي يقول : " وقد جمله وقواه وخلده ،عربيته ، متانته ، لغته ، ديباجته ،وان لهذا كما للمعنى لقدرا ،وان له نبمجة ،وان له في النفوس لاثرا . وانما المعنى واللفظ شيء واحد فهما كالجسم والنفس،والنفس والجسم كائن فرد لا كائنان متباينان.. واللفظ والمعنى كمادة الكون وقوته فليس هناك مادة قد انفرقت عن القوة وليس هناك قوة قد زايلت المادة كما يقول (كنت) " (١)

بهذه الطريقة من الفتنة والانفعال يطبق الاستاذ النشاشيبي منهجه في النقد ! ويمضي في خطبته حتى يقول : "جاء محمد وجاء خليفته ،وجاء محمود وخرج نابغة الشعر العربي (احمد شوقي) ،وكان المقتطف،ثم جاءت هذه الدولة الادبيه العربيه المصريه ومن رجالها الكاتب الاكبر ،والشاعر الاكبر ،والمفكر الاكبر ، والاديب الاكبر ، والخطيب الاكبر ،والنقاد الاكبر ،والباحث الاكبر ،والفقيه الاكبر ، والمتفنن الاكبر ،والعالم الاكبر ، وكل كبير في علمه وفنه فصات في ارجاء الكون هذا الصوت : الا ان محمدا وذكر محمد .. وقرآن محمد .. ولغة محمد .. وعربية محمد وأدب محمد ... كل ذلك لن يزول ،كل ذلك لن يبيد ،وفي الدنيا مصر" (٢)

تلك هي اسس الطريقة القديمة في النقد الاصيلة في جذورها ،التي انصرف عن كثير من ميزاتها الاستاذ السكاكيني صاحب المذهب الجديد في حياة النقد في هذا القطر !

وكما قامت مراجعات بين الاستاذ السكاكيني من جهة والامير شكيب ارسلان من جهة.. كذلك قامت مراجعات بين الاستاذ النشاشيبي من جهة وبين الاستاذ امين الريحاني من جهة اخرى :

ويرد الاستاذ النشاشيبي على ما ورد في مقال الاستاذ الريحاني الذى عاب فيه التقليد ،والاغراب ، وهجن (اصطلاحات واستعارات يشغف بها المقلدون) وعد" الانشاء فنا ـ والتجاوز في الكلف بالفن خسران ،واللغة ذريعة ،واتخاذ الذريعة غاية ضلال ورأى اننا محتاجون جد محتاجين الى الذى هو انفع ،الى العلم الغربي الحق ، فلا يجوز ان يشغلنا الكلام المزوق عنه !...

ويتناول الاستاذ النشاشيبي هذه العيوب واحدا واحدا ويبرأ منها كلها.. ومما ما يقوله في مراجعته :

---

(١) العربية وشاعرها الاكبر ،احمد شوقي / ص ٢٧

(٢) العربية وشاعرها الاكبر ،احمد شوقي / ص٣٠ ـ ٣١ .

" فمن اللغة فن ومن انشائها فن فلا تسألن الفصيح البليغ في المقال ان يذر فصاحته وبلاغته وذا الفن ان يهجر فنه وينزل من عليائه الى فنائه ، ويزايل عزلته ، ويماشي جماعته ، ويبتذل اسلوبه وهو يستطيع صيانته ، ودعه يفتن في الانشاء كيف شاء" (١)

بهذا كله تتضح لنا الدعوة في المنهج القديم وزعيمها النشاشيبي والدعوة في المنهج الجديد وزعيمها السكاكيني ... ولم تصطدم الدعوتان لاصالتهما ، وقد انتفع بهما العامة والخاصة وانتفعت بهما حياة الادب وحياة النقد ، واتجها اتجاها صاعدا لم يرجعا الى الوراء !

وبعد ان ارسى الاستاذ السكاكيني قواعد مدرسته ، واقام عمدها ، وغرس النشاشيبي بذور مدرسته وامتدت جذورها في اعماق الماضي حتى بلغت القرون الثلاثة الاولى في الحضارة الاسلامية .. اقبل على الحياة ناقد فلسطيني كانت دمشق مجاله الحيوى ... وكان يعد نفسه لخوض معركة ادبيه ، وترسيخ ادب صحيح ، ونسج خطة في الادب جديدة ... ومن اهم الصدد لمثل هذا المتجه ان تنفتح النوافذ على الافاق الادبيه الانسانية العالمية ، وكذلك فعل ، فترجم عن الادب الانكليزى قصصا وروايات ، ومقدمات عن الفن ، واتخذ الصحف مسرحا يتنقل عليها ويرأس تحرير عدد كبير منها .. هذا الناقد هو الاستاذ احمد شاكر الكرمي .. " ففي سنة ١٩٢٠ حين اصدر مجلة (الميزان) في دمشق اراد لها ان تكون مجلة (الادب الصحيح) الذى يقضي على الزخرف والاسلوب ، ولكن في مداورة واناه .. اراد لها ما اراده من بعد اصحاب (الديوان) في مصر ، ولكن دون خصومة .. لقد كانت عناصر المعركة بين القديم والجديد (التي آتت اكلها فيما بين سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣٥) تتجمع منذ مجلة (الميزان) ومقالات الكرمي .. " (٢)

واذن فقد اعد الاستاذ الكرمي نفسه ليكون من انصار المذهب الجديد الذى حمل لواءه الاستاذ روحي الخالدى ، ثم الاستاذ خليل بيدس ، ثم الاستاذ السكاكيني .. ولكن الاستاذ الكرمي لم يحمل ثورة اولئك ، ولا حرارتهم ، فقد اراد لمذهبه المعايشة السلمية .. فاراد أن يقول كلمته ويمشي ! فلا يقف للمصارعة كما كان الاستاذ السكاكيني .. ومن هنا كان أثره اضعف من اثرهم رغم انه بذل جهدا كبيرا ، وكان لنقده اصداء في البلاد العربيه . وقد وصفه الاستاذ ابراهيم المازني فقال :

" ويل لأشواك الادب من هذا المنجل العضب " (٣)

---

(١) اللغة العربيه والاستاذ الريحاني في مجموعة (اللغة العربيه وشاعرها الاكبر) ص ٣٨ ـ ٣٩ (٢) القصة في سوريا / لشاكر مصطفى / ص ٢٢٣ (٣) اعلام الادب والفن / لأدهم الجندى / جزء ١ / ص ٣٦٩ .

وحين تألفت في دمشق الرابطة الادبية كان الاستاذ احمد شاكر الكرمي من اعضائها العاملين ، وحين اصدرت مجلتها باسمها كان الاستاذ الكرمي من محرريها ومن اللجنة التي تشرف على تيار النقد في المجلة٠٠ وكان يلقى محاضرات في الجلسات التي تعقدها الرابطة ،ومن محاضراته الشخصيه في الادب التي القاها في مساء ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٢١ ونشرت في الجزء الخامس من مجلة الرابطة سنة ١٩٢٢ (١) جاء فيها : .

" الشخصية في الادب مجموعة الخصائص التي يمتاز بها ادب عصر من العصور عن ادب عصر سواه ،او ادب بلد من البلاد عن ادب بلدة اخرى او ادب فرد من الافراد عن ادب فرد غيره ٠ فان كانت تلك الخصائص في السياق ، والتنسيق سميت (الشخصيه في الاسلوب) ٠٠ وان كانت في الافكار والمعاني سميت (الشخصيه في الرأى) فان اجتمعت الشخصيتان سميتا (الشخصية التامة)

وفي آخر المحاضر يقول :

"٠٠٠ والشخصية التامة في ادبائنا المعاصرين نادرة للغاية فان اكثر الذين لهم شخصية محترمة في اسلوبهم لا توجد لهم شخصية في آرائهم ،واكثر الذين لهم شخصيه في آرائهم لا تكون لهم شخصية في اسلوبهم تستحق الاحترام٠٠ وشعراؤنا بوجه عام ابعد عن الشخصية بانواعها من جماعة الكتاب لانهم اشد ايغالا في التقليد ، وقد ماتت في اكثرهم قوة التوليد والابتكار ، فانكب فريق منهم على تحدى القديم في الاسلوب والمعاني ،وعكف اكثر غواة التجدد منهم على الترجمة ونقل افكار الشعراء من الافرنج فطحنوا بذلك الشاعرية في اشرف مقاتلها ،وهم يحسبون انهم يحسنون بعملهم صنعا ٠٠ نحن نجل بلاغة الغرب ونحب ما فيها من حياة وقوة وروح ولكننا لا نحب ان تميت في شعرائنا قوة التوليد والابداع وتقتل فيهم روح الابتكار والاختراع!٠٠٠ وخلاصة القول ان منزلة الشخصية في الادب كمنزلة الروح في الجسد سواء بسواء وليس الادب المجرد من الشخصية الا كفارغ الجوز ،قشور بلا لباب ،ومادة من غير معنى ٠ فليعمل حملة الاقلام من كتابنا وشعرائنا — اذا كانوا يريدون الخير للناس ولانفسهم — على ان يجلوا عرائس افكارهم حية يجول في وجناتها ماء الشباب ولا يعرضوها صورا مفزعة كالمومياء قد هجرتها الروح وارتسمت على وجهها آية الموت !"

وهكذا يقف الاستاذ الكرمي موقف الحائر بين قيم يحبها في المذهب الجديد وقيم لا يستطيع التخلي عنها في المذهب القديم ٠٠٠ لهذا لا نجده يحمل مسؤولية المضي في احد الاتجاهين وانما هو مشدود بينهما !

---

(١) مجلة الرابطة الادبيه / جزء ٥ / سنة اولى / سنة ١٩٢٢ / ص ٢٥٧ — ٢٦٣٠

وحين تريد الرابطة طبع كتاب (معاني الشعر) ونشره نشرا حديثا ، وتعهد الى لجنة للاشراف على هذا الامر ، يكون الاستاذ الكرمي عضوا عاملا في تلك اللجنة ..(١)

وحين تقيم الرابطة حفلتها في مسرح زهرة دمشق سنة ١٩٢١ ، وكان الغرض منها طبع كتاب الشعر للاشناداني ، يكون الاستاذ الكرمي رابع الخطباء ويكون موضوعه (كوكب الامل) (٢) جاء فيه :

" .. والادب العربي قد تقلب في الظلمة والنور ، فأشرقت يباجته وابيضت صحيفته ، ثم اظلمت جنباته واسودت صفحاته مرات عديده .. وهو اليوم مثل رجل عزبت عليه الشمس وهو سائر في طريق وعرة موحشة مملوءة بالحفر والاخاديد فبقي مثابرا على سيره يكبو تارة ، وينهض اخرى ، وقادته خاتمة المطاف الى حفرة عميقة قائمة في ظاهر الطريق فهوى فيها وقد بلغ التعب منه غايته وسالت اطرافه بالدماء ، واستقر المسافر المكدود في تلك الحفره ولم يحاول النهوض من كبوته .. انه لم يمت ولم يفقد الحياة ولكنه كان تعبا منهوك القوى فبقي ساكنا هادئا ينتظر الساعة التي يستعيد فيها قوته ليخرج من حفرته ويواصل سيره ......

.. وكان الادب العربي بالامس - وهو يتمرغ في ليله الدامس - ادبا صبيانيا قصره اهله على اغراض تافهة وجعلوه شبكة يصطادون بها ارزاقهم ، وسلسلة من المدائح الكاذبة يطوقون بها اعناق كلاب الدنيا ، لينالهم شيء من فضلاتهم . اما اليوم فقد أخذ يدنو من الحياة الانسانية العامة ، ويمتزج معها ، وعاد الى سلوك السبيل الذى خلقه الله للسير فيه .. نحن لا نزعم أن الحركة الحاضره في عالم الادب وافية تامة ولكننا نقول : انها بشير الحياة دليل النهوض ، فهي كنجمة الصبح ان لم يكن في نورها هدى للمستهدين فانها مقدمة لانوار الصباح ... ان حاجتنا الى الادب مثل حاجتنا الى النور .. وان من الممكن ان نعيش من غير ادب ولكننا نعيش عيشة العميان .."

وفي عرضه لكتاب الشاعر الذى ترجمه السيد لطفي المنفلوطي .. يتعرض لفكرة نقل الروايات التمثيليه والروايات القصصية فيقول :

" .. تنتقل الحوادث في الروايات التمثيليه انتقالا فجائيا ينقطع معه تسلسلها ويخفى احكام حلقاتها وارتباطها تبعا لما يقتضيه التمثيل ومواقفه ، اما الروايات القصصيه فانها على الضد من ذلك . تتطلب تسلسلا في حوادثها وارتباطا في وقائعها .. ووظيفة ناقل الرواية القصصية الى تمثيليه هو ان يعمد الى الحوادث فيقطع ارتباطها قطعا فنيا كما يقتضي الحال ، ووظيفة ناقل الرواية التمثيلية الى قصصيه ان يوجد تلك الحلقات التي قضت الضرورة التمثيلية بحذفها ..(٣)

---

(١) مجلة الرابطة الادبيه / جزء ٥ / سنه ١ ١٩٢٢ ص ٣١٩ (٢) مجلة الرابطة الادبيه / جزء ٦/ سنه ١ ١٩٢٢ ص ٣٢٩ - ٣٣٣ (٣) مجلة الرابطة جزء ٦ سنه ١ ص ٣٧٧ .

وفي كلمته التي يثبتها في آخر ترجمته لرواية (ميّ) يكشف لنا عن ناقد من اولئك النقاد الذين يجنحون الى فريق الاخلاقيين في نقدهم للمضمون الادبي ، حيث يقول :

" ولا يمنعني هذا الحادث الروائي الذى ساقه المؤلف في قصته هذا السياق الخشن من أن اقول ان هناك من هم اجدر بالملامة واولى بالتقريع من المرأة المسكينة ، واريد باولئك شيوخ الازواج الذين يتهالكون على الاقتران بفتيات في ريعان الصبا ، والاباء الذين يعميهم الطمع عن رؤية الحواجز التي اقامتها الطبيعة بين العباد ..." (١)

وفي خطبته التي القاها في حفلة تأبين السيد المنفلوطي (٢) يعرض لأمور اربعة تتعلق بـأدب الفقيد :

الاول : طريقته في الكتابه .. حيث تظهر براعته في (كيف يكتب) فينتقي الفاظه ويراعي المشاكله بينها في الرصف ويعني برنات مقاطعها وموسيقية مخارجها ..

والثاني : سبب اقبال الناس على آثاره .. حيث يروى عن وجدانه لا عن علوم مقررة .. فلا يتعب قارئه ..

والثالث : ميزته الخاصة في ادبه .. حيث يعرض الفكرة التي تعرض لسواه فيصورها صورة يعجز غيره عن تصويرها ..

والرابع : أثر ادبه في سير الادب العربي العام : حيث لم يتعد هذا الاثر المادة اللفظية .. وهو عامل قوى في تهذيب الاساليب الكتابيه العربيه واحياء كثير من المفردات..

وفي (الكرميات) التي نشرها له صديقه محي الدين رضا ميزات الكتاب الادبي الذى يصلح للجيل يقرأه فيجد في قراءته لذة وفي اسلوبه فائدة : والناشر يقدم مباحث الكرميات مشربة بالمبادئ الاجتماعيه الراقيه لرجال الادب ومحبي الجديد .. ويرمي من وراء نشر هذا الكتاب الى مطاردة الاساليب القديمة في اللغة والكتابة ، باسلوب سهل دقيق فيه ذوق سليم يحمل المعاني الكريمة...

وينشره لان محتواه فضائل ومكارم في الخلق تؤدى الى الخير الذى به تتحقق السعادة .. ولانه يحبب النفوس بالنتاج الادبي ويعلن أن حظ الاديب الحقيقي موفور غير منقوص كما يتباكى مدعو الادب ...

ومقدمة المؤلف تكشف عن ايمانه بالتطور والتقدم والترقي في حياة الفكر البشرى " فالفكر البشرى .. جار على سنن الكائنات الحية ... "

---

(١) رواية مي / ص ٤٨ (٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق / المجلد الرابع ١٩٢٢ / ص ٤٧٥ ـ ٤٧٨ .

وعن ايمانه بالجديد بعد أن ارتقت العلوم البشرية ارتقاء لم يكن يحلم به الاقدمون •• فالجمود هو الوقوف عندما عرفه السلف الاقدمون ••" ان من الجنون المطبق أن نسابق سيارات هذا العصر وطياراته بجمال اجدادنا وحمرهم وبغالهم •"
وتكشف كذلك عن ايمان بوجوب تضحية شيء من قديمنا للوصول الى ما وصل اليه اهل هذه المدنية الفخمة •• وعن ايمان "بضرورة السير على مقتضى روح العصر ••" وعن لوم من يجمد ويلتزم القديم " وها نحن اولاء لا نزال نداوى مرضانا بوصفات داود الانطاكي والشيخ السيوطي في عصر باستور وارليخ وسواهما •• ولا نزال عاكفين على قصص بني هلال وعلى الزيبق وذات الهمة في ايام جبران خليل جبران ، وارنولد بنت ودبلين واناطول فرانس ودونزيو وغيرهم ••"

ويعلن في آخر المقدمه أن ابحاثه جاءت لتكون صلة بينه وبين الشبان الراغبين في الحرية والصراحة ، لتدفع بهم الى الجهر بما يرونه صوابا •

وفي موضوع (حظ الادباء) (١) يوضح لنا صلة الادب الصحيح بحياة الامة ، بحيث يمثل ما يهمها ويكون صورة لطموحها وشعورها ونضالها في سبيل السير للامام •

وفي موضوع (الاداب العربيه وفن الانتقاد) (٢) يوضح تقدم الاداب الغربيه وعلو شأنها ، ويرجع ذلك الى عناية ائمة الادب بالنقد الصحيح • ثم يعلل انحطاط فن النقد في آدابنا بقصور في فهم حقيقة النقد عند جمهور الادباء •• ثم خوف القادرين منهم على النقد وجبنهم ••

" انظر الى رجال النهضة الادبية الحاضرة •• فانك ترى اكثرهم عاكفين على الملق ، والمداهنة •• قلما يكون نقدهم حبا بالنقد وقياما بحقه بل يكون في الغالب حبا بانتقاص المنتقد واسقاط مكانته لحزازات في النفوس وغل في الصدور كما شاهدنا ذلك في انتقادات المازني والعقاد وعبد الرحمن شكرى وغيرهم من رجال الادب في مصر ••"

ثم يبدى رأيه في دور الصحافة فيقول :

" •• اما المشتغلون بالصحافة العربية •• فقد صمتت السنتها الا عن انشاء فصول المديح وتحبير آيات التقريظ لكل كتاب يهدى اليها •• ولا تكاد تنظر في اثر من آثار الاقلام الا بنظر المادح المطنب •• ولو كان ما تنظر فيه لا يستحق الا الذم الموجع •• وقد شذت مجلة المقتطف •• الا ان حظ الكتب الفلسفية والعلمية من النقد الصحيح اوفى عندها من حظ كتب الادب لاسباب لا تخفى ••"

ويكشف عن عادة لدى بعض المؤلفين والنقاد فيقول :

---

(١) الكرميات / ص ١١ — ١٦ (٢) الكرميات / ص ٢١ — ٢٦ •

"ويظهر هذا الخلق في بعض ادبائنا بمظهر اسوأ من ذلك . فقد يتفق ان يشهد هذا الاديب الجبان في كتاب يعرض عليه بأنه خير ما اخرج للناس، ويصوغ له اجمل عبارات المدح وابلغ كلمات الثناء — مع انه يعتقد فيه عكس ذلك — عندما يطلب منه مؤلف الكتاب مثل هذه الشهاده ليزين بها صدر كتابه ، ولو شئت لحددت عشرات من مشاهير ادبائنا الذين ارتكبوا هذا الامر خوفا وجبنا .."

بهذه المقاييس والموازين النقديه مضى الاستاذ احمد شاكر الكرمي يقيس الاثار الادبيه ويزنها .. وفي مقاييسه وموازينه ملامح وقبسات تشبه بعض ملامح الاستاذ امين الريحاني وقبساته .. وفيها صور ومعالم تشبه بعض الصور والمعالم النقديه لدى الاستاذ السكاكيني .. ثم فيها انعطاف داخلي يكاد لا يكشف عنه نحو القديم يشبه بعض انعطافات الاستاذ اسعاف النشاشيبي

وحين يبدأ النصف الثاني من العقد الرابع من القرن العشرين يحس الواعون من رجال فلسطين أن الدول الاستعماريه تنسق خططها حتى لا تتضارب مصالحها الاستعماريه ، وانها تتكتل ، وتتخذ الوسائل المختلفة الاقتصاديه والسياسيه والدينية والفكرية من اجل تنظيم الاستغلال ..

ويدرك هؤلاء أن النضال يجب أن ينظم في وجه هذا التنظيم الاستعماري ويحس الفلسطينيون انهم وحدهم لا قبل لهم بمقاومة هذا الاستعمار والاستغلال الذى يتخذ خططه الواسعة المنظمه .. واذن فلا بد لهم من أن يربطوا مصيرهم بمصير كل من يقع عليه ظلم الاستغلال والاستعمار ، فليس الاستعمار الا لونا طبقيا من الوان الاستغلال ، لا تكاد تؤثر فيه العنصرية ولا أى مؤثر آخر الا بمقدار ...

ويدركون كذلك أن البرجوازية — وهي اعلم من العمال — قد رسمت خططها الخبيثه المحكمه ، ونفذتها على يد فئات اسندتهم من الخلف ، وجعلتهم (الطعم) لصيد الجماهير الغفيرة المسكينة ، وبذلت لهم ليغرروا بالسواد الساذج فتأمن ثورته الجبارة ... ولما رأت هذه البرجوازية المستغلة أن الادب اشد اتصالا بأفكار الشبان من غيره وادخل على قلوبهم من سواه ، اغرت فئة كبيرة من اصحابه وضمنت أن يأخذوا على انفسهم تخرير عقول الناشئة وخدمة الجور ومقاومة الانسانية في حين يلبسون مسوح النساك ويذرفون دموع التماسيح ..

بهذه المفاهيم الجديدة اطل المؤرخ المحقق الاستاذ عبد الله مخلص على حياة النقد في هذه الفتره فكتب للطليعه عام ١٩٣٦ حول (الادباء المغرضين) (١) وقسم هؤلاء الادباء الى نوعين : نوع يتاجر ببضاعته عن

---

(١) الطليعة / عدد ١ / سنه ٢ / سنة ١٩٣٦ / ص ٦٣ — ٦٧ .

علم منه ، تروج له الطغمة البرجوازيه فتفسح له صدور صحفها الغنية المنتشرة وتفتح له ابواب شركاتها للنشر ، وتجلب له في النوادى والقاعات ، وتسحى له في اوسمة الامتياز في الادب وتدعى له نفاذ البصيرة في صميم الكون وحقائقه الذى تخفى على كل من لم يكن من الادب في مقامه ، فيركب هذا الاديب راسه فيلقي سمومه بين الناس وقد البسها من الثياب المبرقشة الخادعة ما شاء له فنه الماكر .. ويتلقى الناس اقواله وآراءه آيات بينات لا يأخذها الباطل من امامها ولا من خلفها ، وتنطبع هذه السموم في الادمغة ويروح قراوءه يحاجون من الهمه حسه لمحة من النور وحاول النيل من ذلك الصنم ويجادلونه في شدة ولجاج ، ويثبتون له ان اديبا اجمع الناس كلهم على تقديره واحترام آرائه لا يصح ان ينتقص منه احد .

وبعد هذا العرض لهذا النوع من الادباء يقول الاستاذ عبدالله مخلص :

" وهذا ما سمعته بأذني من احدهم وقد قرأ مقال الاخ رئيف الخورى في مجلتنا الطليعة عن (وحش نيتشه) .. وقبله شغل الناس اشهر طوالا في سخف البحث في مناجاة الارواح .. وقد روج له احد من نعني من الادباء المغرضين . "

ويعرض الاستاذ عبد الله مخلص النوع الثاني من الادباء المغرضين وهو النوع الكلاسيكي الرجعي الذى يندفع في حماسة صادقة يحمل على كل من حدثته نفسه النظر في صميم هذا المجتمع والتغيير من انظمته ، بل ويزيد على ذلك بالحض على الرجوع الى ما كان عليه (السلف الصالح) ، ويعزو كل ما في هذا المجتمع من نقائص الى ان العالم سادر في (جهالة جهلاء وضلالة عمياء) بعد أن كان في دنيا من النور والنعيم هي النتيجة المقررة — في نظره — للتمسك بأهداب التقاليد والدين وكل قديم غيرهما .. وهذا النوع من الادباء تلحظه الطغمة المستغلة عن بعد وتمهد له وسائل الشهرة ووسعة العيش ، وتقوم ما يلتوى عليه احيانا من افكارها واغراضها فلا يزداد الا حماسة وايغالا وخاصة بعد أن يدخل في نفسه أن ما هو فيه من راحة وصفاء بال هو النتيجة المقررة — ايضا — لتمسكه بأذيال السلف الصالح والدعوة الى ما كان عليه .

ويقول الاستاذ عبد الله مخلص :

" وأمثال هوءلاء عندنا كثيرون جدا ، ولعل من اكبرهم اثرا ووضوحا ، سورى يقطن مصر ، يتأثره في الحاح شديد مصرى يسكن الشام . "

وهكذا يبين الاستاذ عبد الله مخلص أن قطب الدائرة عند البرجوازيين هي استغلال الناس ، وتضليل الشبان بالادب البرجوازى المنحرف الذى يحمل توجيها كاذبا مضللا للعقول والمشاعر بحيث يصرفها الى اغراض هي ابعد ما تكون عن الحياة الحقيقية حتى يتلهوا بها ، وفي ذلك أمان لهم .

ثم يعلن الاستاذ عبد الله مخلص أن من اغرب ما وضعه الادباء المغرضون من النظريات نظريتين مضحكتين يتناولهما بالتفسير المادي العلمي هما نظرية (الفن للفن) ونظرية (النقد للذوق الموهوب) .

ويقول فيما يقوله عن اصحاب (الفن للفن) :

"ولعل هؤلاء الادباء — حفظهم الله — ابوا ان يفوقهم رجال الدين في نظرية الالوهية (واجب الوجود قديم) ورأوا فيها خير تملص من قوة الحجة فلجأوا الى نظرية تقوم على روحانية غامضة وابهام مضلل هي (الفن للفن) وهذه النظريه في عدم اتصالها بالحياة وبعدها عن المعقول المحسوس جعلت من الادباء آلهة صغارا يتقمدون عروشا من الاوهام ، ويحيطون اجواءهم بغيوم من الاضاليل والشذوذ تزيد في شعوذتهم وتكسبهم تهيب السحرة في انظار العامة .. فأنت اذ تقرأ لهم القصيدة او القطعة او القصة فان من اول واجباتك أن تسلم بما فيها ، وليس لك ان تسأل هل قبلت هذه القصة من الامناء وهل عبرت عن آمالنا وهل فيها قيادة لنا نحن البائسين الى ما فيه تغيير لحالتنا التعسة ؟ ان فعلت ذلك فلست بالقارئ الفنان وانت مشرك في عبادتك الفنية ما دمت لا تؤمن بنظرية (الفن للفن) "

اما نظرية (الذوق الموهوب) فان اصحابها يدجلون على الناس "بأن الذوق انما هو هبة من الله يضعها فيمن اراد من خلقه .. وما دامت الاذواق مختلفة متشاكلة فلا يمكن ابدا — في زعمهم — وضع قوانين مقروه يلجأ اليها القارئ او الناقد لتمييز الغث من السمين . والدجل من الصحيح .. واذن فقد تمكن ادباؤنا من جعل سوق النقد فوضى ما دام في فوضاها بلبلة للافكار وما دام في فوضى الافكار متسع لاسيادهم البرجوازيين يتيح لهم قضاء مآربهم وارواء اطماعهم من خلال التوجيه السيء لافكار الناشئة وكثير من حملة الاقلام . فما هذه الثورات القلمية والحملات الادبية التي لا تكاد تخمد في بلادنا — وخاصة في مصر — الا مظهرا من مظاهر غليان فوضى الافكار وعدم استقرارها على حال صحيحة . وما نعيشه في بلادنا لا يخطيء في بلاد غيرنا ، ولا يكاد يختلف عنه ما دام الناس هم الناس (منتخل ومستغل) هنا وهناك "

ثم يعد بتفصيل الكتابة في النظريتين ، وبالتمثيل عليهما في مقالات اخرى يعرض فيها لبحث من يمكنه بحثهم من أدب الكتاب العرب وخاصة المعاصرين . ثم يشير الى عوامل التفاؤل بوجود انصار الانسانية الشريفة حتى من بين البورجوازيين .. ويعقد مؤتمر الكتاب العالمي الذي اقر بضرورة تبديل النظام القائم لفساده .. وبوجود بوادر احتلال العامل بعض ماله في فن القصص ، وبقيام الثورات الطبقية .

ثم يعلن انه سيبدأ المقال التالي "بقانون ادبي قويم يهدم النظرتين السخيفتين ، ويقيم من نفسه ميزانا عادلا نزن به من نبحثهم من الادباء ...

ذلك القانون الذى من حقنا ان نفتخر بواضعه لانه عربي سبق غيره من جميع الكتاب الى وضعه ، ولانه جم الحياء لا نحاول أن نضمر تواضعه بذكر اسمه "

وهذه لهجة جديدة وتيار في النقد لم نعهده بهذا الوضوح وبهذه الموازين ، انه فهم جديد نتج عن القيم الجديدة في الاقتصاد والسياسة والاجتماع . انها طلائع المدرسة المادية العربيه في النقد . هذه المدرسة التي ينصب من انفس اتباعها طلائع متفانين للشعب يعلمونه ويتعلمون منه ، ويتقدمون الى الطبقات العامله والى الفلاحين والى الباعة والتجار والصناعيين والموظفين والبحارة والعتالة والفرانة واشباههم ليكونوا كلهم بمجموعهم ميدان عمل المثقفين دون التفريق بين طبقات وطنية متقاربة النسب ، لا عداوات جوهرية فيما بينها .

وجعلت هذه المدرسة من همها محو كل اثر للتناقض الاساسي او التنافس الطبقي المتعادى بين المثقفين وجماهير الشعب ووضعه في مرتبة التناقض الداخلي السطحي المنحصر في دائرة المباراة والتسابق والمحاسبة المتقابله على خدمة قضية الشعب ، لان هذا التناقض فيما يعتقدون ، ليس له وجود حقيقي .. في هذه المرحلة " ولا يجب أن يكون له وجود في الاساس اى من حيث المطاليب والمثل السياسيه والاجتماعية العليا والمبادىء التحررية المشتركه بين ا ستة وتسعين بالمائة اذا لم يكن اكثر من ابناء الشعب ! (١)

واذا الاستاذ محمود سيف الدين الايراني في رسائله الخمس التي نشرها في كتابه (اول الشوط) يقرر أن السعادة حق مطلق للجميع ،

وفي مطالعاته التي اثبتها في الكتاب نفسه حول الثائرين من كتاب الغرب امثال اندريه جيد ، وموريس ماترلنك و د . هـ . لورنس ، وكاترين منسفيلد ، يثير قضايا فكريه وفلسفية واجتماعيه وادبيه في غاية الاهمية !

واذا من غايته ان يزيل الحيرة والقلق والشك المهلك وأن يعيد الصفاء والطمأنينة الى الوجدان القلق وان يثبت الايمان بحياة انسانية موفورة الكرامة يحث الناس اليها خطاهم حيث المجتمع الجديد تشتمل عليه فضائل الخير العميم تعوض كل شرور الماضي وآثامه ..

واذا الثقافة — في مفهومه — ليست عنصرا قائما بذاته ، مستقلا بنفسه استقلالا تاما عن موحيات ودوافع المجتمع وميراث هذا المجتمع من أخلاق واوضاع ونظم وسائر القيم التي تحدد علاقة الفرد بالمجتمع .. ومن ثم تحكم المجتمع بالفرد واخضاعه اياه المظاهر قوته ولحملة قوانينه الخلقية والروحيه والماديه ..

---

(١) انظر (نداء الى الموظفين) في الطليعة / عدد ٤ / سنه ٢ / ١٩٣٦ / ص ٢٩١ - ٣٠٠ .

فاذا لم تكن الثقافة صدى حيا لهذا كله او قل مظهرا خطير الشأن يعبر عــــن (ارادة هذا المجتمع) ويحمل طابعه ويصور تياراته النفسية ، اذا لم تكن الثقــافة هذا العنصر الفعال وهذا المظهر الخطير الشأن ، حق لنا أن لا ندعوها ثقافة ..

ان الثقافة صدى المجتمع بكل آمال والامه وتشوفاته العميقة واشواقه الانسانيه الكبيره ، هذا المجتمع الذى كان دائما خاضعا لعوامل التطور والتجدد البطيئة التدريجيه والسريعة التي تولدها الثورات العاتية ، تلك الثورات التي ما هي الا نهاية محتومة لجملة عوامل متمردة ناقمة في صميم مجتمع مشرف على نهايته (١)

ثم يحلل الاستاذ الايراني — على ضوء هذه القيم المادية العلمية — الثقافة الطبقية للمجتمع الاقطاعي ، ويحلل مخلفات تلك الثقافة ثم ينتقل الى تحليل ثقافة (المجتمع البرجوازى) التي لم تعن الا بالانسان الذى يعيش على هامش الحياة حيث كل وقته فراغ واحلام وترف وبلهنية ، فكأنها قد انكرت الحياة نفسها بكل مشكلاتها وازماتها والامها وصحتها ، اى انها انكرت الانسان الذى طحنته اسباب الشقاء والاذلال والقهر ، والذى هو في واقع الامر دائما اعمق شعورا بانسانيته من اى انسان آخر ، وما ذلك الا لانها ثقافة طبقة محدودة اتاحت لها سيطرتها الاقتصادية أن تتحكم تحكما بعيد المدى بهذه الثقافة وتوجهها الى حيث تشاء وحيث تملي عليها مصالحها الطبقية أن تفرض على الثقافة الروح الذى تريد وتلونها باللون الذى تحب وتقيم لها الحدود والمعالم التي تستقيم بها اغراض هذه الطبقة اجتماعية كانت او سياسية او اقتصادية . (٢)

ثم يوضح طبيعة هذه الثقافات فيقول :

"واذا كانت الثقافة في القرون الوسطى ثقافة قصر او ملك مجنون او امير احمــق .. فانها اليوم ثقافة تقوم في حمى المصارف العظمى (والتروستات) الهائلة والشركات الاحتكارية والتوسع الاستعمارى المجنون .. وكل ما من شأنه ان يذل (الانسان) ويزيد في مهانته .. وقبل ان تتخذ هذه الثقافة لونها الاخير الذى انتهت اليه في ايامنا هذه ، فقد مرت من قبل في ادوار مختلفة كل منها يلائم تطور المجتمع (البرجوازى) ويتسق واياه سواء كان ذلك مباشره بعد انقضاء عهد الاقطاع او فيما يليه من عصور تستطيع ان نحددها بظواهر فكرية معروفه ؛ فهي مثلا انشائيه ، ابداعيه مثاليه ، ابطالها انصاف آلهة وانصاف شياطين تحركهم دائما عواطف وشهوات كبيرة خارجة دائما عن نطاق الحياة تتفاعل وتتصادم على هامشها وبمعزل عن مشكلاتها وازمــاتهـا الاصيلة ... وتتضاءل من ثم مفتقدة آلهتها وشياطينها ، وتكتفي بتصوير عوارض مرضيــة على ايدى (الرومنطيقيين) منتهية بذلك الى اقرار المذاهب (التشاؤميه) ابتداء من (شوبنهور) واضرابه حتى تصل الى (نيتشه) الذى وجد فيه الطموح (البرجوازى)

---

(١) اول الشوط / ص١٠٣ — ١٠٥ (٢) ص ١٠٦ — ١٠٩ من اول الشوط .

ضالته بذلك بدعوته الى الانسان (القوى) البطل • ولكن هذا الطموح ظل يتضاءل وهذا التشوف ينهزم الى ان انتهى في ايامنا الى الاكتفاء (بهتلر) وهو مخلوق شاذ وغير طبيعي في الواقع • ولم تأخذ هذه الثقافة لونا جديدا الا في القرن التاسع عشر اى عهد الانتقال الى الدور الصناعي ، حينئذ ظهرت حركة انتعاش غير محمودة في هذه الثقافة غير انها في الواقع كانت (بذرة ثمرة ونذير شر) على مجتمعها ، انتهت بأن تكون (حركة خارجة عما عرف حتى ذلك الوقت من المذاهب الفكرية على ايدى بلزاك وفلوبير وزولا ودستيفسكي وتولستوى) في اعقاب القرن التاسع عشر • • ونستطيع أن نحدد هذا اللون الجديد في الثقافة البورجوازية على اعتبار انه بذرة تمرد ونذير ثوره ، بأنه اخذ يهتم اهتماما جديا بالانسان من حيث هو مجموعة غرائز منحبطه وميول معقدة كثيرة التفاعل سخيفه ، مرعبه في فوضاها وتشوشها • • غير انها في اغلب الاحيان غير منفصلة عن مجتمعها وثيقة الصلة بما يضج به هذا المجتمع من خير وشر من تشوف وسمو واسفاف وترد ، بل انها في اغلب الاحيان ايضا صرعى هذا المجتمع بقوانينه وانظمته واخلاقه واوضاعه اى ان هذا المجتمع يتحمل مسؤولية كبيرة من تعاستها وشقائها ، وعليه تقع تبعة اجرامها وجنونها •

بينما كان الادب باخذ هذا الاتجاه على هدى ضمائر انسانية واعية خيره ، كانت (تعاليم) المجتمع الجديد - من ناحية اخرى - توضح في قوة ووضوح على نور العقل وهدى العلم وعلى ضوء الام الانسان وعذاباته الماضيه وبكل ما صخبت به الحياة من ذل وقهر وطغيان • • احدثت هذه (التعاليم) هزة عنيفة في صميم المجتمع البرجوازى ، وفتحت العيون على حقائق مجهولة وامور خافتة واماطت اللثام بقوة وجبروت عن اساليب الخداع والمكر والاستغلال في قلب هذا المجتمع ، ثم رسمت من بعد معالم الطريق السوى للمجتمع الاتي الذى ينتقل اليه الانسان من حال سيئة الى حال اقل سوءا منها بل يكون الحد الفاصل بين كل ما شوه الحياة من شر فادح ومآسي فاجعة وبين حياة جديدة ، مطهرة ، بالغة من السمو والرفعة والكمال حدا لم يكن ليتصوره حتى اصحاب الرؤى العظيمة الرائعة من الحكماء الاقدمين •

كانت الحرب الكبرى هي التجربة التي وضحت بعدها مؤمرات القابضين على مقاليد المجتمع البرجوازى • • • كانت المجزرة المرعبة من اجل مصلحة ارباب المال والمصانع ودعاة الاستعمار ونخاسة الشعوب • • كان ذلك كله مستترا وراء بضعة مثل عليا هزيلة تبريريه لم تلبث حتى افتضحت واميط اللثام عن حقيقتها • • اننا نشهد اليوم احتضار مجتمع متعفن وثقافة خائرة ، متهالكة ، لم يعد لها - وهي في سبيلها الى الموت المحتم - الا ان تضج حول اسطورة خرافيه سخيفه جعلوا لها قدمين من غش ونفاق تقوم عليهما ليكون لهذه الاسطورة اثر فعال ، فيما يتوهمون ، في صرف الاذهان

عن حقائق الحياة الشقية التي يحياها الانسان الفريسه ـ والتي يجاهد جهاد الجبابرة ، للقضاء على اسبابها ومسببيها ـ الى اوهام واضاليل سرابية . هذه الخرافة اسمها في معجم خداعهم ومكرهم (الفن للفن)

ان ثقافتنا الجديدة ، وهي وارثة كل ما هو انساني وخير وجميل في نقائه وحيويته من ثقافات الماضي ، التي تفهم الفن واسباب الابداع جميعا على خير وجوهها ـ ثقافتنا هذه تعمل اليوم بقوة خارقة دائما على اعتبار انها وسيلة من وسائل الخير لمجتمع انساني جديد ـ لمجيء هذا اليوم القريب الذى يعزز كرامة الانسان ويتيح له ان يجد المتسع الكافي والاسباب المهيأه ليرتفع بانسانيته الى غاية السمو والكمال " (١)

ويتخذ هذه الحقائق العلميه مقياسا يقيس به الثقافة العربية في مختلف عصورها ، ويستخلص منها العناصر الانسانية الخيّرة الجميلة ، ويلفظ منها كل ما كان من شأنه تشويه الحياة !

هذا التيار الجديد في النقد الذى دعا اليه الاستاذ المؤرخ المحقق عبد الله مخلص .. وصوره واقام اعمدة بنائه الاستاذ محمود سيف الدين الايراني ينضم اليه مجموعة من الشبان يرفعون بناءه حتى يغدو شامخا وحتى تتحدد في هذا القطر ملامح المدرسة المادية العربية في حياة النقد .

واذا الاستاذ الكاتب نجاتي صدقي يتولى تطبيق هذه النظرية المادية في الحياة الاقتصادية ، وفي التاريخ .. فيكتب عن (عبد الرحمن بن خلدون) (٢) ـ اول فيلسوف عربي يحاول تفسير التاريخ تفسيرا ماديا ... ويكتب عن (ابن خلدون) ضد المثاليه (٣) حيث يتتبع انتقاده المر للمؤرخين العرب الذين يضعون الخرافات أساسا لابحاثهم .. ويكتب عن (الايقاع الموسيقي التاسع لبيتهوفن) (٤) ـ اعظم قطعة موسيقية كلاسيكيه عزفها البشر حتى الان ، وقد الفها بيتهوفن سنة ١٨١٧ ايام كانت تتمخض بالنضال الطبقي الحاد ، ليس بين الديمقراطيه والفاشستيه ، ولا بين الطبقة العاملة والرأسماليه ، بل بين الحكم الفردى الاقطاعي القديم والحركة البرجوازيه الصناعيه التقدميه ، " والعرف المتبع في التطور التاريخي ان الطبقة الثائره توجد لها دائما الكتاب والشعراء والموسيقيين الذين يعبرون عن حالتها الروحيه حيث يشعرون انهم يقومون بهذه المهمة اولا يشعرون على الاطلاق ... وبيتهوفن ثار على النظام الملكي الاقطاعي بما خطه يراعه الموسيقي من نوتات عظيمة الشأن نخص منها بالذكر الايقاع التاسع "

---

(١) اول الشوط / ص ١٠٩ ـ ١١٣ (٢) الطليعه / عدد ١ / سنه ٣/ يناير ١٩٣٧ ص ٦ ـ ١٣ (٣) الطليعه / عدد ٤ / سنه ٣ / ابريل ١٩٣٧ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٤ .
(٤) الطليعة / عدد ٢ و ٣ / سنه ٣ / شباط وآذار ١٩٣٧ / ص ١٢٧ ـ ١٣٢ .

وفي ضوء هذه المادية التاريخيه يدرس الاستاذ نجاتي صدقي حيـــاة داروين ونظرياته وآراء خصومه (١) ويقدم دراسة عن ديكارت والمادية الميكانيكيه (٢) بمناسبة مرور ثلاثمائه سنه على ظهور كتابه (بحث في الطريقه) ثم يتقدم بدراســـة طويلة ينشرها في اعداد (الطليعه) في السنتين ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ حول الحركة الوطنية العربيه (٣) فيفسرها تفسيرا ماديا ثم يجمعها ويطبعها في كتاب منفرد •

كل هذه المقدمات تهيأ بها ليستقبل حياة النقد ويحدد بها اتجاهه ، ويطبق هذه القيم المادية على الاثار الادبية فتضح له معالم (المدرسه الماديه العربيه) (٤) في النقد الادبي ، التي تدفع الاديب كي يغادر صومعته وينزل الى معترك الحياة الاجتماعية ليختار ابطاله ، ويؤمن بأن الفن نتاج الحياة المادية ، وينتج ادبا يقضي على الحيرة والتردد ، ويستمد مادته من الحياة ويؤثر في الحياة بدوره ويدفع بهـــا الى الامام ويغير فيها ما تسمح الاحوال بتغييره •

وينقد ينقد كتاب "وهل يخفى القمر" للاستاذ رئيف الخوري (٥) يأخذ عليه ثلاثة امور :

الاول : ما هو نوع الحب الذى دعا اليه عمر بن ابي ربيعه ؟

الثاني : هل يصلح أن يكون عمر قدوة للشباب العربي المعاصر ؟

الثالث : ما هي الفائدة المتوخاه من كتاب "وهل يخفى القمر" ؟

ويخلص الى ان عمر شاعر الحب المبتذل ، والجمال المشترى ، والى أ ن شبابنا منغمس في اللذات الى اقصى حد ويستمرىء قراءة الاشعار الغزليه المتهتكه ان كانت من النوع الكلاسيكي او من النوع السخيف ولذا يتطلب من الادباء والكتاب والشعراء ان يفكروا بهؤلاء الشباب عند ما ينشئون ويؤلفون ••• ثم يعـــود الى التساؤل : وهل مطاردة النساء ، وفضح الحرائر ، وهتك الاعراض تريح الاعصاب وتساعد على بناء العالم المفرح ، وتخلق قابلية للكفاح ؟ •• ان قهقهة عمر بن ابــي ربيعة صادرة عن الافراط الشهواني ، ويخطيء من يظنها صادرة عن فرحه بالحياة الانسانيه •• ثم يسأل : لم لم يخصص الاستاذ رئيف ن لا يشق فيه بصورة واضحـــة كيف يجب ان نقف نحن شباب اليوم من شعر عمر ؟

ثم ما مبلغ تأثير اشعار عمر في حياة الشبيبه القريبه التي تبحث عـــن الغد ؟

ويتضح بذلك ايمان الاستاذ نجاتي صدقي بالادب الهادف ا

---

(١) الطليعه / عدد ٦ ، ٧ / سنه ٣ / حزيران وتموز ١٩٣٧ / ص٥٠٤ ـ ٥١٠
(٢) الطليعه / عدد ٨ / سنه ٣ / اكتوبر ١٩٣٧ / ص٦٦٤ ـ ٦٧٠ (٣) الطليعه /عدد ٩ عدد ١٠ / سنه ٣ / ١٩٣٧ ثم عدد ١ ـ ٢ عدد ٣ ، عدد ٤ ، عدد ٥ ، سنه ١٩٣٨
(٤) الامالي / عدد ٤ / سنة اولى / ايلول ١٩٣٨ ص٢٦ ـ ٢٧ (٥) الجمهور / عدد ١١٠ سنه ٣ / ١٩٣٩ / ص٢٠ ـ ٢٢ •

وبهذه العدة وهذه الموازين يقف الاستاذ نجاتي صدقي موقفه الحازم في وجه التيار الرمزي في الشعر (١) فيعلن ان انتشار مرض الشعر الرمزي خطر عظيم اذ يبعد بصاحبه عن ادراك المحسوسات ويجعله يهيم في عالم خيالي لا يعرف له رأسا من ذنب .. وربما كان هذا بيت القصيد من تشجيع الطلاب على التمادي في تقليد المدرسة الشعرية الفرنسيه للقرن التاسع عشر ...

ويقول الاستاذ نجاتي صدقي بهذا الصدد : اننا نعيش في بيئة موبوءة تتطلب منا أن نكون بنائين عمليين اذا رأينا جدولا فعلينا ان نفكر بكيفية الاستفادة منه قبل ان نقول له : خريرك يدوي في الاجيال ...!

وبهذا الاستعداد الثقافي ، والتمرس بالابحاث القتصادية ، حيث كان المحرر الاقتصادي لصحيفة الجمهور البيروتية سنة ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ وفي ضوء التفسير المادي للتاريخ ، يتقدم الاستاذ نجاتي صدقي ليطلع علينا بدراسته عن بوشكين التي ظهرت سنه ١٩٤٥ ، ودراسته عن تشيخوف التي ظهرت سنة ١٩٤٧ .

ومن بين الذين اعانوا على اقامة بناء المدرسة الماديه العربية في حياة النقد في هذا القطر ، الدكتور خليل البديري من عصبة القلم (٢) ثم الاستاذ عارف العزوني الذي يعلن موت جوبيتر الاولمب بعد أن خلفه جوبيتر العقل (٣) ويكتب عن (واجب الكاتب اليوم) (٤) الذي ينبغي له ان يعرف ماهية النزعات الاجتماعية التي عصفت بالعالم وادت حتما الى ترجيح الفكرة الاشتراكية التي ترمي الى تخليص الجماعات من سلطة الافراد ، وشحذ المواهب ، واعلاء شأن الانسان .. ويقدم (للطريق) (٥) دراسة عن الشعراء الثائرين في ضوء هذه القيم المادية .

ومن البانين للمدرسة المادية الاستاذ رجا الحوراني الذي كان في سنة ١٩٣٨ المدير المسؤول ورئيس التحرير لمجلة الطليعة ، وكان يكتب عن الروح الديموقراطيه فطرة غريزية في الشعب العربي . (٦) دعا فيها ادباء الديموقراطيه الى عقد مؤتمر للاتفاق على تأليف جبهة ديمقراطيه حرة تقف بالمرصاد لاعداء التقدم الرجعيين في البلاد .. ثم كتب عن (الديمقراطيه والادباء) (٧) ليذكر الادباء ان اهدافهم واحلامهم لن تتحقق الا في ظل الديمقراطية العربية الصحيحة التي تسعى الفاشستيه الهدامة لخنق روحها بشتى الوسائل ...

---

(١) انظر مقاله : الطلاب طليعة الامة ، في الجمهور / عدد ١٢٣/ سنه ٣ / ١٩٣٩ ص ١٨ ـ ١٩ (٢) انظر الخطاب الذي القاه في يافا / سنة ١٩٣٦ في (الطليعة) (٣) الطليعة / عدد ٩ / سنه ٢ / ١٩٣٦ / ص ٧٦٥ ـ ٧٦٧ (٤) الطليعة / عدد ٢ ، ٣ سنه ٣ / ١٩٣٧ / ص ١٢٠ ـ ١٢٦ (٥) الطريق / مجلد ٦ / جزء ٩ / ١٩٤٧ / ص ٢٠ ـ ٢٦ (٦) الطليعة /عدد ٦ ، ٧ / السنة ٣ / ١٩٣٧ / ص ٦٠٥ ـ ٦٠٧ .
(٧) الطليعة / عدد ٣ / سنه ٤ / ١٩٣٨ / ص ١٤٧ ـ ١٥٠

وكتب عن خطر الفاشستيه على الثقافة العربية (١) ودعا الى استعمال كل اداة ثقافيه من شعر وقصة وادب وفن لمحاربة تلك الموجة التدميرية ٠

ومن الذين اعانوا في بناء المدرسة المادية الاستاذ عبدالله بندك الذي يدعو الى نهضة شعبيه ديمقراطية تشق طريقها تحت قيادة الادباء والشباب المتحررين(٢)

وهكذا عمل هؤلاء النقاد على ارساء قواعد هذه المدرسة المادية في حياة النقد ، واتخذوا من اجل اقامة البناء ادبتهم واعدوا وسائل البناء وادواته فكان لهذه المدرسه تأثيرها في حياة هذا القطر !

وقد عملت المدرسة على اشاعة مفاهيمها في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفن والادب وكانت مواقفها في قضايا البلاد واضحة ، وقد وقفت وقفة جريئة في وجه الرجعية العربية وفي وجه الاستعمار وفي وجه الفاشستية !

الى جانب هذه المدارس التي دعا الى تعاليمها اصحابها الذين يلتهبون حماسة قام اتجاه متريث دارس، يحمد الى الدرس الموضوعي من غير أن يكون له اتجاه ملون بعينه : يعتمد الوثائق ، ويتخذ الفكر ليصل الى حقائقه٠٠ وابرز من يمثل هذا المتجه الدكتور اسحق موسى الحسيني حين جمع وثائقه وحضر بحثه عن ابن قتيبه ليحصل به على درجة الدكتوراه سنة ١٩٣٤ من مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن٠

وللدكتور اسحق رأى في الادب العربي الحديث (٣) حيث يقرر ان هذا الادب قد خطا في السنوات العشرين الاخيرة خطوة واسعة نحو تمثيل الحياة الجديدة التي يحياها العرب في مختلف اقطارهم ، ولكنه لم يصور الحياة تصويرا كاملا ولم يتغلغل الى البيئات العربية المختلفة ، ولم تتوفر له وسائل التعبير الشاملة بحيث يمكن ان نسميه ادبا حديثا مستقلا عن الادب القديم٠٠

ثم يذكر الدكتور اركانا ثلاثة لا بد منها حتى يستطيع الادب العربي الحديث ان يحقق ما يراد منه من تمثيل الحياة العقلية والاجتماعية والروحية تمثيلا صحيحا

الركن الاول : اكتشاف التراث العربي القديم واستيفاء احيائه حتى يكون عهد الاحياء اساسا راسخا يرتكز عليه الانتاج الجديد ٠

والركن الثاني : اللغة والمفردات العربية بحيث نتمكن من وصف ما تقع عليه عيوننا كل يوم في مختلف نواحي الحياة ٠

والركن الثالث : الثقافة الحديثة الواسعة القائمة على الاتصال بأحدث النظريات العلمية ، لان الادب الحديث خال الى حد كبير من الفكر العميق والنظر الدقيق والانسجام الفني ٠٠

---

(١) الطليعة / عدد ٥ / سنة ٥ / ١٩٣٩ / ٣٥٩ ـ ٣٦٣ (٢) الطليعة / عدد ٨ / سنة ٣ / ١٩٣٧ / ص٧١٣ ـ مقال بعنوان ادب الديموقراطيه ـ (٣) الامالي / عدد ١٩ سنه اولى / ١٩٣٩ / ص٥٨٥ ـ ٥٨٦ ٠

ويقول الدكتور اسحق ان جهل الاديب بعض معارف زمنه كان مثار نقد في الزمن الاول ، وان ابن قتيبة مثلا يحمل على كتاب عصره الذين يجهلون اوائل المعارف وهو كاتب عاش قبل احد عشر قرنا فكيف يكون موقف مثله من ادباء عصرنا الذين يجهلون ما جهل اولئك الكتاب في يومهم ؟ وشتان بين العصرين : فذاك عصر طغى فيه الادب على المعارف ، وهذا عصر طغى فيه العلم على الادب ، وان كان الكاتب في ذلك العصر ملزما بالالمام بمعارف عصره فكاتبنا اليوم اشد حاجة الى الاحاطة بمعارف زمنه • !

ولم يشر الدكتور اسحق الى صلة الاديب بالحياة والمشاركة في تياراتها الصاعدة مشاركة فعالة ايجابيه !

ثم قامت في حياة النقد سلسلة من الردود تدور كلها حول الدفاع عن الشعر والشعراء ، وعن الادب والادباء ، وعن الحياة الادبيه في فلسطين ، دفاعا يجنح الى السرد اكثر مما يجنح الى النقد ـ فكتب الاستاذ ابراهيم عبد الستار في الاديب (١) عن شعراء فلسطين ثم كتب عن ادبائها •• كما كتب كتابا يحمل هذا الاتجاه عن (شعراء فلسطين العربية في ثورتها القومية) ، وكان كتابه عن (شاعر الضفتين) تقريظا مفتونا للاستاذ الشاعر الفلسطيني محمد حسن علاء الدين •

ومن كتاب الدفاع عن الادب الفلسطيني الاستاذ ميشيل جبران من الناصرة حيث كتب دفاعه في (الاديب) (٢) كذلك •

كما كتب الدكتور اسحق موسى الحسيني مقالات متفرقة في الدفاع عن الحياة الادبية في فلسطين تندرج تحت هذا الاتجاه ومن هذه المقالات مقاله في (الاديب) سنة ١٩٤٥ (٣)

ومن الذين كان لهم جهد في حياة النقد الشاعر ابراهيم طوقان فهو يمثل التيار الرومانتيكي المثالي في النقد ، ويبدو هذا التيار واضحا في رسائله التي تبادلها مع الاستاذ الدكتور عمر فروخ ، وقد اورد الدكتور كثيرا من هذه الرسائل في كتابه (شاعران معاصران) •• ركز الشاعر طوقان في النقد والتحقيق والبحث في الادب العربي وشخوصه ، حين كان رئيسا للقسم العربي في محطة الاذاعة الفلسطينيه في الفترة ما بين سنة ١٩٣٦ ، و ١٩٤٠ ، ثم نشرت له الامالي سلسلة مقالات ، من بينها : (جبابرة التأليف امس واليوم) (٤) و (آداب المنادمة عند ابي النواس) (٥) و (مأساة ديك الجن الحمصي) (٦)

---

(١) الاديب / جزء ٤ / سنه ٣ / ١٩٤٤ ص ٥٧ /. ثم الاديب جزء ٩ / سنه ٣ ص ٤٩ •

(٢) الاديب / جزء ٢/ سنه ٤ / ١٩٤٥ بعنوان دفاع عن فلسطين (٣) الاديب / عدد ممتاز الجزء الخامس/ السنة الرابعه ص ٤٦ (٤) الامالي / عدد ٣٠ / سنه ١ ١٩٣٩ ص ٩٣٩ •

(٥) الامالي / عدد ١٤ / سنه ٣ سنة ١٩٤١ / ص ١٧٦ ـ ١٧٨ (٦) الامالي / عدد ١٥ سنة ٣ / ١٩١١ / ص ١٩٧ ـ ١٩٩ •

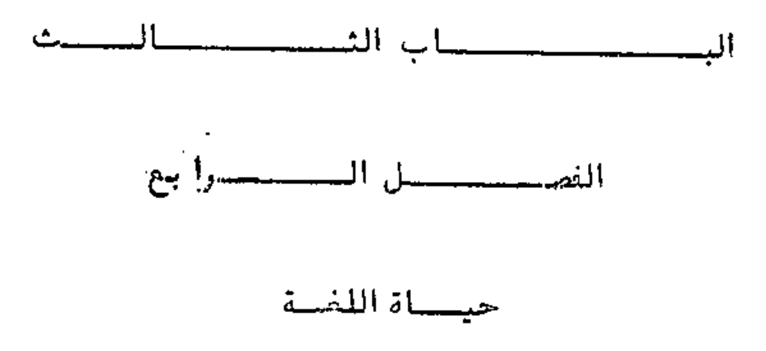
وقد قام في حياة النثر تيار يقابل تيار المدرسة المادية العربيه وجنح الى المدرسة الخياليه الرومانتيكيه ،وقد مثل هذا الاتجاه الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا وكان متأثرا بنقاد المرحلة الرومانتيكية الانكليزية ،فحين يكتب عن (الفن والفنان) (١) يورد مثل هذه القيم والمفاهيم الرومانتيكية الخياليه البرجوازيه :

" الفن روحاني الجوهر ،ولا يتغلغل سحره الا في انفس الروحانيين الذين تفوق عندهم المتعة الروحية كل ما في حياة المادة من لذة رخيصة ! "

تلك هي الاتجاهات في حياة النقد ، وليس من شك ان هناك كتابا كثيرين كانت لهم جهود محمودة في هذا الميدان ، ولكننا لم نحط علما بهم جميعهم ،لان غرضنا ان ندل على الاتجاهات ، وليس غرضنا الشمول ،والاحصاء الكامل ، فليس الشمول التام بمستطاع !

---

(١) الامالي / عدد ٢ / سنه ٢ / ١٩٣٩ / ص ٤٩ — ٥١ .



الباب الثالث

الفصل الرابع

حياة اللغة

علم اللغة ، وعلم مقابلة اللغات ، او علم تحليل اللغات والفلسفة اللغوية ، لا يزدهر الا حينما تكون النهضة الفكرية والادبية نشطة مزدهرة ! وهو اكبر دليل على رغبة العلماء في بذل الجهود المثمرة النافعة التي تكلفهم سهرا طويلا ، واعمال فكر وتفهما حقيقيا لصلة لغتهم بحياتهم ، وتطور هذه اللغة مع تطور الحياة ! وهو دليل على الجرأة العالمة الواعية في ابداء الرأي اللغوي الجديد !

وقد بدأ الجو اللغوي في فلسطين يتلمس الانفاس التقليدية في هذا المجال في اواخر القرن التاسع عشر ببعض الاسئلة التي ترد من مختلف المدن الفلسطينية على مجلة الضياء وغيرها من الصحف اللبنانية حول (الخزم في بحر الهزج) مثلا ، أو حول الدلالة اللغوية للفظة (يستشهر) او (يستشعر) ، او حول شيوع (عوائد) جمعا (لعادة) ، او حول رواية من الروايات لبيت المتنبي ، اوحول اصل المشتقات أهو المصدر المجرد دون المصدر المزيد والمصدر الميمي ! وما الى ذلك (١)

ومن اوائل المحققين في حدود فترتنا الشيخ يوسف ضياء الدين الخالدي المقدسي ، وقد كان لديه قابلية لغوية واستعداد لتعلم اللغات .. وكان كلما تولى عملا في بلاد **اعجمية** حذق لغتها ، فحذق اليونانية ، والكردية ، وحين لم يجد في الكردية كتابا ألّف (الهدية الحميديه في اللغة الكرديه) . ولما كان في فينا عاصمة النمسا استاذا للعربية وآدابها في جامعه فينا جمع ديوان لبيد وطبع منه الجزء الاول سنة ١٨٠٠ ، وجعل له مقدمة وشرحا (٢)

وكان الشيخ ضياء الدين الخالدي قبل سفره لبلاد الاكراد واشتغاله السنين الطوال بترتيب القاموس الكردي ، وتدوين قواعد ذلك اللسان ، قد استنسخ رسالة الغفران للمعري سنة ١٣٠٧ هـ من النسخة القديمة التي كانت محفوظة بمكتبة الكوبريلي في الاستانه ، وهم اذ ذاك بطبعها فحال دونه سفره ذاك الى بلاد الاكراد (٣)

ثم يطلع القرن العشرين على فترتنا ، ويطلع علينا معه فكر نير هو فكر الاستاذ روحي الخالدي الذي اشتمل كتابه "علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوكو" على مستوى عال في النقد ... وكما كان في الكتاب آراء نقدية رائعه ، فهو كذلك لا يخلو من آراء مشرقة في اللغة ..(٤)

فحين يعرض للغة مضر يستنتج انها في مرحلة تاريخية ارقى من سائر اللغات في لغة الحضر

---

(١) انظر الضياء / السنة الثانية / ص ٢٤٧ ، ٢٧٧ ، ٤٠٤ ، ٤٣٨ / والسنة الثالثة / ص ٤ ٦٨ (٢) تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوجو / ص ٣٩ (٣) تاريخ علم الادب .. وفكتور هوجو / ص ١٤١ (٤) تاريخ علم الادب .. وفيكتورهوجو / ص ٢٧ — ٣٧ .

لان لغة مضر تمتاز بخاصتين الاولى اشتمالها على حركات الاعراب في اواخر الكلمه وكيفية تركيب الالفاظ ، وهي مرحلة متأخرة في تطور اللغات حسب مبدأ النشوء في اللغة ، اذ أن القرينة المعنوية ثم التقديم والتأخير مرحلتان سابقتان لمرحلة الاعراب وخواص التركيب في لغة مضر ، خاصة تميزها عن سائر لغات الحضر .. والخاصة الثانيه ما في لسان مضر من الاستعارات والتشبيهات والمجازات وانواع البديع من الكلام .

ويقوده الحديث في لغة مضر الى الحديث في ضرورة درس اللغات او اللهجات العربية السابقة على لغة مضر كلغة حمير ، وذلك باستخراج ما في ارض اليمن من الالواح التي تدعى بالمسند الحميرى ، وما في خرائب مدائن صالح وارض الحيرة وسائر جزيرة العرب من الاثار القديمة العادية التي كان لاصحابها نصيب من الحضارة ، وكان لادبهم تأثير في ادب مضر .. ثم يتحدث عن دور المستشرقين وجهودهم في هذا الميدان ، واغراضهم العلمية والسياسية من وراء ذلك كله .... ويعرض لمؤتمر المستشرقين الحادى عشر الذى انعقد في باريس سنة ١٨٩٧ . ويحمل على السياسه الاستعمارية الراميه الى احياء اللهجات العامية لانها عامل من عوامل التفرقه ونصب الحواجز بين ام هذا العالم العظيم الممتد من المحيط الغربي الى بلاد العجم والسند ..في الوقت الذى يجتهد العلماء لازالة الموانع التي استلزمها تباين اللغات بين الامم ويسعون من اجل ايجاد لغة عامة لبني البشر كافة ! ويقول الاستاذ روحي الخالدى : "لو سعى اهل العلم وارباب القلم في التقرب من لغة مضر المدونة وازالوا منها (العامية) كما ازيلت (الباتوا) من اللغة الفرنساويـــة ، وهذبوها من الجناسات والتشابيه الغامضة ، واختاروا فيها السهل من الالفاظ والتراكيب ، اصلحوا املاءها وكتابة اسماء الاعلام فيها لكان فعلهم على ما نظن اسهل وانجح من تدوين لسان عامي ، بل ألسن همجية واقامة الحواجز بين المتكلمين بها ، مع ان ازدياد وسائط النقل والمخابرة يستدعي كثرة اختلاط بعضهم ببعض .. وعما قريب سيتم مد الخطوط الحديدية ويصبح السفر من مراكش الى بغداد والهند او الى الحجاز اسهل مما كان قديما بين القاهره والاسكندرية ، فلا يحتاج المسافر الى استصحاب كتاب (جامع اللغات) ليعلم منه السن الجزائر وتونس وطرابلس ومصر وفلسطين وسوريا وبغداد والحجاز ..... اما لغة مضر فبدون ان نقف على حقيقة الادوار التي دارت عليها ولا على الاطوار التي تقلبت فيها نجدها في العصر السابق للاسلام على جانب من الفصاحة والبلاغه مشتملة على انواع التشبيه والاستعارة والبديـــع واكثرها حماسية وفيها من التصورات البديعة والتخيلات الشعرية واللطف والرقـــة والادب ما يدلنا على أن اللغة لم تكن اذ ذاك في عهد الطفوليه فان الفرق بين اشعار (التروبادور) الفرنساوية عظيم ، لما في الاخيرة من الخشونة وعدم الرقة . واذا غازل شاعر الجاهلية فتاة الحي حسبته اديبا من ادباء باريس...

بحيث لا تضاهيها في ذلك لغة اخرى ، وخامسا لانها تحتمل الاضمار والتقدير والتقديم والتأخير والحذف اكثر من غيرها .

والميزة الثالثة انها لغة شعرية ... اولا لكثرة استعمال المجاز والكناية والاستعارات والاشارات والتشبيه ... ثانيا لانها كثيرة المترادفات ... ثالثا لانها كثيرة التراكيب الاعرابيه ... رابعا لان الفاظها تختلف بين الفخامة والرقة ... خامسا لو قابلت كثيرا من مفرداتها بمثلها في لغات اخرى انها انسب للمعنى وأبين للفكر واطوع لاظهار اعمق التأثرات ... فكلمة (مرحبا) " هذه اللفظة الجميلة بميمها ورائها وحائها وبائها وتنوينها وحركات الفتح فيها كأنها قطعة موسيقية يتبادلها الناس " ، وسادسا اذا نظرنا في اللغة العربية من جهة الحركات لرأينا لها مزية على غيرها : حركاتها ثلاث : الضم والفتح والخفض . ومعلوم أن الضم افخم الحركات ، والفتح اخفها ، والخفض اثقلها . فاللغة التي يكثر فيها صوت الكسر ثقيلة مستكرهة ، واذا استقريت الفاظ اللغة العربية ومواطن الضم والفتح والخفض الاعرابية فيها لرأيت اقلها والفتح اكثرها ، وهذا مما يكسبها جمالا ، ورشاقة ويصدق معه القول انها لغة شعرية .

هذه خلاصة ما ذكر من مزايا هذه اللغة العربية وكلها ابحاث قيمة تحتمل السعة في القول (١)

ومنذ ذلك الحين والاستاذ السكاكيني يتخذ الاهبة للخروج على المألوف المتحجر والجمود المعوق في حياة اللغة ، ومنذ ذلك الحين وهو يحاول ان يكون للاجتهاد اثره الواضح فيما يلقى من ابحاث لغوية فهو صاحب رأى في اللغة نتيجة طول تمرسه ودقة ملاحظته ومقابلته الواعيه بين العربية وسائر ما يعرف من لغات !

وكتابه " مطالعات في اللغة والادب " مثل قوى على تمكنه من البحث والمحاضرة .. فحين يعرض لادلة البيان في اللغة العربية (٢) يتتبعها في ادوارها المختلفة قبل ان وصلت الى صورتها الحاضرة التي ورثناها من عهد التدوين .. ويجرى في تتبعه هذا على ناموس النشوء والارتقاء .. ففي الدور الاول كانت القرينة المعنوية .. وفي الدور الثاني كان الترتيب او التقديم والتأخير ، والدور الثالث كان الاعراب .

ويربط كل دور بظروفه المعاشية ، ويطبق عليه النواميس الطبيعية للحياة الانسانية ...

وقد القى تلك المحاضرة عن (ادلة البيان) في الجامعة المصرية في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٠ ، وقد اعتمد فيها على علم مقابلة اللغات او علم تحليل اللغة وفلسفتها ..

ويذكر في ثنايا المحاضرة ان اول من طرق هذه الابحاث الجديدة

---

(١) يوميات السكاكيني / ص٦٨ ـ ٧١

(٢) مطالعات في اللغة والادب / ص ١ ـ ١٨ .

في اللغة العربية احمد فارس الشدياق ، والشيخ ابراهيم اليازجي ، وجورجي زيدان ، وروحي الخالدى المقدسي وجبر ضومط ، وبندلي الجوزى المقدسي ، وانستاس الكرملي .. ثم انقطع العهد بتلك الابحاث..

وحين يناقش النحاة يكشف عن التناقض في عللهم .

ثم القى الاستاذ السكاكيني محاضرة اخرى في الجامعة المصرية في شهر فبراير سنة ١٩٢١ حول (الافعال في اللغة العربيه) (١) .. وبعد أن عرض لما وصل اليه الفرنجة وعلماؤهم في هذا الصدد وما كتبه جورجي زيدان في كتابه (فلسفة اللغة) يخلص الى رأى في العلل النحوية وضرورة قيامها على اسس من الحقائق المعقـــولة الصحيحة بحيث ترتبط الاسباب بالنتائج وترجع في النتائج الى اسبابها مما خلت منه الكتب الصرفية والنحوية العربيه..

".. بلى قد حاول الصرفيون والنحويون ان يعللوا احكامهم ويربطوها بأسبابها الا أن اكثر الاسباب التي ذكروها واهية حتى ضرب المثل بضعف حجة النحوى .."

وحين يعرض لاثر هذه العلل الواهية في الطالب يقول : "الطالـــب الذى يتعلم على هذا الاسلوب السطحي الشاق ، ويقتنع بتلك الاسباب والعلل الواهية ويتعود ان يتلقاها بدون نكير ولا تفكير ، تظلم مع الايام بصيرته ، ويأفن رأيه ، وتضعف فيه اداة الحكم ، بحيث يسهل استدراجه الى تصديق كل خرافة ، واعتقاد كل سخافه فضلا عما يستغرقه الدرس على ذلك الاسلوب من الوقت الطويل عبثا .. فما احرانا والحالة هذه ان نتدارك الامر فنجرى على الطريقة الافرنجيه في بناء احكام لغتنـــا وقواعدها على مبادئ علمية جديدة تسهيلا على الطالب ، واقتصادا في وقته ، وترويضا لعقله.. وهذا ما احاول بسطه لديكم راجيا ان تغتفروا خروجي عن المألـــــوف المتعارف .."

ثم يبسط القول في ذلك ، فيكشف عن سعة في الثقافة ، ونفاذ في البصيرة وعمق في التفكير .. ويقابل بين العربية والسريانيه وغيرها ، ويطلع على ما كتبه غيره امثال جبر ضومط في كتابه (خواطر في اللغة) واليازجي في مجلة البيان حـــول (اللغة والعصر) .. وبعد ان يعرض للاراء والوجوه المختلفة ينفذ الى رأى صائب يختاره ويلقى عليه الاضواء المشعة والادلة الدامغة.. ويخضع ذلك كله في اللغة الى نواميس النشوء والارتقاء ، فما طابق هذا المذهب اخذ به ، وما خالفه جانبه ! وهو يبين طبائع الحياه واثرها في التطور اللغوى وفي الجمود احيانا !

---

(١) مطالعات في اللغة والادب / ص ١٨ — ٣٥ .

ثم القى في شهر فبراير سنة ١٩٢١ في الجامعة محاضرة حول (الحروف الهجائيه) (١) من اوجه ثلاثة : الوجه الاول تناول فيه مقابلة الحروف العربية بغيرها والوجه الثاني تناول فيه الحروف الهجائية العربية نفسها . والوجه الثالث تناول فيه تاريخ الحروف الهجائية وتطورها !

وتكشف المحاضرة عن سعة آفاق الاستاذ السكاكيني ، وقدرته على المقارنة باللغات الاجنبية واللغات الاخرى قديمها وحديثها ويصل بين الحروف العربية وجمالها وبين استعمالها للزينة والزخارف .

وفي اكتوبر سنة ١٩٢٤ نشر مقالة في جريدة السياسة بعنوان (النحو)(٢) رجح فيها ان النحو انما هو لفائدة ليست في نفسه بل في تجميل المنطق والتحذر من الخطأ من اجل اقامة الملكه العربية . " ولكنهم تدرجوا فيه من العناية به الى الاخصاء فيه الى اعتباره غاية يطلب لنفسه . فخصصوا له مدارس لا يعلم فيها غيره . منها المدرسة النحويه في جوار المسجد الاقصى في القدس . بل كان هو الغاية من كل دروس اللغة والادب .. وما من علم شاعت اصطلاحاته وامثاله ولغته على السنة الناس حتى الاميين منهم مثل علم النحو .."

ويعرض لتأثر العرب بالسريان لانهم بدأوا بوضع علم النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان .. وقد مر عليهم بعد وضع علم النحو دوران : في الدور الاول جمعوا بين القوانين والشواهد من كلام العرب وعلى هذا الاسلوب جرى سيبويه في كتابه .. وكان هذا اسلوب اهل الاندلس .." وفي الدور الثاني اقتصروا على القوانين وجردوا كتبهم من الشواهد .. وهو اسلوب اهل المغرب وافريقية وغيرهم ..

والدور الثالث الذى يرجوه الاستاذ السكاكيني ان يجردوا الشواهد من القوانين ويقتصر على الشواهد فيحصلوا على علم اللسان ملكة ... وهذا هو الاسلوب الخلدوني المفضل لدى الاستاذ !

وكما قامت المراجعات بين الاستاذ السكاكيني والاستاذ الامير شكيب ارسلان حول المذهب القديم والمذهب الجديد في الادب والنقد كذلك تخلل هذه المراجعات آراء في اللغة ، فكان السكاكيني يدعو الى المذهب الجديد فيها .(٣)

وفي سنة ١٩٤٧ حين كان السكاكيني عضوا في لجنة قواعد اللغة العربية في المؤتمر الثقافي العربي الاول في بيت مرى بلبنان ، انقسمت اللجنة الى قسمين : محافظين ، ومتطرفين ، وكان المتطرف الوحيد هو الاستاذ السكاكيني حيث اقترح الغاء القواعد ، وقد وفى الموضوع حقه ولكن على غير جدوى ، وقد بين لهم ان القواعد وسيلة يمكن الاستغناء عنها .. وقد اقروا جميعا وسائله الى امتلاك ناصية اللغة بدون قواعد ، اما القواعد فلم يقع اتفاق بشأن الغائها فاقترح عليهم السكاكيني في تعليمها ما يلي :

---

(١) مطالعات في اللغة والادب / ص ٣٦ ـ ٥٦ (٢) مطالعات في اللغة والادب / ص ٥٧ ـ ٧٢ (٣) مطالعات في اللغة والادب / ص ٧٧ ـ ١٧٦ .

١ — ان يتبعوا اسلوب الجداول ٠
٢ — أن يأخذوا من القواعد ما يحتاجون اليه في القراءة والخطابه٠
٣ — أن يتبعوا تعدد القاعدة لا توحيدها ٠
٤ — الاستغناء عن الكتب ٠ (١)

وكان قبل هذا المؤتمر بسنوات قد أعد (حاشية على تقرير لجنة النظر في تيسير قواعد الصرف والنحو والبلاغة) وفيها خلاصة دروس القاها ومقالات نشرها وتقارير وضعها حول اللغة في النحو والصرف والبلاغة ، ومعظمها عرض لها في كتابه (مطالعات في اللغة والادب)

وقد تناول في هذه الحاشية التقرير الذى وضعته لجنة الفتها وزارة المعارف المصرية لمعالجة الموضوع ، فرد عليه في كل بنوده ، وتتبعه في المنهج ، وعرض رأيه بكل صراحة ووضوح وجرأة ، على ضوء أن اللغة حياة وتقاليد وعقائد واخلاق ومقدسات ٠٠ ويقول الاستاذ السكاكيني في هذا الصدد :

"اذن قبل ان نعمل على تيسير قواعد لغتنا يجب ان نجعل طلابنا عربا ٠٠٠"

وهكذا فالاستاذ السكاكيني من دعاة التجديد في الادب وفي النقد وفي اللغة !

ومن كبار علماء اللغات الذى احبه الاستاذ السكاكيني وترقب رجوعه الى فلسطين ليقضي معه بقية العمر ، العالم اللغوى بندلي الجوزى المقدسي (٢) وقد شوقه الى الذهاب لروسيا لتلقي العلم فيها ، ولكن السكاكيني عدل عن السفر لمرض والده ولتشبثه به وبكائه يوم عزم على السفر ! (٣)

ومن الباحثين الذين كان لهم جهد محمود في التحقيق الاستاذ عبد الله مخلص حيث قام بسلسلة وافرة من التحقيقات ذات الاهمية :

كتحقيقه لصورتي (العهدة المحمدية) (٤) وصورة (العهدة العمرية) (٥) وتحقيقه (صاحب مختار الصحاح) الذى نشره في دمشق ٠

وتحقيقه لكتاب (الاشارة الى من نال الوزارة) لابن الصيرفي ٠ وطبعه بالقاهرة ١٩٢٤ ٠

وتحقيقه (جب يوسف الصديق وقبره) وقد طبعه في القاهره سنة ١٩٢٩٠

---

(١) مذكرات السكاكيني / ص ٣٧١ — ٣٧٣ (٢) انظر ترجمة حياته ومؤلفاته في (مصادر الدراسه الادبيه) جزء ٢ ص ٢٧٩ (٣) مذكرات السكاكيني / ص ٣٦٠ (٤) و (٥) معرض اقلام الزهره عدد ٣ سنه ٣ ص ١٠٨ — ١١١ ، وعدد ٤ سنه ٣ ص ١٢٥ — ١٣٤ ، وعدد ٥ سنه ٣ ص ١٥٢ — ١٥٩ ٠

وتحقيقه (بديعية العميان ، او الحلة السيرا في مدح خير الورى)
لابن جابر الاندلسي ، طبعه في القاهره سنة ١٣٤٨ هـ ٠٠

ومن علماء اللغة الرحالة الشيخ خليل الخالدي من علماء بيت المقدس، وقد رحل عدة مرات للشرق والغرب ، وفتش بعض خزائن الكتب ونقل عنها الشوارد النافعة والفوائد الكثيرة (١) وكان حجة في كل ما يسأل عنه في ذلك الشأن، وقد كتب عن مجالسة الدكتور عبد الوهاب عزام في مجلة الرسالة (٢)

ومن علماء اللغة كذلك الشيخ سعيد الكرمي ، وقد كان نائبا لرئيس المجمع العلمي بدمشق وكان يلقي ابحاثه العلمية واللغوية في المجمع ، من ذلك محاضرة بعنوان (اللغة والدخيل فيها) (٣) ، ومن ذلك سلسلة محاضرات حول (الاعلام بمعاني الاعلام) (٤) ملخصا عن كتاب (الاشتقاق) لابن دريد ٠

اما الاستاذ اسعاف النشاشيبي عالما لغويا فقد عشق العربية ورأى فيها الكمال عينه ، فمدحها ، واطراها ، وعظمها وبجلها ، وقد سما ، وكان بها هائما ولهانا ٠

ففي سنة ١٩١١ يكتب الاستاذ اسعاف ثائرا غاضبا على قومه لجحودهم فضل اللغة العربية في موضوع عنوانه (اللغة العربية وسوء حالها) (٥)

وفي سنة ١٩١٢ يبدأ كتابه (امثال ابي تمام) يجمعها كما جمع من قبل الصاحب بن عباد امثال المتنبي ، وقد قرأ من اجل ذلك اربعمائة كتاب من كتب الادب واللغة وكان لهذا الكتاب اثره الكبير في الاوساط الادبية واللغوية ٠ ويقول الاستاذ اسعاف :

(ثم غدوت الى ديوان حبيب ، وانشأت اختار من قلائده وفرائده ما اختار ، واوضح من اللفظ الغريب في الامثال ما اوضح ، واعلق على بعضها من النوادر الادبية والنكات اللغوية ما يمزج اللذه بالفائده سالكا في ذلك سبيل الايجاز هربا من تبرم القارئ وملله ٠" (٦)

ولا يقف الاستاذ اسعاف في جميع الامثال موقفا سلبيا بل له رأيه اللغوي ، فحين يعرض لشرح لفظة الحب في امثال ابي تمام ، يقول :

---

(١) صاحب مختار الصحاح / ص٩ (٢) الرسالة / عدد ٧٨ / سنه ٢ / صفحة ٢١٢٩
(٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق / الجزء الاول سنة ١٩٢١ ص ١٢٩ — ١٣٧
(٤) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق / الجزء الاول سنة ١٩٢١ / ص٢٨٩ — ٢٩٧ وص ٣٢١ — ٣٢٨ ، وص ٣٥٣ — ٣٥٨ (٥) النفائس العصريه / جزء ٢ / سنه ٣ ص ٦٥ — ٦٨ (٦) النفائس العصريه / جزء ٣ / سنه ٤ / ص ١١٠ — ١١٧ ٠

"وقيل في اشتقاق الحب اقوال كثيرة ، وأشفها واقصدها عندي اشتقاقه من اللزوم والثبات : يقال احب البعير اذا برك فلم يقم فكأن المحب لا ينزع قلبه عن ذكر محبوبه ، واما العشق فاشتقاقه من العشقة ، وهو نبات يلتف بأصول الشجر التي يقاربها في منبتها فلا تكاد تتخلص منه الا بالموت. وقيل ان العشقة نبات اصفر متغير الاوراق فسمي به العاشق لاصفراره وتغير حاله." (١)

والاستاذ اسعاف مفتون بالقدامى يستهديهم فيهدون ويأتم بهم فيرشدون ، ففي فاتحة كتابه (مجموعة النشاشيبي) التي "جمع فيها اقوالا كلها للمتقدمين الا قولا من النثر واحدا اشاد بذكر العربيه وحببها الى اهلها ، ونعى عليهم تفريطهم في لغتهم ، فجوز ذلك اضافته اليها" يقول : " واعلم يا فتى ان المتقدمين هم الاعلون وهم المتقدمون ، وهم المجلون في حلبة العلم العربي والادب وهم السابقون . وانما دأبنا في هذا الزمان ان نستهديهم وهم هداة الحائر فيهدون ، ونأتم بهم وهم الايمة فيرشدون . ونسألهم من فضلهم وهم الكرام فيحسبون ونجدوهم والجود من شناشنهم فيجودون." (٢) وحين يذكر عمله في الحاشية رقم ٤ من فاتحة الكتاب يقول :
" شرحت غريب هذه المجموعة جميعه ، وقد وجدت اقوالا شرحها السلف الصالح قبلي فاستعنت بشرحهم . فالشرح جله لي ، والفضل كله لهم "

من ذلك كله يتبين لنا مذهب الاستاذ النشاشيبي القديم الذي يقف اصيلا شامخا الى جانب مذهب الاستاذ السكاكيني الجديد الذي يقف كذلك شامخا أصيلا !

ويمضي في هذا المتجه في اللغة كما مضى فيه في النثر وفي النقد !

ومن خطبة قالها الاستاذ اسعاف في مؤتمر رؤساء المدارس في معارف فلسطين في نيسان سنة ١٩٢٧ بعنوان (العربية في المدرسة) (٣) او (الاستاذ ، والمدرسة) (٤) جاء قوله :

اللغة هي الامة والامة هي اللغة ، وضعف الاولى ضعف الثانيه . وهلاك الثانية هلاك الاولى . وكل قبيل حريص (وقد كان في هذه الدنيا) جد حريص على ان يستمر كونه وعلى الا يبيد . فهو مستمسك بلغته للاحتفاظ بكينونته . واللغة ميراث اورثه الاباء الابناء . واحزم الوراث ضائن ما ورث . واسفههم في الدنيا مضيع . وان العربية لو لم تكن الابداع كله . ولو لم تكن الجمال الاجمل . ولو لم تكن اللغة المصطفاة ... ولو لم تك لغة عجبا ما اختارها الدهر لقرآنها " (٥)

---

(١) النفائس العصريه / جزء ٣ / سنه ٤ / ص١١٣ (٢) فاتحة كتاب مجموعة النشاشيبي الكتاب الاول (٣) انظر مجموعة العربية وشاعرها الاكبر / ص ٤٨ ـ ٥٢ (٤) انظر البستان / ص ١ ـ ٩ (٥) انظر (العربية في المدرسة) من مجموعة (العربية وشاعرها الاكبر) ص ٤٨ ـ ٤٩ .

ثم يقول :

" وقد تكاثرت علينا قدما علوم الامم فرحبت بها كلها واعطت كل علم مطلوبه . وذو الثراء الكريم يجود . " (١)

وتتجمع كل ميزات المذهب اللغوي القديم التطبيقية لدى الاستاذ اسعاف في خطبته (كلمة في اللغة العربية) التي القاها في دار جمعية الرابطة الشرقية في القاهرة في اليوم الاول من ذي القعده سنة ١٣٤٣ ،وطبعها في القدس سنة ١٩٢٥ .

وقد اخذ على نفسه عهد ان يكون حارسا للغة العربيه .. حاميا لحماها .. مدافعا عنها طوال حياته وكانت كل خطبه في الدفاع عنها ، والعمل على انعاشها "وتقويتها والباسها احزمة النجاة مما يحيط بها من الامواج المغرقة واعطائها وسائل الوفاء بالحاجات العصريه لتصلح للبقاء وتسليحها مما تدرأ به عنها هجمات المتنوعين من الاعداء ، مخافة ان يدركها ما ينظر اليه الرواد الاسفون من بدائع الانقاض . " (٢)

وهكذا كان هم الاستاذ اسعاف صيانة لغة الضاد وتعزيزها وترقيتها وتوفير اسباب انتشارها وسهولة استعمالها وعود الاقبال عليها في شعوبها(٣).

ومن هذه المواقف التي يدافع بها عن العربية خطبته (العربية وشاعرها الاكبر احمد شوقي) ومراجعاته للاستاذ امين الريحاني في مقالة جعل عنوانها : (اللغة العربية والاستاذ الريحاني) ، وقد ضم اليهما خطبته (العربيه في المدرسه) وجعلها جميعا في مجموعة واحدة طبعها في مصر سنة ١٩٢٨ .

وفي تأبين الشاعر احمد شوقي يقول خطبته ، وفيها اعزاز للغة العربية كبير . (٤) وفي خطبته (قلب عربي وعقل اوروبي) حين يجيء ذكر اللغة العربية يقول :

" وهذه العربيه التي هيمنا (ايها العربي) حبها وليس ثمة عاذل ، وعبدناها ولا يعيب عبادتها عندنا الا جاهل لن يثبت في هذا الكون حولها . ولن ينتقل في (دار الندوة) يوم القول قولها . الا اذا عرفت هذه المدنية الغربيـة والعربيه كالغربية ربة مدنية وحالها بصحبة المدنيات مشتهر .

فانها لما ظعنت عن جزيرتها لاقت في طريقها المدنية الاغريقية فما صعرت عنها خدها ولا تعبست .

---

(١) انظر (العربيه في المدرسة) من مجموعة (العربيه وشاعرها الاكبر) ص ٥٠ (٢) من خطبة الاستاذ خليل مطران في (كلمة في اللغة العربيه) ص ١٠١ — ١٠٢ (٣) انظر خطبة الشاعر خليل مطران في آخر كتاب (كلمة في اللغة العربيه) ص ١٠٢

(٤) كتاب البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد احمد شوقي / ص ٢٠ — ٢١

وما ادلت بفضلتها (وانما لذات فضلة) ولا تعجرفت، واستقنت بانها اعلم منها.
فاطالت الجثوم بين يديها وحدثت عنها " (١)

وهكذا لم يترك الاستاذ النشاشيبي فرصة من فرص تعظيم اللغة العربية الا انتهزها فأطرى ومدح، وعظم وبجل وقدس وقد كان يصدر في كل ذلك عن عاطفة متأججة، وخيال مجنح عابد !

وقد استمر الاستاذ النشاشيبي من سنة ١٩٣٧ حتى سنة ١٩٤٧ وهو يوالي نشر الشذرات النفيسه على صفحات الرسالة باسم (نقل الاديب) (٢) وهي مختارات تتميز بحسن الاختيار، والاستاذ النشاشيبي واسع الاطلاع على الادب القديم، وهو ابرع من ينتقي من كنوز ذلك الادب.."

والاستاذ (بمجموعته) و (ببستانه) و (بأمثال ابي تمام) و (بنقل الاديب) انما يعمل على خلق جيل عربي اصيل تكون ملكة اللغة متمكنة من نفسه وقلبه وفكره فيخدم بذلك اللغة خدمة تطبيقية عملية اكثر مما يخدمها بالنظريات !

ومن هنا كانت آثار الاستاذ النشاشيبي جهدا ايجابيا في حياة اللغة وان لم تتميز بنظريات فلسفية في علم اللغات !

وقد اصبح الاستاذ النشاشيبي علما شامخا من اعلام اللغة في المذهب القديم، واصبحوا ينسبون اليه كل تقعر او غرابة في اللغة.. حتى ان سعيد تقي الدين في مقدمة رواية (نخب العدو) في الحاشية حين يتندر على كلمة (سندش) يخترع اسما لكتاب مخطوط ويزعم أنه من ممتلكات الاستاذ اسعاف النشاشيبي، فلا يناسب هذا الاسم الممعن في الغرابة الا الاستاذ اللغوى اسعاف، فيقول الاستاذ سعيد متندرا :

" سندش من السندوش، وهي عشبة خضراوية، ورقها كالهندباء حامض كانت العرب تغمسها (بالرب) وهو سلافة عصارة كل ثمرة بعد اعتصارها، وثفل السمن فتضعه بين قطعتين من معجون الرمخة اي البلح، فيأكلونه، وعنه اخذ الافرنج كلمتهم (Sandwich) جاء في (الحواسة العزقوليه) وهي المخطوطة الفريدة التي يملكها الاستاذ اسعاف النشاشيبي :

(دخل عسيل الرعماط على مجلس الامير حندوش الزندعي، فلقي رجلا حدبارا يدعى خميط وقد تصدر مجلسا حفل بكل درفاس، فارتجل مشيرا الى خميط :
لحاك الله شرا من حدبر يسندش نفسه بين الدرفس" (٣)

---

(١) قلب عربي وعقل اوروبي / ص ١١ (٢) جمعها، وقدم لها وترجم لمؤلفها، الدكتور اسحق موسى الحسيني، وطبعها في بيروت (٣) انظر مقدمة رواية (نخب العدو) لسعيد تقي الدين في الحاشيه !

وهكذا فقد امتلأ الجو بروح الاستاذ النشاشيبي اللغوية التي تحوم دائما في اجواء القرون الثلاثة الاولى للهجرة •

ومن بين الذين اتيحت لهم فرصة طالب العلوم الغربية في اوروبا ووجد الميدان فيها فسيحا ، ووجد كثيرا من طرائق البحث جديدة ، بل رأى من الكتب العربية ما لم يره ولم يسمح به في بلاده العربيه نفسها ، الاستاذ الدكتور اسحق موسى الحسيني ، حيث يقول في كتابه (علماء المشرقيات في انكلترا) وقد طبعه في القدس سنة ١٩٤٠ :

" ولئن اقتصرت الفائدة على الوقوف على نفائس المؤلفات العربية من مخطوط ومطبوع ، لكفى • فكيف وهناك التبصر في الاساليب الغربيه ، والبحث العلمي الدقيق واستنباط طريف المباحث وعرضها في اسلوب ممتع ، والنظرة الواسعة في تاريخ اللغات وحسن الفهم للعلوم الفلسفية والرياضية والفقهية ، من منابع التراث الاسلامي الاولى ! "(١)

ثم يتحدث الدكتور اسحق عن اثر علماء المشرقيات في دراسة العربية وحدها في بلد واحد من بلدان اوروبا هو انكلترا ، فكتب عن مجالس علمائهم ، وعن مناهجهم ، وعن مكتباتهم الكبرى ، وعن الطلاب العرب في انكلترا •

وكان الدكتور اسحق قد عرض للاسلوب الذي ينهجه اساتذة اللغة من علماء المشرقيات حين يدرسون النصوص في كتابه (رأي في تدريس اللغة العربيه) الذي طبعه في القدس سنة ١٩٣٧ قبل كتابه السابق •

وبهذه النوافذ يكون للدكتور فضل وجهد محمود في حياة اللغة في هذا القطر •

ومن الجهود اللغوية ما قام به الاستاذ عبد الرؤوف بن رزق المصري (ابو رزق) من وضع قاموس لمفردات غريب القرآن (بالعزيز) وفيه تفسير ولغة واصول الكلمات ، ودلالاتها منذ نشأتها وتطور استعمال تلك الدلالات •• وقد اختصره وسمى المختصر (موجز قاموس غريب القرآن الكريم) وطبع الاخير في القدس سنة ١٩٤٣ •

وكان من نصيب اللغة في فترتنا الحديثة ان اتيح لها عالم لغوي متمكن مؤهل لابحاثها هو الاب أ • س • مرمجي الدومنكي ، احد اساتذة المعهد الكتابي والاثاري الفرنسي في القدس •• عكف على المعاجم العربيه فرآها " تخلو من المنطق في المعاني ، وتعوزها دقة التحديد والوضوح في الشروح ، فلا تناسب في الالفاظ ولا تناسب في المشتقات ، ولا تتابع في التطورات مما يلقى المطالع والمتقصي في حيرة وارتباك • •• اما لسد هذا الخلل فقد شمر ارباب اللغة في عصرنا – كل حسب اختصاصه – للتوسل بشيء منها •• على أن ذريعة من انجع الذرائع

---

(١) علماء المشرقيات / ص ٦ •

لاصلاح المعجمية العربية الاوهى درسها على ضوء (الثنائية والالسنية السامية) " (١)
وهذا ما تفرغ له ، فكان مفتاحا لفك مغالق كثيرة في هذا الشأن .. واخذ يجمع
المواد الغزيرة حتى تجمع له منها الشيء الكثير مما يمكن ان يؤلف منه مجموعة معجم
قائم بذاته .

وفي وصف ما ذهب اليه يقول :

" مذهبنا غير مألوف بين علماء العربية ، الا وهو مذهب (الثنائيين Bilitteralistes
المعاكس لمذهب (الثلاثيين Trilliteristes) وطريقتنا طريقة (الالسنيه
الساميه Philologie Semitique) اى علم مقابلة الالسن السامية بعضها
ببعض " (٢)

ثم يعرف اصطلاحاته الواردة فيقول :

" الثنائية : هي النظرية القائلة بأن الاصول في العربية وكذلك في اخواتها السامية ،
ليست الالفاظ ذوات الحروف الثلاثة ، بل ذوات الحرفين . اذن من شأن الثلاثيات
أن ترد الى الثنائيات .

المعجمية : علم وضع المعاجم ليس من حيث التدوين ، والتنظيم فحسب ، بل خاصة
من حيث الاشتقاق وتنسيق المعاني ، وتبيان المناسبة بينها بطريقة منطقية ." (٣)

ويجمع في الكتاب طائفة من الامثلة يطبق عليها مذهبه وطريقته ، وقسم
من ابحاثه مجموع من مقالات كان قد نشرها في بعض المجلات الغربيه .

ويعرض الاب مرمرجي بالمحافظين من انصار القديم فيقول :

" وغير خاف عنا أن النظريات القائمة عليها ابحاثنا لا تروق في عيون (المحافظين
على القديم) من معجميين شرقيين او مستشرقين ، لعدم مألوفيتها في تقاليدهم اللغوية
لكن لا بأس في ذلك ، ولا محل للخشية من المعارضة والانتقاد . فان الحقيقة بنت
البحث ، وباحتكاك الاراء يبرق وميضها . والاجتهاد العلمي حلبة اذا جال فيها
ارباب التقصي بحكمة وجرأة وثبات فلا ينجم عن هذا السعي سوى الخير كل الخير
للغتنا العربية الناهضة نهضتها هذه العصرية المباركة " (٤)

وقد جرت مراجعات بين الاب مرمرجي من جهة وبين الاب انستاس ماري
الكرملي من جهة اخرى كتلك التي قامت في اللغة بين السكاكيني من جهة وبين الامير
شكيب ارسلان من جهة اخرى ....

---

(١) مقدمة كتاب (المعجميه العربيه على ضوء الثنائية والالسنية الساميه) ص ٥ — ٦
(٢) مقدمة كتاب (المعجميه العربيه ...) ص ٦ (٣) مقدمة (المعجمية العربية)
ص٦ (٤) مقدمة (المعجمية العربيه ..) ص ٧ .

وقد كانت معرفة الاستاذ الكرملي للالسن السامية خلا العربية اقل بكثير من معرفة الاب مرمرجي ، فضلا عن ان الاب الكرملي لم يكن يعرف شيئا من الاكدّية (الاشوريه البابليه) او من الحبشية ، ولذلك كانت مقارناته اللغوية تأتي احيانا ثمرة فرض وتخيل !

وقد كانت مدرسة الكرملي مدرسة المحافظين في هذه المباحث اللغويه بينما كانت مدرسة مرمرجي مدرسة التجديد والتيسير والقضاء على كل معقد في اللغة وعسير ..

ولقد كان الاب مرمرجي استاذا في مدرسة الاباء الكرمليين ببغداد للغة التركية ، والانكليزية ، والعربيه ، والفرنسية ، والخطابة والمنطق والفلسفة ، وكان يتقن السريانية والعبرية والاكدية والحبشية والمقارنات السامية وغيرها مما يتقن او يلم به من الالسن القديمة والحديثه .

وليس من شك في ان التلميح او التعرض للنظرية الثنائية قد سبق اليه رجال النهضة امثال احمد فارس الشدياق ، والشيخ ابراهيم اليازجي ، والاستاذ جورجي زيدان ، والشيخ العلايلي .. غير انهم كلهم على مثال الاب الكرملي قد نقلوا ذلك عن علماء اللغات من المستشرقين اما رأسا واما استلهاما .. وقد كانت ابحاث المستشرقين قد بدأت تشق طريقها في مجال اللغات آلارية والسامية منذ زهاء قرن غير ان فريقا من ائمة اللغة العربية قد سبق المستشرقين الى ذلك منذ احقاب عديدة امثال اللغوى الكبير داود بن ابراهيم الفاسي (من اهل القرن العاشر للميلاد) في معجمه (كتاب جامع الالفاظ) وهو معجم عبرى - عربي .

وقد التفت الاب مرمرجي الى هذه النظرية اثناء مقابلته الاصول العربية بالاصول السريانية في المعجم السرياني - العربي للمطران (منّا) ، وفي بعض كتب الصرف في اللسان الارامي ، وفي كتاب (سر الليل) للشدياق ، و (الفلسفة اللغويه) لزيدان .

ولم يقتصر الاب مرمرجي على العمل الهين القريب المتناول فيبسط مبادئ الثنائية ملخصة كما فعل الكثيرون ، بل سعى حثيثا الى تطبيق هذه المبادئ مدعومة بالالسنية السامية على مواد المعجم العربي كله ، بغية تجريده من شائبة الضديه واللامنطقيه الموصوم بها ، وقد اورد التفاصيل الضافية في صدد هذا في كتابيه المخطوطين :

(ماهيّة الثنائية والالسنية) و (قواعد اللغة الاكدية) ثم في (المعجم الثنائي - الالسني) الذى ما زال دائبا في اعداده ! (١)

---

(١) انظر الذيل الذى جاء في آخر كتاب (هل العربية منطقيه ؟) ص ١٥٦ - ١٦٠

وقد طبع كتابه (المعجمية العربية على ضوء الثنائية والالسنيةالسامية)
في القدس سنة ١٩٣٧ .
وصدر كتابه الاخر (هل العربيه منطقية) في لبنان عام ١٩٤٧ .
ونعرض لمثل من كتابه (المعجمية العربيه) لنرى طريقته في التطبيق
ومذهبه اللغوى ، فهو يقول حين يتناول كلمة (البارية) :
" فضل الالسنية السامية هو انها تفرض معرفة جميع السن بني سام ، ولو
بدرجات متفاوته ، مما يمكن صاحبها من مقابلة هذه اللغات بعضها ، فيتوصل الى
استنتاج نتائج ، وحل مشاكل كثيرة . وهو ما يعجز عنه من ليس له وقوف الا على
لسان واحد او اثنين منها . فمن قال (البارية فارسية لا تحتمل شكا) . قد صدق
دون ترو ، قول المعاجم العربية ، او لانه وجدها في الفارسية ، فتخيل له ما تخيل
اجل ان هذه اللفظة واردة في اللغة الفارسيه ، ولكن هل يا ترى مجرد انتظام
كلمة في سلك الفاظ لغة من اللغات دليل على انها من اصل تلك اللغة ؟ لو سلمنا
بهذا المبدأ ، لجعلنا مئات بل الوفا من الكلم من اصل لسان قوم ، وهي ليست الا دخيلة
فيه ان هذه اللفظة التي تخيل للبعض انها فارسية لورودها فيها لها وجود في التلمود
البابلي ، وفي اللغة الارمية السريانية ، وفي الاكدية (الاشورية _ البابليه) ، لها اثر
في العبرية ، والحبشية ، والعربية عينها . فمن اى ينبوع من هذه الينابيع قد صدرت ؟
قبل الجواب على هذا جوابا السنيا ، نرى من المفيد بل من الضرورى ،
ان نمهد السبيل بكلمتين : اولاهما في تاريخ مستندات اللغات التي لها دخل
في هذا المقال ، وثانيهما في الوطن الذى تكثر فيه المادة عليها هذه الكلمة ." (١)
ثم يعرض للفارسية واول اطوارها وتطورها وللاكدية واطوارها ، والعبرية
واطوارها ، والارمية واطوارها ، والحبشيه واطوارها ..
هذا في شأن المستندات اللغوية . اما في صدد الموطن الذى تكثر
فيه المادة الدالة عليها لفظة (البارية) ، وهي القصب ، فيقول : " لا عجب اذا جهل
احوال العراق من كان غريبا عنه ، لكن أنت ، يا ابن الوطن العراقي ... فانك ولا ريب
قد جلت في نواحي مملكتنا الجنوبيه ، اى في الوية الكوت والعمارة والديوانيه والمنتفق
والبصرة .. او لم تسمع بما في تلك السهول من غابات القصب الكثيفة الواسعة ؟ ..
ان اكثر اهالي تلك الربوع يسكنون تحت (الصرائف) .. ويستعملون القصب لصنع
القوارب (المشاحيف) .. ويعملون منه الحصر المعروفة باسم (البوارى) جمع (بارية)
وهي الكلمة التي يدور بحثنا عليها .

---

(١) المعجمية العربية / ص ٩ _ ١٢ .

.. فجنوب العراق اذن موطن ومنبت طبيعي للقصب لتوفر الاهوار فيه ، مما لا نجده في العراق المتوسط او الشمالي ، وبأولى حجة في بلاد فارس الجبلية ، المتعذر وجود المستنقعات فيها .. ومن ثم فالبوارى سلعة ليست مستجلبة الى العراق ، بل مصنوعة فيه . فهي اذن محلية وطنية ، ومن البديهي أن يكون اسمها وطنيا عراقيا ..

لكن ربما يتصور القارئ ان وفرة القصب والبوارى في العراق بنت يومها او انها من حسنات الرقي العصرى .. كلا فان جنوب العراق المسمى قديما (البلاد الشمرية الاكدية ، او الديار البابلية ــ الكلدانية) قد بقي الى اليوم على ما كان عليه في العصور المتوغلة في القدم ، لانه ابن الرافدين وميدان المستنقعات ... ومنذ ٣٠٠٠ سنة ق . م ... كان الفقراء يستخدمون القصب للصرائف ، ولصنع المشاحيف او القوارب ... هذا في شأن وفرة القصب والبوارى في العراق اى البلاد الشمرية ــ الاكدية ، اما ورود اسم (الباريه) قديما ، وفي أية لغة ورد قبل غيرها ، فهذا ما بقي علينا تبيانه " (١)

ثم يمضي في تتبع اللغات السامية وآثارها معتمدا في التواريخ والسنوات على الفذلكة التي اختارها من مظان موثوقة ، ويخلص من ذلك كله استنادا الى هذه المعلومات التأريخية ، الى أن الاكديه اقدمها في الشأن ، وان الفارسية حديثة بالقياس اليها فيما يتصل بهذه الكلمة . ويستنتج من ذلك النتيجة الطبيعية والمنطقية وهي ان كلمة (البارية) تلك (اكدية النجار) ، فنقلت الى الارميه وتناولتها الفارسية اما رأسا من الاكدية ، واما عن طريق الارمية ، وعن الفارسية اخذتها العربيه على رأى اهل المعاجم ومن آمن بقولهم . " لكنا نفضل الارتياء بأنها دخلت العربية عن لغة عراقنا عينه ، لان هذه اللفظة لم تندثر قط في بلادنا .. " (٢)

ثم يورد الشواهد المتعددة على ورودها في المواطن المذكورة في مختلف الالسن الساميه وينتهي بعد ذلك كله الى خلاصة البحث : وهي أن (الباريه) ليست بفارسية قطعا ولا هي ارميه ، بل هي في الاصل كلمة اكديه بمعنى اليراع او القصب ، واذن : (الباريه) او (البورية) عراقية قحة ، لا غبار عليها ، عمرها ما يربو على الاربعين قرنا .

ثم يعرض بالاب انستاس مارى الكرملي فيقول : " هذا رأينا ابديناه باسم حرية القول في العلم ، وان ناقض بل قوض رأى اصحاب المعاجم العربيه واتباعهم . على كل حال ، ان ظهر بهذا القول شيء من الحقيقة خفى عن المتقدمين وفات المتأخرين ، فما الفضل في ذلك الا لمبادئ وطريقة (الثنائية والالسنيه الساميه) (٣)

---

(١) المعجميه العربيه / ص ١٢ ــ ١٥ (٢) المعجميه العربيه / ص ١٥ .

(٣) المعجميه العربيه / ص ٢٠ .

ويمضي بكل هذه الافاق وبكل هذا الاستعداد لعرض طائفة من الالفاظ يبذل فيها كل امانة واخلاص في سبيل الوصول الى الحقيقة بكل ما اوتي من ثقافة ومقدرة على التنبه في مقابلة اللغات .

وفي آخر الكتاب يوضح لنا بطرقه العلميه كيف أن (الثنائيه والالسنيه من مبطلات الضديه) فمن معايب المعجميه العربيه اشتمالها على الفاظ متضاربة المعاني متنافرتها ، بل فيها كلمات لكل منها مدلولان متضادان . وقد دعاها ارباب اللغة الاضداد ، ويطلق الاب مرمرجي على خاصيتها اسم (الضدية) وقد عنى بعض علماء اللغة الاوائل بجمع هذه المفردات كما فعل الاصمعي ، والسجستاني وغيرهما .. وقد بالغ ابن الانبارى في عدد الاضداد فاوصله الى ما فوق الاربعمائه . وقد حاول علماء آخرون ابطال حقيقة وجود الاضداد اما في جملتها او في طائفة منها . ويرى الاب أن هؤلاء مصيبون ويرى أغلب ادلتهم مقنعة في هذا الصدد . وقد كتب الدكتور منصور فهمي في ذلك مقالة ممتعة حول الاضداد (١) .

ويقول الاب مرمرجي : " الا اننا نزيد على ذلك وسيلة لم يذكرها احد منهم ـ لانهم لم يذهبوا مذهبنا ـ الا وهي وسيلة (نظرية الثنائية) و (طريقة الالسنية السامية) ، وبالحق ان لم تكونا الذريعة الوحيدة فلا اقل من انهما حريتان بأن تنظما في سلك المسالك المتعددة لابطال الضدّيّة في العربية . وللبلوغ الى هذه الغاية المتوخاة ينبغي أن تتخذ الثنائية بنوعها الخاص الذى اكتشفناه بالتقصي الشخصي ، الا وهو ان لا يرد الثلاثي الى ثنائي واحد ، بل الى ثنائيين ، او اكثر عند اقتضاء الحاجة .. وهذا ما يجب تطبيقه في مسألة ابطال الضدية ، اى ان يرد الثلاثي اولا الى ثنائي يطابق احد المعنيين المتضادين ، ثم الى ثنائي آخر يناسب المعنى الثاني . واذا كان اللفظ من الاصل ثنائيا تقارن بما يقابله في اللغات السامية " (٢)

ثم يورد طائفة من الامثلة تبلغ الستة عشر من ذلك (ضعف) التي لها معنيات متضادان : اولهما تكرر ، زاد ، كثر .. وثانيهما : نقص ، هزل .. حسب المعنى الاول : الثلاثي من الثنائي (ضف) الدال على الزيادة والكثره .. وحسب المعنى الثاني ، يأتي من الثنائي ضع ، وهو اسم صوت يزجر به الجمل آن ترويضه وتذليله اى تضعيفه ..

فمن الثنائي (ضف) جاء الثلاثي ضعف

ومن الثنائي (ضع) جاء الثلاثي ضعف

---

(١) مجلة المجمع العلمي المصرى / المجلد الثاني / ص٢٢٨ ـ ٢٤٤

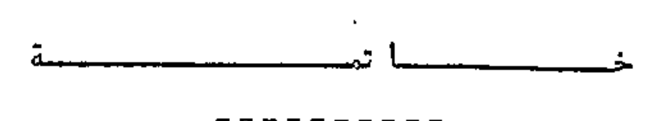
(٢) المعجمية العربية / ص ٢١٩ ـ ٢٢٠

وهكذا زالت الضدية ، اذ لم تكن الا ظاهرية (١)

وفي كتابه (هل العربية منطقية ؟) يسرد طائفة من الامثلة تظهر فيها اللامنطقية طالما هي باقيه على الحالة الثلاثية ، وتتجلى فيها المنطقية التامة حين معالجته اشتقاق الالفاظ ، وتطور محاويها طبقا للنظرية الثنائية ، وطريقة الالسنيه السامية .

ولعل في ذلك الكفاية ففيه دلالة على تطور حياة اللغة في هذا القطر منذ أن بدأت تساؤلا حول الفاظ وكلمات ، حتى صارت مذاهب قديمة ومذاهب حديثة ثم حتى وصلت الى نظريات جديدة تحل اشكالات كانت قائمة في اللغة العربية منذ قرون واجيال !

وبذلك نختم حياة اللغة في مرحلتنا التي نحن بصددها ونحن مطمئنون الى أن الخطوط الكبيرة قد عرضنا لها لنستطيع ان نوضح الملامح الحية لهذه الحياة !


خاتمة

واذن فالحياة الادبية في فلسطين كان لها ميزاتها العامة التي تشترك فيها مع شقيقاتها ، وكان لها طابعها الذى لونّه كفاحها بألوانـــه المميزة !

وقد انتفعت بكثير من تجارب الشقيقات ، وتجارب الامم الاخرى لأن نهضتها بدأت متأخرة قليلا عن بدايات النهضات الاخرى بسبب عوامل سيـــاسية وظروف طبيعية •

ولعلها بسبب هذا التأخر اليسير في الزمن قد اكتسبت قوة واكتملت نضجا ! وانفسحت الافاق التي تطل عليها ، فلم تنغلق على نفسها منذ مطلع حياتها الجديدة •

وحين فتحت نوافذ ها على حياة العالم الفكريه استوحت من ذلك النماذج التي تلائم حياتها ، فلم تستوح التيارات الرخوة ، ولا وقعت في احابيل الاتجاهات المضلله ، وانما اختارت النماذج الواعيه المستكملة لمقومات الحياة ، المنطلقة الثائرة التي دفعت بالحياة الى الامام •

وقد كانت وقفاتها الاولى قصيرة بالقياس الى غيرها عند البهلوانيات والالاعيب الصياغية في التعبير •

وكان نصيبها من التيارات الهابطة ضئيلا بالقياس الى غيرها ، ولم ينعزل ادبها عن الحياة الا في فترة قصيرة جدا ، وكانت التيارات الايجابية متوفرة فيها !

وقد تمثلت في الحياة الادبيه في فلسطين جميع التيارات الادبيـــة مهما يكن حظها من التوفيق ، فقد بدأ الشعر تقريظا واتكأ على المديح فـــترة من الزمن ثم لم يلبث ان خاض الحياة وشارك في النضال ومضى يقود الحركـــة الوطنية في وعي وادراك ووضوح هدف ، واذا به ينتقل في الشكل من دور الوصف التقريرى الى دور التصوير الحي النامي للاحداث القائمة • وقد اتسع للقراع الفكرى وامتزج به الحس بالفكر امتزاجا لم تظهر فيه روح الازدواجية !

وكانت مدارس النثر قد عرفت طريقها في الحياة واستشرفت غاياتها وخططت حدودها وتبينت كل مدرسة خط سيرها مع الحياة الصاعدة فكانت المدرسة الجديدة والمدرسة القديمة في النثر تسيران صعدا في اتجاههما الى الامام بفعل الحركات النضاليه التي دفعت بهما الى ذلك السير !

وكانت الاصالة ميزة اساسية من ميزات المدرستين !

وابتدأت القصة بالحكايات والحواديت شأنها شأن كل البدايات ثم لم تلبث ان انطلقت في ميدان الحياة حتى مثلت التيارات القصصية جميعها •

وقد اتاحت لها الترجمة فرصة الاتصال بالنماذج الانسانية الرائعة ، فكانت النهضة القصصية سليمة البنية منذ مطلع حياتها ..

وكانت الرومانتيكية فيها ايجابية في اغلب الاحيان .. وقد انتهت بها هذه الايجابيه الى حدود المدرسة الواقعية !

واستتبع هذه النهضة وهذا الازدهار في حياة الادب نهوض وازدهار في حياة النقد حتى وجدنا آثارا شامخة في هذا الميدان في وقت مبكر من نهضة البلاد .

وكانت المدارس النقدية واضحة الخطوط متبينة لاصولها !

ولم تعدم الحياة اللغوية من عنى بها عناية جادة حتى وجدنا مشاركة هذا القطر في حل مشكلات لغوية خلقتها الاجيال في اللغة العربية .

وبذلك اتضح لنا أننا لم نتكلف انتحال حياة مفقوده ، ولا تجميل وجه بشع ، وانما ابرزنا حياة ادبية اصيلة ، جديرة بأن تأخذ دورها في الحيـــــاة امام اعين الناس!

وسنعمل ما في وسعنا فيما يقبل من ايام حتى نستكمل ملامح الصورة الحقيقية ، ولعل الظروف أن تتغير فنظفر بالصورة كاملة ناطقة حية !

اهـــم المـــراجع

اقتصرنا في هذا الكشف على اهم المراجع التي استقينا منها مقتبسات في متن الرسالة .. وقد اضطررنا الى الاكتفاء بالاشارات في ثنايا الرسالة الى مراجع كثيرة لكثرة تلك المراجع، كترجمات الاستاذ الكبير عادل زعيتر او موءلفات الشيخ يوسف النبهاني وغيرهما .

	اسم الموءلف	اسم الكتاب	مكان الطبع وتاريخه
١)	احمد أمين	زعماء الاصلاح في العهد الحديث	مصر ١٩٤٨
٢)	البير اديب	الاديب (مجلة)	بيروت ١٩٤١
٣)	الدكتور ناصر الدين الاسد	الاتجاهات الادبية الحديثة في فلسطين والاردن	القاهرة ١٩٥٧
٤)	العماد الاصفهاني	خريدة القصر ــ قسم شعراء الشام ــ	دمشق ١٩٥٥
٥)	احمد عزت الاعظمي	القضية العربية	بغداد ١٩٣١
٦)	موءيد ابراهيم الايراني	الدموع	حيفا ١٩٣١
٧)	محمود سيف الدين الايراني	اول الشوط	يافا
٨)	محمود سيف الدين الايراني	مع الناس	دار النشر والتوزيع ١٩٥٥

	اسم الموءلف	اسم الكتاب	مكان الطبع وتاريخه
٩)	جميل البحري	زهرة الجميل (مجلة)	حيفا ١٩٢١
١٠)	جميل البحري	الزهرة (مجلة)	حيفا ١٩٢٢
١١)	جميل البحري	سجين القصر	حيفا ١٩٢٢
١٢)	جميل البحري	قاتل اخيه	حيفا
١٣)	حسن البحيري	الاصائل والاسحار	القاهره ١٩٤٣
١٤)	" " " "	افراح الربيع	القاهره ١٩٤٤
١٥)	" " " "	ابتسام الضحى	القاهره ١٩٤٦
١٦)	اسكندر الخوري البيتجالي	الزفرات	القدس ١٩١٩
١٧)	" " " " " " "	العنقود	القدس
١٨)	" " " " " " " "	دقات القلب	القدس ١٩٢٣
١٩)	" " " " " " " "	الحرب العالمية الثانية	مصر ١٩٤٦
٢٠)	" " " " " " " "	ديوان مشاهد الحياة	القدس ١٩٢٧

	اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان الطبع وتاريخ
٢١)	بطرس البستاني	الجنان (مجله)	بيروت ١٨٧٠
٢٢)	وديع البستاني	ديوان الفلسطينيات	بيروت ١٩٤٦
٢٣)	ج . ف . بليخانوف	الفن والحياة الاجتماعية (ترجمة احسان حصيني)	دار ابن الوليد
٢٤)	الدكتور لويس نيكل البوهيمي	النصف الاول من كتاب "الزهره" (تحقيق)	بيروت ١٩٣٢
٢٥)	خليل بيدس	ابنة القبطان (رواية مترجمه)	بيروت ١٨٩٨
٢٦)	" " " "	الروضة المؤنسة في وصف الارض المقدسة (مترجمه)	بيروت ١٨٩٩
٢٧)	" " " "	القوزاقي الولهان (رواية مترجمه)	لبنان ١٨٩٩
٢٨)	" " " "	النفائس (مجلة)	١٩٠٨ ـ ١٩١٤ ١٩١٩ ـ ١٩٢٣
٢٩)	" " " "	الوارث (رواية مترجمه)	القدس ١٩٢١
٣٠)	" " " "	هنرى الثامن (" " " ")	القدس ١٩٢١
٣١)	" " " "	مسارح الاذهان (اقاصيص)	مصر ١٩٢٤
٣٢)	" " " "	شقاء الملوك (رواية مترجمه)	القدس ١٩٢٣
٣٣)	" " " "	الحسناء المتنكرة (" " " ")	القدس ١٩٢٥
٣٤)	" " " "	اهوال الاستبداد (" " " ")	القاهره ١٩٢٧
٣٥)	عبد الله التل	كارثه فلسطين	مصر ١٩٥٩
٣٦)	محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت	ولاية بيروت ـ القسم الجنوبي	بيروت ١٣٣٥ هـ
٣٧)	فان تيغم	الرومنطيقية (ترجمة بهيج شعبان)	بيروت ١٩٥٦
٣٨)	جبرا ابراهيم جبرا	صراخ في ليل طويل	بغداد ١٩٥٥
٣٩)	أدهم آل جندى	اعلام الادب والفن	دمشق ١٩٥٤
٤٠)	بندلي صليبا الجوزى	الامومة عند العرب (ترجمه)	قازان ١٩٠٢
٤١)	مراد فؤاد جقي	الحكمة (مجلة)	القدس ١٩٢٧
٤٢)	اسحق موسى الحسيني	رأى في تدريس اللغة العربيه	القدس ١٩٣٧
٤٣)	" " " " " "	علماء المشرقيات	القدس ١٩٤٠
٤٤)	" " " " " "	عودة السفينة	القدس ١٩٤٥

	اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان الطبع وتاريخه	
٤٥)	اسحق موسى الحسيني	مذكرات دجاجة	مصر	١٩٤٣
٤٦)	" " " " " " "	هل الادباء بشر	بيروت	١٩٥٠
٤٧)	" " " " " " "	فن انشاء الشعر الغربي	القدس	١٩٤٥
٤٨)	ساطع الحصرى	نشوء الفكرة القومية	مصر	١٩٥٥
٤٩)	" " " " "	العروبة اولا	بيروت	١٩٥٥
٥٠)	" " " " "	حولية الثقافة العربية (الاولى والثانيه)	مصر	١٩٤٣
٥١)	روحي الخالدى	تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب	مصر	١٩٠٤
٥٢)	" " " " "	رسالة في سرعة انتشار الدين المحمدى	طرابلس الشام	١٣١٤
٥٣)	" " " " "	المقدمة في المسألة الشرقية	القدس	
٥٤)	احمد سامح الخالدى	مثير الغرام بفضائل القدس والشام (تحقيق)	يافا	١٩٤٦
٥٥)	" " " " " " "	الاعلام بفضائل الشام	القدس	
٥٦)	" " " " " " "	اهل العلم بين مصر وفلسطين	القدس	١٩٤٦
٥٧)	" " " " " " "	انظمة التعليم	القدس	١٩٣٣ ١٩٣٥
٥٨)	" " " " " " "	المعاهد المصرية في بيت المقدس	القدس	١٩٤٦
٥٩)	عنبرة سلام الخالدى	الياذة هوميروس (ترجمه)	مصر	١٩٤٧
٦٠)	محمد خورشيد	امير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ	القدس	١٩٣٢
٦١)	يوسف اسعد داغر	مصادر الدراسة الادبية ـ الجزء الثاني ـ	بيروت	١٩٥٦
٦٢)	" " " " "	فن التمثيل في خلال قرن	بيروت	١٩٤٩
٦٣)	الشيخ ابراهيم الدباغ	في ظلال الحرية	القاهره	١٩٥٣
٦٤)	" " " " " " "	حديث الصومعة	القاهره	١٩٤٧
٦٥)	" " " " " " "	ديوان الطليعة (الاول)	القاهره	١٩٢٥
٦٦)	" " " " " " "	ديوان الطليعة (الثاني)	القاهره	١٩٣٧
٦٧)	مصطفى درويش الدباغ	وحي الشاطئ	نابلس	١٩٥٠
٦٨)	دار الاذاعة الفلسطينيه	حديث الاذاعة	القدس	١٩٤٢
٦٩)	محمد عزت دروزه	حول الحركة العربيه	صيدا	١٩٥٠

	اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان الطبع وتاريخه
٧٠)	الرابطة الادبية	مجلة الرابطة الادبية	دمشق ١٩٢٠
٧١)	خير الدين الزركلي	الاعلام	مصر ١٩٢٧
			١٩٢٨
٧٢)	اكرم زعيتر	القضية الفلسطينية	مصر ١٩٥٥
٧٣)	ايليا زكا	النفير (مجلة)	القدس ١٩٠٨
			وحيفا ١٩١٣
٧٤)	احمد حسن الزيات	الرسالة (مجلة)	القاهره ١٩٣٣
٧٥)	جرجي زيدان	تاريخ آداب اللغة العربية	مصر ١٩١١
٧٦)	" " " "	الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية	مصر ١٩٠٤
٧٧)	" " " "	الهلال (مجلة)	مصر
٧٨)	" " " "	بناة النهضة	مصر ١٩٥٧
٧٩)	امين سعيد	الثورة العربية الكبرى	مصر
٨٠)	عيسى السفرى	رسالتي	يافا ١٩٣٧
٨١)	" " " "	فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونيه	يافا ١٩٣٧
٨٢)	خليل السكاكيني	مطالعات في اللغة والادب	القدس ١٩٢٥
٨٣)	" " " " "	حاشية على تقرير لجنة النظر في تيسير	القدس ١٩٣٨
		قواعد الصرف والنحو والبلاغه	
٨٤)	" " " " "	ما تيسر	القدس ١٩٤٣
			١٩٤٦
٨٥)	" " " " "	سرى	القدس ١٩٣٥
٨٦)	" " " " "	لذكراك	القدس ١٩٤٠
٨٧)	" " " " "	الاصول في تعليم اللغة العربية	القاهره ١٩٥٢
٨٨)	" " " " "	وعليه قس	القدس ١٩٤٣
٨٩)	" " " " "	كذا انا يا دنيا	القدس ١٩٥٥
٩٠)	شكرى خليل سويدان	تاريخ الجمعية الارتوذكسية الفلسطينيه	القدس ١٩١٠
٩١)	احمد فارس الشدياق	كنز الرغائب في منتخبات الجوائب	الاستانه ١٢٩٢

	اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان الطبع وتاري
٩٢)	ميشيل ابو شهلا	الجمهور (مجلة)	بيروت ١٩٣٥
٩٣)	محمد مفيد الشوباشي	الادب والفن في ضوء الواقعية	دار الفكر العربي
٩٤)	الأب لويس شيخو	تاريخ الاداب العربية في القرن التاسع عشر	بيروت ١٩٢٤
٩٥)	" " " " " "	تاريخ الاداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين	بيروت ١٩٢٦
٩٦)	" " " " " "	المشرق (مجلة)	بيروت ١٨٩٨
٩٧)	الدكتور خليل صابات	تاريخ الطباعة في الشرق العربي	القاهره ١٩٥٨
٩٨)	احمد رشدى صالح	فنون الادب الشعبي	مصر ١٩٥٦
٩٩)	ابراهيم صبرى	الظلال	مصر ١٩٥٨
١٠٠)	يعقوب صروف وفارس نمر	المقتطف (مجله)	القاهره ١٨٧٦
١٠١)	نجاتي صدقي	بوشكين	القاهره ١٩٤٥
١٠٢)	" " " "	تشيخوف	القاهره ١٩٤٧
١٠٣)	" " " "	تاريخ الحركة الوطنية العربية	بيروت
١٠٤)	" " " "	الاخوات الحزينات	القاهره
١٠٥)	حنا صلاح	فلسطين وتجديد حياتها	نيويورك ١٩١٩
١٠٦)	محي الدين الحاج عيسى الصفدى/	مصرع كليب	مصر ١٩٤٧
١٠٧)	محمد علي الطاهر	نظرات الشورى	مصر ١٩٣٢
١٠٨)	بهاء الدين الطباع	الكشاف (مجلة)	بيروت ١٩٢٧
١٠٩)	الفيكونت فيليب دى طرازى	تاريخ الصحافة العربية	بيروت ١٩٣٣
١١٠)	ابراهيم عبد الفتاح طوقان	ديوان ابراهيم	بيروت ١٩٥٥
١١١)	" " " " " "	شعر ابراهيم طوقان	مخطوطه ملك يوسف طوقان
١١٢)	قدرى حافظ طوقان	بين العلم والادب	القدس ١٩٤٦
١١٣)	قدرى حافظ طوقان	جمال الدين الافغاني	القدس ١٩٤٧
١١٤)	فدوى طوقان	اخي ابراهيم	يافا ١٩٤٦

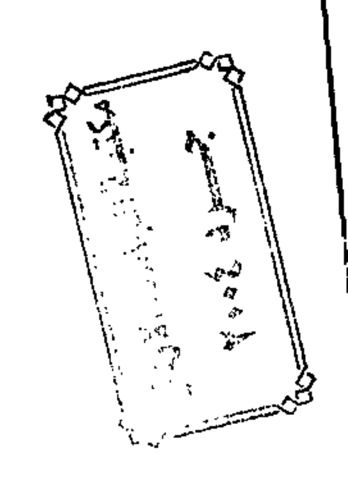
اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان الطبع وتاريخه
١١٥) اسحق طوبي	احاديث من القلب	بيروت ١٩٥٥
١١٦) عارف العارف	رؤياي	بيروت ١٩٥٧
١١٧) ابراهيم عبد الستار	شعراء فلسطين العربية في ثورتها القوميه	حيفا
١١٨) " " " "	شاعر الضفتين	لبنان ١٩٥٩
١١٩) صفي الدين بن عبد الحق	مراصد الاطلاع	ليدن
١٢٠) برهان الدين العبوشي	وطن الشهيد	القدس ١٩٤٧
١٢١) " " " "	ديوان جبل النار	بغداد ١٩٥٦
١٢٢) مارون عبود	رواد النهضة الحديثة	بيروت ١٩٥٢
١٢٣) " "	في المختبر	لبنان ١٩٥٢
١٢٤) محمد كرد علي ورفاقه	البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلاميه	بيروت ١٩١٦
١٢٥) محمد كرد علي	المذكرات	دمشق ١٩٤٨
١٢٦) عيسى داود العيسى	فلسطين (جريدة)	يافا ١٩١١
١٢٧) رشوان عيسى	الطليعة (مجلة)	بيروت ١٩٣٥
١٢٨) انور عرفات	الدمعة المنجسه في رثاء الاراضي المقدسه	
١٢٩) " " "	ولكم في القصاص حياة	بيروت ١٩٣٤
١٣٠) غرفة تجارة حيفا	المجلة التجارية	حيفا ١٩٢٥
١٣١) عمر فاخوري ورفاقه	الطريق (مجله)	بيروت ١٩٤٢
١٣٢) جون فرنفيل	الادب والفن في ضوء الواقعيه (ترجمة الشوباشي)	دار الفكر العربي
١٣٣) عمر فروخ	الامالي (مجلة)	بيروت ١٩٢٨
١٣٤) " "	شاعران معاصران	بيروت ١٩٥٤
١٣٥) سليم قبعين	حكم النبي محمد لتولستوى (ترجمه)	مصر ١٣٣٠ هـ
١٣٦) يوسف جريس قدوره	تاريخ مدينة رام الله	نيويورك ١٩٥٤
١٣٧) نجوى قعوار	عابرو السبيل	بيروت ١٩٥٤
١٣٨) احمد شاكر الكرمي	الكرميات	مصر ١٩٢١
١٣٩) " " " "	خالد (رواية معربه)	دمشق

اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان الطبع وتاريخ
١٤٠) احمد شاكر الكرمي	مي او الخريف والربيع (رواية مصرية)	دمشق ١٩٢٢
١٤١) عبد الكريم الكرمي (ابو سلمى)	المشرد	دمشق ١٩٥٣
١٤٢) الأب انستاس ماري الكرملي	نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها	القاهرة ١٩٣٨
١٤٣) لجنة تأبين عادل زعيتر	ذكرى عادل زعيتر	١٩٥٩
١٤٤) لجنة الثقافة العربية في فلسطين	الكتاب العربي الفلسطيني	القدس ١٩٤٦
١٤٥) لجنة تأبين السكاكيني	ذكرى السكاكيني	القدس ١٩٥٧
١٤٦) لجنة تأبين فوزى المعلوف	ذكرى فوزى المعلوف	زحلة
١٤٧) الاب أ٠ ب مرمرجي الدومنيكي	المعجمية العربيه	القدس ١٩٣٧
١٤٨) " " " " " " " "	هل العربية منطقية	لبنان ١٩٤٧
١٤٩) " " " " " " " "	بلدانية فلسطين العربيه	بيروت ١٩٤٨
١٥٠) الدكتور زكي مبارك	البدائع	القاهره ١٩٣٥
١٥١) المجمع العلمي العربي بدمشق	محاضرات المجمع	دمشق ١٩٥٤
١٥٢) " " " " " " " "	مجلة المجمع	دمشق ١٩٢١
١٥٣) زكي المحاسني	ابراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب	القاهر ١٩٥٦
١٥٤) معارف الكويت	محاضرات الموسم الثقافي الثاني	مصر ١٩٥٦
١٥٥) شاكر مصطفى	القصة في سورية	القاهره ١٩٥٨
١٥٦) القس اسعد منصور	تاريخ الناصرة	مصر ١٩٢٤
١٥٧) مكتب الدراسات السورية العربيه	من هم ؟ في العالم العربي	دمشق ١٩٥٧
١٥٨) عبد الرحيم محمود	ديوان عبد الرحيم محمود	عمان ١٩٥٨
١٥٩) البدوى الملثم (يعقوب العودات)	الغرانيق في شعر ابراهيم طوقان	بيروت ١٩٥٠
١٦٠) عبد الرؤوف المصرى (ابو رزق)	قاموس غريب القرآن الكريم	القدس ١٩٤٣
١٦١) رشدى صالح ملحس	سيرة الامير محمد بن عبد الكريم الخطابي/ مصر	١٩٢٧
١٦٢) عبد الله مخلص	جب يوسف الصديق وقبره الشريف	مصر ١٩٣٠
١٦٣) " " " "	بديعية العميان	القاهره ١٣٤٧ هـ
١٦٤) " " " "	صاحب مختار الصحاح	دمشق
١٦٥) " " " "	الاشارة الى من نال الوزارة	القاهره

اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان الطبع وتاريخ
١٦٦) عبد الله حبيب نوفل	تراجم علماء طرابلس الفيحاء وادبائها	لبنان ١٩٢٩
١٦٧) عيسى الناعورى	القلم الجديد (مجله)	عمان ١٩٥٢
١٦٨) النادى الثقافي العربي	الثقافة العربية (مجلة) عدد ممتاز عن فلسطين	بيروت ١٩٥٨
١٦٩) اسعاف النشاشيبي	مجموعة النشاشيبي	مصر ١٩٢٥
١٧٠) " " " " " "	البستان	مصر ١٩٢٧
١٧١) " " " " " "	كلمة في اللغة العربيه	القدس ١٩٥٥
١٧٢) " " " " " "	قلب عربي وعقل اوروبي	القدس ١٣٤٢ د
١٧٣) " " " " " "	كلمة موجزه في سير العلم وسيرتنا معه (الطبعة الثانيه)	القدس ١٣٤٠ د
١٧٤) " " " " " "	مجموعة تضم : أ ـ العربية وشاعرها الاكبر ب ـ اللغة العربية والاستاذ الريحاني ج ـ العربية في المدرسة	مصر ١٩٢٨
١٧٥) " " " " " "	مقام ابراهيم	القدس ١٩٣٨
١٧٦) " " " " " "	الاسلام الصحيح	القدس ١٩٣٨
١٧٧) " " " " " "	نقل الاديب	بيروت ١٩٥٦
١٧٨) " " " " " "	البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد احمد شوقي	القدس ١٩٣٢
١٧٩) " " " " " "	امثال ابي تمام	
١٨٠) الدكتور محمد غنيمي هلال	الرومانتيكيه	مطبعة الرسالة بمصر
١٨١) عبد الحميد ياسين	اقاصيص	يافا ١٩٤٦
١٨٢) ياقوت	معجم البلدان	ليبسك
١٨٣) يوسف ابراهيم يزبك	موئتمر الشهداء	بيروت ١٩٥٥
١٨٤) الشيخ سليم ابو الاقبال اليعقوبي	ديوان حسنات اليراع	مصر
١٨٥) " " " " " " " " "	النظرات السبع	القاهره ١٩٢٣

L I F E O F M O D E R N P A L E S- T I N I A N L I T E R A T U R E U N T I L T H E C R I S I S

A Thesis written by A. YAGHI for
the degree of Ph.D. in Literature
from Cairo University.
Advisor: Prof. Dr. Sohair Kalamawi



Contents:

S U M M A R Y

My Relation with the Research:

Since the Arab Cultural Society was formed in Palestine in the year 1945, I decided to follow and study the cultural streams and literary development of my beloved country.

The first Arabic Palestinian Book Exhibition was held in November in the year 1946 in Jerusalem. The Committee members were afraid that the project might be forgotten in the long run of time.... So a booklet for all refernces of the books, authors and the years of publication was issued.

I carried on with my studies hoping to find all the necessary material, data and sources for giving a vivid, complete and full picture of the life of modern Palestinian Literature.

I chose this topic "Life of Modern Palestinian Literature until the Crisis" for obtaining my Ph.D. degree and at the same time for the purpose of collecting the lost data of the literary life which was destroyed and wiped off by the enemy.

I confess that I found much difficulty in collecting the lost data for my study. I tried my best to make it complete and succeeded in putting my hands on much lost data, but any way the picture was not very complete.

I hope that circumstances may change and we would regain the picture full of life and expression.

My Method of Research:

I believe that a human being should strive to progress forward and never live in stagnancy or retreat backward. Creativity should be a human being's motto. Therefore, literature is a true picture that portraits the development, progress and evolution of the social movement in any society.

My References and Sources:

Any research in modern literature would not be a valid and reliable study unless it turns to periodicals, newspapers, magazines as references.

Before the year 1908, my sources of data were periodicals issued in Egypt, Lebanon and Turkey.

After 1908 I collected my data from periodicals in Palestine and the Arab countries.

I also had an idea of what the foreign missions and societies have issued in the Holy Land.

I collected data from "Who is Who" and also from the "Dictionary of Modern Arabic Writing".

I made a study in history books and geography books to give a true picture of the political, geographical and social life in Palestine. .

Finally, I contacted living authors and took some information from them either by interviews or by correcpondence.

Conclusion:

The literary life in Palestine has had certain features that were coloured by and derived from her long, long struggle against imperialism. Besides having general qualifications that have been common with those of the Arab countries around her.

Palestine has derived her inspiration in literature from the many experiences of the Arab sisters around her and of the experiences of other nations.

Palestine's cultural revival was delayed a little from the beginning of other renaissances due to political and social circumstances. The literary life in Palestine has won vigour and vividity and has become more mature due to this simple delay in time.

Palestine has opened her arms and self to the cultural aspects of the civilized world. She has been inspired by literary principles that harmonize with her own life and civilization. She has neither been inspired by the loose and deformed literary trends nor has fallen in currents of literature that have gone away.

She has chosen progressive, revolutionary and building up factors that push life forward and never pull it backward.

Palestine's literature has never gone astray or separated itself from life except for a very short while, but has carried fully her positive role in life.

All literary streams were represented and transfigured in the literary life in Palestine.

Poetry started with simple eulogy and took Praise as a crutch for a short period of time. Then it participated in struggle, launched into life and adapted itself to the requirements of the masses. So it developed in form from prediction into representation.

Poetry has been able to represent the mental conflict and to mix emotions with reason without showing any signs of split personality.

Schools of Prose felt their streams and knew their goals in life. Each school marched with the building up streams of life. So the old School of Prose and the new School of Pr[illegible] were moving forward with life assisted by the struggle factor that pushes every thing forward. Originality was the main attribute of these two schools.

Story writing began with anecdotes and short narratives. Then it participated in life and represented all the storical streams.

Translation helped literary life in Palestine to come in contact with the world masterpieces.

So story revival began sane and wholesome.

Romanticism has been mostly positive and it led to Realism.

Revival and vigour in the literary life led to revival and vivacity in the life of <u>Criticism</u>. Schools of Criticism had clear attributes.

Linguistic life in Palestine had linguists who participated in solving linguistic problems that had been inherited in Arab heritage.

So, it has become clear to us that our aim was not to beautify an ugly face or to show false facts. But we have shown an original literary life that deserves to carry on its role in life.

We hope to work and work until we find the missing features in the picture of the lost life of this beloved country hoping that circumstances would change and we would see the picture of this beloved life vivid and expressive.
